

الأجنحة السوداء

الأجنحة السوداء

وائل الشيمي

تصميم الغلاف: أحمد الصبّاغ

رقم الإيداع: 2018/ 23931

I.S.B.N:978- 977-6640-31-3

الطبعة الأولى 2018م



للنشر والتوزيع

الإدارة: 17 ش عزت باشا المطرية، القاهرة.

المدير العام: آية سعد الدين

مدير النشر: د. رامي عبد الباقي

شؤون إدارية: رقية عبد الله

هاتف: 01099387500 - 01147633268

E – mail: zeinpublish2017@gmail.com

Facebook: Zein Publish

جميع الحقوق محفوظة ©

وائل الشيمي

الأجنحة السوداء

رواية



الإهداء

إلى أبي... الشجرة العظيمة التي آوى إلى ظلها لأحتمي فيها من
نوائب الدهر...

إلى أمي... الشمعة المقدسة التي أضاءت ظلام حياتي...

للعطاء صور لا تحصى وفيكما العطايا كلها..

ماذا أهديكما وأنا لا أملك سوى الكلمات، ملأت الدفاتر جميعها،

لكن مشاعري نحوكما أكبر من أن أخطها على الورق...

أدعو الله أن يبقيكما ذخرا لي، ولا يحرمني حبكما وحنانكما....

أشعر أن الموت يقترب مني رويدا رويدا. ألمح على البعد ملك الموت بأجنحته النورانية ومنظره المخيف وهو يدنو بخطاه الحثيثة ليقبض روحي، أكاد أسمع خطواته، أحس بالاختناق وكأن شيئا ثقيلا يجثم على صدري، الخوف يملكني وأنا أتخيل تلك اللحظة التي هربت منها دائما، لم أخف طوال حياتي، ولم أعرف من قبل مثل هذا الشعور الذي يعتري البشر أجمعين، شعور الفزع والخشية من الموت، أما الآن وأنا في انتظاره اعتقد أن شعور انتظار الموت لهو أشد قسوة من الموت نفسه.

لا أدري كم تبقى لي من الوقت في هذه الحياة، ربما أيام، وربما ساعات، لا أدري في الحقيقة لكن ما أعرفه جيدا أنه لم يتبق لي الكثير، وها أنا الآن أجلس على مقعدي الوثير أمام الشاطئ ونحن على مشارف النهاية، بعد أن أتممت مهمتي على أكمل وجه، أعود بذاكرتي للوراء إلى تلك السنوات القاتمة التي اتشحت فيها سماء الأرض بوشاح من السواد مما فعلته أيادي البشر، أنا لن أكذب عليكم فليس هذا وقتا للكذب وأنا على بعد خطوات من الموت.

لقد قررت أن أكتب القصة، ولسوف أسردها عليكم كما حدثت، لن أرومها منذ البداية بكل تأكيد، فالبداية الجميع يعرفها جيدا، لكنني سأقص ما قبل النهاية بقليل، سأحكي لكم عنها كما عاصرتها، وكما عايشت أحداثها بنفسني ورأيته بأمر عيني، سأنقلها بكل أمانة وبكل حياد، وسأحاول كذلك ألا أطيل عليكم لأن الموت يقترب.

وقبل أن أشرع في قصتها عليكم، أريد أن اعترف لكم أنني ما كتبت إلا لثلاثة أسباب أولهم لعل الكتابة تلهيني عن ذلك الشعور المرعب الذي يعتريني، وتشغلني عن تلك الأفكار المريبة التي تجتاح عقلي، وثانهم أرغب أن أكفر عن ذنبي وما اقترفته يداي من قبل، وثالثهم أتمنى أن تُخلد ذكري على هذه الأرض بعد أن أرحل بعيدا.

لقد أطلت عليكم كعادتي، دعوني الآن أحكي قبل أن ينقضي الوقت، ويأتي المهلك فينتزع مني حياتي التي لا أملك غيرها الآن.

المكان: بقعة ما على الأرض

الزمان: ما قبل النهاية

دخل آدم القصر مهزولاً تعتريه مشاعر الخوف والقلق. تتسارع نبضات قلبه بعد أن سمع بهذا الخبر المشئوم. صعد السلم وما أن وصل إلى غرفة أبيه حتى تثاقلت قدماه ولم تعد قادرة على حمله، توقف فجأة حينما أبصر الحشود الملتفة حول الجسد الملقى أمامهم في سكون بعد أن خطفته المنون.

كانت الوجوه الحزينة تبوح بما تخفيه الصدور من الألم، والعيون تنساب منها الدموع من الأسى، وقف مذهولاً لبرهة من هول ما يراه. ثم انطلق يخترق صفوف الجمع إلى أن وصل إلى الجسد، جثا على ركبتيه أمامه وهو يرنو إليه، والدموع تنهمر من مقلتيه فسقطت دمعة ضلّت طريقها من بين الدموع على الجثمان، وعندما رآته أمه المكلومة، اقتربت منه وربتت على كتفيه، التفت وراءه فقال لها وهو يمسح الدموع ببديته: لقد مات أبي.....

قاطعته الأم وقد أخذت على فمه واحتضنته قائلة: لا لم يمّت.

كان الجميع من أقارب وأصحاب يقفون في صمت ملتفين حول جسد الميت في خشوع وسكينة انتظاراً للحظة حمل الجثمان إلى مثواه الأخير، كانت نظرات الجميع تحمل الخشية والهيبة احتراماً لجلال الموت، وفي تلك اللحظات الصامتة تطلعت الوجوه الحزينة إلى آدم. عندما اقترب منه خاله وأخرج من جيبه مفتاحاً وأعطاه إياه وهو يقول له: هل لي أن أعهد إليك بمهمة؟، فأنت الآن أصبحت رجلاً...

استوى آدم واقفاً ثم أزاح الدمع جانباً وقال لخاله وهو ينظر إلى المفتاح: ما هذا؟

- هذا مفتاح مقابر العائلة... وعليك أن تذهب الآن إليها لتجهيزها حتى ننقل إليها جسد والدك، ولن يفعل تلك المهمة سواك، فهيا الآن أيها البطل.

لم ينبس آدم بكلمة، بل أخذ المفتاح وانطلق يحدس في سيره حتى وصل إلى المكان المنشود أمام مقابر ضخمة ذات بوابة حديدية كبيرة تحفها الأشجار من جميع جوانبها، ولما رأى القبور المترصة في تلك البقعة أمامه تمهل في مشيته، ودار في خلدّه كيف أن والده سينتقل إلى هذا المكان للأبد؟.

انتابه الفزع وبدأ العرق يتصبب منه لتلك الخاطرة، حاول جاهدا أن يُبعدّها عن عقله، وأن يُفكر فقط فيما أتى فقط من أجله، وبعد لحظات تمالك أنفاسه، وألقى نظرة حوله فلاح له هدوء غريب يجثم على المكان، إنه هدوء الموت ذلك الذي أكسب المكان جلالاته ورهبة.

أخرج آدم المفتاح ووضع في ثقب مرتاج البوابة الحديدية فانفتح الباب على مصراعيه، عبر البوابة الضخمة متجها ناحية القبر الذي سيُدفن فيه والده، جلس لبرهة أمام القبر قبل أن يفتحه والأفكار مازالت تطوف برأسه في عشوائية شديدة، تفكر فيما يفعله هنا في القبور وتساءل أمات والده بحق؟! أم هي الصدمة قد أطاحت بتلابيب عقله.

حتى الآن لا يُصدق بأن والده قد وافته المنية وأنه لن يراه مرة أخرى، كانت الدموع تنساب على وجنتيه كانسياب الأفكار الغريبة عن الموت في عقله، مسح دموعه وتقدم بخطى متأنية حتى دنا من القبر، انحنى وخفض رأسه ليفتحه، وما أن فتحه حتى انطلق من داخله تيار شديد من الهواء الجاف الحار أطاح به أرضا، تلفت يمينا ويسارا بعد أن سقط على الأرض وهو يشعر بقشعريرة تسري في جسده فارتعدت على إثرها أوصاله، وعلى الرغم من شدة حرارة الجو في ذلك اليوم إلا أن جسده كان باردا من الخوف.

حاول أن ينهض من مقامه هذا ليُكمل مهمته في تحضير القبر فإذا به يلمح على مدى البصر شيخا بهي الطلعة قد أوغل في السن، يرتدي حلة بيضاء فضفاضة تظهر وكأن نورا يشع منها، كانت لحيته البيضاء تسدل في نعومة وانتظام وقد اكتست قسما وجهه بأثر من آثار الزمن الغابر.

اقترب منه الشيخ وهو يمشي الهوينى ومد إليه يده ليتشبث بها وينهض من مكانه، ولكنه خشى أن يُبسط للشيخ يده، كان الرعب قد سيطر عليه مما زاد معه خفقان قلبه، وتجمدت أطرافه رغم قيظ ذلك اليوم، أراد أن يستعيد رباطة جأشه، فاستند إلى الحائط المجاور له حتى يستطيع أن يهب معتدلا، وبعد معاناة استوى واقفا وشرع ينفذ الغبار من ثيابه، أبصر المكان حوله

ثانية فوجده مقفر مابرح يسوده الهدوء والسكينة ولا أثر يُذكر لذلك الرجل الذي رآه لتوه، أراد أن يطرد شبح هذه الأفكار المخيفة خارج رأسه ويفكر في شيئاً آخر، تطلع إلى الأشجار الكثيفة الأغصان التي ترفرف على المكان فتعطيه لمسة من السحر وقد عادت نسمات الهواء الرقيقة لتخفف من حرارة اليوم، أغمض عينيه واستقبل تلك النسمات فسرت في نفسه راحة قلما تعتري أحداً في مثل ظروفه تلك.

طافت الأفكار في رأسه مجدداً وهو مُغمض العينين حول ذلك الشيخ وتلك الخيالات التي رآها منذ قليل، تفكر قليلاً إلى أن أدرك أن الإرهاق الشديد الذي أصابه في هذا اليوم هو ما نسج له تلك الأوهام، وفي خضم هذه الأفكار نسي ما هوأت لأجله.

انتبه فجأة للقبر المفتوح أمامه وبدأ يللم شتات نفسه، ألقى نظرة عن قرب عما بداخل القبر وبعد أن زالت غشاوة الدخان الذي صنعه الغبار إذا به يرى بعض الأكفان البيضاء ملتفة حول بعض الأجساد المنتظمة في تتابع داخل القبر فتذكر على الفور حادثة الطائرة المؤلة التي أودت بحياة الكثير من أقاربه الذين كانوا على متنها، وفي تلك اللحظة شرد ذهنه وهو يتخيل نفسه في يوم من الأيام غير ما هي عليه الآن، وما سيحدث لها بعد أن تترك نور الشمس وتدخل إلى عالم الأموات المظلم.

أمد يده إلى تلك الأكفان يحركها فلم يجد بداخلها سوى هياكل عظمية على نفس الوضعية التي دُفنت بها، هم يُزج هذه الهياكل ليُفسح مكاناً لجسد والده القادم وما أن أمسك بتلابيب الهياكل حتى تفتتت في يده وأمسّت رماداً، بحث عن شيء ليستخدمه في إزاحتها لكنه لم يجد، اضطر لاستخدام كلتا يديه، خر على قدميه أمام القبر وأمد رأسه داخله حتى جمع شتات ما تبقى من رماد الجثث وذهب بها إلى ركن مزوي داخل القبر، ولما انتهى من عمله نهض من مكانه فاصطدمت رأسه بشيء وراءه، عاوده الخوف من جديد ودب الرعب في جسده والتفت خلفه بسرعة فإذا به قد اصطدم بغصن شجرة فاطمأن قلبه وتنفس الصعداء، ولكن سرعان ما تبددت الطمأنينة وعاد قلبه ليخفق بشدة عندما نظر أمامه فوجد الشيخ العجوز يقف مبتسماً.

اقترب منه وحاول أن يُمسك بجلبابه ليتأكد من أنها ليست إلا خيالات، وحينما اقترب أكثر وبسط يده إلى الجلباب وجد نفسه مُمسكاً بالهواء، وإذا بالشيخ مازال ماثلاً أمامه ينظر إليه لكنه لا يستطيع أن يمسه، أوجس في نفسه

خيفة وبدأ يتهته في حديثه وهو يسأله: م.. ن... أ.. ن...ت؟ فأجابه العجوز بصوت رخيم: أنا الحارس فسقط مغشيا عليه.

حضر الأقارب بجسد المتوفي إلى المقابر بعد أن تمت عملية الغسل والكفن والصلاة على الميت، وبعد أن عبروا البوابة الرئيسية المفتوحة على مصراعها وضعوا التابوت المحمول على الأعناق أرضاً، وأداروا وجوههم جهة العين المفتوحة عن آخرها فإذا بهم يُبصرون آدم على البعد يقف متحجراً جسده، وعيناه شاخصتان نحو شيء ما وعليه آثار الغبار، بدا لهم وكأنه قد بُعث بعد موته. نظروا إليه في دهشة فإذا به أشعث الشعر مصفر الوجه يملأ الرغام وجهه وملابسه.

انطلق الجمع نحوه في فزع وقد أذهلهم ما رأوا، حاولوا أن يستنطقوه فلم يُجب، اقترب منه خاله وأمسك بجسده، وأخذ يهزه هذا عنيفاً حتى أفاق وعاد إلى رشده، ثم أحضر أحد الأشخاص الذين جاءوا لحضور مراسم الدفن كوباً من الماء وأعطاه لخاله الذي شرع يمسح على وجهه بالماء فانتبه آدم من غفلته، ورمى ببصره إلى الحشد المجتمع وقد خارت قواه وأوهنه الحزن، ثم أشاح بوجهه ناحية التابوت الملقى على الأرض في انتظار إخراج الجثمان لكي يحثو عليه التراب.

بدأ أحد الحضور في لحد القبر لينتقل الجسد بعد ذلك إلى ذلك المكان الفاصل بين عالم الفناء وعالم الأبدية، عاد آدم لشروده ثانية وهو ينظر في دهشة لما يفعله القوم بجسد أبيه الذي سيوضع الآن على محطة الانتظار كي يأتي القطار ليحمله إلى عالمه الأبدى، وقد خطرت بذهنه خاطرة لا يدري من أين واثته، تفكر فيما إذا كانت هناك حياة أخرى تنتظره بعد أن سكن الجسد سكون الموت أم أنه العدم؟!.

فلم يمت أحد من قبل وعاد من موته ليُخبرنا ماذا يوجد هناك؟ وماذا حدث له بعد موته؟! أم أن نهاية الحياة هي العدم، وإن كانت النهاية عدماً فهل من معنى لتلك الحياة على هذه الأرض البائسة بكل ما فيها من مأس، قال محدثاً نفسه: لو الفناء كان النهاية الحتمية لجميع البشر، فتبا لتلك الحياة!.

تلك الهواجس والتساؤلات دارت في خلد آدم عندما رأى جسد أبيه لا يُحرك ساكنا ولا قدرة له ولا حول ولا قوة. أخرج الحشد الواقف الجسد الملتف بالكفن من التابوت لتبدأ المرحلة الأخيرة لرحلته في الحياة. وبدأت مراسم الدفن فأداروا الجسد إلى جهة العين وأدخلوه القبر وألقوه في الرغام حتى توارى الجسد عن العيون وبعدها أغلقوا القبر.

وقف الجميع في خشوع بعد أن رُمس الميت وقاموا بتلاوة بعض الآيات والصلوات ثم هموا بالانصراف، حاولوا أن يأخذوا آدم معهم عاندين إلى الديار لكنه أبى أن يذهب وطلب منهم أن يتركوه مع والده للمرة الأخيرة. تفهم الجميع رغبته في أن يبقى تلك اللحظات الأخيرة أمام قبر والده لينهل منها زاده الذي سيعينه على الفراق ومواصلة الحياة مرة أخرى.

عاد آدم ليلقي نظرة نحو القبر بعد انصراف الحشد، ونظرة أخرى نحو الفناء الشاسع الذي يحيط بالقبور، ونظرة ثالثة على تلك القبور المترصة، وفي تلك اللحظة المهيبة الصامتة رأى ذلك الشيخ بعد أن غاب عنه وقت دفن الجثة، أو لعله كان حاضرا وقت الدفن وآدم منشغل عنه فلم يره، أنعم النظر إلى وجهه ليحفظ تلك الملامح والقسمات، راح يقترب من ذلك الجسد اللطيف الذي ظهر أمامه من العدم، اطمأن قلبه وشعر بالسلوى والطمأنينة وحاول أن يُقنع نفسه بأن ذلك الشيخ ما أتى إلا ليؤنس وحدته بعد أن فارقه أعز إنسان إلى قلبه، دنا منه أكثر حتى بدا له أن ليس بينه وبين الشيخ سوى بضع خطوات قليلة فإذا به يُصيبه دوار وقد ران الكرى على أجفانه فغلبه النعاس فنام.

وجد آدم نفسه أمام معبد ضخم بابه عبارة عن مرآة كبرى، توقف لفترة أمام المرآة ينظر فيها وكلما أطال النظر إليها رأى صورته في المرآة وقد تبدلت ملامحه بملامح ذلك الشيخ الذي ظهر له في القبور، وكلما اقترب أكثر، تنمحي صورته رويدا رويدا، اجتاحه حينها شعور بأنه لا يرى نفسه كما هي في الواقع، وإنما صورته على ما سوف تكون عليه عندما يمر به العمر، قرر أن يخترق المرآة ويجازف ليدخل إلى ذلك المعبد، وعندما دنا من المرآة حدث أن شعر بقوة تشده إلى الداخل لتجتاز به البوابة، ولما تخطى البوابة إذا به يرى نفسه في الداخل مجرد كيان أسود بلا ملامح، ورأسا بلا وجه ولا عيون.

كانت المرآة بابا مفتوحا على العالم الآخر، لقد محى الظلام هويته وهو الآن في طريقه إلى الاختفاء، كان يرى بوضوح على الرغم من أنه لم يك يملك عيونا في هذا المعبد، بدأ يمشي على هونه داخل المعبد، وما أن أضى في وسطه حتى

وجد نفسه محبوسا داخل متاهة من المرايا الزجاجية، وفي المرايا عادت إليه صورته البشرية وهي تنعكس متعددة متوالية متداخلة، هب يركض في أروقة ذلك المعبد وصورته تسير معه أينما حل، حتى أصابه التعب وتملكه الفتور فتوقف مكانه، أبصر المرايا ثانية فلم يجد فيها صورته لكنه قد رأى بشرا خارج المتاهة، أراد أن يتواصل معهم لكنهم لم يعيرونه أي اهتمام أو لعلهم لم يروه أصلا، كان زجاج المرايا يحول بينه وبين التواصل معهم، حاول جاهدا أن يجد مخرجاً من تلك المتاهة الشنيعة فلم يجد حتى أصابه الإعياء والملل ودار عقله، فصرخ صرخة مدوية اهتزت على إثرها حوائط المعبد فتكسرت الحوائط الزجاجية، لكنه لم يجد البشر الذين كان يحول بينه وبينهم الزجاج، ولكنه وجد على مدى البصر نورا يتلألأ بهائه في هذا الظلام الدامس، فاقترب منه على حذر وما أن وصل إليه حتى عشت عيناه من فرط الضياء، فأغمض عينيه، وشعر بالسكينة والهدوء تجتاح روحه الهائمة، وفي سباحات هذا النور شعر وكأنه يمثل أمام الإله الذي لا يرى لكمال نوره.

أفاق آدم من حلمه فوجد نفسه مازال أمام قبر والده، وأدرك أن كل ما رآه إنما هو حلم، استجمع شتات نفسه ونفض التراب عن ملابسه ثم رحل مغلقاً بوابة القبور وراءه.....

أمام قصر مهيب يتألف من دورين تعلوه بعض القباب، يبدو وكأنه قصر لأحد أمراء الزمن الغابر، تتقدمه حديقة غناء تُحيط بها الأشجار الكثيفة والأزهار الفواحة، وقد التفت بطريقة دائرية حول القصر مما أعطاه كثيراً من البهاء، يتوسط تلك الحديقة مسبح صغير وعلى إحدى جانبيه قاعدة حجرية، كانت الطيور تختلِف على أشجار الحديقة، لكن زقزقتها التي كانت تملأ المكان لم تعد لها وجود، وسكت غناؤها في ذلك اليوم الحزين.

كان حشد من البشر مجتمعين أمام بوابة القصر في حالة من الصمت وقد اعتلت الوجوه الشاحبة ملامح الحزن، والدموع الحزينة تترقرق من العيون الشاحصة النازرة إلى الطريق المعبد والتي حوطته الأشجار من أحد جانبيه، أما الجانب الآخر فتتراص المنازل في تناسق وترتيب.

كانت العيون تنظر إلى الطريق وكأنها في انتظار شيء ما، وعلى البعد لمح الناس أقارب المتوفي آتية بعد أن حملت الجسد إلى مثواه الأخير وواروه التراب،

وشينا فشنا اقتراب القادمون من المعزين الذين تجمعوا أمام القصر للمواساة وتقديم واجب العزاء وبعد التحيات وتبادل الأحضان تماسك الجميع وساروا بخطوات وثيدة إلى داخل القصر الذي كان يحمل لافتة "قصر المهندس نبيل".

أمام باب القصر المفتوح على مصراعيه كانت زوجة المهندس نبيل تقف منتظرة حضور الجميع، وقد ارتدت ثوبا فضفاضا تتدل أطرافه على الأرض، وعلى خديها أثر من آثار الدموع التي أزاحتها من على وجهها لتظهر بمظهر قوي أمام المعزين، حياها الجميع ثم اصطحبهم إلى داخل القصر من خلال بهو عظيم يفضي إلى ردهة كبيرة في إحدى جوانبها بعض المقاعد الوثيرة، وعلى الجانب الآخر مدفأة عظيمة ذات نقوش ترك أثرا مريحا في النفوس، وعلى الحوائط مجموعة كبيرة من اللوحات الفنية لكبار الرسامين موضوعة في تناسق ونظام أن دل على شيء فإنما يدل على سمو الذوق وحب الجمال، تنتهي الردهة بسلم يربط بين الدور السفلي من القصر بالدور العلوي.

اتخذ الجميع مقاعدهم وجلسوا في سكون، وجلست الزوجة المكومة على مقعد يتوسط مقاعد الحضور، خيم على الجميع صمت لم يقطعه سوى بعض أحاديث المواساة والتعازي، تحركت الخادمة لتقديم أفداح القهوة، بادرت الزوجة الأقارب بالسؤال عن سبب عدم مجيء ولدها آدم معهم فأخبروها بما حدث، فقالت لهم: كان شديد الارتباط بوالده ولا أعلم كيف سيجتاز هذه المحنة.....

أخبرها الجميع بأن الوقت كفيل بذلك، وبعد فترة استأذن الجميع بالانصراف، فنزلت على إرادتهم وقامت بتوديعهم عند باب القصر وعادت إلى مقعدها.

جلست شاردة الذهن فطافت برأسها تلك اللحظات التي عاشتها مع زوجها في سعادة وهناء تارة، ولحظات من التعب والشقاء تارة أخرى، كانت كلما أشاحت بوجهها إلى ناحية ترى بصمة له فيها، فتلك أريكته التي أحب الجلوس عليها، وهناك كان يقف أمام مكتبته العظيمة ليختار كتابا ليقراه، وعلى مكتبه كان يجلس دائما ليرسم تصميماته للأبنية الرائعة الجميلة بحكم عمله كمهندس معماري.

عادت بذاكرتها بعيدا حيث أيام الصبا حينما تعرفت عليه وكان شابا يلتمس طريقه وهو فقير معدم حتى ثابر وكد وتعب إلى أن وصلا إلى ما هم عليه الآن من الثراء ورغد العيش، ورأت لحظات اللقاء ماثلة أمامها عندما كانوا

يتواعدان على شاطئ البحر ذلك المكان الذي كان يجتمعهما دائما في سنوات الشباب.

تذكرت كذلك المرة الأولى لهما عندما حضرا إلى ذلك المكان وقد كان خاليا إلا من قصر مهيب أعلى الجبل في هذه المدينة. راحت تستعيد ذكريات ذلك اليوم الذي جاءت فيه هي وزوجها إلى هنا قبل أن يُصبح هذا المكان مدينة تمتلئ بالبشر، حينها كان المكان مجرد صحراء تمتد على مدى البصر يتخللها بعض الجبال وقد أكسبته أشجار الصفصاف المنتشرة فيه جمالا وروعة، كما كان هناك ذلك النهر الصغير في بقعة من بقاعه السحرية.

كانا في رحلة ولم تك معهما خريطة للمكان، نفذ وقود السيارة فتوقفا في مكان قريب من قصر الجبل، ثم تابعا رحلتها سيرا على الأقدام، شعرا وقتها بأنهما قد ضلّا الطريق، فسارا على غير هدى، وبدأ هطول المطر بغزارة على تلك البقعة، فملأت رائحة المطر أرواحهما الهائمة نشوة وبهجة، أسرعوا في مشيهم حتى قادتهما أقدامهما إلى أعلى الجبل عند شجرة الصنوبر القديمة الجافة، فاحتما بظللها، وفي تلك اللحظة سطعت الشمس وتوقف المطر، وعادت الشمس تملئ الأفق نورا وضياء.

وقعت أعينهما على ذلك القصر القديم الواقف في شموخ، فنظر إليه نبيل وقد شعر بالحزن عندما رآه، ولما رأت زوجته الحزن يكسو وجهه البشوش سألته عن سر حزنه فأخبرها بأنه يشعر بالحزن لأنهما لم يعيشا هنا في ذلك البيت الكائن تحت شجرات الصنوبر والقريب من ذلك النهر الجاري، كم كان جميلا ذلك الشعور الذي شعرا به حينما تخيلا أنهما يعيشان في هذا المكان، وأدركا أنهما لن يكونا سعداء إلا إذا عاشا هنا حتى يغتالهما الموت.

لقد سحرهما المكان، فنظرة إلى جمال البيت في هذه الطبيعة الخلابة كانت كفيلة بجعلهما لا يستطيعا الابتعاد عنه، فهنا السلام والهدوء والطمأنينة، ابتغيا أن يسألا ساكنيه إذا كانوا يريدون أن يبيعوه لهما، ولكنهما لم يجدا أحدا يسكنه.

مرت سنوات طويلة حتى كوّن نبيل ثروة لا بأس بها وكل ما يشغل تفكيره هو أن يأتي إلى هذا المكان ويبني فيه قصرا كالذي رآه أعلى الجبل، وبالفعل بنى قصرا كما يريد، وكان يرى أن العمارة تحتاج إلى فن فاهتم باللمسات الجمالية، واضعا بصمته في كل أعماله حتى أتى الناس من كل حذب وصوب وأصبح

المكان مدينة عامرة بالسكان، ومن صمم المدينة كان هو المهندس نبيل نفسه
لقد صممها آية في الجمال والروعة.

راحت تتذكر تلك الأيام وعيونها تفيض من الدمع، كم كان رقيقا معها حنوننا
عليها يستقبل سوررات غضبها بقلب كبير، كان يعيشان في حب حتى تُوجت ثمرة
هذا الحب العظيم بميلاد آدم بعد معاناة كبيرة استمرت أعوام كثيرة، فلقد
توفي لها الكثير من الأطفال قبل ميلاد آدم حتى أتى أخيرا إلى النور فكان قرة
أعينهما، ارتبطا به كثيرا، وعلمه والده الكثير من فنه وعلمه الغزير، كما غرس
فيه حب المطالعة والعلم والفن، وأهم من ذلك كله هو حرية التفكير وإعمال
العقل فكان يُجيب على جميع أسئلته التي كانت أمه تنهره بسببها كمن خلق
الإله؟، وماذا بعد الموت؟ وغيرها من الأسئلة الشائكة التي يتهرب من الإجابة
عليها الأباء والأمهات، لكن نبيل كان يُجيب على كل أسئلته فزرع فيه حب
المعرفة والحرية.

كل تلك الأفكار كانت تدور في خلد الأم حتى أيقظتها من غفلتها طرقات
الباب، تقدمت الخادمة لتفتح الباب، ونهضت الأم بدورها حتى يتسنى لها
استقبال الطارق، وما أن فتحت الخادمة الباب حتى وجدت آدم ماثلا أمامها
وهو يبكي فهرولت الأم ناحية الباب، احتضنت الابن في لهفة والدموع تنساب
على وجنتيها في لوعة، وهذأت من روعه ثم أخذته من يده واصطحبته إلى
الداخل، وراحت تسأله عما أصابه فشرح لها ما رآه وهو يبكي على فراق والده
الحبيب، وبعد أن أفرخ حزنه نظرت الأم إلى ثيابه المعفرة برغام القبور فطلبت
منه أن يذهب ليغتسل ويرتدي ثيابا أخرى.

سار بخطى ثابتة صاعدا السلم حتى وصل إلى غرفة الاستحمام وبعد أن
انتهى وقف لبرهة أمام باب الغرفة المقابلة للحمام مشئت الوعي حتى أدرك أنه
أمام غرفته الخاصة، أدار مقبض الباب وولج الغرفة، كانت الغرفة مازالت
تفوح منها رائحة العطر الخاص بوالده فقد كان دائم المكوث معه في غرفته،
وفي مقابلة باب الغرفة كان هناك مكتب صغير عليه عدد من الكتب الدراسية
الخاصة بمدرسته العليا وبعض كتب الفنون والرياضيات مازالت مفتوحة،
بجانب المكتب وعلى الحائط المجاور له يوجد بعض الرفوف المتراسة فوق
بعضها البعض وعلى أظهرها الكثير من الكتب في مختلف مجالات المعرفة وقد
علاها الغبار لانصرافه عن القراءة في الآونة الأخيرة لتحصيل دروسه، أمام تلك

الرفوف يقطن سرير خشبي تعلوه بعض النقوش البسيطة وبجانبه صوانة يعلوها نافذة صغيرة تُطل على حديقة القصر وأمام السرير مرآة كبيرة.

جلس آدم على حافة السرير واضعاً مرفقيه على ركبتيه وقد أخفى وجهه بكلتا يديه ليُخفي بها دموعه الحائرة.

بعد مرور الوقت على هذا الوضع أزاح آدم الدمع جانباً واستوى واقفاً ليتجه ناحية المكتب، قام بفتح الدرج وأخرج منه مجموعة الصور التي تجمع بين دفتها ذكرياته مع والده. وبدأ يقلب الصفحات فتوقف عند صورة له يحمله والده على كتفيه عند ضفة النهر، وأخرى وهم يلهون ويمرحون تملؤهم السعادة والفرح في لحظات قلما تجود الحياة بمثلها، وفي تلك اللحظة شعر آدم بيد رقيقة تربت على كتفه في حنان ثم طوقت الذراعان كتفه في دفء فرجع ببصره إلى الوراء فإذا بالأم قد دخلت عليه ولم يشعر بقدمها فقام من مقعده واحتضنها بقوة مفرغاً في حضنها ما ألم به من حزن وهم.

جلست الأم تتحدث إليه في مواساة قائلة له: أنت الآن عماد ذلك المنزل فلتكن مثل أبيك، كان أبوك يرى أن في الموت راحة عظيمة لا يُدركها إلا الموتى فلا تجعل موت أبيك يؤثر على حياتك، فعليك أن تتقبل الأمر ولا تجعله يحول بينك وبين سعادتك تلك كانت أمنية والدك قبل أن يموت

رد عليها آدم في خضوع: لا تقلقي عليّ يا أمّاه

ضغطت الأم على يده بشدة وقالت: أنت الآن ولدي بحق

كانت الأم حينها خائفة بشدة على ولدها فمصابه جلل لأن علاقته بوالده كانت قوية وارتباطه به كان عظيماً، نهضت الأم معلنة الانصراف، وقد طلبت من آدم أن يخلد إلى النوم لينال قسطاً من الراحة بعد ذلك اليوم العصيب فرضخ لطلبها وهمت بالانصراف، لكنها تذكرت فجأة أن تقول له شيئاً فتوقفت على عتبة الغرفة وقالت له: كدت أن أنسى لقد أتى صديقك ميلاد وجايكوب ليُقدِّموا لك واجب العزاء وأنت في المقابر وجلسوا معي لبعض الوقت، ولما تأخرت عن الحضور انصرفوا وقالوا أنهما سيعودان غداً...

رد عليها بإيماء وتركته الأم، أطفأ أنوار الغرفة واستلقى على فراشه وهو يفكر حتى غلبه النوم.

نهض آدم من سباته في صباح اليوم التالي، تناول إفطاره مع والدته ثم خرج إلى حديقة القصر، جلس هناك على المقعد الحجري أمام المسبح الصغير يتأمله فمازالت صدمة وفاة والده تطغى عليه فشرد بعقله عائداً إلى تلك الأيام التي كانت تجمعهم بأبيه، والتي كان يشعر فيها بالسعادة قبل أن تحل عليه تلك النازلة، فهو لم يتذوق طعم السعادة والبهجة إلا بجانبه، تشرب منه آدم كل الخصال الكريمة فعرف معنى الشرف والأدب والشجاعة والإقدام، تربى على حب الجمال والفن وكان شغوفاً بالمطالعة حتى اكتسب راحة العقل، لكنه هنا الآن وحيداً في هذه الظلمة الحالكة من الهموم والأحزان يرى على البعد تلك الأيام التي غمرتهما بالسعادة، أيام الطفولة والبهجة، ينظر الآن إلى هذه الحديقة الغناء التي كانا يمرحان فيها، وقد عادت إلى الحياة بعدما ذهب بريقها لحظة موت أبيه حزناً وهماً على فقدانه، ها هي الآن حاضرة بين يديه مشرقة ناضرة، فالأشجار التي ذبلت أوراقها عادت مرة أخرى لتزدهر وتتفتح كما الأيام الماضية حينما كان يرعاها الوالد فتبوح أزهارها بابتسامة تُنشد مكنون الجمال.

نظر آدم بأسى إلى القاعدة الحجرية التي كان يقتعدها هو ووالده طرفي النهار وتخيل والده وقد عاد من موته ليجلس بجانبه يتجاذبون أطراف الحديث، وحينما أبصر الحديقة رأى فيها التناسق والنظام فتذكر على الفور تلك الحادثة التي حدثت بينه وبين والده عندما أراد آدم أن يُفرحه ويُدخل على قلبه السرور.

في ذلك الوقت كانت تلك الحديقة مهملة جداً وفيها نمو عشوائي مفرط للأزهار، لم يكن والده يريد الاعتناء بها لسنوات طويلة كان فقط يرومها بالماء لتحيا، وفي قلب تلك الحديقة الخربة كان هناك شيء جميل على طريقتة، وعندما يكون الجو جميل كان يجلس فيها وينظر إلى جمالها الخلاب، وكان آدم لا يدرأي جمال في هذه العشوائية التي تجتاح الحديقة، فقرر في يوم من الأيام أن يفاجئ أباه وينظم أمور الحديقة فجز العشب، وأحرق الأعشاب الضارة، وشذب أشجارها، لقد أراد أن يُعيد صياغة الحديقة تبعاً لذوقه الخاص، وكان كل ذلك لإسعاد أبيه فتحمل ألماً كثيرة في سبيل إعدادها بأسرع وقت ممكن حتى انتهى من العمل وذهب للاستحمام ليجلس بعدها في انتظار قدوم والده من العمل.

توقف أمام بوابة القصر حتى حضر الوالد فطلب منه أن يُغمض عينيه وبالفعل قام بإغلاق عينيه فاصطحبه آدم إلى الداخل وقال له الآن افتح عينيك.

ففتح عينيه وألقى نظرة حول الحديقة، لكن العجيب أنه لم يفرح لتلك الفعلة الشنعاء بل على العكس إربد وجهه غضبا وأشاح بوجهه إلى الناحية الأخرى، اقترب منه آدم ليسأله عن سر غضبه فقال له: أين ذهب كل الجمال؟ أين ذهب كل ما هو طبيعي؟

أنعم آدم النظر مرة أخرى إلى الحديقة فبدت له متوحشة فيها كل الدلائل على استخدام العنف، تفهم آدم المغزى من سؤال والده، ونظر إليه فوجده يبكي فأدرك على الفور سبب بكائه واعتذر له وأخبره أنه لم يك يعرف هذا، فرد عليه الأب قائلا: كذلك مَن يدُمرون الطبيعة البكر يظنون أنهم يحسنون صنعا.. اعتذر آدم مرة أخرى إلى والده ومن يومها تعلم كيف يرى جمال الطبيعة على ما هي عليه، واكتسب نسمة من نسمات الجمال في رؤيته لكل شيء هكذا علمه والده.

كانت صور تلك الأيام تظهر حية أمام ناظره وهو لا يفكر سوى في والده الذي فارق الحياة قال له والده ذات مرة: دافع الإنسان عن نفسه دائما ضد البشر الآخرين وضد الطبيعة، ودائما ما انتهك الإنسان الطبيعة، والنتيجة حضارة مبنية على القوة والتسلط والخوف، كل هذا التقدم الذي حققناه قدم لنا بعض الرفاهية ونوعا من الآلية فحسب، كما قدم لنا آلات العنف التي نحافظ بها على القوة وأصبحنا مثل الوحوش نستخدم المجهر كهراوة..

وسكت قليلا ثم استطرد يقول: لا لا أنا مخطئ فالوحوش أكثر روحانية منا، فكلما توصلنا إلى اكتشاف علمي نضعه للاستخدام في الشر....

انتبه والده وهو يتحدث بعد أن شعر أنه يستطرد في أحاديث تفوق إدراك ولده وقتذاك، لكن صدره كان يحمل الكثير بداخله فأراد أن يُفرغ ما في صدره ثم قال: ما كل هذه الكلمات، كلمات، كلمات، كلمات، لو أن أحدا ما يستطيع أن يتوقف عن الكلام، وأن يفعل شيئا، أو أن يحاول على الأقل، لتغيرت معالم دنيانا.

كان آدم يحفظ أحاديث والده عن ظهر قلب فهو مثله الأعلى وأعز أصدقائه، لم يقطع شروده هذا سوى دخول أجدانه ميلاد وجايكوب عليه، حيا بعضهم

البعض وقدماً إليه التعازي الحارة ثم أجلسهما آدم بجانبه، وشرعاً يتحدثان حول أمور تخص مدرستهم العليا وما قد فات آدم من دروس.

قاطع آدم حديثهم قائلاً بحدة: لم يعد هناك فائدة لهذه الدراسة

رد ميلاد: لماذا تقول هذا يا آدم؟ لم نعهدك كذلك من قبل

قال آدم وقد هدأت حدته: طالما أن الموت هو النهاية الحتمية للإنسان فلماذا الكد والتعب والدراسة والعمل؟!

رد عليه ميلاد: إن للرب مقادير وابتلاءات يُصيب بها بعض عباده للاختبار فلا تجعل موت أبوك يفقدك إيمانك

كان ميلاد الصديق المقرب لآدم يمتاز بشدة إيمانه الذي غرسه بداخله أبيه راعي الكنيسة القاطنة في البلدة، وقد تلقى التعاليم الدينية الخاصة بالمسيحية من القس لوثر، فهو والده المحبوب من جميع من في البلدة لدمائه أخلاقه وطيبته ولباقة في الحديث معهم.

تدخل جايكوب في الحديث فقال: إن كنت تظن ذلك فعلى الأقل لنخرج من الحياة بمكسب فطالما أدركت أن الحياة ليس لها معنى فحاول أن تنتهي من التعليم وتعمل بوظيفة كبيرة ليتسنى لك عيش الرفاهية والرخاء.

كان جايكوب يهودي الديانة يعيش في البلدة نفسها، وهو الصديق الثاني المقرب لآدم، أبوه تاجر ذهب يمتلك الكثير من الأموال، لكنه كباقي اليهود يمتاز بالبخل الشديد حتى على أبنائه، وكثيراً ما كانت تلك المشكلة هي ما تؤرق جايكوب لضيق العيش وعدم الاستمتاع بأموال والده، لذلك قرر أنه عندما ينتهي من دراسته سيحاول أن يجمع الكثير من الأموال ويُنفقها على ملذاته التي حرمها عليه والده.

قال آدم موجها حديثه لجايكوب: أرى أنك جانبك الصواب في رأيك هذا برغم أن رأيك هذا لم ينبع إلا من بخل والدك الشديد.

ضحك الصديقان على ما قاله آدم وقرروا أن يكملوا نقاشهم في مكانهم المفضل على الربوة المطلّة على النهر في أطراف مدينتهم الصغيرة، انطلق الجميع إلى هناك والفرحة تملأ أعين صديقيه عندما شعرا أنهما قد أخرجاً آدم من حالة الحزن التي اعترته بعد مصابه، وكانت شدة فرحهما لقدرتهما على استخراج ابتسامة من شفثيه حتى لو كانت باهتة.

وصلوا إلى هناك وصعد الجميع أعلى التل واتخذ كل منهم مقعده وهم ينظرون إلى النهر وطاقفت عين آدم بعيدا في الأفق الممتد وبدأ الحديث وهو يرنو بناظره إلى النهر المنساب أمامه قائلا: هل هناك حياة بعد الموت؟

رد ميلاد سريعا وقال: بالطبع هناك وإلا فلا معنى لحياتنا هنا

فقاطعه جايكوب: أنا لا اعتقد أن هناك حياة تنتظرني بعد مماتي، فما هنالك إلا حياتنا الدنيا هذه وليس بعدها سوى العدم

ميلاد: ولماذا يا آدم تسأل هذا السؤال؟

آدم: عندما رأيت والدي وقد سكنت حركته، وفقد النطق وأطبق الصمت عليه. وأصبح جسدا لا حول له ولا قوة بعد أن كان مفعما بالحياة والنشاط والحركة انتابني شعور غريب عن الموت ومغزى الحياة، وألحّت عليّ الكثير من الأسئلة عن طبيعة الموت وطبيعة الحياة الأخرى بعد أن همد الجسد وسكن ولا استطاع حراكا..

ميلاد: اعتقد أنه شعور طبيعي بعد ما مرتت به

قال جايكوب: أرى أن لا فائدة في هذا الحديث فلنلقي هذه الأسئلة وراء ظهورنا ونعيش حياتنا فليس لنا إلا حياة واحدة لنحيهاها.

مازالوا يتناقشون عن أمور الموت والحياة حتى قاربت الشمس على المغيب فقررروا العودة جميعا إلى منزل آدم لاستقبال الناس الذين سيحضرون لتقديم العزاء لآدم، طلب من صديقيه أن ينصرفا ويعودا إلى حياتهما لكنهما أبوا أن يتركا في مثل هذه الظروف حتى تنتهي طقوس العزاء وينصرف الجميع كل إلى طريقه. وبعد أن تمت المراسم، وغادر الصديقان مع المغادرين جلس آدم أمام والدته وقد خيم الحزن على المكان وأطبق الصمت على ألسنتهم وشعر آدم بضيق صدره فاستأذن من والدته بالخروج بعض الوقت ليتنسم الهواء الطلق، وأخبرها أنه سوف يتجول قليلا ثم يعود، أذنت له الأم بالخروج على وعد بالعودة باكرا وعدم التأخير.

خرج آدم إلى الطرقات يسير هائما على وجهه لا يعلم واجهته، والتساؤلات تثور في رأسه كالبركان، وفجأة خطرت له خاطرة وهي أن يذهب إلى قبر أبيه في تلك الساعة المتأخرة من الليل اللالئ، لم يك يعلم لماذا أتت له هذه الخاطرة؟ في ذلك الوقت.

أصابته رعشة سرت في جسده عندما تفكر في هذا الأمر على الرغم من شجاعته وإقدامه، ولكي يقتل الخوف بداخله قرر أن يذهب إلى هناك على أطراف البلدة، توقف أمام البوابة الرئيسية للقبور فوجدتها مغلقة فهو الذي أغلقها وراءه عندما رحل بعد دفن جسد والده، فتش في جيبه عن المفتاح فلم يجده فتذكر أنه قد نسيه في سترته التي خلعها البارحة، تفكر قليلا فيما سوف يفعله، وفي النهاية توصل إلى أنه لا شيء سيمنعه من الدخول حتى لو كانت بوابة عظيمة مثل هذه.

نظر إلى الأعلى ناحية البوابة وقرر أن يتسلقها حتى يستطيع الدخول، شرع في الصعود حتى نزل من الجهة الأخرى إلى أن وطئت قدماه أرض المقابر، وبرغم أنها لم تك المرة الأولى التي يزور فيها المقابر إلا أنه هذه المرة شعر بأنه يراها لأول مرة، ورغم أن القمر قد بسط أشعته الفضية على المكان فأضاءه، إلا أنه ما رأي أشد منها سوادا تلك الليلة، فدياجير الليل قد أحفته من كل جانب، نظر حوله فلم يجد إلا سكونا رهيبا، ذاك هو صمت القبور، استنشق نسمات الهواء فوجدتها تمتلئ برائحة القبور التي يعرفها جيدا، ويميزها عن أي رائحة إنها رائحة الموت، قال مخاطبا القبور المتراسة أمامه بصوت جهور: ما أعظم صمتك! وما أعظم ما تخفيه أيتها القبور!.

فتردد صدى صوته في المكان.

سار بخطى مترقية، وبدأت أولى خطواته وكأنها الدهر بأكمله، تساءل في دهشة عما أصاب قدميه وما أثقلها الآن، إنه لا يعلم ما ينتظره هناك، كل ما يُدرکه أن صوتا بداخله قد وجهه إلى هذا المكان، عزم على المضي قدما وسط القبور المتراكمة، لكن هذه المرة مختلفة تماما... أفكار غريبة وخيالات مريبة تحوم في رأسه، لأول مرة يشعر بالخوف، خشي أن ينظر خلفه، تساءل وقد دب الرعب في أوصاله كيف خانتته شجاعته وكيف واتته الجرأة حتى يصل بخطواته إلى هنا وأي شيء ينتظره هناك؟.

قرر أن يجلس قليلا على المقعد الحجري أمام القبور حتى تأنس نفسه بشيء ما في تلك الليلة الليلية، هدأت أنفاسه بعدما استراح لفترة على المقعد لكنه سرعان ما شعر بأن الجو قد ازداد برودة، لم يكن الجو باردا في هذه الليلة ولكنها رعدة قد أصابت جسده فارتعشت على إثرها أوصاله، رنا ببصره ناحية قبر والده ونادي بصوت خافت وكأنه خشي أن يرد عليه أحد: أين أنت يا أبي؟ وكيف هي الحياة هناك؟

وفجأة سمع صوتا يأتي من بعيد فارتجف من الفزع، واضطرب قلبه اضطرابا شديدا وخاف أن يلتفت وراءه، كان الصوت يتردد صدها في المكان، وعندما ظل الصوت ينادي تمالك أنفاسه واستجمع شجاعته ونظر ناحية الصوت فإذا به يلمح عينيّن تلمعان في الظلام وتنظران إليه بقسوة ومن حولهما وجهها شاحبا لرجل تكسوه علامات الموت، لا يشعر الآن سوى بالرعب ورغبة شديدة في البكاء بعد أن شعر أنه قد غرق في جانبه المظلم ولم يتمن الآن سوى العودة إلى منزله في سلام.

ارتفعت عيناه للأعلى وبدأ عقله يستوعب الوحدة والسكون الذي يحيط بالمكان، وطاف في عقله ما حدث له في الفترة الماضية وما عاناه من الآلام، وقد أتى إلى هذا المكان ليدفن فيه مأساه وأحزانه بعد أن أثخنه الزمان بالجراح، فصرخ بأعلى صوته بعدما أغلقت أبواب الأرض في وجهه وسرقت منه أعز ما يملكه في الدنيا، ولم يبق لديه سوى توسلاته إلى الإله فرفع عينيه إلى السماء وصرخ قائلا: يا إلهي..... لماذا والدي؟

أتاه صوت من بعيد وهو يقول: إياك واليأس

وبدأ الصوت يتلاشى رويدا رويدا حتى اختفى، نظر آدم حوله في فزع ولم يجد شيئا، شعر آدم بأنه قد أصابه الخبل، وأن عقله في طريقه إلى الزوال، وكل ما تساوره به نفسه يظهر له على هيئة أشباح يراها بألم عينه وأصوات تخترق أذنيه، هرول آدم إلى البوابة الحديدية وتسلفها ثم هرع عائدا إلى بيته.

مرت الأيام وتبدلت الأحوال لم يعد آدم ذلك الشاب الأبلج الذي كان شديد الأناقة بشعره الطويل المنسدل ووسامته المعهودة وبشاشته التي تشرق معها شمس النهار، لقد أمسى كثير الصمت شديد التجهم، لم يك يعلم أن فكرة الموت ستسيطر عليه بهذه الطريقة القاسية التي قلبت حياته إلى جحيم مستعرة، يعيش الآن في عزلة، لا يرغب في الاختلاط بالناس، فهذا الاختلاط أصبح عبئا ثقيلا لم يعد بإمكانه أن يتحملة، انزوى في غرفته ولم يغادرها، وأقام لنفسه خلوة وحيدا لم يؤنسه في وحدته هذه سوى كتبه وأفكاره، لقد شاخ وأصابه الكبر وهو لا يزال في الثامنة عشر من عمره.

لاحظت الأم عدم مبالاته واستهزائه بكل شيء في الحياة، فهو لم يعد يواظب على الذهاب إلى مدرسته وهو في السنة الأخيرة من مدرسته العليا، حاولت الأم

أن تخفف عنه كثيرا وسلكت كل السبل لتعود به إلى طريقه القديم، ولما يُست طلبت من صديقيه ميلاد وجايكوب أن يحاولا معه، لكن الجميع لم يك يعلم أنه لم يصل إلى حالته هذه بسبب حادثة موت والده بل في تفكره في موضوع الموت نفسه، فالكل سيموت في النهاية تلك ليست المشكلة التي تؤرقه ليل نهار ولكن ما يؤرقه بالفعل هو لماذا الموت؟ وماذا بعد الموت؟.

في الفترة الطويلة الماضية أكب على مطالعة الكتب التي تتحدث عن الموت فقرأ الفلسفة والأدب، وقرأ عن موضوع الموت في الكتب العلمية، وأخيرا الأديان جميعها، فما من طريق إلا وقد سلكه ليعلم شيئا عن ذلك الشبح الذي يجثم على الحياة بأكملها، ولم يعلم إلا النزر اليسير على كثرة مطالعته، ومع الضغوط الشديدة التي جثمت على صدره من العائلة ومن الأصدقاء نزل على إرادة الجميع، وقرر العودة إلى دراسته وحياته الطبيعية على الرغم من أن بداخله مازالت فكرة الموت متأصلة في أعماق أعماقه لا تتركه لحظة واحدة.

شعر بعدم أهمية أي شيء في الوجود بعد أن توصل إلى بعض الإحصائيات عن الموت وقد حفظها عن ظهر قلب، فعلم أنه منذ فجر التاريخ قد وُلد في هذا العالم مائة وعشر مليار شخص، ولا أحد منهم نجح في العيش، انتصر عليهم الموت في النهاية، كما أن هناك تقريبا سبعة مليارات شخص على هذا الكوكب، وتقريبا ستين مليون شخص يموتون كل عام، وتقريبا مائة وستين ألف شخص يموت في اليوم الواحد، ثم قرأ اقتباس حينما كان يتفحص هذه الإحصائيات يقول "إننا نعيش وحيدون ونموت وحيدون وما غير ذلك مجرد وهم".

كان ذلك ما جعله يقظا طوال الليل وهو يتفكر "نحن نعيش وحيدون " لذا لما عليّ أن أعيش حياتي أعمل وأعرق وأكافح لمجرد وهم ! هكذا كان يحدث نفسه.

إن هذا هو الوهم بالفعل... إنه لا عائلة، ولا مجموعة من الأصدقاء، أو حتى فتاة، أو مجرد واجب مدرسي عن تصنيف الأفعال أو تحديد الجذر التربيعي ل وتر المثلث قد يساعدني في تجنب قدرتي.

تلك هي روح اللامبالاة والسخرية التي بدأ يتحدث بها، لقد توقف بحثه وقراءته على مزيد من الإحباط فلم يفقد المعنى الكامن في حياته فحسب بل فقد أيضا الإيمان بنفسه وبكل شيء من الدين إلى الإله.

حضر ميلاد وجايكوب إليه صباحا حتى يذهب معهم إلى المدرسة كما وعدهما، نهض من سباته متثاقلا الأجفان وأخذ حماما ثم انطلق معهما إلى المدرسة. كان من عادتهم أن يذهبوا إلى المدرسة مشيا على الأقدام فهي ليست بعيدة كما أن البلدة صغيرة، وما أن وصلوا إلى الفصل حتى تلقى آدم التعزية من الزملاء ومن المعلمين ومضى اليوم بأكمله وهو شارد الذهن حتى انتهي اليوم الدراسي.

انطلق مع أصدقائه من أمام المدرسة إلى الربوة مكانهم المفضل أعلى التل، وقد اعتادوا أن يتسابقوا معا من أمام بوابة المدرسة حتى الصخرة القريبة من التل، وعلى الرغم من عدم رغبة آدم في السباق إلا أن صديقيه أجبروه على ذلك، فانطلق معهما حتى وصلوا إلى الربوة وكان آخرهم آدم على غير عادته فقد كان دوما هو الأول، اتخذ الأصدقاء مقاعدتهم على الصخرة وشرع آدم في الحديث قائلا: ليس في الموت ما يدعو إلى الخوف، طالما سيُخلصنا الموت من الحياة، فالأمر جيد وكأننا لم نولد قط.

قال ميلاد: أرى أن فكرة الموت مازالت تُسيطر على أفكارك بشكل مقلق، وبرغم ذلك قل لي كيف نفهم الموت ونحن لا نعلم سوى القليل عن الحياة؟

رد جايكوب: قال أحد الفلاسفة لا ينبغي أن أخاف من الموت؟ فعندما أكون لا يكون الموت، وعندما يكون الموت لا أكون أنا، فلماذا عليّ أن أخاف شيئا لا يمكن أن يوجد ما دمت أنا موجود...

قال آدم وقد اكتست نبرته مزيدا من الأسى: أنا لا أخشى الموت فأنا على استعداد لمواجهة، ولكن هناك شيء أسوأ من الموت، وهو الرغبة في الموت

قال ميلاد متعجبا: أترغب في الموت؟!..... حالتك النفسية مزرية يا آدم دعنا نتحدث في أمر آخر فنحن أحياء الآن فلماذا نشغل بالنا بالحديث عن الموت؟

آدم: الموت هو الحقيقة الوحيدة في حياتنا...

حاول ميلاد أن يذهب به بعيدا عن هذه الفكرة فقال له: لم أعد أراك تُمسك بلوحاتك لترسم، هل تركت الرسم؟

آدم: الرسم هو أفضل شيء في الوجود، فأنا لم أنعم بالراحة سوى وأنا أرسم لكني قد انشغلت الأيام الماضية في البحث عن موضوع الموت

ميلاد: لقد عدنا ثانية إلى نفس الموضوع

ابتسم آدم قائلاً: كل الطرق تؤدي إلى الموت يا صديقي

مضت الأيام بطيئة كعاداتها يكسوها الملل وقد عاد آدم إلى دراسته ولكن في غير مبالاة ولا اهتمام بواجباته، دخل آدم الفصل الدراسي فبادرته معلمته قائلة: هل انتهيت من واجبات الأمس يا آدم؟

- لا

- وما السبب؟

- لقد كنت مكتئباً

ردت عليه المعلمة في سخرية: حقاً؟! وما سبب ذلك؟

- لأنني أدركت أنني سأموت في يوم من الأيام

- لكن جميعنا سيموت، ولا أظن أن هذا عذر مقبول

- حسناً أنا فقط كنت... سأقول لك، كل شيء بدا لي بلا معنى، وللأسف هذا

يشمل الواجبات

- إذن لتذهب معي إلى مكتب المدير، وهناك سنجد سويًا معنى للواجب

فلقد تغاضينا كثيراً من قبل نظرًا للظروف التي مررت بها.

تم استدعاء الأم إلى المدرسة من قبل الإدارة وبعد كلمات اللوم والعتاب احتوت الأم الموقف وانصرفت بعد تعهدها بأن الأمور سوف تعود إلى مجراها الصحيح، اجتمعت الأم مع آدم لمعرفة أسباب تحوله لتلك الدرجة فلم يكن من قبل يشكو منه أحد على الإطلاق وخاصة معلميه الذين كانوا دائمي الإشادة به وبذكائه واجتهاده، أخبرته الأم أن كثيراً من الأبناء تُوفي عنهم آبائهم وكانوا على علاقة قوية بهم ولم يألوا إلى مثل ما ألت إليه.

كان عليها أن تعرف سبباً واضحاً جعله يأساً هكذا من الحياة حتى تستطيع أن تعود به إلى رشده، كان آدم يتناقش مع والده في كل قضاياها ولكنه على العكس من الأم وذلك بسبب طباعها العصبية، والشدة في المعاملة، وتصلب آرائها، فلقد كانت الأم متقلبة المزاج، وكان زوجها يعرف جيداً كيف يتعامل معها في جميع المواقف فهي في الأول والأخير زوجته التي يحبها ولكن ما الذي

يُجبر آدم على التعامل مع والدته مثلما كان يعاملها والده فهو لا يُطبق ذلك مطلقاً.

بدأ آدم في مناقشة والدته حول الأسئلة الحائرة التي تدور داخل عقله عن معنى الحياة والوجود والموت والحياة الآخرة وصولاً إلى الإله فقد اقترب إلى الشك في وجود الإله، تلك الأسئلة الحائرة كانت لعنته ولعنة كل بني آدم، أراد معرفة الإجابة على هذه الأسئلة التي حيرت أعتى الفلاسفة وأرقت عقول رجال الدين، ولما لم تستطع الأم بدورها على إجابة تساؤلاته اتجهت إلى الحل الأمثل وهو رفع الصوت عالياً وقالت له في حدة شديدة: لا بد لك من استكمال دراستك وحياتك الطبيعية، ولا بد أيضاً أن ترمي تلك الأسئلة وراء ظهرك حتى تستطيع مواصلة الحياة

رد عليها آدم في هدوء: حتى إذا كانت الحياة لا معنى لها...

وهنا ظهر الانزعاج على الأم وصرخت فيه قائلة: لقد انتهت المناقشة عند هذا الحد

ثم تركته وانصرفت وعلى وجهها علامات الغضب.

غادر بدوره هو الآخر بعد تلك المناقشة الحامية إلى مكانه أعلى التل، جلس بمفرده يتأمل السماء الزرقاء الصافية والنهر المنساب أمامه. وقد طافت في عقله تلك الأسئلة من جديد حتى يأس من التفكير في تلك المشكلات المستعصية وعاد إلى بيته خائب الرجاء يجر أذيال الخيبة، وما أن وصل حتى تفاجأ بإمام المسجد القاطن في المدينة يجلس مع الأم وتطرق إلى سمعه حديث عنه وعندما سمع الاثنان وقع أقدام تقترب منهما سكنا عن الحديث وأطبق الصمت على أفواههما.

طلبت الأم من آدم الجلوس وبادره الإمام قائلاً: ماذا بك يا آدم؟.. ألم يحن الوقت الآن لتلتفت إلى دراستك وتترك هذه الأوهام التي تُسيطر على عقلك... لقد أخبرتني والدتك بكل شيء

رد آدم عليه قائلاً: بما أنها قد أخبرتك.. فهل أجد لديك جواباً شافياً لهذه الأسئلة؟

- أية أسئلة؟

- ماذا بعد الموت؟

- الحساب ثم جنة أو نار

- وما يُدريك؟ هل مات أحد وعاد ليُخبرك؟

- لا لم يعد أحد من الموت، ولكن الله قد أخبرنا بذلك في كتابه الكريم

- وما يُدريك أن الله هو من أخبرك بها، وما يُدريك أن الله له وجود من

الأساس

إحمر وجه الإمام غضبا وقال له: استغفر الله العظيم، تلك هي الأسئلة التي
تفتح باب الشيطان

- وهل الشيطان له وجود هو الآخر؟

- يا بني اترك هذه التساؤلات التي تؤدي بك إلى الكفر والعياذ بالله، وحاول

أن تعود إلى صوابك

- ألسنت على صواب يا مولانا؟!.. أليس من حقي أن أسأل؟

- من حَقك أن تسأل ولكن ليس مثل تلك الأسئلة

- ألم يُخبرك القرآن بأن علينا أن نتفكر ونُعمل عقولنا أم أنه يدعو إلى أن

نتركها وراء ظهورنا وننساق مثل البعير

- إعمال العقل ليس في هذه الأمور، فتلك الأمور تحتاج إلى الإيمان وليس

إلى العقل، عليك أن تعود إلى صوابك

- لن أعود إلا بعد أن أصل إلى معرفة الحقيقة....

وهنا قاطعتهما الأم صارخة في وجه آدم قائلة: أغرب عن وجهي الآن فلم أعد

استطيع أن أسمع أكثر من ذلك.

غادر آدم متزعجا من طريقة والدته في الحوار وترك المنزل غاضبا واتجه

مباشرا إلى المقابر، ذلك المكان الذي يرقد فيه الجميع في غياهب السكون،

ويُطبق الصمت على أفواه الموتى، وعاد يُفكر ثانية في حقيقة الحياة والموت.

نظر حوله فألفى وردة صغيرة تخرج من باطن الأرض فقال لها: أيتها الوردة

أخبريني.... كنت بذرة منذ زمن مضى، واليوم أصبحت زهرة صغيرة مورقة،

وغدا ستمسين قشرة تذروها الرياح، رحلتك القصيرة كرحلتي تماما، فأنا كنت

جنين ثم أصبحت طفل فشاب كما أنا الآن، وبعدها سأمسي كهلا ثم في النهاية... الموت.... قل لي أيها الورد الندية ماذا تعرفين؟ وما هي الحقيقة؟....

ما هي الحقيقة؟ يريد أن يعرف ولو سر واحد من أسرار هذا الوجود الغامض، يشعر وكأنه يقف حائرا على شفا جرف هار يتحسس نفسه الضائعة في الظلام كطفل تائه في الزحام يبحث عما فقده، ولكنه لم يفقد أبيه فحسب بل فقد كل الحياة وكل الوجود.

رنا آدم ببصره إلى أعلى ناحية القمر المضيء وقال له: ما لي أراك حزينا مثلي... تحدث معي، قل لي ما هي الحقيقة؟.... تخرج كل ليلة منذ ملايين السنين بلا كلل أو ملل على البشر، تعرفهم وتستمع لأحاديثهم، تعرف الكثير، حدثني أرجوك وقل لي ما هي الحقيقة؟

لكن لا مجيب قاطع تأملاته هذه صوت يأتي من بعيد يغني بعض الأنغام الحزينة نظر ناحية الصوت الندي فوجد رجلا في نهاية خريف العمر يحمل قيثارة ويتغنى بالأشعار وينشد قائلا :

إن الفناء من البقاء قريب	إن الزمان إذا رمى لمُصيب
وأراك تلتمس البقاء وطوله	لك مُهرم ومُعذب ومُذِيب
ألححت في طلب الصبا وضلاله	والموت منك وإن كرهت قريب
الموت يرتصد النفوس وكلنا	للموت فيه وللتراب نصيب

ارتسمت بسمه رقيقة على وجه آدم وهو يستمع إلى المنشد في انتباه وقال له: ما أشجاك !... زدني فقال له الرجل:

حيل ابن آدم في الأمور كثيرة والموت يقطع حيلة المحتال

رد عليه آدم وقال: أكل قولك شعريا رجل؟

- لا

- ما اسمك؟

- حكيم.. وأنت؟

- آدم

- يا فتى يأتي الموت ويمضى ولا يخلف وراءه سوى الحزن ثم يأتي النسيان
فيبتلع جميع الأحزان، عليك أن تترك الموت وتمضي في طريق الحياة فالتريق
أمامك ما زال طويلاً....

- إن لك من اسمك نصيب... حكيم

- إنك في عمرك هذا تمتلئ شباباً وحيوية، عليك أن تبتسم للحياة، فلتجعل
روحك زهرة تتفتح لأنداء الصباح قبل أن تموت هذه الزهرة الياقة...

قال مستغرباً: تموت؟!!

- نعم... تذوي وتجف وتصبح هشيماً تذروها الرياح، أنت سطرًا تأمها بين
صفحات كتاب الوجود يقول كان هنا في الزمان الماضي إنسان يعيش

- وكأنك تقرأ أفكاره فمند قليل كنت أفكر في مثل ذلك... أترى أن الموت
ظُلماً من الإله؟

ضحك العجوز وقال في سخرية:

وُهييت عن قتل النفوس تعمد

وبعثت أنت لقتلها ملكين

وزعمت أن لنا ميعة ثانيا

ما كان أغنانا عن الحاليين

وتركه وحاول الانصراف فاستوقفه آدم وقال له: مَنْ أنت؟

رد عليه بابتسامة قائلاً: قلت لك حكيم

- وما الذي أتى بك إلى هنا أيها الحكيم في هذه الليلة الظلماء؟

- جئت كي أرى زوجتي وولدي

- وأين هما؟

- في هذه القبور

- آسف على ما أصابك

- لا تأسف يا ولدي فتلك هي الدنيا

- هل لي أن أسألك سؤالاً آخر؟

- تفضل يا ولدي بسؤالك وإن كان لدي إجابة سأجيب

- هل هناك بعث بعد الموت؟

ضحك العجوز وقال:

قال المنجم والطبيب كلاهما
إن صح قولكما فلست بخاسر
- لم احظ حتى الآن بجواب شافي...

قال له العجوز :

لكل شيء إذا ما تم نقصان
هي الأيام كما شاهدتها دول
من سره زمن ساءته أزمان
هذه الدار لا تبقى على أحد
ولا يدوم على حال لها شان
فجائع الدهر أنواع متنوعة
وللزمان مسرات وأحزان
- وبماذا تنصحني أيها العجوز؟

- العلم والمعرفة فلا خير في الجهل يا ولدي فتش عن الحقيقة وستعلمها
ومن يكدر في طلب العلم سيحتفظ به إلى الأبد
ثم صاحب قوله :

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله
فأجسامهم قبل القبور قبور
وإن امرؤ لم يحيى بالعلم ميت
وليس له حين النشور نشور
- كلماتك تنبض بعلم غزير
- أخو العلم حي خالد بعد موته
وأوصاله تحت التراب رميم
وذو الجهل ميت وهو يعيش على الثرى
يظن من الأحياء وهو عديم
- يا الله !

- هو النور كل النور يهدي عن العمى وذو الجهل مر الدهرين الغياهب
.أستأذنك بالانصراف

- إلى أين؟

- إلى بلاد الله

- أشكرك شكرا جزيلا، لقد أرحت قلبي بكلماتك، واطمأن خاطري لحديثك

تركه حكيم وغادر وهو يُنشد الأشعار على قيثارته ويقول

من كان يرجو أن يعيش فأني
أصبحت أرجو أن أموت فأعتق

في الموت ألف فضيلة لو أنها
عُرفت لكان سبيله أن يعيش

نظر آدم حوله فوجد الشمس قد اقتربت من الإشراق وشرع نورها يُضيء الأرض، وهو على حالته تلك منذ ليل الأمس، خرج من القبور منشراح الصدر، منفتح الأفاق، فإذا به يرى الطيور تصدح على فروع الأشجار وهي تترنم بأنشودة لجمال الصباح، وبعد لحظات بدأت الشمس تنشر أشعتها الصافية على المروج الخضراء فأكسبتها روعة وجمالا خلايا.

سار في طريقه إلى منزله فرأى الأطفال وهم يركضون فوق الحشائش الندية، يضحكون ويصيحون ويطاردون الفراشات، تساءل في دهشة: ما هذه الروح، وما هذه السعادة، ماذا يعنيه من الموت؟.

عاد إلى منزله، وجد أمه في انتظاره وقد بلغ منها القلق مبلغه، لأنها لم تك تعرف مكانه وقد بحثت عنه في كل مكان يمكن أن يتواجد فيه، ولكنها فشلت في النهاية فأصابها دوامة الحيرة، دخل آدم المنزل وهرول إلى أمه ودموع الفرح تترقرق على خديه وعانقها عناقا شديدا معلنا لها بدء حياة جديدة وقبّل رأسها ووعدا بالعودة، فرحت الأم بذلك فرحا شديدا ولم تشغل بالها بالسؤال عن السبب فكل ما يهمها هو عودته الحميدة إلى الطريق المرسوم.

اغتسل آدم وارتدى ملابسه وانطلق إلى مدرسته منفتح الذهن متفائل بأمل جديد في الحياة، اكتسبت ملامح حياته لونا جديدا وغدت أفضل مما كانت عليه، جلس على مقعده وبادر المعلمة قائلا لها في ابتسامة: دعينا نفتح صفحة جديدة ونبدأ من أول السطر....

فرحت المعلمة بكلماته فرحا شديدا وبشرته بمستقبل مشرق وحياة سعيدة، وعند انتهاء اليوم الدراسي عاد الأصدقاء إلى ما كانوا عليه من قبل بعد أن انزاحت تلك الغمة فكانوا مستبشرين فرحين بعودة صديقهم المحبوب لوضعه بمرحه ومزاحه وابتسامته المعهودة وروحه المشرقة وتوقه الدائم إلى المغامرة.

اقترح عليهما آدم أن يتسابقوا إلى التل مكان اللقاء، وعاد آدم للفوز في كل سباق بينهما، جلسوا في نشوة وسعادة غامرة ينظرون إلى النهر الجاري، لاحظ

الأصدقاء ابتسامة آدم بعد أن كان واجما حزينا، وطفق الأصدقاء يتناقشون حول أمورهم المدرسية وما سوف يفعلونه في مستقبلهم.

قال ميلاد: سأذهب إلى الجامعة وأدرس الدين ثم التحق بالكنيسة ليتسنى لي مساعدة البشر المحتاجين إلى المعونة المادية والروحية، ولكي أعلمهم أمور دينهم لتستقيم حياتهم ويدخلوا ملكوت الرب

قال جايكوب: أما أنا سأدرس التجارة وأقيم أعمالا خاصة وسأصبح في يوم من الأيام من أثرياء القوم.

فاجأ آدم الأصدقاء بعدم رغبته في دراسة الهندسة كما كان الجميع يتوقع ليصبح مثل والده

فقال له ميلاد: كنت دوما ترغب في دراسة الهندسة لتصير مثل أبيك فهو مثلك الأعلى

قال آدم: طريقي الآن مختلف

تساءل جايكوب: وماذا ستدرس يا آدم؟

- الرسم..... سألتحق بكلية الفنون

- أعلم أنها هوايتك المفضلة، لكن الرسامين لا يحصلون على أموال كثيرة فهم يعيشون بالكاد

- أنا لا احتاج إلى المال فلقد ترك لي والدي الكثير، لكني احتاج إلى المعرفة

قال جايكوب: وهل ستوافق والدتك على هذا الأمر؟

- ليس لوالدتي علاقة بالأمر، فأنا قد فكرت واتخذت قراري

قال ميلاد: إذن بكل توفيق والرب معك

- وأنتم أيضا أتمنى لكما التوفيق في حياتكما الجديدة، ولسوف نتقابل كثيرا في هذا المكان في كل إجازة

ميلاد: بالطبع فهذا المكان يحوي جميع ذكرياتنا فهو جزء منا

قال آدم: أريدكما أن تسمعا كلماتي جيدا..... فأنتم أقرب البشر إلى قلبي وعليكما معرفة ما أود فعله

قال جايكوب مازحا: هل ستقتل أحدا ما؟

ابتسم آدم قائلا: الأمر ليس كذلك إنني أريد الوصول إلى الحقيقة
سأله ميلاد في دهشة: أية حقيقة؟

- الحياة، الموت، الكون، كيف بدأت حياتي وإلى أين ستنتهي؟

- لقد عدت من جديد إلى تساؤلاتك، إنها رحلة صعبة، وأني أنصحك
بدراسة الفلسفة بدلا عن الفن لعلك تجد هناك أجوبة

- لقد قرأت فيها الكثير وعلمت أن الفلسفة لا تقدم إجابات بل تساؤلات
فقط، وما احتاجه ليس تساؤلات فلدي منها الكثير لعلني أجد جوابا يريحني
عندما أدرس الفن

- أصبحت فيلسوفا لتوك يا آدم

- العقل الإنساني غير قادر على وضع إجابات لهذه الأسئلة مع أنها أساسية
في حياة البشر، إنها لعنة

- وبما أنك تعرف ذلك فلماذا تُصر على البحث؟

- لن أتخلى عن البحث، ولن أمل، ولن أجد بابا يدلني عليها إلا وسأطرقه

قال ميلاد: الرب معك دائما

رد عليه آدم قائلا: إنني أدعو كل يوم أن تنكشف لي الحقيقة منذ أن وجدت
الشكوك طريقها إلى قلبي، وقد عقدت العزم على البحث عن الحقيقة، أرغب
أن أصل إلى الله الذي أتمنى رؤيته بكل قلبي وروحي هذا إن كان له وجود.

عاد الصديقان إلى منازلهما وهما يتفكران في كلام آدم وحديثه معهما، أدركا
أن له هدفا ساميا يسعى إليه وذلك الإنسان الشغوف بالمعرفة يستحق كل
التقدير، لكن الطريق إلى المعرفة طويل وشاق ومجهد، إنه بحر عميق بلا
شطآن، إنه كما قال أحد الراقصين عن الرقص "أيام قاسية من التدريب
الشاق والممل لتصل في النهاية إلى لحظة تشعر فيها بأنك تلامس النجوم".

انتهت أيام العام الدراسي الأخير من الدراسة العليا ولم يتبق سوى أيام
الإجازة، وفيها ينتظر الأصدقاء النتيجة النهائية التي ستحدد طريق كل منهم، عاد
آدم خلال الإجازة إلى هوايته المفضلة الرسم، لقد كان ذو موهبة عظيمة وهما
إله له وتتميز رسوماته بالعموية والتلقائية، رسم العديد من اللوحات التي تُعبر
عن عواطف الحزن والكآبة والأمل والحياة وأحيانا الثورة، كان دائم التحديق في

رحاب الخيال والصور والأحلام، ورث موهبته في الرسم من والده الذي استغل تلك الموهبة في خدمة البشر من خلال الهندسة وعمارة الأرض، كان واسع الخيال يؤمن دائما بأن الفنان الحق لا بد له أن يرسم كما يرى، ويعبر عما يشعر.

اجتمع الأصدقاء في أمسية ليلة هادئة يتجولون في طرقات المدينة الزوراء، يتحدثون تارة، ويُطبق الصمت على أفواههم تارة أخرى، وفي أثناء تجوالهم رنو ببصرهم إلى جانبي الطريق حيث توجد الكنيسة أمام الكنيس اليهودي في تحد صارم وكأن المينيان على وشك الدخول في معركة حاسمة للسيطرة على قلوب العباد، وعلى البعد منهما يظهر مسجد المدينة وكأنه يركض ناحيتهما ليلحق بالمعركة قبل أن تبدأ فيحول بينهما.... قاطع ذلك المشهد قول آدم: أبي من صمم كل تلك المباني في مدينتنا

قال جايكوب: كلنا نعلم ذلك جيدا... لقد كان موهوبا بحق

قال آدم: كانت له نظرة في الفن المعماري وخاصة تلك الأبنية الماثلة أمامكم

تساءل ميلاد: وما هي تلك النظرة؟

- هناك ثلاثة أنواع من الأبنية صامته وناطقة وصاحدة

- وما الفرق بينهم؟

- الصامته هي تلك الأبنية الميتة التي لا روح فيها

قال ميلاد: والناطقة؟

أشار آدم بيده ناحية المباني الدينية وقال: انظرا إلى تلك التصاميم الرائعة لدور العبادة، ألا تشعر أنها توجي إليك بالسمو والخشوع، إنها أبنية ناطقة

قال ميلاد: على الرغم من أن والدك هو من صمم أبنية هذه المدينة جميعا لكن هناك شيء واحد لم يصممه

قال آدم مبتسما: تقصد قصر الجبل القاطن في أعلى المدينة

- بالضبط

رد جايكوب ساخرا: قصر الأشباح، دائما ما نراه في شموخه العظيم وهو ينظر إلى المدينة في عليائه، لكن لم يستطع أحد أن يذهب إلى هناك لكثرة الشائعات التي تحوم حوله، فالجميع يخشى الاقتراب منه

قال آدم: هذا القصر من الأبنية الصادحة فأحجاره تصدح بموسيقى سحرية، وكان أبي دوما يحاول الوصول إلى هذه الدرجة من الفن، كان يريد أن يصل إلى الجمال عن طريق تصميم ولو مبنى واحد يصدح في آفاق السماء، وعاش ومات على هذا الأمل الذي لم يستطع أن يحققه

تساءل ميلاد: وأي نوع من الأبنية تلك التي بناها والدك؟

- بالطبع من النوع الثاني أو هكذا كان يعتقد، أما غير ذلك فالحكم للناس الذين يتذوقون الفن.

استكمل الأصدقاء مسيرتهم الليلية ونسمات الهواء الرقراقة تلفح وجوههم حتى أدلهم الليل إلى أن وصلوا إلى أطراف مدينتهم الغراء، وفي هذا الليل الهيم تطرق إلى سمعهم ضجيج يأتي من ناحية منطقة القبور، صوت الموسيقى الصاخبة يصم الأذان، وضوضاء الأغاني الشاذة والغريبة يملأ المكان.

ترث الأصدقاء في مشيهم وهم يبحثون بأعينهم عن مكان الصوت، بدأوا في المسير بخطى حثيثة حتى اختبأوا وراء الأشجار يسترقون السمع والبصر، وألقوا بناظرهم ناحية المكان المنشود فإذا برهط من الشباب حليقي الرؤوس، الأوشام على جلود رؤوسهم وأجسادهم، والأقراط المعدنية تتدلي من ثقوب في أنوفهم وأذانهم، يرتدون أفنعة مرعبة ذات قرون، كانت ملابسهم المهترئة السوداء تحمل رسومات مثل علامات الموت والجماجم، وبها الكثير من عبارات ازدراء الأديان.

كان الحشد مجتمعاً في دائرة مرسومة على الأرض بداخلها نجمة خماسية على كل طرف من أطرافها شمعة مشتعلة، داخل الدائرة يقف كبيرهم وقد أزال الجزء الأعلى من ثيابه وهو يُمسك بكتاب في يده وعندما شرع في القراءة من ذلك الكتاب انخفض صوت الموسيقى الصاخبة وبدأ يقول بصوت أجش:

أيها المحاربون...

شيطان الجحيم يصرخ....

سينتقم من الملائكة...

معا أيها الإخوة لنحقق الخراب على الأرض....
معا أيها الإخوة لنحرق الجنة بلهيب الجحيم....
أيها القوم من يخدم السيد يتحرر....
توجوا أيها الأرواح سيدكم....
أظهروا له الاحترام والتبجيل...
افتحوا البوابات، لا شيء سيوقف العاصفة....
حرروا أنفسكم بقوة الجحيم
هيا لنحطم النعيم الملعون...
الآن ملك الجحيم يجب أن يأخذ عرش الإله....
الجميع يجب أن يرى جهنم السماء على الأرض، والشر سينتصر في النهاية....
فالخلاص أت، والقوة والملك لجلالة الشيطان....

وعندما فرغ من إلقاء كلماته، تناول الجميع بعض الأقراص وبدأوا في احتساء الخمور بشراهة، وامتلاً المكان برائحة المخدرات المحترقة عبر اللفافات، ثم تشابكت أيادي الجميع وهم يرقصون رقصة دائرية حتى أصابهم الإعياء فتساقط الواحد تلو الآخر.

كان الأصدقاء يتابعون في شغف ودهشة ما يحدث فلا استطاعوا حراكاً، ظلوا صامتين ينظرون لم يقطع صمتهم إلا صفير سيارة الشرطة آتية إلى مكان الضجيج، وحينما اقتربت سيارة الشرطة ركض الجميع في كل اتجاه محاولين الهرب، ثم القبض على بعضهم في حين استطاع آخرون الهروب، كان الأهالي قد قاموا بإبلاغ الشرطة عن هؤلاء المزعجين الذين يقلقون راحة السكان بأغانهم الصاخبة وضوضائهم الشديدة.

في ذلك الوقت مازال الأصدقاء مختبئين خلف الأشجار يتابعون عن كثب ما يحدث حتى أتى إليهم أحد الشباب هارباً واختبأ بجانبهم، نظروا إليه شذراً ولم يستطع أحد أن ينطق بكلمة حتى لا يُقبض عليهم أيضاً، وانتظروا حتى انصرفت سيارة الشرطة فأمسكوا بخناق هذا الشاب وقرروا ألا يتركوه حتى يُخبرهم بما فعلوه للتو وإلا سيسلمونه إلى الشرطة، نزل الشاب على إرادتهم فما كان بيده أية حيلة يحتال بها عليهم.

شرع في إخبارهم أنه وهؤلاء الشباب مجموعة من عباد الشيطان وقد أتوا اليوم لإقامة قداسهم ليستجيب لهم الشيطان إلههم، سار معهم ذلك الشاب في الطريق وهو يتحدث إليهم بشأن عقيدته التي تقوم فلسفتها على أن كل الأديان مجرد خدعة، وأن ديانتها لا تقوم إلا على تقديس الملذات في حين تقوم الأديان الأخرى على تحريمها، وأعطى لهم مثالا على ذلك في الزنا شارحا لهم كيف أن في الزنا لذة تحرّمها الأديان، في حين أن الإنسان قد فُطر على اللذة فأيهما اقرب إلى طبيعة البشر؟.

لذلك فإن الأجدر في الإتيان هو مَنْ يدرك طبيعة البشر ألا وهو الشيطان، إذ كيف للإله أن يُعطينا الغرائز ثم يطلب منا عدم استعمالها؟.

قال له آدم: أنا لا أقلل من عقيدتك ولكن الإنسان ليس بهيمة تحركها الغرائز، كما أن الإله لم يطلب منا عدم استعمال الغرائز التي أعطاها لنا ولكن طلب فقط توجيهها

قال الشاب: ولماذا نوجهها أو نرشدها؟

آدم: كي نسمو بأرواحنا وذلك في الأول والأخير ليس لشيء سوى لمصلحتنا فحسب، عندما كنت طفلا صغيرا كنت أفضل اللعب دائما وكان والدي يُجبرني على مذاكرة دروسي أتدري لماذا؟

- بالطبع حتى تستطيع أن تنجح في دراستك

- هذا بالضبط المغزى إنها لمصلحة لم أكن أدري معناها في وقتها، كذلك يفعل الإله وأنت هنا قد وضعتني في موضع لا أحب أن أوضع فيه

- وما هو؟

- موقف الدفاع عن الإله

- أأست مؤمنا؟

- حتى الآن لا أعلم لقد تربيت تربية حرة تقوم على أعمال العقل في كل شيء ولكن لدي الآن الكثير من الشكوك حول الدين حتى وصلت إلى شكوكي في وجود الإله ولكن لي سؤال

- تفضل

- بما أنك تؤمن بالشيطان فبالتالي فإنك تؤمن بوجود الإله، أليس كذلك؟

- بالطبع أؤمن أن الإله موجود لكني أعبد ذلك المتمرد الذي وقف في وجه الإله

- الحديث معك شيق ولكن نور الفجر قد بزغ وعلينا العودة إلى ديارنا

قال ميلاد: دعني أكمل الحديث

رد عليه الشاب: إذا أردتم أن نستكمله في وقت لاحق فلا مانع عندي فلدي الكثير من الوقت، لقد أعجبتني صحبتكم حقاً

قال آدم: إذن نتقابل غداً عند غروب الشمس في المقهى القريب من هنا وأشار بيده ناحية المقهى

واستطرد قائلاً: لكننا لم نعلم اسمك بعد

قال الشاب: اسمي سيمون

رد آدم: تشرفت بلقائك أنا آدم وهذا ميلاد وهذا جايكوب

عاد الأصدقاء إلى ديارهم، وحينما دخل آدم بيته وجد والدته تجلس تشاهد التلفاز في انتظار وصوله بادرها بالسلام وقال لها: أمازلت تشاهدين التلفاز؟

قالت له: أتابع أخبار الحرب

قال لها: إنها ليست حرباً بل احتلال لبلد آخر، إنها شهوة السيطرة على بلاد العالم

قالت له: عليك احترام وطنك يا آدم؟

قال آدم في سخرية: أي وطن هذا الذي يقوم على جثث غيرنا من البشر، أليس لهم الحق في أن يعيشوا في سلام، ما الذي يجعل جيش كجيشنا يذهب ليحارب هناك في أرض غيره، أنهم مستضعفون في الأرض ونحن نملك القوة ونقوم باحتلالهم، إنها شرعية الغاب

قالت: لن أدخل معك في نقاش حول هذا الأمر، فأنت تسير على خطى والدك

قال آدم: كل ما قلته لكِ مازلت تشاهدين التلفاز؟ أأجرت؟

- لا لم تُجرم

قال لها باسماء: علميا التلفاز يُشوّه العقل

- حديثك كحديث أبيك تماما، إنني أراه فيك الآن، لكن لا تتلاعب بعقلي
وقل لي ما الذي جعلك تتأخر إلى هذا الوقت؟

- أنا لست صغيرا يا أماه

- لقد اتصلت بك على هاتفك كثيرا وفي النهاية وجدت الهاتف في غرفتك،
أما زلت تتركه

قال ساخرا: قلت لك إن هذه الأشياء تُشوّه العقل

قالت مازحة: وكيف لي يا صاحب العقل الراجح أن أطمئن عليك؟

- مدينتنا صغيرة ولن أضل فيها أبدا، ألن تذهبي للنوم؟

- لم يعد هناك وقت للنوم فبعد قليل سأذهب إلى العمل

- أنا سأخلد إلى نوم عميق

لم يكن الأصدقاء على ثقة تامة بوعد سيمون لهم في الحضور في هذا اليوم،
لكنهم تمسكوا بالأمل في لقائه مرة أخرى، مضى اليوم كعادته وحينما غربت
شمس اليوم استعد آدم للذهاب إلى المقهى ليلتقي بسيمون وصديقيه، وصل
في الموعد المحدد وكان جايكوب في انتظاره، ألقى عليه السلام وجلس معه، ولما
رأى أن ميلاد تغيب عن الحضور، سأل عنه جايكوب، فأخبره أن ميلاد ذهب مع
والده الأب لوثر إلى الكنيسة فهم يستعدون لعيدهم، فالعيد يوم غد، وقد اخذ
وعدا من ميلاد بالحضور إذا أتاحت له الفرصة.

جلس الصديقان يتسامران في انتظار الشاب الميمون سيمون الذي تأخر
حضوره كثيرا، وهما بالانصراف بعد أن أصابهما الملل، لكن عند خروجهما من
باب المقهى قابلهما سيمون باعتذار عن التأخير لأنه يخلد إلى نومه متأخرا،
التمسا له العذر وانطلقا عائدين إلى مكانهما في المقهى.

في البداية أعلن الصديقان عن دهشتهما من هيئة سيمون التي تغيرت
بشكل كامل عن الليلة الماضية لقد تحول شكله من النقيض إلى النقيض حتى
أنهما لم يكونا سيعرفانه لولا معرفته هو بأشكالهما، وبرغم من أنهما لم يريا
وجهه بوضوح مسبقا لكثرة الألوان والأقنعة وغرابة ملامحه حينها، إلا أنه بدا
لهما شابا وسيما ذا بشرة بيضاء لامعة وشعر منسدل تركه على حاله كان طويل

القائمة في غير امتلاء، وعينيه ذات نظرة حادة وعلى سبيل المزاح قال له جايكوب: أين قرونك اليوم أيها الشيطان؟

لكن سيمون لم يتقبل المزحة وقد حدجه بنظرة فيها شرر وقال له: أترى أن سخرت من معتقدك... ألك أن تغضب؟

حاول آدم أن يحل تلك المشكلة وتدخل قائلاً: أتأسف لك بالنيابة عن جايكوب لكنه لم يكن يقصد

قال جايكوب: معذرة، فأنا لم أعلم أنك تأخذ الأمور بجدية هكذا

رد سيمون: لا عليك فقد استيقظت اليوم وأنا في مزاج عكر

قال آدم: سأطلب لك قهوة حتى تستفيق

- حسنا، ولكن أين هو الثكما؟

رد عليه آدم: ميلاد، إنه في الكنيسة يساعد والده في التحضير ليوم العيد غدا

- إذن لن يأتي؟

- سيأتي قريباً ولكن لا نعلم متى؟، فالتشرع في قص قصة ديانتك هذه إنني متشوق لسماعها

أتى النادل بأقداح القهوة وتركها على المائدة وانصرف وبدأ سيمون يرتشف قهوته وهو يسرد قصته

قال سيمون: أنا الآن أمير كهف

رد عليه جايكوب: وما معنى ذلك؟

- إنها درجة من درجات الدين كما في المسيحية فهناك تدرج في المناصب كالقس والأنبا والكاردينال وصولاً إلى البابا في النهاية، كذلك لدينا هذا التدرج

قال آدم متسائلاً: وما هذه الدرجات؟

- هناك أمير ثم أمير جماعة فأمرير كهف وصولاً إلى شرفر أعظم ثم كاهن فوق الأرض وآخر المطاف مُرسل من قبل القوة السفلية راعي الكنيسة

- وكيف التحقت بهذه الديانة؟

- هناك اختبارات يقوم بها معبدنا نحصل بعد أن نجتازها على عضو أمير

قال آدم: قلت معبدنا.. فما هذا المعبد؟

- معبد الإله ست

- أليس هذا إله الظلام والفوضى عند قدماء المصريين

- بالضبط هو كذلك

- وأين هذا المعبد؟

- في العاصمة

- وهل تذهبون كل تلك المسافة إلى العاصمة لتزوروا معبدكم

- لا نذهب هناك إلا عددا قليلا من المرات

- وهل تمارسون سحرا من نوع ما؟

- بالطبع فديانتنا لا تقوم إلا على السحر

- إذن أنت تمارس السحر؟

- نعم أنواع معينة من السحر في طقوس معينة

- كذلك لكم طقوس كأى دين آخر

- هناك طقوس العبادة العادية وطقس القداس الأسود وطقس القداس

الأكبر

قال جايكوب: وماذا تفعلون في هذه الطقوس؟

- رأيت أنكم كنتم تسترقون البصر لما فعلناه البارحة... هذا طقس العبادة

العادية

قال جايكوب: وكيف ننضم إلى هذه الطائفة؟

- أتريد الانضمام بالفعل أم تريد المعرفة فحسب؟

قال جايكوب: أريد الانضمام

ورفع صوته عاليا وهو يقول: ما أحلاها الحرية

وكزه آدم قائلا له: تعقل يا جايكوب

قال سيمون: سأشرح لكم طقوس الانضمام

ونظر إلى جايكوب واستطرد: وبعد ذلك إذا أردت الانضمام فلتأت معي

وبدا سيمون يشرح طقوس الانضمام لجايكوب وهو يستمع في انتباه قال:

يقف الكاهن أمام المذبح وهو يرتدي معطفه الأسود ويضع على رأسه القناع الشيطاني، ثم يتقدم إليه الشخص الذي يرغب في الحصول على العضوية ويكون عاريا تماما، ويجثو أمام المذبح على ركبتيه، ويتقدم خادم المذبح ويجرحه في يده ويأخذ من دمه البعض ويضعه في قدح من الفضة، ثم يدور الخادم على جميع الأعضاء مقدما لهم القدح، فيلحق كل منهم بطرف لسانه جزءا من الدم وبذلك يتم الاتحاد مع الشيطان، ويصبح عضوا في الجماعة ثم تُطفأ الأنوار وتُعزف الموسيقى الصاخبة وتبدأ الممارسات الجنسية حتى نهاية الموسيقى، بعد ذلك تُوقد الشموع مرة ثانية ويظهر رجل من غرب المذبح لا تظهر ملامحه متشحا اللون الأسود الذي يغطي جميع جسده العاري فيقبل إليه الجميع بابتهاال ورهبة ويقبلون مؤخرته ويعلنون له الولاء ثم في النهاية يتم توقيع صك بيع الروح للشيطان.

قال آدم وقد ظهر على ملامحه الامتعاض: ما كل هذه القذارة؟

رد سيمون في غضب: إنها ليست قذارة، إنها الحرية

هدأ آدم قليلا ثم قال: أية حرية تتحدث عنها في هذا الكم من الانحطاط،
إننا بشريا عزيزي ولسنا بهائم

- تقول إن الإله يُلقي إلينا بتعاليم تخالف الطبيعة البشرية، وها أنت ذا تدوس بقدميك على طبيعتنا الكريمة.. قل لي هل رأيت الشيطان بعد كل هذا؟

- لا لم أحصل على هذا الشرف بعد

عاد آدم للحديث بعصبية قائلا: تتحدث عن الشرف!... معذرة أنتم لا تملكون ذرة من الأخلاق

رد عليه سيمون بكل هدوء: الأخلاق وجهة نظريا سيدي

هدأ جايكوب الجميع ثم استطرد آدم يقول: على كل حال فأنا اعتقد أنكم تعبدون رمزا فقط، أليس كذلك؟

أجابه سيمون: جميع الشعوب تنظر إلى الشيطان على أنه شرير وكذاب ومحتال، ينظرون إليه باعتباره كائنا يسعى إلى تدمير واستعباد الإنسان

رد آدم ساخرا: وأنتم تفتحون له الباب لاستعبادكم وتدميركم

- على العكس تماما، فنحن نراه ثائرا ومقاوما عظيما ومتمردا يتصرف دوما بالطريقة التي يؤمن بها دون اعتبار لرأي الآخرين، إنه رمز للشخصية السوية وطريقة تفكيرها التي تتناقض مع عقلية القطيع، إنه رمز التحدي والتمرد، رمز للثورة على القيود، إنه الملك الأعظم الذي يستحق العبادة

- كفاك تبجيلا وحديثا عن ذلك المدعو إلهك الذي لا تعلم حتى إذا كان موجودا أم لا... إنه محض خيال

- هل تؤمن بشيء يا آدم؟

- أؤمن بأشياء كثيرة وليس شيء واحد أؤمن بالحب والعدالة والخير والعطف وجميع القيم الإنسانية التي ترفع من شأن الإنسان ولا تنزله منزلة الحيوانات مثلما تفعلون أنتم

- أنا لا أقصد ذلك، أنا أقصد هل تؤمن بإله؟

- لدي شكوك حول الإله ولدي أيضا الكثير من التساؤلات التي لم أحصل لها على أجوبة بعد... وحتى يكتمل إيماني بالإله لابد أن يكون الدليل عليه مناسباً فهل إذا التقيت بالإله في الطريق وصافحني فهل تعتقد أن هذا كاف، بالطبع لا فعليه إثبات أنه إله...

- أي دليل آخر تريده، ألا يكفيك رؤيته؟

- الحس خادع يا صديقي فنحن نبصر السراب وهو ليس له وجود، كما أننا لا نرى أشياء وقد أثبت العلم وجودها

- مثل ماذا؟

- الجاذبية مثلاً...

نظر الاثنان ناحية جايكوب بعد أن قطع حديثهم صوت شخيرهم، فلقد غاص في نوم عميق فابتسما وأيقظاه، وبعد أن أفاق اعتذر لهما عن نومه متعللاً بأن ذلك الحديث أكبر من أن يستوعبه عقله الصغير ثم استأذن بالانصراف لشعوره بالتعب والإرهاق فهو لم ينم جيداً الليلة الماضية.

في صباح العيد كان جميع مسيحي المدينة يحتفلون بعيدهم في فرح وبهجة تسر الناظرين إليهم، انطلق آدم وجايكوب لتهنئة صديقهم ميلاد بالعيد، اجتمع الناس وأقاموا الاحتفالات وهزول الجميع إلى تهنئة غيرهم ورفرف السرور بجناحيه على المدينة الزوراء كما يحدث في كل عيد سواء أكان هذا العيد يخص اليهود أو المسيحيين أو المسلمين في المدينة.

كان الكل يحتفل مع الكل لا فرق بين مسلم ومسيحي ويهودي أو حتى ملحد، الاحترام المتبادل بين الجميع والتعايش الجميل هو أساس كل معاملاتهم. لا فرق بينهم فالكل بشر واختلاف العقائد لا يؤثر على ترابطهم وتوادهم.

بدأ الناس يتوافدون على الكنيسة ليستمعوا إلى عظة الأب لوثر راعي الكنيسة، والأطفال يمرحون ويلعبون في حدائق المدينة حتى انقضى ذلك اليوم الرائع.

لكن حدث شيء في نهاية ذلك اليوم، وما حدث سيظل محفورا في ذاكرة الجميع لوقت طويل، ففي أثناء تجوال الأصدقاء ليلا في شوارع المدينة رأوا رهطا كبيرا من البشر يتجمعون أمام الكنيسة وينظرون إلى الأعلى في دهشة ورهبة يمتزج بهم الفرح والسرور، ذهب الأصدقاء جهة الحشد المجتمع ليروا ما هم منشغلين به، ولتعلموا سبب اجتماع الناس مرة أخرى بعد أن انفض الجمع في الصباح، رفع الأصدقاء رؤوسهم إلى الأعلى بدورهم ليشاهدوا ما يحدث.

إنها المعجزة لقد رأوا شيئا غريبا، أبصروا الأب لوثر يقف على سطح الكنيسة، وقد أحاطته هالة نورانية شديدة الضياء، هالة تشبه تلك الهالات المرسومة على رؤوس القديسين في أيقونات الكنيسة، ونظر الجميع إلى ناحية القبة فإذا بهالة أخرى بيضاء تحيط بها في مشهد مهيب، بدأت تنتشر همهمات الحضور وهمسات الجميع إنها معجزة السيد المسيح، وقال آخر لا إنها معجزة السيدة العذراء، وصاح غيره بصوت عال أن المسيح قد تجلى لنا ليُخبرنا أنه معنا، وهكذا انتشر الخبر في كل أنحاء المدينة والناس في نشوة عارمة مبهجين بما رأوه من معجزات. كان آدم وجايكوب وميلاد قد انتابهم نفس الدهشة التي سطرت على وجوه القوم كلمات من نور، بعد قليل اختفى القس لوثر عن أنظار الجميع واختفى معه الضوء الذي انتشر على سطح الكنيسة.

عادت التساؤلات تطوف في عقل آدم عن سبب هذه الظاهرة محدثا نفسه:
ألم ينته عصر المعجزات بعد؟

تقدم إليه ميلاد وهو يقول له في نشوة كنشوة الانتصار: أرايت المعجزة يا
آدم؟

قال آدم بفتور: نعم رأيت، ولكن أتظن أنها معجزة بالفعل؟

أجابه: نعم وبكل تأكيد، إنها معجزة عظيمة، أنا لم أرفي حياتي مثل ذلك...

لم يشأ آدم أن يُفسد عليه فرحته بكثرة تساؤلاته وفضّل أن يتركه يعيش
نشوة سعادته بالمعجزة. لكن ظل موضوع الهالات النورانية التي ظهرت حول
القس لوثر وقبة الكنيسة تشغل عقل آدم لفترة طويلة، لم يستطع أن ينحسرها
جانبا، أراد أن يعرف الحقيقة، وهل هذا الدين هو الدين الحق وأن دين
الإسلام الذي اعتنقه والده وأورثه إياه هو الدين الباطل، المسيحية هذا الدين
الذي ما زالت تظهر فيه المعجزات، أم أنه لم يعد للمعجزات مكان في هذا
العصر الذي وصلنا فيه إلى القمر وإلى أعماق البحار.

عاد آدم إلى منزله، أوصد باب غرفته عليه وأتى بالإنجيل ليقراه مرة ثانية
ليعلم أكثر عن حقيقة هذا الدين التي تحدث فيه المعجزات حتى الآن، كان
يُدرِك في قرارة نفسه أن تلك المعجزات برغم أنها لن تؤثر تأثيرا كبيرا في الأوضاع
إلا أنها تُثبت أن الإله يكثر بعباده وأنه موجود يسمع ويرى، أمسك بالكتاب
وبدأ يتفحصه وبقراه بتمعن لعله يصل إلى مبتغاه.

مرت الأيام وهو منعزل عن الحياة لا يفعل أي شيء سوى الجلوس في غرفته
يقرأ ويكتب ملاحظاته، ويبحث عما لا يعرفه في الكتب الأخرى، وعلى صفحات
الشبكة العنكبوتية حتى درس الكتاب المقدس دراسة وافية شافية ونظر في
نصوصه نظرة المتأمل المتفكر، وحالما انتهى من عمله أغلق الكتاب وشرّد
بذهنه بعيدا وشعر في هذه الأثناء بميل شديد إلى هذا الدين، بل وافته خاطرة
في اعتناق هذه الديانة الروحانية السامية... لكنه توقف للحظات ونظر في دفتر
ملاحظاته، وأعاد قراءتها مرة أخرى وعاد إلى شروده وهو يُحدث نفسه قائلا: أن
بها الكثير من الأمور العظيمة كالمحبة والإخاء والتسامح كل ما أؤمن به في هذه
الحياة، ولكن عقلي لا يقبل ما فيها من تثليث وصلب وفداء وتجسيد وقربان
وأساطير.

ثم علا صوته وهو يقول: ما كل هذه الأساطير... ألا يوجد دين يخلو من تلك الأساطير؟

ثم ما لهذا الإله أو ابن الإله يُهان ويُعذب ولا يقاوم أو يدافع عن نفسه، وكل ما فعله أنه هدد بأبيه الذي في السموات والذي لم يفعل له شيئا هو الآخر.

تفكر آدم وأدرك أن مثل هذا الإله إنما هو إله ضعيف عاجز عن الدفاع عن نفسه، ثم عاد لتساؤلاته ثانية وقال لنفسه: ثم ماذا قدم هذا الإله للإنسانية لما هبط إلى الأرض وعاشر البشر؟

شفى المرضى، وأحيا الموتى، ومشى على الماء، كل هذا كلام رائع.....

لكن ماذا فعل مع البؤساء؟ وماذا فعل مع الجوعى؟ بل وماذا فعل مع الظالمين الذين تجبروا؟ كل ما فعله هو التبشير بالضعف والبكاء، أين نضاله لإعلاء كلمة الحق.

ظهرت نتيجة المدرسة العليا وعرف الأصدقاء مكانهم في الجامعات بعدما تقدم كل منهم إلى الكلية التي يرغب بها، قدم آدم أوراقه إلى كلية الفنون بعد أن تناقش في هذا الأمر مع والدته مليا حتى رضخت لرغبته في النهاية، لكن كانت هناك مشكلة واحدة وهي أن هذه الكلية موجودة في العاصمة، ومدينته الزوراء تبعد عن العاصمة مئات الكيلومترات، لذا فهو لن يستطيع أن يدرس بها وهو يعيش في المدينة، فكان لابد له من الانتقال إلى العيش في العاصمة وبذلك سوف يضطر إلى البحث عن مكان ليسكن فيه بالقرب من كليته. وقد رفضت الأم هذا الأمر في البداية لكنها وافقت أخيرا بعد أن اشترطت عليه أن يُقيم في العاصمة في قصر خاله جلال، فخاله ثري من أثرياء القوم، رجل يملك الجاه والسلطة والثروة وله نفوذ كبير في البلد بأكملها بصفته عضوا بالبرلمان الوطني ورئيسا لأكبر حزب سياسي في البلاد.

تحدثت الأم مع أخيها بشأن قدوم آدم للعيش معه في العاصمة ليستكمل دراسته الجامعية في كلية الفنون في العاصمة، فرح جلال فرحا شديدا لدى سماعه تلك الأخبار فهو لم يكن له عقب، ويعيش في قصره الكبير الفخم مع زوجته فحسب، ويستطيع كذلك إعالة آدم طوال فترة وجوده في العاصمة.

أما ميلاد فتقدم إلى كلية اللاهوت ليدرس الدين المسيحي حتى يصير كوالده وما شجعه على استمرار هذه الرغبة في دراسة الدين هو رؤيته لتلك المعجزات التي حدثت في الكنيسة فزادته إصرارا على مواصلة ما كان يفكر به.

لم يتبق سوى جايكوب الذي تقدم بأوراقه إلى دراسة التجارة حتى يتسنى له أن يُدير تجارة والده فعلى الرغم من أنها لم تك رغبته إلا أنه نزل على إرادة والده لعله في يوم من الأيام يُمسي ثريا ليعيش في رغد، وقد اخذ على نفسه العهد بأنه ما أن يصبح ثريا لن يبخل على نفسه وعلى عائلته في المستقبل بأي شيء كما كان يفعل والده.

شارفت الإجازة على الانتهاء والجميع يستعد للحياة الجديدة فلقد اختلفت طرق الأصدقاء كل منهم في مكان أو في بلد غير الآخر، اجتمع الأصدقاء للمرة الأخيرة قبل الرحيل واتفقوا سويا على أن يبقوا جميعا على اتصال، وأنهم سوف يتقابلون كذلك في الإجازات هنا في مدينتهم الجميلة التي عاشوا فيها أجمل أيام حياتهم.

أعد آدم حقيبة سفره واستعد للسفر، سوف يسافر بالقطار تلبية لرغبة الأم التي خشيت عليه من الطرقات إذ سافر بالسيارة، قررت الأم توصيله إلى محطة القطار بالسيارة، كان يجلس بجانبها شارد الذهن يحدوه الأمل، والأم لا تكف عن الحديث وتقديم النصائح طوال الطريق لمحطة القطار، إياك أن تفعل كذا....

وإياك وأصدقاء السوء.....

حافظ على دراستك، وطعامك وشرابك وصحتك.....

وإياك وإياك وإياك.....

والكثير من التعليمات التي تُرشده بها إلى الطريق السوي.

وصلت السيارة أخيرا إلى محطة القطار، ترجلت الأم عن السيارة وكذلك فعل آدم ثم أنزل حقائبه من حقيبة السيارة، قدمت له الأم تذكرة القطار والكثير من الأموال، وأخبرته إذا احتاج لشيء آخر فليتحدث مع خاله جلال، وآخر أمر أمرته به هو أن يقوم بالاتصال بها حالما يصل إلى العاصمة، كذلك يجب عليه الاتصال بها يوميا لتطمئن عليه.

مازال آدم يقضي وقته الطويل في ذلك القطار وهو يرى الأشجار والمباني تجري مسرعة من نافذة القطار. يُفكر في دوائر لا مخرج منها والقطار يسير في رحلات دائرية، كان يُفكر في الماضي محاولاً أن يقتل الوقت الطويل بتذكر بعض الأشياء. فذهب إلى ماضيه القريب من الموت الدرامي لوالده وتمرد المراهقة، وابتعد كثيراً إلى لمسات طفولته السعيدة، كانت البدايات مشوشة لا شيء يبدو له حقيقي وكأنما هو يعلم بهذه الحياة، وفي النهاية يستيقظ ليكون شخصاً آخر، شخص مختلف تماماً عما كان عليه.

توقف القطار في محطته الأخيرة العاصمة، نزل آدم من القطار وتوقف في ميدان العاصمة في انتظار السيارة التي سيُرسلها له خاله لتقله إلى القصر، وقف ينظر حوله في ذهول مما يراه فرأى عجائز، وبشراً تجري، وطائرات تحلق في الفضاء، ناطحات سحاب، أصواتاً صاخبة وصراخاً، بكاء وضحكات بشر مختلفة الأشكال والألوان والقسمات، حقائب متروكة على الأرض لا أصحاب لها، أطفالاً بلا آباء ولا أمهات، دخان المطاعم والسيارات والمصانع يملأ الأجواء، يرى بشراً يأكلون في الشوارع وآخرين ينظرون إلى أعلى وغيرهم يتحدثون، أبراجاً عالية وأنفاقاً ضحلة، سيارات سريعة، وأضواء باهرة، وأشياء تطير، وأخرى تمشي على الطرقات، الزحام شديد والعاصمة في حركة دائمة لا تنفض بدون كلل أو ملل، يبدو المشهد وكأنه صورة غير طبيعية لا حقيقة فيها، شعر بأنه وسط آلة ضخمة تدور تروسها باستمرار، تسأل أين الطبيعة?... أين الحياة?... أين الشعور والنبض?... أين الجمال؟

لا شيء سوى آلات بشرية متحركة، وأبنية صامتة تبعث على الضجر والملل، كان ذلك شعوره عندما خطى أولى خطواته في العاصمة لحظة انتظاره السيارة، وما أن أتت حتى حملته إلى القصر، هناك وجد خاله وزوجته في انتظار قدومه على أبواب القصر احتضنه الخال وزوجته وقاموا باصطحابه إلى غرفته الخاصة ليستريح من عناء السفر الطويل.

دخل آدم إلى غرفته الجديدة، كانت فاخرة جداً وشديدة الفخامة يتوسطها سرير ضخّم تزيّنه بعض الزخارف، السرير مغطى بغطاء حريري ذو ورود حمراء كبيرة تلائم السجادة المفروشة على أرضية الغرفة، بجانب السرير في زاوية من زوايا الغرفة كرسي فخّم يحاكي في تصميمه شكل السرير، بجوار الكرسي منضدة من الخشب الفاخر عليها مصباح كهربائي أمامها مرآة كبيرة الحجم ومكتبة صغيرة بها بعض الكتب.

استلقى آدم على الفراش فاردا جسده لكي يُريحه من أثر الجلوس الطويل أثناء سفره وراح في نوم عميق لم ينهض منه إلا متأخرا، قام من نومه ودار ببصره في أنحاء الغرفة حتى وجد الباب المؤدي إلى الحمام الموجود بداخل الغرفة الذي لم يكن قد رآه من قبل عند دخوله الغرفة. فباب الحمام بجوار الباب الرئيسي لغرفته وعليه ستارة كبيرة قد حجبتة، عاد الانتعاش إلى جسده ووجهه بعد الاستحمام، ارتدى ملابسه وخرج من الغرفة ليتفقد الأحوال داخل القصر.

كان القصر من الداخل مهيب التصميم يبعث على الجلال والرهبة فهو على طراز عتيق وكأنه قصر ملك عظيم. وجد آدم خاله وزوجته يجلسان على منضدة طويلة جدا يتناولون عشاءهم فجلس معهم وتناول الطعام بعد أن نال الجوع منه. لكن خاله لم يشأ إزعاجه فتركه لينام حتى يستيقظ من تلقاء نفسه، وبعدما انتهوا تحدثوا في أمور كثيرة تعرفوا من خلال الحديث على أخبار المدينة الغراء، وأخبار الوالدة وقد وعده خاله بأن يأخذه في جولة في العاصمة لُريه معالمها وأهم الأماكن فيها، كما أنه سوف يُعرفه على كليته فلم يتبق سوى أيام قلائل حتى تفتح الجامعات أبوابها.

في صباح اليوم التالي خرج آدم مبكرا، تجول في حديقة القصر ثم جلس يحتسي فنجان القهوة فيها تحت أشعة الشمس الساطعة، استمر في جلسته تلك إلى أن أمسّت الشمس في كبد السماء إيذانا بالعصر موعد استيقاظ خاله من نومه، وبعد أن تناول الخال الإفطار سأل خدام القصر عن آدم فأخبروه أنه كان يجلس في الحديقة منذ الصباح حتى أصابه السأم فغير ملابسه ونزل المسيح وهو الآن في غرفته ليستعد للحضور، أمر الخال الخدام أن يستعجلوه، فهرول الخادم إلى غرفته ليخبره، وبعد لحظات خرج آدم من غرفته وهو في كامل أناقته، تقابل مع خاله الذي أعلمه بأنهم سوف يقومون بزيارة في شوارع العاصمة الآن كما وعده من قبل وفي نهاية الجولة سيتناولون عشاءهم في أفخم مطاعم المدينة.

انطلقت السيارة بهم في شوارع المدينة وعند كل مكان تتوقف السيارة للحظات ليُخبره الخال بأسماء الأماكن، فيقول له هذه هي كليتك، وسوف تأخذك السيارة من القصر إلى هناك وتعود في الموعد المحدد لتعود بك إلى المنزل مرة أخرى، لكن عليك أن تُعلم السائق بمواعيد محاضراتك حالما تعرفها،

وهما في الطريق توقفت السيارة ليشرح له الخال فهذا مطعم كبير يُقدم أشهى المأكولات البحرية في العالم، وذلك هو النادي الذي تشترك فيه زوجة خالك، وهذه هي مباني أكبر الشركات الاستثمارية في العالم أجمع، إنها مجموعة شركات العالمية للاستثمار، وتلك البورصة العالمية للأسهم والسندات، وذلك مبنى التلفزيون الوطني وفي مقابله مبنى تلفزيون الواقع، وهذا مبنى أكبر صحف البلدة جريدة "القرون الوسطى" وأمامها منافستها الشرسة جريدة "عصور الظلام".

طفق الخال يسرد له بعض القصص والحكايات عن تاريخ البلاد، وكان كثير الحديث عن السياسة والمجتمع وغيرها من الأحاديث التي تبعث على الملل، حتى سأم آدم من الحديث عن السياسة فهو لا يميل ولا يحب حديث السياسة والسياسيين، فهو يظن كما أخبره والده من قبل بأنها تمتلئ بالكذب والخداع والغش والنفاق وكثيرا من تلك الأمور.

بعد انتهاء الجولة تناول آدم العشاء مع خاله ثم اعتذر له الخال عن رحيله الآن فلديه الكثير من الأعمال كما أن العاصمة كبيرة وشاسعة، وعرفه بأنه بعد أن يندمج في جامعته ومع أصدقائه سيتعرف حينها على جميع معالم المدينة عن طريق الأصدقاء، كان خاله جلال الديب دائم الانشغال بقضاياها السياسية بحكم منصبه كعضو في البرلمان الوطني ومسئوليته الكبيرة في الحزب الكبير.

مرت الأيام وفتحت الجامعة أبوابها، نهض آدم من نومه مبكرا وهو يشعر بالنشوة والبهجة لاستقبال تلك الحياة الجديدة، قام بالاغتسال وارتدى ملابسه ووقف أمام المرأة ليمشط شعره فإذا به عندما نظر إلى المرأة يجد الشيخ العجوز الذي رآه من قبل أثناء دفن جسد والده في المقابر واقفا وراء ظهره، رآه بوضوح في مرآته، ارتعدت أوصاله خوفا وفزعا فسقط المشط من بين يديه، التفت وراءه في رهبة فلم يجد شيئا، حاول أن يستجمع شتات نفسه ويعود إلى ما كان يفعله بعد أن طرد تلك الأوهام والخيالات خارج رأسه وانحنى إلى الأرض ليلتقط المشط ثانية ونظر مجددا إلى مرآته فإذا بالرجل يظهر وراءه مرة أخرى، دبّت في جسده رعشة قوية أخذت بتلاييب عقله، إنه يراه رؤى العين، ولكنه قرر أن ينظر خلفه مرة أخرى فلم يجد شيئا فتحدث إلى نفسه قائلا: ما هذا الذي يحدث لي؟

استوى واقفا ونظر إلى المرأة فوجد الشيخ ماثلا وراء ظهره. تحدث إليه العجوز قائلا: إذا أردت أن تراني وتحدث معي، فلا تنظر خلفك ولكن انظر فقط إلى مراتك

ارتعشت يدها فزعا وقال له: مَنْ أنت؟

رد عليه العجوز والابتسامة تعلو وجهه وقال: أنا الحارس

قال آدم وقد بدأ يتلعثم في الكلام: هل أنت بشر أم من الجن أم ماذا؟

أجابه في اقتضاب: لا تُكثر من التساؤلات... جئت فقط لأريك الطريق

قال آدم في دهشة: أي طريق؟

- الطريق إلى الكنز، الطريق إلى السر

تعجب آدم من حديثه وتساءل: أي كنز؟ وأي سر؟

- ألا تريد الحقيقة، اتبع كلماتي وسوف تعرف الطريق

ولما بدت الألفة تسري في الحديث نسي آدم كلماته، ونظر خلفه ليُحدثه وجها لوجه فلما التفت وراءه لم يجده، حاول النظر مرة أخرى إلى المرأة فلم يجده كذلك، هرول في لهفة يفتش عنه في جميع أركان الغرفة وزواياها وفي كل مكان حتى يجد أثرا لمحدثه الذي اختفى فجأة تاركا إياه في حيرة من أمره، وبعد البحث الطويل والتفتيش لم يعثر على أثر لذلك العجوز، جلس آدم على كرسيه الهزاز متفكرا في أمر ذلك الرجل لم يقطع تفكيره سوى طرقات الخادم على الباب قائلا: جئت لإيقاظك يا سيدي..

رد عليه آدم قائلا: شكرا جزيلا لكنني مستيقظ بالفعل

هم الخادم بمغادرة الغرفة لكنه تراجع فجأة وقد لاحظ آدم على وجهه علامات الدهشة فقال له آدم: ماذا بك؟

قال الخادم في ارتباك: هل لي أن أسألك سؤالا يا سيدي؟

- تفضل هات ما عندك

- هل كنت تتحدث مع أحد منذ قليل؟

تعجب آدم وقال للخادم وقد تورد وجهه خجلا: أتسترق السمع أمها الخادم؟

تلعثم الخادم وقال له: لا يا سيدي ولكني عندما اقتربت من الغرفة سمعتك تتحدث مع أحد

- هل سمعت صوت ذلك الشخص الذي تحدثت معه؟

- في الحقيقة لا

اطمأن قلب آدم وقال له في ثقة: نعم نعم كنت أتحدث في هاتفي... هل هناك أسئلة أخرى؟

- لا يا سيدي، استأذنك بالانصراف

غادر الخادم الحجرة ومازالت ملامح الدهشة والحيرة تعلو وجهه ومشى وهو يتحدث مع نفسه في صوت هامس قائلاً: أي هاتف تحدث فيه وهو قد ترك لي الهاتف مساء أمس كي أقوم بشحنه.

بعد لحظات نهض آدم من مقعده سريعاً، نظر في ساعته وعلم أنه قد تأخر على كليته في يومه الأول، نزل السلم مهولاً وفتح باب القصر متوجهاً إلى البوابة الرئيسية مجتازاً الحديقة فوجد السائق ينتظره بالسيارة، دلف إلى الداخل وانطلقت في طريقها إلى الكلية. ترحل آدم من السيارة وتوقف لفترة قصيرة أمام باب الكلية يجول ببصره يمينا ويسارا متفقداً ذلك المبنى العتيق للكلية.

اجتاز البوابة وهو يمشي على طريق معبد تحفه مساحات خضراء واسعة من الاتجاهين وعلى جانبي الطريق بعضاً من أشجار الصفصاف، عند نهاية الطريق يقف مبنى الكلية في شموخ، وما أن نظر إلى المبنى إلا وشعر بأن به لمسة فنية بريشة فنان عظيم، فالأعمدة المرتفعة على جوانبه والنقوش المختلفة والرسومات على حوائطه تنم عن إبداع، مبنى رائع التصميم يبعث في النفس بهجة وراحة، يتوسط المبنى باب خشبي قديم والكلية بأكملها على طراز عتيق نظرا لقدمه الذي أكسبه جلالاً وروعة.

كان الطلاب ينتشرون كالجراد على الطريق المعبد، أشاح آدم بناظره ناحية الباب الخشبي فوجد بجانبه الطلاب الجدد وهم يتفقدون على لوحة كبيرة على حائط الكلية مواعيد محاضراتهم، وتحت الأشجار المترامية في فضاء الكلية على جانبي الطريق يجلس الطلاب والطالبات، فمنهم من يمسك بلوحة يرسم عليها، ومنهم من يتفكر في شروء، وآخرون يتناقشون، لكن أشد ما لاحظته آدم هو اختلاف الأشكال

بين الطلاب اختلافا شاسعا من حيث المظهر والملبس والطريقة التي يمشون بها والتي يتحدثون بها.

كان آدم يقف أمام الباب الخشبي العتيق للكلية ويتابع كل هذا عن كثب، إنه هنا على موعد آخر مع حياة جديدة وأشخاص جدد وتجربة جديدة، هنا وجه آخر من وجوه الحياة، وفي نفس اللحظة التي كان يتابع فيها مجريات الأمور شعر بأحد يُربت على كتفيه من وراء ظهره، التفت إلى الورا فوجد شابا غريب الثياب أشعث الشعر عندما نظر إليه رأى ملامح الغضب تكسو ذلك الوجه، أول انطباع ظهر عليه عن ذلك الشخص أنه ربما يكون مجرما عتيد الإجرام.

مد الشاب يده إلى آدم ليصافحه قائلا: مرحبا بك في السرداب

صافحه آدم بدوره ولم يمهله الشاب تابع حديثه: سيث

نظر إليه آدم في دهشة: أهذا اسمك؟

- نعم هل لديك مشكلة معه؟

رد آدم سريعا وقال: لا لا.... أنا آدم

على الرغم من أن ملامح سيث تبعث على الخوف والكرهية إلا أنه كان خفيف الظل، مليح النكتة، فكان الجميع يحب طرائفه كما أنه يشتهر بمكائده وحيله المضحكة والمرعبة أحيانا...

بدأ سيث يحك رأسه وكأنه يتفكر ثم قال لآدم: طالب جديد أليس كذلك؟

أجابه مبتسما: لديك فطنة وذكاء، قالها آدم على سبيل المزاح

رد عليه سيث وهو عابس الوجه: هذا أقل ما أملكه

ابتسم آدم وسأله: في أي سنة تدرس أنت أيها السيث؟

قال ضاحكا: في السنة الأولى منذ ثلاث سنوات

- اتمرح؟!

- أقول لك الحقيقة... الجميع هنا يقدر موهبتي العظيمة فيجعلوني أعيد كل سنة عددا من المرات حتى لا أفارقهم..

ضحك آدم، واصطعبه سيث إلى داخل الكلية حتى يتعرف على الطلاب، لكن آدم طلب منه الإذن كي يتعرف أولا على جدول محاضراته على وعد

بمقابلته لاحقا. اطلع آدم على جدولته فوجد أن عليه الحضور الآن في قاعة المحاضرات. أسرع يفتش عن القاعة داخل الكلية حتى وصل إلى مبتغاه.

تطلع إلى القاعة فلم يجد أحدا بها. راح يتفقدتها فإذا هي غرفة دراسة بلا نوافذ، ذات جدران حجرية تزينها مصابيح عتيقة مما جعل الضوء المنبعث منها يبدو باهتا. بدت له وكأنها مخبأ سري تحت الأرض، كان بها بضع مقاعد مبعثرة في كل جانب من جوانبها.

بعد لحظات دخل إلى القاعة طالب ذو لحية طويلة يضع على رأسه قبعة. يرتدي بنطالا من الصوف وقميصا فضفاضاً، اتخذ مقعده في آخر القاعة. بعد ذلك دلفت فتاة نحيلة بشعرها المجعد الطويل، وكانت ترتدي قميصا ورديا وبنطالا قصيرا. مضت فترة وبدأ تتابع الطلاب في الدخول سريعا إلى القاعة وجلس كل منهم على مقعد من تلك المقاعد المنتشرة في أنحاء القاعة، وقبل أن يتفقد آدم وجوه الجميع كعادته وصل إلى القاعة البروفيسور روفائيل، جاء في مواعده تماما بالدقيقة والثانية، والبروفيسور روفائيل كهلا ذو انحناء بظهره وله طريقة مشي غريبة، يكسو الشعر الأشهب رأسه، منذ زمن طويل وهو يتولى التدريس في هذه الكلية وبسبب زهده في الحياة وتقشفه بدا وكأنه راهب.

حملق الرجل في وجه الجميع من خلال نظارته ذات الإطار الأسود و العدسات السميكة وقال لهم: مَنْ منكم يريد أن يكون رساما مبدعا؟

أبصر الطلاب فوجد غابة من الأيادي ترتفع في الهواء فنظر إليهم قائلا: وماذا تنتظرون؟، اذهبوا الآن لترسموا.....

بعدها غادر القاعة بلا أي كلمات أخرى وترك الطلاب الجالسين على مقاعدهم وقد حفتهم الحيرة والدهشة. نظر الطلاب في وجوه بعضهم البعض في ابتسامة ولسان حالهم يقول: ما هذا الذي يحدث.. ألن ندرس الفن؟

شاهد آدم الجميع حوله في القاعة فوجدهم كما هم على مقاعدهم، وسمع صوت يهمس جانبه متحدثا إليه. نظر آدم إلى مصدر الصوت فرأى ذلك الشاب ذو اللحية يقول له: هكذا هو روفائيل دائما.... فنان عظيم، لكن لماذا هؤلاء المبتدئين تماما مثل كل عام لا يتغيرون؟

كان آدم يُصغي إليه في اهتمام واستطرد قائلا وهو يشير بإصبعه ناحية الطلاب الذين بدأوا يتهامسون: انظر إلى هذا الطالب ذلك هو الرجل المقدس،

وأنظر إلى ذاك الذي يتحدث مع الفتاة هناك أنه الممل المغرور، وهذه هي عاهرة الكلية، وهذا هو مقبل المؤخرات

ثم ارتفع صوته وهو يضحك ويقول: ألقى نظرة إلى هناك وقل لي ماذا ترى؟
أجابه: لا أرى شيء

قال الشاب ضاحكا: هذه الأم.. ألا تراها؟

- نعم أراها ماذا بها؟

- تلك هي الأم التي ترك لها أبنائها المنزل فأرادت أن تكتشف جانبها المبدع

رد عليه آدم قائلا: وكيف تعرف كل هذه الأمور؟

- بالنظرة والهيئة يا سيدي، فأنا أعيش في هذه التكرارات من هؤلاء الناس منذ سنين لقد سأمت من كل شيء، أعيد هذه السنة مرارا وتكرارا، ويرفض الأساتذة أن يعبروا بي إلى السنة التالية

قال آدم مازحا: هل أنا الوحيد هنا الذي لم يُعيد السنة؟

قال له في ابتسامة: هل قابلت أحدا غيري يُعيد السنة؟

- نعم.... سيث

- ها.... سيث ذلك المجنون، أنه معنا في ذلك الصف لكنه لا يحضر محاضرات، بالمناسبة اسمي سام، وأنت؟

- آدم

- أهلا ومرحبا بك في السرداب

أدرك آدم أن المسمى الخاص بالكلية والأكثر شهرة بين الطلاب هو السرداب، فالجميع يطلق عليها ذلك الاسم، لكنه سيعلم حتما لما يطلقون ذلك الاسم على هذه الكلية، خرج آدم ليتفقد جدولته الثانية فلم يجد لديه أي محاضرات أخرى، وعلم أن هناك فقط محاضرة أسبوعية فلدیه إذا الكثير من أوقات الفراغ لعله ينتهز الفرصة ليتعرف أكثر على العاصمة، قرر أن يتجول في العاصمة وإذا ضل طريقه سيتصل بالسائق كي يأتي ويحمله.

خرج آدم من باب الكلية وتوقف للحظات وهو يتفكر في أي طريق يسلكه وإذا به يتفاجأ بشخص يرتب على كتفيه ويطلق صرخة عالية مرعبة، التفت

خلفه في فزع فإذا بشخص تهمر الدماء من عينيه وشفتيه، ارتعد آدم وتسارعت دقات قلبه وحاول أن يركض بعيدا عن ذلك الشخص إلى أن استوقفه شاب آخر وطلب منه أن يلتفت وراءه، وما أن فعل حتى وجد ذلك الشخص يتزع عنه القناع المرعب وإذا بسيث يقف وهو يضحك ضحكة شريرة، غضب آدم من فعلته هذه وأراد أن يغادر لكن سيث لحق به وأمسك بذراعه وهو يعتذرله عن تصرفه هذا وأخبره بأنه سيعتاد على مثل تلك المواقف فيما بعد، سأله سيث: إلى أين أنت ذاهب الآن؟

أجاب آدم بعد أن أفرخ روعه: سأقوم بجولة

رد سيث متسائلا: بمفردك؟

- نعم

- ألا تحتاج إلى رفيق؟

- هيا بنا

تجول الرفيقان في شوارع العاصمة، أوضح سيث لآدم معالم المكان، كما أراه أماكن الملاهي الليلية التي يسهر فيها هو وأصدقائه، عرّفه كذلك على خبايا العاصمة، فلقد تربى سيث وترعرع في ضواحي هذه العاصمة لذا فهو يعلمها جيدا، تبادل الحديث عن أمور شتى، وانتقلا من أمور الدراسة إلى الفن حتى تطرقا إلى الحديث عن الأديان والمعتقدات، ومرت الساعات دون أن يشعرا بالملل أو الرغبة في التوقف عن التجول والحديث، أعجب آدم بالكثير في شخصية سيث الذي لم يكن كما يبدو للجميع فهو شخص واسع الإطلاع كثير الهزل.

قال له سيث: أنا والأصدقاء نُقيم حفل الليلة في منزلي، فهل لديك رغبة في أن تأتي إليها؟

تساءل آدم: وماذا سيكون في هذا الحفل؟

- كل ما تشتهي الأنفس من خمر ونساء ولعب ولهو

ضحك آدم وقال له: كفالك مزاحا، وعلى كل حال سأحضر إن استطعت، فهل لك أن تعطيني العنوان؟

مرت الساعات واقتربت الشمس على المغيب، هاتف آدم السائق وأعلمه بمكانه حتى أتى إليه ليقله بالسيارة إلى البيت، تناول الطعام مع زوجته خاله في المنزل، وسألها عن سبب غياب الخال فأخبرته بأنه سيعتاد على عدم رؤيته كثيرا لانشغاله الدائم، طلب منها آدم أن يذهب إلى حفل يقيمه بعض الأصدقاء لكي يتعرف بعضهم على البعض.

ردت عليه قائلة: أأصبح لك أصدقاء بهذه السرعة؟

- في الحقيقة هو صديق واحد وقد دعاني إلى الحفل.

- افعل ما ترغب به، واستمتع بحياتك، فأنت لم تعد صغيرا بعد.

- أشكرك كثيرا على راحة صدرك

انطلق آدم إلى غرفته ليتجهز ويستعد للحفل وحالما انتهى احضره السائق إلى عنوان صديقه سيث، طرق الباب ففتح له سيث وقال له مازحا: آدم.... هيا لتنضم إلى زمرة أصدقاء السوء

دخل آدم منزل سيث المكون من دورين، وجد الكثير من الشباب والفتيات في كل ركن من أركان منزله يحتسون الخمر ويعانق بعضهم البعض، وهناك من يرقص على أنغام الموسيقى الصاخبة، شعر آدم في البداية بعدم الراحة لمثل تلك الأمور التي لم يعهدها من قبل، اصطحبه سيث في جولة بالمنزل وهو ممسك بكأسه في يده، وباليد الأخرى يطوق كتف آدم ويقول له: إن الحياة قصيرة يا صديقي.. فلتغنم الفرصة وتحاول أن تحصل على أكبر قدر من المتعة في تلك الحياة اللعينة فهايتنا جميعا إلى العدم.

تعجب آدم من حديث سيث ولكنه سايره في الأمر، فتلك الأمسية ليست المكان ولا الزمان المناسب للتحدث عن مثل هذه الأمور، وحينما علم سيث أنه قد حضر بمفرده بدون صديقة أحضر له واحدة من الفتيات وعرفه عليها، قدمت له الفتاة كأسا من النبيذ فرفض متعللا بأنه لا يشرب الخمر ليس تدينا، ولكن حفاظا على عقله الذي يحترمه كثيرا، فقدمت له لفافة من التبغ الممزوج بالمخدر ورفضها كذلك، فسخرت منه وضحكت على سذاجته لكنه قابل سخريتها بلامبالاة واستمر الاثنان في الحديث حتى أصابه الضجر من تافهة تلك الأحاديث وتلك الصحبة أيضا.

استأذن آدم من سيث بالانصراف فقال له سيث: إن الحفل لم ينته بعد... عليك الانتظار واستعداد على ذلك....

لم يُمهله آدم ليُكمل حديثه وهروا إلى الخارج ليستنشق بعض الهواء النقي بعد أن امتلأ المنزل بالدخان المتصاعد من أفواه السكارى. أحس آدم برأسه تدور وأصابه الصداع نتيجة تدخين المخدرات حوله واستنشاقها. توقف لبعض الوقت في فناء المنزل وقد أنعشه الهواء النقي وشعر برغبة شديدة في المشي والابتعاد عن ذلك المنزل.

بدأ يمشي الهوينى وقد لعبت الأفكار في رأسه متفكرا في كلمات سيث له في جولتهم الصباحية بشأن الأديان فلقد أخبره سيث أن الدين هو من صنع البشر. ابتكره الإنسان لتفسير كل ما هو مجهول، كان الدين بالنسبة لسيث مجرد فكرة عبثية وجريمة ضد الحياة، ولما سأله آدم عما يؤمن به أخبره بأنه فقط يؤمن بالمتعة واللذة. هذا الحديث أعاد آدم مرة أخرى لتساؤلاته التي لا تنتهي بشأن الدين لكنه أدرك في البداية أن عليه أن يعرف أولا إذا كان الإله موجودا حقا أم أنه ليس هناك ثمة إله؟

قرر أنه سيستكمل المسير في طريقه الذي وضعه لنفسه وهو طريق البحث عن الإله. لعله يعرف إذا كان له وجود أم أنه لا وجود له. ولسوف يتبع كل الأدلة ويترك كل الأبواب ويسلك جميع السبل ليصل إلى هذا الهدف العظيم حتى يستريح قلبه ويطمئن خاطره.

مر الأسبوع سريعا وأدم منشغل في تأملاته تارة، وفي تفقد العاصمة الغراء وحيدا تارة أخرى. كان آدم يفتقد أصدقاءه ميلاد وجايكوب، وجلسهم معا على التل في مدينتهم الهادئة، والتي على الرغم من هدوئها فهي أقرب إلى الحياة الطبيعية من ذلك الضجيج الذي يملأ جنبات العاصمة الثرية بكل شيء، التي تمتلك كل شيء إلا الهدوء والحياة الطبيعية.

كان آدم يشعر في مدينته أنه مازال إنسانا، إنه مازال بشرا حتى أتى إلى العاصمة فأحس بأنه أصبح مجرد ترس في آلة ضخمة لا تتوقف، فالعاصمة كخلية نحل لا تكل ولا تمل، الجميع يدور فيها في دوائر.

في مساء اليوم الأخير من ذلك الأسبوع الصاخب حاول آدم أن يرقد في فراشه حتى يستطيع النوم باكرا فلديه غدا محاضرة أخرى في كليته، وقبل أن

يخلد إلى النوم سمع همسات في أذنه فارتاب لهذا الصوت، نزع عنه غطاءه وقام من فراشه يتحرك في أرجاء الغرفة. لقد جفاه النوم تلك الليلة ولا يعلم لماذا؟.

ظل يدور في غرفته وهو شارد الذهن لا يفكر في شيء. تلاطمت الأفكار في عشوائية فأصابته رأسه بدوار حتى وجد نفسه يقف أمام مرآته، يُحدق فيها فإذا بالعجوز الذي ظهر له مؤخرا يظهر مرة أخرى فغضب ريقه ولم يحرك ساكنا، أبصر العجوز في المرآة وقال له: مَنْ أنت يا رجل؟

رد عليه العجوز بصوته الرخيم: قلت لك مسبقا أنا الحارس... أكل مرة أتيك فيها تسألني عن اسمي؟

- أرجوك اخبرني فلقد أصابتي الحيرة، أأنت حقيقة أم خيال أم أنني أحلم؟
- أتيت إليك لأعلمك طريق الحقيقة... الطريق إلى الكنز... بعدها تقرر إن كنت أنا حقيقة أم خيال أم حلم

وضحك في سخرية.

أريد وجه آدم بعدها من الغضب وقال له في عصبية: الحقيقة، الحقيقة، الحقيقة... لا شيء اسمه الحقيقة، لقد تعبت.

وعندما علا صوته هكذا وأحمر وجهه من شدة الغضب، اختفى العجوز من أمام ناظره، هروا إلى فراشه وهو يُحدث نفسه قائلا: حارس، وحقيقة، وطريق، وكنز، لقد دنوت من الجنون.

عاد آدم إلى كليته صباح اليوم التالي وقد علم أن البروفيسور روفائيل هو الذي سيُدرس الفن لهم طوال هذا العام، كما أن المحاضرة الواحدة ليس لها موعد محدد للانتهاء، هكذا كان النظام الدراسي في عامه الأول، تعجب آدم من ذلك النظام، ولكنه أقنع نفسه أن ذلك قد يكون لحكمة لن يعلمها إلا لاحقا.

دخل القاعة فوجدها تعج بالحضور، وفي أيدي الجميع لوحات مما عملت أيديهم سوف يقدموها للبروفيسور، كانت القاعة تمتلئ بأحاديث الطلاب وهمساتهم حتى دخل روفائيل القاعة في موعده المضبوط دوما، حيا الطلاب بإيماءة من رأسه ثم تحدث قائلا: مَنْ رسم لوحة البارحة؟

راح البعض يرفع أصابعه، والبعض الآخر لم يفعل، وكان آدم من بين مَنْ لم يرسم البارحة فنظر إليه وسأله: لما لم ترسم؟

أجابه آدم: أتريد الحقيقة؟

- ولا شيء غيرها

- لن تصدق إذن؟

رد عليه ساخرا: طالما هي حقيقة فلا أحد يقبلها، تحدث فأنا مستمع

- لقد ظهر لي عجوز البارحة عندما كنت أنظر إلى المرأة ووقف يتحدث معي حتى شغلني عن الرسم.

انفجرت القاعة بالضحك فأشاح عنهم بوجهه في سخرية ونظر إلى المحاضر فما زالت تعبيرات وجهه كما هي لم تتغير فقال له: وماذا كان يريد منك هذا العجوز؟

ساد الصمت القاعة عندما تحدث روفائيل وواصل آدم حديثه: كان سيخبرني عن الطريق إلى الكنز

- أي كنز؟

- اعتقد أنه الحقيقة

- وهل ساعدك؟

- ليس بعد

- إذن فلتستمع له وحتى تصل إلى نهاية الطريق فلتهم بفنك كذلك، فإنه سيصل بك إلى نفس الطريق

عاد الجميع إلى متابعة حديث روفائيل وهم ينظرون تارة إلى وجه روفائيل وإلى وجه آدم تارة أخرى في دهشة.

كان سام جالسا في صدر الغرفة وفي طليعة الصفوف واضعا ذراعيه فوق ركبتيه كعادته، يتلمس لحيته بإحدى يديه ويضع اليد الأخرى على صدره نظر إليه روفائيل قائلا: ماذا رسمت؟

انطلق سام في الحديث وهو يقدم له لوحته قائلا: إنه عمل عن الهوية، فلقد أتيت لتوي من إسرائيل

- وماذا كنت تفعل في إسرائيل؟

- أبحث عن جذوري

- وهل وجدتها؟

- في الحقيقة لا، شعرت هناك بأنني مشرد بلا جذور

ساد صمت طويل في الغرفة. لم يقطع ذلك السكون سوى انطلاق صوت نسائي عبر الأثير يقول بسخرية: يهودي يبحث عن جذوره في إسرائيل ويقدم لنا فنا يهوديا! قل لي يا سيدي أين يمكن للمرء أن يرى فنا يهوديا؟ هل للفن هوية يا سيدي...

نظر الجميع إلى الصوت الآتي من الخلف فرد سام عليها وقد أريد وجهه قائلا: أراك تسخرين من حديثي، وأعتقد أن حديثك فيه ازدراء ومعاداة للسامية أتاه الصوت النسائي من بعيد وهو يقول: مهلك مهلك يا سيدي، فأنا يهودية مثلك تمام ولكني سنمت منكم جميعا، كفاك شعور بالذل والمهانة حاول أن تعيش كإنسان مثلك مثل غيرك

ثم شرعت تسأله: قل يا سيدي هناك الكثير من المظلومين والمضطهدين... هل لك أن نخبرنا كيف تستطيع أن تتوحد مع هؤلاء بصفتك يهودي يشعر بالشتات؟

ارتج الكلام على سام. ولم يستطع أن يجيب، في حين كان روفائيل يستمع إلى الطلاب في صمت ودون حراك، وكان وجهه لا ينم عن أي مشاعر أو ما يجول بخاطره من أفكار. ساد السكون ثانية في الغرفة بعدما أجابها سام في سخرية قائلا: لن أجيبيك

قاطع روفائيل الصمت الذي خيم على القاعة بعد أن نظر إليه الجميع في وسط تلك المناقشة الحامية الوطيس وقال: بمناسبة الحديث عن الهوية.. أرى أن نتساءل عن هوية الفنان، من هو الفنان في نظركم؟

رد عليه أحد الطلاب قائلا: إنه سؤال بسيط... الفنان ذلك الذي يُبدع فنا معين

قال روفائيل: ليس بتلك البساطة يا سيدي... قل لي ما اسمك؟

- إمام

كان إمام شاب طويل القامة قصير الشعر أكسبته عيناه الذابلتان مسحة من الطيبة. إنه شخص ذو ميول غريبة، فالتحاقه بكلية الفنون كان ينبع من

ولعه الشديد بالسحر. وكان دوما يرى أن الفن بدوره لهو نوع من السحر، كما أن الكثير من السحرة يستخدمون الفن في سحرهم، على الرغم من أن معتقده الإسلامي كان يُحذّر من استخدام السحر، وكان شديد القناعة بوجوده لأن دينه أخبره بذلك، كما كان يُدرك في نفسه أن هناك رابطاً يربط بين الفن والدين، لذا قرر دراسة الفن ليقترح ذلك العالم المجهول، فالسحر بالنسبة له الموضوع الرئيسي الذي تركز عليه حياته.

نظروفاثيل إلى الطلاب وقال: أهنأك رأي آخر؟

فرفعت بطة المناقشة الحامية يدها قائلة: أعتقد أن الفنان مثل اللاعب، والعمل الفني نوع من اللعب

قال روفائيل: كيف ذلك؟

- الفنان يتعامل مع الفن مثلما يتعامل الطفل مع ألعابه، فحينما نرى الطفل وهو يكتشف أن باستطاعته أن يبني بيتاً من المكعبات فلا يبنيه في يوم وليلة، وإنما يستغرق الكثير من الوقت إلى أن تنضج الفكرة في عقله، والشئ نفسه بالنسبة للفنان

قال روفائيل: ما اسمك؟

قالت: سلاف

نظر إلى طالب آخر وقال له: وماذا عن رأيك؟

- الفنان هو الذي يبتكر الأفكار الجديدة، ويعبر عنها عن طريق خياله وإحساسه

- ما اسمك؟

- ضياء

كان ضياء أحد الطلاب القلائل في ذلك الصف الذي يمتلك علم غزير، إنه شاب متوسط القامة شعره الطويل ولحيته الخفيفة أكسبته رزانة كما أضفت عليه وسامته جمالا، مسلم قوي الإيمان بدينه ويعتقد في قرارة نفسه أنه الدين الوحيد الصالح على وجه الأرض لمخاطبته لجميع البشر على حد سواء ومناسبتها لجميع العقول، وقد قرر أن يدرس الفن حتى يسهم في إقناع الناس أن الدين الإسلامي لا يُحرّم الفن، وأن الفن مثله مثل أشياء كثيرة فيها الحلال

وفيها الحرام، وهو الآن يجلس في القاعة داخل كلية الفنون التي طالما تمنى أن يدرس فيها.

أشار روفائيل إلى آدم وأذن له بالحديث

فقال: الفنان الحق هو ذاك الذي يحاول أن يُخرج شتى العواطف الإنسانية من خوف وألم وعطف عن طريق الفن، لذا عليه أن يعود إلى طبيعته النقية التي لم تُلوّث.

ردت سُلّاف قائلة: أحسنت... علينا أن نعود للوراء، حيث كان البشر بشرا، انظر إلى العالم ستجد الكذب والخداع والمصالح والغش هي القيم السائدة، لا بد أن نغير هذا العالم البغيض عن طريق الفن، ونعود إلى إنسانيتنا الضائعة
نظر إليه روفائيل وقال له: ومَنْ أنت؟

أجابه: أنا آدم

نظر إلى طالبة أخرى وقال لها: نأخذ الرأي الأخير تفضلي

ردت عليه الطالبة وهي تقول: الفنان لا بد أن يُركز على كل ما هو غريب ومتناقض ولا شعوري، لا بد من البعد عن الواقع وعن الحقيقة لأنهما وهم، علينا أن نرسم من عقلنا الباطن

قاطعتهما سُلّاف قائلة: وكيف لنا أن نرسم من عقلنا الباطن؟

- عن طريق استخدام اللاشعور لا بد لنا أن نهتم بالمضمون وليس بالشكل

- بهذه الطريقة ستبدو اللوحات غامضة ومعقدة

- بالضبط فلا بد لنا أن نرسم ونحن خارج الوعي، وهكذا تخرج اللوحة أكثر

صدقا

تدخل آدم ضاحكا وقال: إذا كنت بالفعل ترسمين من اللاوعي، فهو قد أصبح بالتأكيد وعي، لأنك حينما تبدئين بالرسم فأنت تعي ما تفعله... أليس كذلك؟

كان الصمت قد خيم على رأس سام بعدما أفحمته سُلّاف بآرائها الحادة وفضّل أن يستمع فقط لتلك المناقشة التي تدور حول هوية الفنان بعد أن ألجم الصمت لسانه

وجه آدم سؤالاً إلى روفائيل: لماذا لم تتعرف على الجميع مباشرة في البداية؟ رد عليه روفائيل: معرفة الاسم بعد رأي صاحبه يثبت في الذاكرة يا ولدي، أما الآن فبعد تلك المناقشة الطويلة الثرية أحب أن أخبر الجميع أن الجدل واختلاف الآراء هنا، ما هو إلا الجدل الدائر حول الفن في جميع المذاهب..... انطلقوا الآن إلى بيوتكم، واحضروا معكم الأسبوع القادم ما تعتقدون أنه أفضل أعمالكم الفنية قديمة كانت أو جديدة.

غادر روفائيل القاعة وتبعه الطلاب ليذهب الجميع إلى مقصف الكلية ليتناولوا بعض الأطعمة والمشروبات، ويتعرفوا على بعضهم البعض في تلك الفرصة السانحة، جلس الأصدقاء وتحديثوا كثيراً حتى زالت الكلفة في الحديث وبدأ الجميع وكأنهم أصدقاء منذ زمن، كانت سلاف أكثر الطلاب جاذبية بالنسبة لادم نظراً لآرائها الجريئة وصراحتها الطاغية، كما أن إشارات برأيه في المحاضرة زاد من إعجابه بها.

تقدم بعض الأصدقاء من آدم واعتذروا له لأنهم قد اتخذوا فكرة خاطئة عنه في البداية عندما تحدث عن العجوز الذي ظهر له في المرأة، وقد ظنوه أحد غربيي الأطوار، لكنهم بعد الحديث معه أدركوا أنه ذو عقل راجح وفكر عميق، فكان لابد من الاعتذار لسوء الفهم.

لاحظ آدم أن كثيراً من الطلاب الذي رآهم في يومه الأول قد تغلخوا عن دراسة الفن، ولم يتبق منهم سوى من حضر اليوم ولما سأل أصدقاؤه عن السبب، أخبروه بأن الفن لا يأتي بالأموال، وهؤلاء الذين غادروا انصرفوا لدراسة شيء آخر يحصلون من خلاله في النهاية على أموال فنحن في عصر المادة، أما من يدرسون الفن فهم إما شديدي الثراء والترف، وإما أنهم غريبو الأطوار.

أدرك الأصدقاء أن لديهم الكثير من أوقات الفراغ فموعد المحاضرة التالية هو الأسبوع القادم، كما أن روفائيل لم يطلب منهم شيئاً سوى إحضار أفضل أعمالهم الفنية.

تفكر الأصدقاء وهم مجتمعين في مقصف الكلية فيما سوف يفعلونه في أيامهم الآتية، فتقدم سام الحديث وقال: من لديه أية مقترحات لنفعلها في

الأيام القادمة حتى تُخرجنا من حالة السأم التي تعتري الحياة بأكملها فليتقدم بها

ردت عليه سُلّاف قائلة: ما رأيكم أن نذهب كل يوم إلى مكان جديد، ونخوض تجربة جديدة

قال سام: مثل ماذا؟

- نذهب غدا مثلا إلى دار السينما لنشاهد فيلما يتفق عليه الجميع، واليوم التالي نحضر أوبرا، والثالث مسرح، والرابع متحف وهكذا...

قال آدم والابتسامة تعلو وجهه: إنها فكرة عظيمة فبالإضافة أننا نقضي أوقات فراغنا، سوف نستفيد منها في دراستنا فكلها فنون

قاطعه سام: أراك شديد الحماس بشأن الدراسة يا آدم، لكنها فكرة شديدة الملل

نظرت إليه سُلّاف قائلة: أما زلت تحمل عليّ منذ المناقشة يا سام؟

أجابها سريعا: لا لا، عليك ألا تأخذي الموضوع على هذا المحمل، فأنا مع حرية الرأي واحترم جميع الآراء

نظر سام إلى زمرة الطلاب وقال: هل من أحد لديه أية مقترحات أخرى

لم يستجب له أي من الطلاب، وبدت على وجوههم علامات الرضا برأي سُلّاف، فاستسلم سام في يأس، وهم الجميع بالانصراف بعد الاتفاق على المقابلة غدا أمام دار السينما.

تقدم آدم من سُلّاف وأخبرها بشكره العميق على الإشادة برأيه في المحاضرة، ولكن سُلّاف أعلمته أنها لا تجامل أحدا ولا تحب النفاق وما قالت له لم يكن سوى الحقيقة.

عند غروب شمس اليوم التالي وفي الموعد المحدد للقاء اجتمع الأصدقاء أمام دار السينما على مقهى قريب، تناولوا مشروباتهم، وبدأوا يتناقشون حول نوع الفيلم الذي سيحظى برضا الجميع.

قال آدم: هناك فيلم يتحدث عن قصة حب، فما رأيكم؟

قالت سُلَاف في سخرية: أية حب؟!..... كلها قصص متشابهة للضحك على
عقول الناس

نظر آدم إليها وقال: ما هذه الابتسامة الساخرة التي تملو وجهك؟

- البارحة تتحدث معنا عن الاستفادة من هذه الأوقات، واليوم تأتي لتحدثنا
عن قصة حب

- وماذا في ذلك؟

- لا وجود للحب الحقيقي يا سيدي، فما يوجد الآن حب مزيف قائم على
أساس من الجاذبية الجسدية، كما أنه غير عقلاني، إنه وهم يعيش فيه
المحبان، وفي النهاية يتحطم القلب يا سيد آدم.....

وصمتت قليلا لتستطرد وهي تبسم: ولكنني أحبه

ضحك الجميع وقال آدم: مع ذلك فله جاذبية، فإذا لم نكن قد خضنا
تجربته من قبل، فإننا نتمنى تجربته، وإذا كنا فعلنا ذلك فإننا نتذكره بحنين
وشوق

هنا تدخلت روز الصديقة المقربة من سُلَاف مقاطعة إياها: كفاكِ يا سُلَاف
فلسفة أنت وآدم، لقد كرهننا الفيلم حتى قبل أن نراه

قال سام: اتركها يا روز فإن معها بعض الحق، فكل قصص الحب متشابهة
وتُصيب المرء بالغثيان

رد آدم في سخرية: أراك قد ضجرت من الحب كذلك؟

قال سام: التكرار..... التكرار.....، ما هذه الحياة التي كل شيء فيها يُكرر
نفسه باستمرار

رد عليه آدم: ماذا بك يا رجل؟، ألا تحاول أن تستمتع بالحياة ولو لمرة
واحدة!

قال سام ونظرات الأسى تُطل من عينيه: من الواضح أن كلامي لم يُعجب
أي شخص هنا، سأصمت إذن إلى الأبد

نظر آدم إلى ضياء وقال له: لم أرك تتحدث اليوم؟ هل حدث شيء أم
أصابك الملل مثل سام؟

ابتسم ضياء وقال له: المناقشة في موضوع كالحب ممتعة. لكن الأمتع هو أن نُحدد الفيلم الذي سنشاهده لأن الوقت قد قارب على ابتداء الفيلم

ضحك الجميع واستطرد ضياء: أسرعوا باختياركم. وأنا معكم

لم يعد لدي الأعدان وقت لمزيد من المناقشة حول الفيلم، فاتفقوا على مشاهدة الفيلم الذي يحمل بين طياته قصة الحب. تركهم آدم ليبتاع التذاكر وفي وسط الجماهير المترابضة أمام دار السينما، اخترق آدم الصفوف حتى حصل على تذاكر للأصدقاء، وشرع الجميع في الدخول إلى القاعة، قادهم عامل المقاعد بمصباحه وسط الظلمة، وهم يتحسسون طريقهم حتى استقر الجميع على مقاعدهم.

نظر آدم جانبه في ظل الضوء الخافت فوجد سُلّاف هي مَنْ تجلس بجواره، فابتسم ابتسامة تنم عن راحة وطمأنينة. هدأت الضجة التي سادت المكان، وصمت الجميع، واتجهت أبصارهم إلى الشاشة وبدأ عرض الفيلم، حاول آدم أن يركز تفكيره في الفيلم، لكن ذهنه بدأ يشرد بعيدا متفكرا في تلك الفتاة التي تجلس بجانبه.

بادر آدم سُلّاف بالسؤال: أراك تكفرين بالحب؟

أجابته: لا أؤمن بالأوهام، كما لا أؤمن بأي طريق يؤدي إلى الزواج

قال في دهشة: أكرهين الزواج إلى هذا الحد؟

قاطع حديثهم الزملاء الذين لم يستطيعوا أن يتابعوا الفيلم من الهمس الدائر حولهم، فاضطربهم ذلك إلى السكوت وعاد الجميع ليتابع في صمت.

مر الوقت سريعا حتى انتهى الفيلم وخرج الجميع من السينما فكان البعض يُشيد به، والبعض الآخر يتذمر وهو غاضب لضيق وقته في هذه التفاهة، وكان من بينهم بالطبع سام الذي زاده الفيلم سأمًا على سأمته. قرر الجميع أن يعودوا إلى منازلهم بعد تلك السهرة، لكن آدم شعر برغبة قوية في التنزه قليلا بين الأشجار التي ترامت ظلالها على الطريق. وفي ضوء القمر الذي أبسط نوره الرائع على المكان.

أخبر آدم الأصدقاء برغبته في التجول في هذا الوقت الساحر، وعرض عليهم مرافقته، لكن الجميع قد أبى إلا سُلّاف التي فضّلت أن تصطحبه في جولته، تجولا معا في أرجاء المكان بعد مغادرة الزملاء.

شعر آدم بشعور غريب لم يسبق له أن شعر به من قبل، أحس بالفرح والسعادة يمتزج بهما شعوره بالخوف، وقد تسارعت دقات قلبه على غير عادته، لقد سقط في براثن حبها.

ساد صمت طويل بينهم لم يتحدثا خلاله بالكلمات، ولكن بلغة العيون فالعيون لديها القدرة على البوح بمكنون القلوب، بعد لحظات عاد آدم بخياله إلى واقعه وسألها: لا تؤمنين بالزواج إذن؟

أجابته: نعم، فأنا لا أتحمل قيود الزواج

- أية قيود تقصدين؟

- بعد الزواج يُمسي الحب قيودا وملكية ويختفي تدريجيا إلى أن ينتهي، أما أنا فأحب الحرية، ولا أتحمل قيود الزواج كما ذكرت لك من قبل.

- وهل جربت الحب من قبل؟

- بكل تأكيد

- وماذا حدث؟

- أراك مهتما كثيرا بالحديث عن الحب

- ليس اهتماما بقدر ما هو رغبتي في معرفة أرائك الجريئة

- حسنا، مشكلة الحب تكمن في الصراع بين حريتين، وأنا لا أحب التقييد، أرغب في أن أحيا حياتي على طريقي الخاصة

- لذا تكرهين الزواج؟

- أنظر سأكون واضحة معك بهذا الشأن، أنا أظن أن الزواج هو حركة سياسية عدوانية، طريقة صغار العقول من الرجال للإبقاء على النساء في المنزل بعيدا عن طريقهم، تلك الحركة مغلفة بأغلفة من العادات والتقاليد ومحكومة بأغطية الدين السخيفة، ففي أحسن الحالات الزواج هو وهم جميل، وهذان الشخصان المغرمان ببعضهما البعض بشدة ليس لديهما أي فكرة عن المأساة الحقيقية التي تنتظرهما ولكن..

انفجرت أسارير آدم في انتظار ما ستُخبره به سَلاف فقالت: لكن عندما يعرف هذان الشخصان ذلك ويقرران بكل جدية الزواج من بعضهما البعض

رغم ذلك، فعندها لا أظن أنها أمني أو أوهام، أعتقد حينها سيكون قرارا صحيحا وشجاعا وأيضا.....

ثم صمتت قليلا وقالت: رومانسيا جدا

ابتسم آدم وقد جذبه حديثها وطرائفها عن الحب والزواج، وفي خضم حديثهما توقفت سَلاف أمام مبنى سكني، ونظرت في ساعتها فوجدت أنهما كانا يسيران قرابة الثلاث ساعات، ولم يشعرا بالوقت.

نظرت إلى آدم فقالت: كفانا اليوم.... عليّ الرحيل، أنظر إلى هذا المبنى إني أسكن هنا.

ودعها آدم عائدا هو الآخر إلى دياره، وهو يتفكر في ذلك الشعور الرائع الجديد الذي اعتراه، دخل إلى غرفته وهو يتمايل ويتراقص طربا وفرحا، وخلع ملابسه وهو ينظر إلى صورته في المرآة، فإذا بالعجوز ماثلا أمامه وهو يبتسم فانتفض واقفا في مكانه، ولم يتحرك لقد أصابته رؤية العجوز بالصدمة، نظر خلفه فلم يجده فنظر مرة أخرى إلى المرأة فوجده في انتظاره وبادره قائلا: لما لا تتبع نصائحي؟ إني لك ناصح أمين

أجابه آدم: لا وقت لدي لك اليوم، فأنا في حالة من النشوة والفرح لا تُفسدها عليّ بحديثك عن الكثر والحقيقة فأنا في عجلة من أمري

قال العجوز ومازالت الالبتسامة على وجهه: وفيما العجلة يا فتى وشراعك ما زال يشق الريح وسط البحر

- حديثك كله ألغاز، وليس لدي الوقت الآن لحلها... إنه الآن وقت الحب

- لقد وقعت في الحب إذن؟

قال مازحا: نعم أنا الآن عاشق وقد لوع الشوق فؤادي، وأحرق سويداء قلبي

- أو تعتبرني الآن صديقك وتقص عليّ أقاصيصك؟

- ولما لا، فلتقدم لي نصائحك عن الحب، بدلا من كنزك هذا، فتلك هي مرتي الأولى مع الحب

- وتطلب أيضا مني النصيحة في الحب؟

- نعم

- سأعطيك نصائحي... لكن عليك أن تتبع السبيل

- على الرحب والسعة

- ماذا تريد أن تعرف؟

- قل لي كيف أكون محبوباً؟

- كن أهلاً للحب أن أردت أن تكون محبوباً، فلن تكن محبوباً بوسامتك وقوامك الرشيق، عليك أن تُضيف ميزة العقل إلى ميزان الجمال وإلا...

قاطعته آدم: وإلا ماذا؟

- وإلا فلا تتعجب أن وجدت نفسك مهجوراً من أجل آخر، فالجمال ميزة هشة تخبو مع الزمن، ويأتي عليها تعاقب السنين، وغدا أيها الوسيم يكسو الشعر الأشهب رأسك، وستملأ التجاعيد بشرتك

أصابته آدم رجفة من حديث العجوز وقال له: وما العمل إذن؟

- أبدع لنفسك روحاً مشرقة فهي وحدها تبقى بجوارك حتى آخر أنفاسك في هذه الدنيا

- ما أبلغ حديثك يا رجل!....

قالها محاولاً أن ينظر خلفه ناحية العجوز بعد أن نسى تحذيره بعدم النظر إلى الوراء فلم يجد العجوز، فنظر سريعاً إلى المرأة مرة أخرى فلم يجده كذلك، فانصرف إلى ما كان يفعله من قبل، ثم خلد إلى نوم عميق لينال قسطاً من الراحة، ولكي يمر الوقت سريعاً حتى يراها غداً.

نهض في صباح اليوم التالي يمتلئ قلبه ببهجة وشوق إلى لقاء سُلَاف، كان يتفكر فيما سيقوله لها، وما يفعله، وكيف يعترف لها بحبه وولعه بها، اغتسل ثم بدأ يُفتش في ثيابه عن أفضلها، فلأبد له أن يكون اليوم في أبهى صوره حتى وجد ضالته، ارتدى ملابسه ووقف كثيراً أمام مرآته ليُعدل من ثوبه ويُمشط شعره ويتعطر فإذا بالعجوز يظهر خلفه وهو يقول له: الأخرى بالرجل ألا يغالي في زينته يا فتى

رد عليه آدم باقتضاب: ألك على كل شيء ملاحظة... ألا يعجبك شيئاً؟!

قال العجوز: عليك بالنظافة، ولتكن ملابسك متناسقة، وثوبك خالياً من البقع، ولتجعل رابطة نعلك مشدودة

نظر آدم إلى نعله فوجد أنه قد نسي أن يربطه ورفع رأسه لأعلى وقال
للعجوز: معك حق في هذا

استطرد العجوز حديثه: قليلا من العطر يكفي، وأترك ماعدا ذلك من
ضروب التأنق للغانيات

قال له آدم في لهفة: أشكر لك نصائحك سأعمل بها

تركه آدم وغادر سريعا إلى الحمام، ثم عاد ليُندم ثيابه في لهفة وما أن نظر
في المرأة وجد أن العجوز قد اختفى كعادته، لكن بعد قليل ظهر له شخص آخر
أشعث الشعر وقد إربد وجهه في غضب، يمتلئ وجهه بحمرة شديدة في البداية
حسبه شيطانا لضحكته الصاخبة المرعبة.

نظر آدم إليه في رعب وفزع وقال له: مَنْ أنت؟

رد عليه في سخرية: أنا رفيقك يا صديقي

- لسنا أصدقاء

- أأست تريد النصيحة في حبك، سأقدمها لك

حينما رنا إلى سمعه كلمة الحب وتفكر فيما هو مقبل عليه اطمأن لحديث
ذلك الرجل لكنه استدرك أمره

وقال له: كيف؟ وأين الحارس؟

رد عليه بضحكته الصاخبة العالية وقال: غادروا لن يعود

- وَمَنْ أنت؟

- أنا الذي سيصحبك

- وماذا تريد مني؟

- أهديك إلى الطريق

- كان الحارس يقول لي مثل قولك

- أنا لن أقودك إلى طرق وعرة وخطرة كالعجوز، بل سأخذ بيدك عبر طريق
آمن ممهد

وضحك ضحكة أخرى اهتزت على إثرها جنبات المكان

قال آدم في خوف: تحدث بنصائحك، أو اتركني لحالي

- الصياد الماهر هو مَنْ يحرص على ألا يفلت الصيد منه بعد أن يحط شباكه

كان آدم يستمتع في غير مبالاة فلقد شغله الموعد، مما جعله لا يفكر فيما يحدث له هذا اليوم العصيب، اختفى كذلك هذا الرجل المرعب، وساد الصمت جو الغرفة. رمى آدم هذه الخيالات والأوهام وراء ظهره، وانطلق إلى مواعده مع سُلَاف.

وصل آدم في مواعده فوجد سُلَاف في انتظاره كما اتفقا من قبل، لكن الغرب في الأمر أن أحدا من الأصدقاء لم يحضر، سأل عنهم سُلَاف فأخبرته أنها لا تعرف ثم قالت له: لعلهم قد أصابهم الضجر والملل من هذه الفكرة بعد الفيلم الذي شاهدناه البارحة.

لما سمع آدم هذه الكلمات انشرح لها قلبه فلم يعد وجود الأصدقاء ضروريا، وكلما تفكر في أنه سوف يقضي يومه مع سُلَاف وحدها تزايدت دقات قلبه طربا وفرحا، لم تُمهله سُلَاف أن يتحدث بل بادرت قائلة وهي تنظر في عينيه: أرى في عينيك شيئا

أجابها والابتسامة تعلو وجهه: أي شيء؟

- أرى في عينيك أنك تحب

لقد سهلت عليه سُلَاف مهمته بهذه الكلمات، فعلى الرغم من أن الصراحة مُرة في كثير من الأحيان، إلا أن لها فائدة عظيمة في مثل هذه الأوقات.

رد عليها آدم قائلا: بالفعل أحب ولقد اختصرت على المسافة بكلماتك هذه - ولما؟ هل تحبني؟ فأنا لست غبية.

تعجب آدم من صراحتها المفردة، فهو لم يعتد على مثل هذه الصراحة من قبل، فأحمر وجهه خجلا. ونظر إلى سُلَاف وهو يحاول أن يتدارك الأمر بعد أن لاحظت على وجهه الخجل فقال لها: في الحقيقة أحبك، ولكن ما أدراك؟

أجابته في ابتسامة: رأيته في عينيك

قال لها بسرعة: بالفعل أحبك جدا

قالت له وما زالت الابتسامة على شفيتها: وكيف تكون متأكد لهذه الدرجة؟

- لا أعرف سوى أنني شعرت بشعور لم أشعر بمثله من قبل

- لكن قد أكون فتاة أخرى غير التي تعتقدها

رد عليها سريعا: لا لا

سألته وهي على هدوئها: ولما لا؟

لم يجد آدم ما يقوله لها في ظل أسئلتها الغريبة العجيبة، تفكر قليلا ثم قال لها: لأنني أراك الأفضل

تساءلت ثانية: أفضل ماذا؟

- أفضل فتاة

- من كل بنات العالم؟

- بالتأكيد

- وكيف تعرف ذلك؟

- لا أدري، ولكنني اعتقد ذلك

- أترى! تعتقد! أي أنك لست متأكد

اعتلا الغضب وجه آدم فقال لها: هل أنت مجنونة، أم ماذا بك؟

ضحكت في سخرية قائلة: ماذا لو لم تقابلني؟

- ماذا تعني؟

- أعني أنك كنت ستقول نفس الشيء إلى شخص آخر

يأس آدم من طريقة حديثها فقال بعصبية: أنت غريبة ! ولكن ماذا تريد أن تسمعي مني؟

- أنا لا أريد سماع شيء، أريد فقط أن أعرف كيف تشعر؟

عاد إلى هدوئه ثم قال: قلبي يقول لي أنك الأفضل

- قلبك يقول لك أنني المقصودة؟

- بالضبط

قالت ساخرة: وأنت تقول له شكرا للمعلومات، وتعمل وفقا لما يُمليه عليك قلبك؟!

- في الحقيقة أنه لا يقول أي شيء... إنه فقط يشعر

- وبماذا تشعر الآن؟

عاد الغضب يكسو وجه آدم فصرخ في وجهها قائلاً: أنت شخص يسأل أسئلة غبية

شعرت سُلّاف بالغضب يعتريه فقالت له: حسنا حسنا، كفى أسئلة... ماذا تريد الآن؟

عاد لهدوئه وسألها: هل تُبادليني نفس الشعور؟

أجابت بغير مبالاة: حسنا دعنا نخوض التجربة

نظر إليها وقال: دعيني أخبرك بمكنون قلبي، فمهما قلت من كلمات فلا تكفى

قالت سُلّاف: لك عندي اعتذار فأرجو أن تتقبله

قال آدم: أنا أتقبله قبل أن تبوح به، فليس بين المحبين اعتذار

- ولكن لا بد لي أن اعتذر لك على طريقة حديثي معك هذه، فلقد لعب الخمر برأسي.....

وقعت كلماتها كالصدمة على سمع آدم تعجب وسألها في دهشة: وهل تحسّين الخمر؟

- أنا مدمنة للخمر وللأسف فاعذرني

- لم أكن أعلم..

قاطعت سُلّاف قائلة: هل ستغير رأيك الآن؟

تدارك آدم الأمر وقال: لا لا

فلقد كان يحتاج إلى وقت ليتفكر بتمعن في هذه المشكلة.

مر الأسبوع سريعا وقد كانا يتقابلان كل يوم تقريبا، ونفض آدم عن رأسه التساؤلات، وقرر أن يعيش يومه فما يُضيره إذا كانت مدمنة للخمر، أم مدمنة

لأي شيء آخر، فعلاقتهما ستنتهي في النهاية بأى حال من الأحوال طالما ترفض فكرة الزواج رفضا قاطعا، كما أن آدم لم يكن مستعدا لتلك الفكرة كذلك، فظل الوضع كما هو عليه من مقابلات ولهو ولعب إلى أن عاد الجميع إلى المحاضرة التالية في الكلية بعد هذا الأسبوع القصير الذي توقف عنده الزمان.

اجتمع الطلاب في القاعة في الموعد المحدد، دخل روفائيل وألقى عليهم السلام وتحدث قائلا: الأسبوع الماضي طلبت منكم جلب أفضل أعمالكم الفنية قديمة أو جديدة، ونحن سنستخدم هذه الأعمال كنقطة بداية على أمل مساعدتكم في أن تصبحوا فنانين جيدين...

قدّم سام الذي يجلس دوما في أول الصفوف لوحة، وضعها على الحامل في مواجهة الطلاب وعاد إلى موقعه ثم قال مشيرا إلى اللوحة: الآن انظروا يا شباب إلى هذا العمل وعبروا عن آرائكم فيه

تقدمت روز وقالت في سخرية: تبدو لي أن طفلا قد رسمها....

كانت روز تتصف بصلاية الرأي، حديثها يعج بالسخرية وعدم الاكتراث، لكنها تُحب المزاح وتقبل النقد بصدر رحب

نظر إليها سام شزرا وقال موجها حديثه إلى روفائيل: هكذا هي دائما لا تفعل شيئا سوى السخرية من كل شيء

ردت عليه قائلة والابتسامة تعلو وجهها: لا تغضب..... إنه عمل عظيم جدا

قاطع حديثهما روفائيل: هل من تعليقات أخرى؟

قال آدم: أرى فيه تلك الروح الراضية للواقع

نظرت إليه سلاف قائلة: هل تمزح... انظر إليه ثانية يبدو عملا مثيرا للشفقة

وأبصرت سام قائلة: بلا إهانات بالطبع

تدخل ضياء في الحوار وقال: به لمسة من الطفولة البريئة

ردت روز بحدة: إنه عمل مقرف لا يمت للفن بصلة

وهنا تقدم روفائيل بالحديث وقال: لا يجب أن نكون قاسيين يا شباب

نظر إلى الطلاب، فوجد طالبا يجلس في صمت دائما، ولا يدخل مع الجميع

في أية مناقشة. لا يتحدث ولا يُشارك فأشار إليه قائلا: ما اسمك يا فتى؟

رد عليه قائلا: إمام

- ولماذا لا تشاركنا الحوار؟

- أفضل الاستماع، فأنا بالفعل مستمتع بالحوار

- لكن لابد لك من عرض آرائك

وابتسم روفائيل ثم استطرد: هيا يا فتى فالجميع في انتظارك

قال إمام: هل لي أن أتحدث بلا مجاملات؟

- بالطبع تفضل

- إذن فإنني أرى أنه يفعل شيئا مستحيلا، إنه يحاول الغناء باستخدام

أحبال صوتية لشخص آخر

ابتسم الجميع من تشبيه إمام ثم قال روفائيل: الفن يأتي من الإخفاق يجب

أن تُجربوا كل الأشياء....

يجب أن تخوضوا كل التجارب، لا تخشوا الوقوع في الخطأ ولا تخافوا من

الفشل.....

عليكم خوض جميع التجارب، وتجربة جميع الأشياء.....

عودوا ثانية إلى منازلكم، وارسموا ولا تخشوا شيئا وفي موعدنا القادم سنرى

عملا آخر...

خرج الطلاب واجتمعوا في حديقة الكلية، وهموا بالمناقشة حول ما دار في

محاضرة اليوم

بدأ سام الحديث قائلا: أعتقد أن روفائيل يترك لنا المجال كي نتحدث، ثم

ينتقد أحدنا الآخر، وفي النهاية نصل إلى المغزى من المحاضرة

قالت سلاف: أنا أحب روفائيل، أراه شخصا طيب القلب

تدخل إمام في الحوار: نعم نعم، لكنني أشعر بأنه تائه في عالم من صنع

خياله.

عاد العاشقان إلى المواعدة كما جرت العادة في الأسبوع الماضي، وتفقدوا

جميع أركان العاصمة حتى سئما من تلك الأماكن الصاخبة التي تكتنف جنبات

العاصمة. وشرعا في البحث عن مكان آخر بعيدا عن البشر ليشعروا فيه بالخصوصية. فبحثا كثيرا حتى وجدا ذلك المكان على أطراف العاصمة. وفوق أعلى قمة من قمم الجبال الشاهقة، بعيدا عن الضوضاء على الرغم من أن الوصول إلى هذا المكان يحتاج على الأقل ثلاث ساعات بالسيارة، إلا أن آدم قرر أن يقود هو السيارة وأمر السائق بالمغادرة.

وصل آدم وسُلاف إلى منطقة الجبال في نهاية العاصمة وحينما توقفت السيارة نظرا حولهما في دهشة متسائلين كيف لهذا المكان الرائع أن يوجد في هذه العاصمة الكثيبة؟

كان المكان عبارة عن سلسلة من الجبال ممتدة في الأفق، وتحت الجبال تميد الأشجار في غابة كثيفة ما أروعها!

تلك الغابة التي شعروا في حضرتها أنهما عادا بشريين مرة أخرى، سارا طويلا في تلك البقعة البعيدة عن أعين الناس وخبروها جيدا حتى وصلا إلى منتصف الغابة خلف الأشجار الملتفة. وقد تعانقت الأيدي في مناجاة، وكأنهما يسرقان من الزمن لحظات من السعادة يختلسان منها القبلات والأحضان حتى أصابهم التعب من الركض واللعب.

قررا أن يتسلقا الجبال وصولا إلى أعلى قمة، ولما وصلا إلى هناك نظر آدم نظرة حاملة إلى سحر الطبيعة الخلابة التي تأسر القلوب والعيون والألباب، ظل يتحدث كثيرا وكأنه لم يتعلم الكلام إلا الآن. أصبح ثرثارا وهو لم يكن كذلك في يوم من الأيام، لكنه الحب يفعل فعلته، ويطلق لسان العنان.

قال لها وهو يتأمل ذلك الجمال وقد شردت عيناه في الأفق الممتد: إني أجدك في كل شيء، في السماء، في الجبال، في القمر، وفي النجوم.....

فلتقتربي أكثر فأكثر حتى يتلاشى كلانا.....

قاطعته سُلاف من أحلامه الوردية قائلة له: كفاك حديثا أيها العاشق الولهان

نظر إليها آدم فوجدها بهية، وكأنها الفجر الطالع، فظهرت كوردة تتفتح، تلك هي الفتاة التي حلم بها، تمنى ألا ينتهي اليوم الذي يقابلها فيه أبدا، لقد أتى إلى عتبة بابها، وترك العالم كله وراءه، وتمنى أن تظل بجانبه أبد الدهر.

لكن اللحظات الجميلة تختفي سريعا كاختفاء النجوم عند إشراق شمس الصباح، تمر في عجالة كالنسمات العليقة، فتمضي معها أيام العمر، فالأيام تمر، والساعات تمر، والدقائق تمر، وكذلك الثواني، ويمضي العمر في طريقه ولا نتذكر منه إلا تلك الأوقات التي نشعر فيها بالسعادة، ولكن السعادة في الدنيا كالسراب أمامنا، كلما اقتربنا منه لم نجده شيئا.

اختار روفائيل الطالب إمام ليتقدم بعرض لوحته، كانت اللوحة عبارة عن مجموعة من الفلاحين يجمعون سنابل القمح من الحقول، ويبدو عليهم شظف العيش.

قال روفائيل: هل من تعليقات على هذا العمل؟

أجاب ضياء: تجسيد رائع لمعاناة الفلاحين الذين ينغمسون في العمل ويجاهدون لكسب قوتهم

قال آدم: في النهاية ستبتلع الأرض هؤلاء المطحونين

قال سام: معك حق فهذا عالم مهجور ومشحون بالظلم.

تواصلت المناقشات حول الأعمال الفنية للطلاب التي يعرضها روفائيل حتى مر الوقت سريعا وأعلن البروفيسور انتهاء المحاضرة.

رحل الطلاب جميعهم إلى ديارهم، وذهب آدم إلى قصر خاله، وما أن وصل إلى غرفته حتى وجد والدته على الهاتف، فأجاب على اتصالها، وشرعت في وصلة من اللوم والعتاب لأنها لم تسمع صوته خلال الأيام الماضية، وبعد أن اعتذرت لها عن قلة اهتمامه، سامحته بعد أن أخذ العهد على نفسه بأن يتحدث إليها يوميا.

كان اليوم شديد الإرهاق وقد أصاب آدم التعب، ارتدى ملابس نومه، ودلف إلى فراشه حينما رن هاتفه ثانية قبل أن يغمض عينيه، نظر إلى الهاتف فرأى أنه رقم سُلّاف، فهي قد أرادت الاطمئنان عليه لانصرافه باكرا بعد المحاضرة على غير عادته، فأخبرها بإرهاقه الشديد وحاجته إلى النوم، وأنه سوف يعاود الاتصال بها بعد أن يستريح لبعض الوقت.

نام آدم بضع ساعات، وحينما استيقظ وجد أمامه ذلك الرجل ذا الوجه القبيح يجول في غرفته في انتظاره حتى يفيق، فرك آدم عينيه ونظر متمعنا،

فانتابته رجفة سرت في جسده، ونهض من فراشه مفزوعا، وقال له: ماذا تفعل هنا أيها الرجل؟ ومن أنت؟

أجابه الرجل: أنا الشبح، هكذا يُسموني، وقد جئت إليك بالنصيحة

قال له وقد بدا عليه الانزعاج: كنت أراكما مسبقا في المرأة حتى تجنبت النظر فيها نهائيا.. الآن تتجولان في غرفتي

- أنا لم أقل لك أن تنظر في المرأة كي تراني، أنا أظهر في أي مكان، أما الحارس فلا

- وماذا تريد مني؟

- كفاك سباتا

ابتسم آدم وقال له: أتعبت نفسك، وأتيت إلى هنا، لتقول لي كفاك سباتا، وماذا يعنيك في هذا الأمر؟

- ستتصل بك محبوبتك الآن، فلتذهب إليها، ولتجعل عباراتك المغرية تتحدث عنك، عليك أن تُسرع قبل أن يهبط الشراع....

واختفى فجأة عن ناظره، بحث آدم عنه فلم يجده، فقام من مكانه، وبعد لحظات قليلة رن الهاتف فتعجب آدم عندما نظر إلى هاتفه فوجدها سُلّاف، وانتابه القلق مما قاله له ذلك الشبح.

أجاب على اتصالها فبادرها بالسؤال: هل مازلت مستيقظة إلى الآن؟

- نعم فالأرق يُسيطر عليّ ولا أجد ما أفعله.... هل أيقظتك؟

- لا لا.... لقد كنت مستيقظا بالفعل

- أريد أن أراك

قال متعجبا: لقد قاربت الساعة على الثانية صباحا

- وما المانع؟

- لا مانع لدي، أين نتقابل؟

- في شقتي، أنا في انتظارك

وأغلقت الهاتف في ظل ارتباك آدم الذي سيطر عليه، وجعله يفكر فيما قالته سُلّاف، لكنه استعد وهروا إلى هناك، وهو قلق من ذلك اللقاء الذي تم على غير موعد وفي غير مكان.

وقف أمام منزلها يُحدّق في شرفتها، وهو يحادثها على الهاتف، أخبرته أن يصعد إلى الدور الثالث، وسيجد باب شقتها مفتوحا على مصراعيه، صعد آدم إلى شقتها ثم دخل وأغلق الباب وراءه.

اتجه نحوها وصافحها، وجلس على المقعد الوثير، طلبت منه أن ينتظرها لتغير ملابسها، بعد لحظات عادت سُلّاف وهي في كامل زينتها، جلست إلى جانبه وتناولت زجاجة الخمر، وملئت بها كؤوس الهوى، وعرضت عليه أن يشرب، فأخبرها أنه لم يحتس الخمر من قبل

قالت له في ابتسامة وقد بدا عليها آثار الثمالة: الحزن يغرق في بحر الخمر، وتُشرق الروح وتبتهج بعد أن يفارقها الهم

قال لها آدم: أهو الخمر ما أخرج هذه الكلمات الروائع؟

- بالطبع يا فتى

- لكن ما لك حياة الخمر؟

- أحب التفكير في حياة الخمر... كنت أعيش قرب حقول العنب، ورأيتة وهو ينمو، ونظرت إلى الناس وهي تعتنى به وترعاه، كنت أعيش وسط هؤلاء الناس، وأراهم وهم يعصرون العنب، أما ما أحبه في الخمر أنه يتطور ويستمر في التطور..

تعرف أنني لو فتحت زجاجة خمر اليوم سيختلف طعمها عما إذا فتحتها في يوم آخر....

الخمر في الواقع هو حياة تتطور بشكل مستمر، وتكتسب تعقيدات، وهكذا حتى تصل إلى الذروة، وبعدها تبدأ بالذبول المستقر، ويُسمي مذاقها جيد جدا، لقد أطلت عليك هل ستشاركني الشراب أم لا... جرب فلن نخسر شيئا

في الواقع لقد أعجب آدم بحديثها عن الخمر مما دعاه لأن يجرب

قال لها: سأجرب هذه المرة فقط

امتدت يد آدم وتناول كأساً من الخمر، في البداية لم يستسغ طعمه وحاول أن يلفظه خارجاً بعد أن شعر بغصة في حلقه، لكن سُلّاف ساعدته على اجتياز الأمر، انتهى من الكأس الأولى وقد أخبرته أنه سيعتاد على مذاقه بعد عدة كؤوس، وشرعت في تشجيعه على الاستمرار.

مرت الدقائق وشعر آدم بدوار أفقده صوابه، وبدأ مكتئباً بعد احتسائه لعدة كؤوس، وحاول التقيؤ عدة مرات وسُلّاف تضحك منه في سخرية بعدما ارتفعت درجة حرارة جسده، وأحمر وجهه وعيناه، وهول كثيراً إلى الحمام حاولت سُلّاف أن تُخفف من شعوره، فأخبرته بأن هذا يحدث فقط في المرة الأولى، وبعد فترة قصيرة بدأ آدم يشعر بالارتياح، وهدوء الأعصاب، وارتخت جميع حواسه، فرفع رأسه إليها فوجد وجهها يُطل عليه وقد شاعت فيه ابتسامة مشرقة ونظرة حاملة متمنية ملأته نشوة ورغبة.

ذهبت يده تعبت في شعرها المنسدل على جبينها، فأصابعها من مسته رجفة، أمسى يسمع حسيبها في أذنيه، وهي تقول له أحبك، اقتربت منه أكثر، والرغبة تفوح من جسدها، وبلا وعي مد ذراعيه وأحاطها برفق، وبعد لحظات وقفت سُلّاف وقامت بسحبها إلى غرفتها فاستسلم لها ولرغبتها.

مرت الأيام بعد ذلك اللقاء الذي أفسد كل جميل في الحب، تبدلت الأحوال وتغيرت الأمور، لم يكن آدم يُدرك أن حبه العظيم الذي ملأه سعادة وبهجة تحول إلى شعور بالذنب وتأنيب الضمير، لقد أصابه السأم والملل بعد أن امتزج حبه بالشهوة، لم يعد يفكر بها كما كانت من قبل، بل يراها الآن وهي مستلقية أمامه على فراشها، وسريعاً تملكه الشك والارتياح والغيرة، وتحولت قصة الحب الجميلة بين آدم وسُلّاف إلى تعاسة، لم يعد يُطيق أن يراها.

بدأ الشك يلعب لعبته، وأمسى آدم يتفكر في أنها قد تفعل ما فعلته معه مع شخص آخر، وفي نفس المكان أو في مكان آخر.

انعزل آدم عن الحياة، وبات في خلوة مع نفسه، فقد رغبته في العودة إلى كليته، حاولت سُلّاف حينها أن تهاتفه العديد من المرات، وكان يرى اتصالها ولكن يأبى أن يُجيب إلى أن انتهت تلك الفترة المشنومة من حياته، وعاد ثانية إلى حياته ودراسته حينما ظن أن كل هذا قد انتهى.

قابلته سُلّاف في الكلية فأوقفته لكي تتحدث معه فطأطأ رأسه وهو يقول:
أنا لا أريد أن أكمل في هذا الطريق

ردت عليه في عصبية قائلة: كما تحب.... لكن على الأقل احتراماً لعلاقتنا
كان عليك أن تُجيب على اتصالي

ونظرت إليه شزراً واستأنفت حديثها: أرى أن الأدوار قد تبدلت

- كيف؟

- أنت الآن أصبحت الأنثى. وأنا قد أصبحت الرجل، ثم قل لي لماذا تتجنب
النظر إلى عيني حينما أتحدث إليك؟ أتخاف من شيء؟ أتشعر بالذنب؟

قابلت كثيراً مثلك على كل حال، ولن أندم على هذا....

غادرت سُلّاف على إثر تلك الكلمات اللاذعة، ترك كليته وهروا آدم إلى
مكانه المفضل إلى تلك الجبال الشاهقة الموجودة على أطراف العاصمة ليجلس
وحيدا فهو بحاجة إلى العزلة، جلس على قمة الجبل وهو في قمة إحباطه
وكآبته، نظر إلى الطبيعة الساحرة حوله، وتطلع إلى السحاب السيارة، ثم ألقى
بنظرة إلى الجبال الممتدة وقال لنفسه: ما أشد شموخك، فلا تستطيع الرياح
أن تكسرك..... ليتني مثلك

استلقى على الأرض، وعيناه في السماء وغطا في نوم عميق.

أفاق آدم من سباته فوجد العجوز يجلس على صخرة كبيرة على سطح
الجبل بجواره، فنهض آدم واقترب منه وجلس بجانبه على الصخرة وبادره قائلاً:
احتاج للكلام... فبداخلي الكثير، أشعر بأنني تائه، أحس بالغيرة والوحدة
الدائمة، كما أشعر بالضجر من هذه الحياة الممتلئة بالزيف والكذب والنفاق
والخداع

نظر إلى العجوز فوجده يستمع إليه باهتمام واستطرد يقول: تُرى ماذا بي
أيها الحارس؟

رد عليه العجوز قائلاً: أنت تحتاج إلى غاية، تحتاج إلى هدف، تحتاج إلى
الحقيقة، فلتبحث عن الكثر

واختفى العجوز كعادته تاركاً إياه في حيرته.

علم آدم أنه كان يحلم بذلك العجوز، ونظر في ساعته فوجد أن عليه العودة إلى كليته. فأسرع إلى هناك، ولما وصل نظر إلى ركن بعيد بعد تلك الأشجار التي تملأ حديقة الكلية فوجد مسجدا صغيرا جدا يقوم الطلاب المسلمون بالصلاة فيه، لكنه لم يكن قد لحظه من قبل، كانت رغبة قوية تحركه إلى الذهاب ناحية المسجد، ونفس الرغبة جعلته يتوضأ، ويقوم بالصلاة. بعد أن انتهى من صلاته رفع أكفاه بالدعاء وقال: إلهي لقد عفوت عن ذنوب، وأجبت دعوات....

إلهي هل لك أن تستمع إلى آهاتي وصرخاتي المكتومة....

أجب دعوتي وأرح قلبي.....

امنحني إياها، تلك التي ملكت قلبي وجميع جوارحي، ليس لي رغبة سواها....
تلك هي أمنيقي....

هي عطشي وأنا احتاجها الآن.....

هي ما أتمناها ليل نهار.....

إلهي اجعلني أصل إليها، اجعلني أعرفها، أو حتى أشعر بها.....

تلك الحقيقة الغائبة عني حتى الآن.....

ترقرقت الدموع من عينيه وبكى بشدة واضعا يده على وجهه حتى شعر بيد تربت على كتفه في رقة، التفت خلفه فوجد إمام زميله في الكلية، ذلك الشاب المتدين الذي يؤمن بالسحر إيمانا عميقا، كان مواظبا على الصلاة في أوقاتها، ويؤدي الفرائض جميعها، كما اعتاد على ذلك، وكما رباه أبواه، لكنه كانت له طريقة غريبة في الحديث فهو يعتقد دائما أنه مسحور، وأن أحدا من الجن يسكن جسده، ويهين له الكثير من الأمور التي لا يراها غيره.

انتبهز إمام فرصة وجود آدم في المسجد ليتحدث معه عن ذلك الموضوع الذي تحدث به آدم في يومه الأول، فهو قد استحوذ على تفكيره، ولم يستطع إمام أن ينحيه جانبا حتى أتت اللحظة الحاسمة منفردا بآدم، وهو موضوع العجوز الذي يظهر له في المرأة.

اعتدل آدم في جلسته وصافح إمام فسأله قائلا: ما هو السر الذي أتى بك إلى المسجد اليوم؟ فأنا لم أرك من قبل هنا

قال آدم في هدوئه المعتاد: أنا فقط لم أكن أعلم أن هناك مسجدا في الكلية

- دائما ما يستهزئ الطلاب في الكلية بكل من يقترب من هذا المسجد. فهم

مجموعة من الملاحدة يعتقدون بأننا نضيع الوقت في أشياء لا أهمية لها

- وبماذا ترد على سخريتهم؟

- بالصمت، كنت أريد سؤالك عن شيء؟

- بكل سرور

- أتذكر ما قلته حول الرجل العجوز الذي يظهر لك في المرأة؟

- نعم، لماذا؟

- إني مهتم جدا بهذا الأمر، فهو يحدث لي كذلك

- إذن هيا بنا نذهب إلى المقصف لنشرب شيئا ونستكمل حديثنا

سار إمام مع آدم، وشعر آدم بعد صلاته في المسجد بالهدوء والسكينة

تسكن جسده، أحضرا القهوة، وتبادلا الحديث حول الذي رآه آدم

بادره آدم قائلا: وماذا تظنهما يا إمام؟

- أظن أحدهما ملاكا، والآخر شيطانا

- وهل تؤمن بالملائكة والشياطين؟

- نعم نعم، فلقد ذكرهم القرآن... ألا تؤمن بالقرآن؟

- في الحقيقة لدي شكوك

- لقد رأيتك تصلي في المسجد منذ قليل، ماذا بك؟

- أصلى لأن الصلاة تجعلني أشعر بالراحة

- على كل حال فأنا الآخر أرى الكثير من الشياطين

قال آدم متعجبا: شياطين؟!!

- نعم

- وكيف تكون متأكد لهذه الدرجة من أنهم شياطين؟

- أعرفهم جيدا فلقد قرأت كثيرا عن السحرو عن الجن والشياطين. تكاد تكون كل ثقافتي حول هذا الموضوع

- أنظريا إمام. أنا أرى بالفعل أشخاصا في المرآة. ولكني لا أظنهم كذلك

- وماذا تظنهم إذن؟

- لعل بي مرض نفسي تظهر هلاوسه على شكل أشخاص ليس لهم وجود. فأنا بكل صراحة لا أؤمن بالشياطين.

انتهى الزملاء من تناول القهوة، وحينما قارب حديثهم على الانتهاء فوجئوا بزملائهم الطلاب يأتون إليهم ويبادروهم بالسؤال عن سبب عدم حضورهم المحاضرة. فأخبروهم أنهم قد تأخروا عن موعدها وأن روفائيل لا يقبل التأخير.

عاد آدم إلى بحثه القديم عن الحقيقة، وعادت معه التساؤلات تطوف من جديد في عقله فانشغل بها عن كل شيء وأصبح يجلس في عزلة يتفقد الكتب الفلسفية والعلمية في مكتبة الكلية تارة، وفي المكتبات الأخرى المنتشرة في أنحاء العاصمة تارة أخرى، قرأ كثيرا وعرف كثيرا. وكلما ازداد علما، ازدادت حيرته. وفي النهاية توصل إلى أن الأديان لابد لها من الإيمان مع بعض العقل، وأن الفلسفة لا تقدم إجابات لكنها فقط تقدم تساؤلات على تساؤلاته، غدا يشكك في كل شيء كما أصابه اليأس والقلق.

مضى العام الدراسي كلمح البصر، وابتهج بشدة بعد علمه أن الدراسة في هذه الكلية لا تحتاج إلى امتحانات واختبارات للنجاح، ولكن النجاح يتوقف على المحاضر، فهو وحده من يستطيع أن يعبر بك إلى الصف الثاني، وهو وحده من يستطيع أن يُبقيك في نفس الصف، ولم يعلم آدم حينها طريقة التقييم هذه، وكيف تسير الأمور في الدراسة الغربية العجيبة التي لم يشهد لها مثيل من قبل.

قرر العودة في الإجازة الصيفية إلى مدينته المحبوبة التي لم يشعر بالسلام والراحة إلا فيها، غادر العاصمة الصاخبة ورحل إلى المدينة الهادئة، فقابلته أمه بالترحيب والأحضان والقبلات، تحدثا معا في أمور كثيرة وقص عليها ما حدث له في عامه الأول بعيدا عنها وعن بلدته الزوراء، ارتاح قليلا من عناء

السفر ثم أفاق من راحته وعلى الفور هروا إلى الخارج ليسأل عن أصدقائه ميلاد وجايكوب.

ذهب إلى الكنيسة فاستقبله الأب لوثر بالترحيب وبادره آدم بالسؤال عن ميلاد ابنة، وأخبره كذلك أنه حاول الاتصال به كثيرا، لكنه لم يجب على اتصالاته، حينها أعلمه الأب لوثر أن ميلاد يدرس اللاهوت في كلية داخلية لا تسمح له بإجازات أو زيارات، كما أنه لا يحمل هاتفًا بناءً على أمر الكلية فهم يعيشون في عزلة شديدة، شكره آدم وطلب منه أن يُرسل لميلاد تحياته حينما تتسنى له الفرصة لمقابلته.

انطلق آدم بعدها إلى منزل جايكوب حتى يطمئن عليه هو الآخر ويعرف أخباره، توقف أمام منزله ونادى عليه بصوت جهور فرد عليه والده، رحب به والد جايكوب ترحيبا شديداً، ودعاه لتناول القهوة معه، جلس معه وتناول القهوة، وبدأ يسأله عن ولده، فأخبره أبوه أن جايكوب قد سافر إلى الأرض الموعودة، فلقد قررت العائلة له أن يترك كليته هنا، ويذهب إلى هناك ليُكمل فيها دراسته، ويخدم بلده هناك، وقد حدث الأمر بسرعة فلم يستطع أن يُخبر أحداً من أصدقائه بهذا الشأن، لكنه سوف يعود مجدداً في زيارات إلى هنا، وعند عودته سينبئه بسؤال آدم عنه ويطلب منه كذلك أن يتصل به في حال عدم وجوده بالمدينة.

عاد آدم خائب الرجاء يللمم أذيال الخيبة، راح يتجول وحيدا في أرجاء المدينة وينظر حوله في أسى وهو يستعيد ذكريات طفولته مع أصدقائه فيرى ذلك الملعب الذي كانوا يمرحون فيه، وهنا أمام المدرسة التي كانوا يتسابقون أمامها، وهنا الحديث عن الكنيس اليهودي والكنيسة والمسجد، وهنا وهنا....

قادته قدماه في نهاية الأمر إلى الربوة أعلى التل، والتي كانوا يجتمعون عليها للسمر في الأيام الماضية، تذكر أحاديثهم ولعيمهم، كان يفتقد كل شيء المكان والأصدقاء والأحاديث ومعالم المدينة التي يحياها من كل قلبه، لقد تغيرت الأمور فجأة، كانت تلك الخواطر تتلاطم في رأسه مع أفكاره كتلاطم الأمواج وهو ينظر إلى زرقة النهر المائل أمامه، ليس هناك أمل في لقاء الأحباء، شعر حينها بالوحدة خاصة عندما نظر حوله فلم يجد أحداً.

عاد إلى منزله كئيبا حزينا، وأدرك فجأة أنه لم يعد له أحد، لا أصدقاء، لا زملاء، لا أحباء، ضاقت به الدنيا بما رحبت لم يجد سوى أمه في انتظاره فارتمى

في أحضانها عليها تستطيع أن تُنسيه وحدته الطاغية، جلس معها قليلا وتناولوا الغداء، وعندما حل المساء قرر أن يذهب لزيارة قبر والده.

ذهب إلى هناك وفتح البوابة الرئيسية للمقابر، جلس يبكي أمام قبر والده بحرقه لقد تركه وحيدا لا ونيس له ولا أنيس كان جل وقته بصحبة والده، تركه إلى عواصف الحياة تلوحه يمينا وشمالا، تدوس عليه جبروت الحياة بأقدامها، بدأ يفكر في حالة السأم التي أصبح يعيشها في مدينته المحبوبة، فلم يعد هذا المكان كما هو من قبل، فجمال المكان ليس بطبيعته الخلابة، ولا بهدونه، لكن بإناسه والأحباء الذين يملأون جنباته.

في هذه اللحظة شعر بشوق إلى العاصمة بصخبها وضجيجها فعلى الأقل كان هناك يحضر محاضرات، يتحدث مع زملائه، يرسم لوحات، يُحب، ويخرج في صولات وجولات، لم تعد تستهويه حياة الهدوء والسكينة فلقد أعد نفسه لحياة العاصمة لحياة الضوضاء، السرعة، الرقص، الغناء، الشراب، والسيارات، لقد خرج من ذاته وأصبح إنسانا فارغا، ليس لديه الآن سبب واضح يجعله يعيش حياته كما كانت سابقا، فقرر أن يحيا حياة هذا العصر بكل مزاياها وعيوبها.

نظر بجانبه فوجد الحارس يجلس على المقعد الحجري القريب منه وهو يقول له: لا تُفكر في ذلك

رد عليه آدم قائلا: ماذا تقصد؟

- أنت تعرف جيدا مقصدي

- ماذا تفعل لو كنت مكاني؟

- أفعل الكثير فلديك فرصة عظيمة فلتغتنمها

- أية فرصة تقصد؟

- فرصة عظيمة للبحث

- لقد عدت ثانية، لما لا تتركني وشأني، وأذهب لتبحث عن شخص آخر

- أطلب مني الرحيل وقد جئت لمساعدتك في الوصول، الأخرى بك أن

تشكرني

- أشكرك على ماذا؟

- على مدي لك يد المساعدة للوصول إلى الكنز

- يا رجل كفاك حديثا عن الكنز ألا تمل ولا تكل.

اختفى الرجل ثانية كعادته وغادر المكان، وعاد آدم إلى بيته ليخلد إلى نوم عميق وطويل لعل ذلك النوم يأخذ معه الأيام الطوال العريضات المملات، وفي الصباح مشى قليلا في طرقات المدينة حتى وصل إلى الربوة أعلى التل مع أدوات الرسم الخاصة به، وبدأ يشرد بخياله وينظر إلى الأفق الممتد وإلى النهر أمامه وهو يرسم في لوحاته حتى إذا ما انتهى، ونظر إلى ما رسمه، فوجده صورة لفتاة مكثمة جميلة القسمات والملامح رسمها من الخيال، حينما وافته تلك اللحظة المضئية، إنها لحظة من الإلهام، أعجب آدم بصورته التي رسمها، لكنه كعادته دائما يتفكر في كل شيء، فطفق يبحث في خزائن ذاكرته عن هذه الفتاة التي استوحاها الخيال، فلم يجد لها أي أثر، نظر إلى الصورة بتمعن لكنه أدرك أنه لم يرها من قبل، لعلها تكون فتاة الأحلام التي يحلم بها كل شخص، ويا لها من فتاة أحلام !.

انتهت الإجازة الدراسية وبدأ عام دراسي جديد وعاد آدم لدراسته، توافد الطلاب على القاعة الخاصة بالمحاضرات، حضر البروفيسور روفائيل في موعده كالعادة، كان صخب الطلاب وضجيجهم وهم يتحدثون يملأ المكان حتى حضر روفائيل فامتص الصخب من القاعة، وقف أمام الطلاب قائلا لهم: اليوم بدأ عام دراسي جديد، وخبرة جديدة ستكتسبونها، هذا هو اليوم الأول لكم في العام الجديد واليوم الأخير لي معكم.....

لقد اجتزت بكم المرحلة الأولى بنجاح.....

الجميع سينتقل إلى المرحلة التالية إلا اثنان منكم، أحدهما ترك الدراسة في الكلية، والآخر سيستمر معي في السنة الدراسية الأولى.....

أما بالنسبة للأول فهي الطالبة سلاف، والثاني فهو الطالب سيث الذي لم يحضر محاضرة واحدة في العام الماضي، الكثير يعتقد بأن العام الدراسي الأول قد ضاع سدى فلم تحصلوا على كتب، ولم ندرس نظريات في الفن وغيرها من طرق التعليم الذي اعتاد عليها الجميع، لكن تلك هي طريقي وتلك الطريقة قد أفادت الكثير حتى ولو لم يشعروا بأنهم في فصل دراسي.....

أما الآن فأحب أن أخبركم جميعاً بأنه شيء أساسي لمثل أعماركم أن تُجربوا كل أنواع الفنون، وكل الفلسفات، وكل أساليب الحياة....

لذا كل ما عليكم فعله هو التجربة، وقد كنت معكم هنا لأُسهل عملية التجربة....

والآن جاء الوقت ليصحبكم مرشد آخر في الجولة الثانية من الرحلة، إنه البروفيسور أرنست، دعوني الآن أقدمه لكم...

وأشار بيده ناحية باب القاعة فدخل القاعة رجل نحيل الجسم، طويل القامة، يرتدي قميصاً مفتوحاً إلى منتصفه، وبنطالاً فضفاضاً من الكتان، الشعر الأشهب يكسورأسه، وعلى شفثيه ابتسامة خافية.

تقدم بخطى ثابتة وهو يحيي الطلاب ثم صافح روفائيل الذي تركه مغادراً القاعة ليتركه مع طلابه

بدأ أرنست حديثه قائلاً: اسمي أرنست، مرشدكم الجديد في هذه المرحلة من رحلتكم.

كان أرنست يتميز بتواضعه الشديد وحسه المرح. كما أنه من عظام الفنانين، وعلى الرغم من ذلك فلم يكن ذائع الصيت، وكان أحد أسباب عدم شهرته هذه يعود إلى هجومه الشديد على النقاد وكرهه للمجد الزائف والشهرة الزائلة.

كان سام يعرفه جيداً بحكم وجوده الطويل في هذه الكلية فبادره بسؤال ليثير غضبه قائلاً: لماذا تكره النقاد يا سيدي؟

رد عليه بسخرية قائلاً: إنهم كالحمار الذي يدخل دكان خزّاف فيُحطم كل الآثار الفنية فيه

ضجت القاعة بالضحكة واستطرد أرنست يقول: إنهم فنانون فاشلون ظلوا طوال حياتهم يركضون وراء صورة من الفن ولم يحصلوا عليها أبداً، فترك هذا الشعور لديهم مرارة في قلوبهم.....

قاطعهم سام قائلاً: ولكن النقاد..

قاطعهم أرنست وقد إربد وجهه وعلا صوته قائلاً: مَنْ هم هؤلاء الصعاليك؟ مَنْ هم ليقولوا للفنانين افعلوا هذا، ولا تفعلوا ذاك؟

قال سام متسائلا: إذن لمن نلجأ ليحكم على الأعمال الفنية؟

- الحكم أولا وأخيرا للجمهور

- إذن أنت ترى أن لا فائدة تُرتجى من وجود النقد؟

- يا ولدي الجمال موجود قبل أن يوجد النقد والنقاد، انظر إلى الأعمال الفنية العظيمة، هل النقاد هم من قرروا عظمتها أم الجمهور...

ثم أشار إلى الطلاب وقال لهم في حدة: هيا بنا لن نقضي حياتنا كلها في قاعة للمحاضرات.

نهض الطلاب وقوفا ثم سأله آدم قائلا: إلى أين نحن ذاهبون؟

رد عليه أرنست قائلا: إلى المرسوم لكي نكون فنانين

تقدم أرنست الطلاب إلى مرسوم الكلية، وسار الجميع عبر ممر طويل يؤدي إلى سرداب تحت الكلية، كان المرسوم عبارة عن صفين من الحوامل علما لوحات للرسم وأدوات الرسم بجانبها، ومقعد أمام كل لوحة، يُطل المرسوم على رواق جانبي على جدرانه الكثير من الكتابات والشخبطات التي نقشها الطلاب.

عندما دخل الطلاب المرسوم انتابهم شعور غريب بأنهم داخل كهف في جبل بعيد جدا عن الحياة في المدن، حينها فقط أدركوا جميعا لماذا سميت الكلية باسم السرداب؟.

لم يطق آدم أن يظل هكذا لا يعلم عن طريقة التدريس تلك التي أصابته بالحيرة، فبادر أرنست بالسؤال عن هذا النظام التعليمي العجيب.

رد عليه أرنست قائلا له: طريقة التدريس هنا تجعل الفنان يتخلى عن طرق التفكير العميق

سأله آدم: قلت الفنان، فهل معنى ذلك أن هذه الطريقة لا تصلح إلا لدراسة الفن؟

- لا على العكس تماما اعتقد أن هذه الطريقة لو طُبقت على نظام التعليم بأكمله سيتغير الكثير

- وكيف نطبق هذه الطريقة على نظم التعليم الأخرى؟

- في نظم التعليم الأخرى ترى الطلاب يستمعون إلى المعلومات التي يقدمها لهم أساتذتهم المقدمة، ويسجلونها ويفهمون معناها..... لماذا؟ قالها موجها السؤال لأدم

رد عليه آدم: بالطبع للعلم

- بل لاجتياز الامتحان بنجاح فإذا سألت طالبا بعد فترة من اجتيازه للامتحان عن شيء، لن يستطيع الإجابة

- هذا صحيح، لكن لماذا؟

- لأن ما تعلمه لم يوسع مداركه ولم يساعده على التفكير بحرية، نظام التعليم التقليدي يولد في الطلاب الخوف

قاطعه أدم في دهشة: الخوف؟!

- نعم، الخوف من كل شيء، من الابتكار، ومن التجديد، أما الدراسة هنا تقوم على المناقشة والتفكير حتى تصل إلى نقطة مهمة ألا وهي أعمال العقل والشعور لنصل في النهاية إلى ملء عقولكم الفارغة...

نظر إلى الطلاب بعدما أثارت كلماته الريبة في قلوبهم واستطرد يقول: لا تشعروا بالإهانة فأني أقصد فارغة من الفن بالتأكيد

نظر مرة أخرى إليهم فوجد الهدوء قد عاد إلى وجوههم وهم يستمعون باهتمام واستكمل ما كان يقوله وهو يبتسم: على الرغم من أنها قد تكون مملوءة بالقذارة من دراستكم المسبقة في المدرسة العليا

ضحك الطلاب على كلماته وعاد لحديثه: الفكرة بأكملها تقوم على أساس تجاوب الطلاب مع المحاضر عن طريق المناقشة الطويلة المثمرة، فيكون كل واحد منكم أصبح بعد المحاضرة غير ما كان عليه قبلها، وأظن أنكم تعلمتم الكثير من محاضرات البروفيسور روفائيل، أما الآن فالتزموا لوائحكم.

انتهت المحاضرة وانصرف الطلاب، استوقف آدم روز وسألها عن سبب ترك سُلّاف الكلية فهو يعلم أنها المقربة لها، ولعلها تعرف أخبارها، لكنه كان لا يسأل عنها ليطمئن عليها، ولكن فقط حتى لا يشعر بالذنب حينما يدرك أنه السبب وراء تركها الكلية، أخبرته روز أن سُلّاف تركت الدراسة ليعود إلى بلدها النائية وقد علمت في قرارة نفسها أن لا فائدة من الدراسة على كل حال من الأحوال، فعادت تعمل نادلة في إحدى الحانات وبالإضافة إلى ذلك تستطيع أن تحتسي

الخمر كما تريد فإدمانها قد أطاح بعقلها ولم تعد تجد الأموال الكافية لشراء الخمر.

شعر آدم بالأسى حيال ما وصلت إليه سُلَاف، وتمنى لها التوفيق في حياتها التي اختارتها فهو يعرفها جيدا فهي تفعل ما تريد وتسعى فقط وراء ملذاتها دونما اعتبار للثمن التي تدفعه لذلك.

خرج آدم من البوابة الرئيسية للكلية مغادرا إياها فإذا به يجد سيث يقف أمامه ويقول بصوت عال: اليوم موعدكم مع حفل اليوم الدراسي الأول من العام الجديد.... إنه حفل سيث العظيم

ابتسم آدم ابتسامة خفيفة وصافحه قائلا له: مرحبا بك سيث

رد عليه قائلا: أين كنت يا رجل؟ أنا لم أعد أراك

واستطرد في سخرية: هل فعل بك كل هذا ذلك الحفل الذي أقمته العام الماضي؟

نظر إليه آدم ونظرات الأسمى تعلو وجهه الحزين وقال: لا يا سيث لكني كنت قد انشغلت بدراستي، كما أن حالي النفسية لم تكن تسمح لي بالاستمتاع بالحياة

- إذن فلتترك لي نفسك الآن وسوف أغيرك إلى الأبد، سأريك كيف تستمتع بالحياة على حق

- ماذا سنفعل يا رجل؟

- أنت كثير الأسئلة... سلم لي نفسك وسترى

وبالفعل استسلم آدم لرغبة سيث متمسكا بأي أمل يستطيع أن يُخرجه من حالته المزرية تلك، في البداية أخذه سيث في جولة ليُعرفه على خبايا العاصمة من ملاهي ليلية وحانات وصلات للرقص وبيوت الهوى، واقترح عليه بعدما أعلمه بمعالم المدينة السفلية أن يبدؤا الجولة مساء اليوم.

كان آدم يسير معه وهو متثاقل الخطى، وكلمات روفائيل تدور في رأسه فطوال الوقت وهو يسمع "يجب أن تخوضوا كل التجارب وكل الأساليب"، لقد أخذ كلام روفائيل على غير محمله واتبع هواه، عزم أن يخوض التجربة مع سيث وحددا الموعد في الليل.

وصل آدم في ساعة متأخرة من الليل إلى منزل سيث ليبدأ حفل كل عام، كان يسير على الطريق المؤدي لمنزل سيث وهو متعجبا من الهدوء الشديد الذي يعم المكان على غير عاداته، لقد كانت مرته الأولى الذي جاء فيها إلى هنا يسمع أصوات الموسيقى الصاخبة والضوضاء الشديدة على بعد أميال من منزل سيث، أما اليوم فيقيم حفلا صاخبا كعادته ولكن لا صوت اليوم يعلو فوق صوت نقيق الضفادع وهزيز الأشجار، الطريق يحفه الظلام لا يرى معالم الطريق إلا بضوء القمر.

أمام منزل سيث تفاجأ آدم أن باب منزله مفتوحا على مصراعيه، نظر حوله في حديقة المنزل فوجد سيث ملقى على أرض الحديقة والدماء تسيل من وجهه وجسده بغزارة، ارتعدت أوصاله من الخوف فهو لم يرقتيلا من قبل، تلاطمت الأفكار برأسه وتثبتت قدماه على الأرض، كان الفزع قد تملكه تلك اللحظة ولم يعد في استطاعته أن يفكر فيما سيفعله.

اقرب من الجسد الملقى على الأرض يحذر وأقدامه تتناقل، خر على ركبتيه وهزه هزا، فلم يُحرك ساكنا ونظر إلى عينيهِ الجاحظتين في فزع، وجده مطعونا بخنجر في قلبه، هرول مسرعا إلى باب المنزل، ثم تردد محاولا أن يركض ناحية الطريق ليعود أدراجه، لكنه استدرك الأمر وعزم على الدخول إلى منزله عليه يجد أي دليل أو أي شخص أو حتى هاتف ليُخبر الشرطة، لكنه تفكر أنه إذا أبلغ الشرطة فستحوم الشبهات كلها حوله فلم يوجد سواه في هذه البقعة الكئيبة.

تردد مرة أخرى وعاد يبحث في المنزل لكنه لم يجد سوى بعض زجاجات الخمر الفارغة ملقاة على الأرض، وبعض الأثاث المكسور، خمن على الفور بأن مشجرة كبيرة قد نشبت في هذا المكان وقُتل على إثرها سيث، انطلق ناحية الطريق وهو يركض سريعا ليعود من حيث أتى وفجأة سمع صوتا يناديه من بعيد ويقول له: لا تركض لقد رأيت كل شيء وسأخبر الشرطة بأنك قاتله.

توقف آدم في مكانه لا يُحرك ساكنا ونظر خلفه ناحية الصوت، رأى الأضواء تحوطه من كل جانب وصوت سيارة الشرطة ينطلق عاليا في الأفق في إحياء أنها آتية ناحيته، وفجأة خرج من وراء الأشجار الملتفة حول الطريق جميع من كان في حفل سيث وهم يصفقون ويضحكون، بدأت الطمانينة تعتريه بعد أن تجمد الدم في عروقه، اصطحبه الجميع إلى جهة المنزل، وأيقظوا سيث من رقادهم وهم يضحكون ويسخرون من آدم ذلك الذي ابتلع المكيدة.

وقف سيث وصافحه وأخبره أنها كانت مزحة. لكن آدم ما زال مشدود الأعصاب، خائر القوى، فما زالت الصدمة تؤثر عليه، بدأت الموسيقى بالصياح وعلا الضجيج أنحاء المكان، اصطحبوا آدم إلى داخل المنزل ليكملوا حفلهم.

جلس آدم على الأريكة في إعياء وتناول كأسا من الخمر، نظر حوله فوجد بعضا من زملائه في الكلية يتواجدون في حفل سيث، احتسى عدة كؤوس إلى أن لعبت الخمر برأسه، حاول أن ينهض من مقعده لكنه لم يقدر على الوقوف فجلس ثانية. اتخذ سيث مقعده بجانبه وقدم له لفافة من التبغ، أخبره آدم بأنه لم يتذوقها من قبل.

قال له سيث: أرى أن السيجارة هي المتعة الكاملة، كما أنها تترك غير راض، وهذا هو الهدف الأسمى لتطلب المزيد.... تفضل

قال آدم: لا شكرا

- قلت لك من قبل، عليك أن تترك نفسك إليّ، فعليك أن تجرب كل شيء فأنت لن تخسر شيئا بالتجربة.

تناول آدم منه اللفافة وأخذ نفسا عميقا فظل يسعل على إثرها لفترة طويلة حتى أحمرت عيناه فأعلمه سيث بأن المرة الأولى تفعل فعلتها.

أصاب آدم بعد تناول الخمر والتبغ الممتزج بالمخدر دوار برأسه حتى أصبحت الرؤية لديه مشوشة نوعا ما، حاول أن يستأذن سيث ليدخل الحمام حتى يغسل رأسه ووجهه فهو لا يشعر بخير، هرول إلى الحمام وبعد فترة عاد إلى مقعده، ونظر حوله فلمح فتاة جميلة الملامح غضة الجسد، فلم يشح ببصره عنها.

قال له سيث: ربما يمكنك الذهاب والتحدث إليها

- لم أكن أعرف أنها..

قاطعته سيث: لا تكن خجولا وأذهب، فأنت تمتلك الشيين الوحيدين اللذين لهما قيمتهما، الشباب والجمال

بعد لحظات، نظر الاثنان إلى الفتاة، فوجدا أن شخصا آخر قد اصطحبها

قال سيث: الحياة لحظة، ليس هناك شيء بعدها، لذا أجعلها دائما تحترق بأقوى لهب.

أصاب آدم الفتور من جو المكان فحاول الانصراف فسمح له سيث بالمغادرة بعد وعد باللقاء لمغامرة جديدة أخرى. عاد آدم إلى المنزل ورائحة الخمر تفوح من فمه، وقد تأخر الوقت وأسدل الليل ستائره على المكان، دلف إلى القصر مسرعا حتى لا يلاحظه أحد حتى وصل إلى غرفته، وأغلق بابها واستلقى على فراشه، لكنه بعد لحظات قام من مقامه وحاول أن ينظر في المرأة ليرى نفسه وهو منتشي مخمور.

توقف أمام المرأة فلاحظ وجود العجوز ماثلا أمامه في المرأة وهو يقول له: الملاح الذي يُسلم مركبه إلى موج الخضم العميق، ما أشق عليه أن ينجو قاربِه المحطم.

اختفى العجوز وتركه يتفكر في كلماته التي ألقاها في أذنيه وغادر سريعا، ترنح آدم وهو يسير ناحية الفراش ثم ألقى بجسده عليه وغاص في نوم عميق.

في صباح اليوم التالي ارتدى آدم ثيابه سريعا وهرول إلى كليته ليلتحق بموعد المحاضرة. دخل إلى القاعة لكنه لم يجد بها أحدا فظن أن الجميع في مرسم الكلية، سار عبر الممر إلى السرداب ولما وصل إلى هناك تطرق إلى سمعه حديث أرنست مع الطلاب، طرق باب المرسم فأذن له أرنست بالدخول مع وعد بعدم التأخير مرة أخرى. أكمل أرنست ما كان يتحدث به من قبل مقاطعة آدم له قائلا: كنا نقول.... في العمل الفني هناك دور أساسي للخيال، فحينما نُشاهد عرضا للعرائس المتحركة فإننا نرى التعبيرات على وجه العرائس، ونشعر أن ملامحها تتبدل مع تغير كلمات محرك العرائس، إننا هنا نتابع بمخيلتنا رؤية التعبيرات التي نعرف جيدا أن ليس لها وجود بالفعل، فهي في الأول والأخير مجرد عرائس....

ألقى أرنست نظرة إلى الطلاب الذين يتابعونه في اهتمام فوجد آدم يغط في نوم عميق، لقد أصابته المحاضرة بالملل فأسدلت عيناه ستائرها ونام، أيقظه الطلاب لما رأوا أرنست ينظر إليه في صمت، أفاق من سباته واعتذر له متعللا بأنه لم يستطع النوم ليلة الأمس، قبل أرنست اعتذاره وأنهى المحاضرة.

خرج آدم مسرعا إلى مقصف الكلية ليحتسي القهوة كي يفيق من سباته هذا الذي طغى عليه، وهناك تقابل مع ضياء فلم يجد ضياء أحدا ليجلس معه سوى آدم بعد أن غادر الجميع.

بادر ضياء بسؤاله: أسمح لي بالجلوس معك؟

- على الرحب والسعة

- هل لي أن أتحدث إليك بحرية يا آدم؟

- لك ذلك تفضل أرجوك

- إني أرى على وجهك ملامح الحيرة

قال آدم مستغرباً: حيرة؟! أية حيرة؟

- أنا لا أعلم لكن أراك دائماً والقلق يعتريك

- معك كل الحق، أنا جديد على هذه الحياة، ولم أتأقلم بعد على هذا

الوضع

- أرى أن عقلك هو ما يتعبك

- أريد الحقيقة فحسب.... أحاول أن أعرف إذا كان للإله وجود أم أن وجوده فقط في تصوراتنا، لقد بحثت في الأديان جميعها ولم أصل إلى شيء..... هناك الكثير من الغموض في هذه المسألة وهناك تناقضات لا حصر لها، فعزمت على تركها كلها. وبحثت في مجالات أخرى عنه لعلني أصل إلى ضالتي المنشودة، لكن ما يشغل بالي في الوقت الحالي، أنني قد جربت الكثير من الأشياء التي يعتبرها الإله من الخطايا فهل سيُعاقبني الإله؟ ففي جميع الأديان الإله يعاقب الإنسان على خطاياها التي ارتكبتها في حياته القصيرة بعذاب أبدي، أليس كذلك؟

- هناك نعيم أبدي ويقابله عذاب أبدي، أليس ذلك من العدل؟

- أي عدل هذا... أيستوي قصر العمر مع الأبد يا صديقي؟

- المسألة ليست بهذه البساطة فبعد الموت سنمسي خارج نطاق الزمان، تخيل شخصاً كان يعيش من آلاف السنوات فيما مضى ومات، وشخص آخر مات في يومنا هذا، وعلى افتراض أن ساعة الحساب قد أذنت وبعث الله الاثنين وسأل الأول "متى مت؟" سيقول له البارحة، وحينما يسأل الثاني الذي مات من آلاف السنوات نفس السؤال ستكون الإجابة واحدة بالتأكيد أليس كذلك؟

- أرى أن معك بعض الحق، لكن هناك الكثير والكثير من الأسئلة الشائكة

التي لم أجد لها جواباً حتى الآن، لكن كل تلك الأسئلة التي تشغل عقلي لا أهمية لها إلا إذا كان للإله وجود، لذا فأنا لا أشغل بالي بها كثيراً حتى أجد الإله

- إذن أنت تبحث عن الإله؟

- نعم، لكن اعتذر لك الآن فلا بد لي بالمغادرة ولكن لنا موعد آخر لنتناقش حول أمور كثيرة

- كما تحب

- إلى اللقاء

انطلق آدم كعادته في المكان الذي يحبه كثيرا على أطراف العاصمة وفوق أعلى قمم الجبال هناك. حمل معه أدوات الرسم الخاصة به. وجلس في هدوء الطبيعة الخلابة يرسم، فالرسم فقط هو ما يُخرجه من عالمه إلى عالم آخر أشد جمالا وروعة. استمر يرسم ويرسم لساعات طوال حتى انتهى وأفاق من خياله لينظر إلى صورته التي رسمها فإذا بها نفس الفتاة التي رسمها من قبل ولم يتعرف عليها، لكن قد ازدادت تفاصيلها تلك المرة عن سابقتها فوجد أن وجهها مستديرا ويزيدها جمالا شعرها المنساب طليقا وبشرتها البياض بياض الثلج، كانت حواجبها مزججة ومكحلة عينيها بمسحوق الرماد.

أحب آدم تلك الصورة التي رسمها خياله الخصب، وكثيرا ما تحدث معها وكأنها حية تشعر وتحس، ترى وتسمع ولكنها دوما لا تتحدث.

شعره وفي خضم شروده أن الوقت قد مضى سريعا وهو يرسم، ملم عدته ورجع إلى منزله ليتناول غداءه، فوجد هاتفه يرن، نظر إليه فإذا بسيث يطلب منه أن يقابله هذا المساء.

نزل آدم على رغبة سيث، وفي الموعد كان اللقاء، اصططحبه سيث إلى ملهى ليلي يعرفه سيث جيدا، كان ذلك الملهى من خبايا الأماكن في العاصمة ولا يعرفه إلا من له باع طويل في الشوارع والأزقة.

وصل الصديقان إلى باب صغير يقف أمامه رجل ضخم الجثة تظهر على وجهه ملامح الغضب والضيق، صافحه سيث وابتسم في وجهه، سمح لسيث بالدخول لكنه قد منع آدم، وبعد أن تحدث معه سيث طويلا وأنبأه أنه صديقه أدخله معه.

دلف الاثنان إلى الداخل عبر ممر مظلم إلا من بعض أشعة الضوء الحمراء الخافتة. وعلى جانبي الممر يتواجد الكثير من الشباب، فتيان وفتيات يتبادلون

القبيلات والأحضان، أمسك سيث بيد آدم وعبر به الممر الطويل الذي ينتهي بصالة كبيرة للرقص.

رأوا على المسرح الكثير من الراقصات العاريات الكاسيات يتمايلن في إغراء، وجدوا طريقهم إلى طاولة فارغة جلسوا عليها، زاغ بصر آدم في المكان حوله فرأى الكثير من السكارى يحتسون الخمر، وآخرين في أوضاع جنسية مزرية، والمكان بأكمله مغلق على نفسه وعلى الناس الذين يعرفونه فقط.

شعر آدم أن سيث أقحمه فيما يشبه حفل للجنس والعريضة، اشمئز مما يحدث حوله وكلما أشاح بوجهه إلى ناحية من النواحي يجد الغانيات، وأشباه الرجال والسكارى في كل مكان، ظل مكانه على مضض إلى أن جاءت فتاة يظهر من جسدها أكثر مما تواريه الثياب التي ترتديها وسألت عن شراهما، فأشار إليها سيث بأن تُحضره مشروبه المفضل ولتجعل منه كأسين.

علم آدم أن سيث معروف في هذا المكان، وأنه من رواده بعد أن عرفه حارس المكان في البداية، ونادلة المكان الآن، أتت الفتاة بمطعمهم وناول سيث آدم الكأس وطلب منه احتسائها، سأله آدم عما في هذه الكأس فأخبره سيث بأنه مزيج من أنواع مختلفة من الخمور وله تأثير السحر، احتساه آدم سريعا لعله يُغيبه عن وعيه في ذلك المكان المنفر.

بادره سيث بالسؤال قائلا له: ألا تظن أننا يجب على الأقل أن نحاول أن نُحدث تغييرا؟

- أنا ليس لدي أي رغبة في تغيير أي شيء باستثناء هذا المكان

ابتسم سيث وقال له: ستعتاد عليه

ثم أشار بيده إلى النادلة فجاءته النادلة بشراب آخر، وحينما شرعا في احتساء الشراب الآخر قاطعتهم غانية من غانيات المكان قائلة لهم في جراءة وهي تنظر إلى سيث: ما رأيك أن تقوم أنت وهذا الشاب الوسيم بممارسة الحب معي؟

نظر آدم إلى سيث فوجد الابتسامة تعلو وجهه، ونظر مرة أخرى إلى الفتاة قائلا لها في سخرية: كلا شكرا. إلا أننا نتمنى لك التوفيق في سعيك المسائي للبحث عن الرومانسية

انفجر سيث بالضحك على حديث آدم فتركتها الفتاة وغادرت

قال له سيث: ليس هناك عيب في المتعة يا سيد آدم. الرجل لا يريد شيئا سوى أن يكون سعيدا، لكن المجتمع يريد منه أن يكون صالحا، وعندما يكون صالحا نادرا ما يكون سعيدا

ونظر إلى آدم بابتسامة واستأنف يقول: اعتقد بأنك تريد أن تكون صالحا يا آدم وسعيدا كذلك، أليس كذلك؟

أجابه في سخرية: أعتقد أنني أريد أن أكون صالحا وسعيدا وفي النهاية آدم وسأله: أليس هناك ثمن يُدفع لهذا النوع من الأعمال؟

قال سيث: أن سعرها معقول جدا

- ولكن ما كنت أسأل عنه هو تأثير ذلك على...

قاطعه: على ماذا؟

- حسنا على روح الإنسان

قال في عصبية والشرر قد تتطاير من عينيه: روح الإنسان هه.... هذه هي كنيسة

ثم أمسك بكأس الخمر وقام بضربها بقوة على المائدة وهو يقول: بهذا الخمر أنا صلبت روعي على مذبح الشيطان

وجلس على مقعده مرة أخرى

بادره آدم بالسؤال: هل تهتم هكذا بكل من تقابلهم؟

أجابه سيث وقد عاد إلى هدوئه: ليس كل من أقابلهم مهمين، لكنني أرى فيك الاستعداد

ثم استطرد في حدة قائلا له: الآن هل تريد أن تمارس الجنس؟

- الجنس شيء مقدس أرى من الأفضل أن يتم بالزواج

رد عليه سيث في سخرية: يا سيدي الأشياء المقدسة فقط هي التي تستحق اللمس، فالتناس في أيامنا هذه يخافون من مشاعرهم

- أنا لا أخاف

- بالطبع تخاف، يعلمونا الرعب منذ الطفولة، الرعب من الخطأ، الرعب من الفضيحة، الرعب من الجنس، الرعب من اللعب، والرعب من النار، وأخيرا الرعب من الإله، تعلمنا أن نقضي حياتنا كلها نرتعد

قال آدم وهو يتفكر في حديثه: لديك كل الحق في هذا

نظر إليه سيث في ابتسامة خبيثة وقال له: أرى أنك ستمارس الجنس في النهاية

- هيا بنا

انتهى بهما المطاف على سُلّم في نهاية صالة الرقص، صعدا عليه سويا وفي نهايته وصلا إلى غرف واسعة مغلقة أمامها الكثير من الأرائك يجلس عليها الغانيات الحسنات، شقراوات وسوداوات، ومن كل شكل ونوع، طلب سيث من إحداهن وهو يشير إلى آدم قائلا: صديقنا سيتزوج قريبا، لكنه لم يحظ بفرصة من قبل ليُجرب المتعة الحقيقية قبل الزواج... قولي له وداعا للشباب وأحضري له فتياتك

ذهبت الفتاة لتحضر فتياتها ونظر سيث إلى آدم وقال له: الطريقة الوحيدة للتخلص من الإغراء هو الاستسلام له يا صديقي.

قاطع حديثه ظهور الفتاة مرة أخرى مع العديد من الحسنات بأجسادهن المختلفة، فكان منهن الرعبوب، ومنهن ذات القوام الممشوق، استرجع آدم كلمات صديقه سيث ثم أختار منهن مَنْ قد حلت في عينيه، وسحبها إلى غرفة من الغرف الممتلئ بهم المكان فسبقته الحسناء إلى الفراش في وسط الغرفة وانقضى الليل بأكمله في تلك السهرة الحمراء حتى تعب الجميع واستسلم آدم لنوم عميق.

نهض آدم من سباته في عصر اليوم التالي وهو يتلفت حوله في دهشة وحيرة فلم يك يدرك بعد أن لعبت الخمر برأسه أنه قد بات ليلته الفاتنة في إحدى بيوت الهوى، أبصر بجانبه الحسناء التي قضت معه الليل على هذا الفراش نائمة عارية، استوى منتصبا وأخذ يللم ثيابه ويستجمعها محاولا ارتدائها في لهفة، وشرع يفتش في جميع الأنحاء عن حافظة نقوده وهاتفه المحمول، وما أن وجدهم حتى ترك لها الكثير من الأموال على الصوانة بجانب الفراش ونظر إلى هاتفه فوجده قد نفذ شحنه، استجمع شتات نفسه محاولا الفرار من هذا المكان، وما أن نظر إلى عاهرته فوجدها قد نهضت من سباتها وارتدت قميصها

المنسدل الفضفاض الشفاف الذي يكشف جميع جسدها وقد استرسل شعرها الأشقر حتى صاحت قائلة: ألن تقبّلي قبل أن تغادر

لم يعرها اهتماما وتركها وغادر سريعا.

عاد آدم إلى قصر خاله فوجد جميع من في القصر يقفون أمام الباب وهم في حالة من القلق الشديد بسبب غيابه البارحة دون أن يُعلمهم، ولما وجدوه أتيا نحوهم انفجرت أسارير الجميع، هرعت نحوه زوجة خاله تسأله: أين كنت البارحة يا آدم لقد انتاب الجميع القلق عليك؟

- كنت أبيت ليلتي الماضية عند صديق عندما تأخر الوقت ولم استطع مهافتكم لأن الهاتف قد نفذ شحنه

واستطرد يقول وقد أحمر وجهه من الغضب: إنني لم أعد صغيرا

ثم التفت الجميع إلى الخلف بعد سماعهم صوتا يأتي عبر الأثير من ورائهم فإذا به خاله جلال يتقدم إلى الأمام بجسده الضخم وحلته الأنيقة. وقد بدا على وجهه الغضب الشديد وحينما رأى آدم ماثلا أمامه انفجر كالبركان في وجهه قائلا له: آدم..... لديك الحرية في كل شيء، لقد ربيناك على هذا، ولكن أن تتصرف بدون أن نعلم فهذا هو ما لا أرضاه، أعلم جيدا أننا قد بحثنا عنك في كل أنحاء العاصمة حتى اتصلنا بوالدتك وأقلقناها معنا كذلك، إنها المرة الأخيرة التي أسمح فيها بهذا الإهمال، إن كنت تريد أن تفعل شيئا فلن يمنعك أحد وما عليك سوى إعلامنا، أذهب الآن إلى غرفتك وتحدث مع والدتك ثم لنا حديث آخر بعد ذلك... هيا الآن فلتغرب عن وجهي.

كان آدم يستمتع في سكون مطأطئ رأسه نحو الأرض شاعرا بالذنب الذي اقترفه، وهوول إلى غرفته وتحدث مع والدته وطمأنها ثم قام بالاتصال بسيث من هاتف المنزل كذلك، وأخبره بمدى غضبه منه لأنه تركه في ذلك المكان وانصرف لكن سيث قال له: من قال لك هذا الكلام أنا لا أتخلى عن أصدقائي، أتعلم أين أنا الآن؟

- أين؟

- في الغرفة المجاورة لغرفتك ومازلت هناك حتى الآن، أين أنت الآن يا آدم؟

- في منزلي

- أنظر لقد تركتني أنت وغادرت، لكن ليس هناك مشكلة، هل ستقابلني الليلة؟

- سأحاول.

ذهب آدم لتناول بعض الطعام بعد أن شعر بالجوع الشديد، وفي المساء ارتدى ملابسه وأخبر زوجة خاله بأنه من الممكن أن يتأخر الليلة، وطلب منها عدم القلق عليه، اطمأن آدم إلى أن هاتفه يعمل فحمله معه وانطلق ليقابل سيث، حينما تقابل معه قال له آدم: مازالت رأسي تؤلمني من آثار الثمالة الليلة الماضية

قال له سيث: لو أنك نظرت إلى صورتك في المرأة الليلة الماضية لم تكن لتعرف نفسك، أعلم يا آدم أن للشرب ناموسا لا بد لك أن تتبعه لتأمن

- وما هو هذا الناموس يا عبقرى زمانك؟

- عند الشرب يجب عليك أن تحافظ على صفاء ذهنك، وتوازن قدميك، والحذر ثم الحذر من السكر المفرط لأنه وخيم العواقب

- وماذا سنفعل اليوم؟

- مغامرة جديدة بالطبع مع أفضل الحسنات في التاريخ، لكن عليك بالالتزام بما سأقوله لك الآن

- وما ذلك؟

- عليك أن تترك الخجل على عتبة الباب قبل أن تدخل، ولا تتأخر في الحديث إلى إحداهن، بل ابدأ مع من تريدها وسينطلق عنان لسانك

ضحك آدم الذي كان يستمع باهتمام بالغ وقال لسيث: من أين لك هذا الكلام يا سيدي؟

- من خبرتي في هذا المجال يا بني

وصل الصديقان إلى المكان المنشود، كان محفلا كبيرا يمتلئ بالعديد من الحسنات الكاسيات العاريات، وفي وسط تلك الحشود قال سيث: كثيرا ما طاش حكمي في اختيار إحداهن

كان سيث في ذلك الوقت قد أصابه الهياج ولعب الخمر برأسه بعد أن احتسى الكثير من كؤوس الخمر على عكس ما نصح به آدم من قبل، رفع سيث كأسه لأعلى ثم نظر للجميع وهو يصيح بصوت جهير قائلاً:

حذار أيتها العفة أن تقتربي، ففي هذه الساحة مصرعك.

وفي تلك اللحظات كان الجميع يتلفتون يمينا ويسارا، وكل منهم يحتضن بعينه امرأة يشتمها، وقد شرع العازفون في إرسال الأنغام الصاخبة في الجو المحيط، ودوى التصفيق والرقص، وفجأة انطفأت الأنوار وأسرع القوم كالوحوش الكاسرة يملأهم الشبق العارم، وأيادهم النهمة تهوى على مفاتن أجساد النساء حتى تقطعت ثياب الجميع.

كان آدم ينظر إلى هذا الهرج في ذهول، بدأ سيث يشجع آدم على الاشتراك في هذا الحفل، ورضخ آدم للجو المحيط، واشترك مع الجميع وامتدت يده إلى النساء ليقتطف منها ما يستطيع حتى انتهى الحفل، وارتدى كل فرد ثيابه وعاد الجميع أدراجه مرة أخرى.

ترك آدم سيث وهروا إلى منزله وهو يتفكر طوال الطريق فيما فعله هو وهؤلاء القوم، لم يك يتصور أنه من الممكن أن يفعل مثل فعلته هذه من قبل وكيف له أن يتخذ مثل ذلك السيث صاحبا، لكنها الحياة بوجهها الآخر.

مرت الأيام الغابرة التي أنفقها آدم في الخمر والجنس واللهو والعريضة وعاد إلى كليته ليستكمل محاضراته التي كان قد أهملها مع صديقه سيث ذلك الذي لا يهتم بأي شيء في الحياة سوى متعته الخاصة وملذاته، دخل مرسوم الكلية فوجد كل واحد من الطلاب يجلس أمام لوحة يرسم عليها، وبعد لحظات تقدم أرنست بخطى ثابتة يسير بين الصفوف ويتابع ما يرسمه الطلاب وهو يتحدث ويقول:

على الفنان المبتدئ أن يعمل على نموذج معين ليساعده على التعلم، ثم يُلقى هذا النموذج بعد ذلك وراء ظهره ويرسم من الذاكرة، ومع الخبرة سيغدو عمله قطعة فنية حية عامرة بالمشاعر.....

ثم تناول قطعة من الطين في يديه ثم استطرد قائلاً: الإله تناول قطعة من الطين مثل هذه، وخلق منها كل ما في الطبيعة، كذلك لابد للفنان أن يستخدم ما في الطبيعة من أدوات كي يبتكر عملاً غاية في الإبداع

رد عليه ضياء وقال والفرشاة مازالت في يده: أتعني أن أعمال الفنان لا يجب أن تحاكي الأصل؟

- الرسام الحقيقي لا يرسم لوحاته كما الأصل، بل يرسمها كما يشعر بها، فإذا أراد مثلا أن يرسم لوحة لحيوان متوحش سيبدو لنا في الصورة أضخم مما هو عليه في الطبيعة.....

مازال أرنست يتحرك بين الطلاب وهو يتحدث حتى انتهى معظم الطلاب من رسم لوحاتهم فرأى الكثير من اللوحات، لكن ما جذب انتباهه بشدة هي تلك اللوحة التي رسمها آدم.

نظر فيها نظرة متمعنة فرأى فيها سحب كثيفة تملأ أفق مدينة تنتظر العاصفة وهي ترتجف من المصير الذي يهددها، حتى التلال الخضراء التي بها تغيرت ألوانها واكتسبت لون أحمر بلون الدم، أما النهر فقد تجمد في مكانه وكأنه قد أصابه الشلل.

وقف أرنست يتحدث إلى آدم قائلا له بابتسامة: إنني أسمع صوت الرعد يقترب... أعرض اللوحة على الجميع

ألقى الجميع نظرة عليها وبعد فترة بدأ الطلاب يتحدثون عنها فقال ضياء: أشعر وكأن المدينة تقف شامخة في مواجهة العاصفة

قال سام مازحا: هل ستصمد المدينة بعد مرور العاصفة؟

قالت روز: أحس بشعور عميق تجاه تلك الصورة

قاطعهم أرنست موجها حديثه إلى آدم: من أين لك بفكرتها؟

رد آدم: لقد حلمت بها البارحة في نومي

- أترسم أحلامك؟

قال آدم مبتسما: وأدعوا ألا تتحقق

نظر أرنست إلى الطلاب جميعهم وقال لهم: هذا العمل من إنتاج فنان لا تُوحى رسومه بنظرة متفائلة إلى العالم.

أشاد الطلاب بلوحة آدم وصفقوا له تصفيقا حادا امتنانا وعرفانا بموهبته العظيمة في الرسم والخيال، أما آدم فقد أحمرت وجنتيه من الخجل فقام بدوره وشكر الجميع على المؤازرة والتشجيع.

انتهت المحاضرة وغادر الجميع، شعر آدم بالغبطة والسرور لاحتفاء الجميع به وبأعماله، وفي هذا الوقت تذكر والده فهو الوحيد الذي كان يشجعه ويشد من أزره عندما يقوم برسم لوحة وقد اكتسب ذلك الحس الفني الرائع من والده، وتعلم الكثير عن الرسم والتصميم واستخدام الألوان، وقد نضج ذوقه الفني مع والده الذي كان يعرض عليه دوما أعمال كبار الفنانين والرسامين ويشرح له لوحاتهم، فهو الذي أخبره ذات مرة بأن ذوقه الفني سوف يرهف مع السنين، وسوف يصل إلى ذروة الجمال الحقيقي، هكذا علمه والده.

أمسى آدم بعد مرور الأيام في حيرة بالغة بين حياته كفنان وحياته التي أنفقها في اللهو واللعب والمتعة، وتفكر فيما إذا كانت تلك التجارب التي يخوضها مع سيث ذات أهمية له كفنان في المستقبل، أم أنها سوف تؤثر عليه في النهاية ويكون الفشل هو المصير المحتوم، لكنه قرر أن يكمل تلك التجارب حتى يصل إلى نهايتها، ويتعلم كل شيء عن الحياة.

تقابل مع سيث مرة أخرى بعد أن أنبأه بأن مغامرة اليوم لن ينساها طوال عمره، ولحبه الشديد للمغامرات واكتشاف كل جديد قرر أن يذهب إليه، أخذه سيث بالسيارة إلى ركن بعيد على مقربة من نهاية العاصمة، قطعاً مسافات طويلة عبر التلال القاحلة، وأشجار البلوط خفيفة الأوراق تُحيط جانبي الطريق، وفي مكان مظلم مقفر توقفت السيارة ونزل الصديقان منها.

أبصر آدم المكان حوله فلم يجد أيًا من البشر في هذا المكان الموحش، وما رآه فقط قصر عظيم، أمام القصر حديقة شاسعة المساحة. وعلى جدرانها الأمامية تماثيل رائعة لأفيال ترفع النوافذ بخراطيمها وفرسان يحملون السيوف وحيوانات أسطورية.

كان القصر قطعة فنية عظيمة التصميم، انطلقا حتى أتيا القصر ولدى بابه الكبير شاهد آدم رسومات غريبة لجماجم ونجوم وطلاسم لم يعرف لها تفسير، لكن ما استرعى انتباهه وجود عدد كبير من الخفافيش المذبوحة المعلقة على بابه ونوافذه.

توقفا أمام باب القصر وأمسك سيث مقبض الباب وطرق به عدة طرقات بنغمة معينة ففتح الباب، وقبل أن يدخل آدم القصر سأل سيث عن ماهية ذلك المكان الغريب، أخبره سيث أن عليه أن يثق به وسوف يُحدثه بكل شيء

فيما بعد، استسلم آدم لرغبته وسار معه عبر عدة ممرات سرية لا يعرف خباياها إلا مَنْ هو عليم بالمكان، فلم يكن هناك أحد في ذلك المكان حينما وصل الصديقان.

في البداية اقترح عليه سيث أن يصحبه في جولة ليتعرف على القصر، كان الذهول يُطبق على فم آدم فيمنعه من الحديث، سار معه مسلوب الإرادة، توقف سيث وقال لآدم: أنت الآن يا صديقي في كنيسة الشيطان

سأله آدم في دهشة قائلاً: أو للشيطان كنيسة؟!

شرح سيث يشرح له كل شيء يخص غرف القصر في تلك الجولة، انطلقا سويا حتى وصلا إلى قاعة تسمى قاعة الهيكل عبر أحد الممرات، وعبر الممر الآخر توقفا عند غرفة حيث تُمارس فيها الكثير من الطقوس الخاصة بعيدا عن الأعين.

كان سيث يشرح لآدم وهو في ذهول مما يراه، أبصر آدم مكتبة ضخمة تضم الكثير من كتب السحر والشعوذة، لكن ما لفت انتباهه كتاب غريب الشكل عليه نفس الطلاسم والرسومات التي رآها من قبل على باب الكنيسة ويحمل في وسطه عنوان "إنجيل الشيطان".

تناول آدم الكتاب وفتحه فقرأ في مقدمة الكتاب:

"عقيدتنا شريرة وصادقة في الوقت ذاته... وإن كنت في ريب من هذا الكتاب ما عليك سوى اقتنائه ودراسته جيدا، يحمل هذا الكتاب بين دفتاه تعاليم ديانتنا، وهذه الديانة ليست لأي شخص، فلو كنت ممن يرى في نفسه أنه يصلح لها فسابقى لنا القرار الأخير قبل أن نُرحب بك في عالمنا، فإلينا له نظرة في تابعيه ونواياهم الحقيقية.... إنك تلعب مع ملاك."

أثارت ذهنه تلك العبارات في مقدمة الكتاب، حاول أن يُكمل قراءته، لكن سيث أعلمه أنه ليس هناك وقت لذلك كما أنه سوف يعطيه الكتاب ليقرأه فيما بعد.

عادا إلى جولتهما حتى دخلا قاعة الهيكل، كانت القاعة ذات أثاث عتيق وتحوي بداخلها تابوتا حجريا يشبه تابوت قدماء المصريين، وفي جانب القاعة يوجد مذبح وسرير أمام الحائط الغربي، سأل آدم عن سبب وجود سرير في الكنيسة، أخبره سيث أنه لجلوس الضحية المقدسة.

سأله آدم بدوره: وما هي الضحية المقدسة؟

قال سيث: إنها فتاة شابة جميلة المعالم والقسمات وتعتبر رمزا لعقيدة الجسد التي تقوم عليها طقوس الكنيسة.

رأى آدم أن هناك الكثير من الكؤوس المصنوعة من الذهب والفضة موضوعة على المذبح، وبعض السيوف والتمائيل مع بعض الأدوات كالسلاسل المعدنية والشرائط الجلدية والسياط معلقة على حوائط القاعة.

انتهت الجولة وخرج آدم وسيث من الكنيسة وتوقفا سويا في الحديقة أمام الكنيسة، وقد أحضر سيث معه كتاب "إنجيل الشيطان" أو كما يطلقون عليه "الإنجيل الأسود".

قدمه هدية لآدم وقال له: ادرسه جيدا وستُعجبك مبادئه.... أما الآن وقد تعرفت على كنيستنا فرغبتي شديدة في أن تكون عضوا فيها

هنا فقط تذكر آدم سيمون الذي قابله منذ سنوات في مدينته الزوراء عند القبور، وتحدث مع سيث بشأن هذه الطائفة التي كانت تعبد الشيطان، لكن سيث قال له: أن هؤلاء يعبدون الشيطان بالفعل. أما نحن فلا نعتقد بوجوده في الأساس لكننا نتخذ صورته المتمردة المتحررة رمزا لشخصياتنا ومبادئنا وطريقة تفكيرنا.

بعد فترة طويلة من وجودهم في هذا القصر عادا إلى السيارة وانطلقت مغادرة إلى قلب العاصمة ليعود كل منهما إلى داره.

دخل آدم غرفته وأوصد بابها بإحكام. جلس على فراشه يتصفح ذلك الكتاب الذي أعطاه إياه سيث، تخطى المقدمة التي قرأها من قبل هناك في الكنيسة وتابع، نظر إلى محتويات الكتاب فوجد أنه ينقسم إلى عدة أقسام فهناك قسم الخطايا، وقسم الوصايا، وقسم التعاليم، وقسم الطقوس، وأخيرا القوانين.

شرح يقرأ فيه آدم باهتمام بالغ فوجده يدعو الإنسان إلى البحث عن اللذة والمتعة في كل شيء، ويشجعه على ارتكاب الموبقات السبعة وهي التكبر والغيرة والغضب والجنس والشهوة والكسل والجشع.

يُعطى الكتاب تعليمات للعضو بأن عليه الاستمتاع بكل شيء، فليس هناك محرمات فيه كما في الأديان الأخرى وعليه أن يصل بمشاعره إلى قمة الكراهية.

فلا حياة بعد الحياة. فالعذاب والنعيم فقط في هذه الدنيا، أغلق الكتاب وهو يتنأب فغلبه النوم فنام.

عاد آدم إلى كليته، تقابل مع زملائه في الكلية وكان الحديث حول العمل العظيم الذي قدمه آدم المرة السابقة والكل يشيد بموهبة آدم وعظيم قدرته الفنية.

دخل أرنست القاعة وهو يسمع عبارات الإشادة والإعجاب من الطلاب فقاطع حديثهم قائلاً بلا مقدمات: عدد لا يُحصى من البشر يقرأون الكتب، ويسمعون الموسيقى، ويشاهدون المسرح واللوحات، ويرتادون السينما..... لماذا؟
رد آدم قائلاً: لأنهم يشعرون بالمتعة

- إذا قلنا كذلك، فإننا لم نُجب عن السؤال، ويبقى التساؤل، لماذا نشعر بالمتعة؟..... ثم ما هذه المتعة التي تعترينا؟

قال ضياء: من الممكن أن تكون لدى الإنسان رغبة في الهروب من وجوده، ليغوص في حياة الآخرين
- ولماذا لا يكفيننا وجودنا؟

قالت روز: لأننا نريد أن نكتسب خبرة أكبر عن طريق تجارب الآخرين
رد أرنست: عدنا إلى نفس السؤال ولماذا؟
أجاب الجميع في حيرة: لا نعرف

استطرد أرنست يقول: تلك هي الرغبة في الكمال التي تعترينا جميعاً، فالإنسان منذ أن خُلق يسعى للتخلص من عزلته عن طريق الاختلاط بالبشر وخوض تجارب الآخرين، فلا يريد أن يعيش في حدود عالمه الضيق، بل يرغب في احتواء العالم بأسره، بل يرغب في أكثر من ذلك، يريد الوصول إلى الكمال.

قال ضياء: وكيف يصل إلى هذا الكمال؟

قال أرنست: لن يستطيع الوصول إلى هذا الكمال إلا إذا حصل على تجارب الآخرين، إنه يريد الاندماج.

- وما علاقة الفن بذلك؟

- الفن هو الأداة اللازمة لإتمام هذا الاندماج، فهو الذي يساعده على الالتقاء بالآخرين وتبادل الرأي معهم والتجربة معهم... أما الآن فلنرسم ولنستخدم الفن للوصول إلى الكمال المنشود.

وبعد المناقشة الطويلة كعادة الطلاب في الدراسة انتهت المحاضرة.

خرج آدم سريعا من الكلية، وعاد إلى منزله وهروا إلى غرفته ليستكمل قراءة الكتاب الذي نسي أن يستكملة، فتح آدم الكتاب وتمعن في قراءته حتى انتهى منه وفي صفحته الأخيرة وجد عبارة "ستغرب شمس الأديان، وفجر الشيطان لابد أن يلوح في الأفق".

أغلق الكتاب وقام بالاتصال بصديقه سيث الذي وعده بحضور أحد الطقوس التي تقيمها كنيسة الشيطان، فأخبره أنه قد سافر إلى خارج البلدة لأمر طارئ وعندما يعود سيقوم بالاتصال به.

مرت الأيام بطيئة، وقد سأم آدم من رتابة أيامه، اختفت البسمة من وجهه وأصبح مكفهرًا، انتشر السواد تحت عينيه من قلة النوم، شعر بالخواء والفراغ يجتاحه، ليس له صديق أو قريب هنا، ولا علاقة بأحد في هذه العاصمة الغبراء، ولا يجد ما يفعله في أيامه الطويلة.

كان يجول في غرفته ذهابا وإيابا حتى وقعت عيناه على مرآته فنظر إلى وجهه فيها، رأى وجهه وقد اعترته سحابة من الهم والكآبة، كان مشئت الوعي يائس من الحياة، وإذا بالأفكار تصول وتجول في رأسه في دوامة لا تتوقف، وفي خضم شروده أبصر العجوز في المرأة قد أتاه مجددا فاستبشر به خيرا وانفجرت أساريره فقد كان في حاجة ماسة للحديث مع أي شخص.

تحدث إليه الحارس قائلا له: اجعل من الأمل صديقا لك، ثابر فالمثابرة وحدها هي طريقك.

اختفى العجوز كما يفعل دوما لكن هذه المرة قد تركه والأمل يحدوه، فكلمات العجوز جاءت في موعدها بعد موجة اليأس التي كادت أن تعصف به، وحينما بدأ يتفكر في كلمات العجوز فاجأه اتصال من سيث على هاتفه ليخبره أن الليلة هي الموعد المنشود للذهاب إلى الكنيسة لحضور القداس.

تردد آدم حائرا، أیذهب معه أم يعود إلى حياته الطبيعية ویتبعد عن صديقه سيث، ظل في تردده لدقائق طويلة حتى نظر إلى المرأة على أمل أخیر أن

يأتيه العجوز ليُقدم له النصيحة بشأن ذهابه من عدمه، لكن العجوز لا يظهر حينما يحتاجه، أما ما ظهر له هو الشيخ قائلاً له: اذهب.... انطلق فالحياة لحظة ليس هناك شيء بعدها فأجعلها تحترق بأقوى لهب.....

ثم تركه وغادر، استغرب آدم من كلماته هذه فهي ليست المرة الأولى التي يسمع فيها تلك الكلمات، لقد سمعها من قبل تخرج من فم صديقه سيث، كان ولعه الشديد بتجربة كل شيء جديد أحال بينه وبين مكوثه في المنزل فانطلق إلى مواعده مع سيث.

استقل آدم السيارة وبجانبه يجلس سيث في طريقهم إلى الكنيسة. توقفت السيارة أمام بابها، وما أن دخل آدم وسيث حتى اتجها مباشرة إلى غرفة الهيكل، وقفا في صمت فقد بدأت بالفعل الطقوس، وجد آدم الكثير من الفتيان والفتيات مجتمعين في الغرفة المظلمة إلا من بصيص من نور خافت يخرج من الشموع السوداء.

كان الكاهن في المنتصف يرتدي معطفاً أسود، وعلى وجهه قناع يُخفي ملامحه. ألقى ببصره إلى ناحية المذبح فإذا به مغطى بالقماش الأسود، وعلى الفراش يوجد غطاء يبدو وكأن شيئاً يختفي تحته، بدأت الموسيقى الصاخبة تُرسل أنغامها في حين شرع الحضور في التجرد من ثيابهم، ثم راحوا يتراقصون ويتميلون في كل اتجاه بلا وعي.

بعد لحظات قليلة بدأوا يضربون بعضهم البعض بالسياط، وانتشرت الصرخات وسط سيل الدماء المندفع من أجسادهم.

وقف الكاهن وفتح ذراعيه وصار هو الآخر يصرخ بأعلى صوته وهو يلعن ويسب كالمخمور، ساد الجو حينئذ نوع من الجنون، فالنساء يصرخن بأصوات هستيرية، والفتيات يُلقين بأنفسهن على الأرض ويتدحرجن على الأرض.

ملأ دخان المجامر الحجرة وسار الكاهن ناحية الفتاة العارية المستلقية على الفراش ثم اغتصبها وبعد أن انتهى دعا الجميع إلى اغتصابها.

لم يسأل آدم عن أي شيء لكنه اكتفى فقط بالمشاهدة ثم صار صمت طويلاً، لقد رأى الليلة ما لم يكن قد رآه في حياته بأكملها.

في وسط الضجيج والصراخ ظهر رجل يرتدي قناعا يخترق الصفوف تظهر عليه معالم الغضب توقف أمام الكاهن العاري وصفعه على وجهه صفعة قوية دوى صوتها في أرجاء المكان، فتوقفت الصرخات، وسكن صوت الموسيقى وساد صمت رهيب في جو الغرفة.

نظر إليهم هذا الرجل قائلاً لهم: مَنْ القائد هنا؟.... أهذا الذي أمامكم، أهذا مَنْ تتبعونه؟!، أهذه طقوس كنيستنا؟

ثم نزع من الوجه القناع الذي يرتديه الكاهن فظهر للجميع أنه عضو عادي من أعضاء الكنيسة لكنه ليس الكاهن، انتاب الجميع الدهشة ووقفوا في صمت من هول الصدمة

استطرد الرجل قائلاً للحشد المائل أمامه: ما هذا الذي تفعلونه، ألم أَلْغ تلك الطقوس الشاذة الغريبة، كفانا همجية، كفانا جهلاً، إننا يا سادة لا نعبد الشيطان ولا نؤمن بوجوده، إنه رمز أيها الأغبياء

ثم نزع عن وجهه القناع الذي يرتديه هو الآخر، فنظر الجميع إليه فوجدوه كاهن كنيسهم بالفعل.

نظر آدم إليه في خوف ورهبة، وقد تسارعت دقات قلبه لما رأى وجهه، وبلا إرادة خرجت من فيه كلمة نطقها بقوة وسمعها الجميع قائلاً: سيمون!

نظر سيمون إلى الصوت الذي سمعه في دهشة فلم يكن أحد يعلم اسمه الحقيقي هنا، ولم يناديه أحد بهذا الاسم منذ زمن طويل، رأى وجه آدم فتقدم إليه وقال له: أنا أتذكرك

رد عليه آدم قائلاً: لقد مرت سنوات على آخر لقاء بيننا

- بالفعل، أنت....

قاطعته: آدم

- نعم نعم، أذكرك جيداً، ولكن أين أصدقاؤك؟

- أتقصد ميلاد وجايكوب؟

- نعم

- لقد سافروا منذ فترة، ولم أعد أراهم منذ فترة طويلة.

كان سيمون اسمه الحقيقي الذي كان يخفيه عن الجميع، ولا يعرفه إلا أصدقاؤه المقربون. أما ما يطلقه عليه الجميع هو اسم الساحر، لمعرفته العظيمة بالسحر والألعاب السحرية، تعلم سيمون السحر على أيدي عتاة السحرة. أما أعضاء الكنيسة فكانوا يعرفونه باسم الكاهن الأعظم.

صافح آدم وسيث، وشكر سيث كثيرا على عدم اشتراكه في هذا الحفل الماجن القذر، ثم صحب آدم وسيث إلى الخارج ليستنشقوا بعض الهواء النقي بعد أن امتلأت الغرفة بدخان المجامر، أخبر آدم سيمون بأنه حاول أن يتصل به كثيرا، لكن الرقم الذي أعطاه له سيمون لم يكن له وجود، فأعلمه سيمون بأنه قد بدّل رقم هاتفه، وأعطاه رقمه الجديد لهاتفه، ويتقابل معه غدا إذ لم يكن آدم مشغولا، فهو يجلس دائما على مقهى قريب من أشهر مبنى في العاصمة وهو مبنى تليفزيون الواقع وأنه سوف يقابله غدا الساعة الخامسة، وافق آدم على طلبه وسيأتي هو وسيث إليه غدا.

عاد آدم إلى كليته في صباح اليوم التالي، جلس على مقعده، وكان قد طلب أرنست منه ومن جميع الطلاب إحضار لوحة قد رسموها من خيالهم، وبعد أن تفقد جميع لوحات الطلبة أشار إليهم بأن هذه المحاضرة هي الأخيرة في هذا العام، وأن حديثه الآن هو خلاصة تجاربه وخبرته كفنان قبل أن يكون محاضرا.

إنه الآن سوف ينقل خبرته إلى جميع الحضور الذين ينتظرهم مستقبل مشرق، شرع أرنست في الحديث معهم إلى أن انتهى قائلا: ليعلم الجميع أن الفن وحده هو الذي يستطيع أن يكشف لنا عن سر الحياة الإنسانية، وهو فقط ما يعطينا المعنى، معنى الحياة وغايتها.....

الفن هو الحرية فعليكم أن تحطموا كل القيود التي تعطل مجرى الحياة، لكي نرى الجمال بوضوح...

اقتربت الساعة على الخامسة موعد آدم مع سيمون الساحر وصديقه سيث، استقل سيارته متوجها إلى المقهى وفي طريقه لمح زميله إمام يسير على الرصيف المقابل للطريق وهو يتحدث مع نفسه. أوقف السيارة وعرض عليه أن يوصله إلى المكان الذي يريد، فاعتذر له إمام متعللا بأن المكان الذي يقصده قريبا فتركه آدم وغادر حتى وصل إلى المقهى.

ترجل من سيارته ودخل إلى هناك ليجلس منتظرا حضور سيث وسيمون، احتسى قهوته وهو ينتقل بعينيه إلى وجوه الناس في الشارع، ورائحة المطر قد انتشرت في المكان، تلك الرائحة التي تُريح القلوب وتُشعرها بلذة الحياة، انتعش آدم وهو يستنشق هواء الشتاء الرائع، وراح يتذكر حياته الماضية فالمطر قد حمل معه ذكريات لا تنتهي، شرد آدم بذهنه إلى الماضي حينما كان يلهو تحت قطرات المطر مع والده، وصراخ والدته عليه حينما كان يدخل المنزل وقد ابتلت ملابسه خوفا عليه.

انتقلت به ذكرياته إلى يوم قَبْل فيه سُلّاف حبه الأول كان هو الآخر في وسط الأمطار، كان يراقب المطر المنهمر وأقداح القهوة تفوح منها رائحة نفاذة تنتقل بين الموائد في المقهى وسط أصوات الموسيقى الدافئة إذا به يرى سيمون وسيث وهم قادمون بسرعة للاحتماء بالمقهى من الأمطار.

جلس الجميع وبادر آدم بالسؤال عن أحوالهم وأخبارهم فقال سيث ضاحكا: أخباري تعرفها جيدا فأنا بصحبتك طوال أيام الأسبوع

ابتسم آدم وقال له: أنا لا أقصدك أنت، بل سيمون فأنا لم أره منذ سنين حتى تقابلنا البارحة

رد عليه سيمون قائلا: أنا بخير حال

- وماذا تعمل الآن يا سيمون؟

- أنا ساحر أنتقل بين البلاد أقيم مهرجانات واحتفالات كثيرة

قال آدم متعجبا: هل أنت ساحر حقيقي؟

- بالضبط

- ولكن هل هناك سحر حقيقي؟

- أنا لا أؤمن بوجود السحر، لكن سحري يعتمد في المقام الأول على خفة اليد والفراسة والفتنة، والساحر الذكي هو مَنْ يشد انتباه الجمهور إلى شيء آخر حتى يقوم بخدعته على أكمل وجه، لذا فالموضوع كله يقوم على الخدعة

- إذن أنت لا تمتلك قوى خارقة؟

ضحك سيمون وقال ساخرا: قوى خارقة؟! هذه هي طرفة اليوم

- لما العجب فلقد قرأت ذات مرة أن عقولنا تملك قوى خارقة

- أنت تقصد العقل؟

تدخل سيث في الحوار وقال: نعم، من الممكن أن تكون القوى التي يمتلكها العقل ليست محدودة كما نفترض في العادة

قال سيمون: أنا وأنت وسيث محظوظون جدا إذ نستطيع أن نجلس على مقهى ونتناقش في قضايا مختلفة، ولو كنا مثلاً نعمل أربع عشرة ساعة في اليوم لتمنينا القليل من الفراغ للاسترخاء والسماح للعقل بالتحليق في عوالم الخيال، لنعلم مدى قوته الخارقة، لكن لم يكن هناك أبدا فرصة لاكتشاف ذلك...

ثم نظر إلى ساعته وأشاح ببصره ناحية سيث قائلا له: لماذا تأخر كل هذا الوقت؟

رد عليه سيث قائلا: لا أعلم، لعله يأتي بعد قليل

قاطعهم آدم قائلا: هل تنتظران أحدا؟

قال سيمون: إنه صديق جاء ليراني، فلم أره منذ زمن نظرا لأسفاري الكثيرة وإني سأسافر الليلة كذلك، وكنت أتمنى أن أقابله، فلن أعود إلى هنا لقراءة الشهر

نظر الجميع ناحية باب المقهى فرأوا شخصا يتقدم ناحيتهم فأصاب آدم العجب، وقام من مقعده قائلا وهو يصفحه: أهلا ومرحبا

قال سيمون لآدم: أتعرفه؟

- نعم إنه إمام زميلي في الكلية

ونظر إلى إمام قائلا: ولماذا لم تركب معي السيارة طالما أنت ذاهب إلى نفس المكان؟

أجابه إمام: لم أشأ أن أتعبك

قال آدم: هل تعرف سيمون وسيث؟

- سيمون وسيث أصدقائي، بل حتى أكون واضحا فسيث صديقي أما سيمون فمعلمي

صمت آدم للحظة ثم قال: وماذا يُعلمك؟

تلعثم إمام وقال: السحر... سيمون يُعلمني السحر فالجميع يعرف أنني مهتم جدا بهذا الموضوع، وأعتقد يا آدم أننا تحدثنا سويا من قبل عن هذا الموضوع
أجلس سيمون الجميع ونظر إلى إمام وقال له: شاركنا الحوار كنا نتناقش حول موضوع العقل وقدرته الخارقة، وانتقل بنا آدم إلى موضوع العالم الباطني أليس كذلك يا آدم؟

- بالفعل لقد وصلنا بالحديث إلى داخل النفس أو لنقل الوعي

ابتسم سيمون وهو ينظر ناحية إمام قائلا له: اعتقد أن هذه المسألة سوف تنال إعجابك، فدائما ما تهتم بتلك الأمور

وقبل أن يستكملوا الحديث وقف سيمون وهو ينظر في ساعته قائلا لهم: أرجو أن يتقبل الجميع اعتذاري فعلي المغادرة الآن، لقد اقترب موعد قطاري
رد آدم قائلا له: لكننا قد جلسنا للتو، لم نتحدث بعد، أجلس قليلا، فأنا لم أرك منذ زمن

- أعذرني يا آدم فالأمر ليس بيدي

- إذن دعني أقلك بسيارتي

وافق سيمون على اقتراحه بأن يقله إلى محطة القطار، استقل الجميع السيارة وبادر آدم بالحديث إلى سيمون قائلا له: لا بد أن نتقابل سويا، فأنا لم أعرف منك بعد الكثير عن معتقدك الجديد وكنيستك
قال إمام: تقصد كنيسة الشيطان؟

ضحك سيمون قائلا لهم: حينما أصل مرة أخرى سأحدثكم على هواتفكم فلنا الكثير من الأحاديث مع بعضنا البعض.

عاد آدم إلى قصر خالة ليُرتب حقيبة سفره استعدادا لمغادرة العاصمة والعودة إلى مدينته المحبوبة للقاء أمه كي يقضي معها فترة الإجازة، ولعله أيضا يستطيع أن يرى أصدقاءه القدامى فهو في شوق إلى رؤيتهم والحديث معهم، أخبر آدم خاله برحيله في الصباح الباكر، وفي اليوم التالي استقل القطار فوصل إلى بلده في المساء.

طرق باب القصر ففتحت له الخادمة فرحة بقدومه، وحينما رأيته أمه ألقَتْ الكتاب التي كانت تقرأه من يدها وهرولت ناحيته تقبله وتحضنه، كما قامت

بلومه لأنه لم يُعلمها بقدومه اليوم، جلس معها قليلا ثم استأذن منها ليغتسل ويستريح من أثر السفر الطويل، ووعدا بأنه سيجلس معها غدا ليقص عليها أحداث السنة بأكملها فرضخت لرغبته على مضض فهي ترغب أن تجلس مع ولدها الحبيب أطول فترة ممكنة.

في الصباح تناول الإفطار مع والدته، ولما رآها لم تتحضر للذهاب إلى العمل سألها عن ذلك فتناولت هاتفها وتحدثت إلى رئيسها في العمل لتُخبره بأنها لن تحضر اليوم، ونظرت إلى ولدها بابتسامة قائلة: اليوم عيد

ابتسم آدم بدوره وظل طوال اليوم يقص عليها ما تحصل عليه في دراسته، وكيف أن نظام التعليم في الكلية على درجة عالية من الكفاءة، فالطلاب لم يكونوا أبدا تحت ضغط من ضغوط الحفظ والمذاكرة والامتحان ونتائجه، بل الجميع يتناقشون سويا تارة مع بعضهم البعض، وتارة مع البروفيسور الذي يشرح المواد بسلاسة وبساطة جعلت من التعليم شيئا محببا إلى نفوس الطلاب، مما رأوا فيه من الاستمتاع والرغبة في المناقشة والحوار، فالجميع هناك كأسرة واحدة داخل منزل كبير، الكل يعرف الكل، لا فرق بين طالب ومعلمه، الكل واحد فالجميع يتعلم من الجميع، ولكل واحد منهم اتجاهه في الحياة، فمنهم العاقل الواعي ومنهم ذو الحس المتقد ومنهم المتدين ومنهم العرييد، أخبرها عن كل شيء إلا بالطبع سهراته الحمراء، وأصدقائه الذين ينظر إليهم المجتمع بازدراء، وكعادة الأمهات قامت بنصيحته ليبتعد عن أصدقاء السوء الذين اختاروا السير في طريق الظلام واللهو والعريدة.

سأل والدته عما إذا كانت هناك أي أخبار عن ميلاد وجايكوب بعدما انقطعت أخبارهما عنه، أعلمته الأم أن والدا جايكوب وميلاد قد حضرا إليها ذات مساء، وتركوا لها رسالتين إحداهما من ميلاد والأخرى من جايكوب، فلم ينتظر آدم أن تكمل والدته حديثها وسألها مسرعا: أين تلك الرسائل؟

قالت الأم: ولم العجلة؟

- لم أعلم عنهما شيئا قرابة العامين وتقولي لي لما العجلة؟

- انتظر حتى أحضرهما إليك

لم ينتظر آدم أن تحضر إليه الرسائل فهرول وراءها في خطوات سريعة حتى حصل منها على الرسائل، فض الرسالة الأولى وفتحها، وعندما بدأ يقرأ فيها،

نظر إلى أمه فوجدها تسترق النظر إليها، فاستأذن منها وانطلق إلى حجرتها ليقرأها بمفرده، فتح الرسالة الأولى الخاصة بميلاد فوجد فيها...

"صديقي آدم

أعتذر إليك في البداية عن اختفائي المفاجئ وعدم سؤالي عنك، لقد حدثت لي أحداث جسام غيرت مجرى حياتي بأكملها، وأنا الآن بخير حال، أخبرني والدي عن سؤالك عني، لعلنا نتقابل قريبا وأقص عليك جميع ما حدث، افتقد أيامنا سويا أعلى التل على النهر الجاري، واستعيد ذكرياتنا معا دائما، وأنا على أمل اللقاء في القريب العاجل.

صديقك ميلاد".

أغلق الرسالة وقد تعجب كثيرا لقصرها وعدم ذكره أي هاتف ليحاول الاتصال به، لكنه على الأقل قد اطمأن عليه وهو في أحسن حال، وتمنى أن يكون اللقاء قريبا بالفعل فهو في شوق شديد لرؤيته والحديث معه، انتقل بعد ذلك إلى رسالة جايكوب فقرأ فيها..

"عزيزي آدم

أعلم جيدا أن سفري المفاجئ كان صدمة بالنسبة إليك، فلم أك أملك الوقت لأخبرك به، تعلمت في سفري هذا الكثير عن الحياة وامتألت جوارحي بخبرة عظيمة لم أعهدها طوال حياتي، فكما يقولون أن في السفر الكثير من الفوائد، أكتب إليك الآن، وأنا في المدينة المقدسة مدينة الأنبياء والمرسلين، أتمنى أن أراك في القريب لنعود لفرحة الأيام الخوالي.

صديقك جايكوب".

أغلق آدم الرسائل وكان في حيرة من أمره، فعلى الرغم من اطمئنانه على صديقيه إلا أنهما لم يتركا رقم هاتف أو حتى عنوان لعله يستطيع أن يتواصل معهما، استسلم للأمر الواقع وهو يحدهو الأمل في لقاء قريب يجمع شملهم جميعا.

خرج يتجول في طرقات المدينة وحيدا حتى قادته قدماه إلى مكانه المفضل أعز مكان في الدنيا إليه أعلى التل على صفحة النهر المنساب، جلس على الصخرة يتفكر ويستعيد ذكريات الأمس، كان دائما ما يشعر بالراحة في تلك البقعة التي تعود به طفلا صغيرا لم تختبره تجارب الحياة القاسية، هنا فحسب يشعر بقيمة روحه وهي تحلق في سمائها، لم يعد يشعر بالخواء والفراغ وعبثية

الحياة التي يشعر بها في العاصمة. وهو في ظل خواطره تلك نظر إلى صفحة الماء الجاري فوجد وجه العجوز يُطل منها فاغتنبط وانفجرت أساريره على ابتسامة فرح بوجوده قال له آدم: أين أنت يا صديقي منذ زمن؟

رد عليه الحارس وقد تجهّم وجهه قائلاً: لم ترني بسبب ما تفعله بروحك، أهذا ما تمنيته لك، أهذا ما أخبرتك به؟

قال وقد زالت الابتسامة من وجهه: أجنّت تلومني؟

- ومَن غيري يلومك، أنا حارسك وأحرص الناس على طهارتك، فما هذه الحياة الماجنة الخليعة الفارغة؟ أهذه أفعال شخص يبحث عن السر؟

- لم تكن تُخبرني بشيء أو حتى تدلني على الطريق الذي يجب أن أسير فيه، فاخترت التجربة

- أي تجربة؟

- تجربة كل شيء

- وهل استمتعت بالتجربة؟

- لقد تعلمت منها

- حياة اللذات والشهوات سرعان ما تشتغل فسرعان ما تخبو، قل لي ماذا علمتك تلك الحياة؟

- تعلمت أن السعادة لم تكن يوماً في اللذات والشهوات، وأن الراحة الداخلية أفضل بكثير من الخواء النفسي

- إذن لقد بدأت طريقك؟

- أي طريق؟

- الطريق إلى الكنز

- نعم نعم، بماذا تنصّحي؟

- اعلم أن في سفرك شدائد وعقبات، لكن عليك بالأمل والمثابرة.

تلاشت صورة العجوز من على وجه المياه، وسرح آدم بخياله بعيداً يتفكر، وبعد لحظات أخرج من جعبته أوراق الرسم وأمسك بالقلم الرصاص، وبدأ يرسم وهو شارد الذهن، ولمّا انتهى نظر إلى السماء فوجد الشمس قد الملمت

أذيا لها للرحيل، ألقى نظرة خاطفة على ما رسمه فوجدها نفس تلك الفتاة التي رسمها من قبل على قمة الجبل في العاصمة. بدأت الأفكار تتلاطم في رأسه فتحدث مع نفسه بصوت عال قائلا: ما سر هذه الصورة التي لا تتركني في أحلامي وفي واقعي؟ ومن هي تلك الفتاة وما قصتها؟ ولماذا أرسمها دائما بلا إرادة؟...

يقولون أنه حينما يهبط عليك الإلهام يُخيل إليك أنك قد أمسيت أداة لقوة عليا خارقة. إنه شيء عميق جنوني مثير، ما هذا الذي رسمته إنه مرسوم بدقة فائقة. مجرد شخبطات بالقلم فإذا بها رسمة ذات دقة فائقة للغاية.

غابت الشمس وحل القمر مكانها وهو في حالة الإلهام العميقة التي غاب فيها عن العالم الواقعي وغرق في أحلامه وتخیلاته.

مضت الأيام وهو وحيدا في بلده، كان يقضي يومه كله بين جلسته مع والدته وعلى الربوة يتأمل بذهن شارد لم يقطع رتابة الأيام سوى رؤيته لشخص ما يجلس على صخرته في نفس المكان الذي يجلس فيه باستمرار، كان ذلك الشخص مديرا له ظهره، وجده آدم ينظر تارة إلى السماء الصافية بزرقتها الخلاب، وتارة أخرى إلى النهر يشاهد فيه انعكاس الشمس البيضاء على صفحته فيكسبه لمعانا وإشراقا يبعث في النفس نشوة.

لم يتعرف آدم في البداية على ذلك الشخص الجالس فتخيل أنه من الممكن أن يكون أحد أصدقائه وقد حضر إلى البلدة بدون أن يُخبره ليفاجئه، فانشرح صدره لتلك الفكرة، وهم بالذهاب تجاه الشخص وربت على كتفيه، فلما التفت إليه ذلك الشخص وجده آدم القس لوثر راعي الكنيسة ووالد ميلاد، حياه آدم بابتسامة وقال: أستمحيك عذرا يا أبتي فقد كنت أظنك ميلاد أو جايكوب

- لا عليك يا ولدي، تعال اجلس بجاني

رد عليه آدم في خجل قائلا له: أخشى أن أكون قد قطعت عليك خلوتك

- لا لا فلتجلس، إنني أحتاج إلى رفيق كما أنك تُذكرني بولدي ميلاد الذي طالبت غيبته حتى افتقدته كثيرا

جلس آدم بجواره فسأله الأب لوثر عن أحواله، كان آدم يشعر في قرارة نفسه أن الأب لوثر على غير ما يرام، وأنه يخفي شيئا في صدره، علم ذلك من

نظرة القلق في عينيه، لقد كان في السابق ينظر إلى وجهه فيرى الطمأنينة والهدوء، أما الآن فهو على غير عادته.

ساد صمت بين الاثنين للحظات طالت، إلى أن قطع هذا الصمت آدم لما نظر إلى الأب لوثر قائلا له: ألا يساورك الشك أيها الأب الكريم؟

نظر إليه لوثر مستغربا وقال: في ماذا يا بني؟

- في الإله

- أفي الرب شك يا ولدي؟

قال مازحا: لا أشك فيه بل أشك في وجوده

- الإله موجود في كل شيء، إنه في القلب

- اعتقد أنك مررت بالكثير في حياتك يا أبتى، وتعرضت لكثير من مصاعب الحياة ومأسها، وعلى الرغم من ذلك لم تشك في وجوده قط؟

- الحيرة تتملكك يا ولدي والشك مرض، ألم تر المعجزات التي تحدث في العالم كله؟

- اعتقد أن زمن المعجزات قد ولى بغير رجعة، وأن ما رأيته في تلك الليلة من الهالات النورانية على قبة الكنيسة له سبب ما لم أصل إليه حتى الآن

تغيرت ملامح الأب لوثر عندما ذكر له آدم شكوكه بتلك المعجزة واستدرك الأمر قائلا: أنت تشك في كل شيء إذن؟!

- وهل أنت لا يساورك الشك؟

- أنا أؤمن بالرب

- قل لي يا أبتى، لماذا نتعذب هكذا؟

عاد الأب لوثر إلى هدوئه المعتاد وقال له: في رأيي، اعتقد أننا فقدنا حسنا الكوني، نعرف أن القدماء أدركوا ذلك تماما، فلم يسألوا لماذا؟ ولأجل ماذا كان هذا؟

قاطعهم آدم قائلا: كم عمرك يا والدي؟

- اثنان وخمسون عاما، ولكن لماذا تسأل؟

- هل أنت على هذه الأرض منذ مدة؟

- أجل بالطبع

- هل مازلت تشعر بوجود صلة واضحة تربط بين حياتك على الأرض وبين الحياة في السماء كما تؤمن؟

ابتسم القس لوثر في خجل وقال له: أنت تميل إلى الأسئلة المؤلمة، وقريبا سوف تسألني عن معنى الحياة

- لحظة لا تهكم

- إنه سؤال مبتذل، عندما يكون الإنسان سعيدا فموضوع كمعنى الحياة، وبعض المواضيع السرمدية الأخرى نادرا ما تكون محل اهتمامه، ومثل هذه الأسئلة يجب أن تُسأل في نهاية حياة المرء وأنت مازلت في حيوية الشباب

- لكننا لا نعلم متى تنتهي حياة كل منا، ولهذا السبب نحن في عجلة من أمرنا

- لا تتعجل يا بني فأساعد الناس هم من لا يأبهون لمثل هذه الأسئلة المشنومة

- لكن السؤال يعني دائما الرغبة في المعرفة ومع ذلك فإن الحقائق البشرية الأساسية يكتنفها الغموض، غموض السعادة، غموض الموت، غموض الحب

- ربما أنت على حق، لكن لا تحاول التفكير بهذا الآن

ثم نظر إليه الأب لوثر في سعادة واستطرد يقول: هذه اللحظة من اللحظات الجميلة في حياتي وحديثي معك ممتع للغاية

- كل تلك اللحظات الجميلة الرائعة ستضيع مع الوقت مثل الدموع وسط الأمطار وقت الموت

- أنت تبحث عن الحقيقة ولن نعرف حقيقتنا ما لم نكتشف رسالتنا

- وهل تعرف أنت الحقيقة؟

- للحقيقة دائما بُعد مفقود

ابتسم آدم لمقولة الأب لوثر فتقدم الأب لوثر بسؤاله قائلا: قل لي كيف هي علاقتك مع الرب؟

رد عليه آدم قائلا: تكاد تكون مقطوعة

- عليك ألا تكون حزينا ويجب ألا تنتظر شيئا

- ومن قال لك أنني انتظر شيئا؟

- جميعنا ننتظر شيئا ما، طوال حياتي لدي هذا الشعور. أشعر بأني انتظر في محطة قطار، وكنت أشعر دائما أن كل الذي عشته لم يكن حياة حقيقية في الواقع بل انتظار لتلك الحياة، انتظار طويل لشيء مهم، ماذا عنك أنت؟

- أجل إذا كان هذا ما تعنيه، فأنا أحيانا تراودني أغرب الأفكار

- مثل ماذا؟

- أحيانا تجتاح رأسي أشياء سخيفة كفكرة الدوران الأبدي، نعيش ونرتقي ثم نهبط فيجتاحنا الأمل كثيرا ويتخلى عنا كثيرا، ننتظر شيئا ما فيراودنا الأمل ثم نفقده، وهكذا إلى أن نقترّب جدا من الموت، وفي النهاية نموت فعلا ثم نُولد من جديد، ولا نتذكر شيئا مما حدث، ونستعيد كل شيء من الصفر، بالطبع لا نستعيد كل شيء بالطريقة نفسها تماما، فهناك اختلافات كثيرة، لكن يظل كل شيء هناك كاليأس واللاجدوى، ولا نعرف أبدا لماذا؟، وكأنه الأداء المسرحي الثاني، أليس هذا يبعث على الضحك؟

- لقد سمعت هذا من قبل لا جديد فيه، لست أنت من اخترعه

- لم أقل أنني من اخترع تلك الفكرة، هل تعتقد حقا أن البشرية قادرة على معرفة الحقيقة المطلقة

فضحك الأب لوتر بصوت عال وقال له: سيكون هذا بمثابة إنشاء كون جديد يكون البشر خالقي مادته.

كانت أيام الإجازة طويلة، يقضيها آدم محاولا قتل الوقت بقراءته تارة، والرسم تارة ثانية، وتجواله في أنحاء المدينة تارة ثالثة، لم يقطع رتبتهما سوى تلقيه اتصالا من سيمون يُعلمه فيه أنه قد وصل إلى العاصمة ويتمنى رؤيته، تعجب آدم كثيرا من مهاتفة سيمون له فعلى الرغم من أنه لم يره سوى بضع مرات قلائل، إلا أن سيمون قد اعتبره صديقا، ومع قرب انقضاء الإجازة تحير آدم هل ينتظر إلى أن يعود إلى العاصمة مع بدء العام الدراسي الجديد الذي لم يتبق عليه سوى بضعة أيام، أم يذهب الآن لمقابلة سيمون الذي لا يملك وقته، وينتظر في قصر خاله بعدها حتى تنقضي الأيام المتبقية على إجازته، ما شجع

آدم على الرحيل هو إخبار سيمون له بأنه سوف يرحل مجددا مع بداية العام الدراسي، تحدث مع والدته بشأن سفره لمقابلة بعض الأصدقاء، وكي يقوم بكسر رتابة أيامه المملة في هذه المدينة ورضخت الأم لطلبه بعد أن ألح عليها آدم في السفر، وأوصلته الأم إلى محطة القطار وودعته.

وصل آدم إلى العاصمة في يومه التالي، توقف أمام قصر خاله فإذا بأسطول ضخ من السيارات الفارهة السوداء تقف أمام باب القصر، رنا ببصره ناحية الباب فوجد مجموعة من الأشخاص مفتولي العضلات يرتدون بذلات سوداء، وعلى وجوههم نظارات سوداء يلتفتون يمينا ويسارا.

اضطرب آدم وارتعشت أوصاله، وخشى أن يكون قد أصاب أحد أقاربه مكروه.

حاول الدخول سريعا إلى القصر فمنعه الحراس حتى أتى خاله وسمح له بالدخول، ثم تركه الخال عائدا إلى ما كان يفعله من قبل وجوده، حاول آدم أن يسأله عما يحدث هنا فلم يعره الخال اهتماما وانطلق في طريقه.

وجد زوجة خاله جالسة على الطاولة الطويلة التي تتوسط بهو القصر فحيها، وسألها عما يحدث فأخبرته أنهم جماعة من رجال المخابرات وبعض رجال القضاء ورجال السياسة، وهم الآن في اجتماع هام مع خاله نظرا لاقتراب موعد الانتخابات البرلمانية، لأن الحزب قرر أن يُرشح خاله لفترة جديدة في المجلس الوطني.

أطمأن قلب آدم وهدأت سورته بعد سماعه كلامها فبادرته بالسؤال عما أتاه مبكرا عن مواعده، فأخبرها أنه أتى لمقابلة بعض الأصدقاء. واستأذن منها ليذهب إلى غرفته.

قام آدم بالاتصال بسيمون وطلب منه أن يقابله اليوم في نفس مكان اللقاء الأخير، ولما وصل إلى هناك وجد سيث في انتظاره، حياه ثم صاح في وجهه قائلا: ألسنا أصدقاء أيها النذل؟

- بلى، ولماذا؟

- ألم تفكر في الاتصال بي طوال الإجازة؟

- معذرة، فلقد سافرت إلى بلدي، وانشغلت هناك بالكثير

دخل سيمون المقهى وطلب أقداح القهوة للجميع فنظر إليه آدم قائلاً: ماذا عن أخبار ساحرنا العظيم؟

- كل شيء على ما يرام لقد أقيمت هذا الشهر الكثير من المهرجانات السحرية التي أعجبت الناس كثيراً

- كل التوفيق لك، ولعلي ذات مرة أحظى بفرصة لحضور مهرجاننا سحرياً من مهرجاناتك

- في القريب العاجل سوف أقيم حفلاً كبيراً في هذه العاصمة بمناسبة قرب الانتخابات التشريعية، وسوف أحجز لكم دعوات بأسمائكم.

سمع آدم كلماته بشأن الانتخابات التشريعية، ولكنه لم يحاول أن يسأل عن علاقة الانتخابات بالحفلات والمهرجانات السحرية الترفيهية، فهو لم يك مهتم قط بالسياسة على الرغم من أن خاله سياسي بارز كما أن له شهرة عظيمة في كل أنحاء البلاد.

قطع آدم أفكاره وقال لسيمون: كنت دائماً أرغب أن أسألك عن كنيسة الشيطان، فتلك القصة تُثير اهتمامي في الحقيقة، وباعتبارك الكاهن الأعظم لها، لعلك تشرح لي

تقدم سيث وقال لآدم: أتريد أن تنضم لنا؟

قال آدم: لا لا.... بعد كل ما رأيته فأنا لا أرغب في الانضمام، لكن هناك بعض الأفكار في فلسفتكم تستهويني

تدخل سيمون مدافعاً وقال: لكن كل هذه الطقوس ليست من عقيدتنا في شيء، لقد فعلها عضو جديد يحب المزاح. ويسعى وراء أي لذة يحصل عليها

- إذن ما هي قصة التغير الكبير الذي أصابك؟ فعندما رأيتك في المرة الأولى كنت تقوم بممارسة مثل تلك الطقوس التي رأيتها في الكنيسة، وأنت الآن تتبرأ منها

- ألدك وقت لسماع القصة؟

- لدي كل الوقت

شرع سيمون يقص عليه قصته من البداية فقال:

لقد تربيت في جو مسيحي محافظ. ومرت الأيام وأنا أتلو الإنجيل وأذهب إلى الكنيسة ولا أفعل الخطايا، منذ صغري وكلي أذان صاغية لتعليمات ونصائح الجميع حتى أدخل ملكوت الرب وأفوز بصحبته. وعندما أصبحت في الخامسة عشر من عمري أصابني مرض، كان هذا المرض ليس مرضاً عضوياً يداويه الأطباء، لكنه مرض نفسي نظراً لوحدي الشديدة وانعزلي الدائم، وعدم وجود أصدقاء لي.

كانت عائلتي شديدة الخوف عليّ منذ صغري كانوا يخشون عليّ من كل شيء، من الأصدقاء، ومن اللعب، ومن اللهب، ومن نشأت منعزلاً تدور حياتي في دائرة أبي وأمي وبعض الأقارب فقط. مع مرور الوقت بدأ يشتد المرض عليّ وأصبحت أرى أشخاصاً لا وجود لهم حولي، أتحدث معهم وأخاطبهم، وكان والدي يدخل إلى غرفتي في أحيان كثيرة فيجندني أتحدث مع أشياء لا وجود لها.

اصطحبني إلى الكثير من الأطباء النفسيين حتى يعرفوا دائي فيداووني، لكنني لم أشف، رغب أبي أن يُغير مكان السكن الخاص بنا لعل التغيير يكون شفاء لما ألم بي، لكن دون فائدة، فعل كل شيء حتى أصابه اليأس والتجأ إلى قس الكنيسة التابعة لبلدي.

أتى القس ليراني، وكنت لا أعلم حينها ما علاقة مرضي بالدين، شرع هذا القس يقرأ عليّ من بعض أسفار الإنجيل وفي النهاية أخبر أبي بأنه يتلبسني جن وأني لمسحور، اشتد حزن أبي وحاول جاهداً أن يُخلصني من ذلك الجن الشرير الذي يُنغص عليّ حياتي.

قال له القس بأن عليه أن يأتي بي إلى الكنيسة حتى يستطيع أن يتعامل مع ذلك السحر المشنوم، وبالفعل اصطحبني أبي إلى الكنيسة، وهناك قام الكاهن بربط يداي وأرجلي برباط، ثم أحضر كأساً بها ماء مقدس أمسك به بيده وباليدين الأخرى حمل الإنجيل وبدأ يقرأ وهو يرش على جسدي ذلك الماء حتى يخرج الشيطان.....

قاطعته آدم: وهل خرج؟

أجابه مبتسماً: لم يكن هناك شيطان يا سيدي

واستأنف حديثه:

استمر القس في تلك العملية ساعات طويلة حتى ضجرت وتعبت وانتابني الرعب من هذه الجلسة. وفي النهاية طلب القس حضوري لجلسات عدة بعد ذلك، نفذ أبي تعليماته، وكان يقوم بإحضاري إلى هناك، كانت الجلسة تنتهي بي وأنا خائر القوى فيأمره القس بأخذي إلى المنزل وإطعامي.

كنت أنظر حينها إلى والدتي فأجدها تبكي بحرقة شديدة حزنا على ما أصابني، وبعد فترة طويلة من هذا العذاب قررت أن أتوقف عن هذا العلاج الشنيع، وحينما سألوني عن صحتي، أخبرت الجميع بأني على ما يرام، وأن القس بالفعل أخرج مني الشيطان اللعين الذي كان يتلبسني ومضت الأيام.....

قال آدم مقاطعا: وهل شُفيت بالفعل؟

- لا كنت أرى هؤلاء الأشخاص يتحدثون إليّ، لكنني كنت أتجنب الحديث معهم في وجود أي شخص خاصة والدي ووالدتي خوفا من اصطحابي مرة أخرى إلى هذا القس الذي كان يكبّل يداي وقدماي، لقد قضيت أياما من أصعب أيام حياتي تلك الفترة.....

قال آدم: إذن لقد اصطنعت أنك شُفيت؟

- بالتأكيد حتى أهرب من تلك الجحيم

- وما علاقة ذلك بموضوعنا؟

- مرت الشهور والأعوام وأنا أصطنع الشفاء، لكنني مازلت أرى هؤلاء الأشخاص الذين يتحدثون معي على الدوام، لم أستطع التخلص منهم، وتفكرت أنه ربما قد أكون بالفعل مسحور، وأن الشيطان يتلبسني، وقد أثار اهتمامي حينئذ موضوع الجن والشياطين والسحر، فقرأت عنهم الكثير في كتب السحر، والكتب الدينية حتى أتخلص من هؤلاء الشياطين بنفسي، ومن هنا بدأ مشواري مع الشيطان.

أما في بداية دخولي في عبادة الشيطان فيعود إلى أنني وقتها كنت صغير العقل، وكنت أصدق كل ما أقرأه، فقرأت ذات مرة في أحد الكتب الرخيصة أن الشيطان إذا كان قويا وتلبس شخصا لا يخرج منه إلا إذا عبده ذلك الشخص، واهتممت بذلك الموضوع، وبحثت عن طوائف عبّاد الشيطان المختلفة لفترة طويلة من حياتي حتى انضمت أخيرا إلى تلك الطائفة التي رأيته فيها ذلك الوقت في مدينتك نقوم بعمل الطقوس في المقابر، وهكذا كنت في البداية.

- وماذا بشأن مرضك النفسي، هل شُفيت منه؟

- تخلصت منه عندما بدأت أنشغل بالكثير من أمور الحياة، فعندما كنت أقرأ الكتب، وكانت تأخذ الكثير من وقتي، لم أكن أرى حينها أي أشخاص، وعندما أمارس بعض الألعاب لا أراهم كذلك، فكلما انشغلت أكثر كلما اختفت هذه الكائنات التي تظهر لي، باختصار كان مرضي نفسي باقتدار....

- وماذا عن كنيسة الشيطان والسحر كذلك؟

- عندما قابلتني في مدينتك كنت في السنة قبل الأخيرة لي في الجامعة، وفي هذه السنة قد تغيرت حياتي وانقلبت رأساً على عقب، عندما بدأت أتحدث مع زملائي الطلاب، وكذلك الأساتذة حول الدين، وحينما كنت أذكر أي شيء بشأن التعاليم الدينية التي ظللت أقبلها دائماً دون مناقشة كنت أرى على وجوه زملائي نظرات مستنكرة.

في البداية لم أعرفهم أي اهتمام، وكنت استخف بهم، لكنني في النهاية أدركت أنه لا بد لي من مواجهة الحقيقة بعد أن علمت أن التعاليم المسيحية لا يكثر بها أحد سواء أصدقائي أو أساتذتي.

في تلك الأوقات شرعت في البحث عن أصل وتاريخ تلك التعاليم التي كنت أقبلها دائماً على أنها مقدسة، واقتضى مني ذلك أن استخدم العقل لا العاطفة....

قاطعته آدم قائلاً: إذن وصل بك كل هذا إلى عدم الإيمان بوجود الإله وكذلك الشيطان؟

رد عليه سيمون قائلاً: لقد توصلت إلى قناعة تامة، وأنشأت مذهباً جديداً وديانة جديدة، ألا وهي ديانة الشيطان..... ألم تقرأ إنجيلي؟

- لقد قرأته

- ألم تجد فيه إننا لا نؤمن حتى بوجود الشيطان؟

- نعم قرأت.... لكن هناك الكثير من العبارات التي تُظهر إيمانكم بوجوده بالفعل

- كلها عبارات على سبيل المزاح

- وما يُدريني أن ما قلته في فلسفتك أنها قد تكون هي الأخرى على سبيل
المزاح

- أولها كما تريد

- وماذا ستفيدك هذه الديانة؟

- شيئان... المقابل المادي الذي يدفعه الأعضاء

- والثاني؟

- التمرد على القيود

كان سيث يتابع في صمت الحوار الدائر بين آدم وسيمون، ولمّا لاحظا صمته
قال له آدم: ما لي أراك صامتا يا سيث؟

رد عليه سيث قائلا: لقد سمعت تلك القصة من قبل

قال آدم موجهًا حديثه إلى سيمون: لكن من أين تعلمت السحر؟

تدخل سيث قائلا: لن استطيع الانتظار فلقد غلب علي النوم، فهل لنا أن
نغادروا نستكمل تلك القصة غدا؟

رد آدم: ليس لدي مانع لكن إذا وعدنا سيمون باللقاء غدا

قال سيمون: على الرحب والسعة

مضى آدم في طريقه لمقابلة سيمون على المقهى نفسه الذي تقابلا فيه
بالأمس، وهو في طريقه تقابل مع ضياء زميله في الكلية، ولمّا سأله عما يفعله
الآن، أخبره ضياء أنه يتنسم بعض الهواء المنعش التي تُريح قلبه وروحه، فهو
يحب التجول في ضواحي العاصمة قبيل غروب الشمس، سأل ضياء بدوره آدم
عما ينوي فعله الآن فقال له: إني ذاهب لمقابلة أحد الأصدقاء

وعرض آدم عليه أن يذهب معه فوافق ضياء على مصاحبته، وصل الاثنان
إلى المقهى وحيا الصديقان سيمون الذي كان جالسا في المقهى منتظرا، بدأت
جلسة التعارف، تعرّف سيمون على ضياء وقد علم عنه الكثير من خلال حديث
آدم معه عن سيمون أثناء سيرهم في الطريق.

طلب الجميع مشروباتهم ثم نظر آدم إلى سيمون وقال: كنا قد توقفنا عند بداية السحر معك أليس كذلك؟

ثم أشاح وجهه ناحية ضياء قائلا له: هذا سيمون أعظم ساحر في البلد كما يقولون عنه الناس وعلى الرغم من ذلك فلم أرى سحره قط وألقى ببصره ناحية سيمون وهو يحادثه قائلا: أتمنى ألا يُضايقك حضور ضياء معنا

قال سيمون: أنا لا أخفي شيئا، كما أنني لا أخشى شيئا يا صديقي

قال آدم: إذن لنُكمل

سيمون: أَلن ننتظر حتى يأتي النادل بقهوتنا، فالיום مازال طويلا، فلم العجلة؟

قال آدم: إن قصتك مشوقة جدا، ولم أستطع النوم ليلة البارحة حتى أتيت إليك اليوم لاستمع إلى بقيتها

رد سيمون قائلا: إذن لنُكمل

بدأ سيمون يستكمل حديثه ويقص عليهم باقي قصته فشرع يقول:

حينما كنت في جماعة عبّاد الشيطان، كان هناك ساحر كبير سحرني بسحره، وكان في الوقت ذاته ذو مقام كبير في الجماعة، وعندما رأيت أعماله السحرية مالت إليه نفسي، فأردت أن أتعلّم منه السحر، حاولت أن أتقرب منه حتى أتعلّم ولو شيء يسير من ألعبه السحرية فأنا شغوف بالسحر، لكنه رفض في البداية حتى أخبرته بقصتي منذ صغري كما قصتها عليك بالأمس، ومعاناتي الشديدة مع الشياطين التي تلبستي في ذلك الوقت حتى رق قلبه ومع إصراري الشديد معه ومثابرتي نزل على إرادتي وعلمني السحر.

كان انهماري عظيم في البداية من تلك الألعاب السحرية الرائعة التي كان يفعلها دوما في حضور الجميع، ولكن قد زال إعجابي بعد أن علمت بأن كل هذا السحر ما هو إلا مجرد خدع بصرية، توطدت علاقتي معه وأخبرني بسر صنعته حتى أصبحت ساحرا كبيرا يُشار إليه بالبنان.

قال آدم: وأين هو الآن؟

أجابه سيمون مازحا: مَنْ؟ سحري؟!

ضحك الجميع وقال آدم: لا بالطبع..... أقصد ذلك الساحر الذي علمك كل هذا

- منذ زمن طويل كانت حوادث اختفاء الأطفال منتشرة بشدة في جميع أرجاء البلاد وعلى صفحات الجرائد، كثرت البلاغات التي قدمها الأهالي الذين فقدوا أطفالهم إلى الشرطة ليحثوهم على البحث عن الأطفال المفقودين، طفقت الشرطة في تكثيف حملاتها في الأنحاء التي ظنوا أن الأطفال من الممكن أن تتواجد فيها ولم يعثروا على أحد منهم، توسعت دائرة البحث ومرت الأسابيع والشهور وأيضاً لم يجدوا شيئاً، ولا دليلاً واحداً يقودهم إلى الأطفال.

في هذه الأوقات كان هناك بعض الصيادين يصطادون في الغابة التي على أطراف العاصمة، وإذا بأحدهم يرى يد صغيرة تمتد خارجة من الأرض، فارتجف جسده لدى رؤيته لهذه اليد الصغيرة وانتابه الرعب، وبسرعة شديدة نادى بأعلى صوته على أصدقائه الصيادين، وقد هالهم ذلك المنظر الرهيب، أراحوا التراب عن اليد فوجدوا الكثير من جثث الأطفال التي دُفنت في هذا المكان، وعلى الفور قاموا بإبلاغ الشرطة.

قال ضياء: لقد قرأت عن هذه الحادثة يوماً ما

قال آدم: لكن ما علاقة هذه القصة بصديقك الساحر؟

أجابه: إنه من قتلهم

انتاب الجميع الفزع والاستهجان في ذات الوقت وبعد أن استدركوا الأمر قال ضياء: يا لهذه القسوة الشديدة، أليس لديه قلب؟!

قال سيمون: لم أكن أعلم عنه هذا من قبل أن تُلقى الشرطة عليه القبض

تساءل آدم: ولماذا كان يقتلهم ذلك الوحش؟

- كان يُقدم الأطفال كقربان للشيطان

- وأين هو الآن؟ هل مازال في السجن؟

- لا قد أعدم منذ فترة طويلة

قال ضياء: كان الأحرى ألا يُعدم مرة واحدة، لو كان الأمر بيدي لأذقته ما لذ وطاب من صنوف العذاب قبل إعدامه

سيمون: على الرغم من ذلك فهو قد حصل على جزائه

قال ضياء: إنها العدالة الإلهية

قال آدم متحدثا إلى سيمون وعيناه تنظر ناحية ضياء: ضياء يؤمن إيماننا عظيما بوجود إله يحكم سيطرته على العالم كله، وهو مَنْ يُقيم العدالة على الأرض من وجهة نظره

ثم نظر إلى سيمون وقال: سيمون لا يؤمن بوجود الإله من الأصل

ابتسم ضياء ونظر إلى آدم متسائلا: وفي أي جهة أنت؟

رد آدم قائلا: بينكما

ضحك الجميع على تلك الطرفة، وعاد الجميع إلى الحوار إلى أن قاطعهم سماع صوت ينادي من بعيد على سيمون، وعندما نظروا ناحية الصوت رأوا سيث يركض مسرعا ناحيتهم وهو يلهث من أثر التعب، وفجأة توقف أمام سيمون وهمس له: أريدك في موضوع هام

قال سيمون: ولما لم تُحدثني عنه عبر الهاتف؟

قال سيث: حاولت الاتصال بك كثيرا لكن هاتفك كان مغلقا

- إذن تحدث فأنا لا أخشى شيئا

- منذ عدة أيام وأنا أتجول في الأنحاء بالسيارة فإذا بي أسمع في ذلك الهدوء القارص على مقربة من منزل منزوي أصواتا صاخبة، فسرت إلى ناحية الصوت بعد أن ترجلت من السيارة، واقتربت من ذلك المنزل، واختبأت على مقربة منه ليتسنى لي رؤية ما يحدث هناك، شاهدت حشدا من الرجال والنساء يرقصون ويغنون حول نار مشتعلة وهم شبه عرايا، وكان في وسط الحشد يوجد فتاتان.

كان الجميع يُجبرهن على شرب الخمر، واستنشاق المخدرات، وبعد ذلك طرحوهن أرضا بالقرب من النار، وجردوهن من ملابسهن، ثم وقف أحدهم وسكب على أجسادهن دما، وسط صراخ الفتاتين الذي دوى صداه في المكان وصاح قائلا "في سبيلك أيها الشيطان العظيم" بعد ذلك قام هؤلاء باغتصاب الفتاتين عشرات المرات بأوضاع غريبة جدا حتى إذا قضوا وطهرهم عصبوا أعينهن وألقوهن في أحد شوارع العاصمة. بعد أيام عثرت الشرطة على المنزل، ووجدوا رمادا لتلك النار الكبيرة، أما الجناة فلا أثر لهم.

ثم صمت سيث عن الحديث وسط دهشة الجميع ونظر إليه سيمون قائلا:
وماذا في ذلك؟ هل هذا ما يجعلك في تلك الحالة المزرية؟

أجابه: لم تنته الحكاية بعد، فبعد أيام من البحث توصلت الشرطة إلى هؤلاء الجناة، وعندما تم القبض عليهم اعترفوا أنهم من عباد الشيطان، وقد قاموا بفعلتهم هذه تنفيذا للطقوس الخاصة بهم

قال سيمون: وماذا أيضا في ذلك؟ فهناك الكثير من طوائف عبّاد الشيطان، ولكل منهم طريقهم

- لكن هؤلاء الشباب هم للأسف من أعضاء كنيستنا

وهنا إريد وجه سيمون وقال له: يا للمصيبة

ثم نظر إلى سيث وقال: وهل اعترفوا علينا؟

- نحن على كل حال لم نكن معهم

- وماذا بعد؟

- الأمر الخطير هو أن السلطات في العاصمة قد أصدرت قرارا بغلق كنيستنا للأبد، وذكرت في القرار أن الكنيسة تقوم بطقوس تعدي على حريات الآخرين، وتنتشر العنف والجرائم

صمت سيمون للحظات وهو مُسند رأسه بيديه يتفكر في هذه النازلة التي حلت به، لم يقاطعه إلا صوت سيث يقول له: وأنت أيضا مطلوب للتحقيق في هذا الأمر، وعليك أن تتصرف بسرعة

أمسك سيمون هاتفه بسرعة فوجده مغلقا لنفاد بطاريته، فحاول أن يقوم بشحنه في المقهى لبعض الوقت، ثم أخذ الهاتف مسرعا وقام بالاتصال بشخص ما، كان الجميع يسمعه وهو يتحدث بصوت جهوري قائلا: عليك أن تفعل شيئا؟

- متى؟

- إذا لم تفعل شيئا سأخبر الجميع بكل شيء

بعدها غادر سيمون المقهى سريعا دون أن يلتفت إلى مَنْ كان يجلس معه منذ قليل وخرج سيث على إثره، لكن آدم فضّل المكوث هو وضيء في المقهى، نظر ضياء إلى آدم قائلا له: أنا لا أفهم شيئا مما يحدث

قام آدم بشرح القصة كاملة إلى ضياء، وحينها زال كل عجبه وحيrote، ثم طلب الصديقان مزيدا من القهوة وعادا إلى حديثهما بادر ضياء بالحديث قائلا: ما لك ومال هؤلاء يا آدم؟ إنني أرى في وجهك الصلاح

قال آدم: رغبت في معرفة كل شيء، فالحياة تجارب

- أكنت تعي ما تفعله، وتُدرك عواقب الطريق الذي تسير فيه؟

- لم أكن أعلم أن كل هذا يمكن أن يحدث لكنني تعلمت الكثير

- على أية حال فالتحذر

شرد آدم بذهنه للحظات قطعها سؤال ضياء له: هل هناك شيء؟ أنت بخير؟

رد عليه آدم قائلا: يُخيل إليّ أن هذه الجلسة، وذلك المشهد بالذات يتكرر على مرأيا

قال له ضياء: إنه الديجافو، فمن الممكن أن تكون قد حلمت بها من قبل، وهذه المسألة تحدث باستمرار للجميع فالوعي يسافر في الحلم ليسبق الزمان

- على كثرة قراءاتي لم أعلم الكثير عن مسألة الوعي

توقف ضياء عن الحديث قليلا وشرد بذهنه ثم قال: والذي لديه صديق يعمل كطبيب للأعصاب وكان يتحدث معي كثيرا عن مثل هذه الأمور، فلو أردت أن أتحدث إليه عن مقابلة تجمعنا سويا لنتحدث معه فسأخبره

- بالفعل أريد، ومن يرفض مثل هذه الفكرة

أمسك آدم هاتفه وقام بالاتصال على سيمون حتى يطمئن عليه لكنه لم يجد جوابا فحاول مرة ثانية مع سيث فكان بالمثل، غادر الأصدقاء المقهى وعادوا أدراجهم.

انتهت الأيام الباقية على بداية العام الدراسي الجديد، كان آدم منشراح الصدر متفائل، على أهبة الاستعداد لمواصلة دراسته في الكلية واستكمال المسار الذي بدأه، وفي اليوم الأول دخل الجميع إلى قاعة المحاضرات، وإذا بالبروفيسور أرنست يقف في شموخ على منصته منتظرا حضور جميع الطلاب.

أخرج أرنست ورقة من حقيبته، وشرع يقرأ منها:

الجميع قد أدى ما عليه في السنة الفائتة، ولسوف تنتقلون جميعا إلى المرحلة التالية فمبروك للجميع

ثم توقف للحظات واستأنف قوله: مع شديد أسفي فأنا أحزن كثيرا على طرد أحد من الكلية، لكن الإدارة قد اجتمعت اليوم، وقررت فصل طالب قد رسب العديد من الأعوام، كما أنه لم يهتم بحضور المحاضرات هذا الطالب لم يعد له وجود في كليتنا بعد اليوم.

نظر الطلاب إلى البروفيسور وهم يتساءلون عن هوية ذلك الطالب فقال لهم أرنست وهو ينظر في ورقته: هذا الطالب يُسمى سيث

كان الجميع على علم مسبق بما سيحدث لسيث، فهو لا يهتم مطلقا بالدراسة أو الفن، وكل اهتمامه ينحصر في ملذاته وحفلاته المجانية.

انتقل أرنست إلى وراء مكتبه في القاعة ونظر إلى الطلاب وقال لهم: ها نحن قد وصلنا الآن إلى المرحلة الثالثة، لقد استفدت شخصا منكم كثيرا، وأتمنى أن أكون قد أفدتكم بالمثل...

إن منكم مَنْ سيُصبح فنانا عظيما، ومنكم أيضا مَنْ سيسلك طريقا آخر، وعلى أية حال أتمنى أن يحصل الجميع على ما يريده، أما الآن فكلمة أخيرة سألقمها عليكم وأرحل عنكم

وبدأ أرنست يتحدث عن الفن ثانية فقال: كل أنواع الفنون التي ظهرت في كل عصور الإنسانية هي شعاع من النور أضاء تاريخ الإنسانية الخالد، تلك الفنون الساحرة الخالدة على مر العصور والأزمان ليست مجرد طفرات وإنما اتصال بكل حضارات العالم قديمة وحديثة، فالفن كالعالم تماما في تطوره واتصاله.

ثم صمت للحظات واستطرد يقول: هذه المقدمة هي كلمات شخص تعلمت منه الكثير، وسوف لا تضيعون أنتم فرصة التعلم منه كذلك، هذا الشخص الرائع سيصحبكم في رحلة إلى بقاع التاريخ الفني والفلسفة سيكون فيها مرشدكم ومعلمكم، اسمعوا منه جيدا واحفظوا كلماته عن ظهر قلب كما حفظتها أنا.....

أقدم لكم مرشدكم الجديد البروفيسورة منيرفا أستاذ التاريخ والفلسفة

ثم أشار إلى باب القاعة ودخلت عليهم منيرفا والابتنسامة على وجهها المشرق، كانت امرأة في العقد الخامس من العمر، طويلة القوام، ترتدي بنطالا فضفاضا وبلوزة واسعة كذلك، أبحرت كثيرا في بحور الفلسفة والتاريخ فكانت مثالا للفيلسوف العظيم.

تقدمت وحيث الطلاب ثم بدأت الحديث قائلة: في البداية أود أن أشكر البروفيسور أرنست على هذه الكلمات الرقيقة الفاضلة التي أعتبرها وساما على صدري

حياتها البروفيسور أرنست وحييا الطلاب متمنيا لهم التوفيق، ثم ترك القاعة مغادرا ليترك منيرفا مع طلابها

قالت منيرفا وهي تشير إلى الطلاب: من منكم يحب التاريخ؟

نظرت في وجوه الجميع وقد بدت على الوجوه ملامح الضيق، فابتسمت في صمت حينما فاجأها ضياء بقوله: التاريخ كله زيف

ردت عليه قائلة: معك كل الحق، ولكن ليس التاريخ الفني، فالأعمال الفنية تتحدث عن نفسها

قال ضياء: لكن حتى الأعمال الفنية منها المزيف

- لكن هناك دائما شيء حقيقي مخبأ في كل عمل مزيف

- كيف؟

- فعندما يقوم المزور بتقليد أعمال الآخرين لا يستطيع مقاومة وضع لمسته الخاصة، وغالبا يكون تفصيلا صغيرة أو ضربة فرشاة غير متوقعة، ففي كل عمل يخون نفسه ويكشف شيئا خاصا من أحاسيسه

- إذن هناك تزيف في الفن كما قلت لك مسبقا

- الزيف في كل شيء أليس كذلك؟ أليس هناك زيف في مشاعر الإنسان؟

رد عليها ضياء وقد بدى عليه العجب: تزيف في المشاعر؟!

- كل شيء يمكن أن يكون مزيفا، الفرح، الألم، الكره، المرض، الشقاء، حتى

الحب

قال ضياء في أسى: حسنا أنا استسلم. لقد أفحمتيني

قالت منيرفا بابتسامة هادئة: رأيت أن كل شيء يمكن أن يكون مزيفاً، لكن دورنا أن نكتشف الحقيقة في باطن الزيف

- وكيف السبيل إلى ذلك؟

- كثيراً ما نسمع مثلاً عن أعمال فنية يقولون عنها أعمالاً جيدة جداً لكنها عصبية على الفهم، مثل ذلك كمثال قولي إن هذا الطعام جيد جداً لكن الناس لا يستطيعون تناوله

ضحك الطلاب على ذلك التشبيه واستطردت منيرفا تقول: الفن الجيد مفهوم دائماً بالنسبة للناس، ولا يجوز أن نصف الناس بقلّة الذوق إذا لم يستسيغوا بعض الأعمال الفنية، فأعظم الفنون على الإطلاق هي البسيطة....

ثم صمتت لفترة وقالت: لقد أطلت عليكم، ما كان لنا أن نبدأ اليوم، كنت أرغب في التعرف عليكم اليوم، لكني قبل أن أتعرف عليكم سأعيد السؤال مرة أخرى على مسامع الجميع، مَنْ منكم يحب التاريخ؟

نظرت منيرفا إلى الطلاب فوجدت أن الجميع يرفعون أصابعهم في سرور وتيقنت أخيراً أنها قد وصلت إلى مُرادها وأثرت على الطلاب، ثم سألت مرة أخرى: مَنْ منكم يحب الفلسفة؟

لم تجد القبول المطلوب هذه المرة من الطلاب فالفلسفة ثقيلة على نفوس الجميع، لكن ضياء قد رفع يده عالياً فقالت له: أليس هناك أحد غيرك في هذه القاعة؟

تقدم آدم برفع يده يطلب الإذن في الحديث فقالت له منيرفا: لا يوجد إذن هنا، تفضل

قال آدم: لقد قرأت كثيراً في المذاهب الفلسفية، ووجدت أن المذهب الفلسفي كالبيت تماماً فما أن تنتهي من بنائه حتى يكون في حاجة إلى العناية به باستمرار إلى أن يأتي عليه زمن لا تنفعه أية عناية، ولابد لنا من هدمه وبنائه من جديد، كذلك الفلسفة تهدم عملها باستمرار، فكل فيلسوف يناقض الآخر ويهدم عمله.

ردت عليه منيرفا قائلة: لقد نسيت أن الإنسان يبني بيته ثم يهدمه ثم يُعيد بناءه من جديد، وإننا إذ نتحدث عن هذه البيوت التي تُبنى ثم تُهدم ثم تُبنى من جديد، لا نستطيع أن نستنتج من ذلك أن من العبث أن نبني بيوتاً.

ضحك الطلاب جميعهم من الرد المفحم للبروفيسورة منيرفا، ونظرت إلى الجميع والابتسامة لاتزال على وجهها قائلة: تلك هي الفلسفة، أما الآن سأعيد السؤال مرة أخرى على مسامعكم من منكم يحب الفلسفة؟

ضجبت القاعة بالضحك، وغادرت منيرفا القاعة بعد أن أكملت مهمتها في إقناع الطلاب بالدراسة في عامهم الجديد، وخرج على إثرها الطلاب ذاهبين إلى مقصف الكلية، جلسوا هناك يتحدثون عن معلمتهم الجديدة، وخفة ظلها وحديثها الممتع الذي كان يميزها عن باقي المعلمين، وانهارهم بسعة إطلاعها ومعرفتها بمجاهل التاريخ ومذاهب الفلسفة.

جلس آدم بصحبة صديقه ضياء يتناقشون حول ما حدث داخل قاعة المحاضرات اليوم، وكيف أقنعت منيرفا بضرورة البحث الجاد في التاريخ عن الحقيقة التي تكمن داخل الزيف بعدما جعلته يُعيد التفكير مجددا في القراءة عن التاريخ والبحث في مجاهله عن الحقيقة.

تذكر آدم فجأة فسأل ضياء قائلا له: تتذكر ما حدثتني عنه بشأن ذلك الطبيب؟

قال: نعم أتذكر

- ألم يحن الوقت لمقابلته كما وعدتني؟

- مازلت عند وعدي لك، لكنه شديد الانشغال، وأنا حدثته بالفعل عن مقابلة، وعندما تُتاح له الفرصة المناسبة سيُخبرني

- إذن ماذا سنفعل اليوم؟ هل لديك شيء، أخرج ما في جعبتك

- هل تعرف السينما القريبة من المقهى الذي كنا نجلس فيه؟

- نعم

- وأنا في طريقي إلى الكلية لمحت إعلانا عن فيلم أرغب في رؤيته

- أي فيلم؟

- إنه عن بداية نشأة الكون

- ها.... تقصد نظرية الانفجار العظيم

- بالضبط، ما رأيك أن نشاهده سويا الليلة

- إنها فكرة عظيمة

- إذن نلتقي في مكاننا على المقهى، ونقوم بحجز التذاكر، ثم نجلس على المقهى لحين بدء الفيلم

- وهو كذلك... اتفقنا

وصل الصديقان في الموعد المحدد، وقام آدم بحجز تذاكر الفيلم، ثم فتحت السينما أبوابها إيدانا ببدء الفيلم. وبعد مشاهدة الفيلم وأثناء خروجهما من قاعة السينما لمح آدم شخصا يعرفه جيدا، ولكنه لم يتبين ملامحه جيدا عند الخروج. انتظر خارج السينما يتفقد وجوه الناس، وما أن خرج ذلك الشخص هرول آدم ناحيته ونظر في وجهه لقد كان سيمون يشاهد الفيلم معهم.

حياه آدم وسأله عن عدم إجابة اتصالاته فقدم له سيمون اعتذاره متعللا له بأنه قد انشغل كثيرا في الفترة الماضية بمسألة كنيسة التي أغلقت، كما أنه لم يستطع فعل شيء حيالها وبعدها سافروعا د الليلة الماضية فكان لديه الكثير من أوقات الفراغ فقرر الذهاب إلى مشاهدة هذا الفيلم بعد أن انتشرت إعلاناته في كل مكان اليوم

قال ضياء: في الحقيقة لقد أعجبني الفيلم جدا فهو يناقش قضية أصل الكون بطريقة علمية شيقة

ونظر إلى سيمون قائلا له: أتؤمن بنظرية الانفجار الكبير هذه يا سيمون؟

- إنها نظرية علمية يؤيدها معظم العلماء، فما يمنعني من الإيمان بها

- إذن تؤمن بوجود الإله خالق الكون؟

قال سيمون في عصبية: أنا لا أعرف صراحة لماذا هذا الإصرار الغريب على إدخال الإله في كل شيء؟

أجابه ضياء في هدوئه المعتاد: لأنه أساس كل شيء

- الآلهة أسطورة من أساطير الزمن الغابر يا سيدي، نسجها الناس لتفسير الظواهر التي لم يعرفوا سببها، أما الآن فالعلم استطاع تفسير كل شيء

- العلم لم يستطع تفسير كل شيء، فما زال هناك الكثير من الأسرار في هذا الكون الفسيع

- لكنه سيفعل يوما ما، وعلى أية حال سأسايرك للنهاية. لنفرض أن الإله هو مَنْ خلق الكون وهو سر أصل الحياة. فأنت بذلك قد فسرت سر بسر آخر أكبر منه. وهنا سوف أضطر لسؤالك عن الذي خلق الإله؟

- وكيف لخالق أن يكون مخلوقا في الوقت ذاته. يجب أن تنتهي سلسلة الأسباب عند سبب ليس له سبب

- إذن سأنتهي أنا سلسلة الأسباب هذه عند الطبيعة

- ذلك محال لأن الطبيعة في حد ذاتها تحتاج إلى سبب كي توجد

قاطع آدم حديثهم قائلا: أولا أريد أن أعرف هل سنظل واقفين هكذا في الشارع نتحدث؟

قال ضياء: معك حق فلنذهب إلى المقهى. فما رأيك يا سيمون؟

- ليس لدي مانع فلنذهب

استطرد آدم: ثانيا إنني لم أفهم هذه النقطة التي تتحدثون فيها

قال ضياء: أية نقطة؟

- مَنْ خلق الإله؟

- سأبسط لك هذه المسألة لكن قبل ذلك لننظر إلى الطريق الممتد أمامنا... هل لنا أن نتسابق حتى نهايته؟

قال سيمون: ولما؟

رد عليه ضياء قائلا ستعرف حينما نصل إلى نهايته

ركض الأصدقاء في سباق للجري حتى وصل ضياء أولا ثم تبعه آدم فسيمون

نظر ضياء إلى آدم وقال له: مَنْ أول السباق؟

قال: أنت

قال ضياء: وَمَنْ الذي سبقني؟

تعجب آدم من سؤاله قائلا: لم يسبقك أحد، فأنت الأول

قال ضياء: وهكذا الإله لم يسبقه أحد فهو الأول

ابتسم آدم وقال لضياء: هكذا فهمت مقصديك، فنذهب الآن إلى المقهى لنحتسي شيئاً ونُكمل حديثنا. وصل الجميع المقهى وجلسوا على مقاعدهم وبادر سيمون بالحديث قائلاً: من الممكن أن أُطبّق منطقك هذا على الكون، فيمكنني القول عن الكون ما تقوله أنت عن الإله وتتوقف الأسباب عند هذا الحد

رد عليه ضياء قائلاً: دعني أسألك سؤالاً؟

- تفضل

أخرج ضياء من جيبه قلماً ورفعته عالياً ثم أسقطه على الأرض ونظر إلى سيمون قائلاً: لماذا سقط القلم على الأرض؟

ابتسم سيمون قائلاً: لأنك أسقطته

قال ضياء: لا أقصد ذلك، أقصد لماذا وقع أرضاً ولم يرتفع؟

- بسبب الجاذبية

- ولماذا تفعل الجاذبية ذلك؟

- لأن مجالها يجذب الأشياء

- إذن أنت استبدلت سبباً بسبب آخر أكثر عمقاً أليس كذلك؟

- نعم

- لماذا إذن تعترض حينما استخدم الإله كتفسير أكثر عمقاً في تفسير الكون؟

- لا أرى سبباً للإيمان بوجود الإله. ورأيي أكثر بساطة من رأيك هذا

- ليس هناك ما يدعونا أن نفترض وجود المادة والطاقة قبل الانفجار العظيم، وأنه حدث بينهما تفاعل فجائي

- وما المانع في ذلك؟

- قل لي ما الذي يميز تلك اللحظة عن غيرها من اللحظات الأزلية الأخرى؟

قاطعه آدم: أرجو التأيي فالموضوع جديد على مسامعي وأريد أن أفهم

قال ضياء: كما شاهدت في الفيلم فهناك حدث وقع وكانت له بداية، أليس كذلك؟

- نعم

- إذن لا بد من أن شيئاً ما كان موجوداً على الدوام، لأنه إذا لم يوجد أي شيء من قبل على الإطلاق فلن يحدث أي شيء فالعدم لا ينتج عنه إلا العدم

قال سيمون: أنا أفضل أن أقبل الكون كحقيقة كما هو على أن أقبل الإله، ففي النهاية هناك كون بالنسبة لنا لنكون هنا نجلس على هذا المقهى ونتناقش حول هذه الأشياء.

كان آدم يستمتع للمناقشة في اهتمام شديد وقد خيم الصمت على فيه، حتى إذا ما انتهت بدأ يسأل ضياء على مجموعة من الكتب العلمية التي من الممكن أن يقرأها حينما أدرك أنه قد فاتته الكثير فهو لم يكن على دراية كافية بتطورات العلم بعد أن كان له باع طويل في الفلسفة وبحورها العميقة.

اقترح عليه ضياء بعض الكتب التي يبدأ بها كأصل ونشأة الحياة وأصل الكون بالإضافة إلى العديد من الكتب التي تهتم بموضوعات الوعي والعقل والذات وغيرها، انطلق آدم إلى المكتبة الكبرى في العاصمة وحصل على الكتب بعد أن ودع سيمون على أمل في لقاء قريب.

عاد إلى عزلته لقراءة الكتب التي اشتراها، لم يكن ليقرأ مثل هذه الكتب لو عُرِضت عليه في يوم من الأيام لكنه عندما عرف أنه لم يفقه كثيراً من الحديث الذي تحدث به سيمون مع ضياء لم يُطَق صبراً على المعرفة، فالشغف والمعرفة غريزة في الإنسان، وكل إنسان يتمنى أن يحصل جميع المعارف.

لقد فتحت تلك المناقشة عقله إلى آفاق جديدة ومعارف جديدة يجب عليه أن يُلم بها، لم يقاطع عزلته هذه إلا اتصال سيث به يخبره أنه يريد مقابلته غداً، امتنع لونه حينها وأصابه الضيق لأنه كان قد قرر أن يترك حياة العريضة والسكر والنساء وحياة الليل المظلم بعد أن شعر بالخواء الروحي والفراغ الذي أَلَم بتلابيب قلبه، لكنه تدارك الأمر وبعد تفكير عميق عرف جيداً أنه من الذوق أن يقابله ليخبره بذلك بنفسه وجهاً لوجه بعد أن تعلم الدرس جيداً من قصته مع سُلَاف.

تقابل آدم مع سيث في الموعد المحدد الذي اتفقا عليه، فاستقبله سيث بوجه بشوش على غير عادته. نظر إليه آدم قائلاً له والأسى يعتصره: أشعر بالأسى على طردك من الكلية يا سيث

ابتسم سيث وقال له في غير مبالاة: لا تأسى على شيء، فعلى كل حال أنا لم أكن انتوي استكمال تلك الدراسة

- ولماذا التحقت بدراسة الفنون من الأساس؟

- علمت أن بها الكثير من أوقات الفراغ، وليس لها متطلبات كثيرة مثل الكليات الأخرى، فأردت أن استخدم تلك الميزة، لكنني لم أكن أعلم أن بها رسوباً ونجاحاً.....

حاول سيث أن يحتفل بتلك المناسبة مع آدم، فقد كان يراها مناسبة تستحق الاحتفال وحاول اصطحابه إلى سهرة حمراء من سهراته، إلا أن آدم أبى أن يذهب واعتذر له.

استجمع آدم شجاعته وأخبره بأنه لا يريد الاستمرار في هذا الدرب، حاول سيث أن يقنعه بالعدول عن تلك الفكرة لكنه لم يجد القبول، وفي نهاية المطاف أصاب سيث اليأس، فغضب غضباً شديداً ولاحت على وجهه الحمرة وتحول إلى شخص لم يعهده آدم من قبل.

قال له سيث وقد علا صوته والنيران تنطلق من فيه: أنسيت نفسك؟

رد عليه آدم والدهشة تعلو وجهه قائلاً: ماذا بك يا سيث؟ أمخمور أنت أم ماذا؟

عاد سيث إلى صياحه والغضب يفوح منه وقال له: أنا من صنعتك؟

قال آدم وقد بدت عليه معالم الضيق: لم أكن لأنسى نفسي ذات يوم، إلا أنني نسيتها في حضرتك أيها اللعين، ماذا تريد مني؟

- هل أصبح لك صديق غيبي؟ لذا قررت أن تهجر صداقتنا يا غبي؟

- طوال حياتي لي الكثير من الأصدقاء، أما أنت فمن المنبوذين فلم يكن لك صديق بحق

هدأت سورة سيث بعد سماعه تلك الكلمات، وأطرق للحظات واستطرد آدم يقول: أنا عشت الحياة التي كرهتها أنت وأصبحت بسببها من المنبوذين الذين لا صاحب لهم ولا ونيس

- أنا ليس لي صاحب لأن جميعكم كلاب، بل الكلاب أوفى منكم

- أي أرى الآن في عينيك ما كنت تُخفيه دوماً، أنت تخاف من أن تفقدني كما فقدت الكثير قبلي

- فلتذهبوا جميعاً إلى الجحيم لا حاجة لي إليكم ولا أخاف من شيء

- أنا كل شيء أنت خائف منه، أنت تخاف من أي شيء ومن كل شيء، لا تعلم طريقاً تسير فيه ولا هدف لديك ولا صاحب يثق بك؟، فلذلك اهتممت بي وحاولت استمالي إلى طريقك حتى لا تكون منبوذاً وحدك، وحتى تحصل على قيمة لك بوضعك لي على طريق الملمات، أنت في الحقيقة لا قيمة لك.

كان سيث في ذلك الوقت يستمع دون أن ينبس بكلمة، وقد اعترته حالة من الصمت، وهو يتذكر حالته المزرية التي وصل إليها فكان من داخله محطم فارغ، وحديث آدم به الكثير من الحقيقة التي أوجعته، بكى سيث ولمعت عيناه وقال لأدم بهدوء: كنت أحاول...

كنت أحاول بكل جدية أن أكون أفضل من ذلك، لكن الجميع تغلوا عني وتركوني وحيداً، واعتصرني الألم وأنا أواجه مصاعب الحياة، ولكن لا أحد قد شعري ولم يكن أمامي إلا ذلك الطريق

ربت آدم على كتفيه وقال له: كفاك، من الواضح أنك تحمل الكثير على عاتقك، دعنا نجلس وسأستمع إليك حتى تُفرغ ما في صدرك، فأنا أعلم حالتك جيداً

أشاح سيث بيده يد آدم في عصبية وقال بغضب: ابتعد عني، أنت لا تعلم شيئاً، لا أريد مواصلة من أحد فلتتركني وترحل

حاول آدم أن يُهدأ من روع سيث وجلسا في صمت للحظات حتى بدأ سيث يتحدث فقال: سأبوح لك بما لم أبح به لأحد من قبلك

- ولماذا تبوح لي اليوم؟

- أنت من دست على الجرح الذي يعتصر صدري بكلماتك اللاذعة تلك

- وأنا سوف أستمع لك

قال سيث:

تُوفي عني والدي وأنا صغير، ولم يترك لنا أي إرث لنعتاش منه أنا وشقيقتي وأمي المريضة، كانت شقيقتي تدرس في الجامعة وأمي مريضة بالسرطان، لم يكن لنا سوى بيت صغير إذا أردت أن تطلق عليه بيتا، فهو لم يكن سوى كوخ صغير في بلدة فقيرة أدمها الفقر والعوز.

حاولت أن أترك دراستي حتى يتسنى لي أن أنفق على عائلتي وأوفر لها قوت يومها، كما أن علي توفير أموال العلاج لأمي المريضة. بحثت كثيرا عن عمل لنعتاش منه لكني لم أجد، حاولت أن اقترض من الأصدقاء والمعارف فلم يقدم لي يد المعونة أحد من العالمين، حتى ضاقت بي السبل واضطرت شقيقتي إلى ترك دراستها في الجامعة، وأخبرتني أنها قد وجدت عملا يُدر عليها الكثير من الأموال.

كان مرض أُمي يتفاقم يوما بعد يوم حتى أخبرنا الطبيب المعالج أنه لا بد من إجراء جراحة عاجلة حتى لا تسوء حالتها أكثر فأكثر، ولما حصلنا على الأموال اللازمة لإجراء العملية التي تديرتها شقيقتي ولا أعلم من أين؟، قمنا بإجراء العملية لأُمي وكنا ننتظر في قلق خارج غرفة العمليات في المستشفى حتى مرت الساعات العصبية علينا وكأنها الدهر بأكمله إلى أن خرج علينا الجراح وأخبرنا في أسي أنها قد وافتها المنية.

اشتاط غضبي وكدت أطيح بالطبيب الذي أخبرنا بموتها حتى تدخلت شقيقتي وأخبرتني أن الطبيب قد أعلمنا مسبقا أن العملية غير مضمونة، ولكن لم يكن لنا سبيل آخر نسلكه حتى تظل على قيد الحياة، مضت بعدها الأيام سوداء كنيبة وشقيقتي تُنفق علي وعلى دراستي التي عُدت لاستكمالها.

مرت أيام المدرسة العليا حتى حصلت على شهادتي، لكن هناك شيء غريب كان يلوح في وجوه الناس وهي تنظر إلي بنظرات غريبة مستهجنة، وكأنها تزدريني ولا أعلم لهذه النظرات من سبب حتى تطرق إلى سمعي بعض الأخبار بأن شقيقتي تعمل في أحد بيوت الهوى، وأنها تُنفق علي من هذه الأموال التي تحصل عليها مقابل بيع جسدها إلى الرجال. فازداد غضبي ونقمتي عليها وعندما واجهتها بما سمعت أنكرت ذلك كله، لكنني حينها لم أسترح إلى حديثها معي فقررت مراقبتها حتى وجدتها تدخل أحد البيوت.

انتظرت قليلا ثم أطرقت باب البيت ففتح لي رجل أزحته عن طريقي بيدي، ثم هرولت إلى الداخل، فإذا بها مستلقية على فراشه وهي شبه عارية، ألم بي الغضب ونظرت حولي فوجدت سكيناً حاداً موضوع على الصوانة جانب الفراش، فأخذته وحاولت قتلها إلى أن راح ذلك الرجل يحول بيني وبينها، وهي تصرخ في استغاثة لكني لم أهدأ حتى أصبها بطعنة، ولكمت ذلك الرجل لكمة قوية في وجهه حتى سقط هو الآخر مغشياً عليه.

لم أدر بعد ذلك إلا وأنا أهييم على وجهي في شوارع البلدة، سائر بلا طريق شارد الذهن مشتمت، وبعدها بساعات أُلقي القبض عليّ واتهمتني الشرطة بقتل شقيقتي، مكثت في السجن لبضعة أيام حتى انتهى التحقيق، ولحسن حظي أن شقيقتي لم تمت، لقد أخبروني أنها مازالت على قيد الحياة، وحكمت المحكمة عليّ بسنة مع الأشغال الشاقة، أنهيتها في السجن، ولمّا خرجت بحثت عنها في كل مكان لكني لم أجدها أثراً، هربت مني لكن إلى أين لا أدري، كنت لا أعرف أحداً غيرها.

في خلال فترة سجنّي تعرّفت على بعض تجار المخدرات، وقد نشبت بيننا علاقة صداقة قوية في السجن حتى طلبوا مني العمل معهم في تجارتهم بعد أن أتخلص من سجنّي، وبالفعل حينما خرجت من السجن ذهبت إلى المكان الذي أخبروني به، وأصبحت أمتلك الكثير من الأموال السهلة.

مع مرور الأيام، اشتريت منزلي هذا الذي رأيته، وبدأت في التفكير في الدراسة مجدداً حتى أحصل على شهادة جامعية، لكني كنت لا أطيق الدراسة والمذاكرة وكل الأشياء التي من هذا القبيل، فاخترت بعد بحث مضني أن أدرس في كلية الفنون بعد علمي عن نظام التعليم بها، وفيها تعرّفت على سيمون حينما أتى ذات مرة لإقامة حفل صغير لألعابه السحرية، وهو الذي عرفني على طائفة عبّاد الشيطان.

مضت الأيام، وتوطدت علاقتي مع سيمون، وأصبحنا أصدقاء، كذلك كنا نعمل معاً في كل شيء، وبعد مُضي الوقت قرر سيمون أن يشتري هذا القصر الذي أصبح فيما بعد كنيسة، وأسس لديانته تلك وأصبحت شريكه، الآن أنا شريكه في كل شيء، فهو الكاهن الذي يحصل على المال من الأعضاء ومنتقاسمه سوياً، كما إنني أدير كنيسة في غيابه عن العاصمة، بالإضافة إلى أنني الذي يأتيه بالأعضاء عن طريق اصطيادي للطلاب في كلية الفنون، وتجوالي في جميع الجامعات الأخرى.

الجميع يعرفني جيدا، أشجع جميع الطلاب على الانضمام إلى الكنيسة بالمبررات العقلية التي يتقبلها الناس بسهولة وقد حصلت عليها بعد قراءة الكثير في الفلسفة والأديان وغيرها حتى استطيع السيطرة على ضعف الإيمان والعقول، وأحصل على أموالهم، كما أن الجميع يلهث وراء المتعة أينما يجدها.

كان آدم يسمع باهتمام شديد إلى تلك القصة ثم قال: وكنت تفعل معي بالمثل؟

- بكل تأكيد فأنت صيد سهل

- لأكون صادقا معك فلقد أسرتني حديثك في البداية، وهذا اعتراف مني إليك

- أشكرك على هذه المجاملة

- وماذا بعد قصتك هذه؟

- لا شيء سوى أنها كانت تجثم على صدري، وكنت أريد البوح بمكنون صدري لشخص قريب

- هل لك أن تبدأ حياة جديدة غير تلك التي أنت عليها؟

- حاولت مرارا وتكرارا أن أبدأ حياة جديدة غير تلك التي أعيشها، لكنني وجدت أن طريق الصلاح مليء بالشدائد والعقبات فاخترت الطريق الأسهل....

- دعني أساعدك إذن في اجتياز محنتك هذه

- لا فائدة من ذلك..... قلت لك لقد حاولت مرارا ووجدت أنه لا فائدة، إذا كنت تريد الرحيل فأرحل واطركني في طريقي

- لا استطيع تركك فأنا مازلت على صداقتنا

- هل مازلت متمسكا بي بعد كل الذي قلته لك؟

- أي أحبك، وأرغب في مساعدتك، فنحن في الأول والأخير أصدقاء

- هل تذكّرت لتوك صداقتنا؟

- لم أنساها لكن على الصديق أن يُقدم النصيحة الصادقة لصديقه، وها أنا هنا الآن أقدمها لك

- لقد سأمت النصائح من كل الناس، فما من أحد إلا ويُقدم لي النصائح بعد أن يخوض غمار التجارب معي

- استمع لي جيدا، أنت قد خضت بالفعل حياة اللهو والعريضة، ولم تخض ولو مرة واحدة الحياة المستقيمة، فعليك الآن أن تُجرّبها كذلك، وتستطيع بعدها أن تقرر إذا كنت تريد هذه الحياة، أو تلك التي عشتها من قبل

- ألا تفهم ! قلت لك لقد جربت طريق الصلاح لكنني لم أستطع أن أكمل فيه

- جربته لوحديك... أما الآن فأنا معك، وليس عليك إلا أن تدعني أساعدك

دخلت البروفيسورة منيرفا سريعا إلى قاعة المحاضرات وقالت بعد أن حيت الطلاب: توقفنا في المحاضرة السابقة عند سؤال هام ألا وهو لماذا تجرد الناس فجأة من رؤية الجمال في الفن الحديث؟

أجابها ضياء: اعتقد أن الناس قد فقدوا حسهم الفني، فلم يعد بوسعهم أن يروا سوى الفنون المزيفة التي يقبلونها على أنها حقيقة

تدخل آدم قائلا: من الممكن أن الناس لم يستطيعوا فهم تلك الأعمال

قالت منيرفا: لو أننا قلنا أن حديثا ما يعتبر جميلا لكى لا أفهمه لأنني لا أعرف اللغة التي قيل بها هذا الحديث فهذا ممكن، لكن الأعمال الفنية تختلف عن ذلك كليا، لماذا؟

قال ضياء: لأن لغته تكون مفهومة للجميع

- بالضبط فهو ينتقل إلى الجميع بلا استثناء، فيمكن لدموع وضحكات شخص ياباني مثلا أن تنتقل إلى الجميع، وكذلك الأمر بالنسبة للفن فيؤثر فينا جميعا الرسم الياباني والفن المعماري الهندي والحكاية العربية

قال ضياء: معنى ذلك أن مواضيع الفن تعتبر جميلة فقط لأنها مفهومة للجميع

- لو أننا نظرنا إلى قصة النبي يوسف المترجمة إلى اللغة الصينية، نراها تؤثر في الصيني، وكذلك الأمر بالنسبة إلى اللوحات والتمائيل والموسيقى وغيرها لذلك...

فالفن لا نعتبره فنا إذا لم يؤثر فينا

قال ضياء: إذن كل أنواع الفنون جيدة باستثناء الغامضة منها وغير المفهومة

جاءه صوت نسائي عبر الأثير يوجه حديثه إلى ضياء: وماذا تقصد سيادتكم بالفنون الغامضة؟

نظر ضياء إلى ناحية الصوت فوجدها روز فقال لها: كالفن السريالي مثلا

قالت روز: أنتقد الفن السريالي وهو أقرب روحا إلى الإبداع

قال ضياء بسخرية: المشاهد الذي يشاهد لوحات سريالية عليه أن يكون في غيبوبة، أعتقد أن هذا الفن هو فن شخصي يصلح فقط للعلاج النفسي لنفسية الفنان

استشاطت روز غضبا من حديث ضياء وقالت في عصبية: أتقصد أن السرياليين هم مرضى نفسيين

- ليس بالضبط

وأطلق ضحكة عالية ضحك على إثرها جميع الطلاب، واضطرت منيرفا أن تعتذر إلى روز

أمام مستشفى العاصمة الكبرى، كان يقف آدم وضياء في واجهة البوابة الرئيسية لها ينظران إلى ذلك المبنى الضخم، في حين كانت سيارات الإسعاف تغدو وتروح ولا تتوقف عن الصراخ، وهي تحمل المرضى والمصابين إلى داخل المستشفى.

وقف آدم مذهولا من هول مشهد هؤلاء المساكين المصابين، فلم يخش شيئا في حياته سوى في المرض، ربت على كتف ضياء استعجالا له بالدخول حتى يهرب من فظاعة هذا المشهد الدامي، فهرول الصديقان إلى الداخل وقفزا في المصعد ليصل بهما في النهاية إلى القسم الخاص بالأعصاب الذي يعمل فيه الدكتور عابر، بعد أن حدد لهما موعدا لمقابلته.

جلسا في مكتبه في انتظار قدومه حتى أتى إليهما بعد طول انتظار رجل في العقد الرابع من العمر يرتدي نظارة مقعرة. خلع معطفه وعلقه على المشجب ورحب بالصديقين ونظر إلى آدم قائلا له: لا بد وأنتك آدم؟

أجابه بابتسامة: بالفعل أنا هو

- أولا اعتذر لكم عن عدم مقابلتكم طوال الفترة الماضية فلقد حدثني ضياء عن المقابلة منذ فترة طويلة، لكنني كنت منشغلا جدا

قال آدم: نحن نعلم مشاغلك الكثيرة فلا داعي للاعتذار، ويكفي أنك اقتطعت من وقتك الثمين وقتا تقابلنا فيه

- أخبرني ضياء بأنكم تريدون معرفة أشياء عن العقل والوعي والذات.....
أليس كذلك إذا لم تخونني ذاكرتي؟!

- بالفعل كنا نبحث عن الفروق بينها، وقمنا بمطالعة الكثير من الكتب عنها، لكن معظمها كتب علمية صعبة الفهم، فقررنا أن نأتي إلى هنا لننهل من علمك الغزير، وتُخبرنا عن بعض هذه المسائل، ولنرى إذا أمكن كذلك بعض تجاربك

- هيا بنا إذن

- إلى أين؟

- إلى جولة سريعة.

اصطحبهم الدكتور عابر إلى غرفة الكشف المجهزة بأحدث الأجهزة الطبية في قسم الأعصاب، تقدم الطبيب وفتح باب الغرفة فإذا بمرضى على فراش الكشف، كان المريض تحت التخدير الموضعي كما أخبرهم بذلك الدكتور عابر، وأشار إليهم أن هذا المريض يعاني نوبة من نوبات الصرع، قام الطبيب بتنشيط منطقة معينة من المخ مسئولة عن الأفعال الإرادية، وذلك باستخدام الجهاز الموجود بجانب المريض، الذي يحتوي على تيار كهربائي ضعيف.

لما فعل ذلك تحركت يد المريض وحاول المريض أن يمنعها عن الحركة بيده الأخرى، وعندما أفاق المريض سأله الطبيب عن الذي جعله يحرك يديه فأجابه بأنه لم يحركها ولم يستطع كذلك منعها.

نظر الطبيب إلى آدم وقال له: عندما كانت إحدى يدي المريض تحت تأثير التحكم المباشر للنشاط الكهربائي للقشرة المخية كانت إرادة المريض تحاول أن تمنعها باليد الأخرى، اعتقد أن ذلك يُبين أن للإنسان إرادة منفصلة تختلف عن العمليات التي تدور داخل المخ

رد عليه آدم قائلاً: لكن هذا لا يثبت ذلك على أية حال، فجميعنا نعرف جيداً أن مثل هذه التجارب من الممكن أن نُجرِّبها على الحيوانات، ويحدث نفس الشيء تقريباً

- لم تفهم مقصدي بعد، فلنفترض أنك تسير في الشارع وفجأة شعرت أن شيئاً ما قد وخزك في قدمك فماذا ستفعل حينها؟

- أرفع قدمي وأتنحى جانباً لأرى ماذا حدث؟

- يعني هذا أنك لن تقوم بالركض لمسافة كيلو متر، أو تقفز في الهواء لأعلى نقطة تستطيع أن تصل إليها؟ أليس كذلك؟

- نعم

- وإذا احترق منزلك وتعاليت فيه النيران فهل تقفز خارج منزلك وأنت تصرخ؟ أم أنك ستحاول إخماد النيران؟

هذا هو الفرق بين الغريزة في الحيوان التي تحركه، وبين إرادتك التي تستخدمها عن طريق العقل، فالعقل مجرد أداة تُنفذ ما تقوله لها ذاتك.... الإرادة شيء مختلف تماماً عن العقل يا سيدي
قال آدم: إذن العقل شيء مختلف عن الذات؟

- العقل هش جداً وليس كما تتخيل، فلو أنك - لا قدر الله - أصبت بمرض من تلك الأمراض التي تسلب العقل، كالزهايمر مثلاً، أو الفصام العقلي حينها ستدرك مدى هشاشة العقل البشري؟ لكن على كل حال فإنك أن فقدت عقلك فإنك لا تفقد ذاتك

قال آدم وقد بدت عليه معالم الحيرة: لقد دار عقلي، وأصابني الحيرة
ابتسم الدكتور عابر ثم قال: سأوضح لك ذلك بمثال بسيط.... لو أننا صنعنا إنساناً آلياً فائق الذكاء هل سيكون لديه وعي؟!

- هذا يتوقف على تعريفك للوعي

- الوعي شيء أعمق بكثير من العقل فإنساننا الآلي فائق الذكاء يستطيع أن يقوم بحل أعقد المسائل، لكن لا إدراك لديه أو فرح أو حزن، لا أمل ولا إيمان ولا وفاء، لا غضب أو حب أو خوف... أما نحن كبشر فلدينا كل ذلك، لكن الغرب في الأمر هو كيف تجعلنا تلك الأيونات المندفعة خلال الأعصاب نشعر بالخوف أو الغضب أو الحب؟

- لا أعرف صراحة

- ذلك هو السؤال الذي لم نجد له إجابة بعد، فإذا كان الوعي هو القدرة على الشعور، فالألم يوجد لحكمة وسبب، وقليل من الناس هم الذين يولدون محرومين من نعمة الإحساس بالألم

تعجب آدم وسأله: أهناك مَنْ لا يشعر بالألم؟

- نعم هناك مَنْ لا يشعر بأي ألم

قال في ابتسامة: إنه في نعمة عظيمة

- بل على العكس عدم الشعور بالألم هو نقمة على صاحبه

- مَنْ منا لا يتمنى ألا يشعر بالألم

- أن نظرتك محدودة... فلتأت معي

- إلى أين؟

- سترى

اصطحبه الطبيب إلى غرفة كان يجلس فيها صبي صغير لم يتجاوز السابعة من عمره، نظر إليه آدم من خلال زجاج الغرفة فقال له الطبيب وهو يشير إليه: هذا الطفل وُلد محروما من الشعور بالألم مما جعل كل مراحل حياته بلاء

- وكيف حدث ذلك؟

- لقد قضم أصابعه بأسنانه ذات مرة حتى وصل إلى العظام، وفي إحدى المرات الأخرى كسرفكه دون أن يدري، أما الأسوء من هذا أنه قد فرك عينيه ذات مرة بقوة مما تسبب في إصابة بالغة خضع على إثرها لعملية استئصال للعين اليسرى كما ترى

- في الحقيقة لم أكن أعلم أن الألم نعمة عظيمة

- ليس الألم هو الإحساس الوحيد، فالجوع والعطش والخوف والشهوة كلها غرائز فطرية تساعدنا على البقاء، فالشعور يدفع إلى الفعل، والفعل يُنقذ الحياة ويحفظ النوع، أرايت أهمية الشعور؟

عاد الجميع إلى جولتهم حول غرف المرضى فنظر آدم إلى غرفة أخرى وكان بها طفلة صغيرة جالسة على فراشها فسأل الطبيب عنها كذلك فقال له الطبيب: إن هذه الطفلة مصابة بمرض الاستسقاء المخي

- وما نوع هذا المرض؟

- لقد ولدت هذه الطفلة بدون القشرة المخية المهمة للإنسان

- وهل تعيش بدون مخ؟

- نعم، أليس هذا شيء عجيب؟

- بالفعل أتعجب من كل هذه الحالات

- أنا أدرك تماما أن وعي الإنسان شيء لم نستطع فهمه بشكل جيد، ولا علاقة له بالمخ، إنها مسألة تتعلق بالذات الإنسانية.

نظر الطبيب إلى ساعته وأدرك أن الوقت قد مر سريعا فاعتذر للأصدقاء لإجراء جراحة أتى مواعدها على وعد بقاء آخر إذا تسنى له الوقت، شكره آدم شكرا جزيلا على كل ما قدمه له من معلومات حول هذه المسائل التي كانت تشغل عقله كثيرا.

بدأت البروفيسورة منيرفا تتحدث عن تاريخ الفن بعد أن دلفت مسرعة كعادتها إلى قاعة المحاضرات وقالت:

الفن هو ثمرة العلاقة بين الروح والحقيقة، مما يجعل ارتباط الفن بالدين ارتباطا وثيقا....

ولكي نفهم علاقة الفن بالدين علينا أن نعود لعصور ما قبل التاريخ....

فعندما نعود إلى هناك ندرك جيدا أن الدين والفن قد ظهرا بسبب شوق الإنسان إلى عالم مجهول.... لكن

التاريخ القديم يبدو لنا ضبابيا ومشوشا، فالتاريخ لم يُحدثنا عن كيف بدأ الدين؟، وكل الدراسات التي بحثت في هذا الموضوع لم تكن سوى تخمينات واقترحات...

ومع ذلك فإن بعض المؤرخين يعتقدون أن التوحيد كان العبادة الأولى للإنسان البدائي، وقد ظهر تعدد الآلهة في مرحلة لاحقة، ويعتقد البعض الآخر أن التعدد قد أتى أولا ثم تبعه التوحيد، لكن....

قاطعها ضياء قائلا: لحظة من فضلك

سكتت منيرفا للحظة ثم نظرت إلى ضياء قائلة: تكلم

قال ضياء: الأديان موجودة منذ أقدم العصور أنا معك تماما، لكن الإنسان الأول كان موحدا

- على كل حال فإن اتفق العلماء على أن التوحيد كان الأول وتلاه التعدد أو العكس، فإن الجميع قد اتفقوا على أن الإنسان البدائي كان أرقى روحيا من الإنسان الحالي، وقد اعتبر العلماء أن الرقي الروحي في كل عصر مرتبط بالتوحيد، لذا فقد قال أحد العلماء عن الإسلام إنه أنقى ديانات التوحيد

ابتسم ضياء ثم قال: أنت مسلمة؟

- لا..... لكني اعتقد بوجود إله واحد

- وما يمنعك من الإسلام؟

- لا أحب التطرق إلى هذا الحديث، فليس هذا المكان المناسب فنحن ندرس تاريخ الفن وليس تاريخ الأديان، لكن من الممكن أن نتحدث في هذا الموضوع خارج هذه القاعة بعد ذلك

صاح الجميع قائلين: كنا نحب أن نستفيد من حديثكم هذا

وتقدم سام قائلا: هل لنا أن نحضر لقائكم هذا؟

قالت منيرفا: على الرحب والسعة

- لكن متى؟

- سنحدد موعد لذلك لاحقا

في مبنى جريدة عصور الظلام تقدم الكاتب الصحفي نضال مستور بخطى مسرعة إلى مكتب رئيس التحرير، طرق الباب ثم دلف إلى الداخل فاستقبله رئيس التحرير متسائلاً: هل من جديد تحت الشمس؟

- هناك دائماً جديد

- هات ما عندك

- إنها قضية فساد كبيرة مع اقتراب الانتخابات

- ومن بطلها؟

- وهل هناك أحد غيره

- من؟

- جلال الديب

سمع رئيس التحرير الاسم الذي نطق به نضال فتلعثم وأصابه الارتباك وقال: من؟

رد عليه نضال بعد أن لاحظ عليه علامات الدهشة قائلاً: جلال الديب عضو المجلس الوطني

- أمتأكد أنت من الاسم؟

قال نضال مازحاً: سأعيده على مسامعك مرة أخرى، إنه جلال الديب

- احكي قصتك إذن

- لقد حصلت على مستندات وأوراق تُثبت تورط جلال الديب في قضية التسرب البترولي لسفن شركة الطاقة العالمية في مياه النهر على الميناء الشرقي للعاصمة

- وما علاقته بهذا؟

- لقد حصل على تسهيلات كبرى من رجل الأعمال صفوان الأدهم رئيس الشركة

- تسهيلات! مثل ماذا؟

- تمويل الحملة الانتخابية الخاصة به في مقابل إصدار بعض القوانين في المجلس الوطني تمنع الرقابة على هذه السفن التي تنشر مخلفاتها في مياه النهر،

ألم تعلم بأنه قد أصدر العديد من القوانين التي تخدم رجال الأعمال في الفترة السابقة بصفته عضو كبير في البرلمان

- قلت لي أنك تملك مستندات، فمن أين حصلت عليها؟

- من مصادر صحفية ولن أبوح لك بها، فهل أبدأ في الكتابة؟

- انتظر، فلا أريد التورط في مشاكل أخرى كفانا قضايا خاسرة، لا تلعب بالنار، فالجريدة على وشك الإفلاس

- لم أعهدك تخاف من قبل

- لست خائفا ولكن...

قاطعته نضال قائلاً: سأذكرك ثمانية، هل تعرف لماذا تُسمى جريدتنا بهذا الاسم؟

- وما علاقة ذلك؟

- نحن نحارب الفساد ونسعى جميعاً إلى تقدم البلاد ورقمها بفضح مُفسديها حتى تزدهروا نعود مجدداً إلى عصور الظلام، أليس كذلك؟

- بالضبط

- أين حماسك فأنا لا أراه، دعني أكتب عن القضية

- لن تتحمل الجريدة قضية أخرى خاسرة

- من قال لك إنها خاسرة، أنا لم أخسر قضية في حياتي

- إن كان لابد منها، فعليك بالتلميح فقط إلى الموضوع، وقم بوضع إشارة إلى امتلاكك المستندات

- ثم ماذا بعد؟

- لننتظر، حتى نرى ما سيحدث

عاد نضال إلى مكتبه في الجريدة، وأشعل غليونه وجلس يفكر فيما سوف يكتبه عن قضية الفساد تلك التي أرقّت مضاجعه، بدأ ينفث الدخان في الهواء وهو شارد الذهن يفكر، أخذ يقلب في الأوراق التي أمامه حتى قام مسرعاً من مكانه وقرر الذهاب مرة أخرى إلى الميناء الشرقي ليستكمل بعض المعلومات عن القضية.

وصل إلى هناك وبدأ يسأل بعض السكان المجاورين للميناء عن أضرار التسرب البترولي في المياه، ومدى تأثيره عليهم، أخبروه السكان أن التسرب البترولي في المياه ليس فقط ما يُقلقهم، ولكن الغازات السامة التي تنبعث من السفن أيضا.

انطلق نضال يجول ويصول حول الميناء فتوقف أمام امرأة في عقدها الخامس من العمر ليسألها بعد أن شعر أنها قد تكون أحد سكان المكان، فذكرت له أنها مواطنة من هذه المنطقة الفقيرة الصغيرة، وأن شقيقتها ماتت بسرطان الرئة نتيجة تلك الروائح والغازات، وأنها تقدمت بعدة شكاوى إلى الجهات المختصة في الحكومة بشأن هذا التسرب لكن لا حياة لمن تنادي، فلم يجب أحد على شكواها، واضطرت إلى أن تطرق باب الإعلام في النهاية حتى يساعدها لكن لم يكن هناك رد كذلك فقالت له بسخرية: أظن أن الكل متواطئ.

استمع نضال إلى حديث السيدة باهتمام ثم انطلق بعدها ليتعرف على مشاكل باقي السكان مع هذا التلوث، ووعدهم أنه سوف يكشف كل تلك اليلايا التي حلت ليس فقط على أهل هذه المنطقة الفقيرة نسبيا، لكن على البلاد بأكملها، وأنها ستكون فضيحة الموسم لرجال السلطة ورجال المال.

**

عاد إلى جريدة والحسرة تملأ قلبه على حال سكان المنطقة، وحالتهم المزرية، وشرع في كتابة نبذة عن الموضوع وفيه تلميح بالفساد، وتلميحات أخرى عن المستندات التي في حوزته، لكنه لم يذكر فيها أسماء لأي شخص بناء على رغبة رئيس التحرير في ذلك.

كان نضال مستور الكاتب الصحفي الأنيق رجل قصير القامة يميل قليلا إلى البدانة، وعلى الرغم من ذلك فهو يمتلئ حيوية ونشاطا، يرتدي دوما نظارة سوداء ليخفي تحتهما عينين حادتين قلقيتين، ويكتسي بذلات رسمية أغلب الوقت، كما أنه ذو سعة من المال الذي ورثه عن والده، فهو يمتلك مبنى سكني كبير يقوم بتأجير شققه فيحصل على مبلغ كبير من المال شهريا، لم يكن متزوجا وهو الآن في عقده الرابع.

يعيش في منزله الكبير ذي الحديقة الغناء مع شقيقته آسية التي تُفضل دوما المكوث في المنزل بعد أن طلقها زوجها بسبب عقمها، وهي الآن تُقيم مع

نضال وهو يقوم بإعالتها، كان لديها الكثير من أوقات الفراغ التي تستثمرها في القراءة أو الرياضة أو الجلوس في الحديقة.

لم يك يسعدها في يومها إلا جلوسها مع شقيقها نضال بعد عودته من عمله كل مساء ليطلب منها رأيها في مقاله الأسبوعي، وتبدأ مناقشات حول مقالاته وأفكاره، وعلى الرغم من أنها كانت كثيرة الصمت لا تتحدث إلا بأقل الكلمات وهذا ما كان يغضب نضال أحيانا، فمن عادة الصحفيين الثثرة وكثرة الكلام فيما يُفيد وما لا يُفيد ذلك بحكم عملهم بالتأكيد وهو يعتقد أن هذه ميزة يمتاز بها، فكان يرى أنه إذا جعلت شخصا يتحدث كثيرا فغالبا ما تخرج منه الكثير من المعلومات لتُصبح بعد ذلك مادة قابلة للنشر.

في مساء اليوم التالي عاد نضال إلى منزله، وتناول عشاءه مع شقيقته ثم جلس أمام جهاز الحاسب الآلي الخاص به في غرفته وعلى الأريكة وراه كانت أسية شقيقته مستلقية وممدة جسدها عليها وهي تتصفح أحد الكتب بادرها نضال قائلا: ما رأيك في مقال الأمس؟

ردت عليه وما زالت عيناها لم تفارق صفحات الكتاب قائلة: في الحقيقة لم أقرأه، لقد نسيت

قال لها في حزن: أصبحت تنسين الكثير من الأشياء

- معذرة، فأنا أقرأ منذ الأمس هذا الكتاب، وقد منعتني قراءته من قراءة مقالك، لكنني بالتأكيد سوف أقرأه وأخبرك برأيي غدا

لم يعرفها نضال اهتماما ولم ينطق بكلمة، ولكنه فقط أغلق الجهاز المفتوح أمامه، وخلع نظارته ووضعها بجانب المكتب، ثم استأذن من شقيقته ليخلد إلى النوم، فتركت له الغرفة وخرجت إلى الحديقة لتستمتع بنسمات الهواء وتُكمل كتابها.

وصلت إلى آدم وضياء دعوة لحضور المهرجان الكبير الذي يُقيمه سيمون الساحر في العاصمة تحت رعاية جلال الديب المرشح لعضوية المجلس الوطني، وفي الموعد المحدد ذهبوا معا لحضور الحفل.

كان سيمون وأعوانه قد نصبوا خياما كبيرة جدا ليُقيموا المهرجان بداخلها، وكانت الحشود عظيمة والزحام شديد على الأبواب ودخل الخيام نظراً لدعوة

الكثير من سكان العاصمة والعائلات الكبرى فيها، وبالطبع فقد تم تمويل هذا المهرجان الكبير بمعونة رجل الأعمال الكبير صفوان الأدهم الذي يقوم بتمويل الحملة الانتخابية لجلال الديب.

نظر ضياء وأدم إلى ذلك الحشد الكبير الذي اكتظ به المكان من رجال ونساء وأطفال وشباب وشيوخ، ثم ألقوا بناظرهم ناحية الشمال من الباب الرئيسي للمهرجان فوجدوا إمام وبعض الزملاء من الكلية فذهبوا إليهم بعد إشارات منهم بالاقتراب.

أضاءت أنوار المهرجان المكان كله، وكانت على الجدران صوراً لجلال الديب يدعو فيها الناس لانتخابه، كان من الواضح آنذاك أن تكلفة تمويل الحملة الانتخابية عالية جداً، فلم يترك جلال الديب شيئاً للترويج والدعاية إلا فعله، فصوره في جميع أنحاء العاصمة، والمهرجانات المختلفة تُقام كل يوم، والبرامج التليفزيونية تحفل به في كل الأوقات، وتحدث عن إنجازاته وقدرته العظيمة كرجل سياسي مخضرم.

كانت الدعوات تُرسل يومياً إلى عامة الناس لحضور مهرجانات مجانية ليُشاهدوا فيها أعمال السحر والغناء والرقصات المختلفة، كان الجو العام يسوده المرح والبهجة في محاولة من جلال الديب للسيطرة على قلوب الناس قبل عقولهم، حاول الأصدقاء أن يدلّفوا إلى الداخل في ظل الزحام الشديد، ومن خلال الصفوف المترابطة أمام المسرح الكبير، اتخذ الأصدقاء أماكنهم لمشاهدة الحفل.

خرج على الجميع سيمون في زيه الأسود الضيق اللامع، وتحدث إلى الحشد المائل أمامه، وقد خيم عليهم الصمت حينما رأوه فقال لهم: هذا المهرجان هدية من السيد جلال الديب للترفيه على أهل هذه المدينة

وبطبيعة الحال رفع الجميع أيادهم بالتصفيق والتهليل والصفير الذي صم الأذان، وبعد أن هدأ ضجيج الحشود رنا إلى سماعهم أصوات الموسيقى

تقدم سيمون واستطرد يقول: اليوم موعدنا جميعاً مع الكثير من المرح، والكثير من الضحك، والكثير من اللعب والفضل كله يعود إلى السيد جلال الديب.

لقد ذكر سيمون جلال الديب الكثير من المرات، وكان ذلك بالتأكيد عن قصد لتذكير الناس دائما بهذا الاسم ليُحفر جيدا في ذاكرتهم حتى موعد الانتخاب

أكمل سيمون: سنعرض الآن الراقصات المرحات التي لن تروا مثلهن في أي مكان سوى هنا

وأشار بيده ناحية باب المسرح حتى خرجت منه الكثير من الراقصات تتمايلن كتمايل أوراق الشجر في موسم الربيع، يقمن بالرقص في إيقاع منتظم على نغمات الموسيقى، كانت البهجة تغطي الوجوه التي تتمايل مع حركات الراقصات، وما أن انتهت الراقصات حتى صاح الجميع وقاموا كعادتهم بالتهليل والتصفيق الحاد والصفير الذي لا ينقطع، بعدها دخل سيمون مرة أخرى إلى المسرح ونظر في وجوه الحشود وقال: أما الآن فقد حان موعدنا مع الصوت الشجي، مع النغم الحي، مع الملك الذي يتربع على عرش الأغنية الشبابية.

أشار بيده إلى الباب فخرج على الجميع المطرب الشاب الذي ذاع صيته في أنحاء البلاد، كان له من الشهرة ما لم يكتسبها عالم من العلماء، الجميع هنا يعرفه بلا استثناء شبابا وشيوخا فلقد دخل جميع البيوت عن طريق التلفاز، ولما هلّ عليهم علت الأصوات بشدة، وصرخات الفتيات جعلت المكان وكأنه يبدو كجنازة لأحد الأشخاص.

تقدم المطرب وحيا للجميع ثم بدأ يترنم بأغنياته التي يحفظها الجميع عن ظهر قلب، استمر في الغناء ساعة كاملة لم يتوقف، وعند النهاية أخبر الجميع بأنه سوف يقوم بغناء أغنية قد كتبها بنفسه عن جلال الديب فزادت حدة التصفيق، وغنى حتى انتهى شاكرًا الجميع مغادرا المسرح.

دخل بعده شاب يتقدم بخطى ثابتة إلى المسرح وقال: لكل شيء بداية لابد له من نهاية، والآن مع نهاية الحفل الرائع مع كبير السحرة، أعظم ساحر عرفته البشرية، أقدم لكم سيمون ساحرنا العظيم.

فجأة انطفأت الأنوار وظهرت جبهة باب المسرح دخان كثيف خرج من خلاله سيمون، وقد أحاطت جسده هالة نورانية كبيرة، فأظهرته وكأنه ملاكا خرج لتوه من الجنة، وبدأ يشير إلى أشياء موضوعة على المسرح فتكسوها هالة نورانية، وكذلك فعل مع بعض زملائه مما أذهل الجميع، بعدها قام بالعديد من الخدع البصرية والأعمال السحرية التي خطفت أنظار الجميع وألباهم.

انقضى الحفل الصاخب، وكان الأصدقاء يشاهدون في انتباه ما يجري من أحداث على ذلك المسرح.

انفض الحفل ورحل الجميع فازدحمت البوابات عند خروج الناس، وفضّل الأصدقاء الانتظار حتى يتسع المكان لخروجهم وفي أثناء الانتظار خرج إليهم سيمون وسلم على الجميع وعانقهم وسألهم عن رأيهم في هذا المهرجان، أشاد الجميع بالحفل وشكر لهم سيمون تلك المجاملات الرقيقة.

لكن آدم كان يتفكر في موضوع آخر، وتطوف بعقله الأفكار حول الهالات النورانية التي رآها مرة ثانية هنا على جسد سيمون، وليس على جسد الأب لوثر أو قبة الكنيسة، وعلى الرغم من شروده وتفكره إلا أنه كان شديد الابتهاج والفرح عندما أدرك أنها أعمال سحرية.

راح يسأل عنها سيمون، لكن سيمون لم يكن لديه الوقت الكافي ليُجيب على تساؤلاته، فهو سوف يرحل اليوم فسأله آدم عن مقابلة في حضور الأصدقاء عندما يحين الوقت المناسب، لكن سيمون أخبره أنه شديد الانشغال هذه الفترة حتى انتهاء موسم الانتخابات، وإنه سوف يقوم بالاتصال به حالما ينتهي من عمله.

غادر الأصدقاء المهرجان وبدأ العمال في رفع الخيام والدعامات التي تُقام عليها حتى ينصبوها في مكان آخر، عاد آدم إلى منزله ونظر في المرأة فظهر له الشيخ العجوز وقال له: انشغلت بغير الطريق مرة أخرى

رد عليه آدم قائلا: بالفعل..... فالدراسة، والكلية، ودعوات الأصدقاء

كان آدم يتحدث مع العجوز وهو يفك رباط حذائه، وعندما قام منتصباً لم ير الحارس في المرأة، فخلد إلى نوم عميق، ثم أفاق من نومه صباح اليوم التالي لينطلق إلى كليته، حضر متأخراً بعض الوقت نظراً للزحام الشديد في الشوارع نتيجة المؤتمرات التي يقيمها المرشحون للانتخابات.

حينما وصل إلى القاعة رنا إلى سمعه صوت منيرفا تقول: عندما أتكلم عن الفن فلا أقصد فن الرقصات، أو فن الأغاني الهابطة، أو تمجيد السلطات، لكن مقصدي الفن الراقى الذي يتناول دراما الوجود الإنساني.....

ظن آدم حينها أن أصدقاءه قد أخبروا منيرفا عن الحفل الصاخب وما حدث فيه، طرق الباب فسمحت له منيرفا بالدخول واتخذ مقعده

استطردت منيرفا تتحدث متسائلة: هل يصطدم الفن مع العلم؟

أجابها ضياء: العلم والفن وثيقا الصلة ببعضهما البعض، فلا صدام بينهما على ما أعتقد

قالت منيرفا: هل لك أن توضح وجهة نظرك؟

- إذا كان العلم يتوصل إلى الحقائق والمعارف، فالفن يترجمها إلى أحاسيس، لذا فإن كان طريق العلم كاذبا فطريق الفن يكون كذلك.

قالت منيرفا: وما الذي يحدد للناس أهمية الأحاسيس التي ينقلها الفن، وكذلك المعارف التي ينقلها العلم؟

قال ضياء: أعتقد أنه الوعي الديني، بمعنى إدراك الناس لرسالة حياتهم

- تلك نقطة جيدة.... فإن ما يُحسب للأديان هو وجود عالم آخر إلى جانب عالم الطبيعة، وهذا الوجود الآخر هو المصدر الأساسي لكل دين وفن

قاطعتها روز قائلة: وكيف ذلك يا سيدتي؟

أجابها منيرفا: إن لم يكن هنالك سوى عالم واحد لكان الفن مستحيلا، لأن المعرفة في الفن لا تُكتسب بالعقل ولكن بالحدس، فالفن هو ثمرة الروح كما قلت في المحاضرة السابقة، وإذا لم يتم الاعتراف بوجود العالم الآخر والروح فالفن عبث ولا قيمة له

قالت روز وقد أربد وجهها: كيف ذلك يا أستاذة فأنا ملحدة، وأعشق الفن وأمارسه بدون الإيمان بالعالم الآخر ولا بالروح

قالت منيرفا: أدركت بعين البصيرة أنك تميلين إلى التجريد في الفن، وفنك يتجاهل ظواهر الأشياء، ويهتم بالبواطن وهو بذلك يُعطي معنى روحي للعمل الفني

خيم الصمت على فم روز بعدما سمعت كلام منيرفا فلم تجد رداً وحينها تدخل ضياء في الحوار: الإيمان بعالم آخر هو جوهر الأعمال الفنية.

نظرت منيرفا إلى وجه روز بعدما ألمحت عليه معالم الصدمة وسألتها: قلت منذ قليل أنك ملحدة أليس كذلك؟

ردت روز باقتضاب: بالضبط

قالت منيرفا: معذرة يا روز لا يوجد فنان ملحد يستطيع أن يرسم لوحة إلا إذا أمن بوجود الروح

ردت عليها روز بابتسامة: ولماذا كل هذه الحملة الشعواء على الإلحاد؟

- ليست حملة لكنها دفاعا عن الفن وليس المعتقد

- أتمنى ألا يؤثر معتقدي على دراستي

- لا علاقة لي بالمعتقد فكل شخص حر فيما يعتقد، أنا هنا فقط لأوضح الحقيقة، ولأن انتهت محاضرة اليوم وأستمحيكم عذرا على الإطالة فلم يتبق الكثير على نهاية العام الدراسي ولابد من تحصيل أكبر فائدة أشكركم وإلى اللقاء.

في حديقة منزل الكاتب الصحفي نضال مستور كانت شقيقته آسية جالسة تقرأ كتابها كعادتها دوما إذ جاءها رجل رث الثياب تعرفه جيدا إنه الشيخ عزيز إمام المسجد القريب من منزلها، كان الشيخ عزيز شابا لم يتجاوز بعد الخامسة والثلاثين من عمره، لكنه فقير الحال يكاد يكون معدما، استقبلته آسية بالترحيب ودعته إلى الداخل لتناول كوب من الشاي، لكنه سألها عن الأستاذ نضال فأخبرته أنه لم يحضر بعد من الجريدة، في البداية رفض الجلوس معها في الداخل فهو يعلم جيدا أنها تعيش بمفردها مع شقيقها، ولما أصرت على جلوسه معها رضخ لرغبتها على شرط جلوسهم في الحديقة.

اتخذ مقعده أمامها وتركته لتحضر أكواب الشاي حتى أتت سريعا وهي تحمل الأكواب ثم ناولته كوبه، بادرها الشيخ عزيز بالحديث وقال ونظرات الأسى تلوح في عينيه: لقد أتيت في طلب خدمة، أرجو ألا ترديني خائبا

قالت والابتسامة مازالت تملأ وجهها الصبوح: إن كان في استطاعتي لن أرد لك طلبا

- أنت تعلمين جيدا وضعي المالي الصعب، فأنا وعائلتي نعاني شظف العيش، وأنفق على أسرتي المكونة من زوجتي وثلاثة أبناء بالإضافة إلى أمي المريضة وأخي العاطل عن العمل الذي لا يجد سبيلا للرزق

- أعلم جيدا والله يكون في عونك، أحتاج إلى مال؟

- لا لا... أشكرك شكرا جزيلًا، لكني أتيت لأطلب أن تتحملوني قليلا في دفع إيجار الشقة التي أسكن فيها في مبنى الأستاذ نضال، فالحال ليس على ما يرام، وأمي المريضة تحتاج إلى الكثير من المال للعلاج

- على الرحب والسعة، سأحدث نضال في هذا الموضوع فور مجيئه، وهو سيراعي أحوالك المتعثرة بإذن الله

- لا أعلم كيف أشكرك على هذا الأمر، وأرجو ألا أكون قد أثقلت عليك

- لا إطلاقا، فأنت من الناس الذين أكن لهم الاحترام يا سيدي

- حسنا لأنصرف الآن حتى لا أعطلك

- لكن الشاي لم تشربه حتى

- في مرة قادمة بإذن الله، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

- وعليكم السلام.

عاد نضال من الجريدة بسيارته وهو ينظر بنظرة مشمئة إلى ذلك الشيخ الساكن في مبناه، رآه يخرج من منزله بثيابه الرثة المهلهلة ومشيته المتثاقلة، كان منظره يُبين مدى فقره وحاجته، لكن نضال كان يرى أن هذا المظهر لا يليق بتاتا برجل دين فكان يحتقره باستمرار.

توقفت السيارة أمام المنزل وترجل منها نضال ودخل فحيا شقيقته وبادرها بالسؤال عن سبب وجود هذا الشيخ هنا في منزله، فلقد لمح خروجه من المنزل، فأخبرته بما حدث وسبب زيارته فاستشاط غضبا وقال لها: هؤلاء الشيوخ لا يكفون عن الثروة والتمادي في عدم دفع الإيجار، فكل شهر يأتي إلينا ليُخبرنا بمشاكله ويقص علينا حاله المزري حتى نتنازل.. لا لا سأطرده خارج بنايتي

ردت عليه آسية وقد اربد وجهها من حديثه اللاذع عن الرجل الفقير: أولا هولم يأت هنا إلا منذ خمسة أشهر حينما تعذر في الدفع حينها، وأتى الآن وهذا يعني أنه قد أتى مرتين فحسب وليس كل شهر كما تدّعي

- وإلى متى سأتحمل هذا الشيخ رث الثياب ألا تعلمين مدى احتقاري له

- الفقر ليس عيبا حتى تحتقره لفقره

- لا بد أن يكون رجل الدين قدوة حتى في ملابسه

- لكن الرجل شديد الأدب والأخلاق وعلى علم بالدين

- ألا ترينه.... أهذا منظر رجل دين

- إنه فقير ولا يملك إلا تلك الثياب الرثة، كما أنه يُنفق على أسرته الكبيرة

قال بسخرية: عدنا مرة أخرى إلى تلك القصة المؤلمة

- عليك أن تتحملة هذا الشهر

- لا لا لن أتحملة ثانية سأقذف به من نافذة الشقة هو وأسرته

- أليست لديك ذرة من الرحمة

- بلى.

يأست أسية من إقناع نضال بتحمل الرجل بضعة أيام قليلة حتى تتحسن أحواله فتركته وانصرفت، دخل نضال إلى غرفته حتى يغير ملابسه وجلس ليتناول عشاءه وعندما طلب من أسية أن تشاركه الطعام اعتذرت له.

انتهى من عشاءه وجلس في الحديقة مع أخته وبادرها بالسؤال قائلاً: هل قرأت المقال؟

- نعم قرأته

- وما رأيك فيه؟

- إنه مبتذل جداً، يبدو أنك تتبنى القيم الإيجابية التي يتفق عليها الجميع، وتقاوم الفساد، وتُصلح الأخلاق فقط حتى تجعل نفسك محبوباً

- أرى أنك متزعجة جداً، فإذا كان ما تقولينه صحيحاً فيجب على أن أتوقف عن الكتابة

- لا يا عزيزي إنها مجرد وجهة نظر

- لحسن الحظ أن الآخرين لا يفكرون مثلك

- مَنْ هم الآخرون؟

- أرى أن هذا آثار فضولك

- لا ولكن أنت من ذكر هذا الأمر، هل أسأت لك؟

- لا على الإطلاق

- هل أنت متأكد؟

- قليلا فقط... فأحيانا يكون المؤلفون حساسين حول كتاباتهم لكني سأنجو
لا تقلقي سأذهب للنوم، تصبحين على خير.

عاد آدم إلى محاضراته في الكلية، واجتمع الطلاب في القاعة حينما دخلت
علمهم منيرفا قائلة لهم: استأذن الجميع في عدم الدراسة اليوم، فالبروفيسور
روفائيل لم يحضر إلى الكلية منذ أسبوع مضى، والجميع قد انتابه القلق بشأنه
وحاولنا الاتصال به كثيرا، لكنه لم يجب على اتصالاتنا، فقررنا أن نذهب إليه
اليوم لننتفقه

رد عليها آدم: أليس له زوجة أو أبناء يمكننا الاتصال بهم لنطمئن عليه

- البروفيسور لم يتزوج قط، وهو يعيش بمفرده وقد وهب حياته للفن

- هل من الممكن أن نذهب معكم؟

- بالفعل من يريد أن يأتي، فليأتي

رد الطلاب جميعا قائلين: فلنذهب جميعا إذن.

انطلقت السيارات إلى المرسم الخاص بالبروفيسور روفائيل، قطعت
السيارات مسافات طويلة عبر التلال القاحلة التي تحيطها أشجار البلوط
خفيفة الأوراق طوال الطريق المؤدي إلى مرسمه إلى أن وصلت إلى المرسم في
الأحراش.

أخبرت منيرفا الجميع وهم في الطريق أن البروفيسور قد اشترى مزرعة من
المالك الأصلي للأرض بعيدا عن أعين البشر ليتفرغ فيه للفن وقالت: كان
روفائيل يقول دوما عن هذا المكان، عندما يأتي المرء إلى هنا تنطلق روحه
ويتحول المشهد المادي إلى معنوي والفنان بحاجة إلى ذلك

قال آدم: أكنت تعرفيه جيدا؟

أجابته: نحن أصدقاء منذ زمن طويل.

اندلف الجميع إلى مرسمه الخاص به، وحينما فتحوا الباب كان المكان يعبق
برائحة كريهة تزكم الأنوف، انتابهم القلق وسدوا أنوفهم، ودخلوا ليروا ما

يحدث بالداخل، وحينما تقدموا إلى المقعد المخصص للفنان أمام لوحته وجدوا روفائيل ساقطا على الأرض بجوار لوحة كان يرسمها على ما يبدو.

تفحصه مدير الكلية جيدا فوجد أنه قد مات منذ فترة، وأمسى كومة من العظام عليها جلدة واهنة، عروقه نافرة، والعينان قد غارت في هوة سحيقة، بدا الوجه مغطى بالتجاعيد كثمرة ذابلة طال عليها الأمد، لقد نسج عليه الموت خيوطه المهلهلة.

استمرت لحظات الصمت طويلا حتى قاطع الصمت إغماء روز بعدما رأت منظره هكذا، حاول الجميع إفاقتها وأخرجوها إلى الهواء في الخارج، وجلست بعدها في الخارج منتظرة حضور الجميع

قال آدم: يجب أن ندفنه

قام الجميع حتى يجهزوا كل شيء لازم لدفن الجثمان، لكن منيرفا أوقفهم وهي تقول: لقد كانت رغبته أن يُحرق إذا مات.

أحضر الطلاب الكثير من أخشاب الشجر المقطوع حتى يُشعلوا النار فوق سطح التل بجوار المرسم، وشرع الجميع في تحضير الجثة للإحراق، وقبل أن يقذفوه في النار، طلب أرنست أن يلمس جسده مرة أخيرة، فاستغرب الجميع لطلبه فقال لهم: كان فنانا راهبا روحه نقية، انظروا إليه وتفكروا لقد أضاع عمره على الفن، إنه ذلك الفن الذي تركه خلفه هذا الفنان القديس.

وبكى بحرقة والدموع تهمر من عينيه قائلا: أفلا يرغب أحدكم في لمس ثيابه وجسده، فروفائيل ما هو إلا قديس قد رحل للتو عن عالمنا.

بكى الجميع بعد سماع كلمات أرنست ثم قاموا بقذف الجسد في النار العظيمة المشتعلة أمامهم، ووقفوا ينظرون إليها في صمت وهي تحول الجثة إلى رماد تذروه الرياح.

نظرت منيرفا إلى الجميع وقالت: انتهى الجسد وروحه الآن ترفرف حولنا هيا بنا نعود أدراجنا

ركب الجميع السيارات وجلس آدم بجوار منيرفا وهمس في أذنها قائلا: أليس من الأفضل أن نقيم له جنازة تليق بمقامه؟

قال سام وهو يبكي على الفقيد: للولادة وقت وللموت وقت، للغرس وقت وللقلع المغروس وقت، للقتل وقت وللشفاء وقت، للهدم وقت وللبناء وقت،

للبياء وقت وللضحك وقت، للمعانقة وقت وللانفصال وقت، لتفريق الحجارة وقت ولجمعها وقت، للسكوت وقت وللتكلم وقت، للحب وقت وللبغض وقت، للحرب وقت وللصلح وقت، لكل شيء زمان ولكل أمر تحت السموات وقت

قالت منيرفا: هذا من أسفار الكتاب المقدس.

ذهبت آسية حينما أسدل الليل أستاره إلى المبنى السكني الذي يملكه أخوها نضال، وصلت هناك في ساعة متأخرة من الليل، طرقت باب إحدى الشقق فيه ففتح لها الشيخ عزيز، نظر إليها في دهشة قائلا لها: أهلا ومرحبا بك لقد تشرفت بحضورك إلى هنا تفضلي بالدخول.

دخلت آسية الشقة ذات الأثاث الهش، ألقت بنظرها إلى حال الشقة فأشفقت على قاطنيها فحالها يومئ بحال ساكنيها من الفقر الشديد، أجلسها عزيز على أفخم مقعد يمتلكه، وأحضر زوجته وأبناءه للسلام على صاحبة الشقة، وأخبرها أن والدته طريحة الفراش لا تقوى على القيام لتأتيك.

فقالت له: لا عليك سأذهب أنا إليها.

دخلت الغرفة فوجدت الأم مستلقية على فراشها في إعياء واضح فسلمت عليها وخرجت عائدة إلى مكانها، طلب الشيخ عزيز من زوجته أن تحضر بعض أكواب الشاي، فذهبت وعادت بها، كان عزيز ينتظر لتتحدث آسية عن سبب زيارتها المفاجئة والغريبة نوعا ما.

فبادرها قائلا: لم يحضر إلى شقتي المتواضعة من قبل سوى أبيك رحمه الله

- هو من أسكنك هنا أليس كذلك؟

- كان يتولى رعايتنا منذ زمن مضى، ولم يكن يأخذ منا إيجارا للشقة حتى أخبره والذي أنه لن يمكث في الشقة إذا لم يحصل على الإيجار، ورضخ والدك لطلبه، وكان يأخذ منا القليل جدا حتى توفي، فرفع الأستاذ نضال علينا الإيجار بشدة

- لا عليك فنضال.....

قاطعها: لا يهتم بنا وعند أول فرصة تسنح له أعلم أنه سيُلقي بنا في الشارع

ابتسمت في خجل وقالت: أنت تتعامل عليه جدا

- أعلم جيداً أن ما يجعله يحتملنا هو وصية والدك. أليس كذلك؟

- إنه طيب لكنه شديد العصبية، فالتمس له العذر.

تناولت الشاي وبعد فترة تركت حزمة من الأموال على المعقد الذي كانت تجلس عليه واستأذنت بالانصراف، أغلق الشيخ عزيز الباب وراءها وعاد، ولما نظر إلى مكان جلوسها تفاجأ بالأموال، فأسرع إلى نافذة الشقة ونظر منها إلى أسية وناداه بصوت جهير قبل أن تذهب، وطلب منها أن تنتظر، نزل السلم مسرعاً وقال لها وهو يقدم إليها حزمة الأموال: لقد نسيت أموالك يا سيدتي

قالت في خجل: لم أكن لأنساها... هذا شيء بسيط اعتبره هدية

- نحن لا نقبل الصدقة يا سيدتي، فالحال ميسور، والله يسترنا

- إنها ليست صدقة، لماذا تأخذ المسألة على غير محملها؟ هذا مالي الخاص

- الله يبارك لك فيه، لكني لا أستطيع قبوله، ولكِ جزيل الشكر على لفتتك

الإنسانية هذه

- أرجوك أن تقبله فهذا مبلغ بسيط

واستطردت مازحة: اعتبره دين، ولك أن ترده حينما تستطيع

قال لها: آسف جداً، فأنا لا أستطيع أن أرد مثل هذا المبلغ، ولا أريد أن

أحمل فوق رأسي ديناً

حينما أصابها اليأس من إقناعه بالحصول على المال، أخذته وعادت إلى منزلها خائبة الرجاء، فلقد كانت تريد أن تفعل خيراً لذلك الرجل الذي وصّى عليه والدها قبل موته، لكن الشيخ يأبى أن يعيش على مساعدات الآخرين فلهذه من الكبرياء والكرامة الشيء الكثير.

حينما دخلت منيراً إلى قاعة المحاضرات سألت الطلاب الجالسين أمامها: اليوم سوف نتحدث عن الموضوع الخاص بالوعي الديني وتاريخ الأديان كما طلبتم مني، فما رأيكم؟

أجابها ضياء: نعم لقد كنا ننتظر منذ وقت طويل، وظننت أنك قد نسيت

- لكن سنتحدث في هذه المسائل بعد انتهاء المحاضرة... فمن يريد منكم أن يحضر المناقشة فليبق، أما مَنْ لا يريد فعلية بالرحيل.... لكم حرية الاختيار

قال ضياء موجها حديثه إلى منيرفا: هل لي أن أسألك سؤالاً؟

- بالطبع تفضل

- لقد لاحظت في بعض الأحيان أنا وزملائي بالطبع، أنك حين تشرعين في إلقاء المحاضرة تعطينا معلومة مغلوطة في بداية الأمر، وعندما يكتشف أحدنا الخطأ، ويصححه تتفقين معه على رأيه، هل هذا صحيح؟

نظرت إليه بابتسامة قائلة: حسنا لقد كشفتم طريقتي، أنا بالفعل أفعل ذلك حتى أرى مَنْ منكم يلاحظ، وَمَنْ منكم يعترض، لقد قلت لكم مسبقا عند دراسة التاريخ فلا بد من البحث عن الحقيقة في باطن الزيف، كما أنني لا أريد التلقين كما تفعل طرق الدراسة في الأماكن الأخرى، لابد للجميع المشاركة كما أنني بهذه الطريقة أعرف مَنْ منكم قد بحث في موضوع المحاضرة ممن لم يهتم مطلقا ويأتي تقييكم على هذا الأساس

قال ضياء: أهكذا إذن؟

- بالضبط

- لنبدأ.... سؤال اليوم ما هو دور الفن؟

قال آدم: إنه وسيلة لترابط الناس، فكما أن الكلمة تنقل الأفكار إلى الآخرين ينقل الفن الأحاسيس

قال ضياء: لكننا كنا نفهم الفن على أنه ليس سوى الأشياء التي نقرأها، أو نسمعها ونشاهدها في المسارح والحفلات، وفي المعارض

- ليس الأمر كذلك دوما فالأحاسيس التي تستطيع أن تنتقل من إنسان لآخر تصبح مادة للفن ليس في الأعمال الفنية فحسب، فإذا استطاع الفنان أن ينقل تلك المشاعر التي عاني منها إلى غيره فهذا هو الفن ذاته، لذلك فإن الفن وسيلة اختلاط بين الناس مثل ما قال آدم في البداية

رد آدم: معنى هذا أن حياة الإنسانية كلها مليئة بمختلف أنواع الفنون

قالت منيرفا: بالضبط، وهكذا نظر إلى الفن الأنبياء والفلاسفة

تدخل ضياء: لكن بعض الأنبياء والفلاسفة القدامى كانوا يمنعون كل أنواع الفنون لاعتقادهم أن الفن يُشكل خطرا كبيرا

قالت منيرفا: لمثل هؤلاء نلتمس العذر فهم في الماضي كانوا يتخوفون من أن يدخل ضمن مواد الفن بعض المواد التي تُشجع على إفساد الناس ولذلك منعوا الفن برمته

قال ضياء: لقد رأيت أن هناك الكثير من الروايات والأشعار والأفلام لا تنقل سوى أحاسيس الحب الجنسي بكل أشكاله

ردت منيرفا: كل تلك الأشياء ما هي إلا أعمال جماعة مريضة بالهوس الشهواني....

نكتفي الآن بهذا القدر ولنأخذ ربع ساعة استراحة لمن يريد منكم أن يتناول شيئا في مقصف الكلية ثم نعود بعد ذلك

قالت روز: سوف أذهب لتناول بعض أقذاح القهوة حتى استعيد نشاطي مرة أخرى بعد هذه المحاضرة الطويلة فضربتان على الرأس تؤلم

ابتسمت منيرفا لحديث روز وقالت: هل ستحضرين المناقشة؟

أجابتها: بالتأكيد سوف أحضر

- لكن أنت...

قاطعتها روز: ملحدة والحديث عن الأديان هذا ما تقصديه؟

- لكن لماذا؟

- لقد أثارت المناقشة في المحاضرة السابقة اهتمامي، وأدركت حينها أنه قد

فاتني الكثير، فقررت أن أتعلم

استبشرت منيرفا خيرا بروز وسألت الجميع: هل من أحد سيغادر؟

لم يغادر أحد وقرر الجميع المكوث للاستماع إلى تلك المناقشة، بعد الراحة عاد الجميع إلى قاعة المحاضرات فوجدوا منيرفا في انتظارهم وتحمل كوبا من القهوة تحتسيه، ثم بدأت الحديث موجهة كلامها إلى روز قائلة: لكنك يا روز لا تؤمنين بوجود الإله أصلا، وبالتالي لن تكوني مستمتعة بالحديث عن الأديان

ابتسمت قائلة: أراك تحاولين طردي بكل أدب

ردت منيرفا قائلة: لا لا لم أقصد ذلك إطلاقاً

قالت روز: ما أوصلي إلى طريقي هذا والابتعاد عن طريق الأديان تلك الشبهات التي تحوم حول الأديان جميعها، لذا قررت أن أجلس لعلّي أجد لديكم أجوبة لها

- مثل ماذا؟

- الإله يحاسبنا على اختياراتنا بالرغم من أنه فرض علينا حياتنا....

تدخل ضياء: الحساب لا يكون إلا على ما فيه مجال للاختيار فحرية الإنسان ليست مطلقة

ردت روز: تقول الأديان إن الإله قد كتب كل ما سيحدث حتى يوم الحساب في كتاب، وإننا مجبرون أن نتبع ما دونه أليس هذا ظلم؟

قالت منيرفا: بصرف النظر عن موضوع الدين، فأنا أرى أن الإله هو الذي خلق الزمان وبالتالي فهو متعال عليه أي أنه ليس جزءاً من الزمان فمعرفة بكل الأحداث أمر طبيعي

- لم أفهم

- لنفترض أن مهندساً قام ببناء ضخم، فهل معنى هذا أن المهندس هو جزء من ذلك المبنى

- بالطبع لا

قال ضياء: لو أن إنسان اخترع آلة الزمان وتقدم بها إلى مائة عام في المستقبل ورأى ما سيفعله أحفاده ثم عاد إلى زمانه وكتب كل ما رآه، هل ما كتبه مُلزم لهم أم إنه كتب فقط ما صدر منهم بالفعل

قالت منيرفا بابتسامة: من أين لك بكل هذا يا ضياء؟

قال ضياء: قلت مسبقاً أنني قرأت كثيراً في مسألة الأديان

تدخلت روز في الحوار قائلة: كلام رائع وجميل يتسم بالعقلانية لكن هذا فقط حينما يكون بالفعل للإله وجود، لكن الإله ليس سوى انعكاس للشخصية الإنسانية على الكون

قال ضياء: أراك ترددين كلام الفلاسفة بلا تدبر

قاطعت منيرفا روز قائلة لها: معذرة يا روز قلنا إن هذه المناقشة عن الأديان وليست لإثبات وجود الإله من عدمه

- معذرة ولكنه اضطرني إلى ذلك حينما رأيت في أعين الجميع اقتناع بحديثه

- وما يُضربك من اقتناع الجميع، فحديثه منطقي

- ذلك بالنسبة لمن يؤمنون بوجود الإله

- عدنا ثانية

- في الحقيقة حديثه كله سيصبح بلا معنى بدون أن يثبت وجود الإله في البداية

تدخل ضياء قائلا: على الرحب والسعة

قالت منيرفا: لن نقضي اليوم بأكمله في هذه الكلية، لقد أشرفت الشمس على المغيب، فلنجعلها في وقت لاحق.

خرج الجميع من القاعة عائدين إلى ديارهم، وتذكر آدم أن سيث لم يعد يتصل به بعد موقفهم الأخير معا، أخرج هاتفه وقام بالاتصال به لكنه وجد أن الرقم الذي اتصل عليه لم يعد له وجود، تعجب كثيرا من هذا وحاول ثانية لكن لا مجيب، انتابه القلق على صديقه، فهرول ناحية منزله وطرق الباب طويلا فلم يجبه أحد كذلك، فنادى بعلو صوته عليه قائلا: سيث..... سيث

حتى أطلت سيدة من نافذة منزلها القاطن بجوار منزل سيث وقالت له: لقد رحل من هنا

سألها آدم: منذ متى؟

- منذ فترة

- وهل تدرين إلى أين ذهب؟

- في الحقيقة لا أعلم

شكرها آدم ومضى في طريقه، وحاول الاتصال بسيمون أقرب أصدقاء سيث، وكان يُدرك أنه بالتأكيد يعرف مكانه، وعندما اتصل بسيمون وجد أن رقمه كذلك لم يعد له وجود، حاول مرارا وتكرارا لكن لا مجيب، لقد اختفيا بكل بساطة ولا يدري إلى أين؟ ولماذا ذهبيا؟

عاد إلى منزله خائب الرجاء، حزين على صديقه سيث الذي كان يود أن يساعده ويجتاز به محنته التي يمر بها، لكنه في الأخير قد استسلم لأمره الواقع، وتقبل الوضع.

في كنيسة الأب لوثر في المدينة الزوراء كان الفراغ الهادئ قد حل على المكان بعد موعظة الأب ومغادرة المصلين، وقف الأب أمام المذبح يتلو بعض الصلوات حينما حضر إليه رجل رث الثياب وفي ملامحه يسكن الحزن والدموع تنهمر من عينيه، وقف وراء الأب لوثر منتظرا أن ينتهي من صلاته، وما أن انتهى حتى نظر الأب لوثر خلفه فوجد هذا الرجل واقفا متبتلا يبكي بحرقه تقدم إليه في خطوات ونيدة وربت على كتفه قائلا له: ماذا بك يا رجل؟

كان الأب لوثر بطبيعة الحال يعرف جميع سكان البلدة وكان الرجل من أهلها، رد عليه الرجل قائلا: أريد الاعتراف أيها الأب الفاضل

قال له يهدوئه المعتاد: اجلس أولا، واهداً وامسح عن عينيك الدموع

وبعد أن هدأت سريرة الرجل بادره الأب لوثر بالسؤال: ماذا بك؟

بدأ الرجل يقص حكايته قائلا:

كنت أعمل في الجيش، خدمت الجيش فترة طويلة جدا من عمري حتى لم يعد يبقى في عمري مثلما راح منه، قالوا لنا إن جيشنا العظيم سيدخل في حرب مع بلد أخرى تحوي إرهابا لا بد من التخلص منه حتى لا يؤثر على وطننا الغالي أظنك سمعت عن الحرب؟

- نعم سمعت بكل تأكيد

- كنت والجميع على اقتناع تام بهذا الحديث، حديث الإرهاب والخلاص منه وغيره من الكلام الكثير الذي ظللنا نسمع عنه في وسائل الإعلام وعلى ألسنة القادة في الجيش، وبالفعل انطلقنا جميعا إلى الحرب في أرض غير أرضنا وبلاد غير بلادنا، لكن المفاجأة أننا لم نرأي إرهاب ولا أي إرهابيين.

وجدنا فقط بشرا مثلنا تماما لا يختلفون عنا إلا في شيئين أولهما أنهم شديدي الفقر والعوز، وثانيهما أن أرضهم بها الكثير من الثروات التي لم يعرفوها قط، على أية حال قاتلنا جيشهم بشراسة وحاربنا حتى آخر قطرة من

دمائنا، وأصارك القول فأنا لم أقتل في حياتي شخصا حيا ينبض بالحياة لقد قتلت في هذه الحرب الكثير.

تخيل أن أمامك شخصا يمتلئ حياة وفجأة يُمسي جثة هامدة لا حراك فيها، حينها شعرت بالفزع يدب في أوصالي، لم أكن أتخيل يوما أنني سوف أزهق روحا خلقها الرب، والأدهى من ذلك أنني لا أعرف مَنْ قتلته، ولم أره في حياتي قط سوى في هذه اللحظة الرهيبة التي قتلته فيه.

تلك اللحظة المشنومة التي انطفأت فيها بداخلي كل أنوار الرحمة، كان رؤساؤنا يشجعوننا على المواصلة والاستمرار في إزهاق الأرواح على قدر استطاعتنا، وكانوا دوما يثنون على حسن أدائنا في الحرب، وبعد أول شخص أصبحت شهوة القتل تسري في دماننا، فبدأت الجثث تترامي تحت أقدام الجنود بلا شفقة أو رحمة، وقتلنا الكثير والكثير حتى أمسى القتل عادة...

وسكت للحظات يلتقط فيها أنفاسه حينها قال له الأب لوثر: هذا ما يحدث في الحروب يا والدي، فأنت تدافع عن تراب وطنك

أريد وجه الرجل من الغضب وقال: أدافع عن تراب وطني في غير وطني، ما هذا الحديث يا أبي؟

حاول الأب لوثر تهدئته مرة أخرى واستطرد الرجل يقول:

بعد أن تخلصنا من جيش العدو دخلنا المدن بقواتنا من جنود وصواريخ ودبابات ومدركات وأسلحة ثقيلة، أمرنا قادتنا أن نقتل كل مَنْ في المدينة بلا رحمة لأنهم يأوون الإرهابيين داخل منازلهم. لقد اعترت القسوة قلوب الجميع أصبحنا نقتل كل من نقابله من شباب وشيوخ ونساء وحتى الأطفال

قاطع الأب لوثر متعجبا وقال: حتى الأطفال؟!

- نعم حتى الأطفال فقد أوهمونا أن هؤلاء الأطفال إذا لم نقتلهم فسوف يقتلوننا فلقد دربهم الإرهابيون على القتل، فكنا لا نفرق بين أحد من القتلى كلهم سواء حتى أن الجندي الذي يرق قلبه للأطفال والشيوخ والنساء الذين كانوا يحملون بعض الأواني والحجارة والعصي للدفاع عن أنفسهم كان القادة يقتلونهم.

- ألهذه الدرجة؟

- وأكثر من هذا أنها وحشية الجيوش النظامية المحتلة، لقد أصبح القتل مألوفا يا أبتي... والقلوب تتبلد أمام أي شيء مألوف

- وماذا بعد؟

- عدت إلى وطني وأنا أتفكر فيما فعلناه، واتضح لي أن الحرب كلها كانت خدعة للحصول على ثروات البلاد عن طريق احتلالها، والتخلص من أهلها حتى ننعيم نحن برفاهية العيش، فشعبنا الأفضل وجنسنا الأرقى، وحكوماتنا يجب أن تضمن لنا الحياة الرائعة هكذا قالوا لنا، أصبحت المشاهد من الحياة الواقعية للجنود وهم يقتلون ويجرحون الناس في المعارك ملامح منتظمة في برامج التلفاز... إننا نحمي بلادنا من خطر الإرهاب.. الإرهاب... الإرهاب.... الإرهاب...

أصبح الأطفال يألفون تلك المشاهد، وتكرر مشاهد الحروب على شاشات التلفاز تجعلها تبدو غير حقيقية باعتبارها من قبيل التمثيل لا الحياة الواقعية، وذلك لا يجعل المشاهد حساسا بل متبلد الحس.... يا إلهي.

أنا عشت تلك الحقيقة في وسط الدماء والقتل، بلادنا تمارس لعبة سياسة القوة اللعينة، تلك اللعبة التي دمرت حضارات عديدة من قبل.

كنت أشعر بداخلي أن هناك شيئا خطأ يحدث، لكني كنت أكذب نفسي دوما وأتساءل بأي ذنب قُتلوا هؤلاء البشر، كنت رافضا للاعتداء على أرض الغير تحت أي مسمى، رافضا للحرب بداخلي حتى أتت إليّ وطرقت بابي وللأسف...

قاطعه الأب لوثر قائلا: للأسف ماذا؟

- فتحت لها

لا تنزعج فبداخلك الكثير من الخير، وهذا ابتلاء من الرب واختبار منه... هكذا هي الحياة

- وقد فشلت في الاختبار، أليس كذلك؟

- الرب سيسامحك طالما تبت إليه ورجعت

- كنت دوما مع الرب، أفعل الخيرات، أساعد الفقراء والمساكين، أتبرع للكنائس، لم أترك صلاة أو موعظة إلا حضرتها جاثيا على ركبتي هذا ما فعلته للرب، وفي المقابل ماذا فعل لي؟

قال له في عصبية: أتكفر بالرب يا رجل... قلت لك إنه اختبار

- كنت أعتقد ذلك حتى أتى ذلك اليوم المشنوم، بعد الحرب عدت إلى بلدي لأجد ولدي الوحيد قد مات، أخذه الرب أيها الأب، أهذا اختبار ثان؟

صمت الأب لوثر للحظات واستطرد الرجل: كثرت الاختبارات يا رجل ولم أعد احتمل، في الحقيقة لم أعد أؤمن بهذا الرب القاسي

وترك الأب لوثر في صمته وانصرف إلى الخارج، ناداه الأب لوثر فلم يستمع له حتى ركض وراءه وأمسك بتلابيبه حتى أوقفه وقال له: انتظر يا رجل أنا لم أنه حديثي بعد

- أعرف ماذا ستقول أيها الأب الفاضل، ولقد سئمت من ذلك الحديث الذي حفظته عن ظهر قلب، أتحب أن أعيده على مسامعك؟ ستقول لي أن المؤمن مُصاب، وأن الابتلاء علامة من علامات الرب، وهذا الكلام الذي لن يُقدم أو يُؤخر

ونظر نظرة على ملامح الأب لوثر الذي أسكته مصاب الرجل وقال له: أتدري ماذا أريد ليعود إيماني بالرب؟

- ماذا تريد؟

- أريده أن يرجع إليّ ولدي، وأنا في المقابل سأخذ على نفسي عهداً ألا ارتكب أي خطيئة مهما تكن ما تبقى من عمري

يأس الأب لوثر من طلبه، ونظر إلى الأرض مطأطئ الرأس لما أصاب الناس من قلة الإيمان.

دعت روز آدم وضياء بعد أن توطدت صداقتهما معها إلى مركز الفنون التجريدية لعلهم يُغيّران آرائهما عن ذلك الفن الذي تعتقد فيه، قبل الصديقان دعوتها وذهبا معها إلى المركز، توقفت السيارة أمام المركز، ترجل منها الأصدقاء وألقوا نظرة على ذلك المبنى.

يبدو المركز كقلعة كبيرة، ذات تصميمات غريبة الشكل، اندلفوا إلى داخل المركز، فإذا بسلالم عديدة لا أهمية لها ترتفع وتنخفض في كل اتجاه وتفود إلى

لا شيء، الأعمدة بداخل المركز كثيرة جدا كذلك تهبط من أعلى إلى أسفل دون أن تتلامس مع الأرضية، وما أكثر الممرات العشوائية التي بلا معنى.

قال آدم في سخرية: ما هذه المتاهة وما هذه العشوائية في التصميم؟!

ضحك الجميع وقالت روز: حتى المبنى لم يسلم من ألسنتكم اللاذعة

قال آدم: لقد علمني والذي أن الأبنية ثلاثة أنواع.... لكنه لم يذكر لي النوع الرابع، وهو (التي لا معنى لها)

قال ضياء ساخرا: إنه بالتأكيد ليس مبنى

ردت روز ضاحكة وقالت: كفاكما سخرية واستهزاء، فلنذهب إلى المعرض

قال ضياء: وكيف السبيل إليه في هذه المتاهات؟

روز: سأريكم الطريق فاتبعوني

تبعها الصديقان في خطى ثابتة وهي تدخل أحد الممرات، وتخرج من آخر حتى وصلوا أخيرا إلى قاعة عرض اللوحات، بدأ الجميع في تفحص اللوحات المعروضة بإمعان، لكنهم لم يروا فيها إلا الغموض الشديد والحيرة وغياب المضمون.

كانت اللوحة الأولى أكثر قربا من الفهم على الرغم من غياب الصور وغياب المضمون، رأوا الألوان غير معقولة والخطوط تُشبه الشخبطات، فالصور غير محددة أبدا بحيث يصعب على المرء تحديد الرأس من القدم.

قالت روز وهي تشير إلى اللوحة وتحاول شرحها لأصدقائها: هنا أثر الضباب، وهذا هو الليل، وتلك الشمس الغاربة

قال آدم مستفهما: ومن أين لك بمعرفة ذلك؟

- أحب الفن التجريدي، وقد قرأت عنه الكثير.

انتقلوا بعد ذلك إلى لوحة أخرى، وحاول آدم أن يفحصها جيدا لعله يستطيع أن يعرف مغزاها ومعناها بمفرده بدون معاونة روز، حاول كثيرا أن يخمن كل شيء فيها بذاته، لكنه وجد أن هذا فوق الإدراك الإنساني، أما أول شيء لفت نظره هو نقش خشبي بارز يصور امرأة عارية تصويرا بشعا تعصر بيديها سيولا من الدم تخرج من حلمتها، كان الدم يسيل إلى الأسفل ويتحول إلى

أزهار بنفسجية، والشعر منسدل نحو الأسفل ثم يرتفع إلى أعلى حيث يتحول إلى شجرة. كانت تلك اللوحة أكثر اللوحات وضوحا في هذا المعرض.

انتقلوا إلى اللوحة الثالثة فقال آدم سريعا بعدما ألقى نظرة عليها: هذه مفهومة

وأشار إليها قائلا: هذا بحر أصفر يعوم فيه الله اعلم ما هو.... سفينة أم رجل أم قلب

كان يتحدث بسخرية وهو يشرح اللوحة موجها حديثه إلى ضياء في حين كان هناك رجل مائل أمام اللوحة يتمعن فيها وما أن سمع حديث آدم حتى تدخل في الحوار قائلا: هذا الرجل يُمثل الأرض، أما القلب في البحر الأصفر فهو الخداع، أما السيد الواقف فهو الشر

قال ضياء مستنكرا: يا سلام

ضحك آدم وابتسمت روز وهي تنظر إلى الرجل الذي كان يشرح اللوحة وقالت له: أعذرهم يا سيدي فهم ليسوا على دراية بالفن التجريدي.

تقدم الأصدقاء أخيرا بجوار باب المعرض فلمح آدم سجادة معلقة كانت تأخذ شكل مخروطي، أبدى آدم وضياء إعجابهم الشديد بها، ونادوا على روز لكي تُشاهد هذه التحفة الفنية

فألت لهم روز: أخيرا قد أعجبكم شيئا في المعرض

قال ضياء: إنها رائعة ومفهومة، لكن بها أيضا بعض الغموض فهل لك أن تشرحي لنا قصتها؟

قالت روز: على الرحب والسعة

وبدأت تُعرض آراءها في السجادة، ومغزى هذه التحفة الفنية الرائعة، وكان الأصدقاء يستمعون إليها في اهتمام حتى حضر أحد عمال النظافة في المعرض، وحمل السجادة ثم فرشها على الأرضية مع بقية السجاجيد الأخرى.

لقد كانت سجادة عادية مكومة هناك بالصدفة. وعندما نظر آدم وضياء إلى روز التي أحمرت وجنتاها من الخجل وطأطأت رأسها إلى الأسفل، انفجر الاثنان بالضحك ولم يستطيعا كتمان ضحكاتهما فخرجت مجلجلة لفترة طويلة أزعجت من في المعرض حتى أتى رجال الأمن وأخرجوهم جميعا

أمام باب المركز، هداً الجميع وتجهمت ملامح ضياء وقال لروز: لا تغضبي
منا يا روز

ردت عليه قائلة: لست غاضبة، ولكن أريد أن أعرف رأيكم بصراحة عن
هذا الفن

قال ضياء: إنه ليس فناً في شيء، إنه قمة العبثية

رد آدم قائلاً: أعتقد أن كل الأشياء الجميلة في الفن قد ماتت في محراب هذا
المركز

لم تستطع روز أن ترد عليهم لأن أثر الصدمة مازالت موجودة على ملامحها
والحمرة لم تفارق وجهها.

كان المساء ساحراً في هذا اليوم الرائع فقرّر الأب لوثر أن يتجول في طرقات
المدينة يتأمل، قادته قدماه إلى الربوة العالية على النهر المنساب، كان النهر يبدو
كلوحة فنية رُسمت بأيدي فنان عظيم، فبعثت فيه المروج الخضراء الممتدة
على مد البصر شعور بالبهجة والسرور، كما أراحت روحه تلك النسمات
العليلة بنفحاتها الذكية حينما كان يستمع إلى حفيف الأشجار، وتغريد البلابل
التي تعزف موسيقاها على أوتار الطبيعة، فافتتن بهذا المنظر الرائع، والروائح
العطرة، واطمأنّت نفسه إلى تلك الموسيقى التي سافرت به إلى عالم الخيال
والأحلام، وراح يتفكر في ذلك المبدع العظيم الذي أبدع كل هذا.

لم يقطع لحظات تأمله هذه إلا سماعه صوت أحد الصبية يصرخ من بعيد
وهو يأتي مسرعاً وينادي بأعلى صوته قائلاً: أيها الأب لوثر... أيها الأب لوثر

حتى اقترب من الأب لوثر فقال له: لقد مات ولدك إيزاك في حادثة على
الطريق، وتم نقل جثمانه إلى المستشفى

أصابته الصدمة رأس الأب لوثر وتلعثم في الكلام وهو يقول: إيزاك ولدي.

هرول الأب لوثر إلى المستشفى والأسى يعتصر قلبه من سماع تلك الأخبار
الحزينة المؤلمة، وهو في طريقه إلى المستشفى تقابل مع ذلك الرجل الذي جاءه
من قبل يعترف له في الكنيسة، ولما رأى الاضطراب على وجهه سأله عما حدث،
فأخبره الأب لوثر عن حادثة موت ولده.

نظر إليه الرجل الذي ما زال ماثلاً أمامه وقال له في سخرية: إنه اختبار الرب، إنه الابتلاء يا أبتى... فلتذهب الآن حتى تُهيل عليه الثرى، ولا تنسى أن تدعوه الرب إليك.

ثم تركه وانصرف وفور وصوله سأل عامل الاستقبال في لهفة عن مكان ولده إيزاك، فأخبره أنه في غرفة العمليات والأطباء يجرون عليه جراحة عاجلة لعله يُشفى، تهلل وجهه لما سمعه فولده مازال على قيد الحياة، رفع يده إلى السماء متبتلاً إلى الرب شاكرًا له على جزيل عطائه ونعمه.

انتظر طويلاً أمام غرفة العمليات حتى خرج إليه الأطباء يُلملمون أزيال الخيبة، ونظرات الحزن تعلو الوجوه ليُخبروه بأنهم فعلوا كل ما استطاعوا ليعيش لكنها في النهاية إرادة الرب.

سقط الأب لوثر على المقعد الموجود أمام باب الغرفة، وهو يبكي بحرقه لما أصاب ولده العزيز الذي لم يُقدر له الإله العمر الطويل، مات إيزاك صغيراً صدمته سيارة مسرعة أودت بحياته وهو في مقتبل العمر، نهض من مقعده لرؤية ابنه لأخر مرة، فوجده مستلقياً على فراشه لا حول له ولا قوة.

تحول من كائن حي ينبض بالحيوية إلى جثة هامدة، لقد زحف عليه الموت والسكون، وانطفأ بريق عينيه.

نظر الأب لوثر إلى جثمان ولده ولسان حاله يقول من هذا؟ رغم أن الوجه أمامه يؤكد له رغم كل شيء أنه هو إيزاك ولده فلذة كبده، لكن الموت قد أسدل عليه أشعته، ورحلت روحه إلى السماء.

صرخ بصوت جهور سمعه الجميع: آه... انهض يا إيزاك... انهض يا ولدي لن أتركك للرب

وأخذ يمز الجسد هذا قويا شديدا على أمل أن يستفيق، حضر الجميع بعدما سمعوا صراخ الأب لوثر وهم ينظرون إليه في دهشة وحزن، فنظر إليهم الأب لوثر وقال لهم: إنه نائم فحسب، وسيستيقظ ثانية

وأمسك بتلابيب جسد ولده، ويقول وهو مازال يهزه: هيا يا إيزاك كفاك نوما.... استنام باقي العمر؟

انهمرت الدموع من أعين الجميع، وحاول بعضهم أن يُهدئوا الأب لوثر، واصطحبوه في النهاية إلى الخارج حتى يتم تجهيز الجسد الميت وتحضيره للدفن.

خرج الأب لوثر هائما على وجهه من المستشفى لا يعلم أين يذهب؟. في حين انتهى الجميع من تحضير الجثمان، ووقفوا أمام نعش المتوفي في الكنيسة ينظرون يمنة ويسرة في انتظار قدوم الأب لوثر حتى يتلوا عليه الصلوات، غاب الأب عن القداس، وبحث الجميع عنه في كل مكان لكنهم لم يعثروا عليه، انتظروا طويلا حتى سأموا الانتظار، واقتراح أحدهم أن يقوموا بدفن الجسد بأنفسهم فذلك إكرام للميت، لكن أحدا آخر قد اعترض قائلا: لا بد للأب لوثر أن يلقي عليه نظرة الوداع الأخيرة فهو ولده.

في النهاية وبعد طول انتظار أخبرهم أحد الشباب الذين حضروا إلى الكنيسة متأخرا أنه شاهد الأب لوثر جالسا على التل المقابل للنهر، انطلق الجميع إلى المكان المحدد فإذا به شارد الذهن باكيا، كان الجميع يشاهد من بعيد ولم يشأ أحد أن يقطع عليه خلوته حتى سمعوه يتحدث بصوت عال قائلا: أين أنت يا ميلاد؟، لم يتبق لي سواك، فحتى الرب قد تخلى عني

تدخل أحد الحضور واقترب منه، وربت على كتفيه في حنان، وطلب منه الجميع الحضور، ونزل على إرادة الجميع وانطلق إلى الجثمان لكي يُهيل عليه الثرى.

مرت الأيام عليه صعبة بعد وفاة إيزاك، آهاته الطويلة لم تنقطع يوما، وأاناته الحزينة يتردد صداها داخل داره وتنتشر في أنحاء البلدة. ودموعه الحارة تنسكب أثناء الليل وأطراف النهار. أغلق على نفسه داره ولم يعد يذهب إلى كنيسته، حتى قلق الناس عليه، فراحوا يتفقدوا أحواله، ولمَّا رأوه قد ذبل عوده ووهنت صحته، أدركوا أنه لم يبق طعاما منذ وفاة ولده إيزاك.

قدموا إليه الطعام وأجبروه على تناوله حتى يشتد صلبه مرة أخرى، بعد أن شحبت ملامحه، وبرزت العظام من وجهه، وقد بدا عليه أنه أوغل في السن، حاول الناس أن يتصلوا بميلاد ابنه الأكبر حتى يُخبروه بالفاجعة التي ألمت بوالده، فهو الآن يعيش وحيدا لا صاحب له ولا ولد ولا أنيس ولا زوجة بعد أن ماتت زوجته وهي تلد إيزاك.

بحثوا كثيرا عن ميلاد لكنهم فشلوا في النهاية فلم يعثروا له على طريق، صرخ الأب لوثر ثائبة وهو يقول: أين أنت يا ميلاد؟... أين أنت يا ميلاد؟

فقال له أحد الحضور: ألا تعلم مكانه لنُحضره إليك؟

- لقد تركني ورحل

- إلى أين؟

- لا أعلم لقد هرب مني

همس الجميع وهم يقولون: ما العمل إذن؟

نظروا إلى الأب لوثر وقالوا له: لا بد لك أن تستعيد حياتك مرة أخرى،
وعليك أن تتقبل ابتلاء الرب

صرخ الأب لوثر في وجوه الجميع وقال: لا أريد أحدا منكم أن يأتي بسيرته
مرة ثانية... أعلمتم؟!

- أتكفر بالرب أيها الأب الكريم

- اتركوني الآن لحالي وارحلوا.

غضب الجميع منه لكنهم عذروه لضيق صدره، وحزنه الشديد على موت
إيزاك، خرج بعدها من منزله ليلتقط بعض نسمات الهواء، انطلق إلى الربة
التي أحب الجلوس عليها مؤخرا أمام النهر، كان يمشي وهو يحدث نفسه قائلا:
لا يُجدر بالأب أن يدفن ابنه.... لا يجدر بالأب أن يدفن ابنه

دخلت منيرفا قاعة المحاضرات وحيث الطلاب، فبادرها آدم قائلا: لقد زُرنا
مركز الفنون التجريدية

ردت عليه منيرفا قائلة: هذا رائع جدا

قاطعها آدم قائلا: لكننا لم نفهم شيئا

- هذا طبيعي جدا

ردت روزقائلة: لكني حاولت أن أشرح لهم مغزى اللوحات

ضحك آدم وضياء ضحكة مستترة، فسكتت على إثرها روزعن الكلام

قالت منيرفا: لو أراد الفنان تفسير أعماله لقالها بالكلمات.

قال ضياء: في محاضرة سابقة تحدثنا عن الفن المزيف، فهل يدخل هذا
الفن ضمنه.

منيرفا: يقولون أن هذا الفن لا يستطيع أن يكون فنا للجميع، لأن العامة
جهلة لا يستطيعون فهم فهم، وأن هذا يحدث مع كل جديد في الفن، وربما

يعتاد الناس عليه فيما بعد، اعتقد أنهم متكبرون متعجرفون يقولون إنه عندما تُصبح الناس كلها مثقفة مثلهم سيتسنى لهم الفهم

قال ضياء: لكنهم يعملون على جعل الناس تعتاد على تلك الأعمال

- بالضبط وذلك بعد إفساد أذواقهم.

بعد انتهاء المحاضرة ومغادرة الجميع إلى المقصف لتناول المشروبات، اجتمع الطلاب مرة ثانية لمناقشة موضوع الأديان وقد تطرق بهم الحديث إلى الحديث عن إثبات وجود الإله كما طلبت روز، جاءت منيرفا متأخرة بعض الوقت عندما ذهبت للحصول على فنجان من القهوة، وكان الجميع في انتظارها حتى أتت فجلس الطلاب.

بدأت روز بالحديث موجهة حديثها إلى ضياء قائلة: في لحظة من لحظات الماضي الغابر نشأ الكون ثم دبّت الحياة في المادة غير الحية عن طريق الصدفة، ثم أصبحت تلك المادة كأننا حيا بسيطا، وتطور ليتأقلم مع البيئة المحيطة به، ومع مرور ملايين السنوات امتلك هذا الكائن وعيا، واكتسب القدرة على التفكير

قال ضياء: هل يُعقل أن يكون هذا التنظيم الدقيق المذهل في الكون مجرد صدفة عشوائية، وإن كان هذا الكون نشأ عن طريق سلسلة من المصادفات العشوائية، فكيف اجتمعت كل تلك المصادفات كي تأتي لنا بهذا الكون العظيم؟

كان حديث ضياء ينم عن علمه بأشياء لا حصر لها على عكس روز التي تهربت كثيرا من الإجابة على أسئلته الشائكة، دارت مناقشة حامية الوطيس بينهما حتى سأمت روز من عدم مشاركة الطلاب في المناقشة فنظرت إلى الجميع حولها قائلة: ما لي لا أراكم تشاركونا الحوار.... هل سنتحدث أنا وضياء طوال الوقت؟

رد عليها سام قائلا: بل ضياء وحده

نظرت منيرفا إلى ضياء وقالت له: من أين لك بكل تلك المعرفة؟ ولا تُحدثني عن قراءاتك الكثيرة

قال ضياء: سأعترف لكم بالحقيقة إن والدي فيلسوف، وهو الذي علمني هذا منذ صغري، كما أنه السبب في شغفي بالإطلاع والمعرفة

قال سام: أحقا والدك فيلسوف؟

- نعم... والكل يعرفه على الرغم من أنني لم أذكره يوما

قال آدم: ومَن هو؟

أجابه ضياء: إنه راجح فياض

أصابته الدهشة الجميع لما سمعوا الاسم وعلت الصدمة الوجوه وقالت منيرفا: أنت ابن راجح فياض؟

قال: نعم

قالت منيرفا: هذا الشبل من ذاك الأسد، لقد أعجبت به كثيرا وبفلسفته ومحاضراته، إنه رجل عظيم

قالت روز: هل من الممكن أن تطلب منه أن يحضر إلى هنا، ويلقي علينا محاضرة في الكلية لنستقي من علمه الغزير

- سأخبره بذلك

منيرفا: وأنا سأطلب الإذن من إدارة الكلية بتنظيم ندوة هنا

تساءل ضياء: لكن ما هو موضوع الندوة كي أخبره؟

- سنتفق فيما بعد

بعد المقال الأول الذي نشره نضال تواليت المقالات المرفق معها صور من ملفات الفساد التي كانت في حوزة نضال، كانت الملفات تحوي صوراً لقوانين خرجت من تحت عباءة المجلس الوطني، والتي تخدم رجال الأعمال وتسمح لهم عن طريق تلك القوانين الممتلئة بالثغرات بإلقاء مخلفات السفن للشركات البتروكيماوية القاطنة بجانب الميناء الشرقي في النهر، بالإضافة إلى تقارير من وكالات بيئية متنوعة تحمل نتائج تحاليل عينات من مياه النهر والهواء في الجو المحيط بميناء السفن.

تلك المنطقة التي كانت تستخدمها الشركات والسفن لحسابها الخاص دونما اعتبار للسكان القاطنين فيها، كانت القضية ذات معلومات مفصلة عن تورط رجل الأعمال الأشهر في البلاد صفوان الأدهم صاحب أكبر الشركات

البيروكيماوية ليس في البلدة فحسب بل في العالم أجمع، فشركة الطاقة العالمية التي يملكها كانت الواجهة الرئيسية في هذه القضية، وجلال الديب لم يكن سوى واسطة فحسب لمرور هذه القوانين.

انتشرت قضية فساد رجل السياسة المخضرم جلال الديب على صفحات جريدة عصور الظلام بعد أن نشر نضال ملفات القضية على الملأ، احتلت الصفحات الأولى وزاد توزيع الجريدة بصورة غير مسبوقة، لكن جلال الديب لم يهدأ ولم يستسلم، وقام برفع قضايا سب وقذف على الجريدة المذكورة.

بعد تلك الضجة التي أثارها نضال في المياه الراكدة، زادت حدة المنافسة الانتخابية بعد ظهور تلك المستندات، فكل مرشح كان يتحين الفرصة حتى ينقض على منافسه في شراسة لم تعهدها البلاد من قبل.

توالى بعدها الكثير من الفضائح، وأعمال الفساد التي انتشرت في البلاد كانتشار النار في الهشيم، لم يتورط في هذه القضايا رجل الأعمال، ورجل السياسة فقط، بل طال رجال كُثر في الحكومة، حتى أصبح الشك هو العملة المتداولة في البلاد، وبدأ الناس يُشككون في حكومتهم، وقادتهم ورجال السياسة ورجال المال، وفي ظل صمت النظام الحاكم، والفساد الذي استشري، ساد الإحباط في تلك الفترة كما تراجع الانتماء خاصة بعد دخول البلاد في حرب لا قرار لها، لقد سقطت المبادئ والقيم بعد سقوط الأفعنة من على وجوه رجال السياسة والمال، وأدرك الناس أن هناك شيئا يحدث في الأنحاء، وأن الأوضاع ليست على ما يرام.

شعر المواطن بأنه يعيش في وسط غابة من الوحوش الضارية التي يأكل بعضها البعض، بعد علمهم بأن الحكومة، والرئيس، ونواب الشعب الجميع متواطئ في قضايا الفساد، وفي الحروب، وفي الأحوال الاقتصادية التي بدأت تتدنى إلى أقصى درجاتها.

انقضت الأيام سريعا بعد نشر تلك الفضائح وانتهت تلك الزوبعة بعد أن أعلنت الشرطة القبض على رجل الأعمال، وحكمت المحكمة عليه بالسجن، ومصادرة أمواله لتورطه في قضية التسرب، كما برئت المحكمة النائب جلال الديب من الادعاءات التي انتشرت حوله لعدم صحة المستندات التي قدمها نضال لهيئة المحكمة، وتم الحكم على نضال في قضية السب والقذف التي

رفعها جلال ضده بالتعويض، وغرمته المحكمة الأموال الطائلة التي لم يستطع دفعها.

اضطر إلى بيع مبناه السكني لدفع التعويض لجلال الديب، كما حكمت أيضا بإغلاق جريدة عصور الظلام التي كانت السبب في نشر الشائعات التي كادت أن تُدخل البلاد في نفق مظلم، وتثير الفوضى، وهكذا عادت الحياة إلى طبيعتها، وهذأت بالتالي سورة الناس، كما عادت المنافسة بين المرشحين لانتخابات المجلس الوطني.

أصبح نضال الصحفي بجريدة عصور الظلام عاطلا عن العمل بعد إغلاق جريدته الغراء، واضطراره لبيع مبناه السكني ليدفع الغرامة التي فُرضت عليه.

تقابل نضال مستور مع رئيس تحرير الجريدة في مقهى قريب من مبنى الجريدة فبادره بالقول: قلت لك مسبقا أنك تلعب مع الكبار، فلم أجد منك أذانا صاغية، رأيت العاقبة؟

لا يوجد جريدة، ولا يوجد عمل، وقاموا كذلك بإغلاق جميع الأبواب في وجوهنا

- القضية ليست سهلة، وعلينا أن نحارب للنهاية، لقد خسرنا معركة لكن الحرب مازالت مشتعلة

- أية حرب... أنتوي أن تُكمل هذا الذي بدأته، مَن يسير وراءك سيُسجن بكل تأكيد

- سنستمر، ولا بد لنا الآن أن نفكر فيما سوف نفعله، فأنا لا استسلم

- وأنا خارج اللعبة، فالتلعب أنت معهم بمفردك

- أهذا قرارك؟

- نعم

- لم أعهدك جباناً من قبل

- لم يعد في العمر بقية، وصحتي لا تتحمل السجن الآن يا صديقي

- إذن سأكمل بمفردك

- ليصبحك الإله في طريقك هذا، أما أنا فسأبتعد لفترة، وأحاول أن أعيش في هدوء.

افترق الاثنان، وراح نضال يتفكر فيما سوف يفعله فهو لم يتصور أن الأمور من الممكن أن تؤول إلى ما آلت إليه، لم يتخيل قط أن الوضع سيصل به إلى إغلاق جريدته، سار هائما على وجهه وهو يفكر في تلك المحنة التي عصفت به، لا يعرف كيف سيتصرف الآن بعد أن أودت به تلك النازلة، واضطرته إلى بيع ميناه السكيني.

كان الغضب والضيق يجثم على صدره، لديه رغبة شديدة في الصراخ أو البكاء لكنّ مثله لا يبكي، ويحب أن يبدو دائما بمظهر القوي المناضل الذي لا يستسلم، لكن بداخل صدره شيء يريد أن يُخرجه حتى يشعر بالراحة، وقد بحث كثيرا عن هذا الشيء إلى أن توقف فجأة، وبدون أن يفكر اتخذ قرارا بالذهاب إلى قصر جلال الديب.

هرع إلى هناك وما أن وصل حتى طرق الباب ففتحت له الخادمة، سألها عن جلال الديب فقالت له: هل هناك موعد؟

قال: لا... لقد سألت عنه وعرفت أنه في القصر الآن

- انتظر سأخبره، ولكن ماذا أقول له؟

- نضال مستور... هو يعرفني جيدا

دخلت الخادمة على جلال الديب في مكتبه، وأخبرته بأن الصحفي نضال يريد مقابلته، وعندما ذكرت الاسم على مسامعه صاحبت الدهشة ملامحه، وهمس محدثا نفسه: وماذا يريد ذلك الوغد بعد الذي فعله؟

قال لها أن تسمح له بالدخول وتُحضر له القهوة حتى يأتي إليه، بعد لحظات اصططحبته الخادمة إلى غرفة الاستقبال وراح يتفحص اللوحات الباهظة الأثمان المعلقة على حوائط القصر، والأثاث الفخم الذي يكسو القصر

همس نضال محدثا نفسه: من أين لك كل هذا يا جلال؟

وبعد فترة أتى جلال الديب في كامل أناقته، ببذلته الرمادية الباهظة الثمن، وكرشه المتدلي منه، يمشي متأنيا في خطوات الواثق بنفسه، كان جلال يشبه

إناس الطبقة البرجوازية القديمة، كما إنه متحدثا لبقا يستطيع أن يلبس ثوب الحمل في أي وقت يشاء، ويلبس ثوب الذئب في الوقت الآخر.

بادره قائلا: ما الذي أتى بك إلى هنا أيها المخادع؟

- أتيت لأخبرك أن الحرب لم تنته بعد

- أما زلت متكبرا مغرورا؟

قال نضال وقد أحمرت وجنتاه: سأعلم الناس كلها بالحقيقة كاملة

رد عليه جلال وهو مازال محتفظا بهدوئه: الحقيقة لن يعرفها أمثالك

- مَنْ يحصل على جزء منها يحصل عليها كاملة، وسأفضحك على مسامع الجميع

- لن تجد جريدة تسمح لك بهذا

- إذن لقد اشتريت ذممهم جميعا

- البلد كلها في جيبي يا سيدي

- سأحدث للناس في الشوارع وجها لوجه، أنا لا أياس ولا استسلم

- سيكون مصيرك السجن قريبا

- فليكن، فكله يهون من أجل أن يعرف الناس ذلك الوجه القبيح، ليعرف الناس هذا الثعلب المتخفي في ثوب الحمل

انتاب جلال الغضب من حديث نضال فقال له وقد علا صوته: أتهزأ بي في بيتي، سألقي بك خارجا أيها الوقح

ابتسم نضال ابتسامة صفراء وقال له: لن أنتظر حتى تُسلط على كلابك

وقف غاضبا وهو ينظر إليه حين خروجه فاستوقفه جلال بعد أن هدأت حدته وقال له في سخرية صاحبها ضحكة عالية: عندما ترقص مع الشيطان فانتظر حتى تنتهي الأغنية، هل تفهم ما أعنيه؟

لم يجبه نضال وتركه مغادرا القصر، وقام بإغلاق الباب وراءه بشدة، وعند خروجه اصطدم بآدم، فوكزه بشدة وانصرف دون أن ينظر إليه.

نظر آدم إلى الرجل الغاضب وهو صامت، وحاول أن يستوقفه لكن نضال لم يعره اهتماما ومضى في طريقه، دخل آدم القصر فإذا بخاله قد أصابه ما

أصاب ذلك الرجل، فسأله عن السبب، وما السر وراء هذا الغضب فأخبره بأن هذا الرجل الذي خرج أنفا واتهمه ظلما وعدوانا، إنه الصحفي الكاذب الذي يرمي التهم في وجوه الناس وجلس معه يقص عليه ما حدث، وأوضح له أبعاد القضية التي رفعها ضده، وكيف أن القضاء العادل في البلاد حكم لصالحه وقد جاءه الآن إلى قصره يهدده، استمع آدم جيدا إلى حديث خاله واستأذنه بعدها بالانصراف.

حضر الجميع أول موعظة ليوم الأحد بعد موت إيزاك الابن الأصغر للقس لوثر، وقف القس أمام الحضور، لكنه لم يتلو الصلوات في البداية كعادته، كان الصمت يخيم على الجميع في انتظار ما سيقوله الأب لوثر، بدأ حديثه قائلا: يؤسفني أن أبلغكم جميعا اليوم أن الرب لا يكثر بنا

ساد الضجيج وانتشرت الهمسات بين الجميع، نظر إليهم الأب لوثر واستطرد: أرجوكم اصمتوا لتسمعون لي لعلها تكون المرة الأخيرة التي ألقاكم فيها

رد عليه شخص يجلس في آخر الصفوف قائلا له: لا تجعل موت إيزاك يجعلك تخرج عن عقلك، وتكفر بالرب

قال لوثر: لقد فكرت كثيرا ليس فقط بعد موت إيزاك، ولكن من قبلها أيضا، كانت تتملكني الحيرة بشأن عقيدة التثليث، لكني كنت أقول لنفسي أن الرياضيات في وقت ما من الممكن أن تحل هذه المعضلة..... نحن أبناء الرب أليس كذلك؟

رد عليه الجميع: نعم

- فلم يعذبنا هكذا، تساءلت دائما لما يُعذب الرب أبناءه، ويقذف بهم في خضم المصاعب والعقبات، ويبتليهم بفقدان الأحباب، أنا لا أكفر بالرب، أنا أعلم جيدا أنه موجود، لكني أدركت الآن أنه لا يكثر بنا، وقبل أن أنني حديثي في هذا اللقاء الأخير، فبعد أن تستمعوا إليّ، ويعرف رجال الكنيسة الكبار ما قلته، لن يُبقوا على هنا وسيتم إعفائي بعدها.

أما الآن فالجميع قد اعترف لي من قبل، وأتى اليوم الذي اعترف لكم فيه بخطيئتي الكبرى

عادت الهمسات بين الجموع مرة أخرى يتساءلون عما سيقوله. وحين شرع في حديثه مرة أخرى ساد الصمت أرجاء المكان

فقال الأب لوثر: لقد عاش الجميع خدعة عظيمة، فالمعجزات التي رآها الجميع يوم العيد من الهالات النورانية البيضاء والأضواء لم تكن في الواقع معجزات

علت الدهشة الوجوه وسأله أحدهم: كيف؟

صاح رجل: أجئت اليوم تُشككنا في ديننا؟

رد عليه الأب لوثر قائلاً: أعتقد أن كل منا يشك في شيء، لكنه لا يجرؤ أن يبوّح بشكوكه على مسامع الناس أليس كذلك؟

وأشار بإصبعه نحو أحد الأشخاص الجالسين أمامه وقال: هذا يشك في وجود الإله

وأشار إلى الآخر قائلاً: وهذا يشك في وجود ملكوت الرب

ونظر لآخر وقال: وهذا يرتكب الخطايا الكبيرة، وهذا يشك في الكتاب المقدس وهذا وهذا وهذا، يا أيها الناس كلنا خطاؤون، وكلنا شكاكون..... تلك هي الحقيقة التي يعرفها الجميع لكن ليس لديهم الشجاعة الكافية للاعتراف بها طأطأ الجميع رءوسهم ناظرين إلى الأرض وقال أحدهم: لكن ما موضوع المعجزات لقد أثرت فضولنا؟

قال لهم: انهضوا جميعاً واتبعوني إلى الداخل

تبعه الجميع في رهبة، ودخلوا معه غرفة داخل الكنيسة فقال لهم: انظروا إلى هذه الماكينة، إنها المعجزة

قال أحدهم متعجباً: إنه مولد كهربائي

- بالتأكيد هو كذلك، لكنها ليست كهرباء كالتى تعرفونها، إنها كهرباء ساكنة، هذا النوع من الكهرباء لا يؤدي على الإطلاق، هذا الجهاز هو ما صنع تلك الهالات التي رأيتموها من قبل، إنها مثل الهالات التي ظهرت على رؤوس القديسين فيما مضى من الزمن، وما تعتبرونها معجزة ليست إلا ظاهرة طبيعية تحدث كلما تهيأت الظروف الجوية لذلك، ويمكن تكرار هذه الأمور وإظهارها في أي مكان بهذا الجهاز الذي أمامكم.

كان الجميع يستمع في دهشة ذلك الحديث الذي لم يتطرق إلى أسماعهم من قبل، تدخل أحدهم في غضب وقال: ولماذا تفعل بنا ذلك؟

- رأينا الناس قد بدأت في ترك الدين، والكفر بالرب.... فاقترح القساوسة هذا الموضوع متعللين بأنها خدمة عظيمة للرب، وأنا في البداية رأيت أنها تضليل للناس، لكن رغبتى كانت شديدة في عودة الناس إلى إيمانهم.

بدأ الجميع يتهامون مع بعضهم البعض وقال أحدهم: لقد ازداد إيماننا حقا بعد رؤية تلك المعجزات، أما الآن.....

قاطعهم رجل طاعن في السن: أما الآن فقد ازداد عدد الملحدين أضعافا ي سادة.

خرج الجميع وهم يضربون الأكف من الدهشة والخداع والكذب والتضليل الذي مارسه رجال الكنيسة عليهم لفترة طويلة، نظر الأب لوثر إلى الكنيسة الفارغة بعد مغادرة الجميع. وألقى على تمثال الرب يسوع نظرة الوداع الأخيرة، وأطرق للحظات ثم غادرها هو الآخر.

راح يسير في طرقات المدينة عائدا إلى منزله، وخلع عنه ثياب الكهنوت، وارتدى قميصا وبنتالا، ثم انطلق إلى الصخرة الموجودة على حافة النهر، التي كان ميلاد وأصدقائه يجلسون عليها، نظر ناحية صفحة النهر وهو شارد الذهن فلاح له وجه إيزاك فاستبشر وتهللت أساريره.

حاول أن يتحدث معه فقال له إيزاك: لم يكن يجدر بك أن تكذب يا أبتي رد عليه لوثر قائلا: لم يكن أمامي سبيل آخر حتى أجذب الناس إلى عبادة الرب

- الرب لا يحتاج إلى معونتك من شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر

- قلت لهم ذلك، ولم يستمعوا لي

- من؟

- القساوسة، أين أنت الآن يا ولدي؟

- في ملكوت الرب

- أفي نعيم أم جحيم؟

- لم تأت ساعة الحساب بعد

- هل هناك حساب؟

- لا أعلم

- أهنالك نعيم وجحيم؟

- لا أعلم

- أهنالك حياة بعد الموت؟

- لا أعلم

وبدأت صورته تتلاشى شيئا فشيئا حتى اختفت، وشعر الأب لوثربيد تربت على كتفه فنظر خلفه فأصابته صدمة شديدة امتزجت فيها مشاعر فرحه الشديد مع مشاعر الحزن التي كانت تعتريه.

في مساء ليلة مقمرة انطلقت السيارة بسرعة إلى أقصى مكان في العاصمة حيث الغابات كثيفة الأشجار، وفي مكان خال من البشر والهدوء يعم المكان، كان الجو خاليا تماما من أي صوت سوى نقيق الضفادع الذي يقطع سكون المكان، توقفت السيارة ونزل منها جلال الديب، وتوقف بجانبها وأشعل سيجاره الثمين، وبدأ ينفث دخانه في الهواء الطلق.

كان على ما يبدو أنه ينتظر أحدا ما، وملامح القلق تكسو وجهه، وبدأ وكأن الرعب يملكه حتى حضرت سيارة أخرى، توقفت بجانبه وترجل منها رجل بهي الطلعة، وهو يرفل بحلته البيضاء الأنيقة، لا يمكن لأحد أن يُخطئ في تمييز صورته بشعره الأبيض وشاربه الكث، كان يتمتع بقدرة عظيمة على الحديث والتواصل مع الناس أحبه جميع من عرفه لظرفه وحكمته بالإضافة إلى تمتعه بروح تهكمية ساخرة وحتى قاسية أحيانا.

وقف منتصباً أمام جلال الديب فبادره جلال بالسؤال: أأنت في السجن؟

أجابه بابتسامة ساخرة: كيف يا رجل تقول هذا؟ أمثالي لا يطئون عتبة السجن

- كيف ذلك وقد انتشر الخبر في وسائل الإعلام، والجميع رأى صورتك وأنت مكبل بالأغلال، ومصحوبا إلى السجن

- إنها لعبة، منذ متى وأنت سياسي؟

- منذ زمن طويل، ولقد لعبت ألعابا كثيرة من قبل، لكن هذه لا يقبلها عقلي

- الإعلام ملك لنا

- إنك إذن لم تدخل السجن مطلقا؟

- بعض الناس يعبد المنصب والجاه، وبعضهم يعبد السلطة، وآخرون يعبدون الإله، وهم يتنازعون ويختلفون فيما بينهم ولا يمكن أن يتحدوا حول هذه المثل المعبودة، لكنهم جميعا على اختلاف بينهم يُقيمون وزنا للمال في حياتهم

- عندك حق في هذا، وبمناسبة الحديث عن المال، لقد علمت أنهم صادروا أموالك جميعها

ضحك بسخرية وقال: وأين هي أموالي يا رجل؟..... أنا لا اترك أموالي في أي بلد أعمل بها، إنها محفوظة ومصونة في بنوك الخارج

- وماذا ستفعل الآن؟

- سأسافر لبعض الوقت إلى الخارج حتى تهدأ الأمور وسأعود مجددا

- وبالنسبة لتمويل حملتي الانتخابية؟

- هذا ما جئتك بشأنه..... لقد تركت لك في حسابك البنكي الكثير من الأموال لتعود إلى المجلس مرة أخرى، فأنا سوف احتاجك بشدة في الفترة القادمة

- وكيف سأصل بك؟

- أنا مَنْ سيفعل.. هيا بنا.

خلف أشجار الغابة الملتفة حول بعضها البعض كان يراقب اللقاء بعين ثاقبة الصحفي نضال، لم يلحظه أحد وعلم حينها أن صفوان الأدهم لم يدخل السجن وذلك بالنسبة له خبر الموسم، هرع إلى صحيفة القرون الوسطى وأخبرهم بما لديه من معلومات جديدة حول الفساد الذي وصل إلى جهاز الشرطة الذي قد اشتراه صفوان الأدهم بأمواله، لكن الجريدة رفضت أن تستمع إليه فهي من أكثر جرائد البلد محاباة للحكومة، ورجال الأعمال كما أن ممولها هو صفوان الأدهم.

اضطرت الظروف إلى طرق أبواب الصحف الأخرى الصغيرة، لكنه أدرك أن بعضاً منهم قد باع ذمته بالأموال، وآخرين يخشون الإغلاق إذا تحدثوا عن مثل هذه المسائل، ضاقت به السبل بما رحبت ولم يجد أمامه إلا أن يطرق باب التلفزيون فله الكثير من معارفه هناك.

قرر الذهاب إلى مبنى التلفزيون الوطني، وحياء العاملين هناك من إعلاميين ومخرجين ومعدّين، وتحدث مع أحد معارفه عن تلك المسألة، وتلك الحرب الدائرة بينه وبين الفساد السياسي الذي استشرى في البلاد، لكن التلفزيون الوطني قد قابله بمثل ما قُوبل به من قبل مع الصحف المختلفة.

لم يجد أمامه إلا أحراب باب وهو أن يذهب إلى المعارضة المتمثلة في تلفزيون الواقع، وهي قناة تلفزيونية معارضة ترصد كل فساد اجتماعي وأخلاقي، لكنها لم تتعرض من قبل إلى مناقشة قضية فساد سياسي كبيرة كهذه، تحدث مع الإدارة عن برنامج يعرض فيه قضايا الفساد تلك، وأخبرهم أنه سيُدعم موقفه بالتأكيد بالمستندات الضرورية حتى يكون موقف القناة سليماً من الناحية القانونية، قابلت إدارة القناة اقتراحه بالترحيب بشرط حصوله في البداية على المستندات الضرورية لذلك، تهلل فرحاً من موافقة القناة على ذلك وقد استغلت قناة الواقع اسمه الشهير وخبر إغلاق الجريدة في زيادة عدد المشاهدين لديها.

انتقل نضال إلى وزارة الداخلية حتى يتقصى الحقائق حول سجن رجل الأعمال، قابله المسئول في الوزارة وتحدث معه عن الشفافية والنزاهة التي تتسم بها الوزارة، كما أخبره أن صفوان الأدهم يُمكث في السجن منذ القبض عليه حتى الآن لكن الزيارة ممنوعة، غضب غضباً شديداً وقد ساورته الشكوك حول حديث هذا المسئول فطلب مقابلة الوزير.

تم تحديد موعد مع الوزير بعد الإصرار الشديد الذي ظهر عليه، مرت أيام ثلاثة حتى تقابل مع الوزير، وأخبره الوزير بمثل الحديث الذي سمعه من قبل من المسئول، ولما شعر الوزير بنية نضال في كشف هذه القضية حضر له تصريح بزيارة السجن، وذهب بالفعل إلى مبنى السجن، دخل الغرفة المخصصة لانتظار حضور السجناء للمقابلة.

نظر ناحية الباب فلمح على البعد رجل الأعمال صفوان الأدهم يقترب بخطى ثابتة ناحيته، وجلس على المقعد المقابل له وبادره بالسؤال: ماذا تريد مني يا رجل بعد كل ما فعلته بي؟

- لم أفعل شيئا سوى كشف فسادك

قال بسخرية: كلنا فاسدون يا سيدي

- كيف أنت في السجن، وقد رأيتك بأم عيني في الخارج

قال مستغربا: في الخارج؟! أين يا رجل؟ أنا لم أخطو خطوة واحدة خارج السجن منذ القبض عليّ

- لقد رأيتك عند الغابة على أطراف العاصمة

قال له بسخرية: عليك تغيير نظارتك التي ترتديها حتى ترى جيدا

استشاط غضبا، وازدادت الحيرة عليه وتوقف عقله عن التفكير للحظات حتى أتى الضابط المسئول عن السجن واصطحبه للخارج معلنا انتهاء الزيارة.

خرج نضال يجر أزيال الخيبة لا يعلم ماذا يحدث؟ وكيف حدث كل هذا؟ يكاد عقله أن يختبل، كان يُحدث نفسه في الطريق قائلا: أياكون عقلي قد أصيب؟. أياكون شخص غيره هو مَنْ رأيتَه؟، لكن عيناى لم تخطئه، كما أن صفوان الأدهم من الناس ذوات الوجوه التي لا تُنسى، ولا يمكن لعين أن تُضله.

عاد إلى تليفزيون الواقع بخفي حنين لا يمتلك أية مستندات أو معلومات تثبت خروج صفوان الأدهم من السجن، بادره رئيس القناة عندما علم أنه لم يتسن له الحصول على أي أوراق فقال له: إذن لن نستطيع أن نتحدث بشأن هذا الموضوع

- وماذا سنفعل إذن؟

- لدي وظيفة لك

- وما هي؟

- هناك برنامج جديد يقدمه الإعلامي اللامع بهاء مظهر ستعمل في إعداد البرنامج معه

- لا مانع لدي

- إذن سن عقد اتفاقا بيننا

- أي اتفاق؟

- لابد أن تتماشى مع سياسة القناة تماما

- وما هي سياسة القناة؟

- ستعرف بمفردك

كانت اليد التي ربتت على كتف الأب لوثر هي يد ولده الكبير ميلاد، حاول أن ينهض من مكانه فلم يستطع فأخذ ميلاد بيده وأقامه، احتضنه الأب بشدة، ودموعه تسيل أنهارا على خديه، لكنه لم ينطق بكلمة واحدة بدأ يقبل وجنتيه كثيرا ويعتصره في أحضانه وقال له: أأنت ميلاد؟

أجابه ميلاد: أنا ولدك يا أبتاه

- أين كنت يا ولدي؟ لقد انتابني القلق عليك حتى أصابني اليأس من عودتك إلي

- أنا هنا الآن لكن أنت من طردني

- إيزاك مات يا ولدي، أخوك الطيب قد مات

وسالت الدموع مجددا حينما قالها بحرقة، وبكى ميلاد بدوره هو الآخر لما رأى دموع والده وقال له: قد علمت، ولولا ذلك ما أتيت

- لم يتبق لي أحد غيرك يا ولدي..... أرجوك لا ترحل مجددا وأبق معي

- قلت لك لم أكن لأرحل لولا طردك لي

- كنت مخطئا فلقد كنت أعمي لم أر النور، وقد كنت أحسبك فقدت إيمانك بالرب، وأصبحت ملحدا

- لم أكن لألحد، ولكن أفعالك هي ما شككتني في ديني

- إذن عدت لرشدك

- أو من جيدا بالإله لكنه ليس إلهك

- علمت مؤخرا أن الإله لا يكثر لأحد

- طوال هذه السنوات الطوال تعلمت الكثير، لكني لم أحمل لك ضغينة

أبدا على الرغم من شعوري بالكذب والخداع والنفاق، فأنا مازلت أحبك يا أبي

- أرجوك لا ترحل ثانية، فأنا في أشد الحاجة إليك

- لن أرحل سأنتظر معك لفترة، ثم أعود لدراستي مرة أخرى
نظر إليه الأب لوثر في حب وشوق وقال له: ولدي لقد افتقدك كثيرا، هيا بنا
لنذهب إلى المنزل لتناول الطعام ثم نعود لنتجول أنا وأنت في الأنحاء

- أليس لديك عمل في الكنيسة؟

- لقد تركت الكنيسة

- لماذا؟

- الموضوع يطول شرحه سأخبرك لاحقا

الفن هو القوة العظيمة التي تستطيع أن تخلق عالما بأكمله ليس له وجود،
إنه القبضة الشديدة التي توجه إلى العدم ضربة قاضية.....

كانت هذه آخر كلمات البروفيسور منيرفا في آخر محاضرة لها، التي ألقته
على مسامع الطلاب في قاعة المحاضرات، استطردت منيرفا قائلة: أما الآن
فأشكر الجميع على سعة صدره، لقد استمتعت فعلا بهذه الجولة الرائعة
معكم

قال ضياء: أهذه آخر أيامنا هنا؟

- نعم هي كذلك

- وماذا بشأن موضوع الندوة؟

- هل قمت بتحديد موعد لها مع والدك؟

- نعم لكن في بداية العام الدراسي الجديد

- إنه موعد مناسب جدا

قالت روز موجهه حديثها إلى منيرفا: هذا العام من أفضل الأعوام التي مرت
عليّ في حياتي لقد تعلمت الكثير وأدركت الكثير والفضل كله يعود إليك، لذا
لقد أعددت لك أبياتا من الشعر، فالتسمحي لي أن ألقمها عليكِ

- تفضلي

قال آدم بسخرية: لعلها تكون قصيدة سريالية تجريدية

قال ضياء: مثل لوحاتها

ردت روزقائلة: إنها بالفعل كذلك

نهزتهم منيرفا باسمه وقالت: فليصمت الجميع ولنستمع لها

أخرجت روز من جعبتها ورقة ثم شرعت تقرأ ما فيها:

"عندما خرج سمعت صرير الباب، ولكن....

عندما دخل ثانية سمعت المصباح، ولكن....

عندما خرج ثانية، كانت هناك واحدة أخرى

رأيت الموت سمعت روحه.....

جاء ليقول، أنه خائف

جاء ليقول، إنه يستعد للسفر

مع مصباحي المشتعل، أنا كذلك خائفة

عند أول باب ارتعش اللهب

عند الباب الثاني أنا خائفة

عند الباب الثاني راح اللهب يتحدث

عند الباب الثالث أنا خائفة

عند الباب الثالث انطفأ النور

ولو أنه عاد ذات يوم ماذا أقول له؟

قولي له بأنهم انتظروه حتى ماتوا من الانتظار

وإذا رغب أن يعرف لما كان اليهو فارغا، أريه المصباح المنطفئ، والباب

المفتوح

وإذا سألك قولي له بأني كنت أبتسم خوفا عليه من البكاء."

ثم طوت الورقة التي في يديها، ونظرت إلى الجميع فقام الطلاب جميعهم

بالتصفيق لها، أما آدم وضياء فقد كانوا على وشك الانفجار من الضحك

والابتسامة كانت تعلو وجه منيرفا قائلة: أحسنت يا روز، وأشكرك على لفتتك

الجميلة هذه

قال ضياء بسخرية: لدي سؤال إذا سمحتي لي يا روز

- تفضل

- مَن الذي خرج؟ ومَن الذي جاء؟ ومَن الذي يتحدث؟ ومَن الذي مات؟

قالت روز: ليس الأشخاص ذو أهمية، ولكن الأهم هو الشعور

قال آدم: على الرغم من أنني لم أفهم كلمة واحدة مما قلتيه، إلا أن التعبير الأخير هو الذي أعجبنى حقا

ضياء: وما هو ذلك التعبير الذي تقصده؟

- كنت ابتسم خوفا عليه من البكاء

قال ضياء ساخرا: لقد أعجبتك لأنه الشيء الوحيد المفهوم في هذه التي

تُسمى قصيدة

ردت عليه روز: على كل حال أشكرك

رد مبتسما: على الراحب والسعة

تدخلت منيرفا موجهة حديثها إلى ضياء وقالت: عليك ألا تكون قاسي القلب

رد عليها ضياء: لكن هذا ليس من الشعر في شيء

منيرفا: مجاملة بسيطة لن تكلفك شيئا

نظر ضياء إلى روز وقال لها: رائعة هذه القصيدة يا روز

ومد يده أمامه وقام بالتصفيق لها

نظرت روز إلى منيرفا وقالت: لا تهتمي به فهو دوما كذلك لا يحب الفن

السريالي ولا يعترف به

ثم استطردت بابتسامة: أنا لا أعرف لماذا مازلت محتفظة به كصديق.

انقضت آخر المحاضرات في العام الدراسي، وخرج الجميع فرحين مستعدين لاستقبال الإجازة، تحدثت والدة آدم معه عبر الهاتف لتسأله عن موعد عودته إلى المدينة، فأخبرها أنه سيعود خلال الأيام القليلة المقبلة، لكنها لم تشأ أن تُعلمه بحضور ميلاد، وما حدث من أحداث أرقت مضاجع كل مَن في المدينة لأيام طويلة، من موت إيزاك وتخلي الأب لوثر عن إيمانه حتى لا يعتريه القلق،

وفضّلت أن تحدّثه بما حدث حالما يصل إلى هناك، أنهت معه الأم الاتصال وعاد آدم إلى قصر خاله ليعدّ عدته للرحيل.

في صباح اليوم التالي استقل آدم القطار المتوجه إلى مدينته الزوراء، تلك المدينة المحببة إلى قلبه لينعم فيها بالراحة والسكينة والهدوء ويستمتع بإجازته، ظل يمني نفسه بلقاء الأحبة والأصدقاء لساعات طوال، وصل القطار إلى محطته الأخيرة، تلك المحطة التي طالما وقف فيها آدم ينتظر فيها القطار بشوق شديد سواء في ذهابه لدراسة معشوقه الفن أو العودة إلى أحضان بلده الغالية.

كان يقضي وقته وهو ينظر في وجوه المسافرين، فيرى في ملامح الناس ما يعبر عما يجول بداخل النفوس، فيرى الحزن في وجه فارق أحبابه وأرضه التي عاش فيها، ويرى الوجه الفرح السعيد لانطلاقه إلى حلم ظل يحلم به طويلا وهو ذاهب إلى تحقيقه، ورأى الغاضب واللامبالي بالحياة، والكثير والكثير من تلك الوجوه التي تحمل في ثناياها حكايات وقصص عن بشر لم يعرفهم قط في حياته.

كان ذا مخيلة واسعة، وكانت هذه هوايته يشرد بذهنه بعيدا، ويحاول نسج خيوط قصة لذلك الوجه الحزين أو ذلك الوجه الضاحك، وتمر الساعات وهو يعيش في ثنايا تلك القصص حتى يصل القطار، ويستقل بعدها السيارة التي نقله إلى منزله.

وصل إلى المنزل فوجد الأم في انتظاره في شوق للقائه، ركض نحوها واحتضنها بشدة ثم اندلعا إلى القصر، وكان أول حديثه عن ميلاد وجايكوب، فتساءل إذا كان هناك أية خطابات أو رسائل أخرى فأخبرته الأم أن عليه أن يستريح أولا من عناء السفر ثم بعد ذلك ستُعلمه بكل شيء، رفض في بداية الأمر لأنه كان يشعر أن والدته تُخفي عنه شيئا ما، فلم يستطع صبرا وكيف يصبر على ما لم يُحط به علما، لكنه مع إصرارها نزل على إرادتها، وخذل إلى الراحة.

في صباح اليوم التالي وأثناء تناوله لإفطاره مع والدته فاجأته الأم بقولها: لقد مات إيزاك

وقع الخبر عليه وقع الصدمة في نفسه، وترك الطعام من يده وقال لها: إيزاك؟! متى؟

- منذ شهر تقريبا

- ولماذا لم تُخبريني بهذا على الهاتف؟

- لم أشأ أن أقلقك

نهض من مقعده مسرعا يركض نحو الباب لكي يذهب لتقديم واجب العزاء،
لكن والدته استوقفته قائلة له: انتظر... إلى أين أنت ذاهب؟

رد عليها قائلا: إلى الكنيسة بالطبع لتقديم العزاء إلى الأب لوثر

- لن تجده هناك

- إنه لم يترك الكنيسة أبدا

ثم نظر في عين والدته وقال لها: أشعر بأنك تُخبئين شيئا

قالت له: لم يعد الأب لوثر كاهنا

- ما كل هذه الصدمات... بالله عليك فلتشرحي لي ماذا حدث؟

- اجلس واهداً وسوف أشرح لك كل شيء..

عاد إلى جلسته مرة أخرى وأنشأت الأم في سرد القصة عليه من البداية،
وحيثما علم أن ميلاد موجود بالمدينة خرج من منزله وركض في شوارع المدينة
إلى أن وصل إلى منزله، طرق الباب لكنه لم يجد مُجيباً فعلم على الفور أنه
سوف يجده في مكانهم على الصخرة أعلى التل المطل على النهر.

وصل إلى هناك فلمح ظلاً لشخص يجلس على التل أمام النهر، فأدرك إنه
ميلاد يجلس في مكانهم المحبوب تسارعت دقات قلبه وهو يخطو حثيثاً نحو
الشخص الجالس على التل، ولما اقترب أكثر زادت ضربات قلبه أكثر حتى كاد أن
يخرج من بين أضلاعه فهو لم يره منذ ثلاث سنوات، وحيثما سمع ذلك
الشخص الجالس وقع خطوات تقترب منه نظر خلفه، فإذا هو ذلك الوجه
الذي طالما قضى معه أجمل سنوات حياته، إنه بالفعل ميلاد لكن ملامحه قد
تغيرت قليلاً، تقدم للأمام ووقف ميلاد على الصخرة وقال له آدم: لقد مر الكثير
يا صديقي

ابتسم ميلاد وقال: لقد افتقدتك كثيراً

وهرول الاثنان كل منهما ناحية الآخر، وطال العناق ثم جلسا على الصخرة

فقال له آدم: ما أجمل اللقاء كثيراً بعد طول الفراق

رد عليه ميلاد قائلاً: كنت افتقدك بشدة. كما افتقد أيامنا السابقة التي كانت تمر بنا سريعاً ولا نشعر بها. وافتقد كذلك جايكوب الذي لا أعلم عنه شيئاً حتى الآن

- لعلك بخير

- أنا بخير حال يا صديقي

- أشعر بالأسف الشديد على ما أصابك، فلم أعلم بشأن حادثة أخيك إلا اليوم

- لا تأسف على شيء فأنا أعرفك جيداً لم تتأخر مطلقاً عن أداء الواجب

- ماذا عنك؟ وهل ما سمعته عن الأب لوثر صحيح أم إنها شائعات؟

- إنها حقيقة وليست شائعة. أنا كذلك قد تغيرت حياتي بصورة كبيرة بعد أحداث كثيرة قد عايشتها في السنوات الفائتة

- احكي لي عن كل شيء فأنا في شوق بالغ لسماع حكاياتك

- لا تتسرع فمزال لدينا الكثير من الوقت، لقد علمت من والدي أنك تقضي الإجازة كلها في المدينة، أليس كذلك؟

- نعم أحاول أن أعوض غيابي الطويل عن والدي، فهي تعيش وحدها بعد أن توفي والدي، ولولا عملها لأصابها الجنون

- لما وصلت البلدة كان أول ما فعلت أن ذهبت للسؤال عنك وعن والدتك. ذهبت إليها كثيراً لأسألها عما إذا كانت في حاجة إلى شيء، فألقي طلباتها، لكنها دوماً لا تطلب مني شيئاً. وتفضل أن تجلس معي لأنني كما تقول أذكرها بسيادتك

- الآن هيا فلتسرع في قول ما حدث لك

- ولما العجلة؟

- لا أستطيع الانتظار

شرع ميلاد في القول: بداية قصتي تعرفها جيداً..... لكن هناك أشياء في البدايات لا بد لك أن تعرفها

- كلي أذان صاغية

- تعلم أن أبي كان يصطحبني معه دائما إلى الكنيسة، وقد كانت عاطفتي الدينية قوية، وكنت ألوم نفسي بأنني لا أحب الرب محبة خالصة، كانت مخاوفي عن جهنم تُرعبني بشدة، وهذا ما لم تعرفه عني من قبل لقد احتفظت بمخاوفي تلك لنفسي، وفي نهاية السنة الأخيرة من دراستنا العليا بدأت أشعر بأزمة دينية على إثر الأسئلة التي كنا نتناقش فيها عن الموت والوجود، تتذكر هذا..... أليس كذلك؟

- نعم أتذكر.... وكنت دائما تحاول الهروب من هذه الأسئلة، أليس كذلك؟

- كنت أفعل ذلك حتى لا يتسرب الشك إلى داخلي، لكن هذه الأسئلة دوما ما كانت تدور في عقلي، أسئلة كمعنى الحياة وهدف وجودنا وحياتنا بعد الموت إن كان هناك حياة، حتى زال الشك من داخلي لما رأيت معجزات إلهنا المسيح متمثلة في الهالات النورانية التي كانت توجد يوم العيد على قبة الكنيسة، بعدها قررت دراسة اللاهوت في الكلية دراسة وافية، لكن ما حدث هناك لم يكن في الحسبان

- وماذا حدث؟

- حاول أحد الرهبان المعلمين في الكلية أن يلقي علينا دروسا فيما كان يُسميه فلسفة الدين، حينها عاد الشك من جديد يطرق أبوابي، فإذا بإيماني يتزعزع، وبدأت نفسي ينتابها الكثير من الهم والقلق، فحاولت أن استرد إيماني مرة أخرى فعمدت إلى الكتب الدينية أقرأها بشغف، ومازلت أرميها واحدا بعد الآخر يائسا حتى عرفت أنه لا سبيل إلى استرجاع الإيمان الضائع

قاطعته آدم: انتظر هنا... قلت لك بالتفصيل... أنت تُسرّع في القص، قل لي ماذا وجدت في فلسفة الدين هذه؟ وما الذي زعزع إيمانك؟

- استمع أولا إلى مجمل القصة ثم بعد ذلك نتحدث في التفاصيل

- لا مانع لدي... أكمل

- كانت قراءتي يومئذ قد بلغت حدا عظيما، كما كنت لا أعرف مصيري، ولا الملح طريقا، فكانت تلك السنة أشقى سنوات حياتي فلا فرح ولا أمل حتى أنني هزلت وضعفت قوتي، وشبت قبل الشباب، فكان إذا جاء المساء أضع رأسي على وسادتي لأنام وأتمنى ألا أفيق أبدا، بل فكرت في الانتحار ذات مرة، كنت على

هذا الحال حتى انتهت السنة الأولى من دراستي، وما زاد الأمر سوءاً هو انتشار شائعة عن مدير الكلية الراهب

- شائعة؟! -

- كنا نظنها كذلك في البداية لكن تأكد لنا الأمر بعد أن تم فصله من منصبه

- لكن ما هي هذه الشائعة؟

- كانت هناك شائعة عن علاقة جنسية بينه وبين إحدى العاملات في الكلية، انتشرت الشائعة سريعاً كعادة الشائعات، ولم نك نصدق هذا الأمر في البداية لكن في النهاية ثبت الأمر، وقلت لنفسني كنت أعيش طوال حياتي خائفاً من شبح جهنم، وكنت أمتنع عن ارتكاب الخطايا، ويأتي هذا الأب ويضرب بكل ذلك عرض الحائط ولا يخشى شيئاً

- وماذا فعلت بعد ذلك؟

- كنت أشعر بالضيق يخيم على صدري، فقررت الخروج لأتنسم بعض نسيمات الهواء خارج الكلية، وفي مساء تلك الليلة، وأثناء تجوالي وجدت مهرجاناً كبيراً، أعتقد كان يُقيم مرشح كبير للانتخابات وكان الحضور مجاناً، فدخلت لكي أشاهد ما في هذا المهرجان؟ ثم وجدت هناك الكثير من الناس المحتشدين ينظرون في اهتمام إلى شخص يقوم بألعاب سحرية على خشبة المسرح، توقفت لأشاهد معهم فإذا بذلك الشخص يقوم بعمل هالة نورانية حول جسده، كانت مثل تلك الهالة التي شاهدها يوم العيد على جسد والدي.

ازداد انتباهي لمعرفة الخدعة في هذا العمل السحري العجيب، لكنني لم أكتشف شيئاً وأنا على ذلك البعد، فانتظرت حتى انتهى المهرجان، وذهبت إلى ذلك الشخص الساحر، وعندما نظرت إليه شعرت بأني قد رأيته من قبل لكنني لا أتذكر جيداً أين؟

سألته عن هذه الخدعة، وكيف قام بفعلها لكنه رفض لأن هذا من أسرار مهنته التي لا يُطلع عليها أحد، رجوته كثيراً، وقدمت له جميع الأموال التي كنت أملكها، لكنه أبى كذلك، ولما أصابني اليأس أخبرته أن معرفة سر هذه الخدعة يتوقف عليها حياة شخص ما.

أثار هذا الحديث اهتمامه وقال لي كيف ذلك؟ فبدأت أشرح له القصة من بدايتها حتى انتهى بي الحال ذات يوم إلى الأقدام على الانتحار وفي النهاية أخبرني بها

كان آدم حينها شديد الانتباه لمعرفة كيف فعل هذه الخدعة التي طالما أرقته هو الآخر

فسأله آدم: وما هو سر هذه الخدعة؟

- قال لي أنها خدعة علمية تقوم على أساس ما يسمى بالكهرباء الساكنة، وإنما تقوم بنشر هالة ضوئية حول الشخص عن طريق جهاز يقوم بإنتاج هذا النوع من الكهرباء، وقد كان هذا الجهاز مخفيا تحت سطح المسرح ويتحكم به أحد العاملين معه

قال آدم مبتسما: أهكذا إذن.... خدعة علمية!

- بالضبط وهذا ما جعلني أُغير طريقي، وأنحو منحني آخر في حياتي، لقد أبديت حينها اهتماما كبيرا بالعلم، وشعرت بإعجاب متزايد بقدرة العلم على تفسير الكثير من الأشياء.

- وبعد ذلك؟

- عدت إلى البلدة وتحدثت مع والدي حول أمر المعجزات، واعترف لي بأن هذا هو ما فعله في يوم العيد، فأصابني صدمة شديدة، وشعرت حينها أنني كنت أعيش في خدعة كبرى، وأن والدي كان رجلا خادعا كذابا، لكنه أقنعني بعد ذلك إنه لم يفعل ذلك سوى لعودة الناس إلى الإيمان، وقررت أن أدرس العلوم ونهزني أبي كثيرا وازدادت المشكلات بيننا حتى ظن أنني تخلت عن إيماني، فاستشاط غضبا وحاول أن يُثنييني عن طريقي، وعندما فشل قام بطردي من المنزل.

قررت وقتها أن اعتمد على نفسي، فكنت أعمل بالليل كنادل في مقهى من مقاهي العاصمة، وفي النهار أدرس في كلية العلوم، ومازلت على هذا الوضع حتى علمت بوفاة أخي إيزاك، فعدت ثانية إلى هنا، وقد وجدت الأحوال قد تبدلت، والأمور مع والدي تغيرت، وتغيرت حياته كذلك، وأصر على أن أقيم معه طوال الإجازة، وعادت الأمور إلى طبيعتها

- وماذا بعد؟

- هذه كل الحكاية

- لكنني لم أعرف كل شيء بعد

- وماذا تريد أن تعرف؟

- أَلن تتحدث معي بشأن موضوع فلسفة الدين؟

- ليس الآن فلابد لي من العودة إلى المنزل، لكي أقوم بإحضار طعام الغداء لوالدي

عاد الصديقان في اليوم التالي إلى الربوة مكانهما المفضل أعلى التل على ضفة النهر ليكملا حديثهما، بدأ آدم بالسؤال عن جايكوب، والذي لم يسمع عنه شيئاً منذ سنوات، أخبره ميلاد أنه كذلك لا يعرف عنه شيئاً ثم قال آدم: هل ساعدتك دراسة العلوم وأجابت على الأسئلة التي شغلت عقلك؟

أجابه ميلاد: قضيت أياماً طويلة في التفكير والتأمل، وشعرت بسعادة غامرة لدى معرفتي إن للعلم قدرة مذهلة على تفسير الأشياء مذهلة حقاً....

في السنة التالية بدأت أبحث في موضوعات أصل الكون، وطبيعة الزمان، وقوانين الفيزياء، أعتقد أن هذه الدراسة ساعدتني في فهم الكون الذي نعيش فيه نوعاً ما

سأله آدم: لكن هل كل شيء يقوله العلم صحيح؟

- إذا كان عن تجربة علمية صحيحة، وليست مجرد نظريات لا نستطيع إثباتها

- وكيف ذلك؟

- من خلال دراساتي في كلية العلوم، ومصاحبتي للأساتذة العلماء الذين يقومون بالتدريس لنا، اكتشفت أحياناً علماء مرموقين يؤيدون نظريات مريبة بعد مرور فترة طويلة على دحضها، وفي أحيان أخرى يقوم العلماء بالغش، لكن هذه الحالات مجرد انحرافات، لكنني أخيراً أدركت أنه من المحال أن يصل البشر لقاع كل شيء، ويبدو أن هناك دائماً سر عند نهاية الكون

- أي سر؟!

- إنني أميل إلى الإيمان بأن الكون ليس مجرد حادثة لا غاية لها، لقد صُنِع بطريقة مذهلة، وأرى أن هناك تفسيراً عميقاً وراءه

- وما هو التفسير العميق هذا؟

- لا أعلم صراحة، لكن وجود العقل والإدراك الواعي للعالم ليس شيئا لا معنى له

- حديثك ممتع ولكن هل...

قاطعته ميلاد: كفاك أسئلة عن العلم والعلماء، ألسنا في إجازة يا صديقي

- أتحب الحديث عن شيء آخر؟

- ماذا عن آخر أعمالك الفنية العظيمة؟

ضحك آدم وقال له: إننا في إجازة يا صديقي

ابتسم ميلاد وقال له: حسنا... أين كليتك؟

- في العاصمة

- أنا أدرس في العاصمة كذلك

- لكن كيف لي طوال هذه الفترة الطويلة التي كنت فيها بجانبك، ولم أصادفك حتى ولو مرة واحدة من المرات

- لم أكن أخرج كثيرا من منزلي، كما أن العاصمة كبيرة جدا

- آه.... لقد كدت أنسى

- ماذا؟

- أريد مقابلة الأب لوثر لتقديم واجب العزاء، فأنا لم أراه منذ أن أتيت

- لم يعد الأب لوثر يا صديقي، عليك أن تدعوه بالعم لوثر

- حسنا.... أين العم لوثر الآن؟

- إنك محظوظ هو في المنزل اليوم ولم يذهب إلى عمله

- وأين يعمل الآن؟

- يعمل عازف بيانو في الفرقة الموسيقية بدار الأوبرا

قال له آدم متعجبا: موسيقى؟! يا للعجب بعد الدين يتجه إلى الموسيقى

قال ميلاد مازحا: كلها روحانيات يا عزيزي

- إذن هيا بنا لنقابله.

ذهب الصديقان في اتجاه المنزل وهم يشاهدون في صمت المباني الرائعة التي بناها والد آدم وقاطع صمتهم ميلاد وهو يقول لأدم: لم يتبق الكثير على الوصول للمنزل فهل لنا أن نتسابق كما الأيام الماضية؟

وقبل أن يتم كلمته ركض الاثنان حتى وصلا إلى باب المنزل، وضحكا كثيرا حتى تعبوا وجلسا على أرضية حديقة المنزل العشبية، سمع الأب لوثر أصواتهم فانطلق مسرعا ليفتح لهما الباب، كان ينظر إليهما وهو يبتسم وقال لهما: لم ينقصكما إلا جايكوب

رد عليه ميلاد: لعله يعود يوما ما

نهض آدم وقام بتحية الأب لوثر، وقدم له العزاء، فعرض عليه الأب لوثر أن يتناول الغداء لكن آدم رفض دعوته لأن والدته لا تأكل بدونه، ولا يجب أن تأكل بمفردها ما دام هو في البلدة

قال لوثر ضاحكا: لكنك بالتأكيد سوف تندم

رد عليه آدم: ولماذا؟

- لأنني من صنعت الطعام بيدي

قال آدم ضاحكا: جيد إنك أخبرتي بهذه الحقيقة

رد ميلاد ساخرا: لماذا فعلت ذلك يا أبي؟... إخبارك له بالحقيقة سيجعله يُصر على رأيه في الرحيل....

وصمت قليلا ثم أكمل حديثه: وأنا معه بالتأكيد

ضحك الجميع على تلك المزحة. وعانق ميلاد أباه واستأذنهم آدم بالرحيل.

بعد مرور عدة أيام قام ميلاد بدعوة آدم إلى تناول الغداء معه، وأحاطه علما بأن تلك هي رغبة أبيه، وافق آدم على الدعوة، وفي اليوم المحدد ذهب إلى منزل الأب لوثر، وقبل أن يطرق الباب اشتتم رائحة الطعام تنتشر في المكان، كانت رائحة اللحم المشوي طازجة شبيهة مما جعل لعابه يسيل جوعا، أ طرق الباب ودخل ليجلس على مقعده على المائدة، ثم وجد الأب لوثر يحمل الأطباق الفارغة ليضعها على المائدة.

نهض من مقعده سريعا واتجه إلى المطبخ حتى يساعد ميلاد وأباه في إحضار الطعام، ولما عاد الجميع جلسوا حول المائدة لبدأ الجميع في الأكل، لم تكن

تلك هي المرة الأولى التي يتناول فيها آدم الطعام مع الأب لوثر، لكنها المرة الأولى التي لاحظ فيها أن الأب لوثر لم يتلوا الصلوات.

سأله آدم: لماذا لم تتلو الصلوات كعادتك يا أبتى؟

أجابه: لم يعد لها لزوما، كما أنني أريد أن أطلب منك معروفا

- على الرحب والسعة يا أبتى

- هذا هو المعروف لا تناديني يا أبتى مرة أخرى فلم يعد لها لزوما هي الأخرى

- حسنا كما تشاء يا....

وتلعثم في النطق فقد كاد أن ينطقها ثانية ولكنه استدرك وقال: يا عمي

فضحكوا جميعا وبدأوا في تناول الطعام، وبعد لحظات من تناول آدم لشرائح اللحم

قال موجها حديثه إلى لوثر: لم أكن أعلم بأنك طاه عظيم

قال ميلاد: طاه عظيم كأب عظيم

قال لوثر: أشكرك على هذه المجاملة يا آدم

عاد الجميع لاستكمال الطعام حتى انتهوا منه، وأحضروا مشروباتهم، ثم جلسوا على الأريكة

بادر آدم بسؤال الأب لوثر: ولماذا الموسيقى يا عمي؟

قال لوثر: أوقد علمت؟

- لقد أخبرني ميلاد

- حسنا، الموسيقى هي لغة النفوس، وهذه الألحان تسري في النفس كسريان الدم في العروق تشعر بها وكأنها نسمات رقيقة فتهتز لها أوتار مشاعرك... إنها عزائي الوحيد، وهي التي تُخرجني من عالم الواقع الميرير إلى عالم الخيال والأحلام، فحينما أعزف أشعر أن الأيام التي مضت في ذلك الزمان الغابر تأتيني في الخيال كصفحات من كتاب، فيها ساعات من الفرح والحزن والأسى والبهجة.

وتهض من مقعده، وقام بتشغيل أسطوانة موسيقية لأحد كبار الموسيقيين، ثم عاد وجلس مرة ثانية مكانه وقال: استمع إلى هذه الأنغام الموسيقية

العظيمة، تلك الموسيقى وإن كانت محزنة فستملئ جوارحك لوعة، وإن وجدت لها مفرحة فسوف يرقص قلبك فرحا وطربا، الموسيقى عنوان السعادة، إنها الروح يا ولدي عندما تحب وتعشق، عندما تحزن وتبكي، عندما تغني وتبتهج، اعترف لك بأنه لولا الموسيقى ما استطعت أن أتصالح مع نفسي

- لقد عبرت تعبيرا دقيقا بكلمات عن جمال الموسيقى

- أأنت فنانا يا آدم؟

- لم أصل لهذه الدرجة العظيمة بعد

- لكنني قد رأيت لوحاتك

- وهل أعجبتك؟

- إنها رائعة تفوح منها رائحة موهبة عظيمة تسمو بالروح حتى الخلود

- هذه مجاملة عظيمة

ابتسم لوثر وقال: بل هي حقيقة... سأحضر لكما دعوتين لحضور حفل موسيقي في دار الأوبرا لاحقا

- هذا كثير علينا يا فنان.... ما رأيك بهذا المسمى؟

- إنه أفضل بالتأكيد

أمام دار الأوبرا توقف الصديقان، قدما الدعوات إلى عامل الاستقبال الذي سمح لهما بالدخول، اتخذ الصديقان مقاعدهما في أول الصفوف، وامتألت الدار عن آخرها، نظر آدم حوله فرأى تلك الحشود التي اجتمعت، وقد أصابه العجب من ذلك، فعلى الرغم من أنها دار أوبرا صغيرة في مدينة صغيرة إلا أن الناس يركضون وراء الجمال في كل شيء.

بدأ الحفل وانطفأت جميع الأنوار إلا إضاءة المسرح فقط، دخل المايسترو بعصاه الرقيقة وحيا الحضور، ثم أشار بعصاه ناحية الفرقة فانطلق العزف، وصمتت الألسنة وحل الصمت، والناس يتابعون حركات الأصابع على الأوتار، وينظرون إلى حركات المايسترو المدهشة وهو يوجه عصاه إلى كل فرد فينبض الوتر بالحياة، ويعود حنين العود إلى مواضع الذكريات، وضرب لوثر على البيانو ضربا جعله يُرسل أصواته الندية على مسامع الجميع.

كان الكل يُنصت إلى تلك الألحان الشجية. وكان آدم شديد الانسجام يتمايل مع أصوات الألحان الموسيقية، وفي رأسه يبحث عن صورة يرسمها ليُعبّر بها عما يسمعه. استمتعاه بالفن لم يعد تجربة حسية بل هي تجربة خيالية فهو لم يصادف مجرد أصوات مهما يكن حظها من اللطف، لكنه الآن يُجرب كل حالات الرؤية والحركة. فهو يشعر بالبحر والسماء والنجوم وبسقوط قطرات المطر وهدير الرياح والعواصف وأنسياب الغدير والرقص والعناق.

كان آدم سارحا بالخيال في عوالم الأحلام والخيال عند سماعه للموسيقى حتى أفاق من خيالاته فجأة حالما انتهى الحفل وتوقفت الفرقة عن إرسال النسمات الموسيقية. شعر بالتصفيق الحاد من الحضور لروعة ما سمعوه فنهض من مقعده وقام بالتصفيق بشدة لهذا العمل الرائع، وخرج الجميع من الدار يمتلئون نشوة وسعادة، والبهجة تعلو الوجوه. انتظر آدم وميلاد خروج الأب لوثر من الباب الخلفي حتى يعود معهم إلى المنزل، وعندما رأى لوثر وجه آدم سأله: ما رأيك يا فنان؟

قال آدم: الكلام لا يستطيع وصف ما شعرت به، وهذه ليست مجاملة، لكنها الحقيقة. فأحيانا الكلام يعجز عن التعبير، وكل ما شعرت به هو...

ورفع يديه عالية وصفق بهم بشدة لمدة طويلة حتى أمسك ميلاد بيديه وأنزلهما قائلا له: كفاك تصفيقا

نظر آدم إلى الأب لوثر وقال: هذا ما أرغب في قوله، ولكن لم تسعفني الكلمات

قال لوثر: أكل هذا من أجل حفل موسيقي؟

أجابه آدم: بل من أجل الجمال.

انتهت الإجازة، كانت أفضل الإجازات التي مرت على آدم وميلاد منذ أن تركا دراستهما العليا، فلم يشعرا بمرور الوقت، مضت الأيام سريعا كعادة الأيام الجميلة تنقضي أمدها بسرعة، وتلك كانت من اللحظات السعيدة في هذه الحياة، فالحظات الجميلة نادرة، لكن كل شيء له بداية لا بد له من نهاية.

قبل الرحيل اجتمع آدم مع ميلاد على التل وتبادلا الأحاديث وتسامرا حتى صباح اليوم الذي سيغادر فيه آدم بالقطار إلى العاصمة، وقد اتفقا على اللقاء

هناك، وتبادلا أرقام هاتفيهما وعنوانيهما في العاصمة على أمل في لقاء قريب يجمع شملهما مرة أخرى.

قرر آدم أن يسافر أولا بعدما فشلت جميع المحاولات في سفرهما معا، فميلاد يريد الانتظار بصحبة والده لأطول فترة ممكنة حتى وإن تغيب عن محاضرة أو أكثر، لكن آدم خاف أن يفوته أيًا من محاضراته، قام بالسلام على والدته وتركها مغادرا المدينة إلى العاصمة واستقل القطار ورحل.

في اليوم الذي وصل فيه آدم إلى قصر خاله في العاصمة وجد احتفالا كبيرا بحديقة القصر، كان المدعوون من كبار رجال الدولة من سياسيين، ووزراء، ورجال أعمال يحتفلون بفوز جلال الديب في الانتخابات البرلمانية، وهكذا أمسى جلال الديب عضوا في المجلس الوطني بالإضافة إلى كونه عمدة العاصمة كما تنص على ذلك قوانين الدولة، ومن المعروف أن هذا المنصب السياسي يعتبر من أعلى المناصب العليا في البلاد.

كان الجميع قد حضر هذا المساء لتناول الطعام والشراب والاحتفال بالعمدة الجديد حينما وصل آدم إلى القصر، دخل القصر وشاهد خاله على البعد فذهب إليه ليُلقي عليه التحية، كانت ملابسه لا تتناسب إطلاقا مع هذا المقام مما جعل خاله يطلب منه الذهاب إلى غرفته ليرتدي حلتة الأنيقة، ويعود لحضور الحفل والتعرف على الشخصيات الهامة المتواجدة به.

نزل آدم على إرادة خاله، وذهب إلى غرفته لتبديل ملابسه، كان يسير ببطء فهو لا يشعر براحة أبدا وسط هذا الزخم، ولا يحب الأجواء الرسمية التي تتمتع بها هذه الاحتفالات، استبدل آدم ملابسه ولكن ليس بحلة أنيقة كما طلب منه الخال، ولكنه استبدلها بملابس النوم واستلقى على مخدعه حتى غلبه النوم.

عندما شعر خاله بطول غيابه طلب من أحد خدامه أن يتفقدده، ويأتي به إلى هنا، هروا الخادم إلى غرفة آدم وأطرق على الباب الكثير من الطرقات حتى أيقظه من نومه وأخبره أن خاله يريد في الحفل، لم يستطع حينها العودة إلى سباته مرة أخرى، فاضطر لتغيير ملابسه وانطلق إلى الحفل الصاخب.

وقف بجانب خاله وهو ضجر فأمسك خاله بيده واصطحبه في جولة لتعريفه بشخصيات الحفل فتارة يقول له هذا هو الوزير فلان، فيُسلم آدم عليه، وهذا هو رجل الأعمال فلان، وهذا رئيس حزب كذا، وهذا، وهذا..... حتى

سأم آدم من السلام على هؤلاء القوم الذين كان يتخيلهم وكأنهم أفراد عصابة فكان يضحك بداخله من تخيلاته هذه. لكنه حاول كثيرا أن يكتنم ضحكاته بداخله حتى لا تظهر على وجهه فينفضح أمره ويظهر بمظهر غير لائق يُشين خاله أمام حشوده العظيمة هذه.

مر الوقت بطيئا حتى حان موعد الطعام فألقى نظرة ناحية المائدة الضخمة الموضوعة في منتصف حديقة القصر، والتي تحوي ما لذ وطاب من أشهى الأطعمة ذات الأنواع الكثيرة جدا، تعجب من كميات الطعام العظيمة الموجودة فوقها فهي لا تتناسب بأي حال من الأحوال مع هذا العدد القليل من الحضور، تناول الطعام مع الحاضرين، وبعد الانتهاء انزوى إلى ركن بعيد عن الأعين، وجلس يتفرس وجوه الناس ويمارس هوايته المفضلة.

لمحه خاله يجلس بعيدا منفردا فأتى إليه مصطحبا معه رجلا يبدو من هيئته وثيابه إنه ليس من هؤلاء القوم، نظر إليه آدم وهو يتفحصه بعناية فوجده كثيف الشعر المنسدل على جبينه، ويرتدي حلة رسمية أيضا، لكنها ليست رسمية بصورة كاملة فهو لا يرتدي رابطة عنق، وقميصه مفتوح إلى منتصفه، كما تدلت على صدره سلاسل ذهبية اخفت فتحة القميص.

نهض من مقعده حينما اقترب منه خاله فبادره خاله وهو يشير إلى الشخص الذي معه قائلا: هذا بيكاسو.... الفنان العظيم

رد عليه آدم قائلا بابتسامة: لكن بيكاسو قد مات منذ زمن طويل

ابتسم خاله وقال له: ذلك هو الاسم الذي يشتهر به في الوسط الفني، إنه فنان رائع له الكثير من المعارض وهو أحد كبار فناني العصر الحالي

قال آدم وهو يمد يده إليه ليصافحه: أهلا ومرحبا بك

رد عليه بيكاسو قائلا: لقد أخبرني خالك بموهبتك العظيمة، وهذا ما جعلني أتي إلى هنا لأتعرف على فنان المستقبل

قال آدم: أقدر لك هذا... ولعلنا نلتقي قريبا في محراب الفن الذي يجمعنا حتى استفيد من خبراتك الكبيرة

- أنا سوف أقيم معرضا قريبا جدا في العاصمة، وستصلك دعوة مني للحضور، كما إنني أدعوك لزيارة مرسمي الخاص

- سوف أحضر بالتأكيد

- لقد تشرفت بمعرفتك يا آدم، وأنتظر زيارتك قريبا، وها هو عنوان قاعة الرسم، وعنوان المعرض أيضا

وأعطى آدم بطاقته فنظر فيها مليا ثم دسها في جيبه وهو يقول: وأنا أيضا قد تشرفت جدا بمعرفة فنان كبير مثلك

انتهى الحفل وقام جلال الديب بتوديع الجميع وعاد إلى قصره فقال له آدم: مبروك نجاحك في الانتخابات

قال له: أليست متأخرة بعض الشيء

- لم أك أعرف، فأنا لا أقرأ الصحف، ولا أشاهد التلفاز

- ألم تُعلمك والدتك بهذا؟ لقد كانت هي أول المهنيين، وأردت منها حضور الحفل لكنها رفضت لأن لديها التزامات كثيرة في عملها منعتها من الحضور

- لم تقل لي شيئا... لعلها نسيت، وعلى كل حال أقدم لك اعتذاري وأسفي الشديد

- لا عليك فلتخلد الآن إلى الراحة، فأنا أعلم أنه قد مر عليك يوما صعبا

أنقضت الانتخابات الوطنية في البلاد، وتم الإعلان عن فوز السياسي جلال الديب بعضوية المجلس الوطني، وفي الأيام التي تلت الانتخابات، انتشرت أقاويل كثيرة عن حذف مواطنين من سجلات التصويت.

أحضر ساعي البريد للصحفي نضال طردا كبيرا وتركه وانصرف، لم يعلم مَنْ المرسل، فض الظرف وأخرج ما فيه فوجد قرصا مدمجا مُشفرا، حاول فتحه بعد أن أدخله في حاسبه لكنه لم يستطع فك الشفرة.

تحدث عبر الهاتف مع صديق له يعمل في هندسة الحاسبات، فأتي إليه مسرعا وقام بفك شفرات القرص له، وما أن حل شفرته حتى وجده يحتوي على قاعدة بيانات ضخمة ويكشف عن معلومات خطيرة بشأن جريان الانتخابات، وكيف أن جلال الديب لم يُنتخب أصلا بواسطة المصوتين.

وجد فيها بعد أن أنعم النظر في الملفات أن هناك مواطنين من العاصمة قد تم محوهم من سجلات الناخبين، كانوا حوالي ما يقرب من خمسين ألف

صوت، وقد قاموا بتسمية هؤلاء الممنوعين من التصويت مجرمين، ولا يملكون الحق في التصويت.

لم يعر نضال هذا الأمر أدنى اهتمام فلعلهم مجرمين لا يحق لهم التصويت بالفعل، لكن ما جعله يشك في الأمر وقوع عينيه على أسماء عدة أشخاص في هذه التقارير يعرفهم جيدا بحكم عمله كصحفي، وقد كان من ضمن هذه الأسماء شخصيات في حزب "الحرية" المعارض.

بدأ ينبش في هذا الموضوع، وعاد ليتفحص القائمة جيدا حتى تأكد أن القائمة لا تحتوي مجرما واحدا من حزب "الديمقراطية" الذي يترأسه جلال الديب، فقام على الفور بطباعة هذا التقرير، وانطلق به إلى حزب الحرية وطلب منهم بيانا بأسماء الأعضاء، وعندما عاد بالبيان كانت الصدمة التي أطاحت به، فلقد وجد أن معظم مَن كان في هذه القائمة والتي تدعي أنهم مجرمون هم أعضاء في حزب الحرية، أي أن المقصود هو حرمانهم من حقوقهم المدنية وغالبيتهم من المعارضة.

شرع نضال يراجع نتيجة الانتخابات بتأني فوجد أن أمين سر المجلس الوطني قد أعلن أن جلال الديب قد فاز على منافسه المعارض صبري السماحي بفارق خمسمائة صوت فقط، وقد ذكر تليفزيون الواقع في قسم الأخبار الذي يعمل به نضال أن المنافس فقد عشرين ألف صوت نتيجة للائحة الشطب هذه.

تلك الأخبار لم تُنشر في أية صحيفة فظن نضال أنهم لم يعرفوا بشأنها بعد، لذا قام بكتابة تقريره الصحفي، وراح يطرق أبواب جميع الصحف في البلاد ليُخبرهم بتلك القصة لكنه لم يجد مجيبا له ولا لقصته، علم في قرارة نفسه أن كل هؤلاء الإعلاميين ما هم إلا قطيع من الأغنام المطيعة الذين يكتفون بحسب بنشر التقارير الصحافية التي يؤذن لهم نشرها من قبل السلطة الحاكمة، ولا ينشرون سوى تلك القصص التي تقدمها لهم الحكومة.

في اليوم التالي لم يجد حلا سوى إعداد حلقة في برنامجه بتليفزيون الواقع عن قضية فساد تزوير الانتخابات، وتقدم بالفعل إلى إدارة القناة بموضوع عن الحلقة، ولكن الرد قد جاء سريعا بعد يومين فقط

وقال له مدير القناة: نحن نأسف بشدة، لكن الانتخابات قد انقضت، وعليك أن تبحث عن موضوع آخر.....

حاول أن يعرف نضال بعد إذ يأس من أمر النشر من هو ذلك الشخص الذي أرسل إليه هذا الطرد؟ ولماذا أرسله له بالذات؟ كانت هذه الأسئلة تدور في رأسه، وأول من خطر على باله هو ذلك الشخص صبري السماحي المنافس للدود لجلال الديب، ولكنه تساءل لماذا لم يحاول هو أن يقوم برفع قضية في المحكمة لإعادة الانتخابات وكشف قضية الفساد؟ إنها أسئلة كثيرة محيرة لم يجد لها نضال إجابة بعد.

حاول نضال الاتصال بجلال الديب على الهاتف، لكنه لم يجبه فعاود الاتصال مرارا وتكرارا حتى قام جلال الديب بالرد على اتصاله فأدعى أنه صحفي من جريدة القرون الوسطى التابعة للحكومة، وأعلمه أن لديه مستندات تخص قضية تزوير الانتخابات فأراد أن يعرف رأيه فيها.

رد عليه جلال قائلا: إنه خطأ بسيط لم يصل لدرجة الفساد السياسي، لا تُعظم من شأن الموضوع

- خطأ بسيط كيف؟ وهناك خمسون ألف مصوت قد تم حذفهم من القوائم، هذه الأصوات كافية لتغيير دفة الانتخابات

- قل لي من أين حصلت على هذه التقارير؟

- من مصادر صحفية

- إنها تقارير مغلوبة

لقد سمع هذا الكلام سابقا كثيرا من قبل، وماذا كان نضال يتوقع أن يقول له رأس الفساد، كان يقول هذا لنفسه حينما سمع جلال الديب يقول له: لا تقلق، نحن نعمل على إصلاح قوانين الانتخابات ولسوف نقرها قريبا، فهذه القوانين ستقوم بتنقية السجلات من أسماء الموتى والمجرمين والمحرومين قانونا من التصويت.

أغلق نضال الهاتف في وجهه عندما أدرك أنه الآن سوف يستمع منه إلى وصلة من الأكلشيميات المحفوظة.

عاد إلى تليفزيون الواقع وطلب من الإعلامي بهاء مظهر أن يستضيفه في برنامجه ليتحدث عن هذا الموضوع، في البداية رفض بهاء طلبه هذا، لكن مع إصرار نضال على ذلك ونظرا لصداقتهما الشديدة معا رضخ لطلبه، واستضافه في برنامجه بعد أن تحايل على إدارة القناة.

قدم نضال في البرنامج الأوراق والمستندات التي تثبت تورط الجميع في تزوير الانتخابات، لكن الإدارة استدركت الأمر، ونوهت على الشاشة أن كل هذه القضايا والمستندات التي تحدث عنها نضال هو المسئول عنها شخصيا ولا علاقة للقناة من قريب أو بعيد بها، وبذلك أخلت مسئوليتها عن كل هذا، لكن على الرغم من ذلك ابتهج نضال لأنه قد استطاع على الأقل تحريك الماء الراكد، وأصبح هذا الموضوع حديث الناس في الشارع.

وصل آدم إلى كليته في اليوم الأول لبدء العام الدراسي الأخير فوجد مجموعة من الطلاب مجتمعين يتحدثون في بهو الكلية بشأن السياسة. وقد تطرق إلى سماعه أن الحديث عن جلال الديب رجل السياسة الفاسد الذي قام بتزوير الانتخابات لصالحه، وقف بجانبهم لفترة يسترق السمع ثم انصرف إلى الداخل، وصل قاعة المحاضرات وحيا جميع زملائه الطلاب واتخذ مقعده وبعد لحظات قليلة دخلت منيرفا القاعة بخطواتها السريعة وقالت: السلام على الجميع

فرد عليها الجميع السلام

ثم قالت: إنني عاشقة للفن.... والعاشق الحقيقي لا يستطيع كتمان عشقه إلى الأبد، لذا فأنا اعترف لكم أنني عاشقة من عشاق الجمال على الرغم من أننا لا نعرف عن الجمال المطلق أكثر مما يعرف الضيرير عن الألوان... بهذه الكلمات أنني آخر لقاء بيننا، وأترككم مع مرشد آخر ليستكمل معكم آخر جولانكم في رحلتكم الممتعة.

نظرت ناحية الباب طالبة من البروفيسور صوفي أن يتقدم بالدخول، كان بهي الطلعة يشع النور من وجهه وترى في ملامح وجهه مرور السنون تسكن فيها خبرة طويلة عايشها.

قالت منيرفا: البروفيسور صوفي أحد العظماء إنه رجل متعدد المواهب، شديد الفطنة والذكاء يتمتع بحكمة فائقة من لم يتعلم منه فلن يتعلم على الإطلاق

قال لها آدم متسائلا: متعدد المواهب؟

- إنه شاعر، ورسام، وعازف على أغلب الآلات الموسيقية، إنه فنان عظيم
كما أنه السبب في عشقي للفلسفة. أما الآن سأترككم مع العظيم صوفي
تقدم صوفي إلى الأمام وقال: السلام على الجميع. أنا من سيكمل معكم
رحلتكم الشيقة فأنا الأخير، وأنا من سيصل بكم إلى بر الأمان
قاطعه سام: هل من الممكن أن تحدثنا عن الشعر بما إنك شاعر كما قالت
منيرفا؟

رد عليه صوفي: ولما العجلة؟ سنتحدث عن كل شيء عن الفن، وعن الشعر،
وعن الدين، وعن الفلسفة... لكن أليس من الأفضل أن نعرف عليكم في
البداية

طأطأ سام رأسه علامة على موافقته على كلامه وعاد صوفي للحديث: الآن
لنتعرف على الجميع

قام الجميع بتقديم أنفسهم إلى البروفيسور صوفي

فقال: تعلمون جيدا طريقة التدريس هنا، فلولا هذه الطريقة ما رأيتموني
مطلقا، ولكنك الآن متفرغا لشعري وفني، لقد أحببت هذه الطريقة دوما، وما
أن عرضوا علىّ هذا حتى قبلت بها، لقد كانت فكرة عظيمة شأنها شأن الفن في
إبداعه وعظمته وارتجاله، إنها المناقشة والمحاورة حول جميع القضايا فنخرج
من الكلية وقد علمنا الكثير عن كل شيء أو تدرّون...

ثم سكت للحظات وعاد ليقول: الفكرة لا تكون فكرة إلا إذا صيغت
بكلمات، أو ليس كذلك؟

رد آدم: بالتأكيد فلن تكون فكرة إلا إذا خرجت إلى النور

قال صوفي: ولا اللحن يكون لحننا ما لم يتحقق بأنغام، ولا الصورة تكون
صورة ما لم تظهر بخطوط وألوان ولكن....

ثم سكت قليلا كعادته وعاد لحديثه: إذا ما بلغت الفكرة حد النضوج
فعليك أن تُخرجها....

وسكت قليلا حتى نظر إلى وجوه الطلاب فوجد الابتسامة تعلو الوجوه فقال
لهم: هذه طريقتي في الحديث ولا أعرف كيف أغيرها للأسف؟

رد سام: لكن طريقتك ليست بها أي عيب، فلتكمل

- اتفقنا على أن الفكرة لابد لها من الخروج، لذا لا تصدقوا هؤلاء الفنانين الذين يزعمون أن رؤوسهم تطفح بمبدعات فنية لكنهم لا يستطيعون أن يعبروا بها إلى الخارج، إنهم عاجزون وليسوا بفنانين إطلاقاً..

ثم سكت للحظات واستطرد يقول: ما كنت أريد أن أتحدث اليوم عن الفن، ولكن العشق غالب، لقد تشرفت بمعرفة الجميع اليوم وموعدنا في اللقاء القادم.

ترك القاعة وغادر فغادر على إثره الطلاب وهم يتهايمسون حول طريقة البروفيسور صوفي في الحديث.

أخرج آدم هاتفه وقام بالاتصال بصديقه ميلاد ليطمئن على وصوله إلى العاصمة بسلام، ولما علم آدم بقدمه استبشر فرحاً وقال له: أأنت نتقابل اليوم... أريدك في أمر هام، أم أن لديك عملاً اليوم؟

أجابه ميلاد: لقد تركت عملي منذ أن تصالحت مع والدي، فأصبح يرسل لي مصروفاتي حتى لا أنشغل بغير دراستي

- حسنا سنتقابل الليلة

- أين؟

- هل تتذكر ذلك المقهى الذي حدثت بك بشأنه في المدينة؟

- نعم نعم..... ذلك المقهى الموجود أمام دار السينما

- بالضبط سنلتقي هناك

تقابل الصديقان في الموعد المحدد وبأدبه ميلاد بالسؤال: ما هو الأمر الهام يا صديقي؟

قال آدم: الأسبوع القادم سوف يأتي إلى الكلية الفيلسوف راجح فياض

ابتنس ميلاد وقال: الفيلسوف العظيم راجح فياض سيأتي إلى كليتك؟

- نعم

- لكن لماذا؟

- ابنه زميل لي في الكلية، وطلبنا منه نحن الطلاب أن يتحدث مع والده عن ندوة نعرض فيها أسئلتنا

- وما علاقتي بهذا الموضوع؟

- ستحضر الندوة بالتأكيد... أليس لديك أية أسئلة لتطرحها عليه؟

- بالطبع لدي الكثير لكن هل سيستمع للجميع؟

- أعتقد أن الحضور لن يكون كثيرا، فالطلاب في كليتنا عددهم قليل، كما

أن لدينا قاعة كبيرة جدا للمؤتمرات إذا زاد العدد

- أنا لم أقصد العدد بل قصدت هل سيستطيع الإجابة على أسئلة الجميع؟

- سنترك هذا الأمر له وسنرى

- أعلم جيدا أن هذا الرجل لديه منطق راجح وعلى علم واسع

- كما أن فلسفته عن الوجود والموت والحياة عظيمة جدا

سافر رجل الأعمال صفوان الأدهم بعد رؤية الصحفي نضال له في السجن، كان وزير الداخلية قد أخبره بأن هذا الصحفي يفتش عنه، ويحاول أن يكشف ما يفعله وقد أصر على رؤيته في السجن وتم إصدار تصريح له بالزيارة، حينها كان صفوان الأدهم قد عاد مجددا إلى السجن بعد أن أعلمه الوزير أن عليه العودة حتى يراه الصحفي لكي لا يحدث فوضى ومشكلات الجميع في غنى عنها، وبالفعل عاد صفوان إلى السجن وشاهده نضال هناك، كانت الشرطة متواطئة بالفعل مع رجل الأعمال الذي أغدق عليهم بالمال فبعد أن رآه نضال في السجن استقل طائرته الخاصة وسافر إلى بلد آخر بعد ذلك.

خلال اجتماع لرؤساء إدارة الشركات الكبرى في البلاد جلس الحاضرون حول طاولة عظيمة، وكان بينهم مقعد فارغ هو بالطبع المقعد المخصص لرجل الأعمال صفوان الأدهم الذي غادر البلاد، كانت الجلسة سرية جدا لا يعلم بها أحد وكان الحاضرون من رجال أعمال وسياسيين ورجال قضاء.

كان الجميع عضوا في منظمة واحدة وقد تم اختيارهم بدقة شديدة في هذه المنظمة التي يطلقون عليها "منظمة عين الحياة".

عين الحياة منظمة سرية تعقد اجتماعاتها في فترات متباعدة ولا يُسمح لأحد من خارج هذه المنظمة أن يتواجد في اجتماعاتهم التي لا يُعرف عنها شيء، كان كبيرهم متغيبا بالفعل عن ذلك الاجتماع الكبير فهو لم يستطع الحضور حتى لا

يُثير الشبهات حول سجنه، وفضّل أن يتحدث معهم عبر الفيديو لكي يُعطي للجميع أوامره وما عليهم فعله في تلك الفترة التي يغيب عنها، أنبأهم أنه يُدير أعمالهم في الخارج بنجاح كبير.

سأله أحد رجال الأعمال: لكن متى ستعود؟

قال له: اعتقد حينما تهدأ الأجواء وتُغلق القضية

رد عليه أحد القضاة قائلاً: أنا استطيع إخراجك من هذه القضية؟

قال له صفوان: أنا لا أريد ذلك حتى لا يُشكك الناس فيما بعد في نزاهة القضاء، أرغب في أن تسير الأمور كما هي على طبيعتها، فالقضاء هو ملاذنا الأخير ولا بد لصورته أن تظل في عقول الناس ظاهرة ونقية

- لكن...

قاطعه: كفاكم حديثاً عني أنا أعلم جيداً ما عليّ فعله والآن إلى العمل، أولاً أريد مزيداً من الخصخصة كما نريد إزالة القيود عن العملة وأسواق المال

ثم نظر حول المجتمعين وقال: أين هو ممثل الحكومة؟

رفع أحد الحاضرين إصبعه فقال له صفوان: اسمح للبنوك بالمضاربة في العملات، والغ كل التعريفات الرجعية القديمة، اجعل السوق يحدد أسعار كل شيء من الكهرباء حتى الماء

رد عليه قائلاً: نحتاج إذن إلى القوانين

- أنا سأحدث أعضاء المجلس الوطني بشأن القوانين هذا أمر بسيط، هل هناك شيء آخر؟

- نعم الميزانية لن تسمح بذلك

- إذن اخفض معاشات التقاعد، وخفض الرعاية الصحية والرعاية الاجتماعية، والغ الإعانات الاجتماعية، دع السياسة تنكمش، وأترك القيادة للسوق

- لكن سيؤدي هذا إلى غضب الجماهير

- لا تقلق من هذه الناحية فالشرطة والجيش في انتظار تعليماتنا وبعض القتلى لن يضر

في القاعة الكبرى المخصصة للندوات في كلية الفنون كانت الحشود عظيمة مجمعة في انتظار حضور الفيلسوف راجح فياض لإلقاء الندوة وهم في أشد الشوق إلى سماعه، طغت على المكان الثثرة والأحاديث بين الطلاب بعضهم البعض، جلس أعضاء هيئة التدريس في الصفوف الأولى، وفي الصفوف التي تلتها كان يجلس الطلاب بما فهم آدم وميلاد، أمام الجميع طاولة كبيرة بها مكبرات للصوت وثلاثة مقاعد.

اكتظت القاعة عن آخرها وقد علت الدهشة الوجوه لذلك العدد الهائل الغير متوقع وبدأوا يتساءلون من أين أتوا؟ إلى أن علموا في نهاية الأمر أن الطلاب أحضروا معهم الأقارب والأصدقاء لحضور الندوة.

بعد لحظات دخل إلى القاعة عميد الكلية وخلفه الفيلسوف راجح فياض، ولما ظهر أمام الطلاب علت الصيحات وارتفعت الأيادي بالتصفيق فسار رافعا يده محييا الطلاب يتقدمه العميد حتى أجلسه على المقعد المخصص له في منتصف الطاولة وجلست منيرفا على يمينه والعميد على يساره.

بدأ العميد حديثه بعد أن هدأت الضجة وقال: معنا هنا الآن في هذه القاعة واحد قلما تجود الحياة بمثله، فيلسوف شجاع سبح في غياهب الفلسفة وسط الأمواج العاتية حتى أنشأ مدرسة جديدة لا يعوزها المنطق، اعتنقها الكثير وأصبحت تُعرف باسمه، إنه الفيلسوف العظيم راجح فياض....

عاد التصفيق يدوي في القاعة حتى أمسك راجح بمكبر الصوت وقال: أرحب بالجميع وتحية خاصة لأولادي جميع طلاب كلية الفنون، لقد اعتدت في الندوات المختلفة التي كانت تقام باسمي أن يختار الجميع موضوعا للندوة ثم تبدأ المناقشة حوله أما اليوم فلا، ليس هناك موضوع معين وكل من يريد أن يتحدث في شيء له كل الحرية، وأنا سوف أجيب على جميع الأسئلة إن شاء الله.

عادت الهمسات تسري بين الحضور حتى قاطعهم راجح: أليس هناك أسئلة؟ لا أرى أية أيادي مرتفعة؟

رفعت روز إصبعها فأشار لها أن تتحدث فقالت: أنت تؤمن بنظرية الخلق نحن جميعا نعرف ذلك، سؤالني هو ماذا لو لم يكن هناك وجود لآدم وحواء وأن الإنسان ينحدر من سلف مشترك مع القرد؟

أجابها: تقصدين التطور، ولكن الإنسان لا ينحدر من القرد ولكنه أقرب إلى الانحدار من ثمرة البطاطا، قالها مبتسما

ضحك على إثرها الجميع فلقد كان راجح يمتاز بحسه الفكاهي ويميل كثيرا إلى الدعابة في حديثه

ألقى نظرة إلى الجميع وقال: مَنْ منكم كان سؤاله حول هذا الموضوع؟
رفع العديد من الطلاب أياديهم

فقال مبتسما: حسنا لقد تخلصنا من البعض

ضحك الحضور واستطرد يقول: قال العلماء أن الإنسان يحتوي على 46 كروموسوم بينما القرد يحتوي على 48 كروموسوم وذلك يبين وجه التشابه بين الإنسان والقرد، لكنهم تجاهلوا أن نبات البطاطا يحتوي على 46 كروموسوم مثل الإنسان فهو بالتالي الأقرب إلى الإنسان، إذن الإنسان بلا أدنى شك ينحدر من ثمرة البطاطا..... أليس هذا حديث العقل؟

ضحك الجميع مرة أخرى

قالت روز: أهذا الحديث حق؟

قال راجح: بكل تأكيد والعلماء المنصفين لا يؤمنون بهذه النظرية، إنها نظرية قد أكل عليها الدهر وشرب، نظرية طواها النسيان لماذا يذكرها الناس حتى الآن؟

- لكنها نظرية علمية صحيحة على ما اعتقد

- إنها ليست علمية وليست صحيحة ولكنها على ما اعتقد نظرية، قالها مبتسما

ثم عاد يقول: لم يُثبت العلم حتى الآن أن هناك أحد الأنواع تحول إلى آخر، لكن يمكننا أن نبحث نظرية التطور هذه من خلال سؤالين وهما كيف نشأت أول خلية، والآخر هو كيف يتحول نوع إلى نوع آخر؟

ردت روز: نشأت أول خلية عن طريق الصدفة أما تحول أحد الأنواع إلى آخر عن طريق الطفرات

- لقد قال أحد العلماء أن فرصة نشوء أشكال عليا من الحياة تضاهي فرصة اكتساح إعصار لساحة خردة وتجميع هذا الإعصار لطائرة من المواد الموجودة في الساحة

- لكنه ممكن

- يا بنيقي إذا ضرب زلزال مبنى من المباني المنظمة العالية ماذا سيفعل فيه؟

- سيدمره

- بالضبط سيجعله ركاما وعلى الأرجح لن يكون تحسنا في المبنى أليس

كذلك؟

- بالتأكيد

- كذلك الطفرات العشوائية

- لكن..

قاطعها راجح: مازلت عند تلك النظرية؟ هل لك أن تقولي لي من هو الأب المباشر لأي كائن حي على وجه الأرض؟

- لا أعلم

عاد لحديثه: كيف يكون الأب المباشر غير معلوم حتى الآن بعد أن وصلنا إلى القمر، وإلى أعماق نقطة في المحيطات، ولم نصل بعد للأب المباشر للإنسان المعاصر، هناك يا سيدتي تنوع في الطبيعة وليس تطور، هل تعرفي أن القطط والكلاب من أصل واحد؟

- نعم

- أين هو هذا الأصل؟ الكلاب والذئاب من أصل واحد.... أين هو هذا الأصل؟

المشكلة يا سادة أن هذه النظرية لا تعرف إذا كانت الأحفورة المكتشفة كائنا مستقلا أم حلقة مفقودة

ونظر إلى الجميع وقال: أما أنا فأعرف جيدا الحلقة المفقودة في تلك النظرية

ساد الصمت وعلت الدهشة الوجوه فاستطرد راجح يتحدث: إنه اكتشاف علمي خطير، ولأني أحبكم جميعا سأعترف لكم

قالت روز مسرعة: تكلم بسرعة

- الحلقة المفقودة كانت في عقل واضع النظرية يا سادة

نظر ضياء إلى والده وقال له: هل أتت كل الكائنات على هذا الكوكب بشكل متوازن من ناحية إعدادها صدفة؟

رد عليه راجح بابتسامة: ما هي مساحة كوكب الأرض؟

- تقريبا خمسمائة وعشرة ملايين كيلو متر مربع

- وما هي مساحة اليابسة؟

- حوالي مائة أربعة وثمانين مليون كيلو متر مربع

- ومنذ متى تدب الحياة على هذا الكوكب؟

- منذ بلايين السنين

- لماذا لم يكن هناك طغيان عددي يفوق مساحة هذا الكوكب؟

- لا أعلم

- إننا نرى الكائنات البشرية بأعدادها ملائمة لمساحة الكوكب فهل يرى أحد

أن هذا من قبيل الصدفة أيضا؟

تقدم سام بالسؤال: هناك الملايين من الكواكب والنجوم والمجرات في هذا الفضاء الشاسع نحن في حقيقة الأمر نائهون في الفضاء يا سيدي، والكون لم يُخلق لأجلنا كما تعتقد، نحن وُجدنا في هذا الكون وسوف ننهي وسيستمر الكون

رد عليه راجح: على العكس يا ولدي، انظر إلى العلم إنه أشار إلى أن للكون بداية، وأنه قد نشأ من العدم، وكل شيء له بداية لا بد له من نهاية... إذن فلن يستمر الكون إلى الأبد كما تعتقد

- لكنه لم يُخلق من أجلنا

- إن كل ما في الكون ينم عن تنظيم، وكل شيء يسير بقانون في هذا الكون، وإذا اختل جزء صغير في هذه القوانين لن يكون هناك كون.... أليس كذلك؟

- بالتأكيد

- إذن فوجود مثل هذه القوانين، وهذا النظام المذهل يصب في مصلحة الإنسان، وكذلك من الأهمية القصوى أن تكون هناك قوة تراقب عن قرب ذلك الكون لإبقائه في تنظيمه هذا، ولا تستطيع الصدفة أن تفعل ذلك

- ولما؟

- أنت فنان.... هلا تقول لي أنك إذا سكبت مجموعة من الألوان على لوحة هل تكون منظرا جميلا؟

- لا بكل تأكيد

- فما ظنك بهذا الكون المحكم الذي يسير كل شيء فيه بنظام بحيث لو اختل لدُمرت الحياة بأكملها

مَن الذي وضع هذا النظام وحافظ عليه إلى الآن.... إنه الخالق إنه الإله،
إننا نرى آثاره في كل شيء في هذا الكون الشاسع فهل تقول صدفة مرة أخرى

- لكن الكون محفوظ بفعل القوانين يا سيدي

قال له مستنكرا: وَمَن خلق القوانين يا ولدي؟!....

قال آدم: كل ديانة من ديانات العالم تدعي أنها الحق، فهل علينا أن نصدقها كلها برغم ما بينهم من تناقضات؟ أم أن الصحيح أن نلقي بهم جميعا وراء ظهورنا؟

- في قولك هذا تُشبه القاضي الفاشل الذي وجد أن الحق يتنازع عليه أشخاص كثر، فحكم على الجميع بالسجن ولم يبحث عن الحق بينهم ثم يلتزم به.....

ضجت القاعة بالتصفيق لحديث راجح فياض واستطرد يقول: الإيمان يا أبنائي شعور فطري، وغريزة البحث عن الإله موجودة داخل نفوس جميع البشر، إن أغلى الأماني البشرية هي الوصول إلى الحقيقة المطلقة وهي الإله.

بعد انتهاء الحفل في دار الأوبرا كان يجلس الأب لوثر مع مدير الأوبرا للاتفاق على الحفل القادم حينما طرق عليهم الباب شخص ما فسمح له المدير بالدخول، كان الأب لوثر يجلس على مقعده موجها ظهره إلى الباب وعندما دخل ذلك الشخص نهض المدير من مقعده ليحييه قائلا: أهلا بشيخنا الجليل

رد عليه الشيخ: لقد أتيت في موعدنا كما اتفقنا

- أهلا وسهلا بك تفضل بالجلوس

أدار الأب لوثر رأسه ليُحيي الزائر ولكي يعرف مَنْ هو هذا الذي ينعته مدير الأوبرا بالشيخ وعندما وقع نظره على ذلك الوجه القادم لاحت على وجهه علامات الدهشة ونطق بصوت عال: عزيز؟!

رد عليه الشيخ: مَنْ؟ لوثر

تدخل مدير الأوبرا وقال: أتعرفان بعضكما البعض؟

رد لوثر وقال: لقد كنا زملاء دراسة منذ زمن مضى

نهض لوثر من مكانه واحتضن عزيز ثم جلس كل منهما أمام مدير الدار فشرع المدير بالحديث موجها حديثه لعزيز: لقد اعتمدت أوراق تعيينك في الفرقة الموسيقية يا شيخنا، وسوف تتسلم العمل بدءاً من الغد

- أشكرك جزيلًا، وأشكر لك حسن مقابلتك ودعمك القوي لي

- أنا لم أدمك لكن دار أوبرا العاصمة هي التي أشادت بك وبموهبتك الكبيرة، لكن لي سؤال إذا تكرمت

- على الرحب والسعة

- لماذا تركت العمل في دار كبيرة كدار أوبرا العاصمة وأتيت إلى هنا؟

- الموضوع يطول شرحه يا سيدي... ألدك الوقت لتسمع القصة؟

كان لوثر حينها يستمع إلى حديثهما في اهتمام بالغ وهو يحدث نفسه ويقول: شيخ، وموهبة، ودار أوبرا العاصمة، ما كل هذا؟

قال مدير الأوبرا: تفضل كلنا أذان صاغية، وليس لدينا الآن أكثر من الوقت فلقد انتهى الحفل للتو وكنا نتحدث فحسب

- وبالنسبة إلى لوثر؟

- هل لديك مانع من وجوده؟

- لا لا لم أقصد ذلك بالتأكيد، أنا أقصد أن كان لديه وقت ليجلس معنا

- لقد علمت إنكم أصدقاء قدامى

- لم يكن لوثر مجرد زميل دراسة فحسب لكنه كان من أصدقائي المقربين، لكن سبل الحياة قد فرقتنا عن بعضنا، ودروبنا اختلفت وتشاغل كل منا بحياته

تدخل لوثر في الحوار: ليس لدي أي شيء لأفعله كما إنها فرصة عظيمة حينما تتقابل مع صديق لم تره منذ زمن ليس بالقصير

قال مدير الأوبرا: لكن قبل أن تقص علينا قصتك الطويلة هذه، أريد أن أعرف هل وجدت سكنا هنا أم لا؟

- بالفعل وجدت سكنا رخيصةا يتناسب مع دخلي

تساءل مدير الأوبرا متعجبا: سكن رخيص؟! أين في البلاد كلها تجد ذلك السكن الرخيص؟

- لقد سكنت في قصر بالقرب من الدار يستغرق حوالي ساعة من السير

ازداد تعجب لوثر والمدير وتساءلوا في وقت واحد: سكن رخيص وتقول قصر يا للعجب! كيف ذلك يا رجل؟ نحن هنا في هذه البلدة منذ أن كانت مجرد صحراء، ولكننا لم نكن نعرف أن بها قصرا وسعره رخيص.

أجابه الشيخ: في البداية تعجبت مثلكم تماما وقلت لنفسى مَنْ ذا الذي يُسكنني في قصر مقابل مبلغ زهيد من المال؟ ولكن ما كان بيدي حيلة، وصراحة وجدت لها فرصة مثالية، هناك أعلى الجبل الموجود في مدينتكم قصر ضخم

قالا في نفس الوقت: أنقصد قصر الجبل؟

وضحك الاثنان ضحكة عالية وتعجب من ضحكاتهما الشيخ عزيز وقال لوثر: إذا كان الموضوع يتعلق بذلك القصر فلقد زال العجب

تساءل عزيز: هل هناك شيء تُخفوه عني؟ فأنا غريب عن هنا ولا أعرف عن مدينتكم شيئا؟

قال مدير الأوبرا: ألم تسمع عن أن هذا القصر تسكنه الأشباح، ولقد مات فيه الكثير من الناس كما يستخدمه عبّاد الشيطان لإقامة طقوسهم

قال عزيز وقد تملكه الرعب: أشباح وشياطين، يا لها من مصيبة كنت دائما أفكر في أن شيئا ليس على ما يرام في هذه المسألة

- وماذا ستفعل الآن؟

نظر عزيز إلى الاثنين ضاحكا وقال: سأسكن فيه بالطبع

- كيف يا رجل بعد كل ما سمعته منا عنه؟

- يا سيدي إذا كان الأمر يتعلق بالأشباح فأنا لا أخشى الأشباح ولا الشياطين

قال لوثر: أمازلت غير مقتنع، هناك أصوات تظهر عند حلول المساء، وقد أخبرتك إنه قد مات فيه الكثير من الناس وأشباههم تحوم حول القصر كل يوم، أنا سأستأجر لك شقة لتسكن فيها على نفقتي الخاصة إذا كنت لا تملك المال

- أشكرك جدا على هذه المبادرة، ولكني مُصر على السكن في هذا القصر

ثم ضحك وعاد يقول: أنا لم أسكن في قصر طوال حياتي، ولا بد أن انتهر هذه الفرصة الثمينة فهي لا تُعوض

ابتسم الجميع وقال له المدير: كما تشاء، لكن إذا صادفتك أية مشكلات عليك إخباري حتى أوفر لك سكنا بديلا... ألدك عائلة؟

- زوجتي وأولادي وأخي

- وهل أتوا معك؟

- لا لقد تركتهم عند الجدة وسأرسل لهم أموالا ليعتاشوا بها كل شهر

- إذن أنت بمفردك هنا؟

- بالضبط وهذا سر إصراري على العيش مع الأشباح

- لم تجب على سؤالك بعد؟

- أي سؤال لقد نسيت أعذرني فأنا كثير النسيان

- لماذا تركت دار أوبرا العاصمة وأتيت إلى هنا؟

- آه... لقد تذكرت... لقد كنت أقيم في شقة يملكها صحفي شهير كانت في

بناية ورثها عن والده، وكنت إماما لمسجد صغير ولم يكن دخلي كبيرا

هنا ابتسم لوثر بعد أن علم لما يناديه المدير بالشيخ واستطرد عزيز في حديثه: كنت أعاني ضيق العيش باستمرار ومع وجود أخي الذي أعوله لأنه لم يجد عملا مطلقا بالإضافة إلى أسرتي وأمي المريضة، لم يتحملني هذا الصحفي في دفع الإيجار وهددني الكثير من المرات بأنه سيقوم بطردي، لكن كانت له أخت عظيمة كانت دوما ما تحول بينه وبين طردي من مسكني حتى ضاقت به السبل،

واضطر إلى بيع بنايته وقمت بالرحيل بعدها إلى منزل والدته زوجتي مؤقتا حتى
أحصل على عمل آخر مع عملي كإمام للمسجد

- لكنك كنت تعمل في دار الأوبرا كما علمت

- كنت أعمل حينها بلا أجر

- ولماذا؟

- حينما التحقت بدار الأوبرا كنت شديد الولع بالموسيقى والغناء، ومنذ
صغري وأنا أعزف وألحن العديد من الألحان التي أشاد بها الجميع لاحقا في دار
الأوبرا، كنت أعزف سرا بعيدا عن العيون والأسماع، لأن عائلتي كانت متشددة،
وتعتقد اعتقادا راسخا في ذهنها أن الموسيقى والغناء حرام، فكنت أتخفى حين
ذهابي إلى الأوبرا حتى لا يراني أحد إلى أن نمت موهبتي وترعرعت، ولما تقدم
مدير الدار ليُعرض عليّ عملا هناك رفضت

- لماذا؟ وهل تعتقد أنت كذلك أن الموسيقى حرام فكنت تفعلها وأنت
مختفي عن أعين البشر وأسماعهم

- لا على العكس لم أعتقد في يوم بأن الموسيقى حرام لكني أعتقد أنها مثل
أي شيء آخر فإذا كانت الموسيقى تسمو بالروح فتعتبر حلالا، أما إذا كانت
تسهم في إفساد أذواق الناس وتدعو إلى الرذائل فهي بكل تأكيد من الأشياء
المحرمة، لكني أتيت إلى هنا بعد أن تركت المسجد

- ولماذا لم تعمل هناك في دار أوبرا العاصمة؟

- لأن السكن في العاصمة باهظ الثمن ومن الممكن أن تدفع مرتبك كله
للحصول على سكن هناك فقررت السفر إلى هنا بعد أن علمت بأن الحياة هنا
تعتبر أرخص بكثير من الحياة في العاصمة

- أهذا هو السبب فقط؟

- لا هناك سبب آخر احتفظ به لنفسي لكن سأحدثكم به إذا أخذت عليكم
العهد بحفظه

ضحك لوثر وقال مازحا: أهارب أنت من الشرطة؟

ابتسم عزيز وقال: ليس بالضبط

- كيف ذلك؟

- أنا هارب لكن ليس من الشرطة، أنا هارب من الناس، الكثير هناك يعرفونني ويعلمون جيدا أنني إمام للمسجد وإذا اتضح لهم أنني أعزف الموسيقى سأعرض للتجريح أنا وأبنائي وعائلتي كلها لذا فقد تركت كل هذا وأتيت إلى هنا حيث لا يعرفني أحد

قال لوثر بابتسامة: لكني أعرفك

ابتسم عزيز وقال: سوى أنت

كان هذا الشهر من أكثر الشهور المقلقة والمحزنة في الوقت ذاته بالنسبة لصفوان الأدهم، كما إنه كذلك من أقسى الشهور على سوق الأوراق المالية، ذلك لأن العديد من الأزمات المالية قد حدثت في هذا الشهر، وقد عانى أشد المعاناة في هذا الشهر من بعض التجارب المؤلة في السنوات الماضية التي عصفت به وبكل أمواله من قبل حينما بدأ الانخفاض المفاجئ في قيمة الأسهم وما نتج عنها من هبوط حاد في معدلات أسعار السوق.

فيما مضى من سنوات امتلك شركة بلا موظفين ولا أبحاث ولا حتى مكان، واستمر في جني الملايين من خلال بيع السندات والأسهم إلى مستثمرين ساذجين صدقوا إشاعاتها المضللة، لقد بدأ طريقه هكذا حتى جني الملايين وهو الآن على وشك امتلاك البلد بأكملها.

كانت الأكاذيب تنتشر بسرعة وخاصة حول أسواق المال والأسهم، لكن هناك مخاطرة دائما وصددمات قد تُصيب البعض إذا لم يستعد جيدا للمجهول، ولم يكن صفوان الأدهم واحدا من الذين يستعدون للمجهول، فهو لم يمتلك شيئا في الأساس حتى يخشى ضياعه، لكن مغامراته دائما ما تأتي في صالحه حتى وصل إلى ما هو فيه الآن فاجتازت أمواله حاجز المليار وبدأ بعدها في الاستثمار الحقيقي.

يملك الآن مجموعة شركات العالمية للاستثمار، وهي عبارة عن شركات عديدة تستثمر في مجالات الاتصالات والطاقة والإعلام وغيرها، لكنه لم يكن يتخيل أن كل هذا يمكن أن يضيع في لحظة، لأن ما حدث لم يكن في الحسبان ففي نفس الشهر في الوقت الحالي أصابت البورصة انهيارات عظيمة أفقدته الأموال، ولم يتبق له إلا قليلا من ملياراته الكثيرة التي تحددها الأصول التي يمتلكها، وفجأة انقلب الحال من النقيض إلى النقيض.

جلس على مقعده الوثير في قصره الفخم وهو يُمسك بكأس الخمر الذي لا يفارق يده، فلقد كان إدمانه للخمر عظيما. ودارت بخلده تلك الأيام التي مضت عليه في الزمن الغابر عندما كان فقيرا لا يمتلك قوت يومه وشرد بذهنه بعيدا فتذكر حينها أول عملية احتيال قام بها حينما اجتمع مع بعض أصدقائه وهم يتظاهرون بأنهم عصابة من البائعين يمتلكون مكتبا تجاريا يمارسون من خلاله أنشطتهم المالية المزعومة. وقد استأجروا لتلك العملية مكتبا وكان مكتظا بالأوراق والوثائق وكومة من الهواتف التي ترن بصورة دائمة.

كان الجميع يستخدم الكلام المعسول لإقناع العملاء بالأرباح التي لا تُصدق، وبعدد وجود أية مخاطر مستغلين طمع الزبائن، استطاع هؤلاء خداع العديد من المستثمرين السذج وسلب أموالهم في استثمارات وهمية مزيفة، ثم غادر هو ورفاقه المدينة حين سمعت السلطات بالأعبيهم.

دخل عليه وهو في خضم ذكرياته هذه محاميه يهوذا وهو يخطو بخطى متثاقلة لما يحمله معه من أنباء وقال له: هل علمت بما حدث؟

- نعم علمت

- لا أقصد بالطبع موضوع البورصة

- هل هناك مصائب أخرى؟

- هنالك الكبرى

- تكلم

- لقد تحفظت السلطات في البلد على جميع أموالك وحساباتك في البنوك وأصول الشركات التي تمتلكها

خر صفوان على ركبتيه عندما سمع هذه الأخبار وقال في يأس: أصبحت مفلسا؟

- نعم، والأدهى من ذلك إنه قد صدر أمر بسجنك والشرطة طلبت بالفعل من الشرطة الدولية تسليمك بعد أن تقدموا بمستندات تُدينك

- لقد اكتملت المصائب جميعها الآن، إنها خطة مدروسة جيدا، لقد اتفق الجميع على تصفيتي، وماذا سنفعل الآن؟

- أنا لا أعلم صراحة

صرخ فيه غاضباً: كيف لا تعلم وأنت المحامي وليس أنا، لماذا أدفع لك الملايين إذن، نحن سوياً في هذا الأمر

- في الحقيقة لم أجد لك مخرجاً هذه المرة

- إذن لا مكان سوى السجن. أغرب عن وجهي الآن يا وجه الشؤم....

ثم صرخ قائلاً: إن كان لابد من السقوط فسوف أهدم المعبد على الجميع.

في تلك الأوقات كان المجلس الوطني يناقش الكثير من القوانين، وتمت الموافقة على قانون الإصلاح الانتخابي لتنقية سجلات الناخبين بعد تلك الضجة التي أثارها الصحفي نضال بين جموع الشعب، كما تم إصدار قانون حماية المستثمرين الذي يخدم مصالح رجال الأعمال في ربوع البلاد، ولقد قام بعضهم بالاتفاق مع أعضاء المجلس الوطني وأعضاء الحكومة على التضحية برجل الأعمال صفوان الأدهم وتقديمه كقربان لتهدأ الضجة وذلك بعد أن أصبح يتحكم بجميع رجال الدولة مما أثار غضبهم عليه.

كان نضال يستمع إلى هذه الأخبار في فرح ونشوة، كما أنه استبشر خيراً بعد أن علم أن هناك المزيد في الطريق، وأن الحكومة أصبحت تعي ما تفعله فصاح بأعلى صوته والضحكات ترتسم على وجهه: نعم لقد فعلتها الحكومة.

عادت جريدة عصور الظلام للصدور مرة أخرى بعد أن قدمت التماس لهيئة المحكمة وقامت بدفع التعويضات لجلال الديب، لكن ما كان يدعو للدهشة حقاً، هو هل أفاق جلال الديب وأعضاء المجلس الوطني من سيأتهم فجأة وحاولوا أن يفعلوا الصواب؟ أم إنها لعبة جديدة يلعبها رجال السياسة والمال، الأيام فقط هي التي بمقدورها أن تبين خطتهم.

قام رئيس تحرير جريدة عصور الظلام بمهاتفة نضال ليُخبره بالعودة إلى العمل، فترك عمله في تليفزيون الواقع وهرب إلى جريدته، لم يكن يعلم حينها كيف عادت جريدته الغراء إلى العمل، لكن رئيس التحرير قد أعلمه بأن كل ما فعله هو أن التمس من المحكمة عذراً، كما أنه دفع تعويضات سب وقذف السياسي جلال الديب.

على كل حال قد عادت الجريدة للصدور، وكان العنوان الرئيسي لصدور الجريدة مرة أخرى عن رجل الأعمال صفوان الأدهم الذي تم اتهامه بالتلاعب في البورصة، انتقد نضال هذه القضية التي رُفعت ضد رجل الأعمال وانطلق

ليتحدث مع رئيس التحرير: تلاعب في البورصة هذا فحسب؟!، كل هذه الضجة على هذا فقط

قال له رئيس التحرير: وهل هذا قليل؟

- نعم قليل إنه رجل يتحكم في البلاد وينشر فسادَه بين ربوعها، ثم تأتي الحكومة وتقول إنها قضية تلاعب في البورصة، هناك شيء خفي في الموضوع لكنني سأعلمه بالتأكيد

- ولما الشك؟

- أتعرف كم المدة التي يمكن أن يُسجنها صفوان الأدهم في هذه القضية

- على الأرجح من سنة إلى ثلاث سنوات

- وهل هذا يكفي إنه يستحق الإعدام يا سيدي

- ولماذا كل هذه الحملة على الرجل، أبيتك وبينه ثأر؟

- أكثر من ذلك، بيبي وبينه بلد تضيع

- إذن حاول أن تعمل على كشف هذه المسألة، وأنا على وعد بالنشر

- وبالنسبة لجلال الديب؟

تجهّم وجه رئيس التحرير وقال له: عدنا ثانية، ألم ننته بعد من هذا الرجل؟

- إنه منبع الشر

- لقد دفعنا ملايين لذلك الرجل حاول أن تصرف النظر عن هذا

- وتزوير الانتخابات؟

- قلت لك اصبر نظرك عنه ألم تسمعي، قالها صارخا في وجهه

- حسنا حسنا... سأتركك حتى تهدأ ثم نعاود الحديث

- لن أتحدث عنه مرة أخرى، أفهمت؟

تركه نضال مغادرا إلى مكتبه في الجريدة ليعمل على قضايا الفساد الأخرى التي تورط فيها صفوان الأدهم، لكن تفكيره كان فيما بدر من رئيس التحرير عند سماعه اسم جلال الديب، فتساءل في دهشة هل يمكن للأموال التي دفعها أن تُغضبه هكذا أم أن هناك شيئا آخر.

تركهم الشيخ عزيز وذهب إلى ذلك الرجل الذي استأجر منه القصر حتى يستلمه، قصد كوخ الرجل، كان كهلاً يعيش في عزلة تامة في كوخ صغير بجوار القصر الكبير، يقع الكوخ على حافة حديقة القصر المظلمة، وكان مغطى بالورد المتعرش ومعزولا هو الآخر، لما رآه أول مرة تخيل عزيز ذلك الكوخ كالذي تحدث فيه قصص الجن في الغابات، أطرق عدة طرقات على الباب الصغير فخرج إليه العجوز يحمل في يديه مصباحا، وحياء ثم اصططحبه إلى القصر الذي سيُسكنه إياه، حاول عزيز أن يُعطيه إيجارا لشهر مقدما، لكن العجوز رفض أن يقبل منه الأموال حتى يستقر، كانت تلك الأموال هي التي حصل عليها من مدير الأوبرا كمقدم لعمله هناك، اقترب العجوز من عزيز وتحدث له هامسا: هذا هو القصر لعلك سمعت الكثير من القصص حوله بالتاكيد؟

ابتسم عزيز وقال له مازحا: بعض منها سمعته قبل أن آتي إلى هنا، علمت أن به أشباحا وعفاريت

- على كل حال أنا لا اعتقد في هذا الأمر

تعجب عزيز من حديثه وقال له متسائلا: ولماذا أيها العجوز لا تسكن فيه ما دمت لا تؤمن بوجود الأشباح؟

- أنا رجل كهل وهذا القصر كبير شاسع المساحة، ولا أستطيع أن أعيش في كل تلك المساحة الكبيرة بمفردي فاخترت البقاء في هذا الكوخ -
- لهذا السبب فقط؟

- كنت أسكن فيه من قبل، ولأن روعي بسيطة خفت من الطرق القاسية للعالم، والصراع من أجل الخبز أكثر مما خفت من الأشباح، والوحدة في هذا القصر الحزين، لكنني أدركت أن المكان يتسع عليّ يوما بعد يوم فبنيت هذا الكوخ وقطننت فيه

- إذن فترك العيش في القصر لم يكن بسبب الأشباح؟

- أشباح ماذا يا ولدي؟ لو كنت أخشى الأشباح ما سكنت بجوارها... ألا تعقل؟

ابتسم عزيز وقال له: الآن اطمأن قلبي لحديثك يا سيدي

- هناك أمر ما لابد أن أخبرك به

- وما هو؟

- ليس هناك كهرباء في القصر، فعليك أن تستخدم أعواد الحطب لتشعل النار للتدفئة والإضاءة أو تستخدم مثل هذه المصابيح التي استخدمها

- لا مانع لدي على الإطلاق

ونظر العجوز إلى القصر وقال له: هذا هو القصر وتلك حديقته، والآن أتركك وأعود أدراجي

- أألن تذهب معي إلى الداخل لتريني القصر بنفسك؟

- أستمتعك عذرا في هذا، لقد أقسمت على ألا أدخله

- لماذا؟

- إنها قصة طويلة، لعلني أقصها عليك يوما ما.

انتاب عزيز بعضا من القلق بعد أن أخبره العجوز بأنه لن يدخل القصر فظنه خائفا من شيئا ما، قام العجوز بإخراج مفتاح كبير من جيبه وأعطاه لعزيز وأعلمه أن هذا هو مفتاح القصر ولكنه قال له: قبل أن أذهب عليك أن تأتي معي لأعطي لك مصباحا كهذا الذي في يدي، وتعود أنت مرة ثانية إلى قصرك، كنت أود أن أعطيك هذا لكني ضعيف النظر لا أرى على ضوء القمر وحده.

نزل عزيز على إرادته وانطلق معه لإحضار المصباح ثم عاد حاملا المصباح من نفس الطريق، وقد انشق الطريق أمامه يتعرج وينعطف كما فعل معه أول الأمر، وكلما تقدم أكثر لاحظ أن تغييرا قد طرأ على الطريق، وريدا رويدا تجاوز الطريق بأقدام عنيدة حتى اختفى الطريق من أمامه، ولم يعد يرى سوى القصر الذي سيقطنه.

كان المكان يمتاز بالسكون والغموض، ألقى بنظرة إلى القصر فرآه جميلا لم يقو الزمن على تشويه تماثيل تلك الجدران، وضوء القمر مازال شاهدا على جمالها، كانت وجهة القصر مبنية من حجر خفيف، ونوافذه الضخمة تُطل على مستنقعات النهر، وعلى مشهد طبيعي من الماء والمروج الخضراء التي تهب عليها النسائم دائما، كما تُطل على الجبال الأكثر بعدا، كانت سلسلة الجبال هذه تشكل قوسا رقيقا متأرجحا يتبعه ممر الغيوم، لم يكن يستطيع المرء أن يشاهد جمال المدينة الخلابة بمنازلها وقصورها وحدائقها التي تشع صغيرة ومتجاورة

وبيضاء في الجبال البعيدة إلا حين يقف في أعلى مكان في المدينة أمام هذا القصر، كانت مقدمة القصر منعكسة في المياه التي تتدفق برفق وزهو، وشجيرات الكثيفة تتألق في منظر رائع على طول السور.

وقف عزيز يتأمل ذلك المنظر الخلاب، وفجأة بدا له أن ضوءاً جاء من نوافذ القصر، فأصابته رجة سرت في جسده، ثم جاءت سحابة وحجرت ضوء القمر، مرت عليه لحظات مظلمة امتد فيها الظلام أمام وجهه حتى انسحبت معه السحابة واختفى معها الوهم الذي تملكه.

توقف أمام البوابة الحديدية الكبيرة للقصر ثم أخرج المفتاح من جيبه، وأدخله في مرتاج الباب، ودخل بخطى حثيثة وهو يحدث نفسه: كان لابد أن أتي في ضوء النهار، ولو كنت أعلم بأمر الكهرباء لما أتيت في الليل أبداً....

وأخيراً استجمع شجاعته ودخل القصر حاملاً المصباح في يده.

الجدران مظلمة ورطبة والنوافذ الداخلية ضيقة ومنخفضة، نظر من خلال إحدى النوافذ فوجدها تطل على هذه الحديقة الكئيبة التي تحوي عدداً من أشجار البلوط، التراب يملأ المكان عن آخره وهو لا يدري أين سيببت ليلته في هذا المكان المغريب؟.

حاول أن يتفقد القصر على ذلك الضوء الخافت الذي ينبعث من المصباح لكنه كان ينعم بالنظر بشدة في الأشياء والجدران حتى لا يصطدم بشيء، ظل يمشي في ممر طويل تتخلل النوافذ الصغيرة جدرانه حتى أحس بشيء يشبه التمثال يقف عند نهاية الممر، وقف يتفحص التمثال حتى سمع دوي الرعد يسري في المكان، وأضواء البرق أضفت على التمثال مسحة من النور فلاح له وجهه فاضطرب من الفزع عندما رأى وجهه.

كان يشبه كأننا بشعا تخرج من رأسه قرون، ابتعد عن التمثال لخطوات ثم رفع المصباح بيده عالياً ليراه من على البعد فسمع أصوات ارتطام النوافذ بشدة حتى تكسر زجاجها، فازداد الأمر سوءاً، وازداد خوفه حتى ارتعشت يداه وسقط المصباح من بين يديه. انطفأ المصباح وأظلم المكان بسواد قاتم، لم ير حينها شيئاً، وتوقف صوت كل شيء فجأة، وساد المكان سكون غريب حتى زخات المطر التي كان يسمع هزيمها توقفت هي الأخرى وشعر كأن الحياة كلها قد توقفت في تلك اللحظة من الزمن، وما أطل هذه اللحظة هو شعوره بالخوف والرهبة.

قرر أن يعود إلى حيث أتى فاتجه ناحية بوابة القصر، وتذكروهو عائد إنه قد نسى المفتاح في مرتاج الباب من الخارج، هرول ناحية البوابة الحديدية التي كانت مفتوحة على مصراعها، ولما اقترب منها وكان على بعد خطوات قليلة من الباب ضج المكان بصوت رهيب، وأغلقت البوابة عليه وحبسته بداخل القصر.

كان ذلك الصوت هو مهمة الرعد التي عادت ثانية، حاول جاهدا أن يفتح البوابة لكن لا سبيل إلى ذلك، وفي هذه اللحظة تذكرت تلك النوافذ الصغيرة التي تملأ جدران الممر في القصر، توقف لبعض الوقت ثم تحسس طريقه في الظلام الكالح محاولا الوصول إلى هذه النوافذ حتى رنا إلى سمعه أصوات الموسيقى تنطلق من داخل إحدى غرف القصر فارتجفت أوصاله رعبا، وظن حينها أن القصر يمتلئ بالأشباح فعلا. وأن كل ما سمعه من شائعات حول وجودها في القصر لم يكن سوى الحقيقة.

أما الآن فعليه أن يواجه مصيره فهو من أختار في البداية، وفي خضم هذه الجحيم اقترب ناحية مصدر الصوت وتوقف أمام الباب الموجود خلف التمثال في نهاية الممر وتحسسه جيدا، كان بابا خشبيا كبيرا وحينما وضع راحة يده على رتاج الباب ليفتحه سكت صوت الموسيقى وعم السكون المكان مرة أخرى.

انتابه القلق من فتح هذا الباب وظن أنه لو فتحه سيجد بداخله ما لا يسره ولا يرضيه، فعاد أدراجه مرة ثانية وبدأ يروح ويحيء في المكان يتفكر فيما سوف يفعله، كان يعود بظهره وعيناه ناظرتان إلى الباب حتى اصطدم بالتمثال في الظلام فأشدد به الخوف وسقط أرضا.

تماسك واستوى واقفا تارة أخرى فسمع أصوات الموسيقى تنبعث ثانية، ركض ناحية البوابة الحديدية للقصر وهو لا يرى شيئا من أمامه أو من خلفه حتى أتت له ضربة قوية على رأسه من حيث لا يدري فوقع مكانه مغشيا عليه.

الكلمة في القصيدة هي كلمة نقية جديدة، تراها وقد احتوت بداخلها على شيء من الحقيقة الخفية، لذا فلا بد للشعراء أن يستخدموا لغة وتعبيرات بعيدة عن المألوف، والشعراء العظام قد أضافوا إلى اللغة كلمات جديدة لم يك يسمع بها من قبل أحد، واكتشفوا كلمات منسية نسها الزمان.

هكذا تحدث صوفي عن اختيار الكلمة في القصيدة الشعرية حينما سأله سام، لكن سام لم يكتف بهذا السؤال بل عاد ليسأله: هل هناك علاقة تربط بين الفن والشعر؟

- الشعر ما هو إلا كلام، والفن ما هو إلا أحاسيس، فالفن والشعر وسيلة من وسائل الاختلاط بين البشر

تدخل آدم وقال: لكن المعارف في تطور مستمر، وأما الأحاسيس فلا تتغير عبر الزمان..... أليس كذلك؟

أجابه صوفي: كيف ذلك يا ولدي؟ فكما تتطور المعارف بحلول معارف جديدة، كذلك الأحاسيس فنتخلص من الأحاسيس الوضيعة، ونستبدلها بالأحاسيس الأكثر رقياً، وهنا تكمن غاية الفن ومهمته

قال سام: ومن أين لنا أن نعرف أن هذه الأحاسيس أكثر رقياً؟

- عن طريق الوعي الديني

قال متعجباً: الوعي الديني؟! وما علاقة ذلك بالوعي الديني؟

- في الزمان الغابر كان القدماء يشجعون الفن الذي ينقل أحاسيس القوة والجمال والرجولة، ويستقبحون الفن الذي ينقل أحاسيس النزوات الرخيصة، فهناك وعي ديني في كل مجتمع حتى لو كان هناك رغبة في عدم مشاهدته والاعتراف به كما في عصرنا الحالي

- ولماذا نرغب في عدم مشاهدته والاعتراف به؟

- لأنه يفضح حياتنا

- لكن الناس تنظر إلى الدين في وقتنا الراهن على إنه وسواس عانت منه البشرية منذ عقود طويلة فكان لابد من التخلص منه إلى الأبد، وبالتالي فلا وعي ديني يوجد بيننا، وعلى أساسه لا ندري كيف نقوم الفن؟

- أعرف أن هذا هو الرأي الدارج بين أوساط مجتمعنا التي تدّعي الثقافة لنفسها

علت الابتسامات وجوه الطلاب الذين كانوا يستمعون في صمت للمناقشة الدائرة بين صوفي وسام، وعاد صوفي ليقول: الناس في زمننا هذا لا يعرفون

المعنى الحقيقي للأديان. لذلك راحوا يبتكرون النظريات الفلسفية والجمالية لينفوا وجود الوعي الديني.....

قال لي صديق ذات مرة حينما كنا نتحدث عن ذلك الموضوع "إن مصيبة البشر الأساسية لا تكمن في أنهم لا يعرفون الإله فحسب بل في أنهم استبدلوه بشيء آخر"..... تلك هي الحقيقة يا شباب، كفانا اليوم وموعدا في اللقاء القادم مع لوحاتكم العظيمة فلا أحد ينسى أن يُحضر معه لوحته.

خرج آدم وزملاؤه من قاعة المحاضرات بعد أن انتهت محاضرة البروفيسور صوفي وجلسوا سويا في مقصف الكلية لبعض الوقت، وبعد قليل استأذن ضياء من الزملاء بالمغادرة لأن لديه موعدا وخاف أن يتأخر عليه فقال له آدم: إلى أين أنت ذاهب يا صديقي؟

رد عليه ضياء: لدي موعد مع الدكتور عابر، هل تتذكره؟

- نعم نعم طبيب الأعصاب

- بالضبط

- ولماذا؟ أنت مريض؟

- لا لست مريض، ولكن والدي طلب مني أن أرسل إليه بعض الأشياء

- إذن دعني أقلك بسيارتي

- لا لا أنا لا أريد إرهابك، فالربما لديك ما تفعله

- أنا لدي الكثير من أوقات الفراغ، وكنت في الحقيقة أفكر في شيء أفعله هذا اليوم

- إذن هيا بنا

انطلقت السيارة بهم وفي الطريق قال آدم: كنت سأقوم بالاتصال بصديقي ميلاد لقد عرفتك عليه في الندوة هل تتذكر؟

- نعم أتذكره جيدا

- ألدك مانع أن نقله في طريقنا؟

- ليس لدي أي مانع.

كان ميلاد ينتظرهم في المكان الذي حدده له آدم بعد أن قام بالاتصال به، ركب معهم السيارة حتى وصلت أخيراً إلى المستشفى التي يعمل بها الدكتور عابر، رحب بهم الدكتور عابر، وأجلس الجميع في مكتبه ثم ناوله ضياء لفافة كان يحملها في يديه، بعدها نهض الدكتور عابر من مقعده وقال للجميع: من أين أنتم الآن؟

أجابه ضياء: من الكلية

- إذن لم تتناولوا غداًكم بعد؟

- نعم، ولكن لماذا السؤال؟

- سادعوكم إلى الغداء في مطعم أحبه كثيراً، هل من معارض؟

قال آدم: ولكن لا...

قاطعته عابر: لا أعذار.

تقبل الجميع دعوة الدكتور عابر، وذهبوا إلى المطعم وطلب كل منهم طعامه كما طلب الدكتور من النادل أن يزيد له في الطعام الكثير من الفلفل الحار

سأله آدم: أليس هناك ضرر من تناول الأطعمة الحارقة؟

رد عليه عابر: إن هذا الطبق الشهي ذ الطعم الحارق أحد أعظم المتع المبهجة في الحياة، ولا تقلق فليس له أضرار فعلية على الإنسان

اطمأن آدم لحديثه ومن ثم نادى بعلو صوته على النادل وقال له: فلتجعل طبقي أنا الآخر حارق جداً

ثم تبعه الأصدقاء في هذا الطلب بادر آدم بالحديث وقال: لقد سمعت كثيراً أن هناك أضراراً للأطعمة الحريفة الحارة فهل كل هذه شائعات؟

قال عابر: الجزئي ذو المذاق الحريف في الفلفل الحار، يُنشط الخلايا العصبية المسؤولة عن الشعور بالألم في الفم، لكنه لا يسبب أي أضرار فعلية للإنسان فبعد دقائق معدودات سيتلاشى شعورك بأنك كما لو كنت قد أضرمت النار في نفسك، لذا يبدو الأمر كله لهواً ومرحاً، أليس كذلك؟

- لكن ماذا تفعل تلك المادة الحارقة عند تناولها؟

- تنشط خلايا بعينها مسئولة عن الشعور بالألم، فترسل هذه الخلايا رسالة إلى المخ تفيد بوجود شعور بالاحتراق، سواء أكانت قد نُشِطت بفعل حريق فعلي أو إثر التهام فلفل حار، فليس من شأن خلايا الجسم أو أجهزته التفريق ما بين هذه الاحتمالات المزعجة.

- إنها معلومات قيمة لم أكن أعلم بها من قبل، لكن ما شد انتباهي هو عدم تفريق المخ في إذا ما كانت هذه الخلايا نشطت عن طريق حريق فعلي أو أثر التهام الفلفل الحار

- لقد تحدثنا مسبقا عن علاقة المخ بالوعي، أليس كذلك؟

- كان لي سؤال دوما ما يحيرني؟

- قلت لنا من قبل أن الوعي ليس ماديا إطلاقا؟

- نعم

- فأين يذهب الوعي بعد موت الإنسان؟

رد عليه مبتسما: لقد طرحت هذه الأسئلة مرات كثيرة أثناء دراستي، وأدركت أن الوعي كيان مستقل عن الجسد الإنساني، فالوعي لا يعرف الحبس داخل جدران الجسد المادي، ولا تحكمه قوانين المادة التي تسري على الجسد. لكن ما يحكم الوعي هو قوانين الهولوجرام

قاطعها آدم قائلا: لحظة من فضلك، ما هو هذا الهولوجرام؟

تدخل ميلاد: إنه مجسم ثلاثي الأبعاد كالذي تراه في أفلام الخيال العلمي عندما يستخدمون الليزر لعمله فيظهر مثلا الشخص أمامك، ويتحدث إليك ويتحرك، لكنك لا تستطيع لمسه لأنه في الحقيقة لا وجود له

- نعم لقد فهمت الآن

ونظر إلى الدكتور عابر وقال له: لقد نسيت أن أخبرك إن ميلاد يدرس العلوم

قال عابر: أهلا بك يا ميلاد، وبأي قسم أنت؟

- الكيمياء

- رائع جدا، ويبدو عليك أنك طالب مجتهد

- أشكرك كثيرا

قال عابر: لنعود عما كنا نتحدث عنه فمن خلال هذا الهولوجرام يسافر الوعي كي يتواصل مع عوالم الوعي الأخرى، وهذا ما يفسر الأحلام والتخاطر عن بعد وكذلك ظاهرة سبقت رؤيته أو "الديجافو" كما يطلقون عليه

قال ضياء: لقد رأيت ذات مرة شخصا لم أكن قد قابلته في حياتي، وعندما نظرت في وجهه شعرت بأني أعرفه منذ زمن، إذن لقد رأيت في حلمي عند تواصل عوالم الوعي، أليس هذا مقصده؟

- بالضبط وكانت هذه نظريتي عن الوعي، ويحدث أيضا عندما تذهب إلى مكان ما، لم تكن قد جنته من قبل وتتوقف للحظة، فتدرك أنك قد رأيت من قبل بكل تفاصيله على الرغم من إنها المرة الأولى لك لرؤيته

قال آدم: أنا قد رأيت هذه الجلسة من قبل، وكنت أعرف جيدا أن ضياء سيقول هذا الكلام لكن شيء ما أسكتني عن الكلام فلماذا حدث هذا؟

- أنت قد حضرت هذه الجلسة في حلمك من قبل يوما ما، وقد نسيتهما إلا أنها قد حُفرت في عقلك الباطن حتى أتت اللحظة التي تراها فيها في الواقع، فالزمن في عوالم الوعي غير زمن الواقع، أي أنك سبقت زمنك الواقعي وعرفت ما سيحدث مستقبلا

- لكن ما نوع هذا الزمن؟

- هل حدث أن غُفيت ذات مرة وحلمت حلما طويلا كانت به الكثير من الأحداث التي لو عشتها في الحقيقة لاستغرقت ساعات بل أيام، وعندما أفقت ونظرت في ساعتك فوجدت إنه لم يمر سوى بضع دقائق

- نعم حدث كثيرا، هكذا هو زمن الوعي

- إذن لا علاقة للوعي بالمخ؟

- يا بني إذا قمنا بتحليل المخ فسنجد بعض الدهون والبروتينات وهذه المكونات نفسها توجد في كثير من أعضاء الجسم الأخرى أي أنه في تلك القطعة التي نسميها المخ لا يوجد ما يجعلنا نرى صورا مختلفة

قال آدم: لكن تعلمنا في المدارس أن هناك مركزا للذاكرة في الدماغ، ومركزا للوعي والإدراك

- لقد أثبتت التجارب خطأ ذلك

قال آدم: هذا بالنسبة للوعي أما ماذا يحدث له بعد الموت فتلك قصة أخرى.... أليس كذلك يا دكتور؟

- دوما ما يتساءل الناس عن الهدف والحكمة من حياتنا الراهنة في هذه الدنيا، وهل هناك حياة بعد الموت أم لا....

قاطعه آدم: أتؤمن بالبقاء بعد الموت يا دكتور؟

- هل تقصد علميا أم شخصيا؟

ابتسم آدم وقال: كلاهما

- لم يقدم لنا العلم الحديث دليلا على البقاء بعد الموت وكذلك لا يقدم أي دليل ضده، أما شخصيا فأرى أن الحقيقة عن الموت والحياة مازالت غامضة....

قاطع حديثهم حضور النادل بالطعام فتناول الجميع الطعام ثم غادروا جميعا.

لم تكن تلك هي أكبر مشكلة يواجهها رجل الأعمال المخضرم صفوان الأدهم، لقد واجه الكثير من قبل لكنها كانت أشد ما واجهه في ذلك الوقت بعد ظنه إنه استطاع أن يُسيطر على مجريات الأمور كلها، لم يدر بخلده أنه حينما تم القبض عليه في البداية وسهلت الشرطة عملية خروجه من البلاد إنها فقط كانت البداية، بداية التضحية به ككبش فداء لمجموعة من السياسيين ورجال الأعمال الخونة حتى يُفسح لهم الطريق بعد أن كان عقبة في طريق تقدمهم، يأس من التفكير في حل لهذه النازلة التي أحلت به، لكنه على الفور عاد للاتصال بمحاميه الذي وبخه في اللقاء السابق.

لم يكن يهوذا محاميا عاديا لرجل أعمال بل كان صديقه المقرب، وكان زميل كفاحه فمنذ بداياته وهما يعملان معا في عمليات النصب والاحتيال، فيهوذا شديد الذكاء والفتنة والدهاء يعرف جيدا كيف يقلب الأمور لصالحه، كما أنه العقل المدبر لغالبية أعمال صفوان الأدهم المشبوهة، التي كانت السبب الأول في تكوينه لتلك الثروة الهائلة التي امتلكها.

بدءاً سوياً وتمتعا بحياة رغيدة سهلة على الرغم من تنقلاتهما الكثيرة في البلاد المختلفة هرباً من السلطات، وقد كان صفوان الأدهم هو الذي شجعه على دراسة القانون، وساعده في الحصول على شهادة جامعية من أعظم الجامعات في البلاد، كما أن عقله المتقد جعل منه محامياً بارعاً استفاد منه صفوان فيما بعد كثيراً.

درس يهوذا المحاماة وحصل على الشهادة، وأصبح بعد مرور سنوات من أعظم المحامين الذين شهدتهم البلاد مؤخراً، ويمتلك يهوذا الملايين من عمله مع صفوان، كما أن له قدرة عجيبة في التحايل على القانون، كان صفوان يقوم بالتدبير والتخطيط، وإذا سقط يأتي دور يهوذا ليدافع عنه، وإذا لم يجد ثغرة في القانون ليُخرجه بها، كان يسلك الطريق الآخر، وهو رشوة القضاة ورجال الشرطة وغالباً ما كان يفعل ما يريده.

لم يواجهها معاً قضية صعبة أو خاسرة أو يستحيل حلها، إنهما لا يعرفان الفشل، لكن تلك المرة الغربية هي التي قرر فيها يهوذا الهروب، وعدم الدفاع عنه لكن لماذا؟ هل هذا لصعوبة القضية أم أن هناك شيئاً يُخفيه يهوذا ولم يعلمه صفوان بعد.

لم يجد رجل الأعمال سبيلاً إلا أن يتحدث مع محاميه مرة ثانية وبالفعل اجتمع معه وقال له: ما العمل الآن؟

رد عليه يهوذا: ما بيدي حيلة لأحتال بها على القانون هذه المرة

- أنا لا أحدثك عن القوانين أيها الأحق، نحن من نصنع القوانين

- ليس بعد

- ماذا تقصد؟

- حتى رجال المجلس الوطني أعلنوا تخليهم عنك

- سنغدق عليهم بالمال كعهودنا سابقاً

- ومن أين لك بالمال أيها الفطن، لقد قلت لك إنها قد صُودرت جميعها

- يملكني إحساس بأنك تُغلق جميع الأبواب في وجهي، لم تكن تلك عادتك،

ما الذي غيّرَكَ؟

- الكل يتغير تلك هي سنة الحياة

- إذن أنت في صفهم؟

- أنت تفهمني خطأ، أنا دوما في صف الكاسب

- أنا صديقك قبل كل شيء

- لا مجال للعواطف في العمل، أليست هذه كلماتك

صاح في وجهه صارخا: أنت خائن خسيس

- بل أنت الذي تجبرت يا صفوان، وبدأت تتصرف وكأنك قد ملكت الدنيا والناس أجمعين

- أغرب عن وجهي أيها الخائن، لا أريد أن أسمع كلمة أخرى، وسأتولى أنا حل هذه المشكلة ولا أريد أن أرى وجهك القبيح هذا مرة ثانية.

غادر يهوذا من أمام وجهه، وعاود أدراجته، وبعد انصرافه بلحظات قليلة سمع صفوان طرقات شديدة على الباب فارتعدت أوصاله، وبدأ القلق يتسرب إليه، ولما لم يفتح الباب حطمه رجال الشرطة وأمسكوا به واقتادوه إلى مركز الأمن في انتظار الانتهاء من أوراق ترحيله إلى بلده.

بعد ساعات انتهى رجال الشرطة الدولية من عملهم واقتادوه إلى طائرة خاصة، انطلقت به إلى بلده ولدى وصول الطائرة المطار خرج من الطائرة، وهو مكبل بالأغلال فوجد حشدا كبيرا من الإعلاميين والصحفيين وانطلقت أضواء الكاميرات لتصويره، وهو يحاول جاهدا أن يخفي وجهه عنهم، وبدأ أولئك الثرثارون في استجوابه وسؤاله لعلمهم يحصلون منه على أية أخبار أو معلومات يملأون بها صفحات جرائدهم. لم يعرهم اهتماما ولم يرد على أي من أسئلتهم إلى أن أتت سيارة الشرطة وأقلته إلى المركز الأمني للتحقيق معه.

كان نضال يقف على بعد خطوات قليلة من الطائرة التي نزل منها صفوان الأدهم، يتفحصه من بعيد ويراقب الموقف عن كثب، ونظر في وجهه فأصابته الدهشة مرة أخرى وقال محدثا نفسه إنه هو بشحمه ولحمه بجميع ملامحه، إنه من رآه مسبقا منذ فترة ليست بالطويلة في السجن، وهو أيضا من رآه على أطراف العاصمة عند الغاية في لقائه مع السياسي جلال الديب، لكن آخر مرة كان في السجن حينما طلب نضال مقابلته وجها لوجه، ماذا يحدث بالضبط؟ هكذا كانت تدور التساؤلات في عقل نضال عندما رآه يترجل من الطائرة فقال

لنفسه أليس في السجن؟ لعله هرب وإذا كان قد هرب من السجن لماذا اخفت الشرطة هذا الخبر؟.

حاول كثيرا تفسير الأمر، كان يعتقد إنه قد رشى بعض رجال الشرطة، أو أن له شبيها آخر انتحل شخصيته، فبأمواله يستطيع أن يفعل أي شيء، وتساءل كيف لهؤلاء الناس من إعلاميين وصحافيين أن ينسوا فجأة أنه مسجون من قبل، ثم يرونه أمامهم، ألم يتساءل أي منهم عن ذلك؟ إن الأمر مريب وغريب فعلى الرغم من أن عادة الناس النسيان السريع إلا أنه لا يصح أن يشمل هذا النسيان هؤلاء الإعلاميين.

توصل في النهاية إلى أنه من الممكن للأموال أن تفعل فعلتها وتمحي ذاكرة رجال الإعلام، عاد نضال إلى الجريدة ودخل مسرعا إلى مكتب رئيس التحرير وأخبره بهذا الموضوع وقال له: لنجعل من هذه الأسئلة صفحتنا الأولى

- تريد أن تتحدث عن تورط رجال الشرطة في الموضوع؟

- ليس لهذا اللغز حل آخر

- أراك غير متأكد فكلها تخمينات وشكوك

- فكر معي، طوال الطريق إلى هنا ولم يتركني التفكير لحظة واحدة في هذا الأمر فأنظر إلى ماذا توصلت؟

- هيا احكي قصتك

- في البداية أعلنوا القبض على رجل الأعمال وطرحوه في السجن

- تمام

- ثم أراه بنفسه يجتمع مع جلال الديب

- تمام

- ثم أذهب إلى السجن فأجده هناك

- جميل

- ثم يصدر قرار آخر بتهامه في قضية التلاعب في البورصة ويأمرؤا بالقبض عليه

- وماذا في ذلك؟

- يا إلهي، سوف يختل عقلي، هل يتم إصدار قرار بالقبض على أحد وهو بالأساس في السجن يا سيدي؟

- معك حق، لقد تشتت ذهني، أكمل

- ثم تأتي الشرطة الدولية وتسلمه للشرطة المحلية هنا في البلاد، ومعنى هذا أنه لم يكن في السجن وأنه كان في الخارج

- إذن لقد هرب

- هذا ما فكرت فيه في البداية ولكن..

- لكن ماذا؟

- إذا كان قد هرب فمن المفترض أن تعلن الشرطة عن هذا

- صحيح

- هل سمعت عن هروبه؟

- لا

- هذا ما أقصده تماما، لو كانت الشرطة قد هربته وهذا ما حدث على ما أعتقد فالشرطة متواطئة معه في هذه القضية

- إذن ستفتح علينا أبواب الجحيم مرة أخرى

- هناك شيء يُحيرني بالفعل في هذه المسألة

- وما هو؟

- إذا كان قد سافر إلى الخارج بعد مقابلة جلال الديب فلماذا بعدها بثلاثة أيام وجدته في السجن، أذهب إلى السجن ويعود إليه كيفما يشاء؟

- وما أدراك إنه قد سافر بعد مقابلة جلال

- علمت من مصادري

- هناك حلقة مفقودة في هذه القضية

- لكنني سأجدها وحينها لن تمنعني من النشر أليس كذلك؟

- فلتجدها أولا ثم نرى ماذا نحن فاعلون؟.

مرت الأيام وهو يجد ويبحث في هذه القضية لعله يستطيع أن يحلها، كانت بالنسبة إليه قضية شخصية، وليست قضية عامة يحاول أن يكشفها، كان يردد دائما أن يُوفق إلى كشف فساد رجال الشرطة وينشر تحقيقه الذي سيعلوه به إلى ناطحات السحاب في مشواره الصحفي، مرت أيام طويلة عليه وهو يجد في البحث تارة في شركات صفوان الأدهم لعله يحصل من هناك على أي أخبار تُفيدة ومرة أخرى يفتش عن معارف رجل الأعمال وكان حينها ينتحل شخصية مستثمر يريد استثمار أمواله في شركات صفوان الأدهم.

انتهى التحقيق مع رجل الأعمال وحكمت عليه المحكمة بالسجن لمدة ثلاث سنوات في قضية التلاعب بأسهم سوق المال وذهب إلى السجن بالفعل.

في تلك الأوقات كان نضال مازال مشغولا بمحاولة إثبات تورط جهاز الشرطة في القضية، فلو أنه استطاع بالفعل كشف هذا الفساد لثارت ضجة كبرى وفضيحة مدوية على كافة الأصعدة السياسية والاقتصادية في البلاد.

عاد نضال إلى منزله فحيا شقيقته آسية وجلسا معا لتناول الطعام، وبدأ يتحدث معها عن قضيته التي أصبحت شاغله الشاغل، وأخبرها أيضا بالحلقة المفقودة التي لم يستطع حتى الآن أن يجدها

قالت له آسية وهي تبتسم: الموضوع أبسط ما يكون

- كيف ذلك؟

- تقول إنه يمتلك مليارات؟

- بالفعل

- إذن لقد دفع الأموال لرجال الشرطة حتى يخرج من السجن

- هذا ما أدركه جيدا

- انتظر حتى أكمل

- سأصمت إذن

- تقول أنه سافر للخارج في اليوم الذي رأيته فيه مع جلال الديب، أليس

كذلك؟

- نعم

- وعندها أثرت ضجة حول رؤيته حرا طليقا وذهبت إلى وزير الداخلية،
أليس كذلك؟

- بالضبط

- ووزير الداخلية هذا يعتبر أعلى سلطة في الأمن؟

- صحيح

- فلماذا لا بد لوزير الداخلية أن ينتظر ثلاثة أيام حتى تحصل منه على
تصريح، ولما التصريح من الأساس؟

حك رأسه وشرّد بذهنه بعيدا للحظة ثم قال: أتقصد أن وزير الداخلية
اقترح موضوع التصريح فقط حتى يتدبر الأمر مع رجل الأعمال

- بالضبط وتلك هي حلقتك المفقودة يا ذا العقل اللبيب

- إذن وزير الداخلية متورط وليس رجال الشرطة فقط

- بالضبط وما أكد لي ذلك حديثك عن سفره إلى الخارج وهو محكوم عليه
ويمكث في السجن، قل لي مَنْ يستطيع أن يقوم بإخراجه من البلاد إلا أعلى
سلطة في الأمن

- إذن وزير الداخلية هو مَنْ وراء كل ذلك؟

نهض من مكانه منتفضا وهو مبتهج فرحا وراح يقبل أسية ويقفز من مكانه
قفزات ووثبات ويقول لها: أشكر هذا العقل الذري

ردت عليه مازحة وقالت: الموضوع بسيط لا يحتاج إلى عقل ذري، أنت الذي
يملك عقلا غبيا.

أفاق الشيخ عزيز من غشيته صباح اليوم التالي بعدما أحرقته أشعة
الشمس اللاسعة، حاول النهوض بتأني وهو يتحسس الألم في رأسه من أثر
الضربة التي تلقاها الليلة الماضية في الظلام الحالك، فتح عينيه ووقف منتصبا
ناظرا أمامه فوجد ذلك الممر الذي كان فيه ليلة البارحة وفي نهايته ذلك
التمثال المخيف الذي يقطن هناك، حاول أن يتذكر ما حدث له بالأمس، أشاح
بوجهه ناحية الأرض فوجد حاملا حديديا ملقى بجانبه والحبال التي كان مُعلقا

بها هذا الحامل قد تقطعت فسقط الحامل حينها على رأسه وهو ما جعله يُغشى عليه.

كان اعتقاده أن أحدا ما قد قام بضربه على رأسه، ولكنه أدرك أخيرا أن الموضوع كله مجرد صدفة، لكن أكثر ما كان يُقلقه هو أصوات الموسيقى التي كانت تُعزف في الغرفة الموجودة خلف التمثال ولم يحاول فتحها بعد، وكلما تذكر ما حدث معه بالأمس ارتجف خوفا، فحاول أن يستجمع شتات نفسه وظل طويلا يتحدث نفسه بأن كل ذلك ما هو إلا تخيلات توهمها، وإنه من الممكن أن تكون تلك الأصوات التي سمعها هي الأصوات التي سمعها في دار الأوبرا ومازالت ترن في أذنيه.

اطمأن قليلا لتلك الأفكار محاولا أن يُبعد الأفكار الأخرى الخاصة بالأشباح عن رأسه، نظر إلى المكان ثانياً وقد انتشر فيه ضوء الشمس فوجد زجاج النوافذ الصغيرة في الممر محطما، وأشلاء الزجاج تملأ الأرض فتذكر ما فعلته به الرياح والأمطار والبرق والرعد في الليلة الماضية.

قرر أن يُنظف القصر من التراب الذي ملأه حتى يستطيع أن يعيش فيه ويتغلب على مخاوفه هنا في ذلك القصر، فقد كان على اقتناع تام بأن الأشباح والعفاريت لن تستطيع أذيته بأي حال من الأحوال إن كانت موجودة بالفعل في القصر.

حاول استكشاف المكان أولا قبل أن يقوم بتنظيفه، فذهب أول ما ذهب إلى تلك الحجرة التي كانت تخرج منها الموسيقى، ولكن عندما اقترب منها عاودته تلك الأفكار الشنيعة بشأن ما سمعه البارحة فنظر حوله، وجد الكثير من أبواب الغرف التي تنتشر بشكل دائري حول التمثال، وأدرك أن التمثال يقع في منتصف الطريق بين الممر وبين الغرف الكثيرة.

ترك هذا الباب المؤدي إلى الغرفة التي خرجت منها الموسيقى، وراح يتفقد باقي أبواب الغرف الأخرى. أمسك مقبض الباب الثاني بعد تلك الغرفة، وحاول فتحه لكنه وجدها غرفة موصدة، فذهب إلى الباب التالي فلم يُفتح هو الآخر فانتقل إلى جميع الأبواب الأخرى لكنه لم يستطع فتح أي منها.

أدرك على الفور أن جميع أبواب الغرف موصدة، شرد للحظات يُفكر فيها حول ما سيفعله، وهدهد تفكيره إلى أن يذهب إلى العجوز صاحب القصر ليحصل منه على مفاتيح الغرف المغلقة، لكنه تمهل قليلا ونظر في ثقوب

الأبواب جميعها فوجدتها واحدة، رآها تحمل نفس شكل المفتاح التي حصل عليه من العجوز فظن أن بإمكان المفتاح الذي حصل عليه أن يفتح جميع الغرف في القصر.

عاد إلى السير في الممر الطويل وتذكر أن البوابة الحديدية الكبرى قد أُغلقت عليه في الليل وحبسته بالداخل، رنا ببصره إلى النوافذ المحطمة أمامه والمفتوحة على مصراعها، وقرر أن يتسلق إحداها ليخرج إلى الحديقة ويحصل على المفتاح من الخارج تشبث جيدا بالنافذة، أدخل قدميه بداخلها ثم حاول أن يضم جسده وانحنى برأسه ليحاول الخروج ولمّا دخل جزء كبير من الجسد والرأس بداخل النافذة الصغيرة حُشر بداخلها ولم يستطع حينها أن يخرج إلى الحديقة ولم يستطع كذلك أن يعود إلى الداخل مرة أخرى.

ظل يحاول مرارا وتكرارا الخروج لكن محاولاته جميعها قد باءت بالفشل، قام أخيرا ببعض الحركات العصبية بجسده لعله يخرج من هذا المأزق فحُشر جسده بقوة أكبر، وشعر أن بعض المسامير، وبقايا الزجاج تخترق جسده فتوقف عن الحركة مخافة أن تؤذيّه، ولمّا يأس أخذ ينادي بأعلى صوته على العجوز حتى يُنقذه مما هو فيه وفجأة وهو على ذلك الوضع الصعب تطرق إلى سماعه موسيقى سمعها بوضوح أكثر هذه المرة تخرج من تلك الحجرة.

تجمدت أوصاله، وانتابه الفزع حتى اصفر وجهه وشّل تفكيره، لكنه لم يستطع أن يفعل شيئا، حينها صرخ بصوت جهور لعل أحد يسمعه فيُغيثه على الرغم أنه يعرف جيدا أنه لا أحد سيسمع صراخه في ذلك المكان الموحش المهجور الذي لا يسكنه أحد سوى هذا العجوز الغريب.

صرخ مرات ومرات لعل صراخه هذا يصل إلى أذان العجوز وهو يتفكر في مكانه هذا أن العجوز ربما قد سمع صراخه وهو يحاول الحضور الآن، لكنه بطيء الحركة ثقيل المشي نظرا لكبر سنه وضعف بنيانه ولا يقوى على حمل شيء فهو يحمل مصباحه العتيق بالكاد، وماذا سيفعل له العجوز إذا أتى؟ لكنه تمسك بأهداب الأمل حتى اللحظة الأخيرة فالغريق دائما ما يتعلق بقشة.

ظل على وضعه طويلا والرعب يتملكه كلما سمع أصوات الموسيقى تنطلق من الحجرة وهو يصرخ حتى ذهب صوته.

جاءه العون والمدد أخيراً، لقد حضر العجوز ومعه كلبه الذي يتبعه أينما ذهب، لكن عزيز لم يكن رأى هذا الكلب ليلة البارحة، أتى العجوز وحاول أن يُخرج عزيز من مأزقه هذا، ولكن بنيانه الهزيل لم يساعده في ذلك الأمر.

تفكر العجوز قليلاً ثم أحضر حبلاً ولف طرفه حول جسد عزيز، ثم قام بوضع الطرف الآخر بفم الكلب ثم أمر الكلب بالركض وهو مُمسك الحبل حتى سقط عزيز من النافذة إلى أرضية الحديقة، نهض من مكانه يتألم ويتفحص آثار المسامير والزجاج التي اخترقت جسده، ثم شكر العجوز فقال له العجوز وهو يضحك: لا تشكرني ولكن اشكر الكلب

ضحك عزيز وقال له العجوز: مَنْ الذي فعل بك هذا؟

- لم يفعل بي أحد، أنا من فعلت هذا بنفسني

- ولماذا فعلت هذا؟

- لقد أغلقت البوابة الحديدية، وقد نسيت المفتاح في الخارج، وحينما تفقدت الغرف وجدتها موصدة فخمنت أن طريقة فتحها بمفتاح واحد، لكنني لم أجد طريقاً سوى من خلال النافذة فحدث ما حدث

ضحك العجوز بشدة على حديث عزيز، واحمرت وجنتا عزيز من الخجل، لكنه فضل ألا يخبر العجوز بكل ما حدث له من أحداث بالأمس

فقال له العجوز: أبنتك هنا في النافذة؟

قاطعته عزيز: لا، إنها اليوم فقط

- وماذا عن الأشباح؟ ألم تقابلك بعد؟

تعجب عزيز من حديث العجوز وبادره بالسؤال: أشباح؟! أهنالك أشباح؟ قلت لي البارحة بأنك لا تؤمن بوجودها

- إني أمزح معك

- ولكني...

كاد أن ينبئه بما حدث ليلة الأمس، لكنه سكنت عن الكلام فجأة حتى لا يشعر بمزيد من الإحراج مع ذلك العجوز الذي يسخر منه باستمرار

قال له العجوز: في الحقيقة أنا لم أضحك هكذا منذ زمن بعيد، كاد قلبي
أن يخرج من بين أضلعي من كثرة الضحك

جلس الاثنان على أرضية الحديقة وبادره العجوز بالسؤال: كيف كانت
ليلتك الماضية؟

انتاب عزيز مزيدا من الارتباك وظهر الاضطراب عليه ثم تدارك الأمر وقال:
كانت أكثر من رائعة

قال العجوز مازحا: يبدو على وجهك بالفعل إنك قضيت ليلة رائعة، أنت
تكذب يا فتى ، قل لي ماذا حدث؟

- سأعترف لك لكن بشرط

- أي شرط؟

- ألا تسخر مني

- لن أسخر منك ولكن لي الحق في الضحك أليس كذلك؟

- الضحك نوع من السخرية

- إذن لن أضحك.... لكن إذا لم أستطع أن أمنع ضحكتي سأطلقها

- حسنا لن أحكي لك عن شيء

- كما تشاء، لقد كنت أود مساعدتك

قال متعجبا: مساعدتي؟! في ماذا؟

- في موضوع الأشباح

وخرجت منه ضحكة عالية دوت أصداؤها في أرجاء المكان ثم ربت العجوز
على كتفيه واستطرد يقول: هيا بنا لقد أعددت لك طعام الإفطار، سنأكل ثم
نستكمل حديثنا بشأن الأشباح

وضحك مرة أخرى ثم انطلقا ناحية الكوخ الصغير لتناول الطعام.

سار صوفي بين الطلاب وهو يتابع لوحاتهم ثم توقف أمام واحدة وقال:
عندما نظرت إلى هذه اللوحة أيقظت بداخلي ذكريات جميلة على الرغم من
قباحة اللوحة من الناحية الفنية.....

ثم أشار صوفي بإصبعه إلى لوحة أخرى وقال هذه اللوحة جميلة من الناحية الفنية، على الرغم من أن المنظر ثقيل على نفسي هذا بالنسبة للوحة سام...

أما الآن فالننتقل لنُلقي نظرة على لوحة ضياء.....

ثم قال بعد أن نظر فيها مليا: هذه اللوحة تحكي قصة الواقع.... ألقى اللوحة من يده، وتناول اللوحة التي رسمتها روز، فظهرت عليه علامات الامتعاض حينما وقعت عيناه عليها

ثم قال: تلك صورة من صور الفن المنحط، هنا هزيان صوري محض..... ألقى نظرة أخرى على لوحة آدم ثم طفق يقول: لا يمكن تخيل شيء غير موجود، فالخيال تصور لأشياء مستوحاة من الواقع، فكيف يتخيل الإنسان شكل الملائكة أو الشياطين وهو لم يرههم.....

لم يعد أمامه سوى لوحة وحيدة تلك التي تخص إمام قال عنها: هل هناك قانون جنائي يحكم على صورة بالسجن أو بالإعدام؟.....

وبعد إطلاعه على جميع اللوحات قال: أحب أن أشكر الجميع لكن هناك دائما الأفضل، وهذا ليس أفضل ما ستقدمونه، عليكم بالعمل والاجتهاد، أرى أن الجميع متسرع، وهذا حظ الشباب لكن لا بد أن تُعطوا الأولوية للعقل والتفكير..... الإبداع لا يأت فجأة.....

سكت قليلا ثم استأنف حديثه: فالنجعل أساس عملنا سليما ليصح البناء قال آدم: نعرف جميعا كيف نرسم لكن الإبداع هو المهم، كيف نُبدع يا سيدي؟

- الإبداع يحتاج إلى بحث ودراسة، ولكي تبدع لا بد أن تكون في حالة هدوء تام داخليا وخارجيا، فلا بد أن يكون الفنان في حالة انسجام جسدي وعقلي وروحي ونفسي، ويجب كذلك ألا يشعر باليأس والمثابرة، كما يجب عليه أن يتعلم جيدا كيف يُسيطر على عمله، ليصل إلى لحظة يندمج فيها مع عمله....

قال آدم: لقد كنا بحاجة ماسة إلى هذه النصائح فمن حديثك أدركت جيدا إننا نفتقر إلى السكون والسكينة والراحة النفسية.

- انظر إلى طريقة الحياة الآن وقل لي ماذا تجد؟

لو أنك فقط أبصرت، لوجدت أن معالم الدنيا قد تغيرت إلى الأبد، ابتعد الإنسان عن الطبيعة، عن الجمال النقي، عن المشاهد الرائعة التي لم تلوثها أيادي البشر، وتيرة الحياة أصبحت أسرع، لم يعد هناك وجود للحظات التأمل الجميلة الهادئة، لقد تغير كل شيء، انظر إلى المدن تجد شوارعها تفوح برائحة البترول، تتوتر أعصابنا من ضجيج السيارات، الشوارع خانقة وضيقة، زحام في كل مكان، الحشود الغفيرة من الناس تغدو وتروح بلا كلل أو ملل، قل لي الآن لماذا يجب علي أن أعيش في مثل هذا الجو المريع؟

رد عليه الشيخ عزيز قائلاً: ألهذا فضلت أن تعيش وحيداً في ذلك الكوخ الخشبي بعيداً عن كل ما ذكرته؟

رد عليه العجوز وقال: أنا هنا من قبل أن تزحف هذه المنازل على هذه المدينة الهادئة، كنت أنا والصحراء فحسب

- وهل كنت مستمتعاً حينها؟

- أحب أي مكان في الدنيا لم تمسه اليد العابثة للإنسان، أحب الجمال الإلهي، والطبيعة البكر، إذا نظرت إلى جمال طبيعي لم تمسه يد إنسان ستجد فيه الفن والجمال

- وما علاقة الفن بالجمال الذي تحكي عنه؟

- الفن جزء من الجمال والكون جزء من الجمال، والجمال هو اللمسة الفنية من يد الإله، عشنا طويلاً نتأمل ببهجة جمال الحيوانات والزهور والأشجار والسماء والمحيطات والجبال، أما الآن فقد طمس الجمال بواسطة التعليم والعادات اليومية وغباء العمل، لأن حضارتكم الصناعية اللعينة أحاطتنا بمناظر قبيحة كريهة مشوهة وحولت الجميع إلى آلات، إنها حضارة قاسية كئيبة وصلت بالناس إلى مرحلة الكبت

- حديثك شيق أيها العجوز

- أشكرك ولكن لنعود إلى موضوعك الأساسي

- أي موضوع؟

- الأشباح، وكيف قضيت ليلتك الماضية؟

قص عليه عزيز ما حدث معه الليلة الماضية ورد عليه العجوز قائلاً: كل ما حدث لك ما هو إلا خيالات وأوهام وأوهمت نفسك بها، فالزجاج تحطم نتيجة الرياح الشديدة ليلة أمس، وازداد الوضع سوءاً عندما تحطم المصباح الذي كنت تحمله في يدك

توقف الشيخ عزيز قليلاً ثم قال: معك كل الحق فأنا فكرت في كل هذا من قبل، لكن الموسيقى، لقد سمعتها جيداً واخترقت أذنائي أهي وهم كذلك؟

- قلت لي إنك تعمل في دار الأوبرا، وكنت عائداً منها ذلك اليوم فربما مازالت الألحان ترن في أذانك

- اعتقدت ذلك في البداية، لكنني قد سمعتها اليوم، كذلك سمعت صوت البيانو وكأن أحداً يعزف عليه

- بيانو! قالها العجوز متعجباً وبدت على وجهه علامات الدهشة

- هل تملك بيانو في هذا القصر يا سيدي؟

تساءل العجوز: أنت لم تفتح الغرف بعد أليس كذلك؟

- بلى، لم أدخل أية غرفة من الغرف حتى الآن؟ ولما تسأل؟

تلعثم العجوز وقال: نعم نعم.... أملك بيانو في إحدى غرف القصر، وكنت كثيراً ما أقوم بالعزف عليه

- وهل كنت بالقصر في الليلة الماضية تعزف عليه، أخبرني بالله عليك

- قلت لك يا فتى أي لم أدخل القصر منذ عشرين عاماً.

انطلقت السيارة بسرعة إلى أطراف العاصمة حيث الغابة والجبال الشاهقة التي تلامس قبة السماء في منظر رائع بديع، وإزاء هذا المنظر الطبيعي الهائل المترامي الأطراف شعر آدم بغائية الكون، وأمام تلك الرهبة والهيبة لشمخ الجبال العظيمة كان إحساسه قوياً بالجمال الطبيعي، وشعر بالحرية في هذا المكان فالحياة هنا لمدة أسابيع قليلة كفيلة بتطهير عقله من نسيج العنكبوت الذي يعيش فيه.

نظر إلى ميلاد وقال له: ما رأيك في هذا المكان؟ لقد اكتشفته حينما حضرت إلى العاصمة، تراه يُشبه مكاننا على التل أمام النهر في المدينة

- لا بالطبع هذا المكان رائع بكل ما للكلمة من معنى
- اتخذ الصديقان مقعدهما على إحدى الصخور على الجبل ثم بادره آدم قائلا: لقد تعلمت كثيرا عن الفن وعلاقته بالروح
- أنا كذلك تعلمت الكثير عن العلم وقدرته على تفسير الظواهر والأشياء
- ألا ترى بأننا من الممكن أن نلتقي في مكان ما؟
- إنني أرى أن البشر قادرون من خلال العلم أن يفهموا على الأقل بعضا من أسرار الطبيعة، لكن ما يُحيرني حقا هو لماذا نحن كبشر الذين يتوجب عليهم حل تلك الألغاز؟
- لأننا نمتلك العقول، أنا لا أصدق أن وجودنا بهذه العقول على هذا الكون كان مجرد صدفة
- معك حق فوجود العقل البشري على هذا الكوكب هو بالتأكيد حقيقة ذات مغزى عميق، ولا يمكن أن يكون مجرد تفصيل سخي قليل الأهمية لقوى لا عقل ولا غاية لها، لقد أريد لنا أن نكون هنا حقا
- إذن لا تؤمن بتطور العقل؟
- أي عقل يتطور يا صديقي إنه شيء جديد تماما على الكون
- ولكن هناك نظرية...
- قاطعه: هذا هو العلم الزائف الذي يصدره أولئك الناس إلى عقول العامة فهم لا يعترفون بأي دين فقط بل ويعدون أي دين خرافة
- ولماذا يعتنقون تلك الأفكار؟
- حتى لا يضطرون إلى الاختيار الأصعب ألا وهو أن هناك إلها
- وما يُضربهم في هذا؟
- حقيقة لا أعلم

دخل نضال جريدته مسرعا بعد أن حل لغز قضيته وكان متبئاً لنشر الموضوع على الصفحات الأولى للجريدة، وبدون أن يطرق الباب دخل سريعا إلى مكتب رئيس التحرير ليُخبره بما توصل إليه ويحصل منه على إذن بالكتابة،

لكن قد أصابته صدمة قوية حينما دخل المكتب فوجد رجل السياسة جلال الديب يجلس أمام رئيس التحرير.

نظر الجالس إلى الشخص المقترح بعصبية وقد زالت بعد أن علموا أنه نضال فبادره رئيس التحرير وهو يشير إلى جلال قائلا: هذا جلال الديب رجل السياسة الشهير، تعرفه بالطبع؟

رد عليه نضال ساخرا: أجل يجب أن أعرفه لقد انتخبته ست مرات في الانتخابات الفائتة

نظر إليه جلال الديب والابتسامة تعلو وجهه وقال: لكن ليس هذا الرقم القياسي يا سيدي

ضحك رئيس التحرير، ودعا نضال للجلوس، وعندما قام بسحب كرسي ليجلس عليه استأذن جلال بالرحيل، حاول رئيس التحرير أن يستيقه لكنه رفض وغادر الجريدة وقال له وهو يهيم بالرحيل: لا تنسى أن تفكر في حديثنا

- لقد وعدتك بأني سأفكر في هذا الحديث على الرغم من أنني لا أحب التفكير، قالها مازحا

أغلق نضال باب المكتب بعد انصراف جلال، وجلس أمام رئيس التحرير غاضبا وقال له: ما الذي أتى بهذا الرجل إلى هنا؟

- لقد طلب مقابلي

- ولماذا يطلب مقابلك لعل الأمر خير، مع علمي بأن أمثاله لا يحملون خيرا مطلقا

- سأحدثك عن هذا الموضوع فيما بعد، ولكن قل لي لما أتيت بسرعة هكذا؟

- لقد وجدت الثغرة

- أية ثغرة؟

- التحقيق الخاص برجل الأعمال صفوان الأدهم

- وماذا وجدت؟

شرح له نضال القصة ثم أمره رئيس التحرير بكتابة تحقيقه ثم يطلعه عليه بعد الكتابة حتى يرى بنفسه إذا كان يستحق النشر أم لا

رد عليه نضال وقد أريد وجهه من الغضب وقال له: منذ متى وأنت تراجع عملي؟

- لا تفهمني خطأ، لقد أردت فقط المراجعة حتى أعلم إذا كان تحقيقك سيسبب لنا مشاكل أخرى نحن في غنى عنها

- ومنذ متى ونحن نخشى المشاكل، لقد تغيرت

- أعذرني فلم أعد أقوى على الدخول في حرب أخرى

- إذا كنت كذلك فلترحل ولسوف نأتي بآخر قوي لا يخشى شيئا، اعتقد الآن أن زيارة جلال لها علاقة بالأمر

- احترس من كلامك فأنا مازلت على عهد الصداقة بيننا

- أهكذا إذن.

وتركه وغادر إلى الخارج ثم جلس لحظات قليلة على مكتبه وأمسك بورقة وقلم، كتب شيئا علميا وترك الجريدة، قام رئيس التحرير بالاتصال بهاتف مكتب نضال العديد من المرات لكنه لم يجد مجيبا، فأرسل العامل ليتفقدته فعاد العامل خائب الرجاء، وأخبره أنه ربما قد يكون غادر.

نهض من مكانه وانطلق ناحية مكتب نضال فوجد ورقة موضوعة على المكتب وفي وسطها كلمة "استقالة".

عاد نضال بتحقيقه إلى الباب الذي لم يُغلق قط في وجهه وهو تليفزيون الواقع، وأخبر مدير القناة بالتحقيق الذي يملكه فوافق على إذاعته في برنامج مع الإعلامي الكبير "مظهر" وتم الاتفاق مع مظهر كذلك.

قام نضال بالإعداد لحلقة كاملة عن تلك القضية، وفي موعد البرنامج قام مظهر باستضافة نضال مستور كضيف وكان يحمل بيديه المستندات والأوراق التي حصل عليها، كانت فكرة البرنامج تقوم على استضافة نضال ليتحدث بنفسه عن تلك القضية حتى يتحمل هو فقط العواقب ولا شأن للقناة بذلك.

كان البرنامج ذو شهرة واسعة وله نسبة مشاهدة عالية جدا وذلك ليس فقط للموضوعات التي يقدمها مظهر على الشاشة لكن لسخريته اللاذعة وحسه الدعابي الطريف.

عرض نضال في البرنامج مجموعة من القصصات الصحفية القديمة التي تتحدث عن القبض على رجل الأعمال لاتهامه في قضية التسرب البترولي، وتلوث البيئة ثم حكمت المحكمة بسجنه عام ولم ينته العام حتى اتهم في قضية التلاعب في أسواق المال، وقد أعلم المشاهدين كيف لم يتحدث أحد في وسائل الإعلام عن هذا الأمر الواضح وضوح الشمس بأنه قد صدر أمر لجميع الصحف والقنوات بعدم الحديث عن أي شيء يخص رجل الأعمال، وشرع في فضح تواطؤ وزير الداخلية في القضية.

بعد البرنامج قامت ضجة كبيرة جدا في البلاد وأصبحت القضية حديث الناس في الشوارع، واضطرت الحكومة إلى إقالة وزير الداخلية على إثر هذه القضية، كما قامت النيابة بالتحقيق مع كل من تورط فيها، شعر نضال بالزهو وبنشوة الانتصار الذي حققه وما عليه الآن سوى التخلص من عدوه اللدود جلال الديب عمدة العاصمة.

طفق يفتح الملفات القديمة الخاصة بتزوير الانتخابات وحصل على موافقة مبدئية من القناة على عمل حلقة أخرى عن فساد رجل السياسة هذا، وفضيحته في تزوير الانتخابات، وبدأ نضال يعمل على هذه القضية.

أما ما جعل القناة توافق على تلك التحقيقات هو ما حققته من أرباح خيالية لم تكن تحلم بها في يوم من الأيام فحصوله إعلاناتها قد زادت أضعافا مضاعفة، والشركات الراعية قد أنفقت مبالغ ضخمة على هذه الحلقة.

تنفس نضال الصعداء حينما وجد أخيرا هذا الباب الذي سينقل من خلاله الحقيقة الكاملة، ويساعد الناس في التخلص من الفساد وقد أصبح اسمه على كل الألسنة، وذاع صيته في جنبات البلاد وانتشرت شهرته عاليا.

عندما تحدث مع مدير القناة عن تلك القضية الخاصة بالانتخابات، والتي عمل عليها كثيرا في السابق اقترح أن يتحدث عنها منذ البداية حتى إغلاق الجريدة بسبب الهجوم الذي شنته وسائل الإعلام الأخرى عليها، أصر مدير القناة على عدم النيش في الملفات والقضايا القديمة، وهو على علم بما حدث من قبل لجريدة عصور الظلام فآثر السلامة، وخشى أن يحدث لقناته مثلما حدث من قبل للجريدة، وأخبره أن يبحث عن موضوع آخر.

لم يشأ حينها أن يُفسد فرحة انتصاره الذي حققه لتوه فأجل الحديث عن هذا الموضوع لوقت لاحق، ثم عاد لمنزله وقلبه يتراقص بدقاته من السعادة وبما

أحدثه من ضجة في البلاد، وعند دخوله المنزل قابلته شقيقته أسية بالترحيب وهي متعجبة من فرحه وطربه، فلم تكن قد عهدته كذلك من قبل، دعاها إلى الخروج وتناول العشاء في مكان فاخر احتفالاً بهذا الحدث، نزلت أسية على رغبته وارتديا ملابسهما الأنيقة وكان في الطريق يغني ويقول: لقد انتصرت، لقد أسقطت وزير الداخلية.

نظر الشيخ عزيز إلى ساعته فوجد أن الوقت تأخر فقال للعجوز: معذرة يا سيدي كنت أود أن نكمل حديثنا لكن لدي عمل فنحن نعد لحفل الليلة في دار الأوبرا

- إذن فلتذهب إلى عملك ولنا حديث آخر عند عودتك

هرول عزيز إلى دار الأوبرا، بدأت الفرقة في الإعداد لحفل اليوم، اتخذ مقعده من الفرقة وأمسك بمزمارة وشرع الجميع في العزف، لم يقطع عزفهم سوى رجل أتى من بعيد فطلب منه مدير الفرقة أن يجلس على البيانو ليُسمع الجميع عزفه بعد أن استأذن من لوثر حتى يتنحى له عن مكانه.

قام هذا الشخص بالعزف طويلاً حتى انتهى ونظر إلى مدير الفرقة منتظراً رأيه حتى يعرف إذا كان سيقبله في الفرقة أم لا

نظر المدير إلى الجميع وقال: الموسيقى ذلك الفن الذي ينبغي أن يكون أكثر من غيره من الفنون فهما للجميع وبدرجة واحدة

ووضع يده على كتف الشخص الذي كان يعزف، واستأنف حديثه: كان ذلك فيما مضى قبل أن يجور عليه الزمن، وكان الجميع يعرفه جيداً لذلك لما دخل هذا الشخص توقف الجميع عن العزف، لكن الشهرة وحدها لا تكفي فلا بد من الموهبة والعبقرية

ثم أشار إلى هذا الشخص وقال: يجلس خلف البيانو ويعزف حسب قوله مقطوعة جديدة له، وأنتم تسمعون أصواتاً غريبة عالية، وتندهشون من تمارين الأصابع الجبازية، وترون بجلاء أن هذا الموسيقي يرغب أن يوحى إليكم بأن الأصوات التي يؤلفها هي من قبيل الروح الشاعرة، غير إنه لا يصلحكم أي إحساس بموسيقاه سوى الإحساس بالملل

ابتسم الجميع ثم نظر القائد لهذا الشخص الشهير وقال له: سامحي فلا أحب المجاملات، أنت لا تصلح للعزف ولا للموسيقى، أنت فقط تصلح للشهرة. ولقد تخلت عنك هي الأخرى

غضب الفنان غضبا شديدا وقال له: مَنْ أنت لتحكم على فنان عظيم مثلي، أعظم الموسيقيين في العالم لم يكتشف أحد موهبتهم العظيمة إلا بعد أن ماتوا، وفهموا بعدها موسيقاهم، وعلى كل حال أنا المخطئ حتى أحضر إلى مكان كهذا يمتلئ بـحثة العازفين

ثم تركهم وغادر الدار لكن مدير الفرقة استوقفه وقال له: قبل أن ترحل، أرى أنك لم تكتسب في حياتك سوى الغرور

ثم نظر إلى الفرقة وقال لهم: عودوا إلى عملكم.

انتهى الاستعداد للحفل وقد قاربت الساعة على الرابعة من عصر اليوم، ذهب عزيز ولوثر إلى مكتب مدير الأوبرا، بدأ الأب لوثر بسؤال عزيز قائلا: لقد تأخرت اليوم، هل حدث شيء في سكنك الموعود؟

- حدث الكثير

قال له مدير الأوبرا: ماذا حدث يا رجل؟

قص عليه عزيز ما حدث فاغرورقت عينا الاثنان بالدموع من كثرة الضحك، وكان وجه عزيز قد تورد خجلا من هذه المواقف الساخرة التي يتعرض لها منذ أتى إلى هذه المدينة، وبعد أن هدأ الأب لوثر نظر إلى عزيز وقال له: قلت لك أنني أعيش بمفردي بعد سفر ابني ميلاد للدراسة في العاصمة فهلا تأتي إلى منزلي لتعيش معي؟

- أشكرك جزيلا على دعوتك لكني سأستكمل هذه المغامرة حتى أكتشف ماذا يحدث هناك؟

قال له مدير الأوبرا: أحب فيك هذه الروح يا عزيز.

استأذن منهما عزيز لكي يعود إلى القصر كي يقوم بتنظيفه، وأخبرهم أنه سيأتي عند حلول الليل للحفل الكبير، لكن المدير قد رق لحاله وأعلمه بأن ليس عليه حرج إذا لم يأت اليوم فلديهم عازف آخر على المزمار، رحب عزيز باقتراح المدير فهو يحتاج إلى وقت للقيام بمهمته الشاقة في تنظيف القصر وتجهيزه حتى يكون صالحا للعيش.

وصل إلى حديقة القصر وهو يسير إلى ناحية القصر تعرقلت قدماء فنظر إلى الأرض فوجد الكثير من الجماجم الملقاة على أرضية الحديقة، كما وجد أثارا لدماء كثيرة منتشرة في كل مكان، وفي وسط الدماء أشلاء بعض الطيور المذبوحة. لم يكن رأى هذه الأشياء الليلة الماضية نظرا لقلة الأضواء في الليل، أما الآن في ضوء النهار الكاشف استطاع رؤية الكثير.

أخرج المفتاح من جيبه وفتح باب القصر ودخل إلى الممر، وقد أحضر معه بعض معدات التنظيف، قام في البداية بكنس الزجاج الملقى على الأرضية والذي تنأثر نتيجة تحطم النوافذ، وهنا تذكر أن القصر ليس به كهرباء فانطلق مسرعا ليحضّر أعواد الحطب قبل أن يحل الظلام.

جمع الحطب ووضعه أمام البوابة الحديدية ثم عاد ليأتي بمصابيح ليُنير القصر من الداخل، أحضر كذلك بعض الأغطية والمفروشات وبعض الأطعمة، وقبل أن يبدأ المهمة الشاقة في التنظيف اتخذ قراره بتفقد الغرف أولا، فهو حتى الآن لم ير من القصر سوى اليهود والحديقة.

أدخل المفتاح في ثقب الباب الخاص بالغرفة الأولى ثم أدر المفتاح فانفتح الباب، أمسك بالمصباح في يده ودخل بخطى متأنية فوجد التراب يملأ جميع أركان الغرفة، وعلى الحوائط الكثير من اللوحات الفنية، وجد في منتصف الغرفة طاولة عظيمة يلتف حولها العديد من المقاعد، وبجانب المائدة مدفأة كبيرة بها بعض الأخشاب التي تُستخدم في التدفئة، كانت بقايا الطعام المتحجرة مازالت على المائدة بعد مرور كل تلك السنوات، وكذلك كانت الأطباق ممثلة عن آخرها بالغبار.

ترك هذه الغرفة وانتقل إلى غيرها، رأى في أحد جوانبها مكتبا فخما عليه بعض الأوراق، وبجانب المكتب مكتبة كبيرة تحوي العديد من الكتب القديمة، أما أرضية الغرفة فعليها آلات موسيقية بعضها محطم والبعض الآخر حالته جيدة.

خرج من تلك الغرفة لينتقل إلى غيرها لكنه عندما فتحها لم يجد بها إلا سلما كبيرا يخرج من السقف وهو جزء لا يتجزأ من تصميم الغرفة. وقف أمام السلم في دهشة، ونظر لأعلى حيث يرتفع السلم، فرأى أنه يربط الدور الأول من القصر بالدور الذي يليه، فضّل أن يتفقد باقي غرف هذا الدور قبل الصعود للأعلى.

ترك الغرفة عائدا إلى الغرفة الأخيرة المتبقية تلك التي كان ينطلق منها صوت الموسيقى، ولما اقترب من هذه الحجرة تملكته رجفة فارتعش جسده، لكنه استجمع رباطة جأشه وشجاعته، وقام بفتح الباب ببطء شديد ودقات قلبه تتسارع حتى انفرج الباب قليلا، تقدم خطوة إلى الأمام ثم توقف على عتبة الغرفة ليسترق النظر من خلال انفراجة الباب، وعندما رأى البيانو في منتصف هذه الغرفة لم يستطع حراكا فظلا واقفا لفترة، ثم دلف إلى الداخل بخطوات متأنية.

كان بيانو لم ير عزيز مثله من قبل بعظمته وجمال تصميمه، أمام البيانو مقعد للعازف وخلفه مقاعد متراصة في انتظام تُشبه تلك المقاعد التي توجد في دار الأوبرا المخصصة لجمهور المستمعين.

نظر إلى البيانو مرة أخرى وإلى المقعد الخاص به فوجد أن التراب يملأهما عن آخرهما، وهو ما جعل القلق يسيطر عليه وتعاوده مسألة الأشباح مجددا لأنه شك في البداية أن العجوز يتلاعب به، وأنه قد أتى وقام بالعزف لكنه وجد الأتربة على البيانو مما دلّه على أنه لم يجلس على هذا المقعد أحد منذ زمن طویل.

لم يتبق له سوى أن يتفقد الجزء العلوي من القصر فسار إلى الغرفة التي بها السلم وقبل أن يصعده ألقى بنظرة خاطفة في الغرفة، شاهد على أرضيتها بجانب الباب من الداخل فتحة كبيرة، ذهب إليها وجثا على ركبتيه وأطل برأسه في هذه الفتحة فرأى سلما آخر ينتهي إلى سرداب تحت القصر، لكنه قد اتخذ قراره بأن يتفقد الدور الأعلى أولا.

نهض من مكانه وصعد السلم إلى الدور العلوي، انتهى به المطاف إلى غرف كثيرة فتحها جميعها فوجدها غرفة مخصصة للنوم، لكن فقط غرفة واحدة لم يستطع فتحها في هذا الدور، ظن أن العجوز لا يريد لأحد أن يطّلع عما بداخلها، وعلى أية حال ذهب إلى الغرفة الكبرى فوجد جدرانها تحمل صورة لعائلة مكونة من أب وأم وولد أغلبها كان باللون الأبيض والأسود، وعلى الأرض كثير من الصور المنتشرة في كل مكان.

كانت هناك أدوات للزينة الخاصة بالنساء، وفي خزانة الملابس الكثير من الثياب بعضها خاص بالرجال، والبعض الآخر بالنساء، لكن أكثر ما جذب انتباهه في هذا القصر إنه كان يبدو وكأن حريقا عظيما قد نشب فيه التهم

الكثير من محتوياته، كما أن الرائحة النفاذة لدخان هذا الحريق مازالت تزكم أنفه.

أصابه الملل من تفقد القصر الواسع فانتقل إلى الغرفة التي لم يستطع فتحها، حاول مرة أخرى أن يضغط على الباب بكامل قوته لكن الباب ظل مغلقا فتركه وانصرف إلى الأسفل عاندا إلى الفتحة الكبيرة التي تؤدي إلى السرداب، نزل السلم فوجده ينتهي عند باب حاول فتحه فلم يُفتح هو الآخر، لكن عند صعوده ثانية وقعت عيناه على باب صغير لم يره من قبل، فذهب إلى هناك وفتح الباب فوجد بداخله مطبخا كبيرا وأفران كثيرة وبعض الأجهزة القديمة التي تُستخدم في حفظ الطعام، كما رأى بعض الثلاجات المأهولة ويتوسط المطبخ مائدة عظيمة الشأن كان يستخدمها الطباخون في إعداد الطعام.

بحث عن مكان الحمامات ليغتسل فطوال مروره في هذا القصر لم يعثر على حمام واحد فقط حتى دخل إحدى الغرف فوجد زر بجانب الباب، ظنه في البداية أنه لإضاءة القصر فلما ضغط عليه فُتح له باب في الحائط، نظر إلى الباب ليرى كيف يعمل، فاكتشف أن فكرته تقوم على نظام الضخ الهيدروليكي.

دخل خلال هذا الباب فاكتشف حماما رائع الجمال فقال في قرارة نفسه: ما أروع الغنى والثراء، على الرغم من أنه لم يكتشف الكثير من خبايا القصر لكن لديه الآن مهمة وهي تنظيف القصر من الأتربة التي تملأه.

قضى اليوم بأكمله في التنظيف حتى انتهى ونظر في الساعة فوجدها تدق الواحدة صباحا، أخرج بعض ملابسه من حقيبته وذهب إلى الحمام ليغتسل ثم جلس أمام النار التي أشعلها ليتناول بعض الطعام، ثم صعد إلى غرفة النوم الكبرى في القصر وجلس ممددا جسده على الفراش وهو يشعر بشيء من الغربة والدهشة من تلك الحياة، فهو من فترة قصيرة لم يجد سكنا ليسكن فيه والآن يقطن قصرا عظيما يعيش فيه حياة الملوك والأمراء، ونتيجة التعب الذي أصابه اليوم بأكمله غفت عيناه وراى عليه الكرى فغلبه النوم على هذا السرير المريح.

بعد لحظات قليلة من نومه سمع صوت دوي شديد تحطم على إثره زجاج النوافذ التي في الحجرة فقام من نومه فزعا، نظر حوله فلم يجد سوى ظلام حالك فلقد انطفأ المصباح الذي أشعله قبل أن يخلد إلى نومه، حاول أن

يذهب إلى مكان المصباح فلم يعثر له على أثر. غاص المكان في ظلام شديد وفجأة بدأت تصل إلى أسماعه أصوات الموسيقى ثانية فتملكه الرعب.

سار يتحسس طريقه إلى مكان مصباح آخر ليضيئه حتى وصل بسلام إلى السلم المؤدي إلى الدور الأول من القصر. أمسك بطرفه ونزل حثيثا يترقب خطاه خشية أن يسقط حتى وصل إلى الأرض، وبدأت عيناه تعتاد على الظلام، أكمل مسيره حتى أتى باب الغرفة ففتحه مسرعا إلى الممر حتى ارتطم بالتمثال المائل في منتصف الممر فسقط على الأرض.

نهض سريعا بعد لحظات قليلة وتحسس موضع إصابته في رأسه وأدرك إنه قد نسى موضع التمثال، طفق يتحسس طريقه مرة أخرى حتى وضع المصابيح التي أحضرها معه إلى أن وصل إليها أخيرا، أحضر واحدا ثم أشعله ومازالت الموسيقى ترن في أذنيه، أمسك بالمصباح وتقدم إلى المكان الذي تخرج منه أصوات الموسيقى ودخل الغرفة، رفع المصباح بيده ونظر إلى البيانو أمامه فلم يجد أحدا يعزف عليه ومقعد العازف مازال خاليا، لكن ما شد انتباهه هو تحرك مفاتيح البيانو، وكأن هناك عازفا يعزف عليها، رفع يده الثانية ناحية عينيه وفركهما جيذا ثم ألقى نظرة أخرى على البيانو فوجد المفاتيح ما زالت تتحرك.

اضطرب قلبه وتسارعت دقاته من هول ما يراه، خرج مسرعا وأغلق باب الغرفة ورائه، لكنه وهو يسير في الممر وجد على الحوائط أسهم تشير إلى مكان معين، واتجاه للسير، وتزف من هذه الأسهم الدماء الحمراء الكثيرة، ازداد خوفه من رؤية الأسهم كذلك، ركض مسرعا ناحية البوابة الحديدية للقصر حتى يخرج من هذا القصر المرعب، لكن البوابة الحديدية هي الأخرى أبت أن تفتح، نظر إلى النوافذ المحطمة وتذكر ما حدث له بالأمس فقرر ألا يعاود الكرة مرة أخرى.

مازالت الموسيقى تصدح في أجواء القصر، استجمع شجاعته وقرر السير إلى الاتجاه التي تشير إليه الأسهم، وبدأ يمشي مع الأسهم حتى انتهت إلى الغرفة التي بها السرداب، وحينما دخلها وهو يتبع الإشارات رأى الأسهم تعود لتتجه ناحية الفتحة الكبيرة التي تؤدي إلى السرداب، نزل على السلم حتى وصل أخيرا إلى المكان الذي تنتهي عنده حركة الأسهم فألف نفسه لدى الباب الذي وجده من قبل مغلقا.

أدار مقبض الباب ففتح الباب فتعجب لذلك أشد العجب، أنار بالمصباح الغرفة التي ظهرت أمامه ونظر حوله فلم يجد فيها إلا الكثير من الأشياء

القديمة التي استغنى عنها أصحابها، لكن ما جذب بصره في هذه الغرفة كان صندوقا في آخر الغرفة تُشير إليه الأسهم على الحوائط.

تفحص الغرفة جيدا وهو مازال واقفا أمام الباب لم يُبرحه إلى أن قرر الدخول إلى هناك، ولما تجاوز باب الحجرة انغلق الباب بشدة وراءه وحبسه بالداخل، اضطرب لدى سماعه صوت الباب وهو يُغلق وبلا تفكير هرول ناحيته وظل يحاول كثيرا فتحه مرة أخرى لكنه لم يستطع، أيقن في قرارة نفسه الآن أنه لا بد من أن يُكمل رحلته فلا طريق هناك للعودة.

ربط جأشه وعاد مسرعا إلى مكان الصندوق الذي كان موصدا بقفل عتيق يملأه الصداً بحث حوله في المكان حول مطرقة أو أي آلة ثقيلة لعله يستخدمها في فض القفل حتى وجد عصا حديدية فأخذها وظل يطرق على القفل مرات عديدة حتى انفتح.

قام برفع غطاء الصندوق فخرج منه دخان عظيم، تبيس مكانه من الفزع ونظر إلى الدخان المتصاعد من الصندوق وحاول أن يتحرك وينطلق إلى الخارج لكن قدماه لم تُسعفه، وبعد معاناة طويلة استطاع الحركة وركض ناحية الباب محاولا فتحه لكنه كان شديد الإحكام.

أبصر الصندوق مرة أخرى فوجد الدخان مازال يتصاعد منه، سار على هونه ناحيته لكنه اصطدم بشيء ما على الأرض، أشار بمصباحه إلى الأرض فرأى العديد من الجثث الميتة منتشرة على أرضية الغرفة كان يعلوها الذباب وقد فصلت رؤوس جميع الجثث عن جسدتها.

وصل به الرعب مداه فخرجت منه صرخة قوية حينما رأى تلك الجثث أمامه، لكن من شدة فزعه فإن صوت صراخه لم يخرج من جوفه، حاول أن ينطق بأية كلمة لكنه لم يستطع حتى النطق، وكأن الكلام خشي هو الآخر أن يخرج من فيه حتى لا يُصاب بالرعب كذلك، وفجأة وهو واقف متحجرا أمام الدخان والجثث المنتشرة عند قدميه ولا يستطيع الحركة إذا بشخص يخرج من الدخان.

كان جسيما ثائر الشعر أحمر العينين كأن من يراه قد رأى الشيطان، نظر إلى الأرض ناحية الجثث، وما أن رفع بصره ناحية ذلك الشيطان إذا به يجده حاملا بيده بلطة كبيرة، فأدرك على الفور أن هذه البلطة هي ما قطعت رؤوس

هؤلاء الجثث، تحدث إليه هذا الشيطان قائلا له: ماذا أتى بك إلى هنا أيها المسكين؟

امتقع لونه وحاول أن ينطق لكنه تلعثم في الكلام وهو يقول: مَنْ ... أأ... ن... ت ؟

قال له الشيطان: أنا مَنْ سيُرسلك إلى الجحيم

عاد ليسترحمه أن يتركه ليعيش لكنه رفع يده الممسكة بالبلطة ثم هوى على رأس عزيز فقطعها وفصلها عن جسده، وخر الجسد على الأرض ليُكمل عدد الجثث الموجودة على أرضية السرداب.

أدار صوفي شريطا أمام الطلاب ليُعرض عليهم فيه بعضا من حفلات الزواج، وبعضا من مراسم الجنائزات وحفلات الغذاء، وباقي أنواع الاحتفالات التي تمتلئ بها حياة الناس في الوقت الحاضر، كان الطلاب يتابعون باهتمام ما يُعرض على الشاشة، نظر إليهم صوفي وسألهم: ماذا تلاحظون في هذه الاحتفالات؟

رد عليه سام وقال: كلها مناسبات اجتماعية

قال صوفي: وماذا أيضا؟

قال آدم: لكل مناسبة طقس معين، اعتقد أن ما يربط بينهم هي الطقوس

تدخلت روز في الحوار قائلة: ما ترمي إليه يا سيدي؟

- كل هذه المناسبات تعتبر شكلا من أشكال الفن، فكل مناسبة من هذه المناسبات تستلزم زيا معيناً يراعى في تصميمه تأكيد جلال المناسبة، وكل مراسم الحياة الاجتماعية تستلزم أنواعا محددة من الأحاديث، أليس كذلك؟

- بالفعل هي كذلك

- ولكن السؤال هنا... إلى ماذا تهدف كل هذه المراسم؟

ولم ينتظر إجابة فاستطرد: تهدف إلى إثارة انفعالات معينة لكن.....

لو أننا نظرنا إلى حفلات الزفاف والجنائزات وحفلات الغذاء سنجد أن كل هذه المراسم تعد أعمالا فنية متوسطة القدر ما دام الغرض منها إثارة الانفعالات

قال آدم: لكننا على حسب كلامك إذا اعتبرنا الفن إثارة للانفعالات، فإن الفنان سيصبح مجرد مورد عقاير أو مخدرات

- لقد أخطأت فهمي، لقد قلت إنها أعمال فنية متوسطة القدر، ولم أقصد أن أعمال الفنان لابد أن تُثير الأحاسيس، لكن ما قيمة الفن الغني بالصور إن لم يتحدث إلى القلب؟..... أما الآن فموعدنا مع إلقاء الضوء على لوحاتكم..... ألقى نظرة على اللوحات المتراصة وراء بعضها بجانب الحائط ولم يرد أن يعرف أصحابها

نظر إلى اللوحة الأولى وقال: لا يمكن لنا أن نُحيل الإنسان إلى مجرد بقعة من اللون بين بقع الألوان الأخرى، إنه تشويه للإنسان بجعله آلة صماء

قالت روز: لكن الآلات في المستقبل ستُقلص من معاناة الإنسان

قال باسمًا: لكن في النهاية سيتضح لنا أن النقص هو مصدر عظمة الإنسان ونظر إلى لوحة أخرى لم يوجد بها أية ألوان وقال: فائدة الألوان الوحيدة هي جعل الأشكال مرئية، فالتعبروني الآن أسماعكم وأذهانكم وتستمعوا لما سأقوله

رد الجميع: كلنا أذان صاغية

- سأحدثكم عن شروط ممارسة الفن.....

هناك شرطان لن يكتمل الإبداع بدونهما، وقد رأيت في لوحاتكم كم أنكم تفتقدون لهذين الشرطين أولهما التركيز، فالتركيز نادرا في وقتنا الحاضر، إنكم تفعلون أشياء كثيرة في وقت واحد فأجدكم تقرأون وأنتم تنصتون إلى الراديو، تتحدثون وأنتم تدخنون أو تشربون أو تأكلون، أنتم جميعا نتاج لهذه النازلة...

لقد رأيت أن أصعب الأشياء على نفوسكم في هذا العصر هي أن تجلسوا صامتين بدون كلام ولا تدخين ولا قراءة ولا شرب.....

فلننظر مثلا إلى الناس في الشوارع، وعلى المقاهي، الكل يملك هاتفا من آخر صيحات التكنولوجيا ولا يحول نظره عنه، الجميع يتحدث عبر هذا الهاتف أو عبر محادثات نصية....

العلاقات بين الناس أصبحت وهمية على شبكات الإنترنت لقد أصبح الإنسان مجرد صفحة على الإنترنت...

فالنعود جميعا إلى إنسانيتنا وعلاقاتنا القريبة بيننا، لنعود بشرا.

أما ثاني هذين الشرطين هو الصبر، فالصبر من أهم الأشياء إذا أردتم ممارسة أي فن، وبالعجلة لن تتعلموا أي فن على الإطلاق....

ومع هذا فالصبر عندكم صعب ممارسته كذلك، فالنظام الحالي يُغذي في الجميع العجلة، وبالتالي ينعكس هذا على الإنسان، نجد الكل متسرع ليس لديه وقت، ومع هذا فهو لا يعرف ماذا سيصنع بالوقت الذي كسبه سوى قتله.....

وفي النهاية وقبل أن أنسى هناك مسابقة كبرى تُقام كل عام لأفضل اللوحات للفنانين المبتدئين، وقد قررت أن أشرك الجميع في هذا الفصل في تلك المسابقة، فأريد منكم في موعد المحاضرة القادمة أن تُقدموا أفضل أعمالكم ولسوف أقوم بتوصيلها إلى إدارة المسابقة فما رأيكم؟

قال الجميع والابتسامة على وجوههم: بالطبع موافقون

- إذن فلنحصل على جوائز المسابقة فليستعد الجميع وليعمل جيدا.

خرج آدم من قاعة المحاضرات والحماس يملأه وأعد عدة الرسم الخاصة به من أقلام وألوان ولوحات، وانطلق بسيارته يقطع الطرقات إلى مكانه المفضل أعلى قمة الجبل ليرسم اللوحة التي سيتقدم بها إلى المسابقة حتى وصل إلى هناك، شرع في إخراج عدته من الحقيبة، وشرذ بذهنه يتفكر في موضوع للوحته ثم بدأ في الرسم.

ظل قرابة الساعة يرسم وهو لا يشعر بما حوله، كان ينظر إلى الأفق البعيد الممتد وإلى الشمس التي قاربت على الرحيل في ذهبية أشعتها الرائعة التي أضفت على الجبال جمالا، لم يقطع وحدته وسكونه إلا صوت يأتيه من بعيد ويقول: أيها الخائن

نظر ناحية الصوت فإذا بصديقه ميلاد قائلا له: لم تحدثني بعد، كنت أعلم أنني سأجذك هنا، حاولت الاتصال بك كثيرا لكنك لم تجب على مكالماتي

قال آدم مبتسما: أسف جدا يا صديقي لقد شردت بذهني بعيدا حتى أنني لم أسمع دقات الهاتف

- أتمنى ألا أكون قد قطعت عليك إلهامك

- لا لا لقد قاربت على الانتهاء تقريبا اقترُب واجلس بجاني

- منذ أن أحضرتني إلى هذا المكان الخلاب، وقد أدمنت المكوث فيه فحينما لا أذهب إليه في يوم أشعر بأنه ينقصني شيئا ما، قل لي ماذا ترسم؟

- إنها لوحة جديدة سأقدم بها لمسابقة

- ستحصل على الجائزة بكل تأكيد، فأنت فنان موهوب

قال آدم مازحا: بالطبع وهذا أقل ما يمكنني فعله

وأزاح عدة الرسم جانبا وتفكر للحظات ثم قال لميلاد: انظر إلى هذا المنظر البديع، سبحان من أبدعه !

شرد ميلاد بذهنه بعيدا وهو يقول لأدم: اعتقد أن هناك سرا عظيما في هذا الكون الشاسع

- ماذا تعني؟

- هناك رسالة حقيقية في هذا الكون أرسلها لنا أحد ما، وأن وجود شفرة كونية لم نستطع حل ألغازها إلى الآن لهي أكبر دليل على وجوده، ومحتوى الرسالة يُخبرنا شيئا عنه

- أتقصد بهذا أن الذي وضع هذه الشفرة هو الإله؟

قال مازحا: أو أحد الكائنات الفضائية

ضحك آدم ثم استطرد ميلاد في حديثه: لكن الغريب في الأمر أن الإله قد كتب نفسه خارج هذه الشفرة، إنها رسالة غريبة من غير دليل على وجود شيء غريب

- ماذا تعتقد؟ هل الإله هو الرسالة، أم إنه كاتب الرسالة؟

- اعتقد أن قوانين الطبيعة هي الرسالة وأن الإله هو الذي أرسل الرسالة، ولو أننا استبعدنا فكرة الإله سيصبح وجود القوانين سرا عميقا، لكن الغريب بحق هو أن هذه القوانين تُطبق في كل مكان من الكون، وفي جميع فترات التاريخ الكوني ولا تسمح باستثناءات، أليس هذا غريبا؟

- عدنا ثانية لتلك الأحجية العويصة

- على الرغم من ذلك فإن هناك قوانين أخرى مختلفة لم نستطع بعد أن نكتشفها

- مثل ماذا؟

- صور الأحلام مثلا، لا يمكننا أن نستبعدنا ونقول عنها أنها ليست موجودة، فهي الأخرى لها قوانين لكننا لم نكتشفها بعد.....

بدأ الظلام يمتد حولهما وظهر القمر ليُسط نوره على المكان وفي نفسيهما سرور عظيم ونشوة لا تُوصف عندما شاهدا هذا المنظر الخلاب في الليل، كانت الطبيعة آية من آيات الفن وشاهدة من شواهد الجمال فشعرا حينها بالسكينة والطمأنينة وامتألا قلباهما بالسرور وابتهجت نفوسهما فتوقفا عن الحديث وساد الصمت بينهما احتراما لجلال الطبيعة المهيبة.

بعد مرور عدة أيام على إقالة وزير الداخلية، وفي خضم نشوة الانتصار الذي حققه نضال بعد أن أصبح اسمه تُلوكة الألسنة، وما يتبعه من ثناء واحترام وتقدير لذلك الصحفي الشريف الذي يحارب الفساد، والشهرة التي علت به إلى أعالي الجبال، تلقى اتصالا من شخص مجهول على هاتفه يُخبره بأنه يريد مقابلته لأمر هام، حاول نضال أن يسأله عن شخصيته فرفض الحديث في الهاتف، وأصر على المقابلة وعندما قابل نضال طلبه بالرفض قبل أن يعرف من هو؟

قال له الشخص الذي يحدثه بأن لديه معلومات خطيرة بشأن صفوان الأدهم رجل الأعمال الفاسد، فأعلمه نضال أن صفوان الأدهم قد انتهى أمره إلى غير رجعة

رد عليه ساخرا وقال: لقد كنت تعتقد ذلك في المرة الأولى حينما أُلقي القبض عليه، وكان بعدها حرا طليقا

صمت نضال لبرهة يتفكر فيما قاله له هذا المجهول

ثم قال له: أتقصد أنه قد يفعلها مرة أخرى؟

- لن أحدثك عن شيء حتى تقابلني

- أين؟

- في الغابة على أطراف العاصمة مساء اليوم

- حسنا سأتي في الموعد المحدد.

أغلق الهاتف وظل يتفكر كثيرا فيما قاله هذا الشخص، وازدادت حيرته لما علم أن مكان المقابلة على أطراف العاصمة عند الغابة، فلقد كان هذا المكان هو نفس المكان الذي تقابل فيه صفوان الأدهم مع جلال الديب.

نظر في ساعته فوجد أن المساء قد أوشك على القدوم فاستقل سيارته وانطلق إلى المكان سريعا لأنه كان يعلم أن الطريق طويل إلى الغابة، وصل إلى هناك وترجل من سيارته لدى وصوله وتوقف لفترة حتى أتت سيارة وتوقفت بجانبه، ثم نزل منها ذلك الشخص الذي تحدث معه عبر الهاتف.

كان أنيق الملبس ذو شعر أشعث وفي عينيه حمرة شديدة، تحرك بخطى الواثق من نفسه نحو نضال وحياه وبسط يديه ليُسلم عليه وهو يقول: يهوذا

رد عليه نضال: أهلا، لكن يهوذا من؟

- محامي صفوان الأدهم

- إذن اتضحت القصة

- لم تكتمل القصة بعد يا سيدي، فأنا من ساعدتك في البداية

- ساعدتني؟! قالها متعجبا

- لا تتعجب، فإذا عرفت القصة زال كل عجبك

- وما هي القصة إذن؟

- أنت لا تعرفني شخصا، لكني أعرفك جيدا، تُرى من أرسل لك مستندات إثبات تزوير انتخابات المجلس الوطني التي فاز فيها جلال الديب؟

ازداد تعجب نضال إثر سماعه لهذا الحديث ثم قال: أنت الذي أرسلت المستندات؟

- ومن كنت تظن؟

- كنت أظنه منافسه في الانتخابات

- لو كان منافسه يمتلكها لفعل بها الكثير أما أنت حينما ملكتها، أغلقت جريدتك ودفعت الكثير من التعويضات أليس كذلك؟

- ولماذا أرسلتها لي مع علمك بأنني لن أستطيع أن أفعل بها شيئا؟

- لي دوما نظرة فيمن أتعامل معهم. لم تستطع حينها أن تفعل شيئا، لكنك الآن فعلت الكثير وأصبح اسمك على كل لسان في البلدة. وتستطيع الآن أن تفعل أي شيء

قال نضال ساخرا: أتطالع المستقبل؟ يا لك من دجال!

- لا تسخر مني فأنا أعلم الكثير

- أما أن الأوان لتُخبرني بما تريده مني؟

- لماذا تعاملني بهذه القسوة، حلمك يا سيدي فأنا سبب ما أنت فيه الآن، ولولا وجودي ما عرفك أحد من العالمين

قال له نضال وقد استشاط غضبا: اخرس أيها....

قاطعه: لا داعي للخطأ، ما لك أنت تتكبر فأنا من صنعت شهرتك وتلك هي الحقيقة

قال وقد أريد وجهه من الغضب: اصمت وإلا أبرحتك ضربا

- فلتهدأ حتى نتفاهم

وبعد أن أخذ نفسا عميقا استطرد يهوذا يقول: أتدري من أين حصلت على المستندات والوثائق التي نشرتها، وكانت نتيجتها أن تمت إقالة وزير الداخلية، تلك المستندات الأخيرة التي أرسلت إليك بنفس طريقة وصول مستندات التزوير، والتي لولاها ما كنت تستطيع أن تُذيع حرفا من برنامجك أيها المسكين أطرقت نضال للحظات يتفكر في هذا الحديث ثم قال: ومن أين لي أن أعرف إنك من أرسلها؟

- أما زلت تشك، ومن أين لي أن أعرف بشأن مستندات تزوير الانتخابات التي لم تر النور حتى الآن، هل تفهم ما أعنيه؟

وإذا احتجت دليلا آخر فالتعود إلى جميع الملفات وستجد في نهاية كل ورقة مطبوعة حرف "ي" وستعرف حينها

ثم أخرج يهوذا هاتفه من جيبه، وأدار تسجيلا لحواره مع صفوان الأدهم، وفيه تخليه عن الدفاع عنه، اسمعه لذلك الصحفي، ذلك الحوار الذي حدث بينهما في آخر لقاء جمعتهما معا، كي يتأكد من صدق حديثه، وبعد أن سمعه نضال قال له: وماذا تريد مني الآن؟

- أريد أن نعمل سويا

- أي عمل؟

- مكافحة الفاسدين

ضحك نضال ضحكة ساخرة ونظر حوله في المكان الخالي وقال: اسمعوا أيها الناس..... محامي صفوان الأدهم الفاسد يحارب الفساد، إنه خير الموسم وكل موسم

قال له يهودئه المعتاد: قلت لك ألا تسخر مني، هل لك أن تسمعني؟

- أنا بالفعل أسمعك، تكلم

- أريد التخلص من صفوان الأدهم نهائيا، فكما تعلم أنه سوف يخرج من السجن بعد فترة قصيرة

- وبعد؟

- ثم نتخلص كذلك من جلال الديب

- ثم؟

- أراك تأخذ حديثي بسخرية

- أنا لا أسخر منك أنا أسخر من أفعالك، قل لي صراحة لماذا تريد التخلص منه وقد كنت محاميه؟

- أفضّل أن احتفظ بالأسباب، لكن قل لي أليس هذا ما تسعى وراءه منذ زمن؟ لقد حانت الفرصة لتقوم بضربة قاضية

- قل لي ماذا حدث بينكم حتى توترت علاقتكم هكذا؟

- هل علمت ذلك؟

- البلد كلها تعلم فراقكم لكنني سأتماشى معك للنهاية، ماذا لديك؟

- لدي الكثير فأنا الصندوق الأسود له

- إذن أخرج ما في جعبتك وهات ما عندك؟

- شركة الطاقة العالمية

- ما بها؟ أليست هذه الشركة تابعة لشركات صفوان الأدهم

- صفوان الأدهم صورة فقط، فأمام الناس هو صاحبها
- ومن صاحبها الحقيقي؟
- لن تصدق
- أصبحت الآن أصدق أي شيء
- أترك موضوع صاحبها الآن وستعرفه لاحقا
- إذن أكمل
- شركة الطاقة العالمية تمويل مشروع المفاعل النووي، من المفترض إنك سمعت به أليس كذلك؟
- ذلك المشروع الذي يُنشئه الجيش
- بالضبط
- يا للمصيبة، سنذهب إلى الجحيم كلانا، أتريدني أن.....
- قاطعته: بالضبط
- الجيش؟!
- وكيف ذلك؟ لن أخرج من هذا الموضوع سالما أبدا
- الجيش يُنشئ مفاعلا نوويا بتمويل من شركة الطاقة العالمية السيئة السمعة. وماذا أيضا؟
- هناك الكثير ستعرفه لاحقا، وهناك أيضا مفاجآت كثيرة
- دوما أعشق المفاجآت والحروب
- لكننا ليست حربا سهلة لا تنسى ذلك
- أعلم جيدا، المسألة أصبحت كبيرة جدا
- وخطيرة جدا فلا بد من الحرص الزائد
- إذن فلتبدأ أولى المعارك
- الآن قد عرفت لماذا اخترتك أنت بالذات دون كل الناس، أليس كذلك؟
- ابتسم نضال وصافحه بشدة وضغط على يده ثم قال: نحن سننتصر

- أحذرك مرة أخرى

- من ماذا؟

- الحذر كل الحذر، فنحن الآن نلعب مع الكبار

- لا تقلق وأخبرني بالتفاصيل

- ليس اليوم ومن الآن فهذا هو مكان لقائنا، وعليك من الآن فصاعدا أن

تلم بجميع المعلومات حول هذه الشركة والمفاعل النووي

- اتفقنا

أفاق عزيز من ذلك الكابوس المريع الذي أجثم على صدره ونهض من نومه مفزوعا يتحسس رقبته، نظر حوله فإذا بالمصباح مازال في مكانه مشتعلًا، وضوء النهار قد ملأ الغرفة نورا وضياء، فاطمأن قلبه خاصة بعد أن وجد زجاج الغرفة مازال سليما لم يتحطم، أدرك حينها أن كل ما حدث لم يكن سوى كابوسا فظيعا.

امتدت يده جانبا وتناول كوب الماء الذي وضعه على حافة الفراش وشربه ثم قام ليغتسل، ارتدى ملابسه وقرر الخروج ليتنسم بعض نسمات الهواء، وقبل أن يخرج توارد في خاطره أن يذهب إلى الباب الخاص بالسرداب ليتفقدّه، ذلك الباب الذي يؤدي إلى السرداب مكان كل الأحداث التي شهدها كابوسه المزعج الذي حلم به ليلة أمس، لكنه طرد هذا الهاجس الذي راوده حينما تذكر أن الباب مُغلق ولن يستطيع فتحه.

انطلق في طريقه حتى أتى كوخ العجوز، فأطرق عليه عدة طرقات، فتح له العجوز ورحب به ترحيبا شديدا وقال له: في الحقيقة طوال حياتي لم أشعر براحة تجاه شخص ما كما ارتاحت روجي إليك بعد زوجتي.

جلس الاثنان وأحضر العجوز كوبين من القهوة ثم طفقا يتحدثان سويا، لكنه حينما نظر إلى وجه عزيز وجدّه شارد الذهن فسأله عن السبب، أنبأه عزيز بذلك الكابوس المريع الذي زاره البارحة.

قال له مازحا: ما بالك بشخص قد قُطعت رأسه وفُصلت عن جسده

ضحك العجوز وقال له: لا تبالي يا ولدي

- عندي الكثير من الأسئلة التي تُحيرني؟

- بشأني؟

- نعم

- اسأل ما شئت فليس لدي ما أخبئه عنك، كما أنني منذ زمن طويل وأنا أبحث عن صديق، ولقد أتيت أنت حتى عتبة داري

ابتسم عزيز وقال له: كنت تعزف على البيانو، أليس كذلك؟

لمح عزيز الحزن قد بدا على قسَمات وجه العجوز فقال له: إن كنت لا تود الحديث عن ذلك فكما تشاء

- لا لا.... لكن لماذا يشغلك أمر البيانو هكذا؟ أكل هذا لأنك سمعت عزف في القصر

- أنا موسيقي يا سيدي، وأعرف جيدا الفرق بين أنواع الأصوات الموسيقية، وما سمعته ليس إلا صوت البيانو، وعندما تفقدت الغرف أمس وجدت بيانو عظيما في نفس الغرفة التي كانت تخرج منها الأصوات

- حسنا إذن، كنت أعزف على البيانو فيما مضى، لكن قد مر زمن طويل على ذلك

- ومن أين يأتي الصوت إذن؟

ضحك العجوز وقال ساخرا: من البيانو

فضحك عزيز واستطرد العجوز: لا تهتم لقد كانت كلها خيالات نسجها عقلك، فأنت قد أتيت إلى هذا القصر وعقلك يمتلئ بالشائعات عن الأشباح

- ولماذا تعيش وحيدا أيها العجوز؟

- قلت لك مسبقا.... ألا تصدقي يا ولدي؟

- لا أقصد في القصر، لكن بوجه عام لماذا تعيش وحيدا؟

- لقد سَأمت الحياة، وهأنذا قد بلغت من الكبر عتيا وأنا سعيد بهذه العيشة الهانئة

- ولماذا سَأمت الحياة؟

- هل لديك سيارة؟

- لماذا؟

- أجبني فقط هل لديك سيارة؟

- ليس لدي واحدة

- لم تملك ثمنها أم لا تريد سيارة؟

- مَنْ الذي لا يريد سيارة لكني لا أملك المال، لكن لماذا السؤال؟

- لأن السيارة علامة من علامات السعادة لكل الناس في وقتنا الحالي، يرى المرء سيارته رمزا لمكانته، ويعتبرها جزءا من شخصيته، إنها تُشعره بشعور السيطرة والملكية، ويخشى أشد الخشية من فقدان ما يملك، لقد تملكته روح الملكية التي انعكست على كل علاقاته مع البشر. ولو أنه فقد ما يملكه يتحول إلى إنسان جبان خائف قلق، يخشى كل شيء، يخشى الفقر، الأمراض، الموت، يخشى الحرية والثورة، يخشى التطور والتغير، ويحيا دائما خائفا من المجهول.....

إنسان اليوم ما هو إلا حزمة من الشهوات، لكن في نهاية حياته يتضح له أنه قد فشل وأنه لم يكن هو ذاته أبدا، أتدري؟

- ماذا؟

- هذا الكلام ينطبق أيضا على الموسيقى

- وكيف ذلك؟

- تجد الناس في سعي دائم لشراء الأعمال الموسيقية لكن ليس للاستمتاع بها، بل لإرضاء شهوة الامتلاك، إنهم مجرد مستهلكين وعلى الرغم من ذلك فهناك البعض القادر على التجاوب مع الموسيقى

- أنت بالطبع من هؤلاء أيها العجوز الحكيم

ضحك العجوز وقال: بالفعل أنا كذلك

- ألا ترى إنك دوما ما تنتقل بالحديث في النهاية إلى الموسيقى

- أنا أعشقها

- ولماذا لا تعزف الآن، فلقد أخبرتني أنك كنت تعزف على البيانو

- مازلت مُصرا

- على ماذا؟

- على أن تعرف القصة. لكنها قصة طويلة

- حسنا سأتي إليك في الليل ونتسامر حتى الصباح لكي استمع إلى قصتك الطويلة

- إذن سأنتظرك

غادر الشيخ عزيز ذاهبا إلى دار الأوبرا وبعد الاستعدادات للحفل قام هو والأب لوثر بالتجوال في شوارع المدينة حتى يُريه معالمها التي لم يرها من قبل قال عزيز: لقد ارتاحت نفسي لهدوء المدينة وسكينتها

- انظر إلى تلك الأبنية العظيمة

- بالفعل ما أروع تلك الأبنية، مَن الفنان الذي صممها؟

- كان يسكن هنا مهندسا بارعا حسه الفني والجمالي كان ينطلق إلى عنان السماء اسمه المهندس نبيل هو مَن صمم تلك المدينة، وله قصر تسكن فيه زوجته الآن

- وأين هو؟

- قد وافته المنية منذ سنوات لقد أحزن الجميع فراقه، كان ذا وجه بشوش كما أنه قد حظى باحترام الجميع

- رحمه الله

- لكنه ترك لنا كنزا ثميناً

- بالفعل فهذه الأبنية بمثابة الكنز، لكن قل لي ماذا حدث معك بعد أن افترقت بنا الطرق؟

- يا لها من قصة طويلة

ضحك عزيز وقال مازحا: ما موضوع القصص اليوم.... إنه يوم غريب

- لماذا؟

- لقد كنت أجلس صباح اليوم مع العجوز صاحب القصر، وقال لي نفس الجملة عندما سألته عن البيانو

ابتسم لوثر وقال: هل حدثك عن البيانو؟

- وهل تعلم أنت شيئا من ذلك؟

- لقد سمعت الكثير عن هذا الرجل، وانتشرت شائعات كثيرة حوله في أرجاء المدينة

- مثل ماذا؟

- على كل حال هو يعيش وحيدا منعزلا عن البشر، ولم نره كثيرا في الأنحاء، فجميع سكان المدينة بلا استثناء حينما أتوا إلى هنا، كان هو موجود ولم نعرف عنه شيئا سوي بعض الأقاصيص والشائعات التي حامت حوله

- أقاصيص مثل ماذا؟ تكلم

- يُقال إنه كان أعظم عازف بيانو عرفه التاريخ

تعجب عزيز من ذلك جدا وقال: أهذا صحيح؟

- لا أعلم صراحة فكما قلت لك إنها شائعات سمعتها

- أعظم عازف بيانو في التاريخ ويقطن في ذلك الكوخ الحقير، لربما تكون الشائعة صحيحة

- إذا كانت صحيحة لن تُصبح شائعة على كل حال

- إذن سألتقي بك في الليل بعد الحفل في دار الأوبرا وتحدثني عن ذلك أما الآن فلنعود إلى قصتك

بدأ الأب لوثر يقص عليه قصته منذ البداية وكيف انتهى به المطاف إلى العمل كعازف في فرقة دار الأوبرا بعد أن ترك عمله كقس في الكنيسة. أصابت الدهشة عزيز وقال له: كنت أتخيلك أنا وزملاؤنا في المدرسة العليا إنك ستكون عازفا كبيرا لكني لم أتخيل قط إنك ستُصبح في يوم من الأيام الأب لوثر راعي الكنيسة.

ضحك لوثر وقال له: أنا كذلك ما كنت أتوقع ذات يوم إنك ستُصبح الشيخ عزيز إمام المسجد، لكن ما هي قصتك أنت وكيف وصل بك الحال إلى هنا

ضحك عزيز وقال له مازحا: إنها قصة طويلة

ابتسم لوثر وقال له: كلي أذان صاغية

شرع عزيز في الحديث وهو يقول: كنت أحب الموسيقى منذ صغري كما تعرف فلقد كنا نعزف معا في مدرستنا، وما أن لاحظ أبواي ذلك الموضوع حتى قاما بالحقاق بدراسة العلوم الدينية وكنت شديد الشك والحيرة التي تصيب الناس أجمعين لكن حينها حملت الموضوع بجدية شديدة كما تعودت دوما

- كيف حملت الموضوع بجدية وأنت مجبر على هذا؟

- لطالما اعتدت على حمل كل القضايا بجدية حتى ولو كنت مجبرا عليها، وهكذا تمعننت وتفحصت الدين جيدا وبدأت بمعرفة الكثير عنه أثناء الدراسة وبعدها حتى تخرجت

- وهل زالت شكوكك؟

- زالت جميعها بعد البحث المضني، لقد أنفقت سنوات طوال من حياتي على ذلك البحث

- وبالنسبة للموسيقى أليست حرام؟

- توصلت بقناعتي إنها ليست كذلك

- ولما لا تمارسها علنا أمام الناس طالما تؤمن بذلك؟

- ذلك عيبي الوحيد لا أستطيع مواجهة الناس

- لا بد من المواجهة حتى لا تتخفى عن أعين الناس وأنت تعزف وكأنك ترتكب جرما كبيرا

- هذا ما يشغل بالي دوما وسوف أتغلب على هذا في القريب العاجل فأنا لا استسلم أبدا

- مازلت كما عهدتك من قبل

- لم أغير يا صديقي

- كنت دوما لا تيأس ولا تستلم وهذا ما يُعجبني فيك

- وماذا عنك؟

- ماذا تريد أن تعرف؟

- ماذا درست بعد انتهاء المدرسة العليا واختلاف طرقنا؟

- درست اللاهوت

- هكذا بكل بساطة

- حسنا سأكمل لك باقي القصة في الطريق فأنت مدعو للغداء معي اليوم
وبعدها نذهب إلى الحفل سويا.

الجلال هو أرقى درجات الجمال، إنه النشوة التي تبعث في النفس، إنه متعة
التأمل، لذة الهروب من ذواتنا.....

نصل إليه بعد عناء وجهاد عظيم للنفس فنسمو بها لأعلى، وتنتابنا مشاعر
نقية تحملنا بعيدا إلى عنان السماء، وترقى بنا إلى حالة من اللذة والنشوة....
إنها لحظات هاربة من برائن الزمن ليست بها قيود، تلك التجربة هي تجربة
الجلال.....

هكذا كان يتحدث صوفي.

قال ضياء: "كثيرا ما حدث أن أجِد نفسي قد ارتفعت خارج الجسم،
وأصبحت خارج الجسد الفاني أشاهد الجمال الرائع، وأشعر بالتلاحم مع الإله،
ومع ذلك تأتي لحظة الهبوط" هكذا قال أحد أعظم الفلاسفة في التاريخ.

تدخل سام في الحديث قائلا: لقد عشت هذه التجربة ذات مرة عندما كنت
مسافرا إلى بلد معين، وفي أحد الأعياد لديهم قدّم لي أحد الأصدقاء شرابا لا
أعرف مما يتكون، ولكنه أخبرني أنه عبارة عن مجموعة من الأعشاب، وعلى أية
حال تناولته، وبعد فترة قصيرة لاحظت بأن حريقي أصبحت كاملة، وكنت أشعر
بصفاء العقل تماما، ورأيت نفسي ارتفع إلى أعلى من خلال السحب بعيدا فوق
الجبال الشاهقة، وكنت حينها أنظر إلى الأفاق الهائلة من تحتي بطريقة عادية
فيما يبدو ثم عدت في النهاية إلى جسمي.

قال آدم: أهذا ما فعلته بك الأعشاب؟

قال سام: كانت الدنيا كلها حولي تبدو أكثر امتلاء بالحياة مما كانت عليه من
قبل على الإطلاق، وكانت مليئة بتلك الصفات التي وصفها بعض المتصوفين في
كتبهم بأنها أعظم الصفات جميعا وهي الحق والخير والجمال، لم يكن الأمر
يُشبه الحلم أو الخيال بل بدا حقيقيا جدا، فلقد شعرت وكأنني منفصل تماما
عن جسدي المادي، كما كنت على وعي به إذ كنت أنظر إلى أسفل من ارتفاع
عظيم، ووجدت النور يملأ المكان، لكنه ليس نورا يُغشى الأبصار

كان مكانا مليئا بالمعنى الذي عجزت عن فهمه، لكنني شعرت به شعورا متميزا جدا، وفي النهاية جلبت معي من هذه التجربة مزيدا من الاقتناع ببقاء هذه النفس بعد الموت، بدا لي أنه من غير المنطقي تماما أن تُصبح هذه الروح فانية عندما تستسلم في النهاية تلك الجثة البالية

قال ضياء: غريبة فعلا، فأنا على حد علمي إنك ملحد

- لقد أدركت فيما بعد أن تلك الأعشاب التي تناولتها في هذه البلد كانت مخدرة، وقد أوضح لي أحد الأطباء أن هذه الأعشاب التي يصنعون منها عقار المسكاليين الذي يؤدي بك إلى نفس الحالة التي حدثت معي

قال صوفي: لكن الصفاء الكامل موجود بدون الحاجة إلى مخدر أو عقار، وأن المعرفة الحقيقية هي المعرفة بالعالم وكل ما يحتويه في الوقت نفسه ويشمل ذلك المرء نفسه.....

ففي بعض أوقات الصفاء التي تنتاب المرء تشعر فيها إنك طافيا على نهر من السلام جاء من حيث لا تدري وذهب إلى حيث لا تدري، ثم لم يعد هناك نهر، ولأنا فلقد توقفت الأنا عن الوجود، وكفيينا حديث عن هذا الموضوع الذي ليس له علاقة بدراستنا، لولا أن ضياء أدخلنا فيه عنوة....

أما الآن فلتجمعوا لوحاتكم التي ستشارك في المسابقة

وبدأ الجميع يُقدِّمون اللوحات إلى البروفيسور صوفي فوقع عيناها على لوحة فقال عنها: هذا نوع من الفن اللامنتمي

قالت روز: وما الفن اللامنتمي يا سيدي؟

- يُطلقون عليه الفن الساذج، ويُشار به عادة إلى الفن الذي يبدعه بعض المودعين بمصحات الأمراض العقلية والأشخاص المضطربون ذهنيا

ابتسم ضياء وهو ينظر إلى روز التي قالت: لم أكن أعلم بشأن المرضى العقلين والمضطربين ذهنيا، لكنني قد أردت التجديد، دعني استرجع اللوحة يا بروفيسور وأعيد رسم واحدة أخرى

أعطى صوفي اللوحة لروز ونظر في واحدة أخرى ثم قال: أن تشاهد أحد الأشخاص يجلس على المقهى طيلة الوقت في النهار يدخن النرجيلة، ودماغه بين رجليه، ولا يكف عن السعال والبصق، وفي حالة شديدة من التعب، فبداخله صراع دون شك، وبداخله حلم كان يحلم به...

لوحة جميلة مَن صاحبها؟

رد عليه إمام: أنا مَن رسمها

ونظر في أخرى وقال: العيون الناعسة للسيدة الحسناء الرائعة الجمال تُحدق فيما وراء الخيال، بها الكثير من المشاعر الداخلية، لوحة رائعة مَن صاحبها؟

رفع آدم أصبعه ثم انتقل صوفي إلى غيرها وقال: الإنسان الذي يعيش في مجتمع زائف زاهر بالمظاهر والقيم المتحجرة، ويسعى جاهدا للحصول على حريته.....

جميلة تلك اللوحة، مَن صاحبها؟

رفع ضياء يده..

انتقل صوفي إلى غيرها وقال: عالم داخلي مُحطم وذات مدمرة، يُصبح العالم في داخلنا هكذا حينما يموت الحب وينتابنا اليأس، لكن علينا أن نُعيد خلق عالمنا من جديد، وهذا ما يفعله الفن.....

قال سام: مَن يدري أن كان الموت ليس في الحقيقة هو الحياة، وأن الحياة ليست في الحقيقة هي الموت

- إذن أنت صاحب اللوحة؟

- بالضبط

- رائعة ، سأقدم هذه اللوحات ثم انتظر لوحة روز الأسبوع القادم.

ثم نظر إلى روز وقال لها: لا تبحي عن الجديد الغريب بل ابحي بداخلك.

لقد وُلدت على متن سفينة عظيمة، لم أعرف أبواي أبدا، وجدني أحد البحارة العاملين على السفينة تحت مائدة من الموائد التي توجد في قاعة الحفلات على السفينة، وحينما أتى العاملون لتنظيف القاعة بعد انتهاء الحفل سمع أحدهم بكاء طفل ينطلق صوته من تحت إحدى الموائد، فنظر ناحية الصوت فرأى طفلا صغيرا مازال رضيعا حمله إلى رِبان السفينة كي يرى ماذا سيفعل بشأنه.

قرر الربان أنه عندما ترسو السفينة على أحد الشواطئ سيتم إرسال هذا الطفل إلى أحد دور الرعاية، لكن لما رست السفينة على الشاطئ حدث شيء غريب، وهو عندما كان يحملني ذلك الرجل الذي وجدني كنت أتوقف عن البكاء، وحينما يحملني غيره كنت أبكي بحرقة شديدة.

هكذا نشأت علاقة غريبة بيني وبين ذلك الشخص مما جعله يتمسك بي، ولم يتخل عني، وقرر أن يقوم هو على رعايتي، وهو ما رفضه القبطان بشدة إلى أن ألح عليه ذلك الشخص، وبعض العاملين، فنزل أخيرا على إرادة الجميع واستبقوني على متن السفينة، بشرط ألا يعلم أحد بوجودي، واتخذ على الجميع عهدا بالألا أظهر مطلقا في أي وقت من الأوقات التي يكون على السفينة أي مسافر.

أخفوني عن أعين البشر في تلك الأوقات التي كانت السفينة مكتظة فيها بالمسافرين، حينها لم تكن توجد سيدة واحدة تعمل معهم كان الجميع رجالا، لذا فقد كانوا يُحضرون لي كميات كبيرة من الحليب في كل مرة ترسو فيها السفينة على الشاطئ، وهكذا شب هذا الطفل بين الرجال العاملين، وكان ينال محبة الجميع وعطفهم، كما أغدق الرجال على هذا الطفل اليتيم بالهدايا والعطايا.

قام الجميع بتعليمي القراءة والكتابة، وكانت القراءة حينها متعتي الكبيرة التي استطيع من خلالها أن أعيش عوالم أخرى كثيرة غير عالمي، حتى أمسيت شابا قويا.

لم أكن حينها قد رأيت الأرض مطلقا إلا في بعض الأوقات التي كنت أطل فيها من شرفة السفينة. وذلك لأن السفينة حينما ترسو على الشاطئ ليصعد المسافرين عليها، أو ينزلون منها، كان عليّ الاختباء حفاظا على العهد إلى أن بلغت مرحلة معينة فسمحو لي باستخراج بعض الأوراق للعمل على السفينة.

لقد أصبحت حرا طليقا أسير في جوانب السفينة، وعلى سطحها بحرية تامة، وأقف لأشاهد البشر وهم يصعدون وينزلون من وإلى السفينة، لكن كان بداخلي دائما خوف شديد ورهبة عظيمة من الخروج إلى المدين التي ترسو السفينة على شواطئها على الرغم من إصرار الجميع، وحثهم لي على النزول لكي أتفقد معالم الأرض، وطلهم مني الخروج لرؤية العالم.

لم تُطأ قدمي الأرض من قبل، وكنت أقابل ذلك الإصرار دوماً بالرفض القاطع، كان هناك شيء بداخلي يدعوني إلى عدم الخروج والمغامرة، فأنا أحب هذه الحياة التي أنا عليها، أحب البحر والسماء والنجوم، أحب الحرية التي لا تحدها حدود المدن أحب كل شيء خلقته يد الإله ولم تعبث به يد البشر، أحب الطبيعة على بكرتها الخلافة الرائعة.

هكذا كنت دوماً إلى أن حدث شيء غريب ذات مرة، فعندما كنت أتجول في السفينة ذات مساء، وكان الهدوء الشديد يعم أرجاء المكان، وأثناء تجوالي توقفت أمام غرفة من الغرف، فرأيت بيانو عظيم الشأن، وبدون أن أدرك وجدت نفسي وكأن شيئاً يسوقني إلى هناك.

جلست على مقعد العازف، ورفعت غطاء البيانو وشرعت في العزف، لقد عزفت حينها بحرفية شديدة على الرغم من أنني لم أمس طوال حياتي أية آلة موسيقية على الإطلاق، كنت شارد الذهن سارح مع الموسيقى، وهذا ما دعاني إلى الدهشة والعجب، وما زاد الأمر عجباً أنه حينما انتهيت من العزف في تلك الليلة، وأغلقت الغطاء نظرت خلفي فوجدت جميع العاملين على متن السفينة كانوا يتراصون ورائي يستمعون في هدوء، وقام الجميع بالتصفيق الشديد امتناناً وتقديراً لعزفي.

احمرت وجنتي خجلاً مما رأيت، وبادر الجميع بسؤالني عن الذي علمني العزف هكذا، أخبرتهم بأنه لا أحد قد علمني لكن كنت أشعر في داخلي بشيء يقودني ويحرك أصابعي على هذا البيانو، وأنني حينما بدأت أعزف لم أشعر بوجودي مطلقاً، ولم ألمح حتى أصابعي وهي تسير على المفاتيح في نعومة وانسيابية، لقد كنت كمن غاب عن الوعي لفترة، هكذا كنت اعتقد.

منذ هذه اللحظة تغيرت حياتي بصورة كبيرة فأصبح العاملون يأتون كل ليلة حتى أعزف لهم، وكنت أفعل هذا كل ليلة حتى حدث ما لم يكن في الحسبان، فذات مرة وأنا أعزف للعاملين قام الرّبان بالنداء على أحد العاملين والقبطان لم يكن يعرف بأمر العزف، لم يجب العامل ندائه فصرخ صراخاً شديداً لعله يسمعه لكن لا مُجيب فاضطر إلى النزول إلى الطابق الأسفل حيث كنا موجودين ليري ما هو الأمر الهام الذي منع الجميع من سماع ندائه، ولما اقترب من غرفة العاملين وفتحها لم يجد فيها أيّاً منهم هناك مما زاد الأمر سوءاً واشتعل غضبه، اقترب من غرفة الموسيقى حينما رنا إلى سمعه صوت البيانو وما أن استمع إلى صوت الموسيقى حتى هدأت سورة الغضب التي أملت به،

وتحول غضبه إلى هدوء وسكينة، وتوقف صامتا هو الآخر ليستمع لذلك السحر الذي سلبه العقل والقلب.

بعد انتهاء العزف كان أول المصنفين للعازف الذي لم يره، وكان أول مَنْ أشاد بروعة وجمال هذه الألحان الشجية، لكنه سريعا ما تدارك نفسه، وصب جم غضبه على الجميع ثم طلب مني الحضور إلى غرفته، وما أن وصلت إلى الغرفة كنت أدرك تماما أن شيئا عظيما سوف يحدث، وأنه على الأقل سيقوم بطردي من السفينة، ولكن حدث عكس ما توقعت، لقد طلب مني أن أعزف كما أشاء لكن ليس في حضور المسافرين.

فرحت بذلك فرحا شديدا، وسألني بدوره عمن علمني الموسيقى؟ وقال لي لا بد أنه موسيقار عظيم ذو شأن كبير، لكنه تفاجأ عندما أخبرته بأن لا أحد قد علمني العزف، ولا أعرف من أين أتت تلك الهبة؟ وعلى كل حال استمر الوضع كذلك، كانت الموسيقى التي تخرج من البيانو بمثابة السحر الذي يسحر أذان البشر حتى الطيور الصادحة توقفت عن الغناء لتستمع إلى الألحان على فتحات النوافذ.

مرت الأيام وتعاقبت الشهور، والوضع كما هو حتى أتى ذلك اليوم الموعد الذي تمت فيه دعوة عازف بيانو شهير هكذا أخبروني، فأنا لم أعلم شيئا عن العالم الخارجي كما حدثتكم من قبل، اجتمع الجميع لسماع عزفه الرائع، ووقفت أنا في نهاية القاعة حتى لا يلاحظني أحد من رواد الحفل، سمعت موسيقاه جيدا إنه يعزف موسيقى تنبض بالحياة على البيانو، وبعد أن انتهى سرت نحوه وصافحته، ثم نهض من مقعده أمام البيانو لتحية الجمهور.

في ذلك الوقت الذي كان يُحيي فيه جمهوره جلست أنا مكانه وسط دهشة الحضور الذين كانوا ينظرون إلى بازدراف فقال لي هذا العازف: مَنْ أنت أيها الحشرة لتجلس على مقعدي هكذا؟

كانت هذه أولى كلماته لي والتي لم أنسها حتى الآن، لكنني لم أعره اهتماما وشرعت في العزف، كان همس الناس شديدا، والتلميحات والكلام البذيء ينطلق من أفواه الجميع، لكن حينما بدأت الموسيقى تسري ساد صمت رهيب في القاعة، وتسمرت أعين الناس أمام البيانو، وأعاروني سمعهم وأبصارهم حتى انتهيت فضجت القاعة بالتصفيق والهتاف، مما جعل ذلك العازف الشهير يذهب غاضبا محتقرا للجميع.

سمعت الكثير من كلمات الإشادة والتبجيل من تلك الأفواه التي كانت ترميني بالشرر منذ قليل، وانتشرت الشائعات على متن السفينة بشأن عزفي، فمنهم من كان يقول عني بأني ساحر استخدم السحر للتأثير على الناس، ومنهم من قال أن البيانو به شيء غريب، مع العلم بأنه نفس البيانو الذي كان يعزف عليه العازف الشهير، ومنهم من قال بأني لم أكن أعزف في الحقيقة، وكنت فقط أقوم بحركات تمثيلية، وأن صوت الموسيقى كان ينبعث من تسجيل صوتي، على كل حال لم أكن أهتم كثيرا بما يقال عني.

بعد ذلك اليوم كان الناس يتوافدون إلى السفينة ليس للسفر، ولكن لسماع ألحاني حتى ذاع صيتي في جميع أنحاء البلاد، وانتشر اسمي على أفواه الجميع حتى من لم يراني، وقدم لي ربان السفينة الكثير من الدعوات التي أعطاه إياها بعض الموسيقيين الكبار لكي أقوم بالعزف في حفلات موسيقية بالخارج، لكنني دوما أقابلها بالرفض وكما قلت أن ذلك الشيء بداخلي هو من كان يمنعي دائما من الخروج من السفينة إلى أن تمت دعوتي من قبل أشهر عازف للبيانو في البلاد حتى ينافسني في العزف.

لم أكن أحب المنافسة بين البشر فأنا أجعل الناس يستمتعون بالموسيقى فلما أجعلها حربا تدور رحاها بيني وبين العازفين الآخرين، ولا أعلم لماذا هذا الإصرار على تلك المنافسة، فأنا لا أريد أن أحصل من الموسيقى على أية مكاسب، ولا أريد كذلك أن أتنافس مع أحد من العالمين.

لقد كنت قانعا راضيا بما أنا فيه، وأجد في الموسيقى السلوى، ومُستغني بها عن كل ما في الوجود ولكن الجميع قد أجبروني علي العزف بعد أن حضر إلى السفينة ذلك العازف الشهير الذي قابلت دعوته بالرفض، لقد أتى حتى عتبة داري العازف الأفضّل في البلاد جميعها، جاء إلى السفينة خصيصا كي ينافسني في العزف لأمر في نفسه، كنت أضن أن أرباب الموسيقى ذوو أحاسيس مرهفة، تكاد أحاسيسهم تنطلق إلى عنان السماء، فهم ينشدون جميع القيم السامية من خير وحق وجمال، وكنت أراهم أعلى درجة من البشر العاديين، لكن هذا العازف كان يُخبئ في نفسه شيئا ما، أدركته فيما بعد، لقد كان خائفا على ما حققه من شهرة، ومن مال، لم تكن الموسيقى هي كل شغله الشاغل، لقد كانت له أشياء أخرى يُفضلها، ولم أكن أحبها، فلا أحببت يوما جمع المال، ولا أحببت الشهرة، لذلك كان مجيئه إلى السفينة ليحافظ على هذا البناء الشامخ من

الصيت والشهرة الذي أقامه بموسيقاه، وخاف عليه أن ينهار من قبل شخص حقير مثلي لم يدرس قط في مدرسة، ولا تعلم كيف يعزف على أية آلة موسيقية. ونزولا على رغبة الجميع قررت أن أعزف لكنه تقدم بعزفه أولا ثم اتبعته، كان عزفه مبهرا في الحقيقة، وقد استمتعت به صراحة، كما أنني أشدت به، وعزفه الرائع الجميل، لكن بعد أن انتهى حاولت أن أصافحه فرفض أن يصافحني وتجاهلني، ولا أعرف لماذا فعل ذلك؟... على الرغم من أنني صفقت له بشدة، وعلى أية حال جلست على المقعد لأعزف حتى انتهيت، وكان هذا أعظم لحن قد عزفته مطلقا، ووسط ذهول الناس الذين لم يستطيعوا حتى تحريك أيادهم للتصفيق من تلك النشوة التي اعترتهم جميعا بعد سماع الموسيقى.

بعد لحظات تداركوا أنفسهم ثم وقف الجميع ليسري في القاعة ضجيج التصفيق الحاد، والهتاف الشديد الذي لم يحدث مثله من قبل مع ذلك العازف، وقامت لجنة التحكيم التي كانت حاضرة لتقييم الموسيقى، وأخبروني بأي المتفوق بجدارة على هذا العازف الذي ترك القاعة غاضبا ورحل.

أصديقك القول فأني شعرت بنشوة غريبة من كلمات الإشادة والتهتاف الحاد، وأصبحت أزهو بنفسي، وأسير في خيلاء المنتصر إلى أن عدت إلى رشدي سريعا من هذه النوبة التي أملت بي.

بدأت عملي بعد ذلك على السفينة كعازف فقط، أعزف الموسيقى في الحفلات التي تُقام هنا، وحصلت على الكثير جدا من الأموال، كنت لا أدري ماذا أفعل بها، ففي البداية شرعت في توزيعها على العاملين في السفينة حتى يتمتعوا بقليل من رغد العيش وهوائه، والكثير منها احتفظت به لنصيحة والدي أو هكذا أسميته، وهو الشخص الذي وجدني وأنا طفل وقام بتربيتي ورعايتي.

مرت سنوات حتى مات هذا الشخص الأقرب إلى قلبي وعانيت أشد المعاناة من فقدانه، ومرت الأيام وأمست موسيقي حزينة شجية حتى استطعت أخيرا التغلب على حالة الحزن التي اعترتني، كنت أظن أنني سأعيش حياتي بأكملها على متن هذه السفينة، لكن الجميع ضغط علي بشدة حتى أخرج إلى الأرض لكي أرى العالم.

حاولت أن أروضخ إلى رغبتهم، وارتديت ملابس جديدة تتناسب مع حياتي الجديدة. كان الكثير يسألني هذا السؤال هل ستقضي عمرك كله على متن سفينة؟ وفي ظل الرغبة الشديدة من الجميع لخروجي قررت الهبوط لكني

توقفت فجأة وأنا على السلم. أما الذي أوقفني لم يكن ما رأيته ولكن ما لم أراه.

كان هناك في هذه المدينة المزدحمة كل شيء ما عدا شيئا واحدا فقط هو أن ليس لها نهاية. كان بالفعل هناك كل شيء. ولكن لم يكن لها نهاية. أما الذي لم استطع رؤيته هو أين ينتهي كل هذا؟.. إنها نهاية العالم بالنسبة لي!.....

"خذ البيانو على سبيل المثال"، هناك بداية ونهاية لمفاتيح البيانو إنك تعرف الثمانية والثمانين مفتاحا في البيانو. إن لهذه المفاتيح نهاية. وعلى تلك الثمانية والثمانين مفتاحا تستطيع أن تؤلف موسيقى إلى الأبد. أنا أحب هذا. استطيع أن أتعايش مع هذا. لكن عندما تضعني على هذه السلالم التي أنزل منها من على متن السفينة إلى الأرض فأني أرى المدينة كبيانو بملايين المفاتيح وهذه هي الحقيقة. فلا توجد نهاية لها فمفاتيحها لا متناهية إلى ما لا نهاية. وإذا وُجد بيانو بمفاتيح لا نهاية لها فأنك لا تستطيع أن تعزف عليه موسيقى. إنك في هذه الحالة تجلس في الجانب الخطأ. لأن المدينة هي بيانو الرب.

لقد كانت أمنيقي هي المكوث على ظهر السفينة وسط البحر. ومع ذلك فأنها كانت قابلة للتحقيق فبين مقدمة السفينة ومؤخرتها عبّرت عن سعادتي بالموسيقى على مفاتيح بيانو لها نهاية. لقد تعلمت أن أحيا بهذه الطريقة. أن أعيش بهذه الطريقة.

تقول لي أن أنزل إلى الأرض... إنها سفينة كبيرة بالنسبة لي. إنها رحلة طويلة جدا. إنها موسيقى لا أعرف كيف أكتبها أو أعزفها. إنني بكل بساطة لا أستطيع أن أغادر السفينة. فمن الأفضل أن أغادر جسدي هذا عن أن أغادر السفينة. وبعد كل شيء أنا لم أوجد أبدا.....

قاطعته عزيز قائلا: انتظر قليلا لا تكمل حتى آتي ببعض أعواد الحطب لنشعل النار مجددا فلقد خمدت النار. وأنا استمع إلى قصتك الشيقة هذه باهتمام أيها العجوز

وبداً عزيز يجمع بعض الحطب حتى يُشعل النار مرة أخرى وهو يتحدث إلى العجوز ويقول: إذن لم تنزل الأرض؟

قال له العجوز: لا بعد أن توقفت على السلالم. عاودت أدراجي مرة أخرى إلى سطح السفينة

- والآن أنت على الأرض وتجلس بجانب الكوخ، أنت إذن أفضل عازف بيانو عرفه التاريخ كما تقول الشائعات عنك؟

- لا أحب هذه التسمية، أنا كنت موسيقي فحسب

- لكن ما الذي جعلك تتنازل عن حياتك على سطح السفينة وتعود إلى الأرض؟

- أمازلت تريد الاستماع؟

- في الحقيقة قصتك شيقة جدا، وقد أعجبتي وأريد أن أعرف نهايتها

- يا ولدي أنا لا أقص عليك قصة قبل النوم، ثم أنت تعاصرها الآن

- كيف؟

- لقد أصبحت جزءا منها ألا تجلس معي الآن، أليس هذا جزءا من القصة
ابتسم عزيز وقال له: كل ما أريد معرفته الآن هو ما حدث بعد ذلك؟ وما هو
هذا الشيء العظيم الذي أخرجك من السفينة وأنزلك إلى الأرض؟

قال صوفي: قبل أن نُنهي هذه المحاضرة لعلها تكون الأخيرة أحب أن أذكر
الجميع أن فن التصوير يحتاج إلى قدر كبير من المرونة والخيال وحرية التفكير

قالت روز: لكن تقابلني مشكلة دوما يا سيدي

قال صوفي: وما هي مشكلتك؟

- اختيار موضوع للرسم فبعد أن تركت الفن السريالي، ونحيت جانبا
اعتمادا على الرموز في الرسم، وبدأت في رسم صور حقيقية كانت الأفكار
تخذلني دائما

- عليك بالتركيز فما أكثر الموضوعات التي يمكنك أن ترسمها

- مثل ماذا؟

- موقف الضعيف والحق الضائع، نظام الدولة وقضية الديمقراطية، ونظم
الحكم

تدخل آدم وقال: الأبنية القديمة، والشوارع والمقاهي والمآذن والأسواق

فقال سام: حركات العمال في المجالات المختلفة، الإنسان ومعاناته
وصراعاته

قال ضياء: الواقع والحلم، الموت والجمال، المآسي، الفقر، المرض، الكفاح
من أجل لقمة العيش

قال إمام: الوجود والقوى المجهولة، المجاذيب، الشحاذون، الحياة الشعبية

عاد صوفي للحديث وقال: الحب، الصداقة، الحزن، الروح، المرأة

قالت روز: كفاكم كفاكم ما كل هذا

رد عليه صوفي: أرايت، هكذا أي موضوع يمكن أن يصير فكرة للرسم حاولي
أن تجعلي عقلك يعمل، ماذا رسمتِ الآن؟

تناول صوفي اللوحة التي أعطته إياها روز، وبدأ ينعم النظر فيها، ظل لفترة
طويلة يتفحصها وبعدها نظر إلى الجميع وقال لهم: لكي نتعلم كيف نتذوق الفن
علينا أن نتعلم كيف ننعم النظر في تفاصيل العمل....

علينا أن نُعطي أنفسنا فرصة كافية عند النظر إلى العمل الفني، فمن خلال
التركيز في العمل الفني نحصل على خبرة عظيمة في رؤية الجمال.....

أما الآن فليُخبرني كل منكم عن خططه بعد التخرج؟

قالت روز وهي تنظر إلى وجوه زملائها: الحصول على شهادة الفنون الجميلة
قد يعني الكثير لهؤلاء الصغار

ابتسم الجميع ثم قال سام: أعتقد أنني سأتجه إلى التدريس، فأنا أعشق
التدريس

قالت روز في ثقة: أما أنا فسوف يتكالب الزبائن على شراء لوحاتي

قال ضياء: أما أنا فسأحاول جاهدا أن أجعل أعمالي الفنية تحاول تغيير
المجتمع، وسأناقش فيها مشكلاتنا نحن البشر

قال آدم: أحاول أن أخرج مشاعري وأحاسيسي على الورق، ولن أهتم
بالأموال، فلن أرسم من أجل المال

إمام: في الحقيقة سأحاول أن أعمل في إحدى شركات الدعاية والإعلان.

نظر صوفي إلى الجميع وقال: لا أريد أن أحيط الجميع، لكنني دائما أفكر في صعوبة الموقف الذي يتعرض له كل فنان وهو على أعتاب التخرج، القليل منكم فقط هم سعداء الحظ الذين سوف يجدون من يدعمهم، أما الباقي فلن يكون الأمر سهلا بالنسبة لهم بعد التخرج، ولن يحقق التخرج أحلامهم وربما يظل كثير منهم عاطلا عن العمل لشهور عديدة

قال آدم: إنها مسألة محبطة أن يجد الفنان نفسه غير قادر على الحصول على وظيفة مناسبة في مجال الفن تكفل له حياة طيبة

قال صوفي: لكن ذلك لا يدعو إلى الشعور بالحزن والألم على الإطلاق، فأنا أعتقد أن التعليم في حد ذاته أصبح شيئا مهما، فالتعليم يسهم في جعل الفنان يشعر بإنسانيته، ويشعر بأنه راض عن نفسه كإنسان.

الحب.... هل تعرفه؟... ذلك الجميل الرائع الأكثر شاعرية، ذلك الذي يجعل من المستحيل سهل المُنال.... هل شعرت به من قبل؟..... هل شعرت بتلك السعادة التي تطوف بنا بين النجوم، هل سمعت ذلك الإيقاع السحري التي تعزف أوتاره على إيقاع الحياة فتجعلنا نرى جمال الوجود، ذلك الحب الذي يجعلنا نتحمل مشاق الحياة وصعابها، ذلك الذي يعلمنا أن هنا على هذه الأرض ما يستحق الحياة....

قال له عزيز: إذن فالحب هو ما أنزلك من عليائك إلى الأرض، لكن هل كنت تعرف عن الحب من قبل أن تعيشه؟

- عندما نحب وتُزيل القيود عن مشاعرك تراها وقد ارتفعت إلى عنان السماء، وإذا بعواطفك كالأمواج التي لا تهدأ

- وهل كان الحب دائما قويا؟

- يا ولدي هناك دائما أوقات صفاء للحب، وهناك أوقات فتور، فترموتر الحب ليس ثابتا عند قراءة واحدة، ألسنت متزوجا؟

- بلى متزوج

- كيف لا تعرف ذلك؟

- لم أتزوج عن حب، لكن قل لي كيف التقيت بهذه المحبوبة التي استطاعت أن تجعلك تخرج من السفينة والبحار والأمواج إلى اليابسة

شرد العجوز بذهنه وراح بعيدا إلى الزمن الماضي وعاد يقص عليه قائلا:

عندما التقت العيون ولاحت الابتسامات على الشفاه، نزل الغيث على القلب فغمره بسيول من العواطف والأمواج التي أطاحت به بعيدا، وراح القلب يُمسك بدفة القيادة ليجتاز تلك المحنة، لكن حينها لم أشعر إلا أنني أود الاقتراب منها أكثر فأكثر.

كانت أحد المسافرين على متن السفينة وكانت شابة جدا جميلة جدا يكاد حسنها يُضيء الأرض وما حولها، وكنت جامحا مقداما، ولا أعرف حينها ما الذي حدث لي؟! تقدمت إليها وجثوت على ركبتي وقلت لها أحبك.

لم أعرف حتى الآن كيف خرجت مني تلك الكلمة، ولا أعرف كذلك كيف تقدمت بخطاي إليها، كان هناك شيء غريب لا أعرفه يسيطر على جسدي فلا أشعر به ويقوم بتحريكي كما يشاء...

ثم سكت قليلا فقال له عزيز: ها... وماذا بعد؟

- وجدتُها والحمرة الشديدة قد أحاطت بذلك الوجه الضحوك المبتسم، لكن المفاجأة التي حدثت حينها وكنت غير متوقعها هي قولها لي هي الأخرى أحبك أيضا... هل تؤمن بهذا الحب؟

ابتسم عزيز في وقال: في الحقيقة لا أعرفه لكنني استحسنه فله مذاق خاص عن الحب الذي تنتجه العشرة الطويلة، لكن أكمل قصتك

استطرد العجوز: بعدما قالت لي تلك الكلمة تركتني وانصرفت، وفكرت أن أتبعها، لكن شيء عاد ليُوقفني مرة أخرى فلم أستطع أن أنزل السلام إلى الشاطئ وعاودت أدراجي

توقف العجوز للحظات يتفكر فقاطعه عزيز قائلا: ثم ماذا بعد؟

- لم أحلم تلك الليلة فقد فاتني قطار الأحلام، وتركني أقف على محطة مقفلة تنعق فيها غربان الخيبة، لم أكن وقتها قد عاصرت الحب من قبل ولا أعرفه، لكن هناك لحظات في حياتي سوف أبادلها بستين عام لأعود لها مجددا، هذه هي الحقيقة.

تلك اللحظة كانت عندما تلاقت الأعين في صمت، ودقات القلب تزداد شدة حتى كاد القلب ينفجر من دقاته، لم أكن على يقين أنني سأراها مجدداً، فالزمن قلما يجود بمثل هذه اللحظات، مرت أيام طويلة والتفكير لم يتركني لحظة واحدة، وصورتها لا تفارق خيالي، وكنت دوماً ما انشغل بالعزف على البيانو، فالموسيقى وحدها هي التي تستطيع أن تشغلني عن كل ما في الحياة حتى أنت اللحظة التي كنت انتظرها بفارغ الصبر وهي لحظة اللقاء.

لقد عاد بها الحب إلى هنا، أنت لتُخبرني إنها هي الأخرى أنها لا تتوقف عن التفكير، وهذا ما جعلها تأتي إلى السفينة مرة أخرى، كنت أعلم جيداً بأنني سألقاها، تحدثنا كثيراً، لم نتوقف قط عن الكلام والابتسام والضحكات التي كانت تخرج من القلب، وأعلمتها بكل شيء عني، ولما حانت اللحظة الحزينة التي أخبرتها فيها بأنه لا يمكنني أن أترك السفينة وأنزل على الأرض واجه حزني صمتاً منها.

كانت تقول لي أن الوقت كفيف بذلك، فلا بد لي من الخروج وخوض غمار الحياة، نعم هذه الحياة مليئة بالألم ولكن هناك عزاء فيها أيضاً إننا سنكون سوياً، ونأمل ألا يتغير هذا أبداً.

كنت في حيرة من أمري فالقلب يقول لي لابد أن تعيش وتخوض التجربة، ولكن عقلي يحدثني عن البقاء، أخبرتني أن علينا ألا نقابل الحياة بتشاؤم، ولا نحاول أن نحطم الدرب الذي يجمعنا سوياً، وهيا بنا لنفتح أبواب الحياة لقلوبنا وليذهب كل شيء إلى الجحيم، وإذا واجهتنا مصائب الحياة وأبكت قلوبنا وانهمرت الدموع من المآقي دعنا نقابلها بالضحك من قلوبنا ودع ضحكاتنا تملأ الأفق، لابد أن نعيش حياتنا وندع الألم يذهب بعيداً، ولنندع كذلك الحياة تزدهر كل يوم، فلا بد أن نترك الماضي حيث ينتمي، ونستمع لما يُحدثنا به القلب.

وهكذا بعد التفكير العميق اتخذت قراراً بالرحيل عن موطني، عن سكتي، عن سفينتي، عن بحاري وأمواجي، وخطوت أولى خطواتي نحو الأرض، حصلت على أموال كثيرة التي كنت أدخرها، وأمسكت بيديها وأنا أسير برفق على تراب الأرض التي لم تطأه أقدامي من قبل، وكأني أخشى أن تغوص قدمي فيها.

بنيت ذلك القصر البعيد عن جميع البشر، وتم الزواج وعشنا سوياً في سعادة لم تشوبها شائبة حتى نفذت كل الأموال، حينها طرقت المشكلات أبواب

بيتنا حتى اضطررت إلى البحث عن عمل، لكني لم استطع أن أتعاش على هذه الأرض فقررت أن أعزف على البيانو، وأبيع الألحان إلى الموسيقيين، ومنهم من أصبح من الأشهار بفضل ما لحنته له، وعادت الأموال تتدفق من جديد.....

قاطعته عزيز قائلا: لكن لماذا تبيع ألحانك في حين إنك تستطيع أن تملك أنت هذه الشهرة

- أخشى الناس، أخشى العالم، ولا أحب الظهور ولا الأضواء

- واستمرت الحياة كذلك؟

- ورزقني الله بطفل صغير وعادت السعادة إلى بيتنا الهادئ، كانت حياتنا مليئة بالمغامرات، وكنا نضحك دوما على كل شيء حتى الأشياء الغبية، لم نبال بأي شيء آخر في الحياة لأن كل ما رغبنا به هو أن نكون معا، فكنا دائما معا

- يبدو لي أنكم كنتم في غاية السعادة

- نعم هذا صحيح، فأنا لم أطلق البقاء بعيدا عنها وهي كذلك، ولكن عندما لا يوجد ما يكفي من المال أبدأ بالشعور بما يُشبه التمزق الداخلي

- ماذا تعني؟

- كنت أريد دائما أن أعمل على تلبية احتياجاتها

- فهمت

- وهكذا سارت حياتنا

- وكيف رحلت إذن عن عالمنا؟

- تلك قصة أخرى

- كلي أذان صاغية

- كنت حينها منشغلا بالعزف في تلك الغرفة أنت تعرفها جيدا

- نعم

- وعندما أقوم بالعزف أرحل عن هذه الدنيا وأدخل في عالم آخر غير هذا، وقتها اشتعلت النيران في الغرفة التي تنام فيها هي والطفل ولم أسمع صرخات الجميع، كان المكان مُحاط بالنيران، وكانت هناك ألسنة لهب أزرق تحرق

ملءات الفراش، كانت تحترق هي والطفل الرضيع، وهي تحمله بين يديها وتحاول جاهدة أن تصل إلى غرفة البيانو للنجدة.

لم أشعر بها حتى انتهيت من العزف، ونهضت من مكاني لأفتح الباب فإذا بهم مُلقيان على الأرض، وقد أصبحوا متفحمين والنيران تملأ المكان باللهب الشديد حاولت إنقاذها لكنها كانت قد رحلت هي والطفل، لم استطع أن أفعل شيئاً.

كانت النيران حينها قد أصابت ذراعي وقد رحل الشخصان الوحيدان اللذان أحببتهما، ألقيت بنفسي إلى الخارج وتدرجرت على الأرض المبتلة بماء المطر الغزير، ثم أخذت أركض ولم أنظر قط إلى الحريق خلفي، ركضت مسرعا، ركضت فحسب إلى لا مكان. حتى طلعت الشمس ولم أستطع أن أواصل الركض، ثم حين غربت الشمس مرة أخرى ركضت مجدداً، لأيام ظلت أركض إلى أن كانت كل دلائل وجود البشر قد اختفت، وسكت لبرهة.....

نظر حينها عزيز إليه فوجد الدموع تهمر من عيني العجوز في حزن والأسى يجثم على ملامح وجهه فربت على كتفيه ثم قال له: أشعر بكثير من الأسف تجاهك.... سامحني لم أشأ أن أفتح عليك نوافذ ذكرياتك المؤلمة، أنا أسف

- لا تأسف يا بني فتلك النوافذ دائماً مفتوحة

كان الجميع يجلسون على مقاعدهم أمام لجنة التحكيم الخاصة بمسابقة الرسم للفنانين المبتدئين، وعندما أعلنت اللجنة عن اسم الفائز الذي حصل على الجائزة الأولى تقدمت روز وصعدت ببطء درجات المنصة وكانت ترتدي بنطالا وقبعة ونظارة، عمدت إلى إنزال الميكروفون ليتناسب مع قصر قامتها وراحت تتحدث قائلة: عندما التحقت بكلية الفنون كنت أفكر بطريقة ما، وأعيش حياتي بطريقة مختلفة، وكنت اختلف عن الجميع، وهو ما دعاني إلى اتخاذ الرسم السريالي كشيء مميز لي وقد حصلت حينها على الكثير من السخرية اللاذعة من قبل زملائي الطلبة، هذا بالإضافة إلى الاستهجان الذي حصلت عليه من أساتذتي الذين يقومون بالتدريس لي في الكلية....

لم أرغب في تغيير طريقي، ولم أرد أن أترك هذا الرسم الذي كان يستهويني على الرغم من كل هذا، لكلي عندما أمعنت التفكير في كل شيء مؤخراً..... في حياتي، وفي دراستي، وفي علاقتي بأصدقائي، وفي أعمالي الفنية وجدتها فعلا لا شيء، لا شيء سوى خطوط وشخبطات لم تصل بعد إلى الحياة الحقيقية،

وأدركت أنه لابد من التغيير ونحيت هذا الفن جانبا، وتركته ورائي ثم شرعت في رسم تلك اللوحة المعبرة التي حصلت بها على الجائزة الأولى، وبعد....

أود أن أشكر الجميع على عطائهم بدءا من أساتذتي وانتهاء بزملائي.

ثم فتحت ورقة كانت مطوية في يديها وراحت تقرأ الكلمات المكتوبة أمامها بشغف وحماس كما لو كانت تستظهر قصيدة شعر، فراح صوتها يتردد أصدائه في أنحاء المكان، ويرن عبر المعرض المتراخي الأطراف فيما كانت تقول: إن قوة الفنانين يمكن أن تؤثر في العالم بالإيجاب، ونحن هنا الآن وقد احتبست الأنفاس في انتظار الحدث الذي سينتشل هؤلاء الفنانين من برائن الشقاء والألم، لقد انتظر الجميع على أحر من الجمر، وانتظرت معهم طويلا و طال الانتظار، وها قد اقتربنا من اللحظة الفاصلة، وأنا سعيدة جدا بحصولي على الجائزة الأولى.....

هنا توقفت روز عن الحديث، وكان المغلف الذي في يديها خاليا مغلقا لأن هذا كله كان مجرد تجربة للأداء قامت روز بتجربتها حينما أتت إلى القاعة مبكرا جدا قبل الجميع، ونظرت إلى المقاعد الخالية أمامها وهي في حيرة من أمرها، متمنية أن تفوز بالجائزة فراحت تتخيل.

بعد مرور عدة ساعات بدأ الحضور يتوافدون على القاعة، وحضرت لجنة التحكيم التي دعت الجميع لمشاهدة اللوحات في قاعة العرض، وانطلق الجميع إلى القاعة حيث وجدوا جميع أعمال الفنانين الصغار معلقة على جدران المعرض، وشرع الجميع في مشاهدة اللوحات وتفحصها في صمت وهدوء، ثم عادوا إلى قاعة التحكيم ليستمعوا إلى الحكام، ولتعلموا من سيفوز بالجائزة الأولى ثم الثانية فالثالثة، وقفت على المنصة شابة في مقتبل العمر ونظرت إلى جميع الجالسين أمامها ثم قالت: الجائزة الأولى سوف تذهب إلى الفنان...

ثم نظرت إلى الورقة الموضوعة أمامها حتى تقرأ الاسم واستطردت تقول: إلى الفنان هادي فليتقدم حتى يتسلم الجائزة.

ساد الصمت في أرجاء القاعة، والجميع يتربص وكذلك الطلاب فليس لديهم طالب في صفهم يُدعى هادي فعلموا أن الجائزة الأولى قد خرجت من بين أيديهم، كان الجميع ينظر حوله لعل هذا الفنان يظهر، لكن لم يتقدم أحد فقالتها مرة أخرى بصوت أعلى: الفنان هادي يتقدم إلى المنصة لاستلام جائزته

لم يُجِها أحد فرددت مرة ثالثة اسمه على المأل. والجميع في دهشة من الأمر. وبدأوا يتساءلون كيف لهذا الفنان ألا يحضر؟.

لكن انتهت الدهشة بعد لحظات قليلة حينما انفتح باب القاعة، واندلف منه شخص يستند على عكاز بيده، وباليه الأخرى يُمسك بشخص آخر يصطحبه ليدله على الطريق، راحت نظرات الجميع تتبع هذا الشخص فإذا به يرتدي نظارة سوداء، ويرفع عصاه أمامه حتى لا يصطدم بشيء في الطريق فأدركوا أنه كفيف.

حاول الشخص الذي كان يصطحبه أن يجلسه على المقعد، واستمرت الفتاة على المنصة في النداء، ولما ذكرت اسمه وقف هذا الشخص الذي جلس لتوه رافعا يده وقال: أنا هادي

نظر الجميع إليه في دهشة أطاحت بعقولهم، ومن بينهم لجنة التحكيم وقال له أحد الحكام: أنت هادي بالفعل؟

رد عليه قائلاً: أمتعجب أنت من كوني أعمى؟

- كيف لي ألا أتعجب، قل لي كيف رسمت تلك اللوحة العظيمة؟

- من الخيال فأنا لا أملك سواه

قالت فتاة المنصة موجهة حديثها إليه: فلتتقدم لتلقي كلمة يا هادي

تقدم هادي بخطوات حثيثة مع صاحبه حتى وصل إلى المنصة وقال:

أرى الجميع يتساءل هل إذا أصبحت كفيفا ستوقف حياتك؟ هل ستملك القدرة على استكمال الحياة بدون أن تراها؟ هل إذا فقد الإنسان بصره سوف يفقد حياته، ويدخل في حالة اكتئاب وحزن ويعيش في عزلة؟.

لقد أصبت بالعمى، وهذا ما أدخلني في دوامة حزن عميقة بالفعل، وقضيت فترة طويلة في حالة من الغم والكآبة، إلا أنني قررت الخروج من هذه الحالة، واستطعت أن أرسم عن طريق الاعتماد على بعض الدهانات المزخرفة، وقمت بتطوير طريقة للرسم حتى أتمكن من الرسم على القماش.....

كانت تخيلاتي التي اعتمد عليها في رسم لوحاتي بعد فقدان البصر عبارة عن صور العالم وموجوداته التي أتذكرها، والتي حُفرت في ذاكرتي، فاعتمدت على الألوان لإبراز ملامح الصورة، وبرغم أنني لا أستطيع رؤيتها، لكن تلمسها وتصنعها أنا ملي.....

كانت خسارتي ليست بالأمر الهين عليّ، ولكني بعد فترة كربى هذه، قررت البحث عن شيء أستطيع من خلاله أن أحقق نجاحا، وأخرج من حالة الضيق التي اعترتني، ولم أجد أمامي سوى الرسم فهو شغفي.

حاولت جاهدا وبلا يأس، وشرعت باستخدام الصمغ في رسم اللوحات، وكان سبب اختياري الصمغ لتكون طريقة أتعرف من خلالها على ملامح الرسمة بعد أن تجف، وبعدها استخدمت خيوط النسيج التي تؤدي الغرض نفسه.

لم أكن أعرف التمييز بين الألوان التي أريد استخدامها، فاستخدمت طريقة برايل لكتابة اسم اللون، ولكن بمرور الوقت عرفت أن أميز بين الألوان وبعضها عن طريق اللمس، وبهذا تمكنت من رسم اللوحات وحصلت على جوائز متعددة.

باتت الألوان تعني عندي اليوم أكثر من الأيام التي كنت فيها مبصراً، ولست أدري إذا كان هذا عالم الألوان الحقيقي أم لا، كنت فقط أرى الألوان التي تعكسها الأضواء في عيني، أما الآن فأنا أبصر عالما من المشاعر، عالما من الموسيقى، عالما من الأحاسيس، لذا فعندما أسمع الموسيقى أرى الألوان وأضعها في رسومي، وكلما رسمت أكثر كلما زادت حيوية ألواني.

أبدأ لوحاتي بلغة الإشارة، كل لوحة لي فيها نقاط من لغة الإشارة، هكذا أعرف من أين وكيف أبدأ؟ ثم أقوم بتغيير صفات ولزوجة الألوان.

لقد اختصرت عليكم الطريق، وأزلت عنكم كل تعجب، وأجبت على كل الأسئلة التي تدور في خلدكم وعقولكم، وأخيرا أقول أن مفهومنا عن الشخص الأعمى، إنه لا يعرف أي شيء عن الألوان، بل أنه لا يرى إلا الظلام أمامه، لكني ألمس الألوان بيدي كمن يراها، وأضع على أصابعي شيئا منها ثم أبدأ بتلوين اللوحة أمامي.

أعرف ألوان الأشجار، والأزهار، والبحار، والبيوت، والطيور، وبالتأكيد أعرف ألوان قوس قزح في قلبي وبصيرتي حتى وإن مر على هذه الرؤية عشرات الأعوام.

وفي النهاية أود أن أقول أن الأعمى يرى النور ببصيرته فمتى يراه ببصره.....

صفق الحضور لذلك الفنان الأعمى، وتقدم بخطى حثيثة للحصول على الجائزة، وبعد تسلمه الجائزة عاد ثانية إلى مقعده، بعدها تدخلت الفتاة على المنصة وقالت: أما الجائزة الثانية فتذهب إلى الفنان آدم.

عاد التصفيق مرة أخرى، وزادت حدة الهتاف من قِبَل زملائه الطلاب، وتقدم آدم لاستلام الجائزة ثم عادت فتاة المنصة في الأخير وقالت: أما الجائزة الثالثة فهي من نصيب الفنانة روز

حينها أطلقت من روز صرخة عالية من شدة الفرح، فلقد أصابها اليأس والقلق كلما كانت تسمع اسم شخص فاز بجائزة، وقامت بتنفيذ تجربة الأداء التي قامت بها مسبقا عندما طلبت من لجنة التحكيم أن تُلقي كلمة فسمحت لها اللجنة بذلك، على الرغم من أن صاحب الجائزة الأولى فقط هو من له الحق في إلقاء كلمة أمام الجميع.

انقضت المسابقة وشرع الجميع في العودة إلى منازلهم، لكن البروفيسور صوفي استوقفهم، ودعا جميع طلابه إلى الغداء معه، وبعد أن تناول الجميع الطعام، تقدم صوفي وأعطى جميع الطلاب هدايا بمناسبة انتهاء الدراسة.

عندما نحب أحدا حبا حقيقيا فإننا نندمج بشخصيته، ونتوحد معه فنجد أنفسنا نتحدث بلسان المحبوب، ونتصرف كما يتصرف ونعمل مثلما يعمل، فيذوب المحبان معا في شخصية واحدة، كنا كذلك.....

كانت روحنا المشرقة تُضيء الحياة بأنوارها اللامعة فتكسوها بهجة إلى أن غربت في مكان آخر، وحل الظلام بعد أن طار بها الموت بعيدا، وبقيت بعدها وحيدا لا أنيس لي ولا جليس سوى تلك الأطياف من الذكريات التي تأتي من بعيد، فتكون حزينة أحيانا، مؤلمة أحيانا، أو مفرحة أحيانا أخرى.....

تلك الذكريات مع كل هذا كانت ينبوع النور في يومي كله وعزائي الوحيد، تلك الذكريات هي التي جعلت سنوات حياتي تبدو ك لحظات في هذا الصمت الأبدي الذي أحيا فيه، وإن كنا أنا وهي بعيدا نرى أرواحنا تتلاقى في لحظات ما، عندما أنظر إلى البحر الخالد، والجبال، والطبيعة الخلابة التي أتت بنا إلى هنا في هذا المكان.....

ربما يقول العالم أنها رحلت، لكنها هنا، هي هنا الآن في كل أفكاري، في كل كلماتي، في كل مشاعري، في كل حواسي، هي فقط، لا يوجد سواها، هي في كل مكان، لم تركني أبدا، تُمسك بيدي كل يوم فتكون رفيقتي طوال الوقت إلى أن يحين موعدي، فأموت كي ألتقي بها وتصبح حقيقة ماثلة أمام عيني.

مرت أيام طويلة على وفاتها، وقادتني قدماي إلى هنا حيث يوجد هذا القصر، فلم أكن أعرف على هذه الأرض سوى هذا المكان الذي جمعنا سويا، وعندما دخلت القصر لم أجده ذلك المكان الرائع الذي جمعنا سويا تحت سقفه، لم يعد للمحبوب وجود، بل لم يعد للحب وجود.

خلال ذلك اليوم الصامت المظلم في خريف ذلك العام عندما حلقت السحب منخفضة في السماء، وكنت أعبر بمفردي ذلك الطريق الكئيب في البلدة، الذي يؤدي إلى القصر بعد هيام أيام طويلة في الشوارع والبراري، حينها خلا الطريق ووجدت نفسي كالظلام عندما يأتي المساء على ضوء القمر أنظر إلى هذا القصر المهجور، أتذكر شعوري جيدا الآن، وكيف كان الأمر، فمع أول ظهور للقصر انتابني شعور بالكآبة بداخل روحي.

أبصرت جدرانها الكئيبة المحترقة، وكذلك جذوع الأشجار التي طالتها النيران مع اكتئاب تام لروحي، وشعرت أن أطرافي قد أثلجت، وكأني قد مت، وأنا واقف مكاني، وإحساسي بالغرق وامتعاظ القلب يتملك كل جوارحي، وعند ذلك أمكنني أن أرى أن القصر ليس مجرد قصر موحش قديم لم يتم إصلاحه بعد، بل حالة من عدم الوجود.

لما عبرت بوابته الحديدية رأيت هناك وجهها في جميع جنباتها، رأيتها على جدرانها، وعلى مقاعده، وفي مراياها، وفي البيانو الذي منعي من إنقاذها، وفي غرفة النوم، وفي جميع الأركان والزوايا.....

كانت تنظر إليّ في عتاب فأنا لم أفعل شيئا لإنقاذها، وبدأت أرى تلك الكوابيس في المنام، كان هناك حلم يتملكني دوما ولا يتركني لحظة، فبمجرد أن أغمض أجفاني أرى نفسي أركض عاريا في الليل على الطريق، أركض عبر الحقول، وعبر مجاري الأنهار، دائما أركض وعندما يصيبني التعب أقف مكاني فأجدها أمامي لا أستطيع الإفلات من برائن هذا الحلم.....

حينها أدركت على الفور أنها لن تتركني إلى الأبد فاعتدت على خوض محادثات طويلة معها بعد رحيلها، كنت أتحدث معها طوال الوقت مع أنني كنت بمفردي، همت لشهور وأنا أتحدث معها، كان الأمر أكثر سهولة عندما كانت مجرد صورة متخيلة حتى لقد تخيلت أنها تُبادلني الحديث، لقد خُضنا محادثات معا عن كل شيء كما لو كانت معي، وكنت أستطيع سماعها جيدا، واستطيع كذلك رؤيتها، وشم رائحتها، وفي أحيان كثيرة كان صوتها يُوقظني في

منتصف الليل كما لو أنها معي في الغرفة. ثم خفت تدريجيا، ولم أتمكن من تخيلها بعد ذلك، فحاولت التحدث معها بصوت عال كما كنت أفعل لكن لا شيء كان هناك، لم أتمكن من سماعها، ثم أصابني اليأس فتوقف كل شيء. هي قد اختفت بكل بساطة.

هكذا قال العجوز حينما استطرد في الحديث عن أحواله بعد وفاة زوجته فقال له عزيز مواسيا: لا عليك يا سيدي

لكن العجوز قاطعه وقال له: لا أحب سماع أحاديث المواساة.... فتلك هي الحياة يا ولدي

- هل هذا الحب كما كنت تعتقده أم أنه شيء آخر قد اكتشفته بعد هذه القصة الطويلة؟

- إذا سألتني عن الحب فأني قد ذقت منه حلاوته وعذوبته، وكذلك مرارته وقسوته، لكنه كان حبا حقيقيا لم أجد له في عصرنا مثيلا

- كيف ذلك؟!..... فالحب موجود في كل عصر؟

- الحب اليوم امتلاك. هل يمكن للإنسان أن يمتلك حبا؟

- لم أفهم مقصدهك

- الحب في هذا العصر ملكية، كانت العلاقة فيما مضى بين المحبين علاقة دافئة تقوم على العطاء والرعاية والمعرفة والأمان، كان الحب يرتفع بالنفوس إلى أقصى درجات الكمال، لكن الآن هو سجن. هو امتلاك وسيطرة.....

في عصرنا الحالي يسعى كلا من المحبين إلى امتلاك الآخر، ولم يعد هناك وجود للعطاء أو الدفء أو الأمان.....

- أهكذا ترى الحب في زمننا هذا؟

- لست أراه بل هو كذلك بالفعل

- بك الكثير من الحكمة

- علمتني إياها السنين الطويلة التي عشتها منعزلا عن البشر، ومواظبا على قراءة الكتب، لقد تخطيت السبعين يا ولدي، ويبدو أن الموت قد نسيني حتى فقدت الأمل في أن أموت، اعتقد أنني سأعيش إلى ما لا نهاية

- لكن قل لي أليس هناك أحد يسأل عنك؟

- بالفعل هناك

- مَنْ إذن؟

- كلي هذا، انظر إليه يجلس ويستمع لحديثنا، إنه أوفي من البشر

ضحك عزيز وقال له: بل أقصد من البشر

- لقد رحل الجميع، فالعاملون في السفينة قد وافتهم المنية، وبعضهم شغلته الحياة فلم يعد لديه الوقت حتى ليُفكر في شيء

- وتعيش وحيداً منذ متى؟

- منذ رحلت عني ونيسي، منذ ثلاثين عاماً

- وماذا تعلمت من تلك الحياة الطويلة؟

- البعد عن البشر أكبر غنيمة يغتنمها المرء يا ولدي

- وهل تعيش سعيداً؟

- بالفعل أنا سعيد، لكن قبل أن تسأل ذلك السؤال عليك أولاً أن تعرف معنى السعادة؟

- قل لي ما هي السعادة؟ وكيف تجدها؟ وهل هي الرضا؟ وهل السعادة شعور مؤقت، أم هي شعور دائم في الحياة؟

- ما كل تلك التساؤلات يا ولدي..... إذا كنت ستسأل فعليك بالهدوء والتأني، فكثرة التساؤلات تُثبّت التفكير. لكني سأجيب عن تساؤلاتك بعد أن تُحضر لنا قدحين من القهوة

انطلق عزيز ليُحضر أقداح القهوة فاستوقفه العجز وقال له: ولا تنسى الكلب

ضحك عزيز وذهب ثم عاد بالقهوة فأمسك العجز بكوبه وارشف منه رشفة ثم شرع في الحديث ثانية.

السعادة يا ولدي تجدها وسط الظلام الحالك وكأنها شعاع من النور، تشعر بها كنسمات رقيقة من الهواء في يوم شديد القيظ، السعادة ما هي إلا تلك اللحظات من السكينة والهدوء والسلام التي تعترينا بعد أن ننجو بأنفسنا

من الخطر. نشعر بها تملكنا بعد أن نتصر في مواجهته. إننا نحتاج دوماً إلى مثل هذه اللحظات في حياتنا المأساوية لتُنسينا معاناتنا في الحياة.....

سأله عزيز: بما أنك قد أثرت هذا الموضوع، قل لي ماذا نفعل أمام المعاناة؟

- قلت لك يا ولدي إن أكثر اللحظات التي يشعر فيها المرء بالسلام هي اللحظات التي تُهدد حياته، لكن إذا نظرت إلى هذه المسألة من زاوية أخرى ستجد أن العالم بكل مساوئه وشروحه ضرورة مُلحة. فالشر جزء من جمال متناقض في الوجود

- أنت فيلسوف يا سيدي

- إذا كنت فيلسوف فأنت رجل الدين. أليس كذلك؟

ابتسم عزيز وقال: قد كنت كذلك فيما مضى

قال له العجوز: سأقص عليك قصة قديمة أظنك تعرفها، لقد كانت هناك مناقشة حامية الوطيس بين فيلسوف ورجل دين، قال له رجل الدين إن الفيلسوف هو كرجل أعمى في غرفة مظلمة يبحث عن هرة سوداء غير موجودة، فبماذا أجابه الفيلسوف؟

قال عزيز: ربما هو كذلك لكن رجل الدين سيجدها

وضحك الاثنان ضحكة عالية هزت أرجاء المكان ثم سادت لحظات من الصمت الطويل، لم يقطعه سوى بدء عزيز بالحديث قائلاً: لم يعد هناك وجود للدين في عصرنا هذا، وأصبحت الغالبية العظمى من الناس يعتبرون المعابد والكنائس والمساجد متاحف للديانات القديمة الميتة

قال العجوز: يا ولدي عليك أن تعلم جيداً أنه لا حاجة للمعابد، ولا حاجة كذلك للفلسفة المعقدة..... عقلك وقلبك هما المعبد، ليس عليك سوى أن تفتح نوافذ العقل ليدخل إليه الهواء النقي، لتدرك حينها أن الإله لا يزال موجوداً، ولا حاجة لنا للأديان.....

يا ولدي..... الأشياء حولنا بسيطة لكن عدم معرفتنا بحجمنا الحقيقي هو ما يجعلنا نعاني، حجمنا مهم فقط بالنسبة لنا، تخيل معي مثلاً أن الشمس تمر بأحداث في حياتها الطويلة مثلما تمر أنت كإنسان، فالبشر بالنسبة لها حدث تافه لا أهمية له، في حين حياتك مهمة فقط بالنسبة لك، ومليئة بالكثير من الأحداث والقصص والحكايات والذكريات....

وإذا نظرت لحياة بعوضة مثلاً ستجدها غير ذات أهمية بالنسبة لك، لأن الفترة التي تحياها تلك البعوضة أصغر من أن تلاحظ أنت تفاصيلها، وهي بالنسبة لك مجرد طيران عشوائي بلا فائدة وبلا هدف، ولكن بالنسبة لها فحياتها مليئة بالأحداث، والصراعات، والقصص والحكايات. وربما تكون هذه البعوضة فيلسوفة ينحصر تفكيرها في كيفية تحسين حياة البعوض، وقد تكون قيادية مثلاً ولديها أعمال غيرت عالم البعوض، بينما لم تلاحظ أنت إلا أنها عفت على قطعة الحلوى خاصتك فيما كنت تعيش واحدة من ذكرياتك.....

ابتسم عزيز وراح يتفكر في كلمات العجوز فأطرق للحظات ثم عاد لسؤاله:
ألا تخاف من شيء يا سيدي، فأنا أرى دوما الهدوء والسكينة على وجهك

- لا أخشى شيئاً في الحقيقة

- ألا تخاف الموت مثلاً؟

- الموت مثله مثل الولادة والزواج، والناس تعني بالقبور كما تعني بالمدارس، ومأوي العجائز ورياض الأطفال، فالموت ظاهرة عادية جداً

- لكن لماذا يخشاه الناس؟

- لأن الناس لا تعرف عنه شيء، والإنسان دائماً يخشى من المجهول

لكن الغريب في الأمر أن الناس تفزع مع كل موت مع أنه حدث بديهي ومكرر؟

قل لي لماذا نتفاجأ دوماً، وكأن حدوث الموت شيء عظيم مع أن الكل يعرف أنه سيموت لا محالة.....

يا ولدي.....

إني سألت القبر: ما فعلتُ ** بعدي وجوه فيك منعفرة؟

فأجابني: صيرت ريحهم ** تؤذيك بعد روائح عطره

وأكلت أجساداً منعمة ** كان النعيم يهزها، نضره

لم أبق غير جماجم عريت ** بيض تلوح، وأعظم نخره

- ما أروع هذا الشعر؟ لكن ألا تتمنى الخلود؟

- نحن خالدون بالفعل

بدت على عزيز معالم الدهشة وقال له: كيف نحن خالدون ونحن جميعا
سنموت؟

- لقد تفكرت كثيرا في هذا الأمر من قبل، وقلت لنفسي ماذا سيحدث لي إذا
أفقت من نومي في الصباح واكتشفت أنني قد أصبحت خالدًا؟

- وماذا اكتشفت؟

- سأقص عليك قصة فهل تستمع إليها؟

- كلي أذان صاغية

- كانت هناك أسطورة قديمة تحكي عن بحار جمع طاقمه وأبحر بهم إلى
ظلمات البحار وأهوالها باحثا عن نهر الخلود، ذلك النهر الذي يُعطي مَنْ يتجرع
منه بعض الماء خلودا أبديا، واجهت السفينة عواصف وأهوال، وكان الموج
يأتيها من كل جانب، لكن البحار ثابر وتغلب على كل الصعاب والعقبات
والشدائد التي واجهته، ومضى في طريقه حتى يصل إلى ضالته المنشودة.

وفي ظل التحديات العظيمة التي واجهته كان قد فقد جميع أفراد طاقمه في
مواجهة تلك المخاطر، لكن في النهاية تحطمت السفينة ورسّت بقاياها على
إحدى الجزر بعد أن عصفت بها الرياح، وألقت رُبانها على الجزيرة النائية، سار
فيها طويلا وهو يشعر بالظلم الشديد، فراح يبحث عن ماء ليروي به ظمأه فلم
يجد، ورأى الموت يقترب منه بخطوات حثيثة، إنه ميت لا محالة، وإذا به حينما
استسلم للموت يلمح على البعد منه سراب يُشبه الماء، فهرول ناحيته لكنه لم
يكن سراب لقد كان نهرا جاريا، وكان مأؤه عذبا فشرب منه حتى ارتوى.

وقتها لم يُدرك أنه قد شرب من نهر الخلود الذي كان يبحث عنه، وبعد فترة
من الزمن التقى أثناء سيره بجماعة من البدائيين سكان الكهوف، لكنه اكتشف
فيما بعد أنهم ليسوا سكانا للكهوف كما كان يعتقد، وإنما هم جماعة من
البشر الخالدين الذين سبق لهم وأن شربوا من النهر نفسه الذي شرب منه.

عاش مع هؤلاء البشر الخالدين لفترة طويلة من الزمن، ودارت بينهم الكثير
من المناقشات والحوارات حول كل شيء في الوجود، وحصل أخيرا على إجابات
لكل أسئلته التي كان لا يعرف لها جوابا من قبل، وصحح أفكاره الخاطئة
المتعلقة بعجائب الوجود والحياة.

بعد أن قضى معهم فترة من الوقت وبات يحيا حياتهم شعر أن حياته لا معنى لها، وكل أفعاله كذلك لا قيمة لها، ولم يكن أمامه سوى أن يحيا مع هؤلاء القوم حياة التأمل الفكري الخالص، لكنه في النهاية سأم تلك الحياة، فاتخذ قراره مع الجميع أن يسيروا في كل اتجاه بحثا عن النهر الذي يمكن أن يُعيدهم إلى حياة الفناء مرة أخرى. وفي أثناء البحث خدش البحار بطل قصتنا يده عندما حاول أن يشرب من أحد الآبار، ولاحظ الدم يسيل من بين يده، كذلك شعر بالألم، فأدرك على الفور أنه قد عاد إنسانا قانيا مرة أخرى، وعادت الشكوك تدور في رأسه، وشعر حينها بالسعادة الغامرة.....

قال عزيز مازحا: وكيف عرفوا أن هناك نهرا يُعيدهم إلى حياة الفناء؟

رد عليه العجوز: وكيف عرفوا نهر الخلود؟

ابتسم عزيز ثم استطرد العجوز يقول: لكل شيء في هذه الحياة نقيضه يا ولدي..... فالنهار يصاحبه الليل، وكما يوجد النور توجد الظلمة....

قال عزيز: لكنك قلت أننا خالدون فعليا

- نعم.... فلو أنك نظرت إلى عجوز يرقد على فراش الموت يحتضر ستجد أبناء وأحفاده قد التفوا حوله، إنه يموت.... لكن الحياة حوله في كل مكان، فالحياة لا تتوقف.... إنها مستمرة نضرة يانعة، وكأنما تستمد من هذه الأجساد التي تتوارى في أعماق الثرى حيويتها، وتحصل الأرض على خصوبتها من تلك الأجساد المتحللة، لتُغذي بها شجرة الحياة لكي تزدهر، فنحن نموت لكي يحيا آخرون، والآخرون يموتون، لكي يحيا ما بعدهم، وهكذا.....

لكن لو فرضنا أننا مخلصون في هذه الدنيا بالمعنى الحرفي لها، وأن الجيل الأول ما زال يعيش بيننا، وكذلك الأجيال اللاحقة فأين هي الأرض التي تسع كل هذه الأعداد التي تبدو بلا نهاية من البشر؟

من أين يأكلون؟ ومن أين لهم بموارد تسمح ببقائهم؟ وكيف تزدهر الحياة؟

أعتقد أن البشر وقتها سوف يخترعون مدمرا يقوم مقام الموت كي يفني البشر، إننا نُخلد الحياة بفنائنا وهي تفنينا بخلودها، ففي قلب الموت تتجدد الحياة نفسها

- معك كل الحق يا سيدي الحكيم لي سؤال أخير

- تفضل يا كثير الأسئلة

- ألن تعزف مرة أخرى؟

- هل تعرف كم موضوعا تحدثنا فيه؟

- أعلم جيدا.... تحدثنا عن كثير لكني أستمحيك عذرا، فأنا لم أقابل من قبل شخصا في مثل حكمتك

- قلت لك لن أعزف ثانية

- من حديثك عن الموسيقى التي كنت تعزفها من قبل اشتقت إلى سماعها

- ألم تسمعها في القصر؟

بدت علامات الدهشة والارتياح تظهر على وجه عزيز حينما سمع سؤاله هذا، وحاول أن يستجمع شتات عقله وقال: إذن أنت الذي كنت تعزف في القصر؟

ضحك العجوز ساخرا وقال له: بل الأشباح

- عدنا للمزاح مرة أخرى.... قل لي أرجوك، ماذا تعرف عن هذه الموسيقى التي أسمعها دوما في قصرك؟

- سأقول لك ثانية... إن كل ما رأيته، وحدث لك في القصر ليس إلا أوهام وتخييلات أوهمت نفسك بها من كثرة تفكيرك فيها فقد أتيت إلى هنا ورأسك مليئة بالقصص عن الأشباح، وما يحدث من غرائب في هذا القصر المهجور حتى خزنه عقلك الباطن، وأخرجه في أحلامك المفزعة، فالحامل الذي وقع على رأسك في اليوم الأول كان نتيجة انفلات الحبال التي أكلتها الشمس منذ زمن طويل، وما تخبطك في الطرقات إلا نتيجة الظلام الدامس فلم يكن هناك أضواء، وعدم فتح غرفة السرداب، والغرفة العلوية كان ذلك لأن هاتين الغرفتين لم أكن أنا استخدمهما كثيرا أثناء معيشتي في القصر، فتحجرت الأبواب لعدم فتحها لمدة طويلة، ولو أنك ضغطت بشدة على الأبواب لانفتحت معك بكل سهولة، لكن رأسك المحشو بالرعب قد حال بينك وبين فتحها، كل شيء كان طبيعيا جدا.

- تعني بأنني لو حاولت فتح الغرفة ستنتفح؟

- بكل تأكيد

- سأؤكد بنفسى عندما أذهب إلى هناك. لكن الموسيقى؟ لا تقول لى أنها
أوهام

- هذا هو الشيء الحقيقى فى الموضوع كله

- إذن كنت تعزف هناك

- على العكس فأنا لم أعزف منذ رحيل زوجتى كما أخبرتك من قبل

- أنت تريد أن تُصيبني بالجنون، إذا لم تكن أنت فمن إذن؟ ومن أين يأتى
صوت الموسيقى؟

قال العجوز مازحا: من القصر

- يا إلهى لقد اقتربت من الجنون فعلا

- انتظر فقط وسأخبرك

- أنا أسمعك باهتمام

- خلال عملى فى السفينة تقابلت مع الكثير من النجارين الذين يقومون
بصناعة السفن والمراكب، وعرفت الكثير عن الأخشاب وأنواعها واستخداماتها
حتى امتلكت خبرة كبيرة بالأخشاب

قاطعته عزيز: وما علاقة الأخشاب بالموسيقى يا رجل؟

- ألن تستطيع معى صبرا حتى أخبرك

- لا لا أرجوك سأصمت إلى الأبد

- كنت استمع فى السفينة لأصوات الموسيقى تنبعث من خلال الحجرات،
وكانت الحجرات خالية تماما، مما أصابني بالرعب مثلما أصابك حتى أخبرني
أحد عمال صناعة الأخشاب بتلك الحقيقة، ولما قرأت عنها فى الكتب العلمية
وجدتها بالفعل كذلك، وعرفت أن الموسيقى التى كنت أسمعها كانت تخرج من
الأخشاب

قال عزيز متعجبا: الأخشاب؟!

- بالطبع

- وكيف ذلك؟

- الخشب من أكثر المواد التي تتأثر بالصوت، وبإمكان أنواع معينة من الأخشاب أن تحتفظ بالصوت واختزانه وإعادته مرة أخرى عندما يتجاوب مع ذبذبات صوتية مماثلة من رياح وأمطار وغيرها، وما يُقال عن الأصوات التي تخرج من بيوت الأشباح في البلاد القديمة يعود إلى أن الأخشاب المكونة لهذه البيوت تُعيد أصواتا احتفظت بها منذ مئات السنين حينما كانت تُعزف الموسيقى في هذه القصور أو المعابد العتيقة

- أهذا الكلام صحيح؟

- لا أخبرك إلا بالحقيقة.... ألا تصدقني؟!

- أحاول أن أصدقك لكن هذه المعلومة لم أكن أعرفها من قبل

- لكنها حقيقة، فأنا مثلك كنت أجد صعوبة في استيعابها في بداية معرفتي

بها

وبدأ العجوز يتثائب فقال له عزيز: لقد أطلنا في حديثنا اليوم فلنخلد إلى النوم الآن ونستكمل حديثنا غدا.

وصل عزيز إلى القصر وهو يحمل مصباحه، فتح البوابة الحديدية ثم اندلف إلى الداخل مسرعا متوجها إلى غرفة السرداب، وما أن وصل إليها حتى توقف أمامها مليا يتفكر، وبعد لحظات وضع المفتاح في ثقب الباب ثم ضغط عليه بشدة كما نصحه العجوز، فانفتح الباب.

أدرك حينها صدق حديث العجوز له بشأن الأبواب، لكن ما دعاه إلى العجب حقا هو أن ما رآه في حلمه بشأن مكونات غرفة السرداب كان كما كان في الحلم بالضبط، فوجد هناك الصندوق الكبير يقطن في مكانه بالغرفة فاشتد به القلق، وانتابته رغبة قوية في الوقت نفسه بفتح الصندوق.

دخل إلى الغرفة وعندما تخطى عتبة باب السرداب أغلق الباب وراءه فاضطرب اضطرابا شديدا، وقف مكانه لا يُحرك ساكنا، وانتظر قليلا والخوف يتملكه، نظر حوله والمصباح المضيء مازال في يده، شعر حينها أن كابوسه المزعج على وشك أن يتحقق على أرض الواقع، لكنه ظل ساكنا للحظات ليست بالقصيرة فلم تكن ستواتيه الجرأة والشجاعة لفتح ذلك الصندوق المريب حتى لا يخرج منه المارد العظيم الذي قطع رأسه من قبل.

عاد إلى الباب مسرعا فوقع من يده المصباح فعم الظلام الحالك أرجاء السرداب، وأمسى لا يرى شيئا واختفت معالم المكان أمام عينيه. تسلسل الخوف إلى جسده، وبات يجري مجرى الدم في عروقه. وهو ينتظر كابوسه المخيف كي يتحقق، كان يرى نفسه وهو بدون الرأس، فالمارد الذي سيخرج من الدخان المبين سوف يقطعه بكل تأكيد، وهو لا حول له ولا قوة، قدماه لا تقوى على المسير بل لم تعد تستطيع حمله، فلقد تجمدت أوصاله وتثبتت قدماه في مكانها.

شرع آدم وزملاؤه في التحضير لحفل تخرجهم. كان عليهم شراء حلات جديدة تليق بجلال المناسبة، وإرسال دعوات الحفل إلى ذويهم وأقاربهم بعد أن انتهت إدارة الكلية من طباعتها وتوزيعها على الطلاب.

طلب آدم من خاله جلال الحضور معه لحفله الكبير في الكلية، كما قام بمهاتفة والدته ليُعلمها بالموعد. ذلك الموعد الذي طالما انتظرت به بفارغ الصبر، وهي تحلم بذلك اليوم الذي يحصل فيه آدم على شهادته الجامعية، ولما سمعت الخبر ابتهجت وفرحت بملء قلبها، وباركت لولدها على الوصول إلى نهاية الطريق.

قدم جلال الديب إلى آدم الكثير من الأموال كي يشتري بها ما يحتاج إليه، ولكي يستمتع بما تبقى له من أيام سيتذكرها دوما طوال حياته.

كان عليه الآن أن ينتهز هذه الفرصة التي لن يتحصل عليها فيما بعد التخرج، فليسوف يخطو بقدميه نحو دوامة الحياة العملية، وتوابعها الكثيرة التي لا تُعد ولا تحصى، وحينها ينسى المرء نفسه في خضم تلك الحياة المليئة بالعمل والمشكلات، وسوف يُفكر بعدها في الزواج لِيُنشأ أسرة، ويُصبح له من الأبناء البنين والبنات، ولن يعد يفكر في متعته الخاصة، بل سينصب تفكيره تجاه حياته الأسرية وبيته وزوجته وأولاده وعمله، سيحمل حينها جبلا من الهموم فوق رأسه، ولن يكون هنالك وقت فراغ لنفسه ليستمتع بأي شيء، هكذا أخبره خاله جلال عندما أعطاه الأموال، وأعلمه أن عليه اقتناص الفرصة جيدا، والاستمتاع بكل ما أُوتي من قوة، تجهز آدم جيدا لليوم الموعود، وكما أرسل الدعوة إلى والدته كذلك فعل مع صديقه ميلاد.

حضرت الأم للعاصمة وتبادلت التهنئة مع آدم ومع أخيها جلال وزوجته، حضرت في نفس يوم الحفل صباحا، لقد مرت الأيام سريعا، ولم يشعر آدم

بمرورها، وانقضت أعوام الدراسة كلمح البصر، وأتى موعد الحفل الذي أقامته الكلية في قاعة المؤتمرات الكبرى التي شهدت من قبل ندوة الفيلسوف الكبير راجح.

كان الجميع يجلس وأعينهم تُتابع فقرات الحفل، في انتظار تلك اللحظة الحاسمة التي تنطق فيها أفواه الأساتذة أسماء الطلاب الذين سيتسلمون شهادتهم، كانت البروفيسور منيرفا هي مشرفة الحفل فحيت جميع الحضور بابتسامتها المشرقة، وشرعت في مناداة أسماء الطلاب فيتقدموا واحدا تلو الآخر لتسلم الشهادة.

حينما سمعت الأم اسم ولدها آدم يُنادى عليه ليتقدم، ويحصل على شهادته أجهشت في البكاء، وسالت الدموع من عينيها بغزارة في سعادة وفرح لم تعهدها من قبل، فقد شعرت الآن أنها قد أكملت مهمتها كأُم على أكمل وجه، وما أظريها فرحا أنها أخيرا قد حققت أمنية زوجها في ولدها الحبيب.

نزل آدم من على درجات المنصة بعد أن تسلم شهادته، وركض نحو أمه في شوق واحتضانها، ثم جلس بجانبها، وبعد تسلم جميع الطلاب الشهادات، بدأ الحفل الساهر بالغناء والرقص، كانت البهجة تملو وجوه الجميع من طلاب، وأساتذة، وضيوف.

قبل نهاية الحفل عادت منيرفا لإلقاء كلمة أخيرة فقالت: عالم الفن هو المكان الذي تقابلت فيه مع أنبل البشر، وأطهر القلوب، وألح العقول، وكذلك تقابلت مع الرجعيين والهمجيين والجهلاء، لكنني شعرت بالسعادة للقائهم جميعا.....

أود أن أتقدم الآن بالشكر إلى هيئة التدريس العظيمة في هذه الكلية، وأتقدم كذلك بالشثناء على الطلاب الذين تعلمت منهم أكثر مما علمتهم، وقبل أن اختتم حديثي أحب أن أهدي ثمرة عملنا هذه إلى فقيدينا الراحل البروفيسور روفائيل الذي كان مثالا للفنان العظيم، وأطلب من الجميع أن نقف دقيقة حدادا على روحه الطاهرة.

ووقف الجميع وسادت لحظات من الصمت، إلى أن انتهى الحفل الرائع.

عاد آدم مع والدته إلى قصر خاله جلال، ولدى وصولهما إلى هناك وجدوا الكثير من الأضياء التي زينت باب القصر، تفاجأ آدم وأمه بالاحتفالية الكبيرة التي أقامها خاله احتفالا بحصوله على شهادته وتخرجه، سار آدم بخطى حثيثة

إلى الداخل فإذا بالأقارب والأحباب في انتظاره في شوق وفرح. وقد انطلقت الموسيقى المبهجة، والأصوات الرخيمة قد شرعت في الغناء، لكن آدم حينما رأى هذا الحشد انتابته رعشة سرت في جسده.

شرد بذهنه وتذكر ذلك المشهد الذي جمعهم من قبل بعد أن مرت سنوات خمس، فذات المشهد يتكرر مرة أخرى أمام ناظره. ففي المرة السابقة كان الحشد ينتظر عودة المشيعين الحاملين لجثمان والده وقد اعتراهم الحزن والغم، أما الآن فشتان الفارق بين هذا الاستقبال وذاك، فهذا مشهد يمتلئ بعلامات الفرح والسعادة والابتسامات التي علت الوجوه، وذاك مشهد آخر قد تُوج فيه الحزن ملك على الوجوه الحاضرة.

هنا خطرت له خاطرة جعلته يشرد بذهنه بعيدا، تعجب من أمر هذه الحياة التي تتغير باستمرار، تغير في المشاعر، وفي الأحاسيس، وفي الوجوه والأشخاص فقال بصوت واضح سمعته أمه الواقفة بجانبه ما أشد جنونك أيّتها الحياة؟

نظرت الأم إليه متعجبة وقالت له: ماذا تقول يا آدم؟

أجابها: لا شيء

تقدم آدم بعد أن أفاق من شروده بسؤال والدته، وقد تشابكت يده بيدها، واندلفوا إلى حديقة القصر كأجمل عروسين رأتهما عين من قبل، استقبلهم الحاضرون بالأحضان والقبلات فرحين مهللين مهنئين، لاحظ آدم تواجد الفنان الكبير بيكاسو صديق خاله بين الحضور.

هرول ناحيته ليُحييه ويشكره على حضوره، كما اعتذر له لعدم تلبية طلبه بالحضور إلى مرسومه متعللا بانشغاله الشديد بدراسته، دعاه بيكاسو إلى زيارة أخرى فنزل آدم على رغبته ووعدته بأنه سيحضر إليه هذه المرة.

انتهى الحفل الثاني بسلام وعاد الجميع إلى منازلهم سعداء، عادوا مع دعواتهم له بالنجاح والتوفيق في حياته، تقدم الخال إلى الأم ليطلب منها قضاء بضعة أيام معهم للراحة والاستجمام، لكن الأم قد رفضت هذا العرض من أخيها وأخبرته أنها لم تستطع أن تحصل إلا على يوم واحد إجازة من عملها لذا فعلمها العودة اليوم فهي بكل حال من الأحوال لا تستطيع أن تمكث هنا أكثر من ذلك.

حاول الخال أن يُثنيها عن الرحيل لكن الأم لم ترضخ لرغبته وطلبت منه أن يستمحيها عذرا، ومع إصرار الأم على المغادرة أعلن جلال استسلامه بشرط أن يقوم السائق الخاص به بتوصيلها لمحطة القطار. وحينما أرادت الأم أن يرحل ابنها معها اعتذرت لها هو الآخر لأنه سوف يتقابل مع بعض زملائه.

اتخذت مكانها في السيارة حتى تذهب إلى محطة القطار، وعاد آدم إلى غرفته، وهو يتفكر فيما سوف يفعله بعد التخرج في الجامعة. كان عقله منشغلا بالكثير من الأمور المعقدة عن حياته بعد الدراسة. كانت الأفكار تدور في رأسه في دوامة وهو يغير ملابسه أمام مرآته. وفي ظل أفكاره هذه، نظر إلى المرأة فرأى الحارس من وراء ظهره وهو يبتسم له ابتسامة لطيفة.

فزع آدم وانتفض من مكانه في رهبة من المفاجأة، فهو لم يكن قد رآه منذ زمن مضى، تمالك أنفاسه ونظر وراءه في حركة لا إرادية منه فلم يجده، ولما عاود النظر إلى المرأة رآه مرة أخرى ماثلا أمامه قال له الحارس: أراك قد نسيت حديثي؟

- لا لا معذرة لكن ما الذي أتى بك ثانية بعد هذه الفترة الطويلة. لقد اعتقدت أنني لم أكن أرى سوى أوهاما

- أتيت لأخبرك

- تخبرني بماذا؟

- إنه قد حان وقت الوصول إلى الحقيقة، وأنا الذي سوف أريك الدرب

- أي درب، وأي حقيقة تقصدها؟

- حقيقة بحثك عن الهدف عن الوجود عن الموت والحياة، الكنز يا رجل أنسيته؟

- لا لم أنس، أخبرني إذن، ولك كل الفضل والشكر

- أهكذا بكل بساطة، مازال هناك المزيد من التعب والبحث

- لقد بحثت كثيرا حتى أصابني الكلل، ولم أعد أطوق إلى مزيد من البحث

- هذا البحر هائج يحتاج إلى سباح ماهر في ركوب الأمواج

- أي بحر؟ أنا لم أعد أفهمك

- بحر المعرفة فهل أنت مستعد أيها الفتى؟

- أنا على استعداد تام أيها الحارس

اختفى الشيخ في لمح البصر، ولم يستطع آدم أن يراه ثانية فجلس على حافة فراشه يتفكر وقال محدثاً نفسه: أكلما كان اليوم مُرهقاً فوق العادة تظهر لي تلك الخيالات والأوهام، لقد سئمت من هذه الخرافات

ثم صمت قليلاً وقال: لكنه كان يتحدث معي أيعقل أن يكون وهما أو خيالاً، أنا لست بمجنون أو مغبول حتى أرى مثل هذه الأوهام

وأطرق للحظة ثم قال: لكن هل المجنون يُدرك أنه مجنون، ماذا لو أن هذا حقيقة، وأصبحت على شفا الجنون بالفعل

وفي خضم تساؤلاته وتلاطم أفكاره غلبه النعاس فنام مكانه.

استجمع عزيز شجاعته وانطلق إلى باب الغرفة ليفتحه، وعندما ضغط عليه بشدة انفتح الباب فاطمأنت نفسه لذلك، وحاول حينها أن يطرد الأوهام التي سيطرت على عقله، قرر بشجاعة أن يذهب ليحضر مصباحاً آخر، ويعود به إلى السرداب ليتفقد الصندوق، فما سيحدث له سوف يحدث على كل حال، هكذا كان يؤمن دائماً، وأتى بالمصباح عائداً إلى الغرفة، تفحص الغرفة جيداً قبل أن يذهب ناحية الصندوق.

أمام الصندوق وقف صامتا لبضع لحظات ليطرد البقية الباقية من الأوهام في رأسه، ثم جثا على ركبتيه وترك المصباح جانبه، نظر إلى الصندوق فلم يجد عليه أية أقفال مثل التي رآها في منامه، فتح الصندوق ببطء شديد وأغمض عينيه، وركض بعيداً ناحية الباب وبعد أن فتح عيناه لينظر مرة أخرى إلى الصندوق، لم يجد أي دخان ينطلق منه فاطمأن لذلك، وبدء يسير بخطى متمهلة ناحيته.

نظر بداخله فلم يجد سوى بعض الرسائل القديمة، والصور التي كانت تجمع العجوز مع زوجته وطفله الراحلين، ظل لفترة يعيث بالرسائل والصور ثم أغلقه كما كان، عاد إلى غرفته لينال قسطاً من الراحة بعد أن تأكد من حديث العجوز، وأدرك أن العجوز لم يكذبه القول أبداً، وضع رأسه على الوسادة لينام فإذا به يسمع أصوات الموسيقى ترنو مرة أخرى في أذنيه فتذكر حديث

العجوز معه بشأن تلك الأصوات، فخلد إلى نوم هادئ على أنغام الموسيقى الرائعة التي تنبعث من أخشاب القصر.

في مساء اليوم التالي وبعد الانتهاء من عزفه في دار الأوبرا توجه إلى صديقه الجديد ذلك العجوز الذي لا يمل من الحديث معه، فلحديثه سحر يؤثر عليه، ويجذبه بقصصه القديمة الرائعة، وحكاياته التي لا تنتهي، تلك الحكايات التي يُجيد العجوز قصصها ببراعة فيكسبها رونقا رائعا حين يسردها له، فهو يمتلك من الحكمة الكثير مما جعل عزيز ينهل من علمه الواسع بشغف، كما أن له قدرة رهيبة على الإقناع فيعرف جيدا كيف يقدم النصيحة؟، ويعرف كيف يجعله يضحك أو يبكي إذا رغب بذلك؟!.

قام بطرق باب الكوخ عدة طرقات حتى فتح له الرجل فبادره عزيز قائلا:
الآن نتسامر اليوم؟ في الحقيقة لقد أدمنت حديثك يا رجل

ضحك العجوز وقال له: فلتذهب لتُحضر الأخشاب والقهوة، وتُشعل النيران، وسأوافيك حالا

قام عزيز مهرولا ليقوم بفعل ما طلبه منه العجوز وأعد العدة، وجهز الجلسة، وأشعل أعواد الحطب بالنيران، ورتب أيضا مكانا بجانب النار للعجوز وآخر له.

نظر ناحية الكوخ فإذا بالعجوز يسير نحوه بخطاه الوثيدة ومن ورائه كلبه الوفي، توقف العجوز أمام عزيز وقال له والابتسامة تعلو وجهه: أسمع لصديقي بحضور جلستنا؟

نظر عزيز إلى الكلب مبتسما وقال مشيرا إليه: تفضل يا سيدي بكل سرور

جلس ثلاثتهم حول النار يحتسون القهوة، ويتأملون في المكان الشاسع حولهم، وينظرون إلى السماء التي تملأها النجوم تارة وإلى النار المشتعلة أمامهم تارة أخرى، إلى أن بدأ عزيز الحديث قائلا: لقد تحدثنا عن أمور شتى الليلة الماضية، لقد كانت ليلة رائعة بحق

- أنا كذلك قد استمتعت بالحديث معك على كثرة كلامي، فهل لك أن تعذرني، لقد أصبحت ثرثارا

- ولما الأعذار.... فأنا أحببت حديثك، وعلى كثرتي أردت ألا ينتهي أبدا

- حديثي طويل وكلامي كثير يا ولدي، إني لم أتحدث لأحد منذ سنين طوال حتى يئست وأصبحت في بعض الأحيان أتحدث مع نفسي ومع كلي

- وما الذي دعاك لذلك؟

- الحديث مع النفس أفضل كثيرا من الحديث مع البشر، لكن الطبيعة البشرية دوما ما تغلب

- قلت لي أنك تؤمن بالإله... فأني دين تعتقد أنت فيه؟

- معرفة الإله يا ولدي لا تحتاج إلى دين، وكما ترى في عصرنا هذا الذي نعيش فيه لا مجال للدين

- وكيف وصلنا إلى هذا الحال؟

- لتعرف كيف وصلنا إلى هذا الحال فعليك أن تعرف القصة من البداية

- أية قصة تقصد؟

- قصة مجتمعنا هذا وكيف نشأ؟

- وهل ستقصها عليّ؟

- هذه حكاية ظهور مدينة إلى وضع النهار، ففي أحد الأيام حينما كانت المروج الخضراء تحف المكان، والشمس العظيمة تُلقي بأشعتها الذهبية الرائعة على الأرض الجبلية، كان سكان هذه المروج ينعمون بالسعادة والرخاء، يحيون حياة بدائية بسيطة لا يشوبها شائبة حتى أتى ذلك اليوم الحزين الذي أرتكبت فيه أول جريمة على هذه الأرض الطاهرة. لقد تم قتل سكان تلك البقعة المهجورة من الأرض.

امتزجت دماؤهم برمال الأرض بعد أن قتلهم جماعة من الهمج قساة القلوب الذين لا رحمة لديهم ولا دين ولم يردعهم شيء، وبعد أن تخلصوا من الجميع بدأ النشاط الصاخب في الاندلاع، فظهر الفحم والرماد والورق والقصدير في البلاد العذراء البكر.

في اليوم الأول بُني منزل من الأخشاب، وفي الثاني ارتفع آخر من الحديد، وفي الثالث كانت الأرض ممتلئة عن آخرها بالبيوت والمصانع وتغيرت معالم المكان تماما.

في العام الأول أُنِعت الحقول الخضراء، وتم إنشاء مزارع وأسطبلات ثم شُقت الطرق في البراري وأُقيمت أول سكة حديدية. وتبعتها الأبنية الحكومية والمصارف، ولم تكد تمر بضعة سنوات أخرى حتى ترعرعت مدن كثيرة بالجوار، وجاء العمال والمزارعون وسكان المدن من جميع أنحاء العالم إلى هذه البقعة الزرراء، ثم ظهر الأطباء والمهندسون ورجال الأعمال والمحامون والواعظون والمدرسون، وتم تأسيس مدارس ومستشفيات وظهرت الجماعات الدينية والصحف، ثم اكتشفوا البترول وأصبحت المدينة فتية وغنية.

بعد عدة أعوام أخرى انتشر اللصوص والقوادون والبغايا، لم ينقصها أي شيء، فكل شيء موجود هناك حتى صالات السينما ومؤسسات الروحانيين، حينها كان في استطاعة المرء أن يشتري كل شيء وأي شيء.

جاءتها الثقافة تدريجيا، وتطورت المدينة إلى وطن له عادات وتقاليد، وحظى الرجال الأوائل الذين أسسوها بالاحترام والشهرة، أمسوا سياسيين محنكين.

بدأت المدينة قديمة برغم حداثها ولاحت وكأنها قد وُجدت منذ الأبد، أما الوقت الذي أُرْتُكبت فيه الجريمة الأولى كان يرقد بعيدا في الماضي، لقد تحول إلى تاريخ لم يتذكره أحد.

بعد مائة عام من تأسيس المدينة أطاح بها زلزال ودمرها، فنهضت مرة أخرى، لكن هذه المرة كانت مختلفة فكل ما كان صغيرا أصبح كبيرا، وكل ما كان ضيقا أصبح واسعا، بعد نهوضها كان بها محطة القطار الأكبر في العالم، وسوق البورصة الأكبر في العالم، وأعلى الأبنية في العالم.

تم كذلك بناء متحف ضخّم له زواره ومعجبهوه تتعرف فيه على تاريخ المدينة منذ أصولها الأولى حتى تطورها الأخير.

تعلم إناس هذه المدينة جميع القوانين العظيمة للتطور والتقدم، وتطوروا تطورا ماديا عظيما لكن للأسف صاحب هذا التطور المادي الرهيب اضمحل أخلاقي عظيم يتوازي مع ما وصلوا إليه من مادية.

مع مرور الوقت لم يبق هناك مواطنون يعيشون في المنازل، وإنما مجموعة من المشردين، وبشر أفضاظ قساة القلوب، غابت الأخلاق، وغاب الدين، غاب كل ما يجعل للحياة معنى، أصبح الجميع يعيش وكأنه مجرد شيء من الأشياء،

لقد فقد البشر بشريتهم، وفقد الإنسان إنسانيته، ومات هؤلاء السكان
الأخرون تدريجيا من المرض والجنون.....

أعرفت هذه المدينة؟

ضحك عزيز وقال له: إنها مدينتنا بكل تأكيد ! لكن ماذا ينتظرنا؟

قال العجوز: سُيرسل الإله غضبه الشديد عليها قريبا

- أو تعتقد ذلك؟

- بالتأكيد فالإنسان اليوم جاحد بنعم الإله، ويظن أنه الإله ولن يقدر عليه
أحد

- وكيف يظن الإنسان نفسه إلهًا؟

- تقول الأسطورة القديمة إنه في قديم الزمان كان هناك رهط من البشر
يتجولون هائمين على وجوههم في الأرض الواسعة، فقادتهم أقدامهم إلى مكان
بعيد عن أعين جميع البشر، تحفه الجبال من كل جانب، قرروا أن يصعدوا إلى
أعلى جبل وما أن فعلوا حتى لاحظوا شجرة غريبة الشكل تنمو على سطحه،
فاقتربوا منها وأكلوا من ثمارها فتحولوا في التو واللحظة إلى آلهة، عندها قرروا
منع الناس من تناول ثمارها، لكن كان عليهم إخفاؤها عن أعين الناس.

دار بينهم مناقشة حامية الوطيس وجدال بشأن مكان إخفائها فقال أحدهم
فلنخبئها على قمم الجبال الباردة فالناس لن يصلوا إليها أبدا، وقال الثاني بل
نُخفيها في قاع المحيط، فالناس لن يُدركوها أبدا، فقال أحكمهم إن الناس وإن
طال الزمان بهم فسيقدرّون على الغوص إلى قيعان المحيطات، والتسلق إلى
أعالي الجبال وسيجدونها.

لذا علينا أن نخبئها في مكان لن يبحثوا فيه، سنُخبئها في داخلهم ومنذ ذلك
الحين والإنسان يتسلق الجبال العالية، ويغوص في المحيطات العميقة باحثا
عن شيء بداخله

- ما أجمل قصصك أيها العجوز! هل لي أن أطلب منك طلبا؟

- بكل سرور

- أريد أن أسمع عزفك ولو لمرة واحدة

- سأسمعك عزفي

- أصدقا تقول؟

- بالفعل فأنا لا أشعر بخير، وأحس بأني سأعزف للمرة الأخيرة في حياتي، وسوف أدخل القصر كذلك فشعوري شديد بأن شيئا ما سيحدث، ولن أرى قصري هذا مرة ثانية، هيا بنا الآن قبل أن أرجع في رأيي.

نهض الاثنان ومعهما كليهما مهرولان إلى القصر، جلس العجوز على البيانو وما أن وضع أصابعه عليه حتى انطلقت منه أعذب الألحان السماوية التي لم تسمعها أذان البشر من قبل.

كانت الألحان قد أخذت بمجامع قلب عزيز فبدأ يرقص على أصواتها تما وفرحا في حين كانت أنامل العجوز الرقيقة تلمس مفاتيح البيانو فتفتح له نافذة من الذكريات الأليمة، واللحظات الممتعة، ويغوص في عالم ينسجه خياله الخصب ويرتفع فيه للحظات تبدو كالأبد، وما أن انتهى حتى استأذن من عزيز بالانصراف لشعوره بالتعب والإرهاق فبادره عزيز بالسؤال: أنت بخير؟

قال له العجوز وهو يُلقي نظرة على القصر في لوعة وأسى وكأن شيخ ذكرياته مائل أمامه الآن: أنا بخير حال.

في تلك الليلة كان القمر ينشر خيوطه الفضية إلى الأرض ليكسوها جمالا ساحرا خلابا، الصمت في كل مكان والليل الساكن يلف المدينة في حين كانت نسائم الرياح اللطيفة تداعب أوراق الأشجار، وفي الأبنية على طول الطريق في المدينة وحول النهر الجاري كان الجميع يخلد في سبات عميق ليُنسجوا أحلاما وردية، ولكن بعد لحظات قليلة تحولت الأحلام الوردية إلى كابوس مرعب.

أفاق سكان المدينة مذعورين على صرير الأخشاب في البيوت، وقرقعة الأواني والأدوات التي تتساقط، وزجاج المرايا الذي تتناثر على الأرض، ارتجفت أجسادهم وتسارعت دقات قلوبهم في فزع، وبدأوا يتساءلون عما يحدث.

كان زلزال عظيم قد أطاح بالمدينة الهادئة، هروا الناس إلى الشوارع هاربين بلا وعي، تاركين كل شيء وراءهم، كانت الشوارع كخلية نحل، انتشرت الفوضى في المدينة في حين كانت أجراس الكنيسة تدق بلا توقف، وصوت المؤذن في المسجد يصرخ عاليا، لكن كثيرا من الناس لم يسمع بكل هذا لأنهم قد ناموا إلى الأبد تحت ركام البيوت.

صرخات الناس تدوي في المكان. والدموع تنهمر من أعينهم، وكل منهم يركض هنا وهناك محاولا إنقاذ ما يمكن إنقاذه. حتى أصحابهم التعب فسقطوا على الأرض بلا حول ولا قوة. لكن مع اقتراب الفجر دوى صوت هزة أخرى أشد قسوة من سابقتها، انتشرت على إثرها الحرائق في الشوارع والبيوت التي لم تسقط. ومن لم يمت لسقوط منزله عليه مات صريعا بالكهرباء الكامنة في أعمدة الإنارة.

انتشرت الحرائق في كل مكان وسعى رجال الإطفاء على قدم وساق في محاولة لإخماد الحرائق. ولكن سرعان ما وصلت الحرائق إلى مراكز الضخ فدمرتها هي الأخرى، حينها أسرع الرجال إلى النهر لإحضار المياه، ولكن الحرائق لم تمنح لأحد فرصة فاستعرت بشدة أكثر حتى امتدت ألسنة اللهب من مكان إلى آخر، وانقلبت المدينة إلى جحيم مستعرة.

وقف رجال الإطفاء والدفاع المدني والناس بلا حول يشاهدون النيران وهي تنتشر بسرعة في جميع الاتجاهات، ظلت النيران متأججة حتى مساء اليوم التالي إلى أن جاءت المساعدات من المدن المجاورة، وبعد ساعات طويلة استطاعت تلك المساعدات أن تُخمد النيران، وحملت سيارات الإسعاف المصابين والموتى وهي تغدو وتروح بلا توقف.

تحطمت المدينة تماما واحترقت، وتغيرت معالمها عما كانت عليه قبل الزلزال، فأجزاء كبيرة من المدينة وبعض شوارعها قد انجرف بعيدا ناحية الشاطئ النهري، وتحولت المروج الخضراء إلى رماد تذرره الرياح.

دُكت المدينة بأكملها حتى الكنيسة والمسجد والمعبد قد رُمسوا بالتراب، وطُمست معالمهم، وكذلك حدث مع المدرسة وباقي أبنية المدينة وقُتل قرابة الخمسمائة إنسان، تقريبا معظم سكان المدينة.

كان الناس في المدن الأخرى يتابعون باهتمام عبر شاشات التلفاز من خلال الكاميرات التي تبث من هذه المدينة، حينها علم آدم بما حدث لمدينته فأسرع إلى هاتفه ليتحدث مع والدته ويطمئن عليها، لكن لا مجيب فقرر العودة مسرعا إلى دياره. استقل السيارة مع خاله، وانطلقت بهما السيارة تشق الطرقات بأقصى ما بها من سرعة حتى وصلت عند أبواب المدينة، استوقفها بعض رجال الشرطة والجيش، ومنعوا الجميع من التقدم إلى الأمام في الوقت الراهن، لكنهم

بعد أن علموا أن رجل السياسة المخضرم جلال الديب يستقل السيارة أفسحوا لها المجال.

توقفت السيارة بعيدا عن الحطام، وترجل الجميع من السيارة ناظرين إلى المدينة بعد أن تهدمت وأصبحت أطلالا، مدينة لم يعد لها وجود، أين المنازل والأبنية؟ وأين الصخرة التي كان يجلس عليها آدم وأصدقائه أمام النهر؟ بل أين النهر ذاته؟.

لم يعد هناك وجود لأي شيء، كان رجال الشرطة يقومون بانتشال جثث الضحايا من تحت الأنقاض، وعندما سألهم جلال عن الناجين أخبروه بأنه لم ينج من هذه الجحيم سوى اثنان فقط من سكان المدينة، وأن الجميع قد لقوا حتفهم.

أصيب آدم بصدمة شديدة، ركض يفتش عن والدته بين الجثث التي تراصت في صفوف بجانب بعضها البعض لعله يجدها، وبعد البحث الطويل وقعت عيناه على وجه أمه فسقط مغشيا عليه.

وقف آدم مذهولا من هول المشهد أمامه، وتلك المدينة الرائعة التي تحولت في لحظة من اللحظات النائية في الزمان إلى أشلاء، ملأت الدموع الغزيرة عينيه فلم يشعر بهذا الإحساس من قبل سوى عندما مات والده، وهو اليوم يودع شخصا آخر أحبه حد العشق ولن يستطيع تعويضه، تجمعت الدموع في عينيه بصورة أغزر.

كان يقف على أطلال مدينته الزوراء فرأى في الظلام هيئة والده يقف تحت شجرة تتساقط منها قطرات الماء، كانت صورته مشوشة، وعندما اقترب من مكانه أكثر وجد أن المكان يحوي عددا كبيرا من الموتى، توقف بجانب البوابة الحديدية المؤدية إلى الطريق نحو المدينة لكنه لم يستطع أبدا أن يعبرها فقد كانت تمنعه.

تملكه شعور مفاجئ بأن قوة خارقة عبرت به كروح من تلك البوابة فهرول في الطريق أمامه، وكلما تقدم أكثر لاحظ أن تغييرا قد طرأ عليه، لقد عادت الطبيعة إلى نفسها ثانية، وبعد معاناة تجاوز الطريق إلى أن اختفى الطريق الذي كان يعرفه.

وأخيرا بدت له مدينة الأحلام غامضة غارقة في صمتها الأزلي، رآها كما هي لم يقو الزمن على تشويه معالمها، تطلع نحوها فرأها لم تعد تحمل ذكريات الماضي

المؤلة، إنه لن يعود إلى المدينة ثانية هذا مؤكد. ولكن أحيانا في أحلامه يعود إلى أغرب أيام حياته التي بدأت للتو.

كان ذلك ما رآه آدم في حلمه عندما سقط مغشيا عليه لحظة رؤيته لجثمان أمه يحمله رجال الإسعاف، وحينما أفاق من غشيته صرخ صرخة عظيمة أسمعت العالم أجمع، وزفر زفرة شديدة كادت تُخرج أحشائه من بين ضلوعه. احتضنه خاله بشدة، وذهب به إلى ناحية السيارة الواقفة. وبدأ يواسيه وهو يكتف في صدره مرارة الأسى والحزن، وهما في تلك الحالة إذ يلحظان شخص يتقدم إليهما من بعيد مسرعا.

كان ميلاد قد وصل إلى المدينة لما سمع بتلك الأخبار الشنيعة. وعلم ميلاد أن أباه لوثر هو الآخر قد راح ضحية هذا الزلزال الغادر. وبعد أن هدأ الجميع، وتناولا بعض العصائر التي قدمها لهم رجال الشرطة، اقترح عليهم جلال أن يبيتوا ليلتهم في أحد الفنادق القريبة من المدينة التي دمرها الزلزال حتى يتسنى لهم الراحة وانتظار خروج جسد الأم ليواروه الثرى.

لكن آدم أصر على الانتظار هنا، وأعلم خاله أنه لن يترك هذا المكان، ومن أراد أن يخلد للراحة ففي السيارة، وإذا هم في حديثهم هذا يلمحون ظلا لشاب يقف على أعلى التل ينظر إلى أطلال المدينة، وهو يبكي بحرقة شديدة سمع صداها الحشد الواقف، فلما أمعنوا النظر إليه أدركوا أنه هو كما هو لم تتغير ملامحه

نظر آدم إلى ميلاد وقال له: أليس هو؟

قال ميلاد: إنه هو بكل تأكيد

- إذن فلنذهب إليه الآن

انطلق الصديقان ناحية هذا الشخص، ربت آدم على كتفيه فالتفت الشاب لموضع اليد على كتفه ثم نظر إلى الوجه وقال له: آدم؟! لقد افتقدتك يا صديقي

واحتضنه بشدة كما احتضن ميلاد هو الآخر

بادره ميلاد بالسؤال: أين كنت طوال كل هذه الفترة يا جايكوب؟ لم نكن نعرف لك طريقا

قال جايكوب: إنها قصة طويلة

تقدم إلى جلال أحد رجال الإنقاذ وقال: له سُنحضر لك جسد المتوفاة بعد قليل

كان جلال ينظر إلى رجلين أحدهما عجوز قد أكل عليه الدهر وشرب، والآخر شاب في العقد الرابع من العمر وحينما سأل عنهما جلال رد عليه رجل الإنقاذ قائلاً: هذان فقط هما اللذان نجا بروحيهما من هذا الجحيم.

انتهى رجال الإنقاذ من استخراج الأشلاء والجثث من تحت الأنقاض، وبدأ الجميع في التحضير لأخذ كل مَنْ يخصه. ليذهبون به بعيداً إلى الدفن ليوارى الثرى جثمانهم، وتم دفن الجميع على مقربة من المدينة التي كان الجميع يعشقها، وبعد أن انتهوا انطلقت السيارة عائدة إلى العاصمة، وكانت تحمل على مقاعدها جلال و آدم، ومعهم ميلاد وجايكوب بعد أن أخبرهم جايكوب أنه سيذهب إلى هناك للسفر.

بدأت السيارة تتحرك لكنها توقفت فجأة بعد أن نزل السائق على رغبة آدم، وطلبه في أن يتوقف بالسيارة، سأله الخال: لماذا أوقفنا يا ولدي؟

نظر إلى النافذة ناحية الشخصين الناجيين الوحيدين من الزلزال، ووجدتهما يضحكان، أنعم النظر إلى وجه الشخص العجوز فشعر بأنه قد رآه من قبل، ترجل آدم من السيارة متوجها ناحيته، وتبعه أصدقائه، توقف أمام الرجل وحياه ثم بادره بالسؤال: ألم أرك من قبل؟

قال العجوز: بلى يا ولدي

- لكن أين؟

- ألا تتذكريا بني؟

- لا يا سيدي لكني متأكد بأنني قد رأيتك من قبل

قال مازحاً: لعله حلم

- لا لا ليس في حلم لكن في الحقيقة

ابتسم الجميع لحوارهما واستطرد العجوز قائلاً: لقد قابلتك ذات مرة حينما كنت في مقابر المدينة

حك آدم رأسه وتذكر ثم قال له: أنت مَنْ كنت تُنشد الشعر، أليس كذلك؟

- نعم يا ولدي

- كنت أعرف اسمك جيدا أنه... أنه... حكيم أليس كذلك؟

- نعم أنا حكيم الشيخ الكبير الذي يتذكر دائما، وأنت الشاب اليافع تنسى بسرعة تلك هي النتيجة الحتمية لعصر السرعة هذا، فسرعان ما تنسى سرعان ما تتذكر

- إذن أنت حكيم

- وأنت؟

- أنا آدم، وهؤلاء صديقي ميلاد وجايكوب

ونظر العجوز وحياهما ثم نظر إلى الشخص الواقف بجانبه وقال للجميع: وهذا عزيز صديقي

قال آدم: أنتم فقط من نجوتما من الزلزال؟

أجابه مازحا: بل الزلزال هو من نجا منا

ابتسم الجميع وعاد العجوز يقول: إنها حكمة الإله

سأله آدم: لكن أين كنتما وقت حدوث الزلزال؟

- كنا نتسامر على التل أمام القصر الكبير عندما تهدم كل شيء، ومن حسن حظنا أو من سوءه أننا لا نملك كهرباء هناك، وإلا لكنا احترقنا كبقية الناس في المدينة

- يا لها من صدفة عظيمة

- وأين ستعيشان الآن بعد أن تدمر كل شيء؟

- أرض الله واسعة يا ولدي

تفكر آدم قليلا ثم قال: هل لكما أن تأتيا معنا إلى العاصمة، وسأوفر لكما سكنا هناك فنحن ميسوري الحال

قال العجوز: لعلكم تأخذون عزيز معكم فهو يود الرحيل إلى منزله، لكن أنا لا أعيش عائلة على أحد

نظر آدم إلى عزيز وقال: هل تسكن في العاصمة؟

قال له: نعم فأسرتي هناك، وكنت هنا من أجل العمل، والآن فلا سبب لوجودي هنا

- إذن ستذهب معنا

ثم نظر إلى العجوز وقال: وأنت كذلك

رد عليه العجوز: يا ولدي لقد بلغت من الكبر عتيا، وأنا على مشارف الموت
سأجلس هنا أنتظر موعدي

- أنا مُصر على أن تذهب معنا، لعلني أسمع شعرك.... هل تتذكر ما قلته لي
من شعرك مازلت أحفظه عن ظهر قلب، ستأتي معنا على كل حال

نزل العجوز على إرادته، وذهب الجميع إلى السيارة، ولحسن الحظ أن
سيارات السياسيين تتسع للجميع، فاتخذ كل منهم مقعده وانطلقت السيارة عبر
الطرق والصمت يخيم على الجميع.

كان جلال يغط في نوم عميق على المقعد الأمامي للسيارة، والبقية يجلسون
في الخلف في صمت مطبق لم يقطعه سوى سؤال آدم للعجوز قائلاً: لكن ما
الذي كان يُضحككما عندما رأيتهما من نافذة السيارة؟

قال عزيز سريعاً: لأننا الليلة الماضية كنا نتحدث عن غضب الإله الذي
سيصبه على الناس، وكان حكيم يشعر بداخل نفسه أن شيئاً ما سيحدث،
وحدث الزلزال قبل أن نقوم من مقعدنا

قال آدم موجها حديثه للعجوز: وما رأيك فيما حدث أيها الحكيم؟

قال العجوز: إنها حكمة الإله.... لا تعتقد أن هذه الهزات شر مطلق.....
إنها حكمته العظيمة

قال آدم متعجباً: حكمته العظيمة؟! أي حكمة عظيمة بعد هذا الدمار
الذي حدث؟

- تخيل يا ولدي أن الزلازل توقفت فجأة، ماذا يحدث إذا تم هذا الأمر؟

قال ميلاد: اعتقد ستكون العواقب وخيمة

قال العجوز: قل لي ما هي العواقب؟

- خلال أعوام عديدة ستتحول الأرض إلى ركام سينتقل إلى الأماكن
المنخفضة وخاصة إلى البحار والمحيطات فيتراكم هناك، ومع الوقت سيتحول

سطح الأرض إلى سهل، وكذلك ستتناقص أعماق البحار والمحيطات ويتبدل وجه الأرض تماماً عما هي عليه الآن وفي النهاية سيغرق وجه الأرض بالفتات الصخري

قاطع العجوز وهو يقول: وفي النهاية تموت الأرض ولا تصلح للحياة، أليس كذلك؟

- بالتأكيد

قال آدم: إذن تكمن الحياة في جوف الموت

قال جايكوب: لو نظرنا إليها بهذه النظرة لأدركنا أن كل تلك الكوارث الطبيعية التي تظهر بمظهر الشرما هي إلا خير لباقي البشر

قال العجوز: الخير والشر نسبي يا ولدي

تساءل ميلاد: كيف ذلك يا سيدي؟

- هل لي أن أقص عليك حكاية؟

- بكل تأكيد

- تقول الحكاية القديمة إنه كان هناك رجل كهل لديه جواد لا يملك غيره، وفي أحد الأيام دخل إلى مريضه ابنه الشاب ليُطعمه، ولمّا فرغ من إطعامه خرج وقد نسي أن يُغلق الباب وراءه فهرب الجواد، أتاه الناس يعترهم الحزن لما أصاب العجوز وقالوا له: أيها الشيخ أي شر هذا الذي حل بك!، لقد فقدت كل ما تملك

فأجابهم الشيخ: لعله شر

وبعد انقضاء اليوم عاد الجواد إلى مريضه على رأس مجموعة كبيرة من الجياد البرية، وغدا الشيخ أكثر أهل القرية ثراء، فجاءوه أهل القرية وقالوا له: أي خير هذا الذي حل بك بفرار الجواد!

فأجابهم: لعله خير

وفي أحد الأيام راح ولده الوحيد يمتطي أحد الجياد فسقط من فوقه فُزلت قدمه وانكسرت فقال له أهل القرية: أي شر أصابك بكسر قدم ولدك

فأجابهم: لعله شر

وفي صباح اليوم التالي أتى مبعوث الملك ليرسل كل الفتيان إلى حرب
ضروس لن يعود منها حي إلا القليل، ونجا ابن الشيخ من المشاركة في الحرب
بسبب قدمه المكسورة، فأتاه أهل القرية وقالوا له: أي خير أصابك بكسر قدم
ابنك

فأجابهم: لعله خير

وهكذا تستمر الحكاية إلى ما لا نهاية.... فتؤكد لنا أن الخير والشر أمر نسبي
تماما

قال ميلاد: وكيف نشعر بالراحة طالما هذا العذاب من ورائنا دوما؟

- وكيف ستعرف معنى للراحة بدون أن يكون هناك العذاب يا ولدي، لو
افترضنا عالما كمدينة مثالية لا وجود فيها إلا للخير تتحقق فيها كل رغبات
الإنسان ما أن يفكر فيها، ذلك العالم سيقتل في الإنسان الشوق والرغبة

- كيف ذلك يا سيدي فأنا أتمنى وجود مثل هذا العالم من كل جوارحي

- مات رجل وبعد موته بقليل وجد نفسه في مكان عظيم ذي حدائق
شاسعة، وأشجار خلابة، وأنهار رائعة الجمال فيه كل ما تشتهي الأنفس، أتاه
كائن قدّم له نفسه على أنه ملاك، وطلب منه أن يتمنى ما يشاء، تفكر الرجل
قليلا ثم طلب امرأة حسناء، فكان له ما أراد، ثم طلب أشهى طعام في الوجود،
فجيء له بطعام يفوق ما صور له خياله.

ثم طلب الرجل أجمل ثياب ليرتديها فكان له ما أراد، وتواصلت رغباته،
وكثر طلباته، وكان يُستجاب لها قبل أن يُعبّر عنها أحيانا فما أن تخطر بباله
حاجة إلا وجدها أمامه.

بعد فترة طويلة شعر الرجل بالسأم والملل وضجر من تلك الحياة، فنادى
الملاك الذي يُحقق له كل رغباته وقال له الرجل: لقد أصابني الملل والسأم، ما
كنت أتصور أن الجنة مملة إلى هذا الحد، فنظر إليه الملاك نظرة عميقة وقال
له متعجبا: الجنة؟! من قال لك يا رجل أنك في الجنة، هذه هي الجحيم يا
سيدي

ابتسم الأصدقاء فعاد العجوز يقول: الأشياء تتميز بضدها يا ولدي، فإذا
كانت الجحيم هكذا، فإننا في الجنة الآن بكل تأكيد، ولكي ترى الحكمة متجلية

في كل شيء لابد أن تخرج إلى خارج الوجود حينها ستدركها جيدا وتعلم أن الإله كان حكيما ورءوفا بنا

قال آدم: لم أفهم مرادك من هذا؟

- أنت كإنسان موجود الآن في سيارة، والسيارة في المدينة، والمدينة بدورها في موقع جغرافي معين كما أنه على الأرض، وداخل المجموعة الشمسية التي هي في مجرة معينة داخل الكون، لذا فأنت شيء ضئيل جدا بالنسبة لكل هذا، لذا لن تستطيع أن تصل إلى المعرفة الكاملة عن الإنسان والأرض إلا إذا نظرت إلى الأشياء من خارج هذا الكون الشاسع كله.

قال آدم: وماذا عن موت أحبائنا وأقاربنا؟

قال العجوز مبتسما:

المرء يأمل أن يعيش وطول عمره قد يضره

تفنى بشاشته ويبقى بعد حلو العيش مره

وتخونه الأيام حتى لا يرى شيئا يسره

قال آدم مبتسما: لقد عدنا إلى الشعر الجميل، لقد أراحني حديثك مرة ثانية

نظر ميلاد إلى العجوز وقال: حديثك عن الحكمة من الزلازل واضح كما أنه منطقي، لكن أليس وجود هذا الشر لهو أكبر دليل على غياب الحكمة؟

قال العجوز: أراك لم تدرك مغزى حديثي السابق بعد.... وعلى كل حال فنحن لا نعرف الأشياء إلا بأضدادها، فلو لا الظلام ما عرفنا النور، ولو لا القبح ما أدركنا الجمال، ولا بد أن تعرف جيدا أن عدم إدراكك للحكمة لا يعني غيابها، كما أن الحرية الممنوحة لنا تُحتم وجود الشر والخير للاختيار بينهما

ميلاد: لكننا لم نختر شيئا من هذا فهل عرض علينا أن نختر بين وقوع هذا الزلزال المدمر وعدم وقوعه؟

- هناك نوعان من الشر أحدهما من عمل الإنسان، فالإله ترك للإنسان حرية الاختيار، وبهذه الحرية نشر الشر وطمع وتجر، أما الآخر فلا اختيار فيه للإنسان كالزلازل الذي حدث هنا، لكنني أعلم أن هذا الأمر كما أنه مفيد للطبيعة ولحياتنا نحن البشر كما تحدثنا من قبل، فهو مفيد أيضا للإنسان

حتى يعمل جاهدا لمواجهة تحديات الطبيعة، وكذلك فإن الابتلاءات ترتقي به روحيا حينما يواجه النوازل.....

قاطعه جايكوب: وإيماننا بالحياة بعد الموت هو ما يساعدنا على مواجهة تلك الابتلاءات

قال آدم متعجبا: أليس غريبا أنك تؤمن بالحياة بعد الموت!

- قلت لك إنها قصة طويلة

قال ميلاد: هناك أشياء لا تعلمها ولا تُدرِكها عقولنا القاصرة منها مثلا وجودنا بعد الموت لكن برغم ذلك فهذا الكون إنما يخفي وراءه الكثير

قال جايكوب: لكن تلك العقول القاصرة توصلت إلى الكثير

قال ميلاد: على أية حال فنحن مازلنا في البداية ومع تقدم العلم أكثر فأكثر سنكتشف الكثير، ونسبر أغوار الكون السحيق حتى نعلم عنه الكثير

قال حكيم: ليس هناك فائدة في غزو الكون....

ثم ابتسم وعاد يقول: أتعرف أن هناك ما يقرب من 200 مليون مجرة في نطاق الكون الملموس؟

- أعرف ذلك

- ألا يجعلك هذا تفكر؟

- في ماذا؟

- أين هم الجميع؟

ضحك الجميع واستطاع العجوز أن يُخرجهم من حالة الحزن التي اعترتهم مما أصابهم، ثم عاد آدم ليسأل حكيم قائلا: أي شهادات قد حصلت عليها أيها العجوز؟

- العلم ليس له شهادات، وأنا لا أملك واحدة

- لكن من أين لك بكل تلك الحصيلة؟

- الوقت.. كان لدي الكثير من الوقت لا أفعل به شيئا سوى الإطلاع والعزف على البيانو

توقفت السيارة عند أول استراحة على الطريق، وأيقظ السائق جلال النائم على مقعده بجواره. وترجل الجميع من السيارة ذاهبين إلى الاستراحة للاغتسال وتناول الطعام، وبعد الانتهاء طلب الجميع أقداح القهوة وبادر آدم بسؤال العجوز قائلاً: كنت تعزف على البيانو. أنت فنان إذن لكن عندما رأيتك في المرة الأولى كنت تعزف على القيثارة

- أنا أعزف على الكثير من الآلات الموسيقية

قاطعته عزيز: إنه من أعظم الفنانين على الإطلاق، لكنه لا يتمتع بشهرة، فهو لا يحب الشهرة إطلاقاً

نظر آدم إلى العجوز وسأله: ولما؟

رد عليه العجوز: الشهرة لا تسمح للمرء بأن يعيش في سلام، فالأضواء والأشخاص تحوم حوله في كل مكان وحينها يفقد المرء حرته

- وما شعورك حينما تعزف؟

- يبدو لي في تلك الأوقات أن كل شيء احتل مكانه الصحيح، وتحولت الفوضى في حياتي إلى حالة من السكينة والطمأنينة.

عاد الجميع إلى السيارة، وانطلقت بهم ثانية في طريقها إلى العاصمة، وفي هذه الجولة أخذ الجميع غفوة على مقاعدهم وراحوا في سبات عميق من أثر التعب والإرهاق من ذلك اليوم الطويل الشاق حتى وصلت السيارة أخيراً إلى مقرها الأخير أمام قصر جلال.

أيقظ السائق النائمين وبشرهم بانتهاء الرحلة، ترجل الجميع حينها من السيارة، لكن العجوز مازال نائماً لم يستيقظ، حاول آدم أن يوقظه فلم يستيقظ، ظنوا للوهلة الأولى أن نومه ثقيل، لكن بعد عدة محاولات من الصراخ في وجهه، وتحريك جسده الساكن وهزه هذا شديداً، أدركوا جميعاً أنه قد نام إلى الأبد.

تقدم ميلاد وأمسك بذراعيه ليتحسس نبضه، لكن لا وجود لأي نبض، لقد رحل تاركاً هذا الجسد الهزيل، مات العجوز الحكيم، وغادرت الروح إلى عالمها الذي كان في شوق إلى لقاءه، ويا لها من مأساة، ويا لها من سخرية أو لعلها حكمة خفية، لقد نجا لتوه من الزلزال ومات بعدها وهو سليم معاف.

رحل الحكيم واسع العلم والصدر، رحل من تعلم الجميع منه، رحل وكلماته لا تزال تتردد صداها في أذان الكل، عاش وحيدا ومات وحيدا، بكى الجميع أمام الجسد وتناثرت الدموع في الأحداق، لم يقابلوه سوى لحظات لكنه ترك فيهم أثرا عظيما، كانوا يشعرون بأن هناك صلة ما تربطهم بهذا العجوز.

أخرجوه من السيارة وذهبوا بجسده ليواروه الثرى، أعلمهم عزيز أن العجوز كان يعيش الطبيعة دوما، وأراد أن يُدفن في مكان خال، فاقترح آدم أن يتم دفنه أعلى الجبل على أطراف العاصمة، وبالفعل رحب الجميع باقتراحه وقاموا بدفنه هناك على أعلى قمة في الجبال الممتدة وفي المكان المحبب لقلب الأصدقاء، وتمت بعدها مراسم الدفن، وظلوا بجانبه لفترة طويلة، وهم ينظرون إلى القبر الذي وارى هذا الجسد في سكون الأبدية.

بعد لحظات من الصمت قال عزيز وهو يشير إلى قبره: هذا الرجل قد غيّر مجرى حياتي إلى الأبد ورفع يده إلى رأسه وقام بإلقاء تحية على ذلك الجسد ثم قال للجميع: على الرغم من عدم معرفتنا الطويلة به تعلمنا الكثير في هذه الرحلة القصيرة

نظر إليهم جايكوب وقال: كانت له رسالة ولم يمت قبل أن يُتمها

نظر الأصدقاء إلى جايكوب في عجب وقالوا: وما هي تلك الرسالة؟

- إنها رسالته في الحياة، كان من الممكن أن يرحل في الزلزال كما رحل الجميع إلا أنه نجا منه ليتقابل معنا، ويتحدث إلينا في الأمور التي اعترانا الشك بها، وهذا ما جعلكم تقولون إنه قد غيّر حياتكم جميعا، وهذا أيضا ما جعلكم تبكونه بشدة رغم أنكم لم تعرفوه إلا لبضع ساعات

- لعل الأمر كذلك

نهض عزيز من أمام القبر ونظر إلى الأصدقاء وقال لهم: الآن سأرحل إلى عائلتي

أمسك به آدم واستوقفه قائلا له: لن ترحل لقد قلت أنك الآن لا تملك وظيفة، وأنا سأحدث خالي ليووفر لك واحدة

- أشكرك كثيرا يا سيدي، لكني الآن أدركت طريقي

- وماذا ستعمل؟

- إماما للمسجد

ثم تركهم وغادر إلى أسرته، عاد الأصدقاء إلى طريقهم وقال آدم لجايكوب:
وأين تسكن الآن يا جايكوب؟

- هناك مسكن قريب يعود إلى تاجر العطور الذي أعمل لديه، لقد أعطاه
إياي عندما علم أنني سأعود إلى هذه البلاد

- لكن أين يعيش هو؟

- في فلسطين

- أكنت في فلسطين؟

- نعم كنت أعيش هناك، ولمّا علمت بشأن الزلزال أسرعرت إلى هنا لأتفقد
أسرتي في المدينة، وكذلك أصدقائي فالحمد لله أنكم بخير

- أصبحت غريبا بعض الشيء يا جايكوب

- سأحكي لكم ما حدث لكن في الصباح فأنا الآن متعب

عاد الأصدقاء كل منهم إلى طريقه ليأخذ قسطا من الراحة على أمل اللقاء
القريب في الصباح.

في الصباح اجتمع الأصدقاء على المقهى الذي كان يجمعهم دائما وبدأ آدم
بسؤاله عن أحواله

قال له جايكوب: الآن لا أحد يُناديني بهذا الاسم فلقد غيرته

ابتسما وقال له ميلاد: وماذا أسميت نفسك أيها الفتى الغامض؟

- موسى

قال آدم: وما الفارق بينهما هذا اسم يهودي والآخر كذلك

- هناك فارق كبير

شعر آدم بالدهشة فتساءل: ماذا حدث لك يا صديقي أشعر بأن تغيرا
عظيما قد طرأ عليك

- عندما ذهبت إلى إسرائيل موطن أجدادنا ومدينتنا المقدسة، تلك المدينة الفاضلة التي دوما ما تحدث عنها المفكرون اليهود. التي حلمت كثيرا بالعيش فيها حتى أتت اللحظة التي تمنيتها، ووطنت قدمي على الأرض المقدسة لكي شعرت هناك بالأسف وخيبة الأمل، عندما رأيت أنها لم تكن أمة في الواقع. بل كانت عبارة عن ثكنات عسكرية ضخمة.

كنت وقتها على صلة قوية بأحد أقاربي، وهو الذي دعاني للحضور إلى إسرائيل، وقد كان مسئولا كبيرا في جهاز المخابرات هناك، تحدث معي عن دراستي في الجامعة، وأعلمني أنه بالإضافة إلى الدراسة لابد لي من الالتحاق بالجيش الإسرائيلي هناك حتى أستطيع أن أخدم وطني الحبيب.

نزلت على إرادته، فلم يكن بمقدوري أن أرفض أيا مما يقوله فكنت مثل التائه الذي فقد أبويه، والتحقت هناك بالجامعة، وبدأت الدراسة واستطعت حينها التوفيق بين دراستي وبين خدمتي في الجيش، كانت الأمور تسير على ما يرام، وكان قريبي يعتني بي جيدا، ولم أطلب منه شيئا إلا وحققه لي.

كنت سعيدا ولم يك يشغل بالي التفكير كثيرا، حتى أتت اللحظة الحاسمة التي غبرت مجرى حياتي إلى الأبد، وكما تعرفان جيدا بأني كنت شديد التمسك بديني، تلك اللحظة كانت عند استدعاء جميع العاملين في الجيش لشن هجوم على قرية فلسطينية. وكما أنبأنا القادة أنها تحوي عناصر من المقاومة المسلحة، وانطلقت بنا المدرعات، ومن فوقنا المروحيات التي تغطي تحركاتنا إلى أن وصلنا إلى المنطقة المنشودة، ودخلنا بالدبابات والمدرعات وعلى حين غرة من أهلها نخلصنا من رجال المقاومة هناك، ليس هذا فحسب بل صدر الأمر العسكري بالتخلص من جميع من في القرية. ولما أبديت اعتراضا على هذه الفعلة الشنعاء متعللا بأن بها أطفالا وشيوخا ونساء لا ذنب لهم.

قال لي أحد القادة ألا تؤمن بالتوراة؟ فقلت له بلى فقال لي أن التوراة هي ما تأمرنا بذلك

فتعجبت أشد العجب من قوله وقلت له متسائلا كيف للكتاب المقدس أن يأمرنا بشيء كهذا، فأخرج لي من حقيبته الكتاب وبدأ يقرأ لي

وقال: "وحين تتقدمون لمحاربة مدينة فادعوها للصالح أولا، فإن أجابتمكم إلى الصلح واستسلمت لكم فكل الشعب الساكن فيها يصبح عبيدا لكم، وإن أبت الصلح وحاربتمكم فحاصروها، فإذا أسقطها الرب إليكم في أيديكم فاقتلوا

جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال واليهائم وكل ما في المدينة من أسلاب، فاغتنموها لأنفسكم، وتمتعوا بغنائم أعدائكم التي وهبها الرب إليكم لكم، هكذا تفعل بكل المدن النائية عنكم التي ليست من مدن الأمم القاطنة هنا، أما مدن الشعوب التي يهبها الرب إليكم لكم ميراثا فلا تستبقوا فيها نسمة حية بل دمروها عن بكرة أبيها".

وأغلق الكتاب ثم نظرتي وقال: هكذا يأمرنا الرب فأصابتني دهشة شديدة مما قاله فأنا لم أك من قبل أقرأ التوراة، ولا علم لي بها إلا بالطبع ما كان يُخبرني به أبواي وهم يستشهدون بأسفار التوراة، لكنني رفضت أن أنصاع لذلك الأمر، فأمروني بالرحيل وعدت إلى منزل قريبي.

بعد مرور ساعات وجدته يأتييني كي يلومني على ما فعلته، فطلبت منه وترجوته أن يتركني لدراستي فقط فأنا لا أريد الخدمة في الجيش طوال فترة الدراسة، وبعدها سوف أفعل ما يريدون، وبحكم صلته القوية بمراكز القرار في الحكومة تم إعفائي من هذا الأمر.

بدأت بعدها رحلتي في البحث عن هذه الديانة التي أتدين بها، ولا أعرف عنها شيئا واكتشفت الكثير فيها، وهنا عاد الشك يُساورني في هذا الدين، فشرعت في البحث في أديان أخرى كالمسيحية والإسلام، لقد قضيت فترة طويلة جدا في هذا البحث مهما لدراستي في أحيان كثيرة إلى أن توصلت بقناعتي إلى مجموعة من الأشياء

قال آدم: وما هي هذه الأشياء؟

أجابه جايكوب: سأحدثكم عنها فيما بعد

- أهكذا انتهت قصتك؟

- ليس بعد

- إذن أكمل

واصل جايكوب الحكيم قائلا: أدركت بعد ذلك أن من يُسمون أنفسهم يهودا ليسوا من اليهود في شيء، إنهم جماعة من حثالة البشر لا أخلاق لهم ولا دين ولا تاريخ، تعرفت هناك على الكثير، وبحكم قرابتي لهذا المسئول اقتربت أكثر فأكثر من هؤلاء العصابات المتخفية في رداء اليهودية.

بدأت في البحث عن أصولهم، واطلعت خلسة على بعض الوثائق في منزل قريبي هذا، انتابني صدمة قوية من تلك الخطط الشريرة التي يعملون دوماً على تنفيذها، وأدركت أنهم أعوان الشر، رأيت بعدها الحرب الدائرة بينهم وبين الفلسطينيين أصحاب الأرض، وهم يقتلون كل من يقابلهم في طريقهم من شباب وشيوخ وأطفال ونساء لا يستثنون أحداً.

تتبع خطى هؤلاء الموجودين على رأس السلطة، وبدون علم قريبي الذي اهتم بتعليمي في أفضل جامعات إسرائيل، وأخيراً علمت طريقة عمل هؤلاء الأشرار، إنهم يعملون في الظلام ويحافظون على سرية خططهم عن طريق الكتمان، يحركون خيوط الأحداث في العالم كله من وراء الستار.

كذلك علمت أن الكثير من أتباعهم مجرد عرائس متحركة بين أيديهم تُنفذ ما يُطلب منها، وهم جاهلون بالحقيقة، ولا يعرفون أنهم يُنفذون مخططات سرية لا يدرون من أمرها شيئاً، أنها مؤامرة تستهدف الإنسانية بأكملها.

كنت أنا واحداً من هؤلاء حتى تداركت الأمر بسرعة، وبحثت طويلاً عن خيوط تلك المؤامرة فوجدتها طويلة جداً تُنفذها أجيال وراء أجيال، وتهدف مؤامراتهم لاغتصاب السلطة الشرعية في كل دولة من دول العالم، حتى يحين الوقت الذي يتمكنون فيه من السيطرة على العالم أجمع، بعدها سوف يُقيمون حكومة واحدة يحكمون بها العالم.

العالم الآن على شفا جرف هار، فهذه المنظمة تخطط للسيطرة على العالم وإخضاعه بأسره للطغيان المطلق في ظل فلسفتها الشريرة تلك.

قال ميلاد باسماء: أرى هذه القصة تُشبه كثيراً ما في الأساطير، ألهذه الدرجة يا فتى؟

- كنت أظن مثلك تماماً إلى أن أصبحت واحداً منهم، وأدركت مؤامراتهم

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- كنت أتماشى معهم كي أتقى شرهم فلقد علمت أنهم يضحون بأي شيء وأي شخص مهما يكن، إذا أفشى أي سر من أسرار المنظمة

قال ميلاد: وما اسم هذه المنظمة؟

- عين الحياة

- علمت كذلك أن والدي واحد من هؤلاء، وهو من أرسلني إلى هناك لأصبح أحدهم

قال آدم: لكني وجدتك تبكي بحرقه عندما عدت إلى المدينة المهتمة وعرفت أن والدك قد مات

- الإسلام حثنا على صلة الرحم مهما يكن

تعجب الصديقان وقال معا: الإسلام؟!

- نعم لقد أسلمت

- وكيف حدث هذا؟

- الانتقال من دين إلى دين ليس بالأمر السهل، وخاصة إذا كان قومي قد غرسوا في منذ الطفولة شيم الاستعلاء والتعصب لعرقنا اليهودي، واحتقار الديانات الأخرى، بل زرعوا في الحقد والكراهية لغير بني جنسي.

في بداية الأمر تفكرت كثيرا وتساءلت كيف للإله الذي خلق كل هذا الكون الشاسع، وخالق البشر أجمعين أن يقوم باختيارني أنا دون باقي البشر، وشعبي أنا دون شعوب العالم، ويجعل من شعبي شعبه المختار؟!..... وأدركت أن هذا التصور أقرب إلى الوهم منه إلى الحقيقة.

راجعت نفسي في اختلاف الناس في الأديان، وتعلمت جيدا أن العقل هو ما يجب أن يحكم في هذه الأمور.

من هنا بدأت رحلتي مع العقل فعلمت أنني لم أر موسى، ولم أشاهد معجزاته، ولا معجزات غيره من الأنبياء، ولولا تواتر أخبارهم لما عرفنا شيئا عنهم ولا عن معجزاتهم، فقلت لنفسي كيف للعاقل أن يصدق واحدا ويكذب الآخر من هؤلاء الرسل؟، ونحن لم نعرف عنهم إلا من خلال النقل، والنقل موجودة لجميعهم لذا فليس من العقل والحكمة أن يصدق أحدهم، ويكذب الباقي بل المفترض عقلا أن يصدق الكل أو يكذب الكل، أليس هذا حديث العقل؟

- نعم أكمل

- لم يستطع عقلي تكذيب الكل، لأنهم قد أتوا بمكارم الأخلاق، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ونشروا الفضائل بين جميع الناس بل أنهم قادوا العالم بسياسة بها صلاح أحواله، وهكذا بعد البحث الطويل أيقنت أن الدين

الإسلامي هو الدين الوحيد الذي يُصدق جميع الأنبياء بل وضع الإيمان بهم جميعا شرطا من شروطه، فأدركت حينها أن المنبع واحد.

قال آدم: سنعود إلى موضوع إسلامك فيما بعد، لكن الآن عليك أن تكمل لنا أسطورتك

- أي أسطورة؟

- أسطورة الشر

- لكنها ليست أسطورة بل حقيقة واقعية

- على أية حال ماذا حدث معك بعد ذلك؟

- عندما حاولت التمرد على قوى الشر هذه صدر أمرا بقتلي، فهربت ولم يكن أمامي أي مكان للهروب سوى فلسطين، وبعد عناء طويل وجهد شاق وطأت بقدمي أرض فلسطين وهناك تعرفت على تاجر للعطور.

كان مسلما وقد ساعدني كثيرا وجعلني أعمل معه في دكانه، وحدثني كثيرا عن الإسلام، وعلى الرغم من أن مازال بداخلي الكثير من الشكوك بشأن هذا الدين، وبرغم بحثي الطويل فقد زال بعضها والبعض الآخر مازال بداخلي.

لكن التاجر أخبرني أن هناك فيلسوفا عظيما يستطيع أن يُجيب على تساؤلاتي هذا الشخص يسمى راجح فياض وكان يخصص ساعة يوميا على الإنترنت ليُجيب على أسئلة المتابعين له، وأخيرا وجدت لديه إجابات على أسئلتي جزاه الله خيرا ولما فهمت الدين جيدا غيرت اسمي إلى موسى

قال آدم وهو يبتسم: وماذا ستفعل الآن يا موسى؟

فقال لهم: سأعود إلى تاجر العطور

- في فلسطين؟!

- نعم بكل تأكيد وسأذهب غدا إن شاء الله

وقف الجميع في المطار في اليوم التالي وقاموا بتوديع صديقهم العزيز موسى ثم انتظروا قليلا حتى رحلت الطائرة وهم يلقون بناظرهم إلى الأعلى وينظرون للطائرة وهي تشق السحاب إلى أرض فلسطين

قال آدم لميلاد: لقد وفرك خالي وظيفة مرموقة في شركة الطاقة العالمية

- وماذا سأعمل فيها؟

- في معاملها براتب كبير يكفل لك حياة رغيدة

- أشكرك بشدة على مساعدتك فلم يعد لي في هذا العالم سواك

- نحن أخوة قبل أن نكون أصدقاء، ولا أحب سماع هذا الحديث مرة أخرى

- أود أن أشكر خالك على صنيعه هذا

قال مبتسما: إذا وجدته

- أليس في المنزل؟

- مشاغله كثيرة... أنا نفسي لا أراه كثيرا

- على أية حال إذا رأيته فلتشكره لي كثيرا

- لا مانع لدي.

عاد الصديقان إلى ديارهم، ومرت الأيام وتسلم ميلاد العمل في شركة الطاقة العالمية التي كانت ملكا لرجل الأعمال صفوان الأدهم قبل دخوله السجن، أما آدم فبدأ بالبحث عن بيكاسو الفنان العظيم الذي عرفه عليه خاله فقرر الذهاب إلى مرسومه لينطلق إلى حياته العملية بعدها.

مرت الأيام رتيبة يكسوها الحزن والملل. والكآبة قد خيمت على نفس آدم بعد أن فقد أمه بعد أبيه. لم يشعر بالوحدة هكذا من قبل، وعلى الرغم من أنه لم يك يري أمه إلا في أوقات الإجازات إلا أنه كان يفتقدها بشدة. شعر بشعور اليتيم بحق، والآن فقد كل معنى للحياة، وتحولت الابتسامة البشوشة على وجهه إلى سحابة سوداء يُطل منها الحزن.

عانى أشد المعاناة في تلك الفترة التي مرت عليه، وشعر بعظيم مصابه بعد ما أصاب مدينته المحبوبة إلى قلبه من كوارث، وقد أمست كومة من الرماد تزروه الرياح العاصفة. حاول أن يستجمع شتات نفسه بعد مصابه ومرت الشهور وهو يرتحل في الصباح إلى مرسوم بيكاسو الذي توطدت العلاقة بينهم، وأمسى من أقرب أصدقائه وعند غياب شمس النهار يذهب إلى الجبل وحيدا، ويُخرج عدة الرسم الخاصة به ليرسم لوحاته، وهو يشاهد من فوق قمم الجبال

الشاهقة المناظر الخلابة للطبيعة الغضة، ويخربش بعض الخريشات على لوحاته.

لكن ما استرعى انتباهه في تلك الفترة عندما رحل بذهنه في هذا المنظر البديع، ونظر إلى ما رسمه وهو شارد الذهن فوجد على لوحاته تلك الفتاة التي لا يعرفها، ولم يرها من قبل وبكافة تفاصيل ذلك الوجه البشوش الضاحك.

ذهب آدم كعادته إلى مرسوم صديقه بيكاسو الذي ينقسم إلى عدة غرف كبيرة المساحة. وكان هو مالكة فمثل ذلك الفنان لا يد له من مرسوم كبير كهذا، فهو فنان كبير يتمتع بشهرة واسعة تدر عليه الكثير من الأموال.

على جميع حوائط غرف المرسوم تنتشر لوحات فنية لعظام الرسامين، وفي منتصف كل غرفة لوحة كبيرة موضوعة على قائم خشبي، وبجانبا الألوان والريشات، وأمامها المقعد الخاص بالرسام. وعند النظر إلى نوافذ هذا المرسوم العتيق يظهر من زجاج النوافذ منظر خلّاب لنهر صغير أمام المرسوم وتظهر سلاسل الجبال بلون فضي على البعد.

سأله آدم عن كثرة الغرف فأخبره بأن معظم كبار الفنانين في البلد تأتي إلى هنا للرسم فيجلسون في الغرف، لكن آدم وعلى الرغم من تخصيص بيكاسو لغرفة له في هذا المرسوم الرائع كان لا يستهويه الرسم إلا في الهواء الطلق في ظل الطبيعة البكر التي دوما ما توحى له بعظيم الإلهام، فيبدع الكثير من اللوحات الرائعة، لكنه على الرغم من ذلك كان يأتي إلى المرسوم ليتعلم الكثير عن أصول الرسم من الفنان بيكاسو.

كان بيكاسو فنانا عظيما من القلائل الذين مازالوا على قيد الحياة، كان من الذين يحملون شعلة الإبداع والفن على الرغم من أنه لم يتعد الخمسين من عمره، لكنه كان موهوبا منذ نعومة أظفاره، كما كان واسع الإطلاع وشغوفا بالإطلاع على جميع أشكال الفنون المرئية والمسموعة، ومتذوقا ماهرا للفن شديد الولع بالعلوم والقراءة عموما، وهذا ما جعل آدم يلتبس منه العون والمدد ليتعلم من ذلك البحر الواسع ومن سعة ثقافته، ولعله يكتسب الخبرة اللازمة منه في شتى موضوعات الفن والرسم خاصة.

كان كثيرا ما يتناولوا بالمناقشة العديد من الموضوعات العلمية والدينية والفنية وغيرها من الموضوعات الاجتماعية والنفسية، ولقد تعلم آدم منه الكثير في ظل وجوده بجانبه.

قال له بيكاسو ذات مرة: الفن يكشف عن حقيقة الوجود الإنساني

وعندما سأله آدم عن كيفية ذلك أخذه في جولة ليشاهد اللوحات المعلقة على حوائط المرسوم، وتوقف أمام لوحة تصور حذاء باليا لفلاح رسمها رسام عظيم، وشرح يشرح له كيف تتكشف من خلال هذه اللوحة عالم صاحب الحذاء بما فيه من شظف العيش والشقاء، وكذلك تنبعث من خلال العمل الفني أضواء تكشف عن حقيقة وجود الإنسان.

تعلم منه آدم أن يُنعم النظر جيدا أي عمل فني يُعرض عليه حتى يتسنى له أن يغوص في أغوار العمل الفني وضرب له مثلا لبعض الشخصيات المسرحية والفنية التي لم توجد قط في الواقع، لكن براعة مبدعها تقنعك بوجودها.

كان من طبيعة بيكاسو عندما يضرب له الأمثال يأخذه في جولة ليرى بأم عينه ما سوف يتحدث معه عنه، فتارة يذهب معه آدم إلى معارض الفنون ليطلع على اللوحات الفنية، وتارة إلى دار الأوبرا ليستمتع إلى الموسيقى، ويُخبره كيف يستمتع بالموسيقى، وكيف يقرأ الأعمال الموسيقية، وكذلك يصحبه إلى المسرح ليشاهد المسرحيات ويعرف كيف يُقيّمها.

بدأ آدم شيئا فشيئا يتحصل على خبرة كبيرة لم يعهدها في سابق عهده فأصبح شديد التركيز في كل عمل حتى في حركات الممثلين على المسرح، وتعبيرات وجوههم، وطريقة نطق كلماتهم وغيرها، وراح يُحلل الموسيقى التي يسمعها، واكتسب بذلك معرفة عظيمة في هذه الفترة الصغيرة التي قضاهَا مع هذا الفنان العظيم.

كان بيكاسو مسيحي الديانة لكنه ليس بمؤمن عظيم الإيمان، ومن خلال حديثه معه كان آدم يشعر تارة أنه متدين شديد الإيمان. وتارة أخرى يشعر وكأنه ملحد شديد الإلحاد فلم يستطع أن يعرف بالضبط أي شخص هو.

هل هو ذلك الذي يشعر بالحضرة الإلهية، ويعرف جيدا بوجود الإله، أم أنه ذلك الكافر بكل القيم والأخلاق؟ فطبيعة حياته كانت متناقضة حقا، ولما سأله عن سر ذلك

قال له: من الأفضل أن تكون إنسانا لا يشعر بالرضا عن أن تكون خنزيرا يشعر بالرضا، ومن الأفضل أن تكون سقراطا لا يشعر بالرضا عن أن تكون أحمقا يشعر بالرضا، وإذا كان الخنزير والأحمق لهما رأي مختلف فإن ذلك يرجع إلى أنهما لا يرون الأمر إلا من زاويتيهم فحسب، هكذا تحدث أحد الفلاسفة.....

أما أنا ففي بعض الأحيان أشعر بأني إنسان، والبعض الآخر أشعر بأني خنزير
قال له آدم: أليس في هذا تناقض بين؟

- ومَن منا ليس فيه تناقض، فالتناقض سر الحياة، أليس كذلك؟

- لم أعد أفهمك يا سيدي

- من الأفضل لك ذلك

- كيف من الأفضل لي ذلك، أنا أريد أن أعرف

- حينما تطلعت في ذاتي معرضا نفسي للخطر لم أعرّسوى على ليل وضباب
وهاوية

- إذن أنت لا تعرف نفسك؟

- وهل تعرف أنت؟

صمت آدم قليلا وبعد لحظات قال له: لا

قال له بيكاسو: خذ هذه الورقة، وأذهب بها لتشتري ما فيها

نظر آدم إلى الورقة التي في يده وقرأها، فوجد فيها مجموعة من الأسماء
الجديدة عليه مثل حجر الياقوت، والصمغ العربي، وكبريتيد الزئبق، وزيت
الكتان، وعظام سوداء

فنظر إلى بيكاسو مبتسما وقال: أسنحضر عفريتتا بهذه الأشياء؟

ضحك بيكاسو وقال: لا يا بني تلك أسماء الأدوات التي سأعلمك كيف
تستخدمها، فأنت ما زلت تستخدم الأقلام في الرسم. اذهب الآن واحضر هذه
الأشياء وعد سريعا، فالיום سأعلمك الرسم الحقيقي...

هرول آدم إلى الخارج ليحضر هذه الأدوات، وعاد سريعا وبدأ بيكاسو في
تعليمه جميع أشكال وطرق الرسم من الرسم بالريشة إلى الرسم بالأحجار،
وتعلم آدم كذلك كيفية استخدام جميع ما في الطبيعة من ألوان ليرسم بها،
وتحصّل أخيرا على خبرة أخرى في مجال الرسم الذي يعشقه.

كان ميلاد في ذلك الوقت منشغلا بعمله الجديد في معامل شركة الطاقة
العالمية، وجد هناك الكثير من العلماء الأفذاذ الذين يعملون معه في معامل
هذه الشركة، فاكسب منهم هو الآخر خبرة كبيرة في مجال عمله، وأصبح لقاء

الأصدقاء قليلا جدا يكاد يقتصر في بعض الأحيان على ساعة واحدة أو ساعتين في أيام العطلات.

مرت شهور طويلة على هذا الحال، وأدم منشغل بالرسم مع الفنان بيكاسو، وميلاد بعمله الجديد، تعرف ميلاد على جميع العاملين معه، كما علم الكثير عن خبايا العمل، والمشروعات التي تقوم بها الشركة، وبسرعة شديدة تمت ترقيته في عمله نتيجة لمجهوده العظيم الذي كان يبذله، وتفانيه في العمل، وكان وقته مُقسما بين العمل والقراءة في منزله أو مشاهدة التلفاز.

تقابل آدم معه في العطلة وسأله آدم حينها عن سر انشغاله في العمل هكذا، فابتسم ميلاد وقال له: إنه ذلك الساحر العجيب يا صديقي

سأله آدم متعجبا: أي ساحر هذا الذي أخذك مني؟

- إنه الميكروسكوب

ازدادت دهشة آدم فقال: ميكروسكوب؟!!

- نعم، فأنا أعمل على الميكروسكوب، فمن خلال تلك الآلة العبقريّة كنت أُشاهد عالما عجيبا من المخلوقات، موجودة حولنا لكنها مستترة عن أعيننا، في طفولتي أهداني جدي ميكروسكوبا قديما احتفظت به في صندوق خشبي، رأيت من خلال هذا الجهاز القديم ألوان أجنحة الفراشات، وكان ميكروسكوبي النحاسي القديم جميلا، لكنه لم يكن في الحقيقة من نوع جيد إلى أن غضب مني والدي يوما ما، وحطم هذا الميكروسكوب.

بكيت كثيرا على فقدانه، وقد مات جدي وقتها فلم أعرف طريقا لكي أشتري واحدا آخر غيره، ومرت السنين وقد نسيت هذا، واهتممت بأمور أخرى.

أما الآن ففي معلمي في الشركة ميكروسكوب أفضل بكثير مما كان معي وأنا صغير، كنت أحلم دوما بأن أنظر في ميكروسكوب كبير كهذا، وأرى خلايا دمي، فلم يكن قد تسنى لي رؤيتها من قبل، فأصبحت أقضي وقتي في النظر إلى أشياء كثيرة من خلال عدسة الميكروسكوب، فأرى حياة أخرى تأخذك بعيدا.

- أهكذا إذن

- وأكثر من ذلك، يا صديقي نحن نفكر في أنفسنا كفرد واحد، إلا أن الحقيقة هي أننا مزيج من فرد واحد كبير جدا مع مالا يُحصى من ملايين الأفراد الأصغر التي تعيش علينا وبدخلنا

- إذن أنت قد توصلت إلى أن لنا أصلاً واحداً؟

نظر ميلاد إلى الشجرة الكثيفة الأوراق التي توجد بجانبهم ثم أشار لأدم وقال له: انظر إلى هذه الشجرة بفروعها المتعددة، كيف كانت قبل أن تتفرع هكذا؟

- كانت برعمة صغيرة

- أي أن كل هذه الفروع التي تراها كانت ذات أصل واحد ذات يوم، أليس كذلك؟

- بكل تأكيد

- اعتقد أننا كبشر مثلها تماماً، فلو عدنا إلى الوراء سنجد في النهاية أننا ننحدر من سلف أبوي واحد لكل الذكور وبنفس المنطق فأنا من سلف أموي واحد ننحدر من امرأة واحدة، لو أننا نظرنا إلى أعداد البشر في هذا العصر سترى كم هي ضخمة، وإذا رجعنا إلى الوراء قليلاً سنجد أن الأعداد كانت أقل، وهكذا إلى أن نعود إلى أصل واحد لكل البشر لم يكن هناك سواه، كفى حديثاً عن العلم وقل لي الآن ما هي أخبارك، وماذا تفعل الآن؟

- لقد تعلمت الكثير في تلك الفترة الفائتة، أنت تعلم جيداً كيف أنني لأعوام كلما رأيت شيئاً أثري أرسمه على الورق مهما يكن ذلك تافهاً، والآن وللمرة الأولى أجلس مع نفسي، وأتساءل أيمكن أن يكون هذا هو سبيلي؟.....

كدت أن أنسى أن أقول لك أنني تقابلت مع بيكاسو هذا الفنان الرائع، وهو شخص واسع الصدر ذو سعة من العلم فنان بحق، تعلمت منه الكثير بشأن كل شيء، تحدثنا عن الفن والأدب والحياة، وفي بعض الأحيان نتحدث عن العلم

- عدنا ثانية لموضوع العلم، ألن تتركني في حالي؟

- أصبحت أتمثل العلم الآن أيها العالم الجليل؟

- اعتبر نفسي طحلباً صغيراً في بحر العلم الواسع، هل تعرف أن في العلم فن

رد آدم مازحاً: كذلك للفن علم

قال ميلاد: هناك أوجه تشابه دائماً بين العلم والفن، فالعالم لا يملك إلا أن يشعر بوجود الجمال، فعندما يقوم بتجربة علمية، تراه يشعر بمثل ما يشعر به الفنان الذي يرسم لوحة، وكما أن البساطة هي سمة أساسية في الفن، فهي كذلك في العلم.

العلماء يلتمسون البساطة والجمال في نواويس الطبيعة، فالطبيعة أبسط كثيراً مما تبدو في ظاهرها، وإذا أبصرت لوحة جميلة ستجد أنها جميلة لأنها

تتميز بمجموعة من الصفات كالتناسق والتناسب والوضوح، وتلك العناصر
نلاحظها أيضا في أجمل النظريات العلمية

- إذن العالم والفنان يُنشدان الجمال لكن عبر دروب مختلفة، أليس
كذلك؟

- بكل تأكيد

ثم أطرق ميلاد للحظات ثم قال: لقد تذكرت !

- تذكرت ماذا؟

- تعرف الدكتور عابر؟

- بالطبع أعرفه ماذا به؟

- لقد علمت أنه يعمل كعالم منتدب في الشركة التي أعمل بها، ويحضر
يومين كل أسبوع لبعض الاستشارات العلمية، ولقد قابلته ذات مرة هناك،
وتحدثت معه كثيرا، وسألني عنك

تعجب آدم وقال له: وما علاقة مجال الدكتور عابر بشركة الطاقة العالمية؟

- هذا ما لا أعرفه حتى الآن، فهو لم يخبرني بشيء

- إذن هو يعمل بشركتك، وفي الجامعة، والمستشفى..... يا له من شخص
مجتهد

- بالفعل وشخصيته عظيمة، ما رأيك أن نُحدد موعد معه ذات مرة لنلتقي
به

- لا مانع لدي..... لكنه لا يملك الوقت لذلك

- على أية حال سأحدثه في هذا الأمر

- نسيت أن أخبرك بأني سأشارك في معرض فني يقيمه بيكاسو الشهر
المقبل، وجعلني أشارك فيه بلوحة واحدة فقط من لوحاتي كنوع من الدعم
والموازة

- ألف مبروك لقد أسعدتني بهذا الخبر العظيم

عاد آدم إلى غرفته في قصر خاله يُقلب اللوحات التي رسمها يمينا وشمالا حتى يختار منها واحدة كي يعرضها في معرض بيكاسو، كان حائرا بشأن أيها سوف يتقدم به، وهو يريد أن تكون أفضل أعماله، وأحسنها على الإطلاق فتلك الفرصة لا تسنح للكثير من الفنانين، وقد أتت إليه على طبق من ذهب، وهو مازال حديث التخرج وفنانا مبتدئا، ولحسن حظه أنه تعرف على فنان كبير مثل بيكاسو، ليتعلم منه أصول ذلك الفن، ويأخذ بيده إلى عرض أولى لوحاته في معرض كبير من معارضه.

بدأ يفتش في لوحاته عن لوحة جذيرة بالعرض، وقعت عيناه على لوحة رسمها بعد رحيل والدته يُمثل فيها موقف وداع جرى بين ولد وأمه على شاطئ البحر حيث كانت الصورة في خلفيتها مدينة تهار على إثر زلزال مدمر، وعلى شاطئ البحر يجلس الولد حاملا أمه بين ذراعيه ويبيكي.

كانت الصورة تحمل الكثير من مشاعر الحزن والأسى، وكان الموقف مُحزنا بحق، كما أن آدم أحسن تمثيله على الورق، أمسك هذه اللوحة، ووضعها جانبا حتى يتسنى له العودة من جديد إلى اللوحات الكثيرة، ويختار بعضها منها، ثم يُقيم مقارنة بين اللوحات التي سيختارها، لكنه كلما أشاح لوحة من لوحاته جانبا وقعت عيناه على تلك اللوحة التي كان دوما يرسمها من خياله.

تلك الفتاة التي لم يرها من قبل، كان هناك الكثير من هذه اللوحات التي تحمل هذا الوجه، أخذ من تلك اللوحات أحسنها، ووضعها بجانب الأخرى التي اختارها سابقا، ثم أزاح جميع اللوحات الأخرى، وطفق ينظر إلى هاتين اللوحتين، ولما اشتدت عليه الحيرة، أي واحدة سيُقدمها؟ أمسك بالاثنتين، وذهب بهن إلى بيكاسو وهو عاقد العزم على أن يلتبس منه طلبا بعرضهما معا.

دخل المرسم فوجده يقف أمام شخص لم يره جيدا لأنه كان يُعطيه ظهره، وكانا يتحدثان، وقف بعيدا ينتظر انتهاء الحديث، لمح بيكاسو فأشار إليه أن ينتظر هناك، راح آدم يتفقد اللوحات في المرسم حتى ينتهي بيكاسو من حديثه مع ذلك الرجل، ورنأ إلى سمعه حديثهم فسمع ذلك الشخص يقول: أسفي الوحيد هو عدم مقدرتي على إقناعك بأن لوحاتي دليل على موهبة فنية عظيمة

فيرد عليه بيكاسو: حب الفن، ومسك الريشة لا يصنعون منك فنانا، تحتاج لغموض وإيمان معين، تحتاج لشيء لا تملكه

ارتفع صوت الرجل عالياً وهو يتحدث قائلاً: إنها المرة الثالثة التي أتيتك فيها لتُعرض لي لوحة في معرضك وترفض

- أنا أسف، لكنك لست بفنان، أنت تريد الشهرة فقط، ولا علاقة لك بالفن

صرخ الرجل في وجه بيكاسو وقال: هل تعرف الفن؟ هل تود التحدث عن الفن إنه كذبة، هل ترى تلك اللوحات التي ترسمها؟

الناس في لوحاتك حزاني غريباء كما في الواقع، لوحاتك تصور العالم جميلاً وهو ليس كذلك.... لذا فإن معرضك كذبة، وجميع المعارض كذبة، والجميع يحب الكذب.

وأشار الرجل إليه بسبابته وقال له: انظر إلى نفسك في المرأة، انظر جيداً ستجد أنك أنت الآخر كذبة، كذبة كبيرة تتمتع بالشهرة والمال، ولكن لا فن هناك

وتركه الرجل غاضباً وغادر وأغلق باب المرسوم بشدة كادت أن تُطيح به، بعد قليل تقدم آدم إلى بيكاسو وحياه ثم دعاه للجلوس وهو يبتسم في وجهه قائلاً: ماذا كنت تريد؟

قال آدم: قل لي ماذا يحدث أولاً، ولماذا يصرخ هذا الرجل هكذا؟

- لا تشغل بالك كثيراً بهذا، فأنا على موعد باستمرار مع هؤلاء، كلما اقترب موعد المعرض فيأتي إليّ الرجل ومعه لوحاته لأقوم بعرضها في معرضي - وهل ترفض باستمرار؟

- لا بالطبع، فإذا وجدت موهبة عظيمة أساعدها.... مثلك أنت، قل لي لماذا أتيت الآن فليس هذا من عاداتك؟

- جئت لأطلب منك معروفاً، ولكن بعد الذي رأيته صرفت نظري

- قل لي ما هو المعروف؟

- لقد أتيت لأطلب منك أن أعرض لوحتين بدلاً من واحدة، ولما رأيت ما حدث غيرت رأيي

- لا، بالنسبة لك لا مانع لدي إطلاقاً سأعرض لك لوحتين

- ولماذا أنا؟

- أنت موهوب يا فتي.... كما أنني في الحقيقة لدي مكان فارغ للوحة لم أشأ أن أعرضها لعدم رضاي عنها، فلتأتي بلوحاتك وسأعرضها لك.

وصل آدم إلى معرض الرسم في يوم افتتاحه فعرض رسمه هناك، عرض اللوحتين اللتين أختارهما، وتفقدا باقي اللوحات المعلقة على الجدران فأعجب بها أشد العجب، فلم يكن بيكاسو يُعرض أعماله على أحد قبل أن يُعرضها في معرضه. وحينما رآها آدم مُعلقة على جدران المعرض انهبر بما تحويه من جمال وروعة. لكنه وجد لوحاته هو تُعرض في ركن منزو من أركان المعرض، فأصابه الضيق لذلك الفعل.

سأل عن سر عرض لوحاته هكذا مدير المعرض الذي كان يتفقد تنظيم المعرض في ذلك الوقت، أخبره أن الفنان العظيم بيكاسو يُخصص في معرضه كل سنة ركنًا خاصًا للفنانين المبتدئين، وقد تعجب هو الآخر لعرض لوحتين في هذا العام، فمن عادة بيكاسو أن يُعرض لوحة واحدة فقط.

قال له آدم: إنني مَن ألححت عليه، وطلبت منه ذلك

لكن مدير المعرض نظر إليه بازدراء وقال له: مَن أنت حتى يعرض لك بيكاسو لوحتين؟

فعرفه آدم على نفسه قائلاً: أنا آدم

لكن الرجل قال له في ابتسامة: لم أقصد ذلك؟ فأنا لم أقصد اسمك بالطبع.... أنا أقصد شخصيتك، لعلك ذات قرابة به؟

- لا على العكس.... أنا لست على صلة قرابة ببيكاسو، لكن مَن عرفني إياه هو خالي

- ومَن خالك إذن؟

- جلال الديب، أتعرفه؟

- جلال الديب السياسي المعروف

- بالضبط

ابتسم مدير المعرض ابتسامة تحمل الكثير من السخرية وقال له: إذن فهمت القصة

قال له آدم متعجبا: لم أفهم مقصدهك

- أنت ولد طيب لكنك ستعرف لاحقا، فمازلت فتى غض لم تُعلمك الحياة بعد.

غادر آدم من أمامه ليتفقد باقي لوحات المعرض حينما بدأ جمهور المشاهدين يتوافدون واحدا تلو الآخر إلى داخل المعرض، لكن الغريب الذي لاحظته آدم أن الناس لا تُحدث ضجيجا كعادتها في كل المعارض، فهي تدخل في صمت، وتقف أمام اللوحات المعروضة لتُشاهدها في صمت وسكون لم يقطع ذلك الصمت سوى خطى أقدام الداخلين والخارجين.

توقف آدم لبضع دقائق بعيدا، وهو يشاهد الجميع حتى ازدحمت صالة العرض، كان مدير المعرض يقف على عتبة الباب لاستقبال الزائرين فهم من عليّة القوم، اقترب منه وسأله عن ذلك الصمت الذي يعتري المكان فقال له: ذلك الصمت والسكون لا يوجد فقط سوى في الغرف التي تُعرض فيها الأعمال الفنية، أما في صالة العرض العام فتجد أحاديث الناس الجانبية والنميمة تنتشر في هواء المكان

قال آدم: أي أسألك عن الصمت بداخل الغرف ليس في الخارج فلماذا؟

- يا ولدي، يُخيم الصمت على المكان، وتصمت الألسنة عن الكلام إذا كان المرء واقفا في غرفة تعج بالأعمال الفنية الرائعة

قطع حديثهم دخول بيكاسو وما أن وطئت قدماه أرض المعرض حتى سارع الناس إليه لمصافحته، وبعد أن هدأت الضجة، قام بيكاسو بالمرور على اللوحات المعروضة، والحديث مع الجمهور، انطلق ناحية آدم ووقف ليتحدث معه، أخبره آدم بما دار بينه وبين مدير المعرض.

قال له بيكاسو: في الحياة العملية ستتعلم الكثير، وستتقابل مع الكثير، وتستمع إلى مختلف الآراء والأفكار، وأنت حينما تتحدث إلى مُدراء المعارض تراهم يتصرفون كالقوادين

- وماذا بشأن هؤلاء الناس؟

- تقصد عليّة القوم؟! قالها بسخرية

- نعم

- إنهم قطعان من الماشية تسعى دائما لشراء الأعمال الفنية للاحتفاظ بها
ثم بيعها بعد ذلك في المزادات الفنية

- وماذا عن النقاد الذين يشاهدون أعمالك الآن؟

- النقاد يخوضون مع الخائضين، ويركبون الموجة تلو الأخرى،... هذه هي
القصة يا فتي باختصار فلا تشغل بالك كثيرا لما يُقال، وركز في عملك فقط.

مع حلول منتصف النهار شعر آدم بالجوع. فذهب إلى الخارج لتناول بعض
الأطعمة السريعة والعودة مجددا، وبعد انتهائه من تناول الطعام عاد سريعا إلى
المعرض وحينما دخل المعرض ثانية، ونظر ناحية الركن البعيد الذي تُعرض فيه
لوحاته، والتي لم يعرفها أي شخص أدنى اهتمام، ولو حتى بالنظر، إذا به يرى
شخصا يقف أمام لوحته عن الفتاة فشعر حينها بالغبطة والسعادة.

تلك هي اللحظة الحاسمة التي انتظرها طويلا. واليوم سوف تُباع أولى
لوحاته، كان يُمني نفسه بذلك حتى خُيل إليه وهو سارح في خيالاته هذه أنه
أسعد أهل الأرض جميعا، وأن هذا اليوم هو أول يوم هبط فيه عالم الوجود.

تقدم ناحية اللوحة بخطى مرتقبة يمشى الهوينا ناحية الشخص المائل أمام
لوحته. وما أن وقعت عيناه على ذلك الوجه حتى أطاحت به صدمة شديدة
زلزلت كيانه كله. ولم يستطع حينها حراكا ولا حتى أن ينطق ببنت شفه، إنها
هي، نعم هي ببشرتها البيضاء بياض الثلج، وحواجبها المزججة، وكحل عينيها.

إنها بالضبط من رسمها تقف الآن أمام صورتها، وبعد لحظات من الصمت،
ومحاولة استجماع شتات نفسه حياها آدم وقال بلا مقدمات: هل تعلمي أنه
عندما يدخل شخص جذاب إلى مجال بصرك يتوسع بؤبؤ العين إلى عشرين
بالمائة، وعندما يُغرم أحد بشخص فإن الدماغ تنغمر بالدوبامين؟ هل تعرفي ما
هو السبب الآخر لذلك التفاعل الكيميائي؟.... إنها المخدرات

ابتسمت ضاحكة وقالت له: هل تعرفني؟

- أنا من رسمتك؟ وتلك هي لوحتي

- هل رأيتني من قبل؟

- كثيرا

- أين؟

- في خيالي، وفي أحلامي

- إنه شيء غريب... أليس كذلك؟

- إنه أغرب ما حدث لي طوال حياتي، هل تمانعين في جولة لمشاهدة اللوحات؟

- لا على الإطلاق

كانت تمشي في دلال، وتدق الأرض معتزة، وعندما تحدثت فصوتها الرخيم أنشد الأناشيد، كان صوتها ذا ألحان تُحرك الحجارة، ووجهها المستدير يكسبها جمالا على جمال، وشعرها المنسدل يتحرك وراءها في رقة ونعومة.

اصطحبها آدم إلى مشاهدة اللوحات، ولما انتهت أخبرته أنها تريد أن تشتري تلك اللوحة التي تصورها فانفجرت أساريره باسمه وقال لها: لن تشتريها

تعجبت وسألته: ألن تبيعها؟

- بل سأمنحها هدية

- لمن؟

- لك

- ولما كل هذا؟

- لأنني أحبك

تعجبت وقالت: بهذه السرعة

- ليس في الحب زمان

- أشكرك كثيرا على شعورك، فمن الواضح أنك تحت المزاح كثيرا

- لست أمزح.... لكنني أشعر بالرضا والسعادة الآن، بعد أن وجدت شخصا كان دوما يحيا في خيالي ثم على الورق، وكنت منتظرا بفارغ الصبر أن يُمسي حقيقة واضحة. وما أنا الآن أقف أمام ذلك الشخص الذي طالما حلمت به، وتمنيت أن أقابله، أخبريني لو كنت مكاني... أكنت تتركه؟

- بالطبع لا، قصتك غريبة، ولم أكن أصدقها لولا أنني رأيت صورتني في

معروضك

- ما أسمك؟

- لم تعرفه بعد؟

- لا لم أعرفه

قالت بدلال: ولا حتى خيالك أخبرك عنه؟

ابتسم آدم وقال: ولا حتى خيالي

- ديانا

- وأنا آدم. حسنا إلى أين أنت ذاهبة هذه الليلة؟

قالت باسمه: السؤال الدائم، أين نذهب؟ أين كنا؟ ما معنى الحياة؟.....
أريد أن أذهب إلى القمر وأعود

ضحك آدم وقال: إذن لنذهب سويا في المساء

وتبادلا أرقام هواتفهما ثم أوصلها إلى باب المعرض لتعلن رحيلها بعد أن
حصل منها على عنوان منزلها ليُرسل لها اللوحة.

كان ذلك الموعد هو الشعلة الأولى التي أشعلت لهيب القلب بنيران الحب
من جديد، لقد دق الناقوس مُعلننا بداية اللقاء الأول، تلك اللحظة التي خفق
فيها القلب بشدة، نظر إليها بابتسامة فبادلته بواحدة أخرى دون أن تتفوه بأي
كلمة.

رأى عينها وهي تجوب أنحاء المكان، وتنظر إليه في خجل تارة، وإلى الأرض
تارة أخرى، كانت العيون مع القلوب في مناجاة طويلة، لم يقطع مناجاة القلوب
في لحظات الصمت هذه إلا اقتراب آدم منها وهمسه بأذنها قائلاً: أحبك.

لم يشعر بمثل شعوره هذا من قبل حتى مع حبه الأول سلاف، لكن هذا
الشعور مختلف، غير كل ما شعر به من قبل، تفكر كثيرا وعادت به الذكريات
إلى زمن مضى، وقت أن كان يحب في المرة الأولى.

لم يعلم لماذا أمسكت به الذكريات لتعود به إلى حبه الأول في هذه اللحظة
الرائعة، وفي هذا الوقت بالذات؟.

كانت ذكرى سُلّاف تأتية حاملة معها ورودا وأشعارا، وبقيّة باقية من أيامها معه، تساءل في نفسه أيّمكن أن يكون الشعور واحدا، أو أن هذا الحب مثل ذلك؟

فعلى الرغم من مرور سنوات طوال على قصة حبه الغائبة إلا أنه شعر أنها حاضرة في كل لحظة، لكن مع ديانا الأمر مختلف، فهو يرى ذكرياتها الآن كمن ينظر من نافذة قطار مسرع، يراها نائية وجميلة.

مرت الذكريات به سريعا حتى عاد إلى واقعه بعد أن تركها خلفه، كانت لحظات ثمينة غالية، تلك الأوقات التي تمر مر السحاب لا يشعر بها إلا كمن يشعر بنسمات الربيع الرقيقة وهي تلفح الوجه في يوم قانظ، إنها تمر سريعا.... كل لحظة لن تتكرر ثانية، كان من قبلها يشعر وكأنه يغوص في ظلمة قاحلة مثل الغريق إلى أن جاء الحب فأحيا ما مات من قلبه المكلوم الحزين.

عندما تفوه بكلمة أحبك انتابتها حمرة الخجل، وتحول وجهها إلى جمرة مشتعلة حينما سمعت تلك الكلمة التي خرجت من ظلمات حنجرتها، وأطرقت رأسها إلى الأرض.

كان اللقاء الأول قصيرا أو هكذا كان يعتقد فلقد كان يريد الكلام، والحديث عن أشياء شتى، وهي كذلك لكن تحجرت الشفاة، ولم تستطع النطق بمكنون القلب العليل، كان لقاء بين العيون والقلوب.

تفحص وجهها جيدا، ورأى عن قرب تفاصيله المألوف له، وكأنه يعرفها منذ سنين طوال، يحمل وجهها البشاشة والهدوء والسكينة. هدوء ملامحها وبساطة معالمها جعلته يعتقد أنه لم ير هذا الجمال من ذي قبل أما صوته من خلال تلك الكلمات القليلة التي نطقت بها فحمل له الكثير من الدفء والحنان والرغبة. ففي هذا اللقاء البسيط العابر سمع أروع الأصوات والألحان، ورأى فيها أجمل وجوه الكون، ورأى أيضا بديع خلق الإله.

بعد ذلك اللقاء اعتلت البسمة وجهه بعد أن غابت طويلا، وعاد ليشعر بروعة الحياة وجمالها، وبدأ ينسى ماضيه الأليم وفقدانه الأحباب، انطلق ليرسم من قلبه، فرسم أروع وأعظم اللوحات التي صدرت عن قلب يحب، هكذا كان الحال وهكذا توالى اللقاءات.

علم صديقه ميلاد بقصة الحب الجميلة تلك التي يعيشها آدم، ويعيش معها أزهى فترات حياته، ولمس تغير أحواله، وشعر بأنه قد امتلك السعادة

الحقيقية، وذات مرة والصديقان يجلسان على قمة الجبل كعادتهم دائما لم يكف آدم عن الحديث عن ديانا، وعن سعادته معها، وعن قصة الحب العظيمة التي جمعتهم سويا.

ابتسم ميلاد وقال له: الحب يا صديقي كالعقاقير المخدرة تماما

ضحك آدم وقال له: لقد حولت الحب إلى كيمياء

- إنه بالفعل كيمياء، فالحب يتشابه في عمله في الدماغ مع بعض حالات الجنون إذ يخرج كل منهما عن المنطق والعقل

قال آدم باسمًا: إذن الحب مرض يا دكتور؟

- بكل تأكيد

قال له: وهل ستكتب لي العلاج يا دكتور؟

ضحك ميلاد وقال مازحا: لا تقلق فلسوف تعيش

صرخ آدم في وجهه ساخرا: كفاك كفاك، لا يمكنك أن تحشر العلم في كل شيء، لقد شوهت تلك اللحظات الجميلة بهذه الكلمات

ثم نهض من مجلسه وارتفع صوته عاليا وهو ينظر إلى هذا المنظر الخلاب الذي يحيط به، وأشاح بنظره ناحية ميلاد، وبدا وكأنه سوف يخطب قائلا: ما لكم أيها العلماء تحشرون أنوفكم في كل شيء، فتتحدثون عن الحب كما تتحدثون عن المرض والعلاج، لن أسمح لكم بوضع الحب تحت المجهر، ولن أقبل بتشريحه، اتركونا نستمع بلحظات الحب السعيدة. بدلا من أن تُعكروا علينا صفو هذه اللحظات.

ونظر إلى ميلاد وقال له: عليكم يا أهل العلم أن تعترفوا بأن الحب سر إلهي أبدي، عال على الزمان، وعلى مجاهركم.

ضحك ميلاد عاليا ووضع يده على كتف آدم وصحبه إلى الأرض

ونظر إليه والابتسامة لا تفارق وجهه وقال له: حسنا أيها الشاعر الفنان سنصمت لكي نستمع لك، لكن عندي سؤال؟

- اطرح سؤالك؟

- هل هناك سبيل لفهم معنى للحب، ألا يحق لنا أن نناقش مشكلة الحب؟

رد عليه آدم منفعلا: لماذا تصر دائما على أن الحب مشكلة، إنه الحل
الأوحد لجميع المشكلات.

كان آدم يعمل على لوحاته، وكان لديه الكثير من أوقات الفراغ التي يستغلها
في المحادثات الطويلة مع ديانا، أو الخروج للتنزه معها، عرف كل منهما عن
بعضهما الكثير، وبدأت الشخصيتان تظهران كالصفحة المفتوحة في كتاب
الحياة، فهما قد تحدثا عن كل شيء تقريبا.

راح الملل يتسلل إلى العلاقة، والرتابة تقوم بدورها الفعال في إثارة حدة
السأم، مرت الشهور الطويلة على علاقتهما معا إلى أن دبّت المشكلات بين
العاشقين، وبدأت الخلافات تطفو على السطح، وسرعان ما شعر المحبان
بالمعاناة، واكتشف آدم أخيرا الوجه الآخر لتلك المحبوبة التي خلبت لبه.

شعر بالضباب يحول بينه وبين رؤيته الحقيقية، فطالما اقتنع أن مرآة الحب
عمياء، لكنه اكتشف بعدما أنعم النظر إلى كلمات ديانا وتصرفاتها وسلوكها عن
قرب أنها ليست الملاك الذي رسمه في مخيلته والذي طالما حلم به، أدرك أنها
كانت صورة جميلة على جسد رشيق، دائما ما كان المظهر يخدع، كان يعتقد أن
داخلها كخارجها، لكنه وجد بالداخل فراغا كبيرا بداخل ذلك التمثال الجميل
الذي تنعم برؤيته عندما تراه، لكنه أولا وأخيرا مجرد تمثال.

كان اهتمام ديانا بالمظهر يفوق الوصف، وحديثها عن الحب والمعاني
السامية الراقية انقلب إلى الحديث عن أحدث خطوط الموضة والأزياء والأغاني
الجديدة والأندية الاجتماعية وحياة رجال الأعمال والثراء والبزخ والأموال،
وكيف أن الإنسان لا بد وأن يكون هدفه في الحياة هو الحصول على معيشة
مُترفة، ويعمل جاهدا لكي يُوفّر لنفسه سبل الراحة، تلك هي السعادة من وجهة
نظرها، وكما كانت تراها دائما.

صُدّم آدم حينما رأى أن ذلك الشخص الذي أحبه من جميع جوارحه ليس
هو ما تخيله وليس هو ما يريده، فالعاشقان لم يصمدا طويلا على قمة الحب
الشامخة، لقد استيقظ هذا المحب البائس المخدوع على تلك الحقيقة الأليمة
المرّة، ورأى أن الإله الذي كان يعبده لم يكن سوى مخلوقا بشريا تافها.

كانت ديانا من طبقة ثرية جدا، ولا حديث في هذه الطبقة إلا عن مثل تلك
الأشياء التي تتحدث عنها ديانا باستمرار، كانت ابنة وحيدة لرجل أعمال كبير،

يملك ثروة عظيمة. وقد اعتادت على العيش برفاهية، فتمنى أي شيء فيتحقق لها في التو واللحظة، وكان آدم على النقيض من ذلك فهو لم يعر المال اهتماما في حياته، بل لا يكاد يفكر فيه، وما كان يشغل عقله دوما قضاياها الكبرى عظيمة الشأن، وبحته الدءوب عن سر الحياة، وأفكاره عن الحياة والوجود والموت والإله.

تنافرت الطرق بينهما واختلفت الأفكار والاهتمامات، كان الحب يُمثل عنده أفكارا قيمة وآراء جميلة، يُنشد من وراء ذلك الحب الوصول إلى السعادة الحقة عن طريق رؤية الجمال في كل شيء، أما هي فمفهوم الحب في ذهنها كمثل ما في أذهان الغالبية العظمى من إناس تلك الطبقة المترفة.

لكنه على الرغم من ذلك كان يحبها بصدق، وأصبح يُجاربها وينفذ مشيئتها أيًا كانت، وكأن شيئا ما يُحركه ليفعل أفعاله هذه تجاه ديانا، لا يدري ما هو، لقد غاب عقله عن الوجود وما يُحركه هو قلبه فحسب، رضخ في البداية إلى رغبات ديانا، وأصبح كالخاتم في إصبعها تُحركه كيفما تشاء بعد أن سلطت عليه أسلحة المرأة الفتاكة. وفتكت بعقله قبل قلبه، وأصبحت تسوقه بهداوة، وبدون أدنى معارضة من جانبه.

شرعت تتحدث معه عن الزواج، وكيف أنه الزوج المناسب لها، والذي تتمنى أن تظل معه طوال حياتها، إنه متناسب معها ثقافيا واجتماعيا، كما أن مظهره العام في مقدمة مَنْ ترضى بهم أزواجا بعد أن تعرفت على الكثير ولفظتهم جميعا.

كانت ترى في كثير مَنْ تقدم للزواج بها أنهم يتقربون منها لمالها، كان في جعبتها الكثير من العاشقين التي ألقت بهم واحدا تلو الآخر على قارعة الطريق، واستمرت في سيرها حتى وجدت ضالتها المنشودة في آدم، فهو يبدو لأول وهلة غريبا عن كل مَنْ عرفتهم، كما أنه يمتاز بطيبة القلب والهدوء ويسهل اقتياده، كذلك كان يتحدث إليها دوما عن الحب بطريقة كانت تعجبها كثيرا، كل ذلك مهم بالنسبة إليها، لكن أهم الأشياء جميعها أن خاله سياسي كبير رجل ذو سعة من المال شديد الثراء، كما يملك شهرة أكثر من والدها فستنعم بعد زواجها بنفس الحياة الرغيدة التي اعتادت عليها.

بعد أن أخبرت آدم بشأن الزواج عادت لتلج عليه في أن يعمل في وظيفة ثابتة بدلا من التسكع على أبواب المعارض الفنية ليرتجي بيع لوحاته، وهنا ثارت ثائرتة وغضب من حديثها عن فنه بتلك الطريقة، فاعتذرت له وأوضحت له أنها

لا تريد سوى أن تؤمن له الكثير من الأموال حتى يضمن العيش الكريم. فمعظم الفنانين في هذا العصر يعتبرون متسولين لا يملكون حتى قوت يومهم، وأنه لولا عناية خاله به ما كان هذا الحال حاله.

حاول آدم أن يهضم كلماتها القاسية ويبتلعها لكنها ظلت وراءه أياما طويلة. وهي تلح في الطلب، وطلبت منه أن يذهب إلى خاله ليحصل له على وظيفة مرموقة في إحدى شركات الدعاية والإعلان، فهو في مثل هذه الوظيفة سيمارس هوايته المفضلة في الرسم، وبعدها سيصبح محترفا بحق. كما أنه سيمتلك الكثير من الأموال.

ظل آدم لأيام لا يشغل باله ولا تفكيره سوى ذلك الأمر الذي سيقرب حياته رأسا على عقب، ذهب إلى بيكاسو صديقه الفنان، وشرع يسرد عليه أحداثه الأخيرة في قصة حبه العظيمة مع ديانا، وكان هذا اللقاء الثاني بعد أن قص عليه في اللقاء الأول كيف وقع في الحب مع ذلك المخلوق الذي أحبه

صاح فيه آدم وهو يحمل على وجهه ابتسامة قائلا له: أنت من قلت لي أن الحب لا يزهر إلا بجميل الكلام، أليس كذلك؟

ولم يمهله آدم ليرد عليه فواصل يقول: وأنت من قلت لي أترك الزوجات يطاردن أزواجهن بالعراك.... فهذا أخرى بالمتزوجين، أما المحبوبة فلا تُسمعها إلا عذب الكلام، أليست هذه كلماتك.... قل لي ما لهذا الشجار يحدث بيننا؟

رد عليه بيكاسو ضاحكا وهو يسخر منه وقال: يا ولدي أنا شاعر الفقراء، كنت فقيرا حين كنت من العشاق ولإخفاقي في منح الهدايا كنت أمنح الكلمات

قال آدم: وهل كان ذنبي أنها كانت من أغنياء القوم؟

- كلّ وله طريقته... لكن أعلم أن الحب حرب، والنصر فيه لا يتأتى للضعفاء أمثالك

ثم رفع يده عاليا واستطرد يقول بصوت جهور وهو يضحك: أريد نصيحتي؟

أجابه: نصائح مرة أخرى؟!.... وعلى أية حال تفضل

قال والابتسامة مازالت على شفثيه: عليك أن تباعد عنها قليلا كي تقلق عليك، واهجرها مليا.... وبعد فترة عليك بالعودة مجددا... ستجدها شخصا آخر غير الذي عرفته.

قاطعته آدم قائلا: ألا يكفيك مزاحا، دعنا نتحدث بجدية بعض الشيء

- أنا لا أمزح يا سيدي تلك هي الحقيقة، وبما أنها الحقيقة فالبشر لا يتقبلونها وينفرون منها، وأمثالك يعتبرونها مزاحا

- إنها لا تفكر في شيء سوى أحدث الأزياء، وثرثرة النساء في النوادي، والنميمة التي تنتشر على ألسنتهم، وفي النهاية تريدني أن أعمل في وظيفة... فما رأيك في هذا؟

- تريد منك أن تصبح جزءا من تلك الآلة اللعينة، تريد منك أن تكون آمنا، وأنت قرب القطيع.

قال آدم: كل ما أريده أن أحيا حياة بسيطة

- ليست الحياة بهذه البساطة التي تتوقعها دوما، أنت تعيش في بساطة، ولكن عندما تدخل تلك الآلة ستتغير معالم حياتك بالكلية...

- لقد أصابتي الحيرة فماذا أفعل؟ حديثك زادني حيرة على حيرتي، أقبل أن أصبح موظفا وأدخل الآلة وتستمر علاقتي بديانا، أم أرفض، وأمسي إنسانا طبيعيا وأخسر تلك العلاقة.

إنها مُعضلة سأذهب إلى صديقي آينشتين لعلني أجد لديه الحل

- مَنْ آينشتين؟

- إنه ميلاد صديقي العزيز

عاد آدم للتحدث مع صديقه ميلاد بشأن عمله في وظيفة ثابتة، فأخبره ميلاد أنه على الرغم من حبه الشديد لعمله إلا أنه يعاني ذلك الروتين الذي جعل حياته أشبه بالجحيم، فروتين عمله أسهم بشكل كبير في انفصاله عن الحياة الحقيقية.

قال له ميلاد: الكتب التي نقرأها، والأفلام التي نشاهدها، وبرامج التلفاز، الحفلات الاجتماعية، من السبت إلى السبت، من الصباح إلى المساء، من الميلاد إلى الموت، كل هذا هو ما نفعله داخل تلك الشبكة البشعة حتى نسي الإنسان أنه إنسان له كيان، له مشاعر، له ذات، عليك أن تعي جيدا أنك إنسان، والإنسان ليس له سوى هذه الحياة بكل ما فيها من مشاعر....

الروتين يا صديقي سجن لا يُطاق وقد يُصاب الإنسان بالجنون إذا لم يستطع أن يتحرر من هذا السجن البغيض.

قال آدم متعجبا: لكنك تعمل في وظيفة أيضا.... ألم تكن تعرف ذلك؟

- بالفعل لم أك أعرف، واكتشفت ذلك عندما دخلت في دوامة هذه الآلة، ولم استطع أن أخرج منها، لكنني أحاول جاهدا... لأتوحد مع نفسي ومع العالم حتى أعود آدميا مرة أخرى

- أليست بإنسان؟

- أنا الآن مجرد ترس في الآلة الاجتماعية

- ولماذا ارتضيت بهذا؟

- لم يكن أمامي اختيار آخر..... فلما أن أصبح ترسا، وإما أن أموت جوعا... وبالنسبة لك فأنت في غنى عن كل ذلك.

ظل آدم بعدها لأيام يتفكر في حياته المستقبلية، وما سيفعله وكانت كلمات بيكاسو وميلاد تدور في رأسه، فبيكاسو فنان متوحد مع الطبيعة يتعامل مع البشر والشجر والحيوانات يرسم ويبيع لوحاته، كان في نظر آدم إنسانا مثاليا، على الرغم من أن طريقته التي يعيش بها فيها الكثير مما لا يعجبه، ورغم ذلك فهو حرا طليق كالفراشة التي ترسو على أوراق النبات المختلفة، لا يفكر في غده، يعيش يومه فحسب.

على النقيض من ذلك كان ميلاد فهو يحاول جاهدا أن يتحرر ويخرج من دوامة الوظيفة، أما آدم فما زال حائرا بين تلبية رغبات محبوبته، وبين مصلحته الشخصية في الحياة بحرية، لكن أخيرا وفي الحب يتغلب القلب على العقل.

انتصر الحب على الحرية، وتقيد آدم بوظيفة حصل عليها عن طريق خاله في إحدى الشركات الكبرى للدعاية والإعلان، فأصبح يستيقظ من سباته مبكرا، ويعود عصرا وأصابته تلك الدوامة في مقتل، مرت الشهور الطويلة على حياته الجديدة وكان يتقابل مع محبوبته ديانا يوميا، لكن الحياة تغيرت تماما حتى مع ديانا فلم يعودا يتجولان في الشوارع والطرق، وعلى ضفاف الأنهار، وتحت ظلال الأشجار، وفي الأماكن الهادئة الخالية من البشر، والتي تشع منها روائح السكينة، وتحمل معها عبق الحب.

كانت جولتهما إلى أماكن الرقص والضجيج وقد اصطحبته معها إلى الكثير من أماكن التسوق التي تحبها ديانا جدا ربما أكثر من آدم نفسه، تعرف آدم على الكثير من أوجه الحياة الاجتماعية للطبقات الثرية التي كان يجهلها ولم يرض بها على كل حال، وبرغم أنه كان سابقا يعتكف في محراب الفن والتأمل وبحث عن إلهه، فهو الآن يتعبد إليها لا يرضى عنه ولا يرتضيه إليها، إنه إله المال، إله الشهوة، شهوة الطعام، وشهوة المظاهر الأنيفة، وشهوة الشراء بعد أن قامت ديانا بدعوته لديانتها، وأحكمت سيطرتها عليه، وشعر أنه في سجن محكم محاطة أسواره بالكثير من الحراس، لا يفعل فيه شيئا سوى الدوران حول جدرانها في يأس.

كانت الضغوط عليه من الخارج كثيرة، فضاع في خضم المجموع، وأصبح لا يرسم سوى ما يُطلب منه في العمل، وضاعت عبقريته الفذة وموهبته العظيمة لكنه جنى الكثير من الأموال.

انتقل من قصر خاله إلى الإقامة في شقة فاخرة استأجرها حتى يستقل بحياته عن عائلته التي كان يعيش معها، صار نسخة متطابقة من ملايين النسخ من البشر، فقد إنسانيته، أمسى بمثابة الببغاء في كلامه، وفي تصرفاته، وفي سلوكه، وهكذا اكتسب آدم طبيعة جديدة مختلفة تماما لطبيعة البشر لكنها طبيعية متوافقة مع المجتمع، طحن المجتمع فطرته النقية وإنسانيته، وشوه كيانه، جعل منه مجرد مرآة عاكسة لما يحيط به من أشياء ومؤثرات.

ذابت شخصيته الجميلة الرقيقة المتطلعة الحاملة حتى شعر ميلاد صديقه بتحوله، لم يكن ميلاد يتخيل يوما ما أن صديقه آدم سوف يُصبح على ما هو عليه الآن، ذلك الصديق الذي كان بمثابة الطير الشادي على أغصان الشجر حتى التقطته شباك المجتمع ووضعت في السجن.

ذات مرة وهو يتجول هائما على وجهه في الطرقات بلا هدف وبلا تفكير تقابل مع صديقه بيكاسو فاستوقفه بيكاسو وسأله: أين أنت يا رجل لم أرك منذ زمن بعيد... أظن منذ شهور عدة؟

- لقد انشغلت بحياتي الجديدة

- وهل انشغالك يجعلك تنسى أصدقاءك؟

قال له في أسى: سامحني فأنا الآن لا أعرف نفسي

- أرى أنك تحمل الكثير، قل لي أين تذهب الآن؟

- فقط أتجول، وإلى أين ذاهب أنت؟

- أنا ذاهب إلى مزاد علني للوحات الفنية

- ياه.... لقد فاتني الكثير، وقد اقتربت على نسيان الفن وعالمه

- إذن فلتأت معي، هيا بنا.

انطلق الاثنان وهما يتحدثان أثناء سيرهما إلى القاعة عن أحوال آدم، وكيف تغيرت إلى هذه الدرجة التي لم يعد يره فيها بيكاسو، شرع آدم في قص ما حدث له في الشهور الماضية وما أن انتهى حتى ابتسم بيكاسو وقال له: لقد قلت لك ذلك من قبل، وأنت في النهاية الذي اخترت طريقك

وصلا أخيرا إلى قاعة المزادات، اندلفوا إلى الداخل فوجدوا كبير الدلائل في المؤسسة العالمية للمزادات العلنية وهو يتابع عن كثب عمال القاعة المنهمكين في ترتيب المقاعد حتى تكون القاعة مكتظة بالزبائن، نظروا حولهم فرأوا لوحات كبار الفنانين مُعلقة على جدران القاعة.

كان هناك حشد كبير من الفنانين والأثرياء الذين وصلوا مبكرا لحضور المزاد، وسرت الهمسات بين الحضور فسمع آدم وبيكاسو أفواه البعض وهي تُشيد باللوحات العظيمة المعلقة، بينما آخرون يرمون بالشرر ويصرون على التقليل من شأن تلك اللوحات، وبعد مضي فترة قصيرة امتلأت القاعة بالحضور، ووقف كبير الدلائل على المنصة وبدأ المزادة قائلا: مائة ألف للمرة الأولى، إنها لوحة عظيمة

وصاح ثانية وقال: أقول مائة ألف للمرة الثانية

ثم استمر في قوله: مائة ألف للمرة الثالثة والأخيرة، هل من مُجيب؟

جاءه صوت من بعيد فصاح: مائة وخمسون ألفا للسيد الذي يجلس في الخلف

ثم سمع صوت آخر فاستطرد يقول: بل مائتي ألف للسيد الذي وراءه، هل من مزيد؟

ولمّا لم يسمع صوتاً آخر، ضرب بمطرقة عدة ضربات وقال: لقد بيعت هذه اللوحة للسيد المحترم الواقف هناك.... قالها وهو يشير إليه

ثم أطرق بالمطرقة عدة طرقات مرة ثانية معلنا انتهاء الجولة الأولى.

بدأت الجولة الثانية وفي هذه المرة شرع الدلال في استخدام الحيلة والمكر لجذب الزبائن فكان يقول: تلك القطعة الفنية لن يندم من يكتنيتها فليس لها مثيل، فلينظر الجميع إليها، أليست تحفة رائعة؟..... أريد أن أرى من من عشاق الفن يريد أن يكتنيتها؟

هيا اسرعوا واعرضوا أسعاركم، ولا تقلقوا أبداً من المال الذي ستدفعونه، فليسوف يدر عليكم أرباحاً طائلة بعد ذلك.

بهذه الطريقة كان الدلال يُحرض كل المزايدين على المشاركة في المزاد، شعر آدم هنا عندما نطق الدلال بجملته الأخيرة أن الفن لم يعد قيمة سامية، بل أصبح مثله مثل كل شيء في المجتمع، سلعة تُباع وتشتري، ومن يدفع أكثر هو من يحصل على العمل الفني، وبعد قليل علم من بيكاسو أن المؤسسة العالمية للمزادات تعتبر إحدى شركات مجموعة العالمية للاستثمار التابعة لرجل الأعمال صفوان الأدهم، وهي المسؤولة عن إقامة مزادات علنية كبرى لبيع المنتجات الفنية المعاصرة مرتين كل عام، كما تحتكر الشركة نسبة خمسة وتسعين بالمائة من إجمالي قيمة المنتجات الفنية التي تُباع في المزادات العلنية على مستوى العالم، أما بالنسبة للأموال الطائلة التي يتم تحصيلها في المزادات فهي التي جذبت إليها إناس من الطبقات الثرية المترفة ممن يلهثون وراء المال في كل مكان.

في أثناء فترة الراحة تقدم بيكاسو، ومعه آدم ناحية المكان الذي يجلس فيه الدلال، وعندما رآهما نهض وافقا وتحرك خطوات ناحية بيكاسو وحياه ثم قال له: لم أرك منذ زمن طويل يا فنان؟!

ابتسم بيكاسو وقال: أنت تعرفني جيداً...

فقاطعه الدلال مبتسماً: تُجيد الاختفاء

ودعاه إلى تناول قدح من القهوة معه ثم عرفه إلى آدم قائلاً له: السيد باهر أعظم دلال في العالم.....

كان باهر شديد الدهاء، لديه قدرة عظيمة على قراءة العقول، وبسبب شخصيته الجذابة، وقدرته على السيطرة على مجريات الأحداث داخل صالة المزاد اكتسب باهر شهرة واسعة.

سأله آدم: كيف تستطيع أن تختار العمل الفني المناسب للعرض؟

- لدي إيمان قوي بغريزتي الفنية، وقدرتها على فرز الغث من السمين من الأعمال الفنية.

رأى آدم في هذا المكان عالما آخر قذر يمتلئ بالمؤامرات والدسائس، قال بيكاسو لآدم: نظرة واحدة إلى تلك الوجوه التي حولك تجدها تخبرك أن كل شخص يلهث وراء الآخر ليحتال عليه، إنه عالم مُمزق يعج بالفساد والاحتياالات.

بعد أن انتهت الاستراحة عاد الجميع إلى صالة العرض، وعادت المزايدات للبدء من جديد، كان آدم وبيكاسو يتابعان عن كثب ما يدور في الصالة، ولما وصل سعر المزايدة إلى أعلى سعر غير متوقع، خيم صمت طويل في الصالة، ففي هذا الجو الملبد بالغيوم تجد أن الأموال الطائلة تؤدي إلى صمت يشوبه الاحترام، علت الدهشة جميع الوجوه وشرع الجميع يتسائل "هل ستتخطى اللوحة حاجز المليون"

وفي ذلك الوقت قام أحد المراقبين التابعين للمؤسسة بالإشارة إلى السيد باهر بأن هناك مزايد يقف في الصفوف الأخيرة قد رفع سعر اللوحة إلى مليون فرد باهر وهو يشعر بنشوة الانتصار: مليون.... لقد وصلنا إلى المليون

عندئذ همس الناس في القاعة متسائلين "من أين جاء هذا الرجل؟"

كانت الحشود تسأل عما يحدث، وكان الجميع مذهولين مما سمعوه فطفقوا ينظرون إلى الخلف في محاولة لرؤية هذا التاجر الغامض الذي اندس وسط الحشد، تساءل آدم في دهشة: هل توجد علاقة ما بين قيمة العمل الفني وسعره؟

رد عليه بيكاسو ساخرا: هل هناك علاقة بين الجمال والحظ السعيد في هذه الدنيا؟

هكذا تسير الأمور في هذا العالم، توجد الكثير من الأعمال الرائعة لفنانين موهوبين، وبرغم ذلك فلوحاتهم لا تلقى رواجاً في هذه السوق.....

كان الفن فيما مضى يُجسد شيئاً له معنى في حياتنا، لكنه الآن مرآة لواقعنا المرير، صورة لما يحدث في الحياة في وقتنا الحالي.....

الفن في عصرنا الحالي سلعة قيمتها تُقاس بأثمانها، إنه فيروس الرأسمالية... فسوق الفن يسير وفق نظرية التطور، ولكن بطريقة أنيقة ورشيقة، إننا نقف على أعتاب النهاية لنشاهد احتضار الحضارة. فالحضارات تموت حينما تغيب قيمة كل شيء.....

خرج بيكاسو و آدم من صالة العرض، والحزن يكسو الوجوه مما وصل إليه الفن، لكنه لم يكن الفن فحسب بل الإنسان كذلك، فلقد أصبح الإنسان مثله مثل اللوحة المعلقة على جدران المعارض يحملها مَن يحملها ويضعها مَن يضعها لا حول لها ولا قوة. إنها الإرادة التي فقدها ليس هو فحسب بل الجميع، فالكل يشارك في تلك المسرحية سواء كان يدري بذلك أم كان من الجاهلين، أدرك حينها أن كل ما درسه في الكلية عن الفن الرفيع الراقى، ما هو إلا نظريات مدسوسة في الكتب ولا تصلح للواقع، فالواقع لا يتحدث إلا عن المال فقط.

بعد أيام طوال من تلك الليلة عادت المشكلات تدب بين آدم وديانا، وفي الغالب كانت على أنفه الأشياء والأسباب، فكر في الابتعاد عنها لفترة لتقييم العلاقة معها، كما ظن أن البعد سيجعلها تشاق إليه وتفتقده، كما أخبره بذلك بيكاسو من قبل.

اتفق معها على ذلك، وطال الغياب ولا هي سألت عنه أو حتى أتعبت نفسها بالاتصال به، وكأن شيئاً لم يحدث، شعر آدم حينها وكأنه كان أحد أشياءها القيمة التي كانت تحتفظ بها حتى سأمت منها وألقت بها في أقرب سلة للمهملات.

كان يومه كالمعتاد يذهب إلى العمل صباحاً ويعود مساءً لا جديد في حياته، الأيام تشابهت وتماثلت، وأصبحت الحياة رتيبة لا جمال فيها ولا بهجة، وذات يوم كان آدم يتجول كعادته في نهاية اليوم الطويل بعد عمله الشاق فإذا به يلمح ظلها من بعيد، وقد تشابكت يداها مع يد رجل آخر لم يتسن له التعرف عليه.

كانت تسير معه في الطريق، وضحكاتها العالية تملأ الأفق يسمعها القريب والبعيد، لم يشأ حينها أن يستوقفها، وظن في البداية أن ذلك الشخص لعله

قريب لها، لكن هواجسه اشتعلت في رأسه وأطاحت بعقله الظنون، قرر أن يتبعهما في ترقب ولا يشعر به أحد.

كانت تتمايل أمامه في رقة ودلال، ولا تشعر بوجوده وإذا نظر أحدهما خلفه كان يختبئ بسرعة وراء أي شيء يقابله، فبدا وكأنه أحد المخبرين السريين، ظل يتبعهما طويلا، ويسمع حديثهما الخافت تارة، وضحكاتهما الصاخبة تارة أخرى حتى وصلا الاثنان إلى منزل ودخلا معا وأغلقا بابه.

توقف آدم مليا أمام باب المنزل يتفكر فيما سوف يفعله، كانت الأفكار السيئة تدور في عقله حينها، ولم يعد يشعر برغبة بعد مرور الدقائق الطويلة عليه وهو في وضعه هذا إلا أن يطرق باب المنزل، هرولا ناحية المنزل ورفع يده وطرقت الباب ولمّا فعل ذلك فتح له الرجل الذي كان بصحبته وقال له: ماذا تريد؟

فرفع آدم يده وأشاح بالباب جانبا ففتح على مصراعيه، وقام باليد الأخرى بدفع الرجل. ودلف إلى الداخل في عصبية، فإذا بديانا التي أحياها حبا جما مستلقية على الفراش في غرفة النوم.

هرولا كالمجنون ناحيتها وبدأ يصفعها على وجهها يميناً وشمالاً حتى أحال الرجل بينه وبين ديانا، التي كادت أن تموت من قوة ضرباته، خرج مسرعاً إلى الخارج، وقدماه لا تقوى على المسير، وأعصابه قد أصابها الخلل، وهام على وجهه في الطرقات لا يعرف ماذا يفعل؟ ولا أين المصير؟

كان يتفكر فيما فعله كثيراً من أجلها فلقد تخلى عن كل ما يحب ويعشق من أجل الحفاظ على هذا الحب، وماذا كان المقابل؟

إنها الخيانة..... قالها بحرقّة شديدة، ولمّا لم تعد قدماه تقوى على حمله جلس مكانه على جانب الطريق، وهو يبكي بكاء شديداً ليس عليها بل على نفسه التي أذلها وأخضعها هذا الخضوع المنزل، ظل يتساءل أهذه هي فتاة أحلامه التي حلم بها دوماً؟.... أهذه هي محبوبته التي تمتلئ بصورها لوحاته؟..... أهذه من كان يعشقها حد الجنون فتخلى عن العالم في سبيلها؟..... كادت التساؤلات أن تُطيح برأسه.

نهض من مقعده وسار بخطوات حثيثة إلى منزله، وعندما وصل إلى هناك أخرج جميع صورها ولوحاتها، ومزقها إرباً ثم خارت قواه فارتوى على فراشه في إعياء.

انقضت أيام طوال، وليالي مروعة وهو يعيش على ذكرها الأليمة التي عصفت بتلابيب روحه، أدرك أخيرا أنه كان يحيا في خدعة عظيمة أودت به إلى هوة سحيقة من الألم، كانت خيانتها شوكة في حلق زمانه ليس الحاضر فقط بل الآتي أيضا، فأشباح هذه الذكريات الأليمة لن تتركه لحظة واحدة.

لم يعد بوسعه أن يصرخ أو ينساها، قال لنفسه فلتذهب هي وأيامها إلى النسيان.....

كان يدعو دوما أن يمر الزمن فوق جسد ذكرياته التي تحوم حوله في كل مكان، ويطحنها جيئة وذهابا، فها هو الآن يرحل مفارقا حبيبته، وليس في حقائبه سوى الذكريات التي تؤرق مضاجعه، والعذاب الذي يلتهم ما تبقى من جسده النحيل، بدأ الشك يُساوره في كل ما يراه بعد هذا الحادث الأليم الذي لم يكن يتوقعه يوما ما.

كانت عيناه تغوص في ظلمات الدموع كل ليلة، لا يستطيع أن يتخلص من دوامة كلماتها التي ما زالت ترن في أذنيه حتى الآن، والدموع وأشباح الذكريات وخيالاتها تداعب خياله كل لحظة

بدأ يصرخ ويقول: ألا ما أبطأ الزمن الذي يمر.

قلبت تلك الذكريات الأليمة حياته إلى جحيم مستعرة، تمنى كثيرا أن يهرول به الزمن ليتسنى له النسيان، لكن هيمات فليس كل ما يتمناه المرء يُدرکه، مرت عليه الأيام بطينة ثقيلة حزينة مؤلمة. وكان صديقه ميلاد يقف بجانبه في محنته هذه، ويواسيه محاولا بكل السبل أن يخرج به من غياهب تلك الصدمة المروعة التي أصابته، وأن يعود به إلى حياته الطبيعية، لكن شيئا ما قد تحطم بداخله وشعر أنه لن يستطيع أن يحيا مثلما كان من قبل.

ترك آدم عمله في شركة الدعاية لفترة حتى يجتاز هذه المحنة في محاولة يائسة إلى العودة لحياته التي يحيا ويفضلها، قرر أن يخرج من تلك الآلة اللعينة التي سيطرت على جوارحه، وأصبح بداخلها مجرد حيوان يعيش فقط ليُشبع رغباته، ويحصل على المال، وفي خضم حديثه عن المال قال لميلاد الذي كان يقف أمامه في شقته والحزن يعتري وجهه: إنه المال سبب كل تلك المصائب، أليس كذلك؟

وتركه آدم وانطلق إلى غرفة نومه، فتح خزانة الأموال التي يمتلكها، وأخرج منها كل ما فيها من أموال، ووضعها أمام ميلاد ثم دخل إلى مطبخه، وأحضر

بعض أعواد الثقاب، وأشعل النيران في هذه الأموال. وميلاد يحاول أن يمنعه، لكنه أصر على ذلك كي ترتاح نفسه، فسر عذابه الماضي كان ذلك المال اللعين الذي كان يسعى خلفه في كل مكان لتلبية رغبات محبوبته الخائنة ديانا، اشتعلت النيران بالأموال حتى احترقت عن آخرها.

قام آدم بعدها بحرق جميع ما يخص ديانا من ذكريات وصور وهدايا، لقد حاول جاهدا أن يُمحى من حياته بصورة نهائية، وكأنها لم تكن لها وجود منذ البداية، لكن هيمات فالذكري جزء من تاريخ المرء لا يستطيع المرء أن يمحو يوما من حياته حتى ولو كان قاسيا مؤلما.

بعد عدة شهور عاد آدم إلى الرسم مرة أخرى، ولما علم خاله بالحال الذي وصل إليه آدم بدء يُرسل له الأموال التي تُعينه على العيش، والتي سوف تساعد مرة أخرى للاستقرار على طريقه الذي سيختاره، لم يكن حينها آدم يحمل هما لشيء، كان يخرج كثيرا مع ميلاد في رحلات للترفيه والتجول تحت أشعة القمر المضيء، وعلى أعلى قمة الجبل مكانهم المفضل وبدأ رويدا رويدا يعود إلى حياته الطبيعية بعد التغلب على أحزانه.. لكن ميلاد صديقه نصحه بأن يعود إلى عمله ثانية فلن يُنسى هذا الحزن سوى الانغماس في العمل، وأن اختلاعه بنفسه في أوقات كثيرة تؤدي إلى نبش الماضي الأليم، لكن الفائدة الوحيدة التي تعود عليه من الوظيفة هي أن الإنسان في ظلها لن ينسى متاعبه وآلامه فقط بل ينسى نفسه أحيانا كثيرا، وقد اقتنع آدم برأي صديقه في هذا، فقرر العودة مرة أخرى إلى وظيفته بعد أن انقضت تلك الفترة المشؤمة من حياته، ومارس عمله بصدر رحب.

تصادف آدم في يوم من الأيام وهو في عمله داخل الشركة بصديقه إمام يجلس على أحد المكاتب الخاصة بالقسم الذي يتبعه آدم، رآه منشغلا بالنظر في شاشة الحاسوب وهو يقوم بتصميم إعلان جديد، تقدم ناحيته وربت على كتفيه فنظر إمام إلى الخلف فوجد آدم واقفا مبتسما له، نهض من مكانه وحياء فبادره آدم بالسؤال وقال له: هل أصبحت موظفا في هذه الشركة؟

- أنا قديم هنا يا صديقي، لكنني كنت أعمل في أحد الفروع الأخرى للشركة، وقد تم نقلي اليوم إلى هنا، لكن منذ متى وأنت تعمل هنا؟

- منذ حوالي السنة

ابتسم إمام وقال له: إذن أصبحنا زملاء عمل بعد أن كنا زملاء دراسة
أجلسه إمام في المقعد المقابل له، وطفق يسأله عن أحواله وأخباره، وما
واجهه في الفترة الماضية بعد التخرج

قال له إمام قبل أن يُشرع في الحديث عن أخباره: انتظر حتى ينتهي اليوم في
العمل، ونتقابل في الخارج لنحكي سويا فلقد سمعت أن الحوت قد يحضر
اليوم

نظر إليه آدم في دهشة وقال: ومن يكون ذلك الحوت؟

قال هامسا: أنعمل هنا قرابة السنة، ولم تسمع قط عن الحوت؟

- بلى لم أسمع به مطلقا

- ذلك طبيعي هنا فعندما يتحدث الموظفون عنه تراهم يتهايمسون، فمن أين
لك أن تعرف؟

- من هذا الحوت إذن؟

- إنه صاحب الشركة يا فتى، واحد أكبر رجال الأعمال ليس في بلدنا فقط،
لكن في العالم كله تقريبا

- ومن هو؟ انطق

- إنه صفوان الأدهم، ألم تسمع عنه مطلقا؟

- لقد سمعت هذا الاسم من قبل، لكني لا أتذكر أين سمعته بالتحديد

- لقد خرج للتو من سجنه، واستعاد شركاتته التي صادرتها الحكومة من قبل

- أكان في السجن؟

- منذ فترة طويلة وهو في السجن

- آه، لقد تذكرت الآن، اعتقد أنه قد اتهم في قضية التلوث، أليس كذلك؟

- بالضبط ها أنت الآن تذكرت، لقد سمعت أعاجيب القول عنه

- مثل ماذا؟

- إنه مثلا كان يتحكم في كل شيء يمتلكه حتى أثناء تواجده في السجن، كما
انتشرت بعدها شائعات تقول بأن رجال الشرطة كانوا متواطئين معه
ويساعدونه، إنه حوت حقيقي كما أسماه الناس

- ولماذا يأتي إلى هنا اليوم؟

- لئيتابع سير العمل في شركته إنه تقريبا لا ينام، لقد عرفت عنه الكثير من قدامى الموظفين والعاملين معه، وعرفت أيضا أنه يحب المال حبا جما

قاطع حديثهما صوت همسات بين الموظفين وتسارع الأقدام، وعودة الجميع إلى أماكن عملهم فعملوا أنه قد حضر، دخل الرجل بكل خيلاء بأناقته المعهودة، وبدأ على ملامحه أن سنوات السجن لم تؤثر فيه، وأنه ما زال يمتلئ حيوية ونشاطا كما عهده الجميع من قبل.

بدأ ينظر حوله تارة وإلى وجوه الموظفين لديه تارة أخرى وحوله مجموعة من رجاله يتقدمهم رئيس مجلس إدارة الشركة حتى دلف إلى غرفته الخاصة، وحول الطاولة المستديرة جلس الجميع، وجلس هو في مقابلهم، وقد أمر مدير الشركة أن يُبلغ جميع العاملين باجتماع.

حضر الجميع على وجه السرعة، واتخذ كل إناس مقعدهم على الطاولة، وشرع الجميع بتحيته في رهبة، فرد عليهم التحية بمثلها ثم نهض واقفا وقال: يتساءل الجميع الآن لماذا أتيت؟ فمعظم قدامى الموظفين يعرفوني، ويعرفون جيدا طريقي، ويتوقعون كذلك حضوري في أي لحظة، أما حداثتهم فلم يقابلوني من قبل، فالظروف قد منعتني من متابعة أعمالي، لأنني كنت في السجن.....

بدأ التهامس بين صغار الموظفين، وهم يتساءلون في دهشة، وسرت همهمات في الغرفة فصرخ فيهم صفوان قائلا: عندما أتحدث يصمت الجميع، هل يفهم الجميع ما أعنيه؟

ساد صمت رهيب داخل الغرفة على إثر كلماته ثم استطرد يقول: أنا لا أعرف شيئا في الحياة سوى المال، وكيف أنميّه؟.... هذا ما أعرفه جيدا، فالمال عاهرة لا تنام أبدا، وهي أيضا غيورة جدا، وإذا لم تعتني بها جيدا ستستيقظ لتجدها رحلت إلى الأبد.....

لذلك فأنا لا أنام أبدا، وإذا نمت فإنني أنام بعين مفتوحة وأخرى مغلقة، أعلم أن الجميع يُطلقون على اسم الحوت، ولا مانع لدي فإن لم أكن ثعلبا فأنا حوت اختلفت المسميات لكن الأصل واحد.....

جئت إليكم اليوم لأعلنها لكم، هناك شيء واحد قد تعلمته في السجن، وهو أن الأموال ليست أهم شيء في الحياة بل الوقت، ووقتكم قد أوشك على الانتهاء فلينطلق الجميع إلى عمله، أريد إنتاجا، أريد عملا، والأهم من هذا كله أريد المال.

وبعد أن غادر الجميع إلى مواقع عملهم، دخل إلى غرفته يهوذا وباده صفوان بالسؤال: أكل شيء على ما يرام؟

رد عليه يهوذا وقال: كل شيء يسير كما أمرت بالضبط

- هل تخلصت من كل القضايا المرفوعة ضد شركة الطاقة؟

- وأعدتها هي الأخرى للمكيتنا بعد أن صادرتها الحكومة

ابتسم له صفوان وقال بسخريته المعهودة: أنت بالفعل محام بارع! لقد سمعت مؤخرا أنهم يستخدمون المحامين في التجارب العلمية بدلا من الحيوانات.... هل تعرف لماذا يفعلون هذا؟

- لماذا؟

- لسببين، الأول أن العلماء يكرهون المحامين، والثاني إنكم أيها المحامون تفعلون أشياء حتى الحيوانات لا تفعلها

ضحك يهوذا وقال له: لكن كل هذا كان من تخطيطك أنت، فأنت تُرينا الطريق ونحن نسير فيه

- الرهبان أخبرونا من قبل بأن هناك طريقين في الحياة، طريق الطبيعة وطريق الفضيلة، وعلينا اختيار أي منهما كي نتبعه

ابتسم يهوذا على إثر كلماته فاستطرد صفوان يقول: قل لي ما أخبار أسهمنا في البورصة؟

- كل شيء تلمسه يتحول إلى ذهب تلك هي الحقيقة

- لا بد أن تتعلم الملاحظة בזكاء في شوارع المال، فطبيعة المال هشة كطبيعة البشر

- أنت أحمق عظيم وجليل

- لكن مع ذلك فأنا من خلق الإله. وينبغي أن تتفكر باحترام في كل ما خلقه الإله. أليس كذلك؟!

وابتسم ابتسامة مليئة بالسخرية فقال له يهوذا: فلسفتك في الحياة هي ما يعجبني فيك

- أنا أسير وفق قانون عظيم مفاده أنه لكي تجعل إنسانا يشتهي شيئا فما عليك سوى جعله صعب المنال...

قاطععه يهوذا: هناك شيء أريد أن أخبرك به

- تحدث

- البنوك تريدك أن تسدد مديوناتك، والمال لا يكفي الآن

- يا لهؤلاء الأوغاد، لن ينتظروا بالطبع، فأصحاب المصارف مثلهم كمثل الشخص الذي يُعيرك مظلته حين تكون السماء صافية، ويريد استعادتها لحظة هطول المطر، على كل حال ما هي المكاسب التي أدرتها علينا المزايدات الفنية؟

- تعرف أنك كنت على حق في الاستثمار في الفن، لقد كنت بعيد النظر

- المقتنيات والتحف الفنية تُثير خيال الناس، وتجعلهم يحلمون بالثراء السريع، هذه الأشياء تعتبر ثمينة لذوي العقول الضحلة، ويدفعون فيها الملايين ونحن فقط نساعدهم لنحصل على المال، وعلى الرغم من ذلك فأنا شخصيا أحب التحف الفنية، لكنني أحب المال أكثر

- هل تتذكر أول لوحة حصلنا عليها، وكانت وجه السعد علينا، وأصبحنا بفضلها من أثرياء القوم؟

- تقصد اللوحة التي سرقناها أيام شبابنا

وضحك الاثنان ضحكات عالية لبضع لحظات ثم قال صفوان: تعرف أنني بعد أن أصبحت ثريا، اشتريت تلك اللوحة مرة أخرى، ووضعتها في غرفة نومي الخاصة في القصر

- يا لها من سخرية... تسرق لتبيع ثم تعود لتشتري

- إنها وجه السعد أيها الأحق، أما الآن فلتُحضر الأموال التي حصلت عليها من المزايدات، وسدد بها مديوناتنا للبنوك، أظنها ستكون كافية، هل هناك شيء آخر؟

- أمر واحد فقط
- ألا وهو؟
- مشروع شركة الطاقة العالمية
- تقصد المفاعل النووي، أليس كذلك؟
- بالضبط هو كذلك
- هل هناك جديد؟
- هناك شخص قد عرف عن هذا الموضوع
- وما المشكلة، البلد بأكملها تعرف عنه
- أنا أقصد المشروع الحقيقي
- تغيرت معالم وجه صفوان الأدهم لما سمع ذلك الكلام وصرخ في وجهه قائلاً:
وكيف حدث ذلك أيها الأحمق؟ ألا تعرف أن تُخفي سرا؟
- لم أكن أنا مَنْ أطلعته على السر
- ومَنْ هذا الشخص الذي علم بالأمر؟
- إنه أحد العاملين في معامل الشركة
- ومَنْ الذي أطلعته على الأمر؟
- عابر
- يا لها من مصيبة كبرى، وماذا قال أعضاء المنظمة؟
- ارتبك يهوذا وقال متلعثماً: منظمة عين الحياة؟!
- صرخ في وجهه قائلاً: وهل هناك غيرها، ماذا بك اليوم؟ أمخمور أنت؟
- لا لا، لم يعلموا بعد، على الأقل حتى الآن
- أصابته الحيرة وبدأ يتلعثم في الحديث وهو يقول ليهوذا: دعنا نفكر في تلك
المصيبة التي حلت علينا، لكن قل لي ماذا يعرف بالضبط؟.... هل يعلم ماذا
نصنع بداخل المنشأة أم لا؟

- يا سيدي، الدكتور عابر نفسه لا يعلم ماذا نفع بالداخل إنه يعلم فقط
أننا نستأجر هذه المنشأة لإجراء بعض العمليات على الجنود المصابين
باضطراب الأعصاب

- إذن أطر ذلك الشخص من الشركة؟

- لن نستطيع ذلك لأنه قد علم الكثير، هذا بالإضافة إلى أننا نحتاجه

- هل تحدثت مع الرئيس بشأن ذلك الموضوع

- الرئيس؟!..... ليس بعد

- إذن لا تُخبر أحداً بذلك حتى نفكر فيما سنفعله، ولكن ماذا بشأن
الصحفي صاحب اللسان الطويل

- لقد أوهمته بأن الفساد قد استشرى في كل ربوع البلاد، وتركته يُفتش في
مسألة المفاعل النووي كما أقنعتة بالبحث وراء جلال الديب، تلك كانت
أوامرك

- جيد.

في تلك الفترة التي كان فيها نضال منغمساً في البحث عن معلومات تخص
شركة الطاقة العالمية والمفاعل النووي الذي يقيمه الجيش بتمويل منها، شرع
في البحث عن قضايا الفساد في شركة الطاقة العالمية، وخاصة في المفاعل
النووي كما أخبره بذلك يهوذا محامي رجل الأعمال الفاسد صفوان الأدهم،
وأنشأ يعمل عمله الدءوب بلا كلل أو ملل، وحتى يتسنى له الحصول على القصة
الحقيقية الكاملة، تخفى عن شخصيته وراح يصول ويجول في أروقة الشركة.

أسفرت محاولاته الأولى عن اكتشاف صفقة قذرة تدور رحاها بين شركة
الطاقة العالمية وبين الحكومة، حصل على العديد من الوثائق التي كانت
مخفية بمساعدة بعض العاملين الشرفاء في الشركة، وكانت تحوي بداخلها
معلومات موثقة عن صفقة غريبة بين الشركة ووزارة البيئة، دفعت فيها
الشركة أموالاً طائلة للحكومة مقابل التغاضي عن التلوث.

أوصلته تلك الصفقة المريبة إلى القضية الكبرى، وهي المصفاة الضخمة
التي أنشأتها شركة الطاقة العالمية، هروا نضال إلى الميناء الشرقي في

العاصمة، ولما وصل إلى الميناء الخاص بالشركة حاول أن يتأكد مما يحتويه النهر القاطن بجانب قناة السفن فهناك أكبر مصفاة ومجمع كيميائي في البلاد، لقد جاء ليرى تلك المصفاة التي تنفث المواد الكيماوية السامة في الهواء في هذا المكان، لم يأت نضال إلى هنا لبحث في هذه القضية مرة أخرى إلا بعد أن علم أن شركة الطاقة العالمية قامت برشوة مجموعة من علماء المناخ الذين حضروا لبحث تأثير هذا التلوث على طبقة الأوزون، فالشركة قد أنفقت على هؤلاء العلماء أموالا طائلة حتى يتغاضوا عن مسألة ثقب الأوزون.

كان نضال يقف مذهوشا مما يراه من تلوث، وبعد لحظات اشتم رائحة قوية لبعض الأبخرة السامة تنطلق في فضاء المكان، لم يستطع أن يتحمل الرائحة فهرب إلى سيارته ليخرج من هذا المكان، وفي هذا الوقت لمح على البعد نيران عظيمة مشتعلة في الجانب الآخر من القناة، أسرع إلى هناك ليتحقق من الأمر، ولما وصل إلى بوابة المصنع الكيميائي الذي كان ينفث اللهب قيل له بأن المصفاة فجرت أنبوبا هيدروجينيا، ولقد ارتأى الخبراء أن يُشعلوا الكمية الفاسدة من الإيثيلين، وهكذا انبعثت حدة اللهب السامة هذه من المدخنة لعدة ساعات مُطلقة سحابة سوداء فوق العاصمة، لكن الغريب في الأمر أنه رأى شخصا يبدو من ملابسه أنه أحد العاملين في معامل الشركة، كان يحتاج بصوت جهور، ويتشاجر مع العاملين بشأن هذا الحريق، وتبين له فيما بعد أنه لا يرضى عما تفعله الشركة بالسكان، وإصابتهم بالتلوث.

تقدم نضال بخطى حثيثة نحو ذلك الرجل وقال له: أنا نضال مستور أعمل في قناة الواقع

تقدم بالسلام عليه وقال له: أنا ميلاد لوثر أعمل في معامل الشركة

تصافحا وقال له نضال: أراك رافضا لسياسة هذه الشركة، فهل لك أن تخبرني ببعض المعلومات؟

- على الرحب والسعة

- أرى فيك عقلا راجحا، وقلبا طيبا بعد إذ رأيتك ترفض هذا العمل المشين

- هذا التلوث سيصيب الناس أجلا أو عاجلا بأمراض خطيرة تبدأ من هذا المكان ثم تنتشر إلى جميع الأنحاء فيما بعد

قدم له نضال بطاقة التعريف الخاصة به وقال له: هذه بطاقتي وبها أرقام هواتفي أرجو اللقاء بك في أقرب وقت.

خرج آدم مع إمام بعد انتهاء العمل في ذلك اليوم وبادره آدم بالسؤال: لكن ماذا عن سحرك يا فتى؟ أما زلت مهتما به كعادتك؟

رد عليه إمام قائلا: كان هذا منذ زمن مضى

- ماذا حدث إذن؟

- بعد تخريجي تعلمت الكثير من خلال قراءتي واستطعت تفسير أشياء كانت مهمة وغامضة بالنسبة لي

- مثل ماذا؟

- فيما مضى من الزمان علمت أن الإنسان البدائي كان يخشى من أشياء كثيرة لم يعلم تفسيرها

كالبرق والصواعق التي تُضرم النيران في الأشجار فتحرقها، والزلازل التي تشق الأرض، والبراكين التي تثور هنا وهناك

- أعلم ذلك جيدا، فما الجديد؟

- كل تلك الأمور لم يك يعرف أسبابها كما نعرف نحن الآن، في ذلك الوقت راح خياله يصور له أن هناك قوى أسطورية مجهولة هي التي تفعل كل تلك الأشياء

- هذا ما كان عليه الإنسان القديم

- باختصار سيطرت عليه أوهام شتى، لكن هذه الأوهام لم تختف في وقتنا الحالي

- لما هذه المقدمة الطويلة؟

- حتى أصل بك إلى مبتغاك، أنت الذي أردت أن تعرف؟

- إذن أكمل

- كنت من قبل أصدق هذه الخزعبلات والخرافات وأقول عنها معجزات، حينها لم أك أعرف شيئا عن نواميس الكون والحياة

قال آدم: لكن العلم مازالت أمامه ظواهر لم يعرف أسرارها بعد

- أعرف ذلك جيدا لأننا لم نصل إلى نهاية المعرفة، وأن ما لا ندرك سره اليوم قد ندركه غدا

قال آدم مبتسما: أشعر بأني أتحدث مع ميلاد

- ومن ميلاد؟

- إنه صديق لي، لا تشغل بالك... أكمل

- كل ما في الكون يسير بواسطة قوانين لا استثناءات فيها ولا فوضى، ولو حدث الاستثناء لفسدت الأرض والسموات

- وبعد

- كنت أعتقد أن السحرة يستخدمون الأرواح والجن في السحر، لقد حضرت إحدى جلسات تحضير الأرواح، وقد أصابني العجب عندما رأيت تجسيدا لروح على أحد الأفلام الحساسة، بحثت بعدها كثيرا عن هذا الذي حدث، وتعرفت على أحد العلماء الذي أخبرني أنها مجرد خدعة، وعندما سألتني عما إذا كنت رأيت تجسيدا حقيقيا لروح ماثلة أمامي.

أخبرته أنني لم أر شيئا.... لكنني رأيتها على الأفلام فحسب، فقال لي أنه ليس هناك شيء يمكن أن يظهر على الأفلام الحساسة إلا إذا كان شيئا متجسدا فتنعكس موجات الضوء منه إلى الفيلم الحساس، فلا شيء يأتي من لا شيء.

بعد ذلك أدركت جيدا أن موضوع سيطرت الجن والأرواح والسحر على الإنسان ما هي إلا خدعة، أو إحدى الأساطير التي سيطرت على عقول الناس لتخويفهم، فابتعدت عنها وانطلقت في طريقي

قال له آدم مازحا: لقد أصبحت عالما يا إمام

- ليس لهذه الدرجة.

مرت شهور عدة، وتوطدت العلاقة بين ميلاد والصحفي نضال بعد أن تحدثا معه كثيرا عبر الهاتف، ومن خلال المقابلات الكثيرة، تقرب منه ميلاد بعد أن علم أنه صحفي يكافح جاهدا من أجل القضاء على الفساد، ويفعل كل ما بوسعه لمساعدة الناس، والتخلص من تلوث البيئة التي لن تضر المنطقة القاطنة فيها الشركة فقط بل سيصل هذا التلوث إلى كل أنحاء البلاد.

اجتمعوا معا في عديد من اللقاءات، وقدم له ميلاد يد المساعدة في كثير من قضاياها التي يهتم بها، فكان حديث نضال يحوم دوما حول فساد السياسيين ورجال الأعمال، وكان ينظر إليهم على أنهم رءوس الشر في العالم، وأنهم السبب الرئيسي في إفقار الناس فهناك الملايين من المساكين والفقراء في بلاده على الرغم من أنها صاحبة أكبر اقتصاد في العالم، وتملك حوالي ثلث ثروة العالم.

لقد رأهم نضال بألم عينيه في مدن الصفيح والعشوائيات، كان من الطبيعي أن ثروة البلاد تكفي لإطعام كل جائع فيها، وتستطيع أيضا إيواء كل مشرد، ولكن نظرا لتلك العقلية السائدة فإن الدولة لا ترى حلا لهؤلاء البؤساء إلا أن يختفوا من هذا العالم في هدوء وبدون إزعاج.

قال له ميلاد حينما تحدث معه بشأن هذه المسألة: إنه قانون البقاء للأقوى

- نعيش بداخل غابة كبيرة

فقال ميلاد ساخرا: أكنت تظن أن الرأسمالية ستُخرج لنا أنبياء؟!

- معك حق فما أخرجت لنا سوى قادة المال والحرب والجنس

عاد ميلاد لمزاحه وقال: إنهم منتخبون طبيعيا يا سيدي

- نحن للأسف في النهاية

- أية نهاية؟!

- نهاية الحضارة، ونهايتنا معها.... فطالما لم يعد للأخلاق وجود في هذا الشعب، فليُبشر بقرب نهايته

- أرى أننا ننظر إلى الحياة بطريقة تشاؤمية جدا

- هل تعرف الفرق بين المتفائل والمتشائم؟

قال بابتسامة تنم عن سخرية: لا ما هو؟

- المتشائم يعتقد أن الأمور لن تكون أسوء من ذلك، في حين أن المتفائل يقول

إنه من المؤكد أنها ستسوء أكثر

ضحك ميلاد على مزحته كثيرا فاستطرد نضال يقول: أعلمت الآن أننا أكثر
تفاؤلا

قال له ميلاد: ماذا ستفعل في قضايك بعد أن أخبرني بأن الصحف لا تريد
أن تنشر لك شيئا، وكذلك فعل تليفزيون الواقع معك، فهل ستنتظر القيامة
لنأخذ حقنا من هؤلاء؟ قالها ميلاد بيأس

أجابه نضال في حزن: بدأت أشعر أنه ليس أماننا سوى انتظار القيامة
ليخلصنا الله من هؤلاء الطواغيت.....

ثم تجهم وجهه وهو يقول في أسى: الصورة سوداء قاتمة فلو أنك ألقيت
نظرة إلى الصحف، فلن تجد فيها سوى أخبار عن الاغتيالات والقتل والخطف
والنهب والسرقة والفساد والأمن القومي والإرهاب..... أليست هذه الحياة
مسرحية مأساوية، هل خلق العالم ليكون مسرحا لهذه المآسي؟..... ليس أماننا
من سبيل الآن لتحقيق العدل في هذه الحياة، فلعله يتحقق في الآخرة

قال له ميلاد: اعتقد أن الآخرة مجرد أمنيات نتمناها كي نصبر أنفسنا على
هذا الظلم كي نشعر بالراحة. وفي النهاية ندرك أن لا وجود للآخرة ولا وجود
للقیامة ولا وجود للحساب؟

تعجب نضال وقال له: كيف تقول هذا يا رجل ألا تؤمن بالقيامة؟!

أجابه ميلاد: قل لي.... على افتراض وجود الآخرة ، كيف تعلم أن أعمالنا
سوف تُسترجع مرة أخرى، فالأديان جميعها تتحدث عن هذا الأمر، وأنا لا
استطع تخيل ذلك في الحقيقة...

حك نضال رأسه ثم شرد بذهنه قليلا وقال له: هل تعرف طريقة عمل
الراديو؟

أجابه ميلاد: لدي فكرة بسيطة عن ذلك

قال نضال: لقد عملت في الراديو منذ زمن طويل، وكلنا نعلم جيدا أن أية
حركة يقوم بها الإنسان لها تأثيرها في الهواء، فحينما يُحرك لسانه ليتحدث فإنه
يُحرك موجات في الهواء، والعلم قد أثبت أن هذه الموجات لا تختفي بل تبقى
كما هي للأبد في الأثير، ومن الممكن سماعها ثانية لكن العلم الحديث عاجز حتى
الآن عن إعادة هذه الأصوات

- لم أفهم مقصودك

- سأوضح لك، محطات الإذاعة في العالم كله تُذيع الكثير من البرامج طوال اليوم عبر موجات كثيرة، وكان من الطبيعي إذا فتحنا الراديو نستمع إلى مزيج هائل من الأصوات ولا نفهم منه شيئا، لكن لم يحدث ذلك، هل لك أن تقول لي لماذا؟

أجابه: لأن كل تلك المحطات تُرسل برامجها عبر موجات طويلة أو متوسطة أو قصيرة حينها نستطيع أن نحصل على تردد كل محطة إذاعية على حدة فنستمع إليها

- بالضبط، لكن العلماء لم يتوصلوا حتى الآن لاختراع آلة تُفرق بين أصوات الزمن الماضي كما نفرق نحن بينها في وقتنا الحاضر، ولولا ذلك لكنا قد سمعنا تاريخ كل عصر بأصوات معاصريه

تعجب ميلاد وسأله: وما علاقة هذا بالحساب؟

- أعتقد أن هذه المسألة تثبت إمكانية سماع الأصوات القديمة في المستقبل لو نجحنا في اختراع آلة تُميز الأصوات المختلفة، وسماع كل صوت بمفرده، وبالتالي لا تبقى مسألة القيامة، والحساب بعيدة عن القياس، وهي القائلة بأن كل ما ينطق به الإنسان يُسجل، وهو محاسب عليه يوم القيامة

- حديثك منطقي، لكن ماذا بشأن أفعالنا فلن نحاسب بالتأكيد على أقوالنا فقط؟

- أليس من المفترض أن تُحدثني أنت عن هذه الأشياء، فأنت العالم وليس أنا

- في الحقيقة لم أتطرق لمثل هذه الأمور علميا من قبل، لكن أثارني حديثك عنها... فلتُكمل

- نفس الوضع تقريبا فكل فعل نفعله يظل موجودا كذلك في الأثير، مثل موجات الصوت بالضبط، لكن على هيئة صور، ومن الممكن في أي لحظة تجميع كل هذه الصور حتى نعرف ما جاء به كل إنسان من أعمال طيلة حياته

- كيف ذلك؟

- إننا في الأول والأخير عبارة عن طاقة، وهناك آلات دقيقة تصور الموجات الحرارية التي تخرج عن أي كائن

- أعلم هذا جيدا

- معنى ذلك أن حياة كل إنسان مسجلة صوتا وصورة، وجميع تحركاتنا وأفعالنا مسجلة على كاميرا الكون العملاقة، ولا نستطيع منعها أو الهروب منها....

يا صديقي حياة كل منا مثلها مثل الفيلم الذي تم تصويره في الاستوديو ثم تُشاهده على شاشة السينما بعد فترة طويلة من الزمن، وعلى بعد مسافات شاسعة من مكان التسجيل، ويوم القيامة سيرى كل إنسان فيلما كاملا لكل الأحداث التي مرت به في حياته.....

في النهاية فإن قضية كل منا سوف تُعرض أمام محكمة إلهية عليا، وقاضي هذه المحكمة هو الذي أعد هذا النظام العظيم لتحضير الشهادة التي لا يمكن تزويرها

- حديثك ممتع لكن الوقت قد تأخر إلى أين ستذهب الآن؟

- إلى المحطة

- حسنا لنتمشى قليلا ونكمل الحديث في الطريق

- ليس لدي مانع

وشرع الاثنان في المسير في صمت لم يقطعه إلا حديث ميلاد قائلا: بما أنك صحفي، وتقوم كذلك بإعداد البرامج التليفزيونية، فماذا تعرف على العلاج الروحاني؟

- ولماذا السؤال؟

- انتشرت ظاهرة العلاج الروحاني بشكل كبير في الآونة الأخيرة، أظنك سمعت عنها؟

- بالفعل... فالصحف، والقنوات التليفزيونية لا حديث لها الساعة إلا عن المعالجات الروحاني الشهير عيسى، وما يفعله علاجه بالمرضى الذين عجز الطب الحديث عن علاجهم

- وهل تصدق ذلك؟

- لا أصدق شيئا حتى أدرسه، وأنفحصه جيدا وبصورة كافية، لكن ما علاقتك بهذا الموضوع؟

- لقد اختارت مؤسسة "البحث في الأفاق الجديدة" تعرفها بالطبع
- أليست هي تلك المؤسسة العلمية التي تهتم بالبحث عن الظواهر الغريبة، وعلاقتها بالسحر والروح وعالم الجن والخلود، وغير تلك المسائل؟
- بالضبط إنها هي، لقد اختارت هذه المؤسسة مجموعة كبيرة من العلماء من مختلف التخصصات، في الطب والأعصاب والكيمياء والجراحة حتى يقوموا بمتابعة هذا المعالج الروحي والقيام ببحث عن هذه المسألة، فأردت أن أعرف ولو نبذة بسيطة عن هذا المعالج
- وهل أنت من ضمن هؤلاء العلماء؟
- لا بكل تأكيد، لكن رشحتي للجنة الدكتور عابر
- إذن سأقول لك ما قد سمعته عن هذا المعالج
- كلي أذان صاغية
- يُقال إن هذا المعالج قد اكتسب قدرات خارقة حينما سافر إلى بلاد نائية منذ عدة سنوات حتى أصبح مُهيناً للعلاج من خلال بعض القوى الروحية التي تعلمها هناك، لقد قضى هناك حوالي ثلاث سنوات أو أكثر - لا أتذكر بالضبط - وقد واجه الكثير من الصعاب والشدائد حتى يُسمى ما هو عليه الآن
- وما هي هذه الصعاب؟
- يقول إنه قضى قرابة العام في كهف منعزل عن العالم بدون ثياب، لم يك يرتدي إلا ما يستر عورته برغم برودة الجو في هذه البلاد التي كان فيها، لكن على أية حال هذا ما قاله عيسى
- وأين قال هذا الكلام؟
- في أحد البرامج على التلفزيون الوطني
- وماذا قال أيضاً؟
- قال إنه لم ير أو يتحدث مع أحد طوال هذه المدة، وكذلك كان يتناول الطعام كل ثلاثة أيام، وكان يشرب من بئر صغيرة بجانب الكهف، وبعد مرور العام خرج من كهفه، وقد أصبح جاهزاً لاستكمال الاختبارات الأخرى
- وما هي نوعية الاختبارات الأخرى؟

- بعض الاختبارات الغريبة التي على الشخص المرور بها واجتيازها لكي يكون معالجا روحيا، ولكني لا أتذكر سوى اختبارا واحدا تحدث عنه يسمى اختبار الموت، في هذا الاختبار يُحضرون له جسد إنسان مضى على موته بضعة أيام، وما عليه إلا أن ينام على هذه الجثة العارية ويحتضنها ثم يضع شفثيه على شفثها وعندئذ تعود الجثة إلى الحياة، وتُبعث بعد موتها، وتهض لترقص وتقفز وتدور، وعلى عيسى ألا يدعها تفلت من بين ذراعيه، وبعد مرور فترة على هذه الخزعلات تُخرج الجثة الحية لسانها وتضعه داخل فمه، وهنا لابد له أن يقضم لسانها، فإذا فعل تسقط الجثة جثة هامدة على الأرض مرة أخرى، ويحتفظ هو بلسانها، فهذا اللسان هو جواز مروره إلى عالم المعجزات وشفاء الأمراض، تلك هي القصة التي حكاها عيسى

- تلاحظ أن بها الكثير من الغموض مما يجذب الناس إليه أليس كذلك؟

- بالفعل فالإثارة والغموض التي اكتنفت قصته هو ما جذب الناس إليه في بداية الأمر، أما في النهاية فهو يؤثر عليهم بالإيحاء النفسي لا أكثر، هكذا اعتقد

- على أية حال سأذهب وأرى بنفسني لإعداد تقرير عن ذلك المعالج الخارق

انقضت الأيام وميلاد يتفانى في عمله كما يقدم للصحفي نضال كل الملفات اللازمة لموضوعاته التي يبحث عنها، وبدوره نضال كان يجاهد في محاولات مستميتة لنشر هذه الملفات على صفحات الجرائد، أو على شاشات التلفاز حتى يسمع بها الملأ من الجمهور ليتفادوا الكارثة التي ستحل على الجميع، لكن الموضوع الوحيد الذي لم يتناوله حديثهما كان عن المفاعل النووي، والمنشأة السرية التي اقامتها شركة الطاقة العالمية فلقد آثر ميلاد الكتمان والسرية حتى يعلم كافة التفاصيل بشأن هذه المنشأة، وعلى الرغم من توطد صداقته بنضال إلا أنه لم يبيع له بمكنون صدره بعد.

في مبنى كبير يُشبه المعبد إلى حد ما بجدرانها العالية وقضاء مساحته من الداخل، وبدخل حجرة عظيمة فيه جلس ميلاد وطبيب آخر من اللجنة المكلفة بمراقبة المعالج الروحي عيسى ينتظران، كان اثنان فقط من اللجنة قد حضرا إلى هذا المعالج بعد اعتذار باقي أفرادها، أولهما ميلاد وثانيتها طبيب جراح شهير في البلاد.

شرح ميلاد ينظر حوله ليتفقد معالم المكان، كانت الحجرة تُضاء ببعض الشموع الخافتة، وتفوح منها بعض من الروائح النفاذة للبخور، على جدرانها ستائر حمراء معلقة في كل جانب من جوانبها، يقطن في أحد أركان الحجرة مذبح فوقه بعض التماثيل، وفي المنتصف طاولة ينام عليها واحد من مرضى عيسى.

بعد لحظات ظهر عيسى بلحيته الكثيفة وغطاء رأسه المشهور به وحياء الجميع، ثم نظر إلى ناحية المريض الملقى على الطاولة، تقدم ناحيته وأمسك بقدمه اليسرى ثم ضغط إصبعه الأكبر بشدة، لكن المريض لم يُبدِ أية إشارة تدل على أنه تألم لذلك الفعل.

تقدم الطبيب وسأل عيسى عن السبب وراء ما فعله، أعلمه بأن ضغطه على الإصبع يُبين له إذا كان مرضه طبيعياً أو غير طبيعى، تعجب الطبيب وعاد ليسأله ثانية: كيف يكون مرضه غير طبيعى؟

أجابه عيسى: أحيانا الأمراض تأتي من الأرواح الشريرة

كتم الطبيب ضحكة كادت أن تنطلق من بين شفتيه ثم عاد ليقول: وماذا وجدت أيها المعالج؟

رد عليه عيسى بثقة: لا تقلق فمن الواضح أن مرضه طبيعى، لديه فقط اضطراب في معدته، ولسوف أُجري له الجراحة اللازمة حتى يتخلص من ذلك الألم.

بدأت مراسم الجراحة، سار عيسى ناحية المذبح وقام ببعض الصلوات، ثم عاد إلى المريض، في ذلك الوقت كان مساعده قد أحضر له قطع صغيرة من القطن مع المطهر، غمس المعالج القطن في المطهر وشرع يمسح به بطن المريض، وبعد أن انتهى من عملية المسح شمر عن ساعديه، وتناول بعض قطع القطن الأخرى، ووضعها على بطن المريض وهو يحركها.

بعد ثوان قليلة اختفت قطع القطن، وفجأة ظهر سائل أحمر يتزف من بين أصابعه، طفق يُحرك بطن المريض ثانية بذلك السائل الأحمر فبدت يداه وكأنها تغوص بالفعل داخل بطن المريض، ولاح السائل الأحمر وكأنه دما يتزف من البطن، بعد لحظات أخرج عيسى من بطن المريض قطعة حمراء ملتوية صغيرة، وقال لهم: انظروا إلى هذا، إنه نسيج فاسد قد أخرجته من معدة المريض.

بعد أن انتهى عيسى تقدم الطبيب ناحية المريض ليفحص بطنه. وعندما فعل لم يجد أي أثر يُذكر لجرح أو أية علامة تدل على فتح البطن ونزيف الدم. تعجب الطبيب وقال له: كيف استأصلت هذه الأنسجة ولم تفتح بطن المريض؟

أجابه عيسى في سخرية: إنها سر المهنة

في تلك الأوقات كان ميلاد يحاول جاهدا أن يجد قطعة القطن المبللة بالسائل الأحمر ليقوم بتحليلها في معمله، لكنه لم يجد لها أثرا، كما اختفت كذلك الأنسجة الفاسدة، خرج ميلاد والطبيب ليتنسموا بعض الهواء في الخارج فبادره الطبيب قائلا: اعتقد أن الأمر كله عبارة عن خفة يد، فالدماء هي السائل الأحمر، والأنسجة الفاسدة ما هي إلا قطع القطن

قال ميلاد: لكن الغريب في الأمر أن المريض نهض سليما معافا، وقد أخبرنا أنه قد تخلص من آلامه

قال الطبيب لميلاد هامسا: أعتقد أنه كان عليه أن يستخدم بدلا من القطن أنسجة بعض الحيوانات الميتة ليكون المشهد أكثر واقعية.....

قاطع حديثهما عيسى وهو يتقدم بخطى الواثق في خيلاء المنتصر، وأخبرهم بأنه لديه حالة غير طبيعية يريد الكشف عليها، فأراد الاثنان أن يحضرا معه، هرولا إلى داخل حجرة العمليات في معبده الروحي.

كان المريض مُستلقيا على الطاولة وراح عيسى يُعْتَصِر إصبع قدمه الكبير كالعادة، لقد كانت هذه أغرب الحالات التي مرت عليهما في هذا المعبد. لقد انطلق عيسى ناحية المذبح وقام بالدعاء والابتهال، ليس هذا فقط لكنه راح يعوي كالذئب مما جعل الدهشة تملكهما، استمر عيسى على هذه الحالة لمدة ثلاث دقائق ثم التقط جرسين موضوعين أمامه على المذبح، ولوح بهما فوق رأس المريض في حركات تبادلية، ثم عاد ليعوي بشدة أكثر.

بعد قليل أمر المريض بمغادرة الطاولة وأجلسه على مقعد مجاور لمقاعد الأطباء، وذهب إلى حجرة مجاورة، مرت الدقائق طويلة بعد أن غاب عيسى عن أعينهما وتساءلا في دهشة عن سبب غيابه، لكنه لم يُمهلهما فإذا به يعود وقد ارتدى رداء كهنوتيا غربيا، وقد علق على رقبته قلادة ضخمة، تقدم إليه الطبيب ليسأله عن سر ما فعله هذا فقال له عيسى: هذا الفعل لتركيز كل طاقاتي الروحية.

نظر إلى المريض في ريبة ثم طلب منه أن يعود ليستلقي على الطاولة، وعاد فوجه أصابع يده إلى المريض، لكن لا شيء قد حدث فحاول مرات ومرات، ولم يحدث شيء كذلك إلى أن ظهرت على ملامح وجهه علامات الضيق والانزعاج، فطلب من الجميع الانتظار ثم دخل إلى غرفة مجاورة، وأحضر معه حقيبة كبيرة، وطلب من الجميع أن يذهبوا معه ومعهم المريض بالطبع.

دلف الجميع إلى السيارة، وانطلقت بهم إلى الغابة على أطراف العاصمة، توقفت السيارة على الطريق المؤدي إلى الغابة، وترجل منها الجميع ثم ساروا إلى الداخل حتى حفتهم الأشجار من كل اتجاه. طلب عيسى من مساعده أن يُشعل النيران، وفعل ما أمره به ثم تركهم لفترة، وعاد وهو يلبس ثيابا غريبة من جلود الحيوانات، ويضع على وجهه قناعا مُخيفا، ويُعلق أحجبة وتعاويد، وقرون، وريش طيور كان قد أحضرها معه في هذه الحقيبة التي كانت في يده.

توقف أمام المريض وهو يصرخ ويعوي بحركات هستيرية، ويُتمتم بكلمات غريبة، كان يفعل كل هذا من أجل أن يُخيف الروح الشريرة التي تلبست هذا المريض، فهو يعتقد أنه إذا خافت الروح من هيئته وصراخه ستنتقل خارجة من الجسد، وإذا لم تخرج فعلى المريض أن يتقبل قضاءه وقدره بنفس راضية فتلك مشيئة الإله ألا يتداوى.

انتهى اليوم وتساءل الطبيب الجراح عن الدكتور عابر الذي لم يأت اليوم كما اتفقا على ذلك، فأخبره ميلاد أنه كان لديه حالة طارئة في المستشفى التي يعمل بها فهرول إلى هناك واعتذر عن عدم حضوره، اقترح ميلاد أن يذهب مع الطبيب إلى المستشفى ليتقابلا مع الدكتور عابر هناك، فوافق على الفور لصداقة الطبيب القديمة مع الدكتور عابر.

حينما وصلا إلى هناك كان عابر مُمسكا ببعض الأوراق يتفحصها، استقبلهم الدكتور بالترحيب فبادره ميلاد بالسؤال عن الحالة التي جعلته يتغيب عن ميعادهم

أجابه: كانت حالة طارئة لا تحتمل التأجيل، المهم الآن ماذا فعلتم اليوم مع ذلك المعالج الروحي

- سنحكي لك في الطريق، أم أنك لم تنته بعد؟

- لقد فرغت لتوي فيها بنا.

وفي الطريق بدأ يقص عليه ميلاد والطبيب ما حدث في هذا اليوم مع المعالج الروحي، ثم دعاهم الدكتور عابر لتناول الغداء معه، لكن ميلاد رفض دعوته متعللاً بأن لديه موعداً مع صديقه آدم، وأنه سيتناول معه الغداء، نزل عابر على إرادته، وعندما أشاح بوجهه ناحية الطبيب وجده ينظر في ساعته فإذا بها قد قاربت على السادسة مساءً، فذكر ميلاد بموعد البرنامج الذي سيُعرضه تليفزيون الواقع، والذي سيستضيف فيه المعالج الروحي عيسى. وسيقوم كذلك بعرض عملية جراحية له على شاشة التلفاز.

فقال ميلاد: لكننا رأينا اليوم بأعيننا عملياته، لكن على أية حال سأشاهدها أنا وأدم أثناء تناولنا للغداء.

غادر الجميع، وانطلق ميلاد إلى شقة صديقه آدم، وعندما وصل طرق الباب ففتح له آدم ورحب به، ودلفا الاثنان إلى الداخل، وفي الداخل وجد هناك إمام صديق آدم القديم فعزفه على ميلاد وعزف ميلاد عليه، واقترح عليه تناول الغداء معهما فرحب بذلك ميلاد.

بعد الانتهاء من الطعام طلب ميلاد من آدم أن يفتح التلفاز ليُشاهد البرنامج، وعلى الرغم من وجود التلفاز في شقة آدم إلا أنه لا تستهويه مشاهدته. فكان وجوده في الشقة مجرد قطعة من الديكور لا أهمية لها عنده فلا يعيره اهتماماً ولا يهتم بما يُعرضه، ولكن ميلاد طلب منه أن يجلس ليُشاهد ذلك الطبيب الروحي، وفي حين انتظار الجميع للبرنامج كان ميلاد يشرح لهما ما حدث معه اليوم مع ذلك المعالج.

كان آدم يُتابع حديثه بلا مبالاة، أما إمام فما زال موضوع السحر له بقية باقية في نفسه تستهويه، فكان يستمع باهتمام شديد، فهو من قبل كان مولع بأمور السحر والظواهر الخارقة والمعجزات، وحينما بدأ عرض البرنامج على الشاشة اقترح عليهما آدم أن يُحضر بعض أقداح القهوة، ثم يأتي ويجلس معهما ليُشاهد.

ذهب إلى مطبخه، وبعد فترة وجيزة عاد بأقداح القهوة يحملها بيده، كان ميلاد وإمام يتابعان باهتمام شديد في حين غلبت على آدم حالة من عدم الاكتراث، كان المعالج الروحي عيسى يُجري عملية جراحية أمام المشاهدين ومساعدته يظهر معه، وما أن اقتربت الكاميرا من وجه المعالج عيسى حتى انتفض آدم من مقعده، واقترب أكثر من الشاشة حتى كاد يلتصق بها وصاح

بصوت جهور: إنه هو.... إنه هو... لم يتغير منه شيء سوى لحيته التي أطلقها،
أما ملامحه فهي نفسها.... يعرفها فقط مَنْ يُدقق النظر فيها

قال ميلاد في دهشة: ماذا تقصد؟

- ذلك المعالج

- تقصد عيسى؟

- ليس عيسى إنه سيمون

- سيمون مَنْ؟

- سيمون الساحر لقد قابلته يا ميلاد في عدة مناسبات، ألا تتذكر ذلك
الوجه؟

وانطلق إمام مسرعا عندما سمع الاسم، وبدأ يُنعم النظر في الشاشة التي
أمامه، وصاح هو الآخر قائلا: بالفعل إنه سيمون، أنا لا أنسى هذا الوجه أبدا،
لقد تعلمت منه الكثير عن أمور السحر

اقتربت الكاميرا كذلك من وجه مَنْ يُساعده فصاح إمام وهو يقول: وهذا
سيث يعمل معه كعادته

قال ميلاد: عندما رأيته للوهلة الأولى شعرت أنني رأيت هذا الوجه من قبل،
لكني لم أتذكر حينها، فكنت مشغولا مع ما يفعله

ضحك الثلاثة ضحكا عاليا لم يقطع ضحكاتهم إلا سؤال آدم: أأصبح
سيمون الساحر معالجا روحيا؟ يا لها من سخرية، وأين كان طيلة هذا الوقت؟

قال ميلاد: أعتقد أنه كان في بلاد نائية يتلقى تعاليمه ليُصبح ما هو عليه
الآن

قال إمام: ملامحه الآن قد تغيرت، وأطال شعره كما أطلق لحيته

قال ميلاد: إنها من لوازم العمل، كي يبعث شكله وهيئته الجديدة الرهبة في
نفوس الناس

عاد الجميع إلى الضحك وادم يتحدث مع نفسه قائلا: سيمون معالج روحي!
وبعد أن هدأت الضجة وعاد الثلاثة إلى هدوئهم قال ميلاد موجها حديثه إلى
آدم: كنت أريدك في موضوع هام.....

فقاطعه إمام: إذن سأنصرف الآن

رد عليه ميلاد مجاملاً: لا لن تذهب إنه ليس سر

قال آدم: إذن فلتعد إلى مقعدك يا إمام

وبداً بالسؤال: وما ذلك الموضوع الهام؟

قال ميلاد: لقد قررت الزواج

سكت آدم عن الكلام من هول المفاجأة ثم قال له: أهكذا فجأة؟

- لم يكن الموضوع فجأة... لكنني تعرفت عليها منذ فترة، ولم أשא أن أخبرك حينها، لأنك في تلك الفترة كنت في حالة يُرثى لها بعد أن انتهت علاقتك مع ديانا، فقلت لنفسني أن انتظر حتى تحين اللحظة المناسبة، وأخبرك بالأمر

نهض آدم من مقعده، ونهض ميلاد على إثره ثم قام باحتضانه وهو يقول:
ألف مبروك زواج سعيد، وأتمنى لك هنيء العيش

قال إمام: ألف مبروك يا ميلاد.... زواج سعيد أن شاء الله

وربت آدم على كتف ميلاد وقال: الآن أحكي لي قصة حبك العظيمة

- ما هي بقصة حب... إنها ليست اختياراً للقلب بل اختارها عقلي بعد تفكير شديد، فهي على قدر عال من الثقافة والعلم، وقد تعرفت عليها في مؤتمر لأبحاث الكيمياء، فأعجبتني شخصيتها ثم أمست بيننا علاقة قوية. وبعد أن تفكرت في الأمر أدركت أنها المناسبة للزواج، وأيقنت أن هذا هو الوقت المناسب لتكوين أسرة وعائلة

- وما اسم سعيدة الحظ تلك؟

- ليلى

- وهل حددتما موعد الزفاف؟

- الشهر القادم

- مبارك لكما زواجكما

- سأعرفك عليها.... فهي مشتاقة لرؤيتك بعد كثرة حديثي عنك معها

- أبلغها سلامي وتحياتي وتهنئتي بزواجكما السعيد

ونظر ميلاد إلى إمام وقال له: وأنت كذلك ستُشرفني بحضور حفل الزفاف

- أنا مَنْ لي كل الشرف

ثم قال له ميلاد مازحا: لعلك تكون التالي في الزواج بعدي

قال إمام مبتسما: أنا متزوج يا رجل

نظر إليه آدم في دهشة وقال له: لم تقل لي من قبل

- تلك هي المفاجأة التي كنت أخفيها عنك لوقتها

- وبمَنْ تزوجت؟

- أنت تعرفها جيدا

- مَنْ؟ تكلم يا رجل

- إنها روز زميلتنا في الكلية

ضحك آدم ضحكة عالية وقال له: يا لك من ثعلب ماکر، ولماذا لم تقل لي من قبل؟ وعلى كل حال فمليون مبروك لك ولروز، ولكن قل لي كيف تسير الحياة معكم؟

- سعيد بها جدا، وهي كذلك فلقد تغيرت روز تماما عما كانت عليه من قبل وإذا رأيته اليوم لن تعرفها

- كنت أشعر دوما في نفسي أنها ستتغير يوما ما، كان ذلك منذ حصولها على الجائزة فشعرت حينها بتحولها الدرامي

- لقد أصبحت سيدة منزل ممتازة حقا، كما أنها ترسم في أوقات فراغها

- هنيئا لك سعادة الحياة يا صديقي.

مضت الأيام سريعا إلى أن أتى ميلاد مسرعا إلى شقة صديقه آدم، وكانت الرهبة والخوف تعلو وجهه. طرق الباب طرقات سريعة شديدة حتى فتح له آدم فهرب إلى الداخل وهو يلهث من أثر التعب والركض. كان يحمل معه في يده جريدة بداخلها الكثير من الأوراق.

أجلسه آدم على المقعد، وهو يحاول أن يُهدأ من روعه، ثم ذهب ليُحضر له كوباً من الماء، كان العرق يتصبب منه، تناول كوب الماء في لهفة، وسكبه في فمه ثم بادره آدم بالسؤال: ماذا بك؟ وماذا حدث؟

- جئت إليك لأمر هام، بل شديد الأهمية

قال له آدم في لهفة: تحدث... لقد أقلقنتني

قدم له ميلاد بعض الأوراق التي أخفاها وسط صفحات جريدة وقال له: خذ هذه الأوراق، وأخفها عن أعين جميع البشر، فأنا لم يكن لي سواك لأستأمنه عليها

- وما هذه الأوراق؟

- سأقص عليك كل شيء..

ألقى آدم نظرة إلى الأوراق التي أعطاه إياها ميلاد، ثم تركها على الطاولة التي أمامه وقال لميلاد: اهدأ أولاً ثم بعد ذلك قص ما شئت

وبعد أن هدأ من روعه شرع يقول: خلال عملي في معامل شركة الطاقة العالمية تعرفت على جميع العاملين فيها تقريبا، وخلال أوقات فراغي كنت أعمل على بحث لي، واكتشفت خلال بحثي مادة كيميائية نحصل عليها من خلال طرق معقدة لتفاعلات كيميائية لكثير من المواد، ومن خلال بعض المعادلات نستطيع من خلالها إنتاج طاقة تقوم بعمل المواد البترولية

قال آدم: هذا شيء عظيم تستحق الجائزة العلمية العالمية

- ليس هذا موضوعنا

- ماذا إذن؟

- الغريب في الأمر أن تلك المادة الكيميائية التي خرجت من رحم المعادلات قد نسيبتها ذات يوم في المعمل، ووقعت الأنبوبة على الأرض فتحطمت، وانتشر السائل على الأرض

- وهل هذا السائل خطير؟

- لم يكن به أي ضرر على حد علمي في هذا الوقت

- وما المشكلة؟ ألا تستطيع الحصول عليه مرة أخرى؟

- لا بالطبع... فالمعادلات موجودة، وأستطيع أن أعيد تركيبه

- إذن ما هي المشكلة؟ لقد حيرتني معك

- الغريب أنه كان هناك ذلك الكلب الخاص بالدكتور عابر، الذي كان يُحضّره معه أينما ذهب، قد لحس بلسانه بعض قطرات من هذا السائل، وتغيرت حينها أحواله

- ماذا حدث له؟

- لاحظ الدكتور عابر التغيرات التي أصابت الكلب، فأصبح وديعا يتحرك في الاتجاه الذي يُشير إليه صاحبه، كما أصابته الكثير من التغيرات الأخرى التي لاحظتها جيدا عابر، وبدأ القلق يتسرب إلى نفسه بشأن الكلب، فأخذته لمعمله وقيده وشرع في فحصه

- وماذا وجد؟

- أن بداخله مادة تؤثر بطريقة معينة على أعصابه، لكنه لم يك يعرف ما هي تلك المادة بعد، ظل عاكفا على الفحص والتدقيق، ودراسة حالة الكلب حتى يستطيع معرفة هذه المادة إلى أن أتى لي بعينة من دم الكلب لكي أفحصها وأتبين ما بداخلها.

وعندما نظرت إليها تحت المجهر، وقمت بتحليلها أصابني الدهشة، فتلك المادة التي وجدت في دمه هي ما صنعتها أنا، أدركت حينها أن الكلب قد شرب بعضها منها، لكن الدكتور عابر لم يعلم شيئا عن ذلك، فذهبت بالنتيجة إليه وأخبرته بكل حسن نية أنني من صنع هذه المادة، وشرحت له القصة

- وماذا قال لك؟

- قال لي إنه اكتشف عظيم سيقلب علم الأعصاب رأسا على عقب، ولكنه سينتظر إلى أن يزول تأثير المادة من دم الكلب، ويعرف الآثار الجانبية لها، ومدى الأضرار التي تُصيب من يتناولها.

أصاب الشلل لساني، ولم أستطع أن أتكلم بعد الذي سمعته منه، فأنا لم أقصد ذلك بالطبع عندما اكتشفت هذه المادة، ولكن لأصدقك الحديث فقد انتابني مشاعر مختلطة من الفرح والدهشة، فلقد اكتشفت اكتشافين في مادة واحدة

- ثم ماذا حدث بعد ذلك؟

- بعد عدة أيام زال تأثير المادة من دم الكلب وعاد...

قاطعه آدم: عاد إلى طبيعته

- لا لم يعد كما كان من قبل، بل عاد شرسا مفترسا حتى إنه أصاب الدكتور عابر في ذراعه برغم وفائه الشديد لسيدته، أحضر الدكتور عابر بعد ذلك مجموعة من الأشخاص، وقيدوا الكلب على السرير الخاص به، ثم بدأ الفحص من جديد، وعندها اكتشف شيئا غاية في الخطورة.

قال آدم: وما هذا الشيء الخطير؟

- هو أن المادة تفاعلت مع جزيئات الدم، فأنتجت شيئا جديدا، هو ما جعل الكلب بهذه الشراسة، بعد ذلك طلب الدكتور عابر مني أن أصنع له المزيد من هذه المادة حتى يُعيد التجربة على حيوان آخر ويعرف النتائج، ومضت أيام والدكتور عابر معتكفا في معمله، يقوم بتجربة كل شيء ويكتب تقارير وملاحظات وأبحاثا حتى أنه في خضم ذلك قد نسى عمله في الجامعة، وعمله في الشركة .

سألني الناس عنه كثيرا فأخبرتهم أنه يقوم بإعداد بحث علمي جديد وهو مشغول به لأقصى درجة، حتى أتى اليوم الذي توصل فيه الدكتور عابر بعد ذلك لاكتشاف علمي خطير لم يعرف عنه أحد سوى القليل جدا، ألا وهو أن هذه المادة عندما نستخدم معها مادة أخرى في تفاعل معين نستطيع أن نتحكم في الحيوان فتارة نجعله وديعا، وتارة نجعله شرسا، وبالتالي يكون طوع أيدينا يتحرك بإشارة.

كما ألغت هذه المادة الإحساس والتفكير في جسد الحيوان، فمراكز الإحساس لديه قد أصابها العطب، وعندما أطلعني الدكتور عابر على ذلك، قلت له بسداجة، وماذا سنستفيد من ذلك؟

فكانت الصدمة التي أصابتي في مقتل عندما قال لي: علينا أن نُجرّبها على إنسان

لم أستطع حينها الكلام، وكأني ابتلعت لساني، فقد كان حبه لعمله وللعلم أقوى وأعظم من أي رافة أو شفقة أو عطف، لم يكن في استطاعة أي شيء أن يُزيحه عن الطريق، وحينما سألته، لماذا تفعل كل هذا.... أليس لديك ذرة من رحمة؟

رد على قائلا بابتسامته المعهودة: العلم معشوقة قاسية القلب

عندها اعترضت على ما سوف يفعله، وأعلمته أنه لا... لن يقوم بجعل
البشر حقلاً للتجارب العلمية، إنهم ليسوا حيوانات

فرد قائلاً وقد تغيرت نبرته: كلنا من أصل واحد

أطاحت بتلابيب عقلي الدهشة، وقد صُدمت بشدة بعد سماعي ذلك
الحديث منه، وقلت لنفسي: أهذا هو الدكتور عابر الذي كان يُحدثنا عن الوعي
والأحلام، وحتمية وجود الإله؟

إنه أمام العلم يتحول إلى وحش كاسر لا قلب له

انتفضت قائلاً له: لن أعمل معك

فقال بسرعة وبدون تفكير: لا أريدك أن تعمل معي

فقلت له: ومن أين ستحصل على هذه المادة إذن؟

أطرق قليلاً للحظات ثم قال: دعنا نُفكر بعقلانية.... إنه اكتشاف سيجعل
منا آلهة على الأرض

قلت له: ونتحكم في مصائر الناس

قال: في كل البشر.... أطلق لخيلك العنان، واجعله يذهب بك إلى أبعد
الحدود ثم انظر بعد ذلك إلى أين سنصل؟

قلت له: النهاية ستكون الموت

صمت لفترة ثم حاول أن يستعطفني باسم العلم والتقدم، وتلك
المصطلحات التي نستخدمها عندما تضيق بنا السبل، ونتخلى عن المشاعر
والأحاسيس التي تُميزنا عن الحيوانات، بعد ذلك أدركت جيداً أنه لا يريد العلم،
إنه يستخدمه فقط للوصول إلى سلطة على جميع البشر، لا يريد التقدم
وخدمة البشرية عن طريق العلم، بل يريد أن يصل إلى المعرفة التي لم يصل لها
أحد من قبل... إنه طموحه الشخصي.....

التقط ميلاد أنفاسه ثم عاد لحديثه: بعد أن علمت حقيقة الأمر تركته
وانصرفت، فإذا به يذهب إلى مدراء شركة الطاقة العالمية، ويُخبرهم بالموضوع
وقد بذل كامل جهده لإقناعهم، تهللت أسارير الجميع عندما علموا أنهم حين
يحصلون على هذا الاختراع سيستطيعون أن يتحكموا في مصائر البشر، وهنا
شرع الجميع يتقرب إلى فتارة يغرونى بالمال وتارة بالمناصب العليا، ولما أبيت

قاموا باصطحابي إلى صاحب الشركة، وهو رجل أعمال كبير يُدعى صفوان الأدهم حاول هو الآخر إقناعي واستمالتي، وعندما فشل قام بتهديدي وقال لي سأزج بك في السجن .

فقلت له بسذاجة: أنا لست خارج عن القانون يا سيدي

فقال بسخرية: إذن ستكون كذلك قريباً، فكما ترى أن هذا هو المغزى كله من كونك تتحكم في السلطة، فإذا كان هناك شيء لا يُعجبك فيمكنك ببساطة خلق قانون جديد يجعله غير قانوني

ثم أطرقت للحظات واستطرد يقول: أعتقد أننا أيضاً قد نبدأ العمل على التشريع الذي يجعل قصة شعرك غير قانونية

وضحك ضحكة عالية لم يقطعها سوى صوتي يقول له: افعل ما تشاء، لكن لن تحصل على صيغة المعادلات التي توصلت إليها، فأنت الذي تحتاجني ولست أنا

قال لي بغضب: ألا تعرف بعد مع من تتحدث يا صعلوك، أنا هنا الكبير

تركته وأنا أحاول أن أغادر هذا المكان البشع فاستوقفني رجاله على الباب، فأمرهم أن يتركوني أرحل وبدأت الطرق الغير شرعية التي ينتهجها هؤلاء معي

قال آدم: أية طرق؟

- في البداية أرسلوا لي عاهرة، ولما فشلت قاموا بتفتيش منزلي، وقلب محتوياته رأساً على عقب لعلمهم يجدون شيئاً، وحينما لم يجدوا شيئاً، بدأوا في إخافتي عن طريق التهديد عبر الهاتف بالقتل، ومراقبتي طوال اليوم

- لكن أين خبأت الأوراق؟ فأنت قلت أنهم قد فتشوا منزلك، ولم يجدوا شيئاً

- الأوراق قد خبأتها في قبر العجوز الذي دفناه من قبل، وهذه الأوراق التي في يدي ما هي إلا صورة أحضرتها إليك بعد أن استطعت أن أهرب من الرقابة المشددة

- وماذا عن الصحفي صديقك؟ ألم يستطع فعل شيء حيال ذلك؟

- إنه مغلوب على أمره لا يستطيع أن يُحرك ساكناً فالمنظمة تتحكم في كل

شيء

- أي منظمة؟

- منظمة عين الحياة..... لقد كان حديث جايكوب معنا حق

- وما شأن هذه المنظمة بما تفعله؟

- إنها قصة تطول، سأقصها عليك لاحقا

- وهل أعطيته أوراق المعادلات كذلك؟

- ليس بعد لكنني كتبت له عن كل شيء يخص منشأة المفاعل النووي،

وقدتمت له الأوراق التي تُثبت تورطهم

- أي مفاعل؟

- أنت لا تعرف شيئا مطلقا عما يحدث حولك!، هذه قصة أخرى، فالجميع

يعلم أن الجيش يصنع مفاعلا نوويا ضخما بتمويل من شركة الطاقة العالمية،

ولكن القليل فقط من يعرف ماذا يفعلون في هذه المنشأة؟

- وماذا يفعلون فيها؟

- في البداية لم يكن مسموح لأحد من العاملين في الشركة بالاقتراب من هذه

المنطقة بحكم أنها منطقة تابعة للجيش وقد فرضوا عليها كردونا أمنيا كبيرا، لم

يستطع أحد أن يدخل أو يخرج منها إلا عن طريق كارت الهوية الإلكتروني، كما

يخضع الداخلون إلى هناك للتفتيش الذاتي بداخل هذه المنطقة الشاسعة،

وبعيدا جدا عن مكان المفاعل النووي، وفي آخر ركن في المنطقة العسكرية

تقطن منشأة سرية يُقيمها الجيش تحت الأرض، وكانت عليها حراسة عبارة عن

جيش مصغر.

لم يعلم أحد بها ولا ما بداخلها فقد كان محرما على الجميع اجتياز المنطقة

الخضراء، وهي تلك المنطقة التي تؤدي إلى الطريق إلى المنشأة، وكانت المنشأة

ضمن المنطقة الحمراء غير المسموح بالاقتراب منها مطلقا، وبداخل هذه المنشأة

فريق كبير من العلماء في مختلف التخصصات، وهدف الأبحاث التي يتناولها

العلماء فيها كان التحكم بالعقل في الأساس، وكان ذلك لتحقيق أهداف طبية

في البداية برغم من أن الطرق في تحقيقها لم تكن شرعية.

حاولت نخبة من علماء الأعصاب، وعلماء النفس خلق أمراض بشرية عند

الطلب، فاتجهت الأبحاث في البداية نحو اختراع عقاقير تُسبب فقدان الذاكرة

بعد القيام بمهمات معينة، وعقاقير تُغير من تركيب الشخصية كالعواطف والأحاسيس والشعور بشكل عام.

يتضمن هذا البرنامج كذلك إجراء تجارب تتضمن إزالة الشخصية الحقيقية للفرد عن طريق معالجة كهربائية خاصة، وبعدها يتم خلق برمجة شخصيات متفرقة، وموزعة إلى أقسام مختلفة في العقل، وهذا يجعل الخاضع للعملية مهووسا بأفكار معينة يتم تحديدها وبرمجتها مسبقا، وقد نجح العلماء بالفعل في إنتاج هذه العقاقير، واستخدمها الجيش، فخلق عن طريقها عملاء، ومُنفذي عمليات يقومون بتنفيذ مهام عالية المخاطرة من خلال التحكم الذهني، وخلق شخصيات مزيفة، بل أيضا وبطاعة تامة يقوم الأشخاص في هذه التجارب بتنفيذ عمليات اغتيالات، ويمكن كذلك إرسال عملاء لإنجاز مهام أخرى، وبعد إنجازها تستطيع العقاقير أن تُمحو ذاكرتهم بالنسبة لهذه العمليات التي قاموا بها.

- يا إلهي، ماذا يحدث في العالم؟

- لم يتوقف الأمر على هذا.... فقد كان كل هذا في الماضي، أما الآن بعد اكتشافنا هذا، يريدون أن يقوموا بتجربة هذه المادة لإخضاع الجنود، والسيطرة على عقولهم، ومن ثم يجربوها على جميع البشر

- وكيف عرفت كل هذه المعلومات؟ وأنت قلت لي إن هذه المنشأة لا يستطيع أحد أن يقترب منها

- إنه الدكتور عابر

- هو من أخبرك؟

- ببعض الأشياء فقط، لكن البعض الآخر قد عرفت عندما سرقت بطاقة هويته الإلكترونية، ودخلت إلى هناك

قال آدم متعجبا: سرقت بطاقة هويته الإلكترونية؟!

- كاد الفضول يقتلني لمعرفة ما يجري في هذه المنطقة السرية

- وماذا يفعلون الآن في هذه المنشأة؟

- قلت لك أنهم يقومون بتجهيزها ليقوم العلماء بالتجارب العلمية على الجنود ليتحكموا فيها حتى يستخدموهم في الحروب كما يشاءون

- والدكتور عابر من بين هؤلاء العلماء؟

- إنه كبيرهم، وعلى رأس العلماء المشاركين

- ومن أين حصلوا على المادة ليجربوها؟

- لم يحصلوا إلا على القليل منها مما أعطيته للدكتور عابر، وقد استأجروا الكثير من الكيميائيين الذين يعكفون الآن على صناعة هذه المادة في مختبرات المنشأة

التقط آدم الأوراق التي تحويها الجريدة من على الطاولة وسأل ميلاد: وماذا سأفعل بهذه الأوراق؟

- أخفها جيدا، لعله يأتي الوقت اللازم لظهورها، فتفيد العالم بعد أن تنتهي تلك المنظمة وأفرادها ويسود الخير - أنت خائف؟

- أكذب عليك أن قلت لك لا، لكني أملك الشجاعة لمواجهة مصيري، أما الآن فلنفعل شيئا آخر، أو نتحدث عن موضوع آخر للخروج من تلك الحالة النفسية الشنيعة

- أنت تحب مشاهدة التلفاز سأشغله لك

وذهب آدم باتجاه التلفاز وهو يقول لميلاد: أشعر بأنك تغوص بقدميك في حقل من الألغام

ضحك ميلاد وقال له: بل أنا خبير الألغام

ابتسم آدم قائلا: يقولون إن خبير الألغام يرتكب خطأ واحدا في حياته

فرد عليه ميلاد بابتسامة وقال: بل خطاين

قال آدم: كيف ذلك؟

قال ميلاد ضاحكا: أول خطأ هو قبوله هذه الوظيفة

ضحك الاثنان وبدأوا في مشاهدة التلفاز وتنقل ميلاد بين القنوات، نهض آدم من مقعده وأخبر ميلاد أنه سيعيد له كوبا من العصير حتى تهدأ أعصابه، وقد أخذ معه الأوراق وهرول إلى مطبخه، وضع الأوراق على الطاولة في المطبخ،

وشرع يُحضّر العَصِير، لكن عيناه قد وقعت على صورة في الجريدة التي تحوي الأوراق فأمعن النظر إليها جيدا. وقد أصابته صدمة شديدة أطاحت بعقله.

أمسك بالجريدة وانطلق بها إلى صديقه ميلاد. وألقها أمامه ثم قال له: أتعرف من هذا الذي في الصورة؟

نظر ميلاد إلى الصورة وقال: من؟

قال آدم: انظر جيدا

أنعم النظر إليها مرة ثانية فوجد صورة لشخص يعرف ملامحه جيدا، لكن لحيته قد أضفت على ملامح وجهه غرابية. كانت الأخبار من فلسطين، صاح ميلاد قائلا: إنه جايكوب صديقنا القديم، أليس كذلك؟

- بالفعل هو، لكن ملامحه تغيرت بعض الشيء

ونظرا إلى الخبر المصاحب للصورة فوجدوا الخبر يقول "موسى الصحاح عضو حركة المقاومة الإسلامية الخطير قد أُغتيل اليوم على أيدي قوات الاحتلال الإسرائيلي"

نظر الصديقان لبعضهما البعض بأسى وقال آدم: كيف وصل إلى هذا الحال؟

- إنها الحياة يا صديقي

وبكى الصديقان صديقهما القديم. وتذكرا معا أيام الطفولة، وبراءة الأطفال. والحياة البسيطة الرائعة التي كانوا يحيوها في سعادة ويسر. وترقرقت الدموع من أعينهما لما وصلا إلى ما حدث لمدينتهم الزوراء على إثر الزلزال الذي أطاح بكل جميل فيها.

اقرب موعد الزفاف، والجميع منشغلا في التحضير لذلك اليوم، فكان آدم يساعد صديقه العزيز ميلاد في اختيار كل شيء، وإمام وروز يقومان بعمل الديكور اللازم لتجهيز شقة الزوجية، أما ليلي فكانت مشغولة بتحضير فستان زفافها ولوازمها الأخرى، الكل يسعى على قدم وساق حتى يخرج هذا اليوم الرائع بأبهى صورة، إنه اليوم الذي سيُتوج فيه ميلاد أيام عزوبته بزواجه السعيد.

انتهى الجميع أخيراً من كل شيء ولم يتبق على الموعد سوى يومان، فاقترح آدم على ميلاد القيام بمغامرة مجنونة ألا وهي الاتصال بالمعالج الروحي عيسى، وتحديد موعد معه لإجراء جراحة عاجلة، ويقوم حينها الصديقان بالتخفي عن طريق تغيير ملامح وجوههم باستخدام مستحضرات التجميل والألوان والشعر المستعار.

تهلل ميلاد فرحاً لهذه المغامرة، وقد أعلمه آدم أنهما بعد ذلك سيخبران سيمون وسيث بشخصياتهما الحقيقية، ويقوم ميلاد بدعوتهما لحفل زفافه، ويطلب منه استعراض بعض حيله السحرية القديمة التي كان يقدمها في المهرجانات أمام الناس، وبالفعل شرع الصديقان بالاتصال، وتحديد موعد معه.

في اليوم التالي وعند اللقاء بدأ آدم في التمثيل بأن لديه ألماً في البطن، وأن ميلاد يعاني نوبات صرع، وكان مظهر الاثنين يدعو إلى الشفقة بعد أن غيرت مستحضرات التجميل كثيراً من معالم الوجوه، كما أجاد ميلاد وآدم التمثيل ليستمتعا بهذه الحيلة.

كانا ينتظران في معبده حتى أتى دورهم فنأدى سيث على أولهما، فنهض الاثنان من مقعدهما معاً، فاعتذر لهما سيث وأخبرهما أن عيسى سوف يرى واحداً تلو الآخر، لكنهما أصرا على الدخول معاً متعللين بأنهما لم يفترقا في يوم من الأيام، نزل سيث على إرادتهما بعد أن أعلم سيمون بذلك.

في حجرة العمليات بدأ عيسى بتلاوة الصلوات كعادته، وطفق يفحص بطن آدم، وكالعادة أتى مساعده سيث وأحضر القطن والكحول وغيرها من المستلزمات، كان آدم يتلوى من الألم كما اتفقا على ذلك، وبعد أن انتهى عيسى من عمله قال له: الآن لقد شفيت حمداً للإله على سلامتك

فرد عليه آدم: أشكرك شكراً جزيلاً على مساعدتك لي

ثم نظر عيسى إلى ميلاد وقال له: عليك أن تستلقي على السرير

ففعّل ميلاد ما أمره، وبدأ يفرك إصبع قدمه الكبير وقال له: أخبرني بأن نوبات الصرع تأتيك أحياناً، أليس كذلك؟

- نعم هو كذلك

- إنه شيطان يتلبسك، وهذا العمل له طقوس أخرى

لم يستطع آدم أن يكتفم ضحكاته أكثر من ذلك فقال له: ما قصتك مع الشيطان يا سيمون؟

سمع عيسى ذلك الاسم الذي لم ينطق به أحد منذ زمن طويل، وأصابته صدمة لدى سماعه، واضطرب عقله، وبدأ يتلعثم في الحديث قائلا له: مَنْ سيمون؟

قال له آدم: في البداية كنيسة الشيطان، وفي النهاية يتلبسك الشيطان، ما هي القصة بالضبط؟

قال سيمون في دهشة: مَنْ أنتما؟

قال ميلاد: نحن أفعالك السوداء

وقال آدم: نحن مَنْ سنخلص العالم من أذاك

ثم أخرج من ملابسه مسدسا صغير الحجم، وصوبه باتجاه سيمون وسيث ارتعدت فرائص عيسى، وجثا على ركبتيه أمام آدم يسترحمه وهو يقول: أرجوك سامحي، لا تؤذي، فأنا أفعل هذا من أجل المال

قال ميلاد: أليس هناك شياطين لتُخرجها أيها الأفاك؟

كان سيث يقف في صمت، ودهشة مما يحدث أمامه فنظر إليه آدم وقال له: وأنت سيث؟

رد عليه سيث قائلا: وكيف عرفت اسمي؟

قال ميلاد: نحن نعرف كل شيء أيها الدجلان

وبدأ سيمون وسيث في البكاء، وعندها قد خلعا أقنعتهما، وضحكا كثيرا على منظرهما وهما خائفين، ولما نظرا إلى وجوههما قال سيمون وسيث بلسان واحد: آدم

ضحك الجميع على هذه الحيلة، وقاموا بعدها بتحية بعضهم البعض ثم جلسوا لبعض الوقت معا يتحدثون

قال آدم: جئناكما اليوم لدعوتكما إلى حضور حفل زفاف ميلاد غدا أيها الماكران

فهنأه الاثنان ووعدهه بالهضوره؁ ثم جلسوا معا لفتره من الوقه بعد أن
ألغى سيمون جميع الحالات الأخرى لذلك اليوم

بادر آدم بسؤال سيمون: ما الذي جعلكما تفعلان هذا؟

أجابه سيمون: لقد حكمت المحكمة علينا في قضيه كنيسة الشيطان
بالسجن ثلاث سنوات لكل منا أنا وسيث؁ وما كان لدينا سوى أن نهرب بعيدا؁
ونختفي عن الأنظار حتى تسقط القضية

- وبعد ذلك؟

- حاولنا العوده متخفيين بعد أن غيرنا ملامحنا؁ ومهنتنا أيضا حتى لا يُشك
فينا أحد وهما هو حالنا الآن.

قال ميلاد: لكني عرفت أنك تظهر على شاشات التلفاز؟ ألا تخشى من
افتضاح أمرك؟

رد سيمون: نحن نظهر على التلفاز بناء على طلب من السلطة يا فتى

قال متعجبا: طلب السلطة؟!

- نعم؁ كي نشغل الناس عن التفكير في موضوعات أخرى... إنها قصة طويلة

أقام ميلاد حفل زفافه على شاطئ النهر؁ كان الحفل هادئا ولم يكن هناك
سوى القليل جدا من الحضور؁ فكان آدم وإمام ومعه روز؁ كما حضرت والده
إمام معه فهو لم يشأ أن يتركها بمفردها في المنزل؁ كذلك أتى الصحفي نضال
وبعض أصدقاء زوجته ليلي.

وقف الجميع ليُشاهد العروسين وهما يتراقصان على أنغام الموسيقى
الهادئة حتى أتى من بعيد شخص يعرفونه جيدا؁ تقدم بخطى ثابتة نحو الحشد
المجتمع في شوق بعد غياب دام طويلا فإذا بملامح وجهه تظهر رويدا رويدا على
الضوء الخافت للحفل؁ انطلق ميلاد مسرعا ناحية الجميع؁ وأشار إلى ذلك
الشخص وقال لهم: تلك هي مفاجأتي لكم

فتقدم الشخص؁ فإذا به ضياء زميلهم القديم يأتي من بعيد فانشرحت
صدور الجميع لرؤية صديقهم المحبوب ضياء بعد أن غاب عنهم طويلا.

حياء الجميع وشرعوا يتحدثون في أمور شتى وعلموا منه أنه كان يتعلم العلم حتى يُمسي كما والده راجح فياض الفيلسوف الكبير، تهللت أسارير الجميع لدى سماعهم ذلك وقال له آدم: إنك لها بالطبع، أنت الشخص المناسب لذلك

كانت والدة إمام تقف بجانبه وهو يهمس لها قائلاً: تبدو ليلى متحمسة جداً بشأن فستانها

قالت له: الجميع يتحمسون عند زفافهم

- وماذا في ذلك؟

- لا شيء لكني أعتقد أن الزواج لا يصلح للجميع، أعتقد أن الجميع يحتاج لسبب يُقَدِّم على الزواج كما يحتاج لسبب للقيام بأي أمر آخر

قال إمام: وما هي أهم الأشياء للزواج الناجح برأيك؟

قالت ساخرة: ذاكرة سريعة للنسيان

- لماذا تزوجت بأبي إذن؟

- لا أستطيع أن أتذكر ولكن فقط لأنجيك

ابتسم إمام ابتسامة خفيفة ثم بدأ يتابع الحفل فهيمت له وهي تقول: ما يُميت الحب ليس الزواج ما يُميت الحب هو روح الملكية التي تتمكن في كل زواج

قال إمام ضاحكاً: ليس هناك رجل لا توسوس له الروح بالفرار من زوجته حتى لو كانت حسنة الدنيا، وأنتِ تقولي لي الملكية

انقضى الحفل في هدوء كما بدأ في هدوء، وانتقل ميلاد وزوجته إلى منزلهما الجديد، وعاود كل من الحضور أدراجهم، دلف الزوجان إلى المنزل وجلسا متقاربان على حافة فراشهما فبادرها ميلاد القول: كيف ارتبطت بك؟

قالت ليلى متعجبة: ماذا؟

- بصراحة... كيف كنت بهذا الحظ؟

- حسناً أنا الأخرى أسأل نفسي هذا السؤال طوال الوقت

ثم تجهم وجهها وقالت له: إنه حظي السيئ

بدأت علامات الحزن على ميلاد فقالت له: أنا أمزح يا عزيزي، فأنت بالتأكيد جزء من الخطة

عادت الدهشة تملو وجهه فقال: خطة؟! أية خطة؟

- الخطوة الأولى مقابلة رجل لطيف، ذكي، والأكثر جاذبية بين الرجال

- والخطوة الثانية

- الخطوة الثانية أن أتزوجك أنت بدلاً منه

ضحك ميلاد ضحكة عالية وقال: والخطوة الثالثة؟

قالت: لا تريد أن تعرف الخطوة الثالثة فلا مزيد من الخطوات

- بل أريد أن أعرف ما الخطوة الثالثة

- الخطوة الثالثة هي...

قالت بدلاً من استطردها قائلة: هي الانتقال إلى مكان أكثر دفئاً

قال لها: كنت أعرف أنك ستقولين ذلك، وحملها على ذراعيه وألقى بها في منتصف الفراش ثم أطفأ أنوار الغرفة.

في صباح اليوم التالي كان رجال الشرطة يحيطون المنزل من جميع اتجاهاته، ويرفضون دخول أو خروج أحد، انطلق آدم إلى هناك مسرعاً بعد أن سمع بهذا الخبر الأليم، فتوجه إلى هناك على الفور، لكن رجال الشرطة منعه من الدخول. ومع إصراره العظيم وصراخه، نزلوا على إرادته، وأفسحوا له الطريق إلى الداخل، مع تعهد منه بعدم لمس أي شيء داخل المنزل.

دخل آدم المنزل بخطى مترقبة فوجد الزوجين مُستلقيين على فراشهما، والدماء تحوط بهما من جميع الجوانب، لقد تمت تصفيتهما بلا رافة أو رحمة. قامت المنظمة باغتيال ميلاد بعد أن فشلت كل الحلول السلمية للحصول على معادلاته.

اغتالته الأيدي الآثمة، وسوف تحمل عارهم إلى يوم الدين، كانت الدموع تنسكب من بين عينيه بلا توقف، ولما نظر إليهما وقف مشدوداً من أثر الصدمة

لا تقوى قدماه على حمله، رأى جثتي ميلاد وزوجته ليلى في أول يوم لزواجهما، وكانت الملاءات البيضاء تُغطّيهم بعد أن تلوّثت بدمائهم.

ظل لحظات مطرقا لم ينبس بكلمة، وقد شرد بعيدا لم يوقظه من غفلته هذه إلا صوت مدير الشرطة يُخبره بأن عليه الخروج الآن، سار نحو باب المنزل إلى أن خرج إلى الشارع، جلس على الرصيف المقابل للمنزل، وهو لا يستطع الحركة، يتفكر فيما رآه منذ لحظات، ويتذكر صديقه العزيز إلى قلبه، والذي كان يمتلئ حيوية وعلمًا وثقافة وينطلق هنا وهناك بعد أن أصبح جثة هامدة ساكنة لا حياة فيها.

أهكذا تتلاعب به الأقدار، ويفقد في النهاية ما تبقى له في الحياة، لقد رحل عنه الكثير، فالبداية مع الأب ومازال يمر قطار الموت ليأخذ ما تبقى له، فكانت أمه ثم حكيم، وفي النهاية صديقه ميلاد، أو لعلها لن تكون النهاية، فالقطار ما زال يسير، ولن يتوقف حتى ينتهي العالم، لقد رحل ميلاد لكنه لم يرحل طوعا بل رحل كرها وغصبا وقهرا وظلما وعدوانا بعد أن اغتالته أياد قذرة، وتلوّثت تلك الأيادي بأشرف وأطهر دماء، رحل فداء لعلمه فداء لخدمة البشرية جمعاء، رافضا للظلم والقهر والتحكم، رحل وهو يرفع راية الإنسان، رحل وهو ثابت على مبادئه العظيمة، رحل خدمة للناس، رحل بشرف وكرامة لم تتسنى لأحد غيره في هذا الزمان.

نفذ آدم عنه أفكاره ثم نهض في عصبية قائلا بصوت جهوري والدموع تسيل أنهارا على وجنتيه: لكن لا... لن تسيل دماؤك هدرًا يا صديقي، سأعود بحقك وأوافيك به، لن أقدر على إعادتك للحياة، لكني قادر على العودة بحقك كاملا وفاء لك ولصداقتك ولوفائك لعلمك، سأتي بقاتلك مكبلا بظلام فعلته.

انطلق مسرعا إلى منزله، وشرع يُفكر فيما سوف يفعله ليثأر لموت صديقه ميلاد، وأول ما خطر على باله هو الاتصال بالصحفي نضال لعله يعرف منه مَنْ كان وراء قتله، وبالفعل أقدم على الاتصال به، وتحدث إليه طالبا مقابلته، وافق نضال على المقابلة.

في الموعد المحدد جاءه نضال وقدم إليه تعازيه الصادقة، سأله آدم عمّن يظن أنه وراء قتل ميلاد، فطفق يشرح له القصة كاملة، وأعلمه أنه توصل إلى كثير من المعلومات بشأن قضيته مع الخونة والفاستدين، وقد علم أخيرا أن

يهودا محامي صفوان الأدهم كان يتلاعب به ليُغطي على الجرائم الكبرى، فكان يصرف نظره إلى قضايا فرعية حتى لا يتجه إلى قضيتهم الكبرى.

كان يعتقد في قرارة نفسه أيضا أن رجل الأعمال هورئيس المنظمة، وأنه مَنْ يقف خلف كل تلك المصائب والكوارث التي تُرتكب في حق البلاد، وهو لا يستطيع أن يصل إليه، ربت آدم على كتفيه ثم قال له: سأصل أنا إليه

فقال له نضال: كيف؟

- لي طريقي الخاصة

عاد آدم إلى المشرحة بعد أن انتهى الطب الشرعي من تشريح جثة ميلاد لمعرفة كيفية القتل وسببه، حاول أن يُلقى نظرة أخيرة على جثمان صديقه قبل أن يوارى الثرى، رفع الملاء البيضاء عن وجهه ثم خطف نظرة سريعة، وأشاح بوجهه سريعا، ثم أعاد الملاء مرة أخرى على الجثمان، أخبره مدير التحقيق أن كل شيء قد انتهى بالنسبة للجثمان، وعليه الآن التوقيع على بعض أوراق استلام الجثة لكي يقوم بدفنها، وقع آدم على جميع الأوراق واستلم الجثة.

اتخذ قرارا بدفن جثة صديقه أعلى الجبل بجانب جثة العجوز حكيم، وتمت مراسم الدفن وعاد من أتى إلى أدراجه، وأثناء العودة سار آدم قليلا مع الصحفي نضال، تفكر نضال قليلا ثم قال متعجبا عندما رأى وجه جلال الديب في مراسم الدفن: هل ميلاد يعرف ذلك الرجل؟

وأشار إلى جلال الديب الذي كان يغادر بسيارته

رد عليه آدم قائلا: ليس بالضبط

- وما الذي أتى به إلى هنا؟

- إنه خالي

توقف نضال قليلا عن الكلام بعد أن سمع هذا وقال له آدم: ماذا بك؟

قال له بشدة: هذا الرجل من أشد الرجال فسادا في البلاد وتقول لي الآن أنه خالك، أرى أنكم جميعا عصابة وتتلاعبون بي

قال آدم مهدئا نضال: اهدأ فلا شيء مما قلته صحيح

- بل كل ما أقوله هو الصدق، فأنا أعرف هذا الرجل تمام المعرفة

- دعنا نجلس في مكان، وشرح لي فأنا لم أعد أفهم شيئا

جلس الاثنان على أحد المقاهي وبادره آدم بالسؤال: وما قصة هذا الرجل؟

فشرح له نضال أن جلال الديب قد قام بتزوير الانتخابات لصالحه. وأنه وراء جميع التشريعات القانونية التي تخرج من تحت عباءة المجلس الوطني، والتي تساعد الفاسدين ورجال الأعمال، وتجعلهم يتحكمون في كل شيء والأدهى من ذلك أنه واحد من الأعضاء في منظمة عين الحياة.

كان هذا الكلام جديد تماما على مسامع آدم فلقد سمع عن الضجة التي حدثت أيام الانتخابات، لكن وقتها قد أقنعه خاله بأن كل هذا محض كذب الهدف منه تشويه سمعته. ولقد صدقه آدم في البداية فهو لا يهتم إطلاقا بالسياسة والأعيان، كما أنه يثق في خاله ثقة عمياء أعمت عينيه عن رؤية الحقيقة.

لكن نضال لكي يؤكد لآدم صدق حديثه اصطحبه معه إلى مكتبه في القناة، وأطلعته على المستندات والأوراق التي تثبت تورط جلال الديب مع صفوان الأدهم في كثير من الصفقات السياسية والقانونية المشبوهة، وبعد أن اطلع آدم على ذلك قرر البحث بجدية لمعرفة رءوس الأفاعي في تلك المنظمة، وساعده في ذلك البحث نضال حتى توصلوا إلى نتائج خطيرة، وعلموا أن أيادي المنظمة تمتد لتشمل جميع بلاد العالم وليس بلدهم فحسب، على الرغم من عدم معرفة أعضائها ببعضهم البعض، ولكن الكل يسير حسب الخطة المرسومة بكل دقة.

هنا تذكر كلام صديقه جايكوب الذي أخبره من قبل بمثل هذا الحديث حتى ظنه يعيش في نظرية المؤامرة، ولكن كلامه قد ثبت الآن صحته، ومما اكتشفاه أيضا أن هناك علاقة بين الديكتاتوريين في العالم برئيس المنظمة، وقد استغلّتهم المنظمة في التنقيب عن الذهب والبترول في أراضيهم بعد الحصول على ملايين من ثروات بلادهم الوطنية.

أدرك آدم حينها كم كان ساذجا، لا يعلم شيئا مما يدور في أروقة هذه الغابة الكبيرة، لكنه بعد أن أنعم النظر وتمعن في البحث والإطلاع وراء هذه المنظمة اكتشف أن الجميع يعيش في مؤامرة كبرى يُنفذها بكل دقة أعضاء يعيشون في الظلام وفي الخفاء ينشطون ويتحكمون في مجريات الأمور، وعلى الرغم من إطلاعه الواسع، وشغفه بقراءة كل شيء إلا أنه كان ينفر دوما من قراءة أي شيء عن السياسة، فاعتقاده أن السياسة ضد الفطرة الإنسانية بكل ما فيها

من قسوة وغش وخداع ومكر، كانت على عكس طبيعته، وذلك هو ما جعله ينفر منها على كل حال دون أن يدري سببا لذلك.

كان آدم ما زال يجد في البحث في حين كانت التحقيقات في مقتل صديقه ميلاد وزوجته تجري في الوقت ذاته على قدم وساق حتى أمسكت الشرطة بتلايب القاتل وأودعته السجن في انتظار حكم المحكمة عليه، طلب آدم من مدير التحقيقات أن يقابل القاتل، ويجلس معه فرفض متعللا بخطورته، وعندما أصر آدم على هذه المقابلة نهز مدير الشرطة بشدة، لجأ إلى خاله حتى يتدخل في ذلك الموقف ويساعده في مقابلة قاتل ميلاد، وحينما سأله الخال عن السبب أخبره بأنه يريد أن يعرف منه سبب قتله، ولما كان الخال متأكد من أن السجين لن يبوح بسرّه لأحد تدخل وسمح لأدم بمقابله السجين.

قبل موعد الزيارة كان آدم قد أعد بحثا عن ذلك القاتل، وعرف عنه الكثير، وفي موعد الزيارة رأى وجهه ينم عن هدوء، وبه مسحة من الطيبة لم يعهدها من قبل مع المجرمين والقتلة والسفاحين، ضغط عليه وهدده بأذية أبناء فقال له السجين: أنا هنا سوف أموت، وإذا بوحث لك بما ينطوي عليه صدري سأموت كذلك

قال له آدم وهو يترجاه أن يعترف له بالحقيقة: إذن أرح ضميرك الذي يؤنبك وقل لي الحقيقة، من وراءك؟

قال له بأسى: أنا من قتلته، تلك هي نهاية المسألة

- أنت لست قاتلا

قال بعصبية: بل قاتل

- أنت كبش فداء لكن قل لي من تحميه؟

- إن لي من الأبناء سبعة، وأنا كهل ولا عمل لي، فقتلت لأحصل على المال للأبناء لتأمين مستقبلهم

- أقتل أحدا لم تعرفه من قبل، ولا حتى قد رأيته من قبل من أجل المال؟

- أنت لا تعرف شيئا عني فلا تحكم عليّ

- خلص ضميرك، وأخبرني من وراءك؟ فأنت ميت على كل حال

- أنا القاتل.... تلك هي الحقيقة، فهل لك أن تتركني؟

- ألا تخاف على أبنائك فهم بالخارج؟

- سأقول لك شيئاً واحداً، ولعلك تتركني بعدها

- أسمعك تفضل

- جاءني رجل على ما أعتقد محامياً، وقال لي أن اعترف في مقابل الكثير من المال، أنا حتى لم أر القاتل، ولم أقتل في الحقيقة

- حسنا هذا ما كنت أريده

وقبل أن يغادر آدم استوقفه السجين وقال له: إياك وأبنائي

فقال له آدم: لا تقلق عليهم.

ثم تركه وانصرف يبحث عن ذلك المحامي، وبعد البحث الطويل اكتشف أن ذلك المحامي هو يهوذا محامي صفوان الأدهم. وهو الذي جاء بهذا الرجل ليحل محل القاتل ليحميه، وعندها علم أن صفوان الأدهم رجل الأعمال هو من وراء قتل ميلاد.

ذهب إلى منزله يتفحص الأوراق التي تركها له ميلاد. اخذ يُقلب فيها ويثني الأوراق التي تشرح المعادلات ويضعها جانبا حتى وجد في وسطها ورقة قد دسها ميلاد بين أوراقه يخبره فيها بأنه إذا حدث له مكروه فعليه أن يعرف أن الفاعل سيكون رئيس المنظمة، عليه أن يبحث عن الرجل الخفي ولا ينقاد وراء المظاهر، فالموضوع كله يخص الرئيس، كانت إشارة ميلاد في رسالته إلى شخص خفي لم يعرفه أحد، ولا حتى ميلاد شخصياً فإذا كان هذا الشخص هو صفوان الأدهم فميلاد قد تقابل معه من قبل، فهو إذن ليس صفوان الأدهم كما يعتقد الجميع.

انطلق آدم إلى أعلى الجبل، وعند حلول المساء بدأ في نبش قبر العجوز على ضوء المصباح الذي يحمله حتى توصل إلى موضع الأوراق الأصلية التي تركها ميلاد هناك، لكنه فوجئ بوجود مسدس صغير الحجم موضوع على الأوراق.

أخرج المسدس وتفحصه جيدا وهو يتساءل لماذا وضع ميلاد هذا المسدس بجانب الأوراق؟

كان المسدس يمتلئ بالذخيرة. أخذه آدم ودسه في جيبه ثم أعاد الأوراق إلى مكانها حتى لا يطلع عليها أحد بعده.

هرول آدم إلى قصر خاله جلال وطرق الباب ففتح له الخادم فسأله عن خاله، أخبره الخادم أنه يجتمع مع رجل الأعمال صفوان الأدهم، كانت الفرصة سانحة وقتها ليستمع ما يدور بينهما في الخفاء، سار على أطراف أصابعه بعد أن انصرف الخادم، ثم وقف بجانب باب غرفة مكتبه يسترق السمع لعله يستمع إلى شيء يصل به إلى حقيقة الأمر وتطرق إلى سمعه حديثهما.

كان جلال يتحدث إليه ويقول: هل توصلتم لها بعد؟

أجابه صفوان: ليس بعد

- إذن قتلتم الرجل، ولم تحصلوا على الأوراق في النهاية

- الكبير هو من أمر بقتله

رد عليه جلال قائلاً: أيعرف الكبير بالأمر

- الكبير يعرف كل شيء

- سأذهب إليه أنا لأتحدث معه فيما وصلنا إليه

- حسناً، لكن قبل أن تنصرف قم بالاتصال بالجنرال هامان

لما سمع آدم اسم الجنرال هامان انتابته صدمة عظيمة. وبدأ يتحدث مع نفسه أيكون الجنرال هامان هو كبير المنظمة؟ إنه وزير الدفاع، والمتحكم الرئيسي في الجيش، ويده مقاليد كل شيء في البلاد، لم يك يخطر ببال آدم في يوم من الأيام أن الخيانة العظمى تأتي من أعلى سلطة في البلاد، فهل وصلت المنظمة إلى التحكم في الجيش أولعل الجيش نفسه تابع للمنظمة؟!

أيكون الجنرال هامان هو الرجل الخفي؟.

تساؤلات لا تنته، وحيرة قد بلغت به مداها، يا لها من لعبة قذرة متورط فيها كل الأطراف، الآن علم السروراء ترك ميلاد لذلك السلاح بجانب الأوراق، لقد أراد به أن يخلص العالم أجمع من رأس الأفعى، وقبل أن ينصرف آدم نادى على الخادم، وطلب منه ألا يخبر أحد بمجيئه إلى هنا، هز الخادم رأسه ووعد أنه سوف يفعل، غادر آدم بعدها إلى منزله يفكر في الخطوة التالية وما سوف

يفعله محاولا الحفاظ على سرية المعلومات التي حصل عليها من الأوراق. ومن التنصت على حديث خاله جلال وصفوان الأدهم.

بعد تفكير عميق توصل أخيرا إلى حل. هرول عائدا إلى خاله يستأذنه في الحصول على موعد مع الجنرال هامان. عندما سمع جلال الاسم أصابته صدمة لكنه استدرك نفسه سريعا وقال له متعجبا: الجنرال هامان مرة واحدة، وهل مقابلته بهذه السهولة؟

- أريد مقابلته في أمر هام

- وما هو هذا الأمر الذي يستدعي وجود وزير الدفاع شخصا؟

- لا أستطيع أن أبوح لك به

- ولماذا؟

- لأنه سر

- أهكذا الأمر إذن؟

- لماذا لا تأخذ كلامي على محمل الجد؟

- قل لي ماذا سأقول له عن سبب رغبتك في مقابلته

- أخبره أن ميلاد ذلك الكيميائي... قد اكتشف مادة خطيرة سوف تكون سببا في تقدم هذه البلاد

سمع جلال كلماته فاثارت انتباهه ثم قال له: وما علاقة الجنرال هامان بموضوع كهذا؟ من المفترض أن تذهب بها إلى الهيئة العلمية

- ميلاد قبل موته أراد مني عدم إطلاع أحد على مكان أوراقه التي تركها إلا الجنرال هامان بنفسه. ولا أدري لماذا طلب مني هذا؟ لكنني على أي حال أخذت عهدا على نفسي بتنفيذ وصيته

- إذن أحضر لي الأوراق. وسأذهب أنا بها إليه

قال له بعصبية شديدة: قلت لك لا أستطع، فهي أمانة ثم أن الأوراق ليست معي. بل هي في مكان لا يعرفه سواي

- إذن اذهب لتُحضرها

- لا أستطيع أن أخلف وعدي له

- حسنا، وأين تريد أن تقابله؟

- لن أقابله في مكتبه، وعند تحديد موعد المقابلة معه سأخبره بالمكان يومها

- أراك تتصرف مثل رئيس عصابة ما

- أعذرني يا خالي، لكن ميلاد قد قتله إناس كانوا يريدون أن يحصلوا على هذه الأوراق ولحسن الحظ أنهم لا يعلمون أنني أعرف مكانها، وإلا كنت القتل التالي بعد ميلاد

- إذن سأخبره على أية حال

وبالفعل قام جلال بإخبار تلك المحادثة التي دارت بينه وبين آدم بكافة تفاصيلها إلى الجنرال هامان، واستبشر أخيرا بالحصول على الأوراق التي طالما أنهمكهم التعب للوصول إليها، وها هي الآن تأتي إليهم حتى عتبة بابهم وبدون أدنى مجهود.

في الموعد المحدد مساء يوم شتوي ممطر كان آدم يختبئ بين أشجار الغابة الكثيفة على أطراف العاصمة مُنتظرا وصول الجنرال هامان، جاءه الجنرال بسيارته الفارهة، وترجل منها وهو ينظر في كل اتجاه لعله يرى أحدا، وعندما اطمأن آدم الذي كان يراقبه عن كثب من خلف الأشجار أن أحدا لم يصحبه، وبعد أن تأكد أنه قد أتى بمفرده، خرج إليه من وسط الأشجار وقابله فحياه، كان هامان ذا طلعة مهيبية يكسبه وقارا شعره الأبيض وطوله الفارع وجسده الممتلئ، قال له الجنرال: لماذا تختبئ داخل الغابة وسط الأشجار يا بني؟

أجابه آدم ببراءة الأطفال: تعلم جيدا يا سيدي أن ميلاد صديقي قد قتله إناس بسبب هذه الأبحاث، وخفت أن يكون علم أحد بأني أعرف مكانها

رد عليه بابتسامة وعيناه تمتلئ بالثقة: لا تخشى شيئا يا ولدي فأنا الآن بجانبك

ثم دخل الاثنان إلى الغابة، مشوا في الغابة لفترة إلى أن توقفوا أمام شجرة عظيمة في منتصف الغابة وقال له آدم: عليك أن تحفر تحت هذه الشجرة لكي تجد الأوراق

رد عليه غاضبا: كيف تجرؤ يا ولد أن تقول ذلك؟ أنا الجنرال هامان أجتو على ركبتك لكي احفر

- أستمحك عذرا يا سيدي لم أقصد إهانتك، لكنها وصية ميلاد فهو لم يرد أن يحصل عليها غيرك

لم يشك الجنرال في سذاجة آدم وطيبته التي أخبره عنها جلال، وخلع حلته الأنيقة ووضعها أرضا، لمح آدم بداخلها مسدسا صغيرا، تناول السترة من على الأرض فانتفض هامان، واستوى واقفا ثم جذب السترة من يد آدم بسرعة وهو يسأله: ماذا أنت فاعل يا ولد؟

أجابه آدم بسذاجة يصطنعها: كنت سأعلقها على غصن شجرة حتى لا تلوثها التربة

هدأت سورة الغضب وعاد ليشمّر عن ساعده، وجثا على ركبتيه تحت الشجرة وشرع بالحفر، حفر عميقا إلى أن أنهكه التعب من الحفر العميق ولم يجد شيئا، رفع بصره إلى ناحية آدم فوجده يصوب السلاح إلى رأسه، ارتعدت فرائصه لدى رؤيته السلاح فهذا لم يك يتوقعه على الإطلاق وقال له بهدوء مصطنع: ماذا تفعل يا بني؟

قال آدم: أنت من وراء قتل ميلاد، أليس كذلك؟

- أترك هذا السلاح حتى لا يؤذيك يا ولدي

- قل لي الحقيقة أنت الذي أمرت بقتل ميلاد

- أنا لم أقتل أحدا صدقي

- لكنك أمرت بقتله، أنت رئيس المنظمة؟

- أية منظمة؟

- لا تتلاعب معي، فأنا أعرف كل شيء، منظمة عين الحياة

- لا ليس الأمر كذلك...

قاطعه آدم: أنتم من تتحكمون في مصائر البشر، أنت الرئيس

ثم قرب السلاح من وجهه فتسارع هامان بالقول: انتظر

- ماذا تريد أن تقول؟

- أنا لست الرئيس؟

- ومن هو إذن؟

- لا أستطيع إخبارك؟

- لماذا؟

- لا أستطيع

- إذن ستموت.

كان الجنرال يحاول أن يُطيل فترة الحديث معه ليُفكر فيما سوف يفعله لعله ينتهز الفرصة ويتخلص من موقفه هذا. اقترب آدم أكثر منه وأمسى السلاح أمام عين الجنرال. وهنا حانت اللحظة الحاسمة فهوى بيده على يد آدم التي يحمل بها المسدس، لكنه كان يُمسك به بإحكام شديد فلم يسقط السلاح من يده.

حاول أن ينهض هامان من مكانه فأطلق آدم رصاصة على إحدى قدميه فطرحه أرضاً، كانت الدماء تنزف من القدم بغزارة، وهامان يتألم بشدة وهو ينظر حوله في المكان ويحاول أن يسترحمه، لم يشأ آدم أن يقتله قبل أن يعرف منه ما خفي عنه.

قال له آدم: مَنْ رئيس المنظمة؟ تكلم

- لا أستطيع القول

- ستحدث بكل شيء، وإما تموت

وعاد ليقرب منه ثانية موجها السلاح صوب وجهه، كان هامان يتلفت دائماً يمينا ويسارا وهو يصرخ ثم أغمض عينيه وهي تقطر دمعا وعاد يستعطفه مرة ثانية. لكن آدم أبى أن يرحمه ورجع خطوات إلى الوراء وأطلق رصاصة ثانية على قدم الجنرال الأخرى فصاح بصوت جهوري وهو يتأوه من شدة الألم: ارحمني أرجوك

قال آدم: مَنْ الرئيس إذا لم تكن أنت؟

أجابه في يأس: إنه ديابلو

تعجب آدم من هذا الاسم الذي سمعه لتوه فقد كان يتوقع أن يقول له أحد الأسماء التي يعرفها آدم لكن ديابلو هذا لم يسمع به مطلقاً، قال له: وَمَنْ ديابلو هذا؟

كان الجنرال قد يح صوته وخفت من كثرة تألمه وصراخه، فلم يستطع آدم سماعه، حاول أن يقترب أكثر منه ليتسنى له أن يسمع بوضوح، وفي طريقه ليدنونه منه تعثرت قدماه في أحد الأغصان الساقطة من الشجر فسقط على الأرض، وبلا إرادة منه خرجت رصاصة من المسدس فاخترقت صدر الجنرال هامان فصرعه الموت، ولما أبصره آدم لا يحرك ساكنا ارتجف من الفزع، وظل لفترة ينظر إلى الجسد الهامد أمامه في ذهول ورهبة وعيناه شاخصتان إلى الأمام ولا يعرف ما الذي فعله.

بعد بضع دقائق استجمع آدم شتات نفسه ونهض من مكانه، وذهب ناحية الجثمان ليتأكد من موته، تلفت في كل ناحية من نواحي الغابة ثم هروا إلى الجهة الخلفية للغابة حيث تتواجد في نهايتها سيارة تنتظره لكي يهرب من خلالها، كان سائق السيارة هو صديقه سيمون الساحر أو كما يحب أن يناديه الناس عيسى، كان منتظرا هناك حسب الخطة الموضوعة مع سيث.

وُضعت الخطة بإحكام شديد فلم يكن الجنرال هامان من السذاجة بمكان أن يأتي بمفرده لمقابلة شخص لأول مرة بدون حراسة، لم يصطحب معه حارسته، لكن بعد أن علم من آدم بمكان اللقاء أرسل حارسه الشخصيين إلى الغابة ليتفقدوا المكان جيدا ويختبئا فيه، لكن الأصدقاء قد وضعوا الخطة بإتقان وتفكروا في ذلك الأمر.

كان سيمون وسيث حاضرين منذ الصباح ليُنصبا شباكهما جيدا، وقد أديا ما عليهما على أحسن وجه فتخلصا من الحارسين بحيلة أبدعها سيمون فهو في الأول والأخير الساحر الكبير صاحب الحيل والأفكار، قام سيمون وسيث بزرع الكثير من الزجاج والمسامير والأشياء الحادة المدببة على الطريق، وعندما أتت سيارة حارسي هامان انفجرت إطاراتها في المكان فترجل منها الحارسان، وتفقدوا المكان جيدا وقاما بالاتصال بهامان ليعلماه أن كل شيء يسير على ما يرام حتى يحضر، ثم شرعا في تغيير إطارات السيارات حينها قام سيمون وسيث بتصويب بنادقهم التي صنعها سيمون لتنتطلق منها الحقن المخدرة لتخترق أفخاذ الحارسين فسقطا على الأرض وغابا عن الوعي، هروا ناحية الحراس وقيدوهما بالحبال وأخفوهما في أماكن منزوية لدى الجبال، وقاما بتنظيف المكان بعد ذلك من آثار الزجاج والمسامير، وجلسا في سيارتهما ينتظران قيام آدم بمهمته في قتل الجنرال هامان ليقوما بعدها بهربيهما عن طريق البحر إلى خارج البلاد.

انطلقت السيارة بسرعة ناحية المكان المحدد على شاطئ البحر قبل أن يعرف أحد ويكتشف الجريمة. ولدى وصولهم الشاطئ كان هناك مجموعة من المراكب القديمة فصعد آدم إلى واحدة منها قد أشار إليها عيسى، وقال له قبل أن يرحل: منذ زمن طويل قد أنقذتني من رجال الشرطة في المدينة، واليوم أرد إليك جميلك، أذهب الآن ولتصحبك السلامة.

انطلق المركب في طريقه، وكانت الخطة تقوم على صعود آدم على متن هذا المركب لفترة قصيرة، ثم يركب بعدها سفينة كبرى ستبحر في المحيط وعند أول بلد يقابله سيعيش هناك آدم. وبالفعل وصل المركب الصغير إلى السفينة الكبرى التي سينتقل إليها آدم.

صعد إليها ونظرات الأسى والحزن تشع من عينيه، وهو يجول بنظره إلى وطنه الذي سيهجره ويرحل عنه إلى الأبد، لكنه كان راضيا بعد أن أخذ بثأر صديقه وقتل رئيس المنظمة. وعلى الرغم من هذا كان في حيرة من أمره عندما سمع الجنرال هامان يقول له أن الرئيس هو ديابلو، ظل يتساءل عن هذا الشخص الذي لم يسمع به من قبل، من ديابلو هذا الذي ذكره الجنرال هامان قبل موته؟ لكنه لم يجد جوابا.

عمل آدم متخفيا على متن السفينة وتعرف على العاملين عليها، وظل في مكان عمله أسفل السفينة لا يبرحه حتى لا يشك أحد في أمره، كما أن هذه الطريقة تجعله لا يحتك بأحد قد يعرفه.

ظل على تلك الحال أياما طويلة، كانت حياته تمتلئ بالشقاء والتعب، تلك الحياة التي لم يعتاد عليها من قبل، لكنه كان يعمل طوال الوقت حتى يشغله عمله عن تفكيره الذي لا يفرغ منه سوى سويوعات قليلة يخلد فيها إلى النوم.

ذات يوم بدأ العمال في السفينة برفع البضائع من على الشاطئ إلى متن السفينة حتى ترحل بها السفينة إلى بلاد أخرى لا يعرفها آدم، تقدم إليهم ليساعدهم في حمل البضائع، وظلت السفينة لأيام حتى انتهت من تحميل كل البضائع، وأخيرا أعلن ربانها عن موعد رحيلها، كانت سفينة لنقل البضائع فلم يكن عليها سوى بعض العمال الذين لا يتجاوز عددهم العشرين وبعض التجار ورجال حراسها وعلى رأسهم الربان.

انطلقت السفينة تشق عباب المحيط، وعندما أحاطتها الماء من جميع جوانبها هدأت سريرة آدم، وعاد خفقان قلبه إلى حالته الطبيعية. بعد أن شعر بأنه الآن على مشارف النجاة من فعلته، وأنه سيترك البلاد، شرع في الحديث مع أفراد الطاقم بقلب مطمئن في أمور شتى، لا أحد منهم كان يعرف قصته التي أتت به إلى هذا المكان. وكان آدم ذا نظرة حاملة والابتسامة لا تفارق وجهه الهادئ مما جعل أفراد الطاقم يشعرون بالراحة في الحديث معه.

عامل الجميع برقة ولطف وأدب جم، وتحدث معهم في الكثير من الموضوعات حتى تبين لهم مدى سعة ثقافته وإطلاعه إلى أن شك أحدهم في أمره وقال له ذات مرة: هل أنت هارب من شيء ما؟

تلعثم آدم وخشي أن يفتضح أمره، لكنه حاول سريعاً أن يخفي الاضطراب الذي ألم به بثقة مصطنعة وعلى شفثيه ابتسامة قانلاً: نعم... أنا هارب من الحياة

ابتسم الرجل وقال له: وهل يهرب أحد من الحياة؟ أنا أعلم أن البشر يهربون من الموت في العادة، لا من الحياة

- أنا هارب من الحياة المليئة بالظلم والعدوان والخداع والغش، وفضلت أن أذهب إلى أحضان الطبيعة البكر التي لم تلوّثها أياد البشر، قررت أن أذهب إلى البحر لأحيا فيه حياة جديدة

- لعلك تهرب من الحياة إلى الموت

ابتسم آدم وقال: مَنْ يدري ما تخيّل له الأقدار

- ألا تخاف الموت؟

- أحاول ألا أفكر فيه

- هذا شيء جيد، لكنني عندما أنظر إلى عينيك أرى الموت ولا أدري السبب

عاد آدم لاضطرابه مرة أخرى ثم قال مازحاً: إذن أنت تقرّ عيون البشر

- لقد علمتني الحياة الكثير، لتبوح بسرك لي ولتعليم أي أمين عليه، فلعل

البوح يساعدك

قال آدم وهو يخفي عينيه عن ذلك الرجل: لا شيء هناك لأقصه عليك.

مضت الأيام وتوطدت علاقته بذلك الرجل الذي ارتاح للحديث معه دوماً، لكنه على الرغم من ذلك لم يشأ أن يبوح له بما يعتمله قلبه، إلا أن ما بداخله كان يجثم على صدره، ويتمنى أن يُخرجه ليستريح.

رأى آدم أنهم قد أمسوا في وسط المحيط، والمياه تحوطهم من كل جانب فلا مجال للعودة في هذا الوقت، حينها أدرك أن هذا هو الوقت المناسب للتحدث مع صديقه الجديد بعد أن اطمأن قلبه لحديثه فشرع يقص عليه قصته وبعد أن انتهى قال له الرجل: كنت أعلم بأن وراءك سرا كبيرا

ابتسم آدم فاستطرد الرجل قائلاً: لكن مثلك لا يستطيع أن يخفي سره فسريراً ما تظهر الأسرار على الوجه البريء

قال آدم: وماذا ترى في قصتي؟

- أنا رجل عجوز خبرت الحياة جيداً، ولعلي أقول لك أن الانتقام ليس دوماً طريقاً واضحاً، إنه غابة، وفي الغابة من السهل أن تضل الطريق، فتضيع ولا تعرف من أين بدأت ولكن...

قاطعه: ولكن ماذا؟

- في الحياة غالباً حينما نُظهر الشفقة ندمر أنفسنا، ربما يكون هذا صحيحاً، مشكلتنا يا ولدي أننا نعاني استحالة تحابب البشرية، أتعرف أي استرح لحديثك وبمعنى آخر فأنا أحبك

- أشكرك كثيراً

- أتدري، شعور الحب هذا لا يمكن تفسيره أبداً، أنت تحب الشيء الذي من الممكن أن تفقده، نفسك، امرأتك، أرض الوطن، لكن من الصعب جداً أن يحب البشر بعضهم البعض، يا ولدي يوجد القليل جداً منا هنا على هذه الأرض على ما أعتقد بضعة مليارات، عدد قليل مقارنة بما في الكون الهائل، أليس كذلك؟

- بالتأكيد

- لكن لا مكان للحب في هذا العالم، فحقيقة الحياة يا ولدي هي الغش، وناموس الدنيا القناع، وإذا كانت الحياة كذلك فلا مكان للحب فيها

ثم نظر إليه في أسى واستأنف حديثه: كنت أحلم حلماً كبيراً منذ زمن مضى

- وماذا حدث؟

قال مبيتسما: ليس هذا من شأنك

قال آدم في خجل: أنا أسف

- أنا أمزح معك يا فتى، الجميع يحلمون أحلاما كبيرة، لكن ماذا يفعلون لتحقيقها؟ ستظل تقول يوما ما سيتحقق حلمي، وتعيدها مرارا وتكرار، ولسوف تستيقظ ذات يوم، وتجد نفسك لم تفعل شيئا، وكل شيء قد انقلب ضدك عمرك وصحتك وأبناؤك وأموالك، وفجأة أصبحت عجوزا مثلي، لم يحدث شيئا، ولن يحدث لأنك لا تنوي أن تفعل شيئا فعلا، وفي النهاية ستجد نفسك تجلس على مقربة من قبرك، وتذكر حياتك التعيسة، وأنت جالس أمام تلفازك البائس على المقعد الهزاز البائس مثلك تماما

- معك كل الحق في هذا

- أنت إذن من قتل وزير الدفاع، أليس كذلك؟ على الرغم من أنك لم تعرفه مسبقا

- لكن أفعاله تحدثت عنه

- وأنت تقوم بإزالة النفايات

ضحك آدم وقال: بالفعل أنا كذلك

هيا بنا الآن لنتناول غداءنا فقال آدم مستنكرا: سمك كالعادة؟

رد عليه بتجهم وقال: السمك.... عليك أن تحترمه

- وهل تفعل أنت؟

قال مازحا: بالطبع احترمه فلقد كنا سمكا منذ وقت طويل قبل أن نكون قردة

ضحك آدم وقال: وكيف نحترمه إذن؟

قال ضاحكا: نأكله.

عند حلول المساء بدأ الجميع في شرب الخمر واللعب بالأوراق واللهو حتى لعبت الخمر برأس أحدهم فانتفض واقفا وقال بصوت جدير: أيها القوم،

أعبروني سمعكم، وأصغوا لي بعقول تستوعب، لا بعقول قد لعب بها الخمر بها
فسأتلو على مسامعكم قصيدة

صفق الحضور له بشدة فأشار إليهم بيده إشارة أن يتوقفوا ثم قال:

في البداية فالتطمئن قلوبكم لأن إله الهوى سوف يرحل إلى الأبد على يدي،
وأنا وسط أمواج البحر، ومن موقعي هذا سأروض رب الهوى حتى أن أصابت
سهامه قلبي، فأنا قدير على الثأر لجرحي مهما أثخنني الجراح، إني يا قوم
أحب..... فأنصتوا لشاعر صرخته الحياة ينبض بالصدق حديثه

هي وحدها التي ملئت قلبي

ثم أشار بيده إلى ناحية آدم الذي كان يجلس في الدائرة التي يجتمع فيها باقي
الرجال وقال له: انصب شباكك وكفى، فتغريد الطير في الربيع قد يصمت،
ونقيق الضفادع في الصيف قد ينقطع، لكن المرأة لا تصمد أمام عذب الكلام

وراح يهتز يميننا وشمالا من أثر الثمالة ثم استطرد يقول: احصل على الحب
خلصة، واحصل على لتلك بقوة، ولا تخشى الإله فإنه قد رحل إلى الأبد

وفجأة سكت عن الكلام، وسقط على الأرض فرفع الجميع أيديهم وعادوا
للتصفيق له، وفي البداية كان آدم يعتقد أن الخمر قد لعب برأسه فجعله يهزي
بتافه الحديث، وأن تطاوله على الإله كان أثر ذلك، لكن صديقه العجوز أخبره
أن الجميع هنا لا يؤمنون بأي إله، ويسعون دائما وراء اللذة، ولا يخشون شيئا
في حياتهم إلا البحر حينما يغدر بهم أو يهيج، فتلك الأشياء هي ما يرونها بعيونهم
أما الإله فلا

قال آدم مازحا: لقد انتهيت من مثل هؤلاء على الأرض لأجدهم هنا في البحر.

مضت أيام على ذلك الحال الذي لم يتغير، وبدأ آدم يعتاد هذه الحياة
الجديدة، أنس كذلك بأصدقائه الجدد، كان اليوم ينقسم ما بين عملهم على
السفينة، وتناولهم الطعام، ومسامرتهم ولعبهم بالليل حتى أتى يوم مظلم امتلأت
فيه السماء بالضباب الذي غشي الأعين.

شعر الجميع بشيء ما سوف يحدث، وأمست السفينة في مواجهة عاصفة
رعديّة شديدة أطاحت بها وبمن عليها، وأصبح الناس على متنها في لحظة داخل

مياه المحيط يصارعون من أجل البقاء على قيد الحياة، تتلاطم الأمواج وتزداد العواصف شدة مما زاد من صعوبة الوضع.

لقد انشغل الجميع باللهو واللعب، ولم يتفكروا في لحظة أن ذلك من الممكن أن يحدث، تخلت عنهم جميع السبل، فالبحت عن قوارب النجاة كان مهمة مستحيلة، أشبه بالبحث عن إبرة في كومة من القش، الجميع يصارع لكن من يهزم البحرومن يقف في وجه غضبه.

في خضم هذا لم يجد الغرقى سوى أن يرفعوا أكف الضراعة ليدعوا الإله خاشعين، ذلك الإله الذي أنكروه منذ لحظات لعله يخلصهم من محنتهم العظيمة التي ألمت بهم، لكن لا مجيب، استسلم الجميع إلى قدرهم المحتوم وهم يرون الموت يُحْدَق فيهم، وبعد لحظات قليلة غاصوا في سبات الموت فابتلعهم المحيط.

لم تمر دقائق معدودة حتى أسلمت الأرواح إلى بارئها في شدة، كلهم الآن موتى، وكان آدم يحاول مثلهم جاهدا أن يسبح معاندا الأمواج العاتية حتى أصاب الوهن ذراعيه، وأصبحتا عاجزتين عن السيطرة حتى على النسيم العليل.

تطلع فزعا نحو الماء فترأى له الموت من أسفل، وهو هناك يترنج في تيه الأجواء، كان طوفان العتمة قد غمى على عينيه فأظلمتا رعبا وخوفا، ودبت بذراعيه العاريتين الرعدة وهو يمددهما محاولا أن يستند على أي شيء، لكن لا جدوى، فليس هناك شيء يستند إليه أو عليه ولا حتى وجد القشة التي يتمناها الغريق.

هوى وهو يُصيح "أني انحدر بعيدا" والماء الأزرق يبتلع كلماته التي لا تكاد تتناثر من فمه حتى يطوئها إلى الأبد، وبعد مضي لحظات قليلة بدأ الهدوء يعود إليه في لحظات من السكون والسكينة، أتته صورة والده ماثلة أمام عينيه وهو يبتسم له، وقد ارتفع آدم عن جسده، وشعر بالحرية تنساب إليه، نظر إلى صورة أبيه وقال له أين تراك الآن يا والدي؟ هكذا كان ينادي والده، وبينما كان ينادي ملتحا ملح وجهها آخر، كان وجه والدته، ثم أبصر من حوله وجه صديقه ميلاد.

كان الجميع يبتسم له، وبدأ شريط حياته يمر أمامه في ومضة خاطفة تترأى له كل الأحداث التي مرت عليه في حياته، فأدرك أنه الآن سوف يذهب إليهم، وعرف أن الموت قادم لا محالة.

قال لنفسه الآن سألحق بالجميع، ونادى بأعلى صوته قائلاً: أيها الموت، لقد حان الوقت، فلترفع مرساتك ولننتقل سوياً إلى المجهول...

أيها الموت فلنمضي معاً، هيا لتنفث بداخلي سمومك حتى تستريح نفسي من هذه النار التي تشتعل في عقلي...

هلم إلي أيها الموت ولتكن جنة أو نار فماذا يهم، لننتقل إلى أعماق المجهول حتى نعتز على الجديد.

وما لبث الماء أن ضم رفات الشاب ومحت مياه البحر روحه، كما محت أرواح عظيمة من قبله، وفي النهاية رفع راياته البيضاء إيداناً بإعلان الاستسلام للموت بعد أن قرر أن يستقبله بكل ما أوتي من شجاعة، وأخيراً ابتلعه الموت.

كان البحث حينذاك يجري على قدم وساق بعد تلك الجريمة الشنعاء التي قُتل فيها وزير الدفاع الجنرال هامان، وجدوا جثته وسط الغابة بين الحوام، انتشر رجال الشرطة في كل أنحاء البلاد بعد أن أثبتت التحقيقات أن آدم هو مَنْ وراء تلك الفعلة، وأنه مَنْ قضى على وزيرهم، تم القبض حينها على كل مَنْ له صلة بأدم، فاستدعت النيابة إمام وزوجته للتحقيق معهم بشأن الحادث لعلمهم بالعلاقة القوية التي كانت تجمعهما به، لكن بعد التحقيقات الموسعة أدرك المحققون أن إمام لا يعلم شيئاً عما حدث.

أما الغرب في الأمر أنهم لم يعلموا عن علاقته بسيمون وسيث الذين قاما بهربيته خارج البلاد، وفي النهاية طلبوا حضور الصحفي نضال، وهناك شرح لهم قصة الأوراق التي تركها ميلاد ولم يعلموا عن مكانها شيئاً، وقدم إليهم نضال كذلك جميع الوثائق اللازمة للتحقيق، لكنهم للأسف لم يكونوا يُحققوا في مقتل ميلاد، فالأمر الآن أعظم من ذلك شأنًا، فميلاد بالنسبة لهم لم يكن سوى حشرة صغيرة مقارنة بوزير الدفاع، ولو أنهم تفكروا قليلاً لأدركوا أن الأمر كله يتعلق بمقتل ميلاد، لكن غشيت أعينهم عن الحقيقة.

مرت الأيام في البحث والتفتيش عن ذلك المدعو آدم، وانتشر رجال الشرطة في كل مجاهل البلاد لم يتركوا شبرا واحدا إلا وطئوه، ولم يتركوا دليلا واحدا يقودهم إلى القاتل إلا اتبعوه، انتشرت الشائعات في البلاد، وكثر اللغط حول الأسباب التي أدت إلى مقتل هامان، فهو كان مثالا للرجل العظيم كما يعتقد بذلك العامة من الناس، كانت تلك الأوقات عصبية، فالكثير من الخطط قد تم إفشالها عن غير عمد عندما قُتل هامان.

اجتمع رؤوساء المنظمة لاختيار قائد لهم آخر غير ذلك الذي قُتل، وقع الاختيار أخيرا على شخص صفوان الأدهم رجل الأعمال، وقد تم الاختيار من قبل مجموعة صغيرة جدا من كبار الأعضاء في المنظمة، تولى القيادة واتخذ قرارا أوليا بتصفية رجل السياسة جلال الديب لاعتقاده بأنه من الأسباب التي أدت إلى مقتل الكبير هامان، والأخطاء في هذه المنظمة غير واردة وغير مسموح بها، وعقاب الخطأ القتل، وبالفعل تم اغتياله فازداد الأمر سوءا في البلاد، وسادت الفوضى البلاد حتى تم اختيار وزير جديد للدفاع.

استقر الأمر تدريجيا بعد أن كانت البلاد على شفا الهاوية، وعادت الأمور إلى طبيعتها مرة أخرى، لكن قبضة المنظمة كانت قوية جدا هذه المرة على البلاد بعد استقرار الأمور، فأصبح لها اليد العليا في الحكم. وأسلمت الحكومة دفعة القيادة إلى تلك المنظمة الخفية التي لا يعرفها معظم العامة من الناس.

بدأت في فرض المزيد من الضرائب على المواطنين، وباعت الحكومة شركات المياه والغاز والكهرباء إلى شركات خاصة، ولأول مرة في تاريخ البلاد قفزت الأسعار إلى أعلى معدلاتها، وبدأت البلاد في الاستدانة من البنك العالمي وحصلت الحكومة على القروض مقابل بعض الشروط التي فرضها البنك العالمي على سياستها الاقتصادية.

كان من ضمن هذه الشروط إصدار أمر للحكومة بأن تلغي آلاف الوظائف، وتخفيض الأجور لبقية العمال، واضطرت الحكومة تنفيذا لشروط البنك أن تنقل ملكية أكبر نظام للماء لديها إلى إحدى شركات صفوان الأدهم، ثم منحت شركة الطاقة العالمية حقوق إنشاء وامتلاك خط أنابيب النفط.

كان ذلك مجرد بداية، وكانت هذه شروط القرض الدولي، وبدأ الناس في الشكوى والتذمر إلى أن طفع الكيل، فخرج المتظاهرون الغاضبون إلى الشوارع،

وهم يعتقدون بأن هناك مؤامرة كبرى بين الشركات والبنك العالمي وخليط من الوكالات التي تعمل لمص دم الشعوب وسرقة قوته.

أحرق المتظاهرون العاصمة. ولما اطلع نضال على الوثائق السرية عن طريق بعض من مصادره الأمنية وجد أن هناك خطة سرية للبنك العالمي، استخدم تلك الوثائق وانهمز الفرصة التي فرضتها الفوضى في البلاد، ونشر هذه الوثائق حتى يزيد الوضع اشتعالا فلعل هؤلاء المتظاهرين الغاضبين هم من سيخلصون البلاد من هؤلاء الحيتان، لكن بدا له وكأن حوادث الشغب التي طالت البلاد كانت ضمن الخطة أيضا، وكان الحل الطبيعي للشغب والفوضى هو الشرطة والدبابات والإجراءات الصارمة.

كان نضال حينها يعلم جيدا أن منظمة عين الحياة هي التي تقف وراء كل هذا، وأن أعضائها ليسوا إلا خدام للخطة، كما أن أعضاء البنك العالمي ما هم إلا بعض من أعضاء المنظمة، فالكل واحد في النهاية. والخطة تسير بشكل متقن.

أما وسائل الإعلام فقد غاطت في نوم عميق فتتحدث تارة عن الدجل والشعوذة، وتارة أخرى عن الإرهاب الذي يهدد البلاد، وعندما انتشرت الفوضى وخرج المتظاهرون إلى الشوارع كان الإعلام يُجابه بقوة هؤلاء الناس، فكان له الدور الأكبر، وكيف لا؟ فالإعلام هو الكيان الأقوى على وجه الأرض، ولديهم القدرة على جعل الأبرياء مذنبين وجعل المذنبين أبرياء، وتلك كانت قوته لأنه يتحكم في عقول البشر.

حارب الناس الذين خرجوا للمطالبة بحقوقهم، نشرت وسائل الإعلام حولهم الشائعات، وكثيرا من الأقاويل التي تلوّكها ألسنة الإعلام ليل نهار لتخويف الناس وترهييبهم.

كان صفوان الأدهم يستعد في ذلك الوقت ليأمر الحكومة بفرض ضرائب جديدة على الناس فلما علم يهوذا بذلك الأمر انطلق إليه مسرعا وقال له: كفك ضرائب يا كبير، البلاد على شفا الهاوية

فقال له بثقة: لا بد أن يخضع الجميع إليّ

- أصبحت جزارا

- لست جزارا، فهناك فرق شاسع بيننا، تعرف ما هو؟

صمت يهوذا ولم يجد ما يقوله فاستأنف صفوان حديثه ضاحكا: الجزار لا
يسلخ سوى الجلد فقط يا سيدي

قال له يهوذا وهو يترجاه: لكن كفى ضرائب، الناس لم تعد تتحمل لابد من
بعض الرحمة

قال له في سخرية: أراك متعاطف مع الناس

- هذا الأمر سيمضي بنا إلى طريق مسدود

- عليك ألا تستسلم لغريزة القطيع أبدا.

بعد أن نُصب صفوان رئيسا للمنظمة ازدادت مشاغله ولم يكن لديه وقت
لل فراغ، حتى الوقت الذي كان يوفره لرؤية أبنائه وزوجته أصبح من الماضي
فعلى الرغم من أنهم لا يعرفون شيئا عن عمله إلا أنهم كانوا يستقون أخباره
ويسألون عنه وعن أحواله.

كانت زوجته سيدة من سيدات المجتمع الراقى ذات منصب ومال وجمال،
كما تتمتع بنفوذ ولها علاقات كثيرة مع عليّة القوم من الأثرياء وذوي السلطة،
وتدير إحدى الشركات الكبرى التي ورثتها عن والدها. كان ذلك فيما مضى، رأى
فيما صفوان أنها أفضل امرأة من الممكن أن تساعد، وتحافظ على صورته
الاجتماعية أمام الناس.

ما جذبه إليها في البداية جمالها فهي جميلة لدرجة كبيرة، وما شجعه
للتقدم لها أنه علم أنها ذات نسب وحسب وتتمتع بأنوثة طاغية تجذب الأنظار
وتخطف العقول، فكل من كان يراها يُعجب بها ويود أن يرتبط بها.

تقدم لها العديد من الأثرياء، وأصحاب المناصب العليا حينذاك، وكانت
ترفضهم جميعا حتى تقدم لها صفوان، وكعاداته في الكذب والتلفيق أخبر أهلها
بأنه من أسرة عريقة، وبعد فترة من زواجه منها أصبحت شركتها تُدار ضمن
مجموعة شركات العالمية للاستثمار التي يملكها صفوان الأدهم، وتفرغت هي
لحياتها الشخصية ورعاية الأبناء.

كانت البداية في حياتهما الأسرية تجري مجراها الطبيعي، فكان الاهتمام
الشديد برعاية الأسرة، والزواج على كثرة انشغالاته كان يهتم ولو بالسؤال، لكن
سرعان ما تحول كل هذا من النقيض إلى النقيض.

تغيرت أحوال صفوان، فكان يمارس مع زوجته وأبنائه الذين لا يراهم إلا قليلا ميوله التسلطية، تعامل معهم بمثل ما يتعامل مع العاملين لديه، فهو يتحكم فقط ويفرض آراءه ولا يهتم برأي الآخرين ولا يسعى لإرضائهم.

أما بالنسبة للزوجة وعلى الرغم من تسلطها الواضح كذلك، واهتماماتها التافهة إلا أنها بطبيعتها كامرأة رقيقة المشاعر وحساسة إلى أبعد الحدود، فكانت دائما تبحث عن الإحساس بالأمان مع شريك حياتها، وتريد أن يُعاملها بلطف، وتُشعرها أنها ذو أهمية كبيرة في حياته، وتبحث عنم يخاطب قلبها قبل عقلها، فالمرأة إذا لم تشعر بالأمان والاحترام والتقدير من شريك حياتها قد تتركه بلا رجعة.

حاولت معه مرارا وتكرارا كي يعود إلى رشده ويمارس مهمته كرب للأسرة، لكنها فشلت وفي النهاية قررت التمرد وتغيير حياتها، فأسمى صفوان الزوج بالنسبة لها ليس هورب الأسرة بل مجرد بنك تحصل منه على المال.

أصبحت عضوا في أكثر من ناد من أندية الأثرياء وعلية القوم من السيدات الثروات التي لا تكف أفواههم عن النباح، وعن الحديث عن آخر خطوط الموضة والتسوق والأزياء، وكانت تُنفق ببذخ شديد، فالأموال طائلة ومجالات الإنفاق كثيرة، وأولها المتطلبات الشخصية لسيدة المجتمع للحفاظ على مظهرها لتبدو أكثر أناقة وجمالا وسط السيدات الأخريات الذين يتنافسون في هذه الأمور التافهة، وبرغم أنها تجاوزت عقدها الرابع من العمر بقليل إلا أنها مازالت تتمتع بللمسة من الجمال لم يقدر الزمن على تشويهه.

بدأت تهمل أبنائها وحياتهم وتعطيهم الأموال فقط، فكان تفكيرها مُنصب على المال، وأدركت أن الإنسان لا يحتاج في حياته إلا للمال، فبه يستطيع المرء أن يحصل على كل ما يريده، تمتع الأبناء بالثراء الفاحش حتى أفسدهم المال الكثير، ولم يعرف عنهم صفوان شيئا طالما ظل على قناعة تامة هو الآخر أنهم لا يحتاجون إلى شيء آخر بعد المال، كما لم يعد لديه الوقت الآن حتى ينظر في حال من تركهم وراءه.

مر على زواجها من صفوان سنوات طوال، فلما أهملها عاطفيا، تعرفت على شاب عن طريق النادي، وأعطاه كل ما افتقدته من حب وعطف وحنان، ووصل الأمر إلى مقابلته العديد من المرات والجلوس سويا بالساعات الطوال ليتحدثا ويمرحا ويلعبا في النادي.

كانت تخشى في البداية من هذه العلاقة ومن ألسنة النساء الثرائيات في النادي، فقررت أن تقابله خلسة في الأماكن التي لا يعرفها فيها أحد.

خافت في البداية أن تصل العلاقة إلى طريق لا تنفع معه العودة مجدداً، لكن مع استمرار تجاهل الزوج وإهماله أكثر فأكثر لم تجد الزوجة سبيلاً آخر إلا بالاستمرار في هذه العلاقة التي أمست قوية حتى وصلت إلى ذروتها، فكانت تأتيه بيته ليمارس معها الجنس، لم تتفكر في وقتها في أبنائها أو حتى فيمن تُقيم معه تلك العلاقة الأثمة، والذي يصغرها بسنوات كثيرة.

مرت الشهور على هذه العلاقة الخفية ووطئت الزوجة بقدمها في مستنقع الرزيلة، وانحرفت عن طريق العفة والشرف سعياً وراء شهواتها، كانت تعيش في الخفاء في هذه الفترة مطأطأة الرأس في دوامة من الأفكار وتأنيب الضمير ومشاعر الذنب التي تؤرقها، وعلى الرغم مما تُبدية الزوجة من سعادة وراحة عندما تكون في المنزل إلا أنها تعيش مُعذبة حيث لا تستطع أن تنفصل بمشاعرها عما تفعله.

علم صفوان أخيراً بخيانة زوجته، وحتى يتسنى له التأكد من تلك الخيانة راح يُراقبها في سعيها خارج البيت، واستأجر غرفة في فندق أمام المنزل الذي تذهب إليه دوماً، وظل أياماً يراقب تحركاتها وخطواتها خارج المنزل إلى أن عرف في النهاية الحقيقة وهي أنها بالفعل أقدمت على خيانتها.

لم يكن لديه مشكلة مع الخيانة في حد ذاتها، فهو دائماً ما يخون، لكنه يرفض مطلقاً أن يتعرض هو للخيانة فكانت مشكلته فقط أنها تخونه هو، وتطئ بقدمها على كبريائه هو، حاول أن يضبطها متلبساً بعلاقتها الأثمة، ولما حانت اللحظة الحاسمة انطلق إلى المنزل، ورأى بعينيهِ زوجته على فراش الشاب، وعندما رآته الزوجة انتابها الفزع وسارعت لإخفاء جسدها العاري بغطاء السرير، ونهض الشاب سريعاً يرتدي ملابسه، لم يستطع أي منهما أن ينبس بكلمة حينما رآوا صفوان ماثلاً أمامهما.

سحب صفوان مقعداً وجلس عليه ثم أطرق قليلاً وطلب منهما ارتداء ملابسهما، فلما فعلاً ما أمرهم به اصطحهما لسيارته المنتظرة في الخارج، وأمرهما بالدخول للسيارة، وانطلقت بهن السيارة تشق الطريق.

في تلك الأوقات العصبية أصاب نضال اليأس وهو يناضل في محاولاته البائسة لفضح المؤامرة الكبرى، رفع راياته أخيرا واستسلم عندما أدرك أنه لن يستطيع أن يفعل شيئا مع هؤلاء الكبار، وفي نوبات اليأس هذه أتاه اتصال على هاتفه.

نظر فيه مليا وهو متعجب عندما رأى أنه رجل الأعمال صفوان الأدهم ذاته، أجاب على اتصاله فأخبره صفوان أنه يريد مقابلته، تساءل كثيرا عن السروراء طلبه، فهو من قبل كان لا يُطيق رؤيته والآن يطلب مقابلته، تحدث لنفسه قائلاً لعل الأمر شديد الأهمية.

ذهب نضال إلى مكتبه وقابله صفوان هناك بالترحيب على غير عادته، وأجلسه على المقعد المقابل له وقال له: الآن لقد انتهى كل شيء، أليس كذلك؟

رد عليه نضال بدهشة: لم أفهم مقصداك بعد

- ألم تُدرك بعد أنك لن تستطيع أن تفعل شيئا

رد عليه نضال ونظرات الأسى تطل من عينيه: الشبكة عظيمة، وفي الحقيقة لم أعد قادرا على المجابهة

- قلت لك من قبل أنك تلعب بالنار، وأنها ذات يوم سوف تُحرقك

- ماذا تريد مني الآن؟

- أريد أن أريحك من عنائك

- كيف ذلك؟

- الآن أقدم لك عرضا لن تستطيع معه رفضا

- أي عرض؟

- الثراء والشهرة والجاه

- ولماذا الآن؟ وأنت تُدرك جيدا أنني لن أستطيع أن أفعل شيئا معكم؟

- أريد منك شيئا في المقابل

- أي شيء ذلك الذي تريده مني؟

- إنها الأوراق

تعجب نضال وقال له: أوراق؟! لم أعد أفهمك

- أنت تعرف جيدا ما أقصده فكفاك مواراة وتمثيلا، أريد أوراق المعادلات الخاصة بميلاد

- وما أدراك أنها معي؟

- أنا أعرف كل شيء يا سيدي، وقد أردت أن أحصل عليها بإرادتك بدلا من الحصول عليها بطرقي الخاصة، ففي كلتا الحالتين سأحصل عليها، لا شيء سيمنعني، وستصبح أنت الخاسر بعدها

- وإذا رفضت طلبك هذا، هل ستقتلني؟

- لن أقتلك بكل تأكيد فهناك أشياء أشد قسوة، لا تعرفها أنت

- قل لي في البداية كيف علمت أن ميلاد ترك نسخة من الأوراق معي

- قلت لك أنه لا يُخفى عليّ شيء، ألا تصدقني؟

- لكن لا أحد يعلم بهذا الموضوع سوى أنا وميلاد، وحتى صديقه آدم لا يعلم بها كذلك

- لكنني أعلم فلقد كنت أراقب جميع خطواتكم من قبل، وانتظرت حتى هدأت الضجة في البلاد لكي أنظر في الأمر.

بعد حديث طويل معه خرج نضال وهو يحمل بيده شيكا ببضع ملايين، تلك الأموال التي قبضها وتحصل عليها مقابل تسليمه كل الأوراق التي تركها له ميلاد، وفوق هذا الشيك قرار بتعيينه رئيسا للتحرير في أكبر صحف البلاد انتشارا وهي جريدة القرون الوسطى.

أغدق عليه بالمال والسلطة التي ارتضى بها نضال أخيرا بعد محاولاته اليائسة البائسة التي لن يجني من وراءها غير التعب، وقد استسلم أخيرا لإغراء المال والسلطة بعد أن علم أنه لا مفر من الاستسلام بعد طول العمر في المعارك المزيفة، رفع راياته البيضاء واستسلم وخضع لسلطان الأموال، عاد إلى منزله وقد تملكته مشاعر غريبة متناقضة من الحزن على ضياع مبادئه التي سار عليها طوال حياته، ومن فرحته بمنصبه الجديد كرئيس تحرير، ومن الأموال الكثيرة التي حصل عليها.

مرت الأيام صعبة على الرغم من أنه حصل على كل ما كان يتمناه إلا أنه قد فقد شيئاً بداخله لن يستطيع تعويضه. كان شعوره بالذنب يُسيطر عليه وتأنيب الضمير يؤرقه. فحاول أن يُमित هذا الضمير بالانغماس في حياته الجديدة وعمله في الجريدة، عاد نضال إلى منزله فوجد آسية شقيقته جالسة على أريكتها، حياها وانطلق إلى حاسبه ليكتب مقاله اليومي ليُرسله إلى الجريدة، وبعد أن انتهى أبصر أخته وهي تقرأ كتابها، ذهب ناحيتها كي يسألها عن رأيها في مقاله السابق الذي نشره في الجريدة، وقبل أن يسألها قال لها: لم أراكِ فرحة بمنصبي الجديد

أجابته: أليست هذه هي الجريدة التي كنت دوماً تنعتها بأحط الألفاظ والعبارات، فهل أصبحت اليوم فجأة جريدة حرة؟

رد عليها بابتسامة صفراء: هذا قبل أن أكون رئيساً لتحريرها

- وماذا تغير؟ أرى أنك من تغير وليس الجريدة، أشعر بأن التيار قد جرفك ناحيته

- ولماذا تقولين هذا؟

- انظر إلى مقالاتك الجديدة

- ماذا بها؟

- أنت مثقف وصادق ونزيه ومستقيم، كل هذا كان من الممكن أن يكون صحيحاً في المجمل وفيما سبق، لكنك الآن عكس هذا تماماً

قال لها: أرى أنك لست في حالة مزاجية جيدة اليوم

قالت له في سخرية: أخلاقياتك العالية تدفعك إلى أن تكره العالم، فأنت تكره المؤمنين لأن الإيمان بالنسبة إليك هو تخلف وجهل، وتكره كذلك غير المؤمنين لأنهم لا يملكون أياً من الإيمان والمثل العليا، كذلك لا تحب كبار السن لأنهم محافظون ومتعصبون وغير قادرين على التفكير بحرية. ولا تحب الشباب أيضاً لأنهم يفكرون بحرية زائدة عن اللزوم ويتروكون التقاليد، لذلك تكره كل الناس، أنت عملياً تكره الجميع، تحب فقط أن يتملقك الناس، ولو أنك ولو مرة واحدة استطعت أن تدافع عن موقف ما حتى ولو شعرت بأنك لن تنال المجاملات من ورائه لكنك أمسيت أفضل كثيراً، لكن هذا بعيد الاحتمال

نظر إليها نضال في صدمة من حديثها وقال: أرى أن نقدك ليس نقدا متماسكا بناء، ويبدو لي أن هناك تلميحاً ضمنياً فيما تقولينه وهذا شيء في الحقيقة يزعجني، اعتقد أنك تكرهيني أنا وليس مقالاتي

- يجب أن نقول أننا مختلفان... إننا مختلفان حول كل شيء في الحياة

أجابها ببرود: كلما تقدمت في السن كلما أصبحت أكثر قسوة، وعلى كل حال لا أريد أن أسهب في هذا الموضوع

- مدهشة هي طريقتك في المراوغة فدائماً ما تجد طريقة لتبرئ بها نفسك كالعادة

- بالله عليك توقفي

- ألسنت من سألني أولاً عن رأيي

واستطردت تقول: الدين والأخلاقيات العالية والفساد، لا شيء آخر يثير اهتمامك، ما أن تجد كبش الفداء حتى تقوم باستنزافه حتى النهاية، هل تتذكر مقالك عن رجل الدين الشيخ عزيز الذي تحدثت فيه باستهزاء وسخرية، لماذا لم تترك الرجل يعيش في سلام؟

قال لها في عصبية: لقد بدأت فعلاً تثيرين أعصابي، لماذا تعودين لهذا الموضوع الآن، لقد مر عليه زمن طويل؟

قالت بعصبية: أصلاً ما علاقتك بالدين والإيمان والروحانية؟ هل سبق لك أن دست بقدمك في مسجد؟ هل صليت مرة؟ حتى تتكلم عن الدين؟

قال مستخفاً بحديثها: أيجب أن أذهب إلى المسجد حتى أتكلم عن الدين؟ ما هذا السخف

- لو أنني فقط أمتلك قدرتك على التعامي كنت حينها سأجد الكثير من الأمور مثيرة للاهتمام، وكنت استطعت أن أغلب على الملل، أنا لا أفهم... ألا تسأم من إثارة نفس المواضيع باستمرار؟

عاد لهدوئه ثانية وقال لها: هذا ما يُعرف بالمتابرة، وهي الطريقة الوحيدة لتعميق الموضوع وخلق شيء جديد، كما أنني لا أعرف عن أي ملل تتحدثين؟

- كيف يمكننا أن نكون متناقضين إلى هذه الدرجة؟ لا أكاد أصدق أننا أخ وأخت

قال باستهزاء: هذا طبيعي الأخوة دائما يكونون مختلفين، أحدهم مُجد والآخر كسول، أحدهم ذكي والآخر أحمق، أحدهم اجتماعي والآخر انطوائي، هذه هي حقيقة الأمر

- أشكرك كثيرا على هذه المجاملة الرقيقة

- أنت تشعرين بالملل لأنك لا تفعلين شيئا في حياتك، في الحياة تحتاجين إلى عمل، إلى شغف، فالكسل هو أبو العيوب جميعها

- هذا يعتمد على تعريفك للعمل، فالعمل لا يعني مجرد فعل شيء بدون فائدة، فعندما تتأمل فهذا قمة النشاط حتى لو لم تفعل شيئا

- إذن أنت مشغولة بالتفكير؟

- ربما لا أعرف ما يجب عليّ فعله، وليس لدي شغف يقودني إلى شيء ما لكن قل لي ما الذي تفعله أنت؟ أنت تُضيع أجمل سنين حياتك على أشياء لا علاقة لك بها، ألم تتعب من البحث بلا فائدة، أراك كالخيميائي الذي يحاول تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب، رؤيتك كذلك تصيبني بالاكئاب

صرخ في وجهها بشدة وقال: ألا ترين أنك قد تماديت بالأمر كثيرا، وكلما ضغطت على نفسي لأتجاهل هذا كلما ازددت أكثر، أخيرا فهمت لماذا تطلقتي بعد كل هذه السنوات، فلا رجل يستطيع احتمال مثل هذا اللسان السليط، ولكن إذا كان بي كل هذه العيوب لماذا تستمرين في العيش معي؟

عادت بذاكرتها إلى الوراء ثم قالت له: منذ زمن طويل، عرفت كيف تمنع انفصالنا باستخدام أساليب متعددة، وأظن أن هذا كان يناسبني وقد كنت صغيرة جدا لأغادر، ولكني لم أكن أملك الشجاعة أو الأموال الكافية لفعل ذلك ولا حتى لدي مكان لأذهب إليه، كذلك كنت تخشى أن يقول الناس شقاقة الصحفي الشهير المطلقة تفعل ما يحلو لها، فالأمر من بدايته لنهايته في مصلحتك أنت، لكنك لم تشعر بالندم أبدا، غرورك يدفعك لأن تشعر بالفخر، وأنت ترى أمامك شابة مفعمة بالصحة والشباب، وهي تذوي في الفراغ والملل والخوف.....

في السنوات الأولى كنت خائفة، لكن الآن أشعر بالخزي لقد أضعت أفضل سنين حياتي، فقدت كل مميزاتي، وأنا أناضل أمامك، أصبحت قاسية فظة

جبانة ومفعمة بالشكوك، لا أعرف ما الذي عليّ قوله، لا أعرف إذا كان بإمكانني التعبير عن أي شيء.....

دروينا متفرقة رغم أننا نعيش تحت سقف واحد، كان يجب على كل منا أن يمضي في طريقه، من الممكن وقمها أن ننال حياة أفضل ولكن قد فات الأوان، أحاول الآن أن أكون واقعية، أنت تسألني وأنا أعطيك رأيي، ولا أنكر أنك طالما أثرت إعجابي من قبل، كما كانت العائلة جميعها تؤمن بك وترى أنك ستُصبح يوما ما شيئا عظيما وربما مشهورا ولكن تمخض الجيل فولد فأرا، أنت شهير ولست عظيما في شيء

- آسف لأنني قد خيبت ظنكم

قالت في سخرية: الأمر ليس بيدك، فنحن رفعنا سقف طموحاتنا عاليا

- هذا جيد أشعر الآن بالارتياح، وأقدر شعورك بإحساني عليك

قالت بعصبية: الآن أصبحت الهرجة الزائفة تسمى إحسانا، إنها طقوس الانتقام لامرأة لم تكسب شيئا في حياتها، إنها لا تعرف حتى كيف تنتقم، الإحسان ليس أن تلقى بعظمة لكلب جائع بل أن تشاركه ما لديك بينما تتضور جوعا مثله

- لماذا تُصرين على نبش المواضيع القديمة

- أفعل مثلك تماما فأنت تواصل نبش المواضيع التي قتلها الجميع بحثا، توقف عن تخبطك في الهباء، إنه عديم الفائدة يجب أن تجد شيئا جديدا

- أعلميني أنت... ما يثير اهتمامي هو القضايا العامة حتى ولو كانت مكررة

- كن واقعا قليلا، على الأقل هذه المرة فقط

- أقولين أن التعامل مع الفن والنضال لتطويع الناس روحيا ومكافحة الفساد مثل الخيمياء

- إنه الكسل والجبن، أنت تدور في حلقة مفرغة، أتعرف ما هي مشكلتك؟ أنك تخاف من المعاناة تقوم بخداع نفسك، نعم هذا هو الواقع، وكان يجب عليك أن تتحلى بالشجاعة لتواجه الحقيقة هذا إذا كنت فعلا تبحث عن الحقيقة، ولكن بما أنك ممثل محترف فقد نسيت الواقع، ونسيت من تكون

أنت في الواقع، إنك تُبدل هويتك كما تُبدل قميصك، وكان لابد لك من
التصالح مع ذاتك

علا صوته صارخا في وجهها قائلا: تريدان أنت الحقيقة حسنا سأقولها
لك.....

أنتِ محكوم عليك بالوحدة والملل طوال ما تبقى من حياتك، لأنك جبانة،
لأنك كسولة، أنت تعيشين كالطفيليات وتتوقعين من الجميع مساعدتك، أنت
تتصرفين كما لو أن العالم بأسره يُدين لك بشيء، تلك هي الحقيقة اعذريني
فلقد حان موعد نومي.

تركها وغادروها ويتحدث بتفكر في كل ما قالته آسية، وأصابته الحيرة بشأن
هذا الحديث فقال لنفسه وهو ذاهب إلى غرفته تُراها قد علمت شيئا
بخصوص ما فعلته مع صفوان الأدهم؟ إنها ذكية، لعلها علمت بذلك الأمر، ما
كان عليّ أن أتخلى عن مبادئ.

مازال عذاب الضمير يؤرقه ولم يستطع النوم، فلقد استغل الفرصة التي
سُنحت له بموت ميلاد، وقدم الأوراق التي لم يُخبر بها أحدا، التي حصل عليها
من ميلاد نفسه قبل موته لعله يستطيع أن يُخفيها فلم يكن هناك نسختان
فحسب كما قال ميلاد لأدم، ولكن هناك ثلاث نسخ من المعادلات، واحدة عند
القبر، وأخرى مع آدم، والثالثة كانت من نصيب الصحفي نضال الذي أصابه
اليأس من محاربة هؤلاء الوحوش فرضخ في النهاية إلى إغراءاتهم له، وفضل
الحياة الرغدة على القتل الذي كان سيُصيبه على كل حال، إنه جبان أناني تلك
هي الحقيقة التي كان يُخفيها دوما عن كل البشر.

أفاق آدم من غشيته فوجد نفسه مُلقى على أرض بجوار البحر بعد أن
لفظه على جزيرة نائية في المحيط. لقد نجي بحياته وقد تخلى عنه الموت وقذفته
الأمواج على أرض الحياة مرة أخرى، أفاق وبدأ ينظر حوله في دهشة متفقدا
مكانه، نهض ليستطلع الجزيرة في محاولة للبحث عن أي ناج آخر من الذين
كانوا معه على متن السفينة المنكوبة.

كانت الجزيرة مُحاطة بالأشجار الخضراء من جوز الهند والنخيل وكأنها
غابة كثيفة، والرمال البيضاء تُغطي أرضية الجزيرة، بحث طويلا فلم يجد حوله

إلا مجموعة من الجثث الملقاة على سطح الجزيرة لبعض من كانوا معه. وقد ألقت بهم الأمواج إلى السطح كما فعلت معه.

حاول استكشاف تلك الجثث لعله يجد من بينهم حيا يرزق فيحاول إفاقته، لكنه لم يجد الحياة تدب في أي منهم فالكل أموات، وقف مذهولا من هول المشهد أمامه، واستسلم للحظات من الصمت الطويل الذي يغني عن كل كلمات العالم. لحظات كان فيها عقله مشوشا يتفكر فيما سوف يفعله في موقفه هذا، لم يتخيل يوما ما أنه سيوضع في مثل هذا الموقف لكنها الأقدار تسير على غير مشيئته.

قرر في البداية وبعد تفكير عميق أن يحفر حفرة عميقة ليدفن هؤلاء الموتى، قام بإزالة ملابسهم من فوق أجسادهم لعلها تنفعه في محنته المقبل عليها، وظل يحفر طويلا حتى انتهى ووضع الأجساد الساكنة فيها وأهال عليها التراب، ثم عاد ل يبحث في الملابس عن أي شيء يمكن أن يأكله، أو يستخدمه فلم يجد سوى بعض لفافات التبغ والولاعات والأقلام والكثير من الأوراق المالية التي لا فائدة تُرجى منها في هذا الموقف العصيب.

نظر حوله مرة أخرى فرأى على أرض الجزيرة الكثير من زجاجات الخمر الفارغة، وبعض الأشياء التي كانت على متن السفينة قد قذفها الأمواج بعد أن هدأت حدة العواصف الرعدية إلى السطح.

بحث خلال هذه الأشياء عن أي طعام فهو يتضور جوعا، ويتوق كذلك لشرب الماء، لم يعلم حينها كم مر عليه من الوقت وهو غائب عن الوعي، ولما اشتد به الجوع ثانية أخرج لفافة من لفافات التبغ وأشعلها ليُنْفِث دخانها لعلها تُلهيه عن الجوع، شرع يبحث في الأشجار المنتشرة حوله في كل مكان على أمل أن يجد فيها ما يسد جوعه إلى أن وصل إلى ثمرة من ثمرات جوز الهند، أخذها وحطمها وشرب ماء الثمرة وأكلها وهو يتفكر فيما سوف يفعله في هذا المكان الموحش بعد أن أدرك أخيرا أنه وحيد شريد، وما كان يشغل باله هو حلمه بالعودة إلى وطنه فهو في النهاية لا يستطيع أن يعيش وحيدا.

بعد لحظات طويلة من التفكير هداه فكره إلى أن يصعد إلى أعلى قمة موجودة في تلك الجزيرة التي تمتلئ بالتلال ويأخذ معه الثياب التي حصل عليها من أصدقائه الموتى، ويحرقها كي يتصاعد منها الدخان إلى السماء، لعل طائرة أو سفينة تراه فتأتي لتنتشله مما هو فيه، وبالفعل أقدم يُنْفِذ ما هداه إليه

عقله، وما أن طفق يوقد النار حتى بدأت السماء تزمجر، وبعد قليل هطل المطر بغزارة على الجزيرة فانطفأت ناره.

انطلق مسرعا كي يختبأ من المطر الشديد تحت أي شجرة فلم يجد سوى شجرة السنديان العملاقة، جلس تحتها في رعدة أصابته من أثر البرد، كان الماء حينها قد بدأ يلف الجزيرة ويضمها، والليل قد تعلق فوق التلال الصغيرة في حين كانت السماء مكتسية بالضباب، غاب المكان في ظلمة كالحجة، شعر آدم في هذه الظلمة بالخوف والفرع وهو يرتعد تحت الشجرة، وعندما نظر أمامه رأى وكأن هناك مائة عين تُحدق إليه من بين الأشجار، أغمض عينيه لعله يهرب من هذا الموقف المهيّب.

بعد أن مرت ساعة وهو يرتجف من شدة البرد ابتلعت السحب ماءها وكأنها قد رأفت بحاله المزري، نهض آدم واستجمع قواه وأضرم النار في بعض من أخشاب الأشجار ليستدف، ولما ازدادت النيران اشتعالا شعر بشيء من الطمأنينة، وجلس بجانبها يفكر فيما وصل إليه حتى غلبه النعاس فنام.

في صباح اليوم التالي أيقظته أشعة الشمس حينما اخترقت السحب في الصباح فوجد النار قد خمدت، استوى واقفا وشرع في السير فما زال الأمل يراوده في أن يجد أي شخص، بحث طويلا حتى أتعبه البحث، وعندما يأس صعد أعلى التل، وعاد لينفذ ما كان سيفعله الليلة الماضية لولا هطول المطر.

ما أن وصل أعلى التل حتى أشعل النيران في الملابس والأخشاب، وتطاير الدخان في كل مكان، وهو ينتظر بفارغ صبره، لكن لا أحد يسمعه وهو ينادي ولا أحد يرى دخانه، ولا طائرة يسمع أزيزها في تلك البقعة المهجورة من الأرض، وكأن هذه الجزيرة قد خُفيت عن أعين جميع البشر.

هرول نحو ثمار الجوز ليأكله فلم يجد غيره، إنه طعام واحد لكن ما بيده حيلة سيأكله وإما يموت، كان يصارع من أجل البقاء حيا، عادت الأمطار تهطل ثانية على الجزيرة النائية، وشعر آدم بأنه يعيش كابوسا مظلما أفقده القدرة على الكلام.

عانى أشد المعاناة حتى أحس أنه اقترب من أن يفقد قدرته على الحديث لقلة ما ينطق به من كلمات، شرع يتحدث إلى نفسه بصوت جبير، وكأنه يُجرب قدرته على النطق، ولما تأكد من ذلك قام بالصراخ فترددت صرخته في أنحاء الجزيرة، لكن لا مجيب.

ظل يضحك لفترة طويلة بلا أدنى سبب، وفي النهاية غلبه البكاء، وأحس أنه على وشك الإصابة بالجنون فهو وحيد، وبالرغم من أنه كان يُفضل الوحدة والعزلة إلا أنها عندما جاءت كانت عزلته موحشة لا يحتملها البشر. صعد إلى التل مرة أخرى وحاول أن يُخربش في الرمال بعضا قد قطعها من أحد أغصان الشجر، وكتب على الرمال "أرجو المساعدة".

وهكذا باءت كل محاولاته بالفشل فجلس في الليل تحت الشجرة العملاقة، وأشعل النيران ثم غاص في نوم عميق لعل هذا النوم يخلصه من ذلك الكابوس المريع الذي يعيش فيه، ويقصّر عليه أيامه الطويلة التي أصابته بالاكئاب.

في صباح اليوم التالي وعندما أفاق من نومه وجد نفسه في سجن كبير أو ما يُشبه السجن فهو لم يطق سجنًا من قبل وهكذا اعتقد، نظر حوله فإذا بجدران أربعة تحوطه من كل جانب، انتابته حينها مشاعر متناقضة مزيجًا من الحزن والفرح، حزنا لأنه في سجن، وفرحًا لأنه أخيرًا سيرا بشرا. وهكذا كان السجن أحب إليه من العيش وحيدا في تلك الجزيرة، لكنه استدرك الأمر سريعا وتفكر مليا في أنه ربما كان يحلم كل هذا الوقت، وأنه قد قتل هاما، وأودع في السجن، ولم يهرب، ولم يصعد إلى السفينة، والسفينة لم تغرق في المحيط، ولم يمت أحد، ولم يعيش آدم على الجزيرة قط، تهلل فرحا لتخلصه من ذلك الكابوس الذي كان يجثم على صدره فضاق به ذراعا، وقال لنفسه ما أحلى العيش في غياهب السجون بجوار البشر، لعله أفضل بكل تأكيد من العيش وحيدا على سطح جزيرة نائية.

في خضم خيالاته تلك سمع صوت قرع أقدام تقترب من الباب الخشبي للسجن الذي يقطن فيه، وسمع صوت شيء يوضع عند أسفل الباب، كما تطرق إلى سمعه صوت ذلك الشخص وهو يغادر المكان، نهض من مكانه سريعا وصرخ بعلو صوته قائلا لذلك الشخص أن ينتظر ولكنه للأسف لم ينتظر.

فتح النافذة الصغيرة الموجودة أسفل الباب فإذا بطبق به طعام وكوب من الماء أسفل الباب، حاول أن يفتح الباب ولكنه كان موصدا فلم يستطع فتحه، أحضر الطعام والشراب من خلال نافذة الباب، وأدخله إلى الحجر ثم نظر فيه مليا وتناوله بعد أن كاد الجوع يقتله، وبعدما فرغ من تناول الطعام والشراب، قام ليُفتش في أنحاء الغرفة لعله يجد فيها مخرجا لكنه لم يجد شيئا، فلم تكن هناك أي نافذة تُطل على المكان بالخارج.

في الموعد المحدد من كل يوم يأتي إليه ذلك الشخص الذي يترك له الطعام أمام باب غرفته ويرحل، ظل على هذا الوضع وقتا طويلا حتى اعتاد آدم عليه، وأدرك أخيرا بعد مرور أيام عديدة عليه في محبسه أن العيش بحرية على أرض جزيرة نائية وحيدا كان أفضل بكثير من السجن بين أربعة جدران لا يرى من خلالها الشمس.

في أحد الأيام سمع آدم ضجة شديدة غير عادية تحدث خارج أروقة حجرته، توقف بجانب الباب يسترق السمع لعله يسمع أيا مما يقال في الخارج، كان الصوت واضحا لكنه لم يفهم من لغة الحديث شيئا، لقد كانت اللغة التي يتحدث بها هؤلاء الناس الذين لم يروهم لغة غريبة لم يعهدها من قبل، وبعد قليل فُتح باب الحجرة للمرة الأولى منذ حضور آدم الذي لم يعرف حتى الآن كيف وصل إليها.

دخل من الباب رجلان يتمتعان بقوة جسدية، يرتدان ملابس غاية في غرابتها وبساطتها تتكون من بعض الأقمشة المصنوعة يدويا، وعلى رأسهما تيجان من ريش الطيور، يحمل كل منهما في أيديهما عصا غليظة ذات سن مدبب مصنوعة من أخشاب الأشجار، اصطحبه الرجلان خارجا.

كانا يُمسكان بذراعيه بقوة حتى وصلا إلى ممر طويل، ساروا فيه لفترة إلى أن وصلوا إلى سلم طويل من الأخشاب والحبال، صعد عليه الجميع يتقدمهم الحارس الأول ثم آدم وفي النهاية الحارس الثاني، انتهى السلم عند فتحة مربعة كبيرة أزاحها الحارس الأول، فدخلت من خلالها أشعة الشمس فعشت عينا آدم الذي لم ير الشمس منذ فترة طويلة، أمسك بيده اليمنى السلم وباليدي الأخرى أحال بها بين عينيه وبين الشمس حتى خرج الجميع من ذلك المكان.

انتصب آدم واقفا ينظر حوله لعله يتعرف على معالم هذا المكان، ويُدرك أين هو الآن فعلم أنه ما زال في الجزيرة هكذا أوحى له طبيعة المكان، وقد علم في النهاية أن وراء التلال الكثيرة في الجزيرة، وخلف غابتها مجموعة كبيرة من الأقوام البدائيين يعيشون هنا، وقد بنى القوم أكواخهم من أخشاب الغابة.

اصطحبه الحارسان إلى كوخ كبير وسط الأكواخ المترامية كان فيه كبيرهم، توقف آدم مذهولا لا يعلم ماذا يحدث له؟ أدخله الحارسان إلى الكوخ وتوقفوا جميعا أمام كبيرهم، شرع الحارسان يتحدثان معه بتلك اللغة التي لم يستطع

آدم أن يفهمها، وبعد لحظات قام الكبير موجها حديثه لآدم، لم يفهم آدم ماذا يقول له الكبير، لكنه خمن أنه سؤال، لكنه لم يستطع جوابا لأنه لم يفهم السؤال، فسأله الكبير مرة أخرى وآدم ينظر إليه تارة وإلى جميع الحضور تارة أخرى وهو يقول: أنا لا أفهم شيئا من هذه اللغة.

ثم نظر إلى الحشد المجتمع في كوخ الكبير من أطفال ونساء وشباب وشيوخ وقال: هل من أحد هنا يفهم لغتي التي أتحدث بها؟.

كانت تظهر على الجميع علامات الدهشة والتعجب من حديث آدم الذي لم يعرفوا لغته كذلك، وبدأت الهمسات والهمهمات تسري بين الجموع الذين أتوا إلى هنا لمشاهدة ذلك الغريب الذي اقتحم علمهم حياتهم، وينتظرون ما سيفعله كبيرهم معه، قطع همسات الجميع صوت الكبير وهو يُعيد نفس سؤاله إلى آدم لكن لا مُجيب، لم يستطع آدم أن يفهمهم أو يفهموه.

أشار الكبير إلى الحارسين بإشارة تبين منها آدم أنه سوف يعود إلى سجنه مرة أخرى فجثا على ركبتيه أمام الكبير يترجاه ببعض الإشارات فضم كلتا يديه إلى صدره، ونظر إلى الأرض يسترحمه إلا أن الكبير قد أشار بانتهاء الحوار، عندها عاد الحراس ليحملوه ويعيدوه إلى السجن مرة أخرى، كان حينها يبكي ليس لأنه سوف يعود إلى السجن فقط بل لأنه لم يفهم ما سيفعله به هؤلاء الناس.

في ذلك الوقت لم يرق أحد لبكائه بل حمله الحارسان بالقوة بعد أن رأوا أن قدميه لم تعد تقوى على حمله، وطفقا يجراه وراءهما إلى أن شق صفوف الجميع صوت يأتي من بعيد عبر الأثير يتحدث إلى الكبير ببعض العبارات التي بالطبع لم يفهمها كذلك، لكنه شعر بطمأنينة غريبة تسري في جسده.

كان الصوت هو صوت امرأة شابة غاية في الجمال، كان جمالها طبيعي لم تُلوّثه مستحضرات التجميل التي لم يعرفوا لها طريقا هنا، كانت صاحبة الصوت الندي تنطلق إلى أن وصلت أمام كبير القبيلة ثم توقفت ونظرت إلى آدم وقالت له: سيقتلونك

تعجب آدم وارتعدت فرائصه في الوقت ذاته فهو قد وجد من يتحدث حديثه وفي نفس الوقت خاف من مصيره المحتوم وقال لها: أنتحدثين لغتي؟

قالت له: نعم، وسوف أكون حلقة الوصل بينك وبينهم

- ماذا تريدني أن أقول لهم؟

- قولي لهم أي لم أت إلى هنا لشر

فنظرت إلى الكبير وقالت له بلغته ما قاله آدم فرد عليه الكبير ثم نظرت إلى آدم وقالت له: يقول لك ما قصتك، ولماذا أتيت إلى هنا؟

شرح لها آدم قصة مجيئه إلى الجزيرة فشرحت بدورها ذلك إلى الكبير ثم قال: إذن مات الجميع؟

قال آدم: لم يحيا سواي

قال الكبير: ومن أين لي أن أصدقك؟

- هناك الجثث وهناك بعض الأغراض الخاصة بالسفينة كانت موجودة في المكان الذي وجدتموني فيه

- لم يكن هناك أية جثث؟

- لقد دفنتهم جميعا.

ولكي يصدقه الكبير طلب آدم أن يصطحبه معه إلى مكان دفنهم حتى يتأكد من صدق حديثه. ولما تأكد من ذلك عاد إلى كوخه وأمر ببناء كوخ لآدم ليصبح واحدا منهم، تهلل آدم فرحا بذلك فلقد كان على بعد خطوات قليلة من القتل لولا عناية الإله التي أرسلت له هذه الحسناء لتُنقذه من مصيره المشئوم، وعلى الرغم من أنه سيحيا حياة بدائية لم يعتد عليها إلا أنه في النهاية سيحيا، أقامه الحارسان وفكا عنه قيوده ثم أخرجاه إلى الخلاء بعد أن غادر الجميع وعادوا إلى أعمالهم.

كان أول ما تفكر به أن يستوقف تلك المرأة التي أنقذت حياته من براثن القتل، وعندما ناداها توقفت وسألها: من أين لك أن تعرفي لغتي؟

قالت له: إنها قصة طويلة

- ليس لدي شيء أفعله

- ستتعلم كل شيء هنا

- وهل ستقصي عليّ القصة؟

- بكل سرور

- أنا مدين لك بحياتي

- لم أفعل إلا ما يُمليه عليّ ضميري

كانت تتحدث ببساطة غير عادية، لم ير آدم مثلاً من قبل فشعر بنسمات رَوَاحة تحوم حول روحه فأكسبته بهجة عظيمة وسرورا رائع لم يشعر بمثله من قبل، فهذا هو الآن يبدأ حياة جديدة مع إناس جدد في مكان جديد لم يك يخطر له على بال.

مرت عليه الأيام والشهور وهو يعيش حياته الجديدة مع هؤلاء القوم فعلم عنهم الكثير، كانوا يتصفون بالكرم والود والتعاون، كانوا مخلصين مرحين شجعان يُعتمد عليهم إلى أقصى الحدود، كانوا يعتمدون في غذائهم على صيد الحيوانات البرية والتقاط الثمار من على الأشجار، أما بالنسبة للطرائد فعلى الرغم من وفرتها إلا أنها صعبة المثل، كذلك لا يستطيعون أن يُؤمّنوا لأنفسهم الثمار إلا في أوقات معينة، وقد يكون المحصول هزيباً أو معدوماً لذا فكان البحث عن الغذاء مهمة يومية، والصيد لهم هو الهدف الأول.

في البداية تعلم آدم كيف يصطاد من البحر بعض الأسماك بواسطة خطاطيف مصنوعة من العظم. ثم تعلم جمع الثمار ثم تطور بعد ذلك وأصبح صياداً ماهراً لكافة أنواع الحيوانات، كان يتعلم بسرعة شديدة ويمتاز بالذكاء والحكمة مما شجع الكثير منهم على صداقته.

في أحد الأيام وبعد انتهاء عمله اليومي في البحث عن الغذاء، اقترب آدم من الكهوف الصغيرة، ودخلها فوجد على جدرانها الكثير من الرسوم التي تظهر حيوانات اخترقها حراب، وعندما سألهم عن هذه الرسوم أخبروه أن هذه الرسوم تؤمن لهم الصيد الوفير.

كانت الصورة التي أتى بها آدم إلى هؤلاء الناس شديدة القبح، لقد أتاها وهو يعتقد أن عقولهم ضحلة، وأجسامهم قذرة، متمسكون بعادات وتقاليد غريبة، ويميلون لاستعمال الرموز المشوشة.

فلما رأى حقيقة الأمر أدرك أنه كان مخدوعاً كعامة الناس بالصورة القبيحة التي كانت مرسومة عنهم، لكنه أخيراً عرف حق المعرفة أن كل ذلك ما هو إلا كذب، فلقد كانت لهم عقول جبارة كما يمتازون بالذكاء والفطنة، وعلى

درجة عالية من المساواة الاجتماعية. كما لديهم لغة ثرية خاصة بهم. إنهم شكل كامل من أشكال الحياة الإنسانية الناضجة.

بعد مرور شهور عدة اندمج آدم في حياتهم أكل مما يأكلون، وعمل ما يعملون، ولبس مثلما يلبسون، امتزج بهم، أحبهم وأحبوه. كما أنه تعلم لغتهم وقد ساعده في ذلك الكثير من أفراد القبيلة، وبخاصة تلك المرأة التي أنقذت حياته، جلس إليها ذات مرة وقال لها: لقد أصبحت منكم وتعلمت لغتكم فهل أن الأوان لكى تقولي لى كيف تعلمتِ لغتي؟

- أليس من الأفضل فى البداية أن تسألنى عن اسمى فلقد مرت شهور وأنت ما زلت تنادىنى بـ"المخلصة"

ابتسم آدم وقال: إذن ما اسمك؟

فردت بابتسامة: إيفا

سألها: هلا تفضلتي علىّ وكشفتي لى هذا اللغز الذى ما زال يُحيرنى حتى الآن

- حسنا سأقص عليك قصتي

- أنا استمع إليك بكل اهتمام

بدأت تتحدث وتقول: منذ زمن طويل مضى كان هناك بعض البحارة على سفينة قد أتوا إلى هنا مستكشفين المكان. فى حين كان قومي هؤلاء يعيشون حياتهم الطبيعية التى عايشتها بنفسك. بدأ البحارة يجولون فى الجزيرة ويستكشفون المكان حتى علم بهم رئيس القبيلة حينذاك وطلب منهم أن يجتمعوا به فكان الاجتماع، وبعد معاناة طويلة استطاعوا أن يتفاهموا عن طريق لغة الإشارة، وكما تعرف فإن أهلى وقومى هنا يتصفون بالكرم والجود وحسن الضيافة.

استمر البحارة فى التعرف على كل شيء وتعايشوا معنا، وأصبحوا منا إلى الدرجة التى إذا رأيتم شعرت أنهم وُلدوا على هذه الأرض، تزوج بعض البحارة من نساء القبيلة، وكان أبى واحدا من هؤلاء البحارة الذى تزوج من إحدى نساء القبيلة فأنجبني وعلمني لغته كما علمني القراءة والكتابة، وكنت شديدة السعادة بذلك.

كان الجميع يعيش فى سلام إلى أن أتى ذلك اليوم الغابر، وحدثت مشكلة كبرى بين أحد البحارة وأحد أفراد القبيلة فاستخدم هذا البحار على إثرها

سلاحه الناري، وأطلق منه رصاصة اخترقت صدر ذلك الرجل فمات على الفور، وصلت القضية إلى كبير القبيلة فأمر بقتل الذي قتل وهنا احتج الكثير من البحارة على هذا الحكم، لكنها قوانين القبيلة وعاداتها أن مَنْ قتل يُقتل.

لم يرض البحارة عن ذلك واستخدموا كل أسلحتهم في تهديد وترويع أفراد القبيلة، انتشرت الفوضى، وقُتل أبي خطأ في تلك الفوضى، ومن ثم هرب باقي البحارة من خلال سفينتهم إلى حيث كانوا من قبل، وظللت أنا في الجزيرة أعيش مع أمي حتى وافتها المنية، فأمست القبيلة كلها أهلي تلك هي قصتي.... ولذلك عندما رأوك تنام تحت ظل الشجرة ظنوا أنك مثل الذين أتوا من قبل إلى هنا وقتلوا الكثير فأحضروك إلى السجن وأنت تعرف باقي القصة

قال آدم: إن أجمل شيء حدث لي هنا هو رؤيتك

- أشكرك بشدة

- أنت من أنقذت حياتي، وعلمتيني الكثير ومنها اللغة.

عاش آدم في هذا المجتمع المتعاون المتكامل المنظم الذي لا مكان فيه لاستغلال الإنسان لأخيه الإنسان، الكل متعاون، والجميع يعيش في حب وسلام وسكينة، الناس هنا يمتازون بالبساطة والطيبة والزهد ونقاء السريرة، أحب حياته الجديدة، ورأى أن هذا المكان هو المكان المثالي للحياة الطبيعية النقية، ف شعر فيه أنه قد وُلد من جديد.

لم يكن هناك وجود للمال، فالمال في المجتمع الذي أتى منه آدم قد دمر إنسانية البشر، وحول الإنسان إلى مجرد سلعة تُباع وتُشتري، أما هنا فكان نظامهم يقوم على المقايضة في بعض الأحيان وتقديم الهدايا في أحيان أخرى، فكان هذا التبادل يُقوي وأصر العلاقات بين جميع مَنْ ينتمون إلى القبيلة.

كانت حياتهم تقوم على التعاون والجماعية، ويتم تقسيم الوظائف والأدوار على جميع مَنْ في القبيلة بصورة عادلة، ويقوم زعيم القبيلة بتقسيم هذه الوظائف والأدوار بحيادية تامة، وهو ينال الاحترام من قبل الجميع لأنه يُمثل بالنسبة لهم تراث القبيلة، والزعيم ببساطة هو أكبر أعضاء القبيلة سناً، والجميع يحترمه ويبجله فاحترامه يدل على احترام الذات والتقاليد، وليس هذا الاحترام نتيجة إيجاب.

إنه مجتمع ديمقراطي بكل ما للكلمة من معنى. فلا مكان للقوانين بشكلها الذي كان يعرفه آدم من قبل، بل الكل يعمل من خلال العرف، وبواسطة روادع أخلاقية يعرفها الجميع. كذلك كانت القبيلة تُشجع على التنافس في الألعاب والاحتفالات، كما كانت لديهم الأغاني المرحة في احتفالاتهم البسيطة.

قام آدم بتعليمهم الرسم كما تعلم منهم كل شيء عن الحياة، وعندما اطلع على فهم أدرك أنه فن عظيم تظهر فيه الحيوية وقوة التعبير، فلقد وصلوا إلى حد كبير من الرقي أكثر بكثير مما وصل إليه الفنان في المدنية، إنه مجتمع مثالي لم يعد له وجود سوى في الأساطير.

عاش آدم بينهم سنوات طوال عريضات استمتع فيها بكل شيء من الجمال الطبيعي الذي كان يطغى على المكان، وكذلك الجو الرائع الذي لم تلوثه صناعات وعوادم وأدخنة، كما شعر بالصحة والحيوية إضافة إلى الراحة النفسية العظيمة التي حصل عليها هناك.

كان في أوقات فراغه الكثيرة، وبعد أن ينتهي من العمل يقوم بالرسم وتعليم الرسم لأفراد القبيلة، علمهم كذلك صنع أشياء كثيرة من الطبيعة البكر واستخدامها في الرسم، كما كان يجلس لفترات طويلة وحيدا يتأمل تلك الحياة التي يعيشها ويقارنها بما كان عليه من قبل.

علم أن السعادة لا تكون في القصور الشامخة أو امتلاك الأموال والسيارات والحياة الرغدة المترفة، إنما السعادة التي كان يبحث عنها دائما كانت هنا، كانت في البساطة وفي الرضا وفي الراحة والسكينة التي تعتري النفس.

لقد كانت الجزيرة جميلة للغاية فيها الكثير من الإحساس، هذه الجزيرة مثالية بمعنى عميق، مثالية بمعنى الكمال الحقيقي، إنها مثل السر، تبدو وكأنها محرمة ولا يمكن لأحد أبدا أن يذهب إلى هناك.

إنها ليست كالسفر العادي فمن قبل كان لا يؤمن بوجود مثل هذا المكان لكنه وجده أخيرا، فهنا توجد الغايات، إنها جزء مخفي عن البحر، لديها رمال بيضاء نقية نقاء الثلج ومياه صافية كاللؤلؤ، أشجار من نخيل وأعناب وجوز الهند، وهؤلاء القلة من الناس فقط الذين يعيشون عليها هم من يعرفونها جيدا ويبقون هذا سرا.

أُمسّت الجزيرة عالمه، وهؤلاء الناس عائلته فعندما كان في أرض الوطن كانت الجزيرة مجرد مكان لم يفكر به، والآن قد استقر هنا ووجد ضالته المفقودة، سعى وراء السعادة فوجدها، كانت هذه حقا هي الجنة ما عدا شيئا واحدا، الرغبة هي الرغبة أينما ذهب الشمس لن تمحوها ولن يُلقيها المد بعيدا.

تفكر حينها في الزواج، ولما لا فهو أحب الحياة هنا، وهل يرفض أحد أن يعيش في هذه الجنة كان الصوت يتحدث بداخله ليرشده نحو الأفضل، يوجهه ويقوده ويخطط له حتى وصل إلى أرض أسطورية لتبدأ حياته بها، تلك الأرض التي يمكن للمرء فيها أن يغسل روحه ليجعلها طاهرة فيرتفع بها إلى مكانتها الصحيحة، عليه أن يبدأ بداية جديدة، بداية عذبة، بداية نقية فهنا بركة الأرض وخيرها.

هنا سبب جيد ليحيا الجميع دون أي تكلفة سوى العمل الواحد، يجب أن يبني أمة حقيقية هنا بالعمل الجاد والاعتماد على فضائل الذات، ليست أمة مزيفة خادعة كالتي عاصرها من قبل فلا ينبغي أن يكون لدينا مدراء ليعذبونا في عملنا ويتحكمون في مصائرنا، ولا يجوز لأي شخص أن يصعد على أكتاف أي شخص آخر لابد أن يعيش الكل تحت نفس القانون، فلا يجب أن يأكل أحد بإهمال ما جناه الغير بجدارة، أو يسرق بدون تردد أو يقتل، يجب على الجميع ألا يجعلوا من بعضهم البعض فاسدين.

الناس في هذه الأرض لطفاء محبوبون مخلصون يفتقرون إلى المكر والخداع، وعبارات الكذب والنفاق والخداع والجشع والحسد والافتراء لم يسمعوها مطلقا، ليس لديهم الغيرة التي لا معنى من امتلاكها في الحقيقة، الكل يعلم جيدا ما عليه فعله، يا له من حلم لم يحلم به في حياته قط !.

كان الصوت بداخله مازال يتحدث إليه في لحظات تأمله فقال لنفسه: كنت مثل القرصان فيما سبق وكنت مسجوناً في سجن محكم وأصبحت الآن حراً طليقاً، كنت ميتاً وأنا الآن حي، هذا هو فقط العالم الحقيقي، العالم غير المزيف، وتلك الأرض الساحرة هي أكثر مكانا يبعث بالطمأنينة على وجه الأرض، تخيل أن تعيش مثل هذه الحياة.

إنها مثل التأمل تشعر فيها بكل نسمة، وكل لحظة... تخيل فقط أن تعيش كل حياتك بهذا الشكل ألا تشعر الآن بأنك قد عشت حياتك في صندوق لكنك

الآن حرا، وقد أدركت أخيرا أن الوقت الوحيد الذي يجب فيه على الإنسان أن يكون في صندوق هو عند وفاته... ولكن

قالها آدم بصوت جدير فرد عليه الصوت الداخلي قائلا له بعد أن انتابته مشاعر من الحزن: كل ذلك الحزن سيعطيك القوة، ويجرك إلى أعلى الطريق، فكر بالشجرة كيف لها أن تنمو مع جروحها، فإذا انكسر منها الغصن فإنها لا تتوقف، ولكن يبقى وصولها نحو الضوء، يجب أن تواجه مخاوفك بجراحة ولا تعاني من تخويفها لك، عليك أن تستمر وتتلاعب بها، وستعيش مخاوفك بالأسفل.

وفجأة ظهر على صفحة الماء أمامه وجه ذلك الرجل، الحارس الذي كان يتحدث إليه في المرأة وهو يبتسم ويضحك فلما رآه آدم ابتسم له وقال: أنت ورائي في كل مكان

قال له الحارس: الآن وصلت بك إلى مشارف النهاية، وعليك الآن أن تجد الكنز فهو هنا

رد آدم باسماء: عدنا إلى الكنز، لكنني قد وجدته أخيرا

- لم تجده بعد، فتش عنه بداخلك، وتوقف الآن عن الشعور بالسوء تجاه نفسك وأبدأ بحب ما أنت عليه... توقف أمام مرآتك وستُخبرك المرأة بقصة لم تُرو بعد

كان صوت الحارس يُشبه كثيرا ذلك الصوت الذي سمعه منذ قليل بداخله فنظر إلى الوجه في المياه ممعنا النظر فرأى أن وجه الحارس يُشبه كثيرا، ولما علم هذه الحقيقة راح الوجه على صفحة المياه ليختفي رويدا رويدا إلى أن تلاشى نهائيا.

تحدث آدم لنفسه قائلا: كيف لم أعرف هذا من قبل؟

وابتسم في نشوة الانتصار، لم يقطع تأملاته هذه إلا صوت يأتيه من بعيد ويقول له: لقد أسدل الليل أستاره ومازلت متيقظا حتى الآن تُحدث نفسك

التفت خلفه وقال: إيها؟!.... منذ متى وأحد هنا يعرف الزمان، أنا لم أجد اهتماما من أحد للساعات والدقائق والثواني، الكل ينهض مع الفجر ويقضي يومه سعيا وراء الصيد، ليأوي إلى مضجعه عند مغرب الشمس حتى يولى الليل أدباره..... قولي لي كيف تحسبون الوقت؟

- من خلال مشاهدة الطبيعة

- وكيف ذلك؟

- اختلاف الليل والنهار، والدورة القمرية، والحيض عند النساء، وسقوط

الجليد، وهجرة الطيور، فالיום والشهر والسنة أمور طبيعية تماما

وعلى الرغم من عدم اهتمام الجميع الظاهر بالوقت ولا بالزمان إلا أن آدم كان يتخيل أن هذا المكان هو أبدية مثالية، هذا العالم الذي وُلد فيه من جديد، إنه عالم لا زمني، فعالم الزمان الذي كان يعرفه من قبل ما هو إلا محاكاة هزيلة لهذه الأبدية المثالية. هنا في هذا المكان المنعزل الهادئ ينظر إلى الأبدية بنظرة الحالم المتأمل...

قاطعته مرة أخرى وقالت له: أراك تشرذ ثانية، عليك ألا تنظر إلى المياه

أثناء الليل

قال لها في دهشة: ولماذا؟

قالت: إن فيها حيوانات تستطيع أن تسلب خيالك فتموت

ضحك آدم عاليا على مزحتها، واستوى واقفا وأمسك بيدها لتهض ثم سارا معا يتنسمان الهواء العليل وهما يتحدثان، نظرت إيفا إلى السماء فرحة مستبشرة وأشارت إليها وقالت له: انظر

نظر آدم ناحية السماء فرأى النجوم تكسوها بكثرة فقال: ما أجمل هذا المشهد الرائع، لم أر مثيله من قبل

قالت إيفا: مع كل نجم يخفت من موقعه تكون البداية ولادة نجم جديد

كانت كلماتها هذه قد أثرت فيه بشدة وتفكر قليلا في عالمه الآن الذي يحيا فيه فكان مثل السماء ينظر إليه بعيون تشع همة وإصرار وأمل، بعد أن انطفأت بداخله أفكار وقناعات كانت تسيطر عليه دوما في عهده السابق، إنها الآن طموحات وأحلام جديدة تبدأ ولن تنطفئ ولن يسود الظلام ثانية.

أحب آدم إيفا بشدة، لا يدري ما سبب ذلك الحب الذي طغى عليه هل لبساطتها الشديدة ورقتها وجرأتها وشجاعتها، أم لوجهها الصبوح وقوامها المثالي، أم لابتساماتها العذبة التي لم ير مثلها في حياته قط، أم لكل هذا، لكن الحب الحقيقي ليس له سبب فعندما تلتقي الأرواح الهائمة المتيمة بالعشق لا

يجب أن نفكر في السبب، إنها لقيا القلوب، إن العالم ليزداد وحشة بدون الحب، ويبدو كالصحراء المقفرة إذا كان بلا رغبة، بلا هدف بلا روح تشرق مع كل إشراقة شمس، موحش هو هذا العالم بلا بريق في العيون بلا همسات على الشفاه الحائرة المترددة.

مشاعر عديدة تحملها بالأيام والساعات حتى في نومه، يستيقظ بدهشة وهو يرى الحب مثل المتاهة لم يعد يعرف كيف سيُريح نفسه منه إلا إذا اقترب منه، وحطم كل الحواجز التي تحول بينه وبين حبه العظيم.

كانت إيفا عندما تظهر تُغرد لها الطيور، وتلفح نسمات الهواء الرقيقة وجهها المشع المضيء فيتناثر شعرها الحريري كسنابل القمح في الحقول، كانت ابتسامتها تفتح جميع الأبواب المغلقة.

اعترف لها آدم بحبه وأنه كذلك يريد الزواج بها، وافقت بنظرة حاملة وحمرة من الخجل على ذلك الوجه القمري.

تقدم آدم إلى كبير القبيلة، وأخبره بنيته في الزواج بإيفا فوافق الكبير على زواجهما، وأقام لهما احتفالاً رائعاً بمناسبة هذا الزواج السعيد، وانتقلت إيفا إلى كوخ آدم لتعيش معه فيه.

كانت العلاقة بينهما بسيطة وسهلة من بدايتها إلى نهايتها لا تعقيدات، لا مغالاة، ولا حب للمظاهر، فالحب الحقيقي هنا حب سهل، ملاذ من كافة ضغوط الحياة، شعور بالأمان وراحة البال، تلك الراحة التي جددت حياته.....

بزغ الفجر ونهضت الشمس وارتفعت لثُمزق الظلمات، وتناثر أشعتها الأولى فأضاءت الأرض، انطلق الناس ذاهبين إلى شجرة السنديان العملاقة المزهرة ذات الجذور المستلقية، والتي تمتد أغصانها إلى البعيد، كانوا يتغنون وهم في الطريق بأغاني رائعة.

لمحهم آدم في دهشة وتساءل في نفسه إلى أين يذهب كل هؤلاء الناس؟، سار وراءهم بخطى وثيدة وهو يراقب فعلهم، فسمعهم يقولون في صوت واحد:

"قلوبنا تتيه فرحاً، قلوبنا تُحلق في الأفاق وهي ترنم بأنشودة الجمال تحت أشجار الغابة، الغابة هي مسكننا وأمننا"

وفجأة توقف الجميع أمام الشجرة الضخمة. وشرعوا في الدعاء، ورفعوا
أكفهم عاليا وهم يتبتلون إلى معبودهم

فقالت امرأة عاقر: اجعلي حاملا يا مبالي، اجعلي حاملا لكي يكون لي ولد
وقالت أخرى وهي تذرف الدمع على فقيدها الذي مات غريقا: ارحمه يا
مبالي، أدخله جناتك يا مبالي.

أدرك آدم أنهم يتقربون إلى معبودهم الذي يُطلقون عليه "المبالي" فسأل
زوجته عنه فقالت له: إنه إلها، إله واحد يستمع لدعواتنا، ويُجيب عليها
وسألها: وما بال الشجرة؟

قالت: هي مجرد رمز للخير، رمز للإله العظيم المبالي.

علم آدم حينها أن الإله موجود هنا كذلك عند هذه القبائل البدائية، وأنهم
يؤمنون كذلك بعقيدة وإله واحد، تعلم من أفراد القبيلة الكثير عن هذا الدين
الذي يُدينون به، أعجبه ذلك الدين بما فيه من قيم سامية وراقية تسمو
بالروح لترتفع بها إلى أقصى درجات الوجد والصفاء، إنه دين طبيعي فطري لم
تلوثه عقول الشر.

رأى فيه كل ما كان يؤمن به من قبل، إنها عقيدة فطرية غاية في البساطة،
سمحة، خالية من كل لغز منافية لكل تعصب، ترتقي بالأخلاق الفاضلة فهي
تدعو دائما إلى الإخلاص والصدق والتواضع والتمسك بجميع مكارم الأخلاق
فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

قالت له إيفا وهي تحدثه عن تلك العقيدة: أهم شيء في عقيدتنا ألا تنزع
من قلبك حب الجمال فتسلب الحياة رونقها وروعها

وظفقت تشرح له ديانتهم وهي تقول: إنها ديانة قلبية تدعوك لرؤية الإله
بقلبك وعقلك، ولتنصت لذلك الصوت الداخلي الذي تجده دائما، وسترى
حينها كيف سيزيل هذا الصوت الحواجز التي تحول بينك وبين معرفة الإله،
فالقلب الصادق هو معبد الرب الحقيقي.

مرت الأيام الطويلة وهو يتأمل تلك الفترة السعيدة من حياته، ولا يستمع
إلا لنداء البراء بداخله، وقد حاول كثيرا كبير القبيلة أن يُعلمه عن الدين
فسأله آدم ذات مرة: أليس لديكم كتاب لدينكم؟

قال له الكبير: وماذا تعني بالكتاب؟

شرح له آدم معنى الكتاب، وأخبره أنه تلك الصحائف التي تمتلئ بما يُمليه عليهم الدين الذي يعتنقه البشر

فقال له الكبير: الإله لا يُعرف عن طريق الكتب يا ولدي

تعجب آدم وقال له: ومن أين عرفتُم بوجوده؟

- إنه في قلب كل البشر

- كنت أعرف كثيرا من البشر في عالمي لا يشكون في وجوده فحسب بل لا يؤمنون بوجوده كذلك

- هؤلاء يا ولدي إما في قلوبهم مرض، أو أن الإله قد طبع على قلوبهم

شعر آدم بالراحة تكتنفه فاستأنف الكبير حديثه: المبالي يا ولدي بداخلنا جميعا، وما علينا إلا أن نُزيل الغشاوة عن قلوبنا لنشعر به، فترى حضرته العظيمة.

- أود أن أسألك عن غاية الوجود في هذه الحياة يا سيدي

رد عليه الكبير بابتسامته المعهودة: في ألعابنا المقدسة لا يُتوج الفائز وهو داخل الحلبة بل عندما يستعد لمغادرتها.

في يوم كان فيه الحزن قد نسج خيوطه على جميع أهل القبيلة، هذا اليوم الذي كان فيه كبير القبيلة ذلك الشيخ العجوز يحتضر. ذهب الجميع إلى كوخه والتفوا حوله، وكان آدم أول من حضر لما سمع بخبر مرضه الأخير، جلس بين يديه وتحدث إليه العجوز قائلا له: إني أرى الآن حياتي كلها كومضة تلوح أمام عيني

قال له آدم: أنت لن تموت، فلقد عشت هذا الموقف من قبل، ومازلت حيا، وأنا الآن بين يديك

- سأموت يا ولدي على كل حال

طلب منه آدم أن يُصلي للمبالي وهو على فراش الموت

فأجابه العجوز وقال: كنت أصلي زمنا طويلا، تعلّم يا ولدي أن أفعالك في الحياة كلها هي التي تصل بك إلى موت طيب وليست هي توسلات النهاية، ولكي تعرف الموت حق معرفته عليك أولا أن تعرف الحياة.

بعد كلماته هذه صعدت الروح إلى بارئها، ودعه الجميع في صمت وتقدم واحد تلو الآخر ليُقبل جبينه ثم حمله الرجال ليدفنوه، ثم اختاروا بعدها أكبرهم سنا ليحل محله ككبير للقبيلة، وعادت سريعا الحياة إلى مجراها الطبيعي بعد أن خيم الحزن على الجميع أياما طويلة لفراق العزيز.

تفكر آدم مليا فيما قاله له ذلك العجوز لحظة احتضاره، وأدرك أن عليه معرفة الحياة جيدا كي يعرف الموت الذي طالما شغل تفكيره وطلب لبه من قبل، وبعد أن طال التفكير عرف أخيرا مغزى ما قاله له الكبير الذي رحل.

ذهب ليرثوه أمام قبره في أسى وحزن، وما أن وصل إلى قبره حتى توقف صامتا للحظات وهو يشرد بذهنه بعيدا ليعود إلى الأيام الفانية التي مرت به من قبل، وشعر أنه يقف على شفا جرف هار للحياة المظلمة، وما هي إلا لحظات قليلة حتى نسج الضباب ستارا على عينيه فلم يستطع الرؤية، وبدأ النور يختفي رويدا رويدا، إنه يتلاشى ويختفي في ظلمة حالكة، يتمنى أن يأتيه العجوز الآن ليُرشده إلى طريق النهاية، ويصل به إلى الغسق المحتوم.

مر الوقت بطيئا عليه وهو مائل أمام قبر الكبير يتفكر في جلال الموت ومغزاه، ولما يأس من أفكاره المتلاطمة سار ناحية الشجرة العظيمة التي يتبتل عندها أهل القبيلة إلى إلههم، ثم رفع بصره إلى السماء حيث الإله العظيم المبالي يدعوه كما يفعل أهل القبيلة، يدعوه ليوقف بجانبه ويرشده إلى الدرب، ويُعلمه لماذا أتى به إلى هذه الحياة وما الغاية؟

قال: يا مبالي... افض عليّ من علمك الغزير، وأرح قلبي وعقلي وأخبرني هل للوجود معنى؟ هل لحياتنا على هذه الأرض غاية؟.

ظل يدعوه هكذا حتى يأس من رده عليه فجثا على ركبتيه على الأرض بعد أن خارت قواه، وما هي إلا لحظات قليلة حتى أحاطت به أوقات عظيمة شعر فيها بالسكينة والهدوء، واختفى كل شيء من أمامه، ولم يعد يرى إلا نورا عظيما يحمله إلى آفاق عالية، يسير به عبر طريق طويل ينتهي إلى عالم من الخلود، عالم يحيا فيه بنشوة لذيذة لا تُوصف، وكأنه وحيد في لمحة عابرة من الأبدية المثالية.

بدا له الوجود كله أمام ناظره. ورآه وكأنما ينظر في مرآة لا يرى فيها وجهه فحسب بل يرى كل الأكوان وكل الأزمان. كما رأى البشر والحيوانات والنباتات كلها مجتمعة معا في مرآته. كان يقف مدهوشا متعجبا مبهوتا من ذلك الشعور الطاغى الممتلئ بالبهجة والغبطة والسرور.

كان مشهدا من الجمال الروحي الخالص، وما أن انتهت هذه اللحظات حتى شعر بوطئة قدمه تعود إلى الأرض ثانية. ومن أمامه لاح العالم الواقعي كما كان من قبل، وبدا له وكأنه مرآة صدف لا يرى فيها شيئا.

لقد اخترق قلبه هذا الجمال الإلهي الذي شاهده. وأعاده إلى الفطرة التي خلقه الإله عليها، وأمسى ذا أفق مفتوح واسع بعد أن رأى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وفي النهاية شعر بقشعريرة راحة تسري في نفسه فعاد والفرحة تملئ صدره إلى زوجته الحبيبة فبادرته قائلة: أراك مسرورا؟!

رد عليها بابتسامة وقال: لا أحد سيصدق أن هناك نارا بدون أن يرى دخانها، أليس كذلك؟

قالت: بلى

قال: والسجين لا يكون شجاعا حين لا يكثر بكسر أسواره، أليس كذلك؟

قالت له في تعجب: لا أفهم شيئا من حديثك، أأصابك الجنون؟

أجابها: لا بل حطمت كل الأسوار

ثم أخذ يترنم بكلمات لم تفهم مغزاها أيضا فقال لها في نشوة وسرور: ماذا أكون؟ كيف أخبرك بهذا؟ لقد وصلت أخيرا إلى نهاية الطريق. أنا الآن أعلم كل سر من أسرار السعادة، أعلم هذا جيدا وسأخبر العالم

قالت له وهي تهز كتفيه حتى يعود لرشده: تعقل وإلا تركتك

وبعد أن انتهت نوبة الجنون التي كادت أن تطيح بعقله قال لها في هدوء: اليوم سوف أعلم الناس بالحقيقة التي عايشتها

قالت له: أية حقيقة؟

- تلك الحقيقة التي شعرت بها قبل أن أعرفها، سأرسلها في رسائل عبر المحيط لعلها تقع في أيادي من يتعلم منها ويُعلم الناس بها.

انطلق آدم إلى المكان الذي كان فيه عندما غرقت السفينة، وراح يُفتش عن الأوراق والزجاجات الفارغة التي دفنها بجوار أجساد الموتى، شرع ينبش الأرض حتى لاحت له الأشياء المدفونة فأخرجها، كان هناك الكثير من زجاجات الخمر الفارغة، والأوراق التي حفظها داخل بعض الثياب ودفنها.

كان يعتقد أنه سيستفيد منها يوماً ما، وها هو الوقت قد جاء ليكتب رسائله، وما تعلمه في حياته، وكيف وصل إلى معرفة أسرار الوجود والسعادة بعد فترات تأمل طويلة وشاقة وحياة تموج به موج البحار، فتارة في غياهب المدن وسط الصخب والضجيج، وتارة في أحضان الطبيعة الخلابة، وبدأ يكتب في الأوراق عن كل شيء وما أن ينتهي من رسالة يضعها في الزجاجات ويحكم غطاءها ويلقيها في المحيط.

الرسالة الأولى:

عشت سنوات عديدة من حياتي في البحث والتأمل، وأنا أبحث عن ضالتي المنشودة لعلني أصل إليها ذات يوم، لكن طال البحث وطالت معه الحيرة، خضت تجارب عديدة وأنا أحاول أن أصل إليها كي يطمئن فؤادي.

تأملت حال بني البشر فوجدتهم يتخبطون في غياهب الجهل، يحاولون السباحة في بحر متلاطم الأمواج من الأفكار والآراء والنظريات حتى كادوا أن يغرقوا فيه، ورأيت الأمواج العاتية وهي تتقاذفهم من هنا وهناك.

كنت أتوخي الحذر حينها، وأنا أفتش عن الحقيقة الغائبة حتى لا يُصبني ما أصاب هؤلاء، أبحث عنها بجد ولا أكاد أراها حتى طغى عليّ اليأس، وكاد أن يُعيد بي عن الطريق، في تلك الفترة أصابني الغم والحزن وشعرت بعدم جدوى الحياة، فلا غاية هناك تكمن وراءها، وكثرت شكوكي فما كدت أتخلص من شك إلا أواجه غيره، ولم أجني من وراء تأملي، وبحثي الطويل سوى أفكار المضطربة الغامضة عن سر الوجود وغاية الحياة.

طرقت باب الفلسفة لأستشيرها في أمر الحقيقة، فقرأت الفلسفة، ورأيت كيف أن آراء الفلاسفة مختلفة اختلاف الليل والنهار، نظرت عميقاً في حججهم، وعلمت أنهم لا يملكون إجابات، وعلى الرغم من ذلك فقد تعلمت منهم كيف أسير في الطريق؟ وكيف أسعى نحو المعرفة؟ وكيف أفكر وكيف أبحث؟ وكيف أتساءل؟ وكيف أشك؟ وكيف أتأمل؟ فمشيت في الدرب بعقل

متأمل باحث مصمم على كشف المجهول. لكني في النهاية لم أجد لدى الفلسفة ما ينتشلني من برائن الحيرة.

طرقت باب العلم كي أستشيريه في أمر الحقيقة فعجبت كثيرا لقدرته الفائقة على تفسير الأمور. وكيف استطاع بوسائله الرائعة أن يُفسر لنا ما يُحيط بنا، لكنني وجدته عاجزا كذلك عن الإجابة عن تساؤلاتي فهو لا يؤمن إلا بما يراه تحت مجهره.

طرقت باب الفن لأستشيريه في أمر الحقيقة، فوجدت أن الفن لا يدرك إلا بالإحساس، وأن الجمال فيه لا يُرى إلا عن طريق الشعور الداخلي للإنسان، فلا فن بدون روح.

طرقت بعدها باب الدين، كي أستشيريه في أمر الحقيقة فوجدت أن هناك الكثير من الأديان على وجه الأرض، وكل ديانة ترفض الديانات الأخرى. ازدادت حيرتي اشتعالا، فالكل يقول إنه الحق، والكل يملك الحقيقة.

وبعد طول تفكير وتأمل أدركت أنه لا بد من ديانة واحدة صالحة لكل زمان ولكل مكان، تكون في متناول جميع البشر الكبير والصغير، العالم والأمي، الجميل والقبيح، الشرقي والغربي، هذا هو الدين الحق الذي يُخاطب جميع البشر في جميع الأزمان والأمكنة، له لغة واحدة يفهمها الجميع بلا استثناء، لكن من أين لنا بهذه اللغة؟ حتى أدركت أنها لغة القلوب، لغة الضمير، لغة الإحساس والشعور، فالإله لا بد له أن يكون محفورا في وجدان البشر أجمعين.

وضع آدم الرسالة في زجاجة وأحكم غطاءها، ثم استجمع قوته وقذفها بعيدا في المحيط، وراح يتمشى قليلا ويتفكر متأملا في الوجود حوله، اتخذ آدم كهفا له، ومرت عليه أيام طويلة، كان يستيقظ فيها عند الفجر ليتناول بعض الثمار ثم يعود إلى كهفه ليتفكر.

ظل على هذا الحال كثيرا يعيش في لحظاته المشعة التي أضاءت له أفاق عقله وقلبه بعد طول التعب والحيرة، كان يعيش في لحظات من الوجد الخالص، ويغمره ذلك الإحساس الذي لم يشعر به من قبل.

بدأت زوجته ينتابها القلق عليه، وعلى غيبته الطويلة عنها وراحت تسأل عنه، وتفتش في كل أنحاء الجزيرة حتى عثرت عليه، فشرح لها ما به، لكنه لم يستطع توصيل ذلك الشعور إلى زوجته فقال لها: لقد كنت من قبل هذا كالأعمى الذي لم ير النور

ثم تركها وغادر ليجلس أمام الشاطئ ليكتب رسائله.

الرسالة الثانية:

لماذا أرى الجمال في كل شيء؟ سؤال قد طاف بعقلي كثيرا، ولم أحصل على جواب من قبل، أما الآن فأعتقد بكل تأكيد أن هذا الجمال له مغزى، فعندما نظرت إلى أوراق الشجر هنا في الغابة تساءلت لماذا يختلف شكل ورقة شجرة جوز الهند عن ورقة شجرة السنديان؟

كنت أعلم علم اليقين أن الأوراق ضرورية للشجرة لأنها تساعد في إنتاج طعامها، لكن ما علاقة ذلك بشكل الورقة وخطوطها وتفصيلها الرائعة الخلابة؟

توصلت إلى أن الجمال هو بصمة الإله في الكون كله، إنه إشارة من الإله لنا كي نتدبر جمال الطبيعة، ذلك الجمال الذي نراه في تساقط الثلوج، الجمال في أقواس قزح بعد نزول الغيث، الجمال الذي نشاهده في غروب الشمس عند الأفق..... لكن وعلى الرغم من أن هذا الجمال ناتج عن قوانين الفيزياء والكيمياء إلا أنها هي الأخرى قوانين جميلة، فبفضل هذه القوانين أتى لنا الكون غاية في الروعة والجمال والإبداع يسر الناظرين، ولم يكن بشعا قبيحا تنفر منه الأنفس فأدركت أن الإله العظيم الذي خلق كل هذا ووضع بصمته في كل الوجود كان له غاية لنصل بها إليه عن طريق الجمال، إنه المبدع العظيم الذي أبدع الجمال.

وفي النهاية علمت بعد أن كانت الفلسفة والعلم والدين والفن يسرون كل منهم في طريق، وجدهم قد التقوا عند نقطة واحدة وصلوا فيها إلى الإله العظيم، وأن كل ما يربط كل ذلك هو الجمال، هو شعورنا به وإحساسنا العميق بوجوده.

أتمنى الآن أن تعرفوا جميعا كم يشعر الإنسان بالراحة عندما يكون قد وقف على تفاهة كل النظريات البشرية، وذاق مرارة كل الشهوات، ووجد أخيرا الجمال وشعر بالسعادة، وأدرك كم كان قريبا من الحكمة وأصل السعادة التي طالما يأس من وجودها.

تفتحت جميع السبل والأبواب في وجه نضال بعد أن أمات ضميره عنوة وباعه بثمن بخس. وبدأت الأموال تهمر عليه من كل حذب وصوب وكذلك فعلت الشهرة، أمسى له برنامج يقدمه في التلفزيون الوطني ويشاهده ملايين من البشر أسبوعيا، وكان خفيف الظل مرحا يتهم ويسخر من كل الأحوال السياسية والاقتصادية وغيرها في البلاد، وكان الناس كذلك يشاهدون برنامجه لذلك الحس اللاذع وكوسيلة للترفيه عن أنفسهم.

لكن نضال مازال يؤرقه ذلك الضمير ويحول حياته إلى جحيم مستعرة فلقد صعد على أشلاء الشرف، وخان المبادئ وتسبب في مقتل إنسان عظيم، ورضخ بكامل إرادته إلى عظماء الشر بل أصبح واحدا منهم يفكر مثلهم ويسلك سلوكهم.

امتك الكثير من كل شيء إلا شيئا واحدا قد فقده ولم يستطع أن يُعيده ألا وهو راحة البال، وعلى الرغم من أن الناس تحبه وتتابع برنامجه دوما، وتقرأ كذلك مقالاته في صحيفته القرون الوسطى إلا أنهم لا يعرفون حقيقته جيدا، ومن عرفها كان أقرب الناس إليه، وقد تخلوا عنه وابتعدوا عن طريقه بعد أن علموا حقيقته، وأدركوا مدى الزيف الكامن فيه، وفي أخلاقه التي انحلت بعد أن وصل إلى شهرته الكبيرة هذه.

استمر على هذا الحال شهورا طويلة، وكان يحتسي الكثير من الخمر على غير عادته، لكن الشهرة وإماته الضمير قد علمته كيف يفعل ذلك جيدا، كان شبح ميلاد يتماثل أمامه في كل وقت، ولا يغيب عنه إلا في وقت سكرته التي يغيب فيها عن الوعي.

أصبحت حياته جحيما بكل ما للكلمة من معنى، فلا نفعته الأموال الطائلة، ولا أغنته شهرته العظيمة. ولا أعوانه الجدد عما فيه من مأساة، وفي يوم من الأيام نظر في مرآته قبل أن يخرج على جمهوره الكبير ليُقدم برنامجه فوجد شخصا غيره، غير الذي عرفه من قبل، لم يكن هو نضال السابق الذي كان يكافح من أجل التخلص من الفساد. ويسعى للحفاظ على مبادئه العظيمة بكل ما أوتي من قوة.

لقد أصبح غريبا، رأى نفسه في المرآة كشبح لم يعرف نفسه حينها، كما استنكر رؤيته بهذا الشكل المزري، فعندما نظر في المرآة لم يك ينظر إلى صورته وشكله الخارجي بل فضحت المرآة ما بداخله، تلك النفس المشوهة الفارغة.

أمسك بالكأس التي أمامه، وحطم بها الزجاج حتى لا ير هذا الوجه البشع، وأدرك حينها أن حياة الإنسان الداخلية أهم بكثير من مظهرها الخارجي، وأن ما يحدث بالداخل لا يراه سوى الإنسان نفسه، وقد لاح على وجهه أثر من آثار هذه النكبة الداخلية التي أصابت روحه.

استجمع شجاعته وقرر في لحظة من اللحظات المنيرة في حياته أن يعود كسابق عهده، وأن يُعلم الناس، وجميع من يشاهدوه بالحقيقة التي يعرفها جيدا، وأن يخصص هذه الحلقة لعلها تكون الأخيرة ليعرض فيها توبته واعتذاره، وعزم على ألا يُخبر أحدا من إدارة القناة بنيته هذه وما سوف يفعله، لأنهم لو علموا لمنعوه حتى ولو بالقوة.

أراد أن يجعل المسألة مفاجأة للجميع وهو على الهواء فلن يستطع أحد حينها أن يفعل شيئا، وبالفعل أقدم في خطوة جريئة على فعل ما أراده، وهو يعلم جيدا العاقبة التي تنتظره، ويعلم أيضا أنه من الممكن أن يواجه غياهب السجون بعد أن يُفشى تلك الأسرار، ولعل القتل يكون رحيمًا به إذا أرادوا اغتياله، فهو على أية حال ليس بأفضل من ذلك الذي اغتالته أيادهم القدرة من قبل.

أقدم بخطى الواثق وبقلب منشرج إلى مكانه أمام عدسات المصورين وحيًا جمهوره وقال بلا مقدمات:

لقد تم الكذب علينا جميعًا من قبل كل مؤسسة، من قبل الحكومة، والإعلام، والشرطة، والجيش، والمؤسسة التعليمية، وحتى المؤسسات الدينية فهي قامت على أيدي نفس الأشخاص الذين منحونا حكومتنا، ونظامنا التعليمي الفاسد، ونظامنا الاقتصادي، والنظم المصرفية العالمية التي تقوم على الاحتكار والدين....

لتعلموا جميعًا أن أسيادنا الأشرار لا يُبالون بكم، ولا بعائلتكم، ولا بأي شخص على وجه الأرض، لا يُبالون سوى بمصالحهم، هذا هو كل ما يهمهم، وكل ما يدور في خلدكم هو السيطرة على هذا العالم الملعون، لقد قاموا بتضليل الجميع وأبعدونا عن الوجود الحقيقي المقدس في هذا العالم الذي سماه البشر الإله.....

لقد بحثت طويلا وطال بحثي، وأنا أُلقي بنفسي بداخل عش الدبابير، أو كما يسمون أنفسهم بالحيتان، لكنني أدركت أنهم ليسوا إلا مجموعة من العقارب

التي تنشر سمومها في كل مكان. وكلما بحثت أكثر كلما أصبحت الأمور أكثر وضوحا. وبدأت أرى الأكاذيب في كل مكان.

علينا أن نبحث عن الحقيقة، ولا ننخدع بالمظاهر الجذابة الزائفة التافهة التي تلهينا عن تلك التي تسمى الحقيقة، فالحقيقة وحدها هي التي ستحررنا من أسرنا، الحقيقة وحدها هي التي ستفك عنا قيودنا، الحقيقة وحدها هي التي ستجعل منا أحرارا.....

أريد أن أبوح إليكم اليوم بالحقيقة، وأكشف الستار عنها حتى ترونها بوضوح، بعد أن حجب أعوان الشر أعينكم عنها، ووضعوا عليها ستار كثيف من الكتمان. تلك الحقيقة التي عايشتها بكل فصولها، إننا جميعا نحيا في تفاهات، وعندما نتكلم عن أعظم وأكبر التفاهات، علينا أن ننحني احتراما للوعود الكاذبة، علينا أن ننحني احتراما للادعاءات المبالغ فيها، علينا أن ننحني احتراما للخطة المحكمة.....

فكروا بالأمر جيدا، كل الأدلة التي قد تُشير إلى الحقيقة قد تم تجاهلها عن عمد أو قد تم إخفاؤها، هل تعلمون لماذا؟

لأنهم يريدون منكم أن تظلوا كما أنتم مجرد آلات، لا يرغبون أن تنهضوا وتعودوا بشرا، فكلمة البشر أصبحت كلمة سيئة السمعة، لقد استطاعوا أن يجعلوكم كائنات من أشباه البشر، أنتم مبرمجون يا سادة.....

أما اليوم فأنا سأحاول أن أعود بكم إلى طريقكم، وسأحاول أن أحل قيدكم لتتألقوا بحريتكم، سأعلمكم بالحقيقة، لن أحدثكم عن الحقيقة المطلقة، أو الحقيقة الأبدية بكل تأكيد، لكني سأخبركم بحقيقة هذا الإنسان الهش وحقيقته العابرة الزائلة، سأتكلّم عن حقيقة هؤلاء الناس الذين يتلاعبون بكم، وينشرون سمومهم حولكم.

هل رأيتم التفجيرات في كل أنحاء العالم، انظروا جيدا إلى الحروب الشنيعة التي تنتشر في كل مكان، كل هذا من أجل ماذا؟ إنه من أجل مزيد من التوسع الإمبريالي يا سادة

قولوا لي من فضلكم ماذا تحتاجون؟ أنتم تعيشون برفاهية، تملكون كل شيء، والآخر يعيش تحت مستوى الفقر، لماذا الحروب معهم أمن أجل الحصول على ثروات بلادهم!؟

إنه الطمع وحب السيطرة، وهذا المصطلح الذي ظللتم تستمعون له مرارا وتكرارا، وتلوكه ألسنة كل من في السلطة ما معناه؟

ذلك المصطلح الذي يُسمونه الإرهاب، الذي يستخدمونه في إثارة الذعر والخوف في قلوبكم وبين صفوفكم، جميعنا نسمع عن الإرهاب، والإرهابيين، والأسلحة الكيماوية، والأسلحة النووية، وأسلحة الدمار الشامل، وأسلحة الدمار الناقص.....

ما كل هذا الدمار، وما كل هذه الفوضى، وما هو الإرهاب العالمي، والحرب على الإرهاب.

الإرهاب..... الإرهاب..... الإرهاب..... كلها كلمات تم ترديدها كثيرا، فكمال النخبة الحاكمة ترى الإرهاب وسيلة المفضلة، بل تكاد تكون الوسيلة الوحيدة لتأمين صورة عدو للمجتمع لإبقائه في حالة من الخوف والذعر، وفي النهاية تركضون باتجاه السلطة مطالبين إياها بحمايتكم.....

هذه هي الخدعة وهم الإرهابيون بحق فيجب أن يتوافر لديك صورة عدو حتى تستطيع أن تحكم وتسيطر على البشر، فكمال النظام قائم على أسطورة بشعة.....

الرسالة الثالثة:

لا يمكن للإنسان أن يحيا بلا غاية، فليست للحياة أهمية بدون غاية يصبو إليها الإنسان. وتلك الغاية لا تتحقق إلا في ظل وجود الإله، وبدون الإله يتخبط الإنسان في ظلام حال كالتائه الذي يبحث في كل اتجاه وفي كل طريق وهو لا يعلم ما يبحث عنه، الإنسان بدون الإله ضعيف خائف فارغ من الداخل، والذي لا يراه بداخله ولا يؤمن بوجوده كالأعمى الذي لا يرى الشمس مع إحساسه العميق بدفئها وتأثيرها عليه....

الإله في الحقيقة واضح وضوح الشمس في كبد السماء، فكل ما في هذا العالم يوقظ فينا إحساسا عميقا بالإله، وتأملا شديدا في خالق الكون العظيم لكنه مع ذلك يظل سرا، إنه ذلك الكنز الخفي الذي ظللت أبحث عنه طويلا، وحصلت في النهاية على المتعة الكبرى التي كانت في رحلة البحث الطويلة بما اشتملت عليه من مشاعر الأمل في الوصول إلى هذا الكنز، ومن الخوف من

عدم العثور عليه، ومن ألم الشدائد والعقبات على طول الدرب، ومن الفرحة ونشوة الانتصار لدى وصولي، لكنني في النهاية وجدته، لكنه ما زال سرا، فالكثر يظل كنزا ما ظل مخفيا.....

وبرغم عدم رؤيتي للإله إلا أنني شعرت به، وأدركت أنه ليس في وسع عقل الإنسان أن يتخيل هذا الموجود السامي، فإدراك الإله لا يأتي عن طريق الخيال، بل من خلال الوجدان الحاضر، فالإله دائما مع البشر وبداخل أحاسيسهم.....

تلك هي الحقيقة، الإله هو الحقيقة المطوية الدفينة في باطننا، إنه بداخل قلب كل إنسان.....

ألقى آدم الزجاجة الثالثة في المحيط، وسار في أرض الجزيرة على غير هدى حينما اجتاحتها رغبة قوية في أن يُصلي، هرول ناحية كهفه وهو يشعر بشعور غريب أنه ما زال ناقصا وغير مكتملا.

تلك هي أمنيته الأخيرة أن يصل إلى الكمال، لكن هيات فتلك الأمنية محكوم عليها بالعطش الأبدي، لقد تفتحت آفاق عقله وقلبه للحياة، وأدرك حقائق كثيرة شعر بها ولمسها لم يحصل عليها إلا بمعرفته لإلهه، فقرر أن يقدم ذاته نفسها إلى الإله، فأقبل إليه يصلي بكل جوارحه، حينها شعر بحريته المطلقة، وبتلك الصلة الروحية العظيمة التي عقدها مع المبالي العظيم، فعرف المعنى الحقيقي للصلاة.

شعر آدم في أعماق قلبه بأنه في حاجة إليه أكثر من أي موجود آخر، لم يكن في استطاعته أن يتحدث إليه من قبل، لكنه الآن يتحدث إليه بطلاقة بعد أن صمت كل شيء بداخله.

بعد مرور أيام عاد آدم ليكتب رسالته الرابعة، وبدأ يشرد بذهنه بعيدا ناحية الأمواج، وفي وسط المنظر الطبيعي الخلاب وهو يتفكر عن غرض الحياة وغايتها شرع يكتب الرسالة

الرسالة الرابعة:

مَن كان منكم يريد أن يسأل عن معنى الحياة والغاية منها، فليتقدم بخطى واثقة ويسأل الحياة نفسها، وهي سوف تُجيبه، ما عليه إلا أن ينظر في نفسه

ليُبصر ما لم يك يراه من قبل، فالإنسان ما هو إلا مجرد كلمة من كلمات الحياة. وكلما كان الإنسان عظيم النفس كانت الكلمة عظيمة المعنى.....

وقبل أن يُكمل رسالته الرابعة جفت الأقلام فرفعت الصحف، وضع الرسالة التي لم تكتمل في الزجاجة، وأحكم الغطاء وألقاها في المحيط، ثم عاد يتأمل في الطبيعة الخلافة أمامه.

كان مشهدا جميلا من مشاهد الكون، شرع ينظر إلى السماء في زرقتها، وتلاقى أفقها على مد البصر مع ماء المحيط وقد خلعت عليه السماء بردها فبدا له جميلا يسر الناظرين، حينها بدأت الشمس في الغروب وهي تصافح الدنيا معلنة رحيلها.

كانت الطيور تُحلق في السماء في رشاقة بألوانها الزاهية وأشكالها التي تبوح بهندسة عجيبة، وصوتها العذب وصدحها المرح وهي تغرد بأنشودة شكر للإله العظيم، وهي الأخرى تُعلن الرحيل إلى أعشاشها كان ذلك المشهد جعله يتفكر في المبدع العظيم الذي أبدع تلك اللوحة الفنية الجميلة.

قرر حينها بعد انتهاء الأوراق والأقلام أن يمضي إلى لقاء العالم، وهو على قناعة تامة أنه ذاهب في الوقت ذاته إلى لقاء الإله، كان يريد أن يُحقق المعنى الإلهي الذي أدركه، وما كان انتهاء الأدوات التي كان يكتب فيها رسائله إلى العالم سوى إشارة من الإله بالتحرك، فبعد أن توثقت علاقته مع إلهه أصبح يرى الإله في كل شيء في هذا الكون.

لقد تربع أخيرا على عرش الملك الذي لا يبلى، وحينها قرر أن يُقدم للإله في مقابل الحقيقة الإلهية التي حصل عليها حقيقة إنسانية، ولما أدرك آدم أن عليه مهمة عظيمة لا بد من القيام بها قرر أن يسعى لهدفه، ليُخبر الناس بما توصل إليه، إنه الآن سيدعو إلى الإله، سيدعو الناس لرؤية ما رآه، لكن كيف السبيل إلى ذلك؟ وهو في مكان ناء بعيد، وبعد تفكير عميق عزم على أن يصنع سفينة ليعود بها إلى وطنه.

شرع بالفعل في صنع السفينة من أخشاب الغابة بمساعدة أفراد القبيلة بعد أن أخبرهم بنيته هذه، قدموا له الكثير من النصح بشأن ما يصنعه، فتلك مشقة لن يتحملها إلى أن يصل إلى وطنه أو لعله لن يصل أبدا، لكن آدم كان يثق جيدا في إلهه القادر الذي سيُقدم له يد العون والمساعدة للوصول إلى مراده.

مرت الأيام وتبعها شهور وهو مازال يصنع تلك السفينة في ظل الأدوات البدائية التي يملكها حتى انتهى في النهاية من صنعها، وقام كذلك بتجربتها العديد من المرات، وحانت لحظة الرحيل نظر إلى جميع من كانوا على الجزيرة وهو يُحدّث نفسه هل سيرحل بمفرده ويلاقي الأهوال والصعاب وحيدا، أم أن أحدا سيسافر معه؟ وعلى الرغم من أن هذه مهمته وحده وقراره وحده فلن يذهب أحد معه فالجميع كان متخوفا.

عانق الجميع وودعهم جميعا، كان الجميع يبكون في مرارة وأسى على وداع ذلك الإنسان الرقيق الذي عاش معهم لسنوات طويلة، وفي النهاية انطلق إلى زوجته أيضا ليوّدها هي الأخرى، لكنها أبت إلا أن تذهب معه أينما ذهب وأن تحل معه أينما حل، فهذه طبيعة نساء القبيلة فالوفاء لديهم كان عظيما، والمرأة في عرفهم يجب عليها مشاركة زوجها في كل شيء، ولا يجب عليها أن تتخلى عنه أبدا.

كان آدم يخشى على زوجته من الشدائد والعقبات، وكان العناد يُطل من وجهها كالشبح، ولم تتوان عن الإصرار في الذهاب معه، حاول آدم جاهدا أن يشرح لها الوضع كثيرا، وأنه حالما يصل إلى وطنه بسلام وينشر رسالته سيعود بعدها ليأخذها، أمسكت بذراعيه كالطفل الصغير وهي تصرخ وتترجاه ألا يتركها فالعارسيلحق بها إذا رحل عنها زوجها ولم تساعده هكذا كانت تعتقد.

لما يأس آدم من إقناعها بالموث على متن الجزيرة وسط أهلها نزل على رغبتها، وراحت تلملم أشياءها لتذهب بها إلى السفينة، حمل آدم معه على الفلك الكثير من المؤن التي تساعده في رحلته الشاقة، وانطلقت السفينة مبحرة تشق عباب البحر، والجميع يقف على الشاطئ ويلوحون لهم بأيديهم، ويدعون له الإله المبالي كي يحفظه، وتمنوا لهما التوفيق في حياتهم وفي رحلتهم.

ليس عليّ أن أخبركم أن الأمور أصبحت سيئة للغاية، فالجميع يعرف ذلك تماما، فالأقتصاد يترنح، والأسعار وصلت إلى عنان السماء، والبنوك ستُفلس، والإرهاب الذي يُخيفوننا به ينتشر كالجراد في كل أنحاء العالم بما صنعتته أيديهم، والأشرايعيثون في الشوارع فسادا، ولا يبدو أن أحدا يعرف ما العمل؟ ويبدو أنه ليس هناك نهاية للأمر.

الهواء غير صالح للتنفس، والغذاء غير صالح للأكل، والمياه غير صالحة للشرب، وبينما يسوء الوضع أكثر فأكثر تجلسون أنتم أمام تلفازاتكم، وتراقبون المذيع، وهو يُخبركم أنه كان لدينا اليوم خمس عشرة جريمة قتل، وسبعون جريمة عنف، وثلاثون اغتصابا وسرقة.

تشاهدون بلا مبالاة ما يحدث كما لو أن هذا من المفترض أن يحدث، الأمور جميعها ليست سيئة بل أسوأ من سيئة، إنها مجنونة، وكأن كل شيء في كل مكان أصبح جنونيا، لذلك قررتم ألا تخرجوا من بيوتكم، تجلسون أمام التلفاز في صمت لتراقبوا ما يحدث بدون أن تفعلوا شيئا، ويبطئ العالم الذي تعيشون فيه، ويضيق عليكم ليصبح أصغر وأصغر، ولسان حالكم يقول: رجاء اتركونا على الأقل بمفردنا في بيوتنا.....

لا هذا ليس الحل بكل تأكيد، علينا أن نغضب ونصرخ ونثور لنقول لهم "إننا بشروحياتنا لها قيمة أيها الفاسدون".

لقد علمت بشأن هذه المنظمة التي أخبرتكم عنها منذ قليل، إنه مجتمع سري يعيش على القتل والعنف والفساد والإفساد والمصالح الغربية الشاذة، إنه يقاومنا نحن البشر حول العالم من خلال مؤامرة كبرى عديمة الرحمة تعتمد في نفوذها على التفرقة والفتنة والتخويف، وقد جندوا لخدمة مصالحهم موارد مادية وبشرية هائلة من أجل نسيج محاك بإحكام.....

انظروا إلى مصرفنا المركزي تلك المؤسسة التي تنتج العملة لكامل أمتنا، عرفها يقوم على التحكم بمعدل الفائدة والتحكم بالعرض المالي والتضخم، فلا يقوم المصرف ببساطة بتزويد اقتصاد حكومتنا بالمال، بل يُقرضها المال بفائدة، وكل عملة يقرضها يحصل عليها أضعافا مضاعفة، ولا يحتاج الأمر إلى كثير من الذكاء لاكتشاف هذا الاحتيال الذي تقوم عليه المصارف، فعندما يقرضك المصرف عملة يتم صكها فيه فإنه يأخذها بفائدة، وذلك يعني أن كل عملة هي في الحقيقة عملة زائد قيمة معينة تُحتسب بالمائة من الدين، وهم يقرضون كل عملة بدين فوري مرتبط به، فمن أين يأتي المال اللازم لدفع الدين؟

إنه يأتي من المصرف ذاته ثانية مما يعني أن المصرف يجب أن يزيد العملة بشكل دائم لتغطية الدين القائم مؤقتا، وتباعا لذلك فإن المال الجديد يفرض فائدة جديدة، وذلك يخلق مزيدا من الدين فالهيكल الكامل لهذا النظام يمكن أن ينتج على المدى الطويل شيئا واحدا فقط، هو الدين والنتيجة الحتمية لهذا

النظام بكل تأكيد هي العبودية، لأنه يستحيل للحكومة وكذلك الشعب أبدا الخروج من دين ذاتي التوالد.....

كل الآباء المؤسسين لهذه المصارف، وهم أعضاء في المنظمة يُدركون ذلك تماما، لذلك أعتقد أن المؤسسات المصرفية أكثر خطورة من الجيوش العسكرية.....

وبمناسبة الحديث عن الجيوش إذا أردت تحطيم منطقة ما فكيف تفعل ذلك؟

سأقول لكم.....

هناك طريقتان أولهما يمكنك الذهاب إلى المكان وقصفه، لكن هذا الأسلوب أصبح غير عملي، وثانيهما ما عليك إلا أن تجعل شعب تلك المنطقة يقتلون بعضهم البعض، فالحكمة تقول لتُحطم معارضا عليك أن تجعله يُحطم نفسه بتقسيم صفوفه، أحدهم ضد الآخر ثم تُغذي كلا الجانبين عن طريق عملائك، ويلهبون الحرب لتكون أكثر اشتعالا

هذا ما تفعله جيوشنا، وقائد جيوشنا كان رئيسا للمنظمة التي أخبرتكم عنها يا سادة.....

إنهم لا يريدون لأطفالكم أن يتعلموا، ولا يريدونك أن تفكر كثيرا، لهذا أصبحت بلادنا وأضحى عالمنا متكاثر بالتسليلات وبرامج التلفاز ومخدرات وكحول وكل أنواع الترفيه، كل ذلك من أجل إبقاء الإنسان لاهيا، لكي لا يقف في طريق الأشخاص المهيمنين بتفكيره الزائد، فمن الأفضل أن تستيقظ وتفهم أن هناك إناسا يتحكمون بحياتك وأنت لا تعرفهم حتى، لأن الحقيقة الوحيدة التي تعرفونها جيدا هي ما تحصلون عليه من التلفاز.....

الآن هناك جيل كامل لا يعرف شيئا لم يخرج من التلفاز الذي يُعتبر الوحي بالنسبة لهم، إنه أقوى قوة ملعونة مذهلة في هذا العالم، وعندما تُدركون أن الشركة الأكبر في العالم هي التي تتحكم بالقوة الدعائية الملعونة من سيعرف حينها ما نوع ما يقدمه هذا التلفاز.

اسمعوني جيدا.....

التلفاز ليس الحقيقة، إنه وهم، سيرك كبير يتراقص جماعة من الهلوانات، ويمتلئ بالقصص والحكايات والراقصين والمغنيين ولاعبين الكرة، وكلهم دجالون

مشعوذون يساهمون فقط في عملية قتل الوقت، والناس يجلسون هناك يوما بعد يوم، وليلة بعد ليلة من كل الأعمار والألوان والمذاهب.

نحن فقط كل ما نعرفونه عن الحياة لأننا فقط نظهر على شاشات التلفاز، وبدأتم تُصدقون الأوهام التي نحكيها لكم هنا، وصدقتم أن التلفاز هو الحقيقة وحياتكم هي الخيال، تفعلون كل ما يُمليه عليكم هذا الملعون، تلبسون كما يقول لكم، تأكلون كالتلفاز، تربون أولادكم كالتلفاز، وتفكرون كذلك كالتلفاز.

بحق الإله يا عالم أنتم الحقيقيون، والتلفاز هو الوهم، هو الخدعة فأخر شيء يريد به هؤلاء الرجال وراء الستار هو جمهور مطلع يقظ قادر على التفكير، يريدون إبقاءكم في فقاعة شاردة وساذجة، وفي الحقيقة هم يقومون بعمل جيد جدا في ذلك.

سيقول البعض منكم الآن وماذا سيجنون من وراء ذلك كله، وسوف أُجيبكم إنهم يريدون مركز سلطة واحدا ومصرفا واحدا وجيشا واحدا، إنه النظام العالمي الجديد، والهدف النهائي لكل ذلك هو السيطرة على جميع البشر من خلال التلاعب الاجتماعي بالمجتمع عن طريق توليد الخوف، وبذلك سيخلقون شعبا مُسيطر عليه، طيعين جدا في أيدي بضع أفراد.

أما المفاجأة..... هي أنهم الآن يُجربون مصلا جديدا كنت السبب في وصوله لهم بعد أن اغتالت أيديهم القدرة من صنعه، ولسوف يستخدمونه في السيطرة على جميع البشر، الرجال وراء الستار يسعون جاهدين لهذا، ولكن المشكلة أنه إذا أدرك الناس الحقيقة ستتخطم جميع خططهم، لذلك كل النظام الذي نعيش فيه يُسرب فينا أننا بلا قوة، يزرع بداخلنا أننا ضعفاء، إن كل هذا محض كذب، إننا أقوياء، إننا استثنائيون.....

يا سادة كل ما تعلمته في طريقي وأعرفه جيدا هو أنه عندما تتغلب قوة الحب على حب القوة حينها فقط سيعرف العالم السلام.....

لن نتغلب على قوة الشر إلا بالحب، والآن لدينا الخيار بين الخوف وبين الحقيقة.

أمست السفينة التي تحمل آدم وإيفا في وسط الماء، وفي تلك اللحظة التي رأها إيفا مناسبة للاعتراف فأخبرت آدم أنها تحمل في أحشائها طفلهما، ولكنها

لم تشأ أن تُخبره هناك على الجزيرة حتى لا يتمسك برأيه ويتركها خلفه ويرحل خوفا عليها وعلى الوليد، انتابت آدم مشاعر القلق والخوف، فلقد كان ينتظر هذه اللحظة العظيمة التي يخرج فيها إلى النور وليده، وفي الوقت ذاته كان شديد الخوف من أن يحدث مكروه لهذا الجنين وسط أهوال البحر، فبالبحر غير مأمونة عواقبه وإذا صاح غاضبا لا يستطيع أحد أن يقف في وجه غضبه، لكنها الأقدار التي استقبلها آدم أخيرا بصدر رحب وهو على ثقة بأن الإله لن يخذله، فعلى الرغم من أنه لا يعرف ما سطرله على لوح القدر إلا أنه يتفاءل خيرا.

مرت الأيام طويلة والسفينة تمخر في البحر وعلى قدمها وبدائية صنعها إلا أنها كان متقنة الصنع شديدة القوة، ظلت على حالتها كذلك إلى أن بدأت السماء تهطل بالمطر، والعواصف الشديدة تعلو بالسفينة وتخفضها، وبدأت الأمواج بالتلاطم في سواد الليل المظلم، وتولتهم الرياح عن شمالهم ويمينهم وهم بين موج كالجبال، لم يعرف حينها آدم ماذا سيفعل وما الذي ينتظره هنا؟.

احتضن إيفا بقوة وذوى في ركن بعيد من أركان السفينة ثم رفع عيناه إلى السماء وقال: يا إلهي أما أن لرماد جسدي أن يُرد إلى تراب وطن أبائي، فإن كانت الأقدار قد قست عليّ وحرمتني الحياة في وطني، فهل تضن عليّ أن ألقى حتفي فيه؟.

فجأة انقشعت الظلمة، وتبددت الوحشة، ولاح لهما ضوء الفجر، وهذأت الأمواج، وسكنت الرياح العاصفة، وتوقف المطر في لحظة توقف فيها الزمان.

كان آدم يدعو الإله طالبا منه النجاة ليس خوفا على حياته، وإنما خوفا على زوجته وطفله الذي لم ير الدنيا بعد، حتى وصلت السفينة في النهاية إلى الشاطئ بسلام، ولما توقفت ترجل منها الزوجان وعلى أرض الشاطئ سجد آدم شكرا للإله الذي كان بجانبه حتى أوصله بسلام إلى أرض الوطن، وقبل أن يخرج من الشاطئ وجد امرأته تعاني ألم المخاض.

وقف قلقا شريدا لا يدري ما هو فاعل في هذا الموقف الذي لم يُوضع فيه من قبل، نظر حوله فلم يجد أحدا، حملها على متن السفينة مرة أخرى، وطلب منها أن تنتظره حتى يذهب إلى المدينة فيأتي لها بطبيب ليقوم بتوليدها، صمتت إيفا مضطرة وانطلق آدم ناحية العاصمة، وما أن وصل إلى أول الطريق الذي يؤدي إلى العاصمة حتى أصابه الدهول، وعلت الدهشة وجهه فتوقف صامتا

فهو لم ير أيا من البشر في العاصمة التي كانت من قبل لا تخلو من أقدام الناس، وجد الطرقات خالية فارغة من المارة ومن السيارات، وزادت دهشته عندما نظر إلى أبواب المتاجر فوجدها مهشمة ومحطمة، ولا يوجد أحد بها.

تساءل في نفسه عن تلك العاصمة التي كانت مثالا للصخب والضجيج طوال الوقت لا يتوقف صباحها صباح مساء، ماذا أصابها؟ وماذا حدث لها؟

تلقت حوله يمينا ويسارا لعله يجد أحدا يتحدث معه ويُخبره عما حدث، لكنه لم يجد فسار قليلا في الشوارع الخالية.

صمت رهيب وهدوء عجيب يُخيم على المكان، لاح له على البعد رجل رث الهيئة قذر الثياب أشعث الشعر يُحدث نفسه وهو يجلس بعيدا على حافة الرصيف فاقترب منه مهرولا وسأله: ماذا حدث هنا يا سيدي؟

لكن الرجل لم يعره اهتماما، وفجأة أخرج من جيبه سلاحا ثم وجهه إلى رأسه وهو يقول: بيدي لا بيدك

فانطلقت الرصاصات من السلاح مخترقة رأسه فسقط قتिला.

كان المشهد قد أفقد آدم القدرة على النطق والحركة فظل ساكنا لا يتحرك لفترة طويلة حتى يستوعب ما حدث وما رآه؟

وما أن تخلص من صدمته تلك حتى أكمل مسيرته في الطرقات، أوصلته قدماه إلى وسط العاصمة، وهنا أخيرا وجد بشرا يسعى، رأى إناسا يُحطمون المتاجر ويستولون على محتوياتها، ووجد بعضهم يقتل بعضا دون رادع يردعهم، حاول أن يختبئ في مكان حتى لا تُصيبه إحدى الرصاصات المنطلقة من أسلحتهم، والتي تتطاير في الهواء، اختبأ في مكان قريب ليتسنى له متابعة ما يحدث، ولما انتهت المشاجرة وسقط من سقط قتिला، وجرح من جرح كان من الطبيعي أن تأتي سيارات الشرطة والإسعاف حتى تفض الاشتباك وتحمل الجرحى، وبالفعل وصلت السيارات، وعندما توقفت ترجل منها رجال الشرطة الذين يحملون الأسلحة، ونزل من سيارة الإسعاف رجلان فحملا جثث القتلى فقط، لكن عندما نظر رجال الشرطة إلى الجرحى صوبوا أسلحتهم تجاههم وقضوا عليهم، ثم حملهم الرجلان في سيارة الإسعاف بعد أن قتلهم رجال الشرطة، وانطلقت السيارة.

كان آدم يتابع عن كثب ما يحدث في حين توقفت مشاعره كلها وهي تتأمل، وفمه عاجز عن النطق لا يدرى إذا كان في كابوس أم أنه يقظ واع لما يدور حوله، وبعد أن هرب باقي الرجال، قام آدم من مكانه ورنأ بعينه إلى الأفق البعيد فلم ير إلا دخانا تائها يتجول في فضاء العاصمة.

أسئلة كثيرة تجر أذيالها في عقله ولم يجد لها جوابا. في هذا الوقت العصيب شعر بالخوف من المجهول وما هو مقبل عليه، عاد للمسير مرة أخرى حتى انتهى به الحال أمام قصر خاله السياسي الكبير جلال الديب، اجتاز الحديقة وأطرق باب القصر فلم يفتح له أحد، تطرق إلى سمعه صوت ضجيج شديد يأتي من بعيد ويقترب ناحيته، فخاف وهرب إلى الحديقة يختئ فيها، وهو يُشاهد حتى جاء رهط من الشباب وحطموا زجاج الأبواب والنوافذ واندلفوا إلى داخل القصر، وسرقوا بعض الأشياء ثم رحلوا.

انطلق آدم بعد رحيلهم إلى داخل القصر وتفقده لكنه لم يجد بداخله أحدا، كما وجده محطما تماما، خرج منه وهو يشعر بأن الأرض تدور من حوله، وكأن أسئلته الحائرة في سجن كبير، وذهنه لا يستطيع الإجابة عنها. يتمنى أن يعرف لكن العقل قد أقفل برتاج محكم القفل فلم يستطيع إجابته.

كانت الدنيا ظلاما حوله وتسرب هذا الظلام إلى نفسه فوقف يتفكر قليلا فيما سوف يفعله، لم يجد أمامه سبيلا إلا أن يطرق باب صديقه إمام فلم يتبق له أحد في العاصمة سواه. هرب ناحية منزله وفي طريقه لم يقطع الصمت الطويل في الطرقات سوى أصوات الناس تصرخ متوسلة إلى الإله ومشغولة في الدعاء، كانت العيون متعلقة بالسماء في رهبة وخوف وفزع لم ير آدم مثلهم في حياته حتى وهو في خضم الموت لحظة غرق سفينته، إنه شعور غريب لم يعرف معنى الخوف والفزع بحق سوى الآن. وقد خاف أن يقترب من هؤلاء الناس الذين تجمهروا عند أبواب المساجد والكنائس والمعابد، أحس حينها بانتهاء الزمان، وأطلق الناس صيحات عالية اخترقت السماء في ضعف وتوسل ومناجاة.

تساءل آدم في نفسه هل هذه هي الأرض التي عاش فيها؟ ماذا يحدث؟ يكاد عقله أن يختبل لكنه واصل مسيره حتى وصل إلى منزل إمام فوجده محطما كذلك، دخل المنزل يتفقده لعل هناك أحد بداخله، ولكنه لم يجد. يأس من هذا الحال فصرخ بأعلى صوته مناديا على إمام، لكن لا مجيب حاول مرارا وتكرارا وهو مستمر في النداء حتى أناه صوت عبر الأثير، كان صوت إمام الذي

يعرفه جيدا وقد خرج من مكان يختبئ فيه تحت منزله وسار نحو آدم وحياه في
أسى فبادره آدم بالسؤال وقال له: ماذا يحدث في البلاد؟

قال له إمام: ألا تعلم ماذا حدث؟

أجابه آدم متعجبا: لا لم أعلم شيئا

- ألسنت تعيش على هذا الكوكب يا رجل؟

- ماذا حدث؟ تكلم لقد أفلقتني

- لقد أعلنت الوكالة العلمية الفضائية أن كوكبا سوف يصطدم بكوكبنا،
ولسوف تنتهي الحياة هنا على هذه الأرض والمسألة فقط مجرد وقت، قد يكون
أسبوعا أو أكثر، فظن الناس أنها القيامة، وانتشرت الفوضى في كل مكان
السرقه والقتل والنهب، كما مكث البعض في أماكن عبادتهم يتوسلون إلى الإله،
والبعض الآخر حاول أن يفعل كل ما لم يستطع أن يفعله في حياته فأصبح
الحال على ما هو عليه الآن.

قال آدم: وأين الشرطة والحكومة؟

- هرب منها من هرب خوفا من القتل، وقُتل منهم من قُتل فتلك النهاية قد
أظهرت الوجه الحقيقي للجميع

- يا لها من مأساة، لكن قل لي هل هرب خالي جلال هو الآخر؟

- لا لم يهرب لقد أُغتيل بعد أن هربت أنت مباشرة، ورحلت عنه زوجته
بعيدا لا نعلم إلى أين؟

- وماذا عن ذلك الصحفي الذي يُدعى نضال؟

- أصبح شهيرا، وامتلك الأموال الكثيرة، وكان له برنامج يُعرضه على شاشة
التلفزيون الوطني حتى جاء ذات مرة، واعترف للمشاهدين بأنه قد خان
مبادئه، وبدأ يفضح الخطة الكبرى التي وضعها رجال منظمة عين الحياة،
وحاول أن يساعد الناس لكي تستفيق من سباتها، وتقاوم قوى الظلام

- وأين هو الآن؟

- في نهاية تلك الحلقة التي كان يعرضها في برنامجه وبعد أن فضح الجميع
أخرج من جيبه مسدسا وصوبه ناحية رأسه وأطلق رصاصة مات على إثرها،
لقد انتحر

- وهل تعلم شيئاً عن سيمون وسيث؟
- إنهم أعلى الجبل يتعبدون ويتضرعون للإله كي يخلص العالم مما هو فيه
- قال آدم ساخراً: سيمون وسيث يتعبدون؟! يا لها من سخرية!
- لكن أين كنت؟ وماذا أتى بك ثانية؟ وكيف لم تعلم بكل هذه الأحداث؟
- إنها قصة طويلة، سأقصها عليك لاحقاً، أما الآن فأريدك في أمر هام
- ما هو؟
- أريد طبيبا، فزوجتي على وشك الولادة
- أنت تمزح بكل تأكيد
- ولماذا تقول هذا؟
- ليس هناك أحد الآن يستطيع مساعدتك، ولو أنك ذهبت إلى أحدهم لقال لك ستلد الطفل كي يموت لا فائدة من ذلك
- إذن ما العمل؟
- لدي فكرة
- ما هي؟ أسرع بالقول
- سيمون كان يعمل من قبل معالجا روحيا، أليس كذلك؟
- نعم
- إذن ستراه على علم ببعض الأمور الطبية لعله ينفعنا في هذه المسألة، وهو الوحيد الذي لن يتوانى عن مساعدتنا فلنذهب إليه أعلى الجبل
- لكن الطريق طويل إلى هناك، هل لديك سيارة؟
- قال إمام مبتسما: سنسرق واحدة
- هرول الصديقان إلى ناحية الجبل بالسيارة التي سرقوها، وفي الطريق عاد آدم ليسأل عن صفوان الأدهم ذلك الفاسد الكبير فأخبره إمام أنه قد أصيب بمرض يسمى الهذيان الارتعاشي
- قال له آدم متسائلا: وما هو هذا الهذيان الارتعاشي؟

- هو نوبة حادة من الهذيان يسببها الاستهلاك المفرط للكحول ثم الانقطاع عنه، كان صفوان مدمنا للكحوليات وقد أُصيب بهذا المرض بعد أن أصبح شرها في شرب الخمر، فظل فترة طويلة مواظبا على الخمر حتى أتت على عقله، ولما حاول المقربون منه أن يمنعوه عنه عنوة، انقطع عنه لفترة فأصابه هذا المرض وقد أدمن الخمر بعد أن علم أن زوجته تخونه مع شاب صغير، فارتكب أبشع جريمة في البلاد

- هل قتلها؟

- ليس كأبي قتل

- ماذا فعل؟

- اصططحها هي وذلك الشاب في سيارته، وانطلق بالسيارة إلى شركة الطاقة العالمية التي يملكها، وألقى بهم في حمام حمض الكبريتيك المركز الخاص بالشركة فذابت أجسادهما ولم يتبق لهما أثر

- يا إلهي!، وكيف عرفت بتلك القصة وأنت تقول إن أجسادهم قد اختفت

- بعد أن أصابه هذا المرض سار هائما على وجهه في الشوارع والطرق، وقد اختبل عقله وشرع يُهدي بحكايته هذه لكل الناس، كما تبرأ أولاده منه بعد أن علموا بفساده

- وأين هو الآن؟

- إنه كالمجنون تراه كثيرا في أي مكان في العاصمة، يجلس على الأرصفة ويأكل من القذارة، ثيابه قذرة ورائحته نتنة، ويتحدث إلى أشياء ليس لها وجود، من الممكن أن تراه على أي رصيف يسعى لتخويف الناس

- نعم نعم لقد رأيته لدى وصولي لكنني لم أتبين ملامحه جيدا وعلى كل حال لقد انتحر

- كيف انتحر؟

- رأيته يجلس على الرصيف ويُمسك مسدسا بيده ثم أطلق منه رصاصة على رأسه

- إنه انتقام الإله

- لكن ماذا عن الدكتور عابر؟ أين هو الآن؟

- لقد مات هو الآخر

- كيف مات إذن؟

- كان في معمله يقوم بإجراء إحدى تجاربه على جندي في الجيش، فهجم عليه بشراسة إلى أن قضى عليه فمات

- ما كل هذه الأخبار الغريبة التي أسمعها.

وصل الصديقان إلى أعلى الجبل فتطرق إلى سمعهم بعض الأدعية التي يتضرع بها سيمون وسيث إلى الإله وقفا قليلا يسترقان السمع لهما، ثم قطعاً عليهما خلوتهما فاستقبلوهما في ابتسامة رقيقة وقال آدم: الآن تؤمنان بالإله يا أولاد الأفاعي

فأشار سيمون إلى قلبه وقال: إنه هنا، لقد عرفت أنه هنا

بدأ آدم يشرح لهما ما أصابه من حوادث وأحوال وهما في الطريق إلى زوجته كي يساعدها سيمون في الولادة، وحينما وصلوا إلى هناك أنزل آدم إيفا من السفينة إلى أرض الشاطئ، ثم قام سيمون بإجراء الولادة وخرج إلى النور ابن آدم فاستقبلته بالترحيب.

النهاية....

لم تنتهي الحكاية بعد.... لكني وضعت النهاية قسرا، لأنني قد سأمت
حكاياتكم، فقصصكم جميعها متشابهة، تدورون في دائرة مفرغة تبحثون فيها
عن شيء كامن بداخل نفوسكم، نفوسكم التي أفسدتموها بأيديكم، تبحثون
عن الإله وهو بداخلكم، وتتنظرون في الأفاق ولا تُبصرون فلکم أعين لا تُبصرون
بها، ولكم قلوب لا تفقهون بها ولكم عقول لا تعقلون بها.

كنت قد دعوتكم من قبل يا بني آدم إلى الملك الذي لا يبلى، وقد
صدقتموني!

لقد خدعتكم ونصبت شباكي كي أحميد بكم عن هذا الطريق، وقد بذلت في
سبيل ذلك الهدف جهدا عظيما، فما ارتأيت فكرة من الأفكار إلا وقد
استخدمتها معكم لهذا الهدف، لقد جعلتكم تعبدون آلهة ميتة وأخرى
متحركة، كذلك رأيتم وأنتم تعبدون الشمس والقمر، وأبصرت بعضكم يعبد
الأصنام، وآخرون يعبدون الإنسان، وهؤلاء يعبدون المال، وغيرهم يعبدون
السلطة والجاه، لقد تعددت الآلهة، ووقفت أشاهدكم وأنتم تميلون عن
الطريق وتتخبطون في الحيرة، وكنت أسخر من أفعالكم البلهاء، وأضحك منكم
وأنتم تستمعون إلى كلماتي بدون تدبر، ليس هناك خدعة من الخدع التي
ابتكرتها لم استخدمها.

أما أنا فقد رأيت الإله الحق كثيرا في حياتي، عندما هبطت إلى أرضكم
الغراء، رأيته في إبداع كونكم الشاسع الذي ينم عن تصميم المبدع العظيم،
شاهدته في القمر المنير الذي أصبغ الألوان على الليل المهيمن، أبصرته في ضوء
الشمس الساطع على المياه الزرقاء، في السحب المتحركة، في طيور النورس
الصادحة، في روعة الورود الياقة، في الأنهار والمحيطات والجبال، في النبات
والحيوان والطيور والجماد، رأيته فيكم انتم معشر البشر.

شاهدته في خلقكم وفي نفوسكم، وفي عقولكم، أبصرته في كل هذا الجمال
الهيّج الذي خلقه من أجلكم، ورأيتم كذلك تجدون بكل تلك النعم وكل هذا
الجمال، فكنتم تنظرون إلى هذا الجمال من خلال الزجاج الملطخ بالأحوال بعد
أن أفسدت فطرتكم التي فطركم عليها الإله.....

الجميع يلعني ويسبني في العلن وهو صديق لي في السر، إنني أراكم كدخان
عظيم ارتفع في الهواء حتى ضاع في غياهب الفضاء، أوقعتم في براثن النيه،
وأسقطتكم في الشك والحيرة، ونزعت عنكم لباسكم فأريتكم سوءاتكم، وأديت
مهمتي على أكمل وجه.

كانت حجتكم أنكم لا تروني من حيث أراكم أنا، لكن منذ متى وأنتم تحتاجون لرؤية شيء حتى تؤمنوا بوجوده، فلديكم الكثير من الأشياء التي لا ترونها بأعينكم ومع ذلك تؤمنون بها أشد الإيمان، فهل رأى أحدكم الجاذبية، وهل رأى أحدكم العقل، وهل رأى الإلكترون، وهل رأى أحدكم الكهرباء؟.....

ألم يُخبركم علمكم بهذه الأشياء؟!..... علمكم الذي تتهمون فخرا به، وتمثلون به كبرا، ألقيتم عليّ اللوم في أفعالكم الخبيثة، برغم أنكم فعلتم أشياء لم يك يخطر ببالي ذات يوم أن أفعلها، وطرأت على عقولكم أفكار أنأى بها عن نفسي، وكان كيدي ضعيفا مقارنة بكيدكم أنتم، لقد ظننت أنني أحمل بداخلي الشر الكامل لكني وجدتمكم أكثر شرا مني، وللاإنصاف أقول لكم بأنني قد أعجبت بأفكاركم!.....

فما كنت أتخيل أن سليل التراب هذا سيصل إلى ما وصل إليه من شر، ولا أنكر بالتأكيد أنني زينت لكم طريقكم وفرشته بالورود وأنارته لتسيروا عليه حثيثا.

قلتم عني أنني رئيس لمنظمة عين الحياة، وأنا اعترف لكم: لست رئيسها، وأصحابها ما هم إلا مجموعة من حثالة البشر أرادوا أن يتحكموا في مصائر البشر أجمعين، ليس هذا فحسب بل رغبوا أن يرتقوا إلى مرتبة الإله، ابتغوا في منافسة الإله على عرشه، أقول لكم الآن وبكل صراحة أنني بريء منكم ومن أعمالكم التي عصفت بها الأقدار فأمست كرماد اشتدت به الرياح في يوم عاصف فما أبقت منها شيئا.

أما الآن ونحن على مشارف نهاية العالم، وقد تأخر عني ملك الموت الذي سيأتي لي قبض روحي، وقبل أن يحضر، أريد أن اعترف لكم بعد أن أنهيت مهمتي، إنه الوقت كما قلت لكم مسبقا الذي لا ينفع فيه الكذب، لقد خدعتكم معشر البشر وقضيت عمري في إغوائكم فجعلتكم تلهون وتلعبون وتتفاخرون بينكم بالأموال والأولاد، زينت لكم أعمالكم ورأيتمكم تتعلقون بكل أشياء الدنيا الفانية، وبرغم أنكم تعلمون أن كل تلك الأشياء تغدو وتروح، وأن كل شيء على وجه هذه الأرض يفقد قيمته ويبلى مع الزمن إلا أنكم ظلتم متعلقين بكل تلك الأشياء بشدة، لقد تعلقتم بالملكوت الزائل حتى إذا اطمأنت قلوبكم بكل ذلك أتت لحظة الموت وضاع كل ذلك هباء منثورا.

إنه الملك البالي الذي سحرتكم به، لكن قليلا منكم فقط هم الذين ظفروا بالملك الذي لا يبلى، قليلا فقط هم الذين عرفوا طريقه ووصلوا إليه، عرفوا

الإله وتحققت أمانهم بالقرب منه، وأنا لا أنكر أنني قد طرقت أبواب الجميع كي أثبت فقط لنفسي وللإله أنني أفضل منكم جميعا معشر البشر، فما تروني فاعلا وأنا أرى هيبتي وأنا سليل النار تضيع أمام كومة من التراب، كان الكبر يعتريني فأردت أن أثبت أنني الأفضل، لكنني كنت مخطئا وفي النهاية انتصر الطين على النار، لكن ومع أسفي الشديد علمت بعد معاشرتكم الطويلة أنكم قد فقمتم كل توقعاتي، فأرفع لكم القبة وأقول لكم أنتم أكثر شرا مني، وهذا لا يمنع وجود الخير فيكم، والخير أيضا قد فاق توقعاتي، ولقد أدركت أخيرا أن ما يميزكم عني هي تلك الميزة العظيمة، إنها تلك الثنائية فأنتم تملكون العقول وكذلك القلوب، تملكون الفكر وكذلك الشعور، تملكون الخير وكذلك الشر.

وقد علمت أيضا غايتي في الحياة وهدفي فيها.

إنني سطر في هذا الكتاب الضخم، كتاب الوجود، إنني الجزء الذي يمثل الشر فيه، فلا وجود لخير إذا لم يكن هناك وجود للشر، أنا جزء من هذه الثنائية التي أراد الإله لها أن تمثل كل ما في الكون، إنني ما أراد الإله لي أن أكون، وكل حياتي على هذه الأرض كانت طبقا لمشيئته وإرادته، حتى وإن بدا لي ولجميع البشر أنني عصيت الإله.

لقد عصيته بالفعل لكنني لم أنافسه مطلقا، وأنتم مازلتם تنظرون لي على أنني منافس له، ومن ذا الذي يقدر على منافسة العظيم؟!

إنني أحد مخلوقاته التي لا حصر لها فكيف لي أن أجرؤ على فعل هذا، ألا تتفكرون؟!

أما اليوم وبعد طول العمر في الإغواء سأذهب لأجلس على عرشي كي أستريح، لكنني أعلنها صراحة، أنني بريء منكم ومن لأعمالكم فأنا أخشى الإله العظيم.

وفي نهاية حديثي أشكر كل من ساعدني وقدم لي يد المعونة لإتمام مهمتي على أكمل وجه، وألقاكم غدا في مملكتي.

إمضاء المخلص

ديابلو

